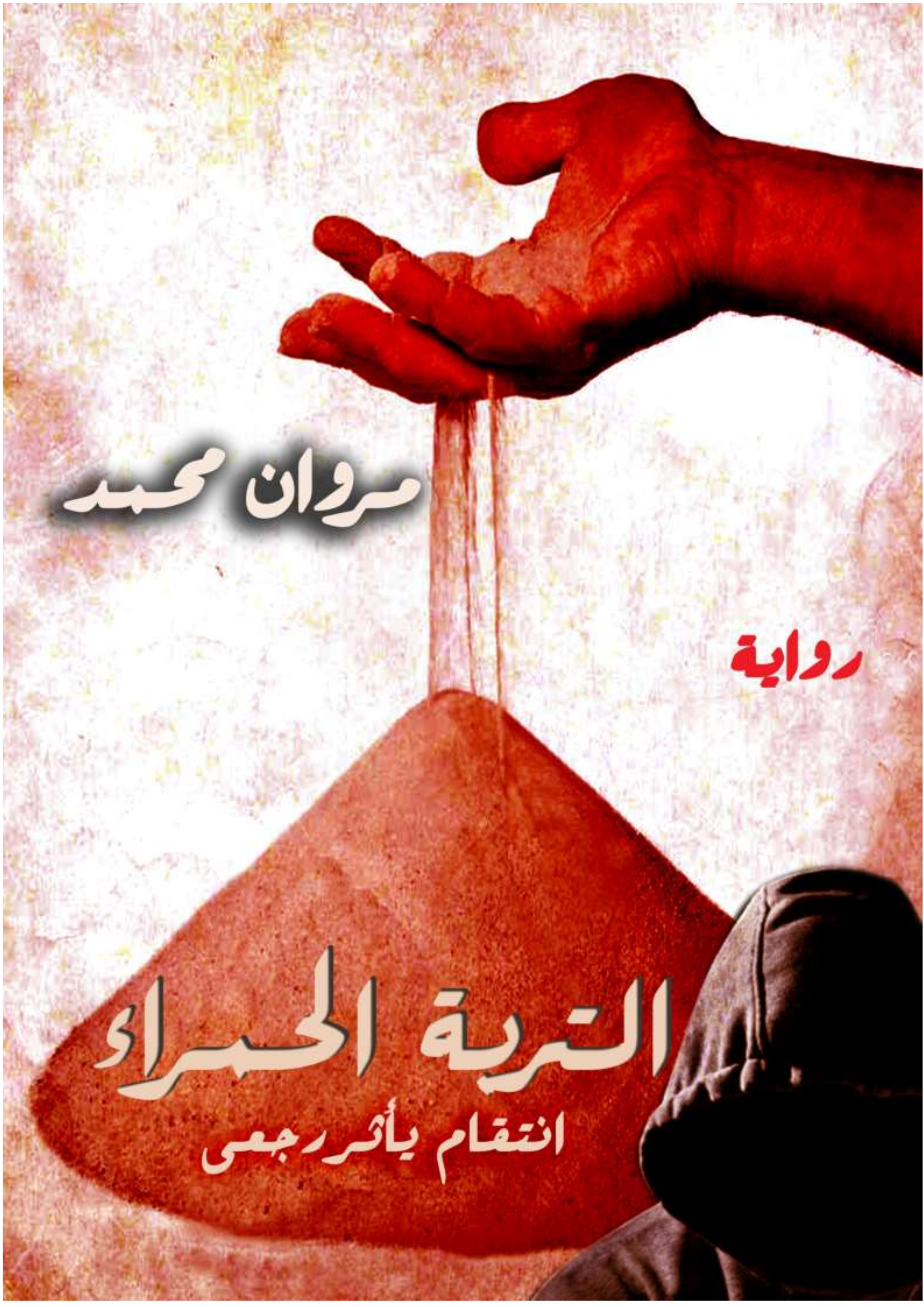

مروان محمد
رواية
التربة الحمراء
انتقام بأثر رجعى

دار حروف منثورة للنشر الإليكترونى

نوع العمل: رواية

اسم العمل: التربة الحمراء

اسم المؤلف: مروان محمد

الناشر: حروف منثورة للنشر الإليكترونى

الطبعة: الأولى إلكترونية ٢٠١٨

تصميم الغلاف : مروان محمد

مراجعة لغوية: ياسر فتحي السيد

تدقيق لغوى: لخضر بن الزهرة

رقم الإيداع: ٢٠١٩/٢١٩٩٧م

الترقيم الدولي: ٩٧٨/٩٧٧-٨٥٤٨٢-٩-٧



مؤسس الدار

مروان محمد

Website: https://horofpdf.wixsite.com/ebook

Fan page: http://facebook.com/herufmansoura

Email: herufmansoura٢٠١١@gmail.com

رواية

التربة الحمراء

مروان محمد

إهداء

* إلى أبي الذي علمني كيف أفكر خارج الصندوق، وكيف أسير دائمًا عكس التيار حتى لو كنت وحيدًا.

* إلى أمي التي علمتني حب القراءة، وأخذت بيدي إلى الصالونات الثقافية.

* إلى زوجتي التي عانت كثيرًا بسبب حبي للأدب والكتابة، وتحملت وحدها عبء الأسرة.

* إلى علي وفرح (أولادي) .. أتمنى أن أترك لهما شيئًا يشعرهما بالفخر يومًا.

* * *

شكر خاص للأستاذ الفاضل/ ياسر فتحي السيد

شكر خاص للكاتبة/ صفاء حسين العجماوي على ضبط العلمي الذي قدمته للرواية.

الفصل الأول

"لا يزول القضيب من يهوذا ولا القائد من فخذه حتى يأتي المُزْمَع أن يُرْسَل، وهو سيكون إنتظار الأمم"

(الآية: ١٠من العهد القديم / طبعة سنة ١٧٥٣ / مطبعة ملاك روتيلي)

(١)

توقفت سيارة (بوكس فورد) زرقاء عند ناصية زقاق في آخر شارع عرفان بحي محرم بك؛ وقد تجمهر سكان الزقاق حول (بوكس فورد) آخر، بينهم عدد من رجال الشرطة ..

غادر السيارة ضابط برتبة عقيد في منتصف الأربعينيات من العمر: عريض الكتفين، متوسط الطول، له كرش صغير يتناسب مع جسمه، قمحي البشرة، وله شارب كبير أصفر من المنتصف من كثرة التدخين .. إقترب من (البوكس فورد) الأخرى؛ فصافحَهُ نقيب من مباحث الجنايات في أواخر العشرينيات من العمر: طويل، جسمه رياضي، أبيض البشرة، يستخدم الكثير من (الجيل) لتلميع وتثبيت شعره الأسود، له حاجبان طويلان وعينان حيويتان ..

قال النقيب:

ـ كيف حالك يا باشا؟

ـ أين مأمور قسم محرم بك؟

ـ يقف هناك وسط الناس يا باشا.

وأشار أيمن برأسه إليه؛ والذي كان يتحدث إلى بعض سكان الشارع المتجمهرين حوله، ثم تحرك باتجاه مدخل البيت قائلًا:

ـ تفضل يا باشا.

ـ ما الأمر يا أيمن؟

ـ قَتْلٌ يا باشا! الحقيقة؛ طريقة قتل جديدة، وتشبه ما يحدث في الأفلام الأمريكية.

لم يعلق العقيد، بل اكتفى بِعَدِّ سلالم البيت المكسورة في كثير من درجاتها، تلك السلالم الضيقة ذات (الدرابزين) المُتآكل... شم رائحةً مكتومةً لا تنبعث إلا من الشقق الضيقة الفقيرة، ولكنه لم يكن معنيًّا بالرائحة بقدر ظُلمةِ السلالم... ثم سأل أيمن في ضيق:

ـ أين القتيل يا أيمن؟

ـ في الطابق الأخير يا باشا.

ـ ألم يكن أمام هذا القاتل الغبي من سبيل سوى قتله في الطابق الأخير؟!

تصنع النقيب الضحك على دعابة الباشا، ولكن الباشا لم يضحك، إنما قالها بقرفٍ حقيقي؛ فصَدرهُ يضيقُ عليهِ إذا استمر لفترة يصعد درجات السلم. كثرة السجائر التي يحرقها جعلت صدره في أبشع حالاته؛ خاصةً عندما تصيبه نوبة الكحة...

قال أيمن وهو يشير بيده للباشا أن يدخل أولًا من باب السطح الضيق:

ـ سيادتك... الباشا اللواء مدحت أرسل طبيبًا نفسيًّا؛ وصل إلى هنا منذ قليل.

توقف الباشا ثم قال:

ـ ولماذا يرسلون إخصائيَّ مجانين إلى هنا؟!

هزَّ أيمن كتفيهِ وهو يقول:

ـ الحقيقة أن جريمة القتل مبتكرة يا باشا، وسترى ذلك بنفسك.

لم تكن الإجابة التي ترضيه، بل هو أراد من النقيب أن يستنكر معه الأمر بالحماسة نفسها... تراجع النقيب إلى الخلف ليتحرك الباشا، ويدخل الشقة الوحيدة المبنية على سطح البيت...

اعتدل العسكري في وقفته عند رؤيته الضابطين، وأدى التحية العسكرية؛ فبادله أيمن بواحدة في حين تجاهله الباشا وهما في طريقهما إلى غرفة النوم الوحيدة...

قال أيمن بصوت منخفض:

ـ كان يدرس في لندن، وعاد إلى مصر منذ فترة وجيزة.

ـ هي المرة الأولى التي يستعينون فيها بأخصائي مجانين في عملنا! هل سنرتدي البيجامات أم ماذا؟

ضحك أيمن وعقب:

ـ كلا يا باشا؛ ليس كما تتصور... هذا واسطة اللواء مدحت، وهو يحتاج في رسالته لأن يستشهد بجرائم قتل من الواقع المصري. وتدور رسالة الدكتوراه حول طبيعة الجرائم المصرية وتطورها في العقود الأخيرة، ويُقَال إنه قريب للواء مدحت، ابن شقيقة زوجة اللواء... شيء من هذا القبيل!

لزم الباشا الصمت محركًا أنفهُ الطويل في ضيق، ودخل الغرفة بعد أن تراجعِ النقيب مرةً ثالثةً؛ فوجد شابًّا نحيلًا متوسط القامة، قَمحيَّ البشرة، شَعرهُ غزيرٌ ناعم، شديد السواد وله أنفٌ صغيرة تتناسب مع رأسه وشفتان داكنتا اللون، عيناهُ ثاقِبتان جادَّتان... التفت إليه الشاب مبتسمًا، ومَدَّ يده إلى الباشا الذي صافحه بغير اكتراث، ونظر إلى جثة القتيل...

ما وجده في وضعية القتيل يستحق الاستغراب، وتذكره بأفلام القتل الأمريكية السخيفة؛ فالجثة تجلس على مقعد خشبي قديم منزوعةَ الرأسِ... فَراحَ يتَطلعِ إلى أوردة القتيل التي تظهر من رقبته والدماء المتجلطة حولها وحول الرقبة نفسها، ورأسه ملقاةٌ على مكتب متهالك أمام الجثة... بين الجثة والرأس مقصلة خشبية صغيرة الحجم موضوعة على المكتب، فَهمَسَ أيمن:

ـ ألم أقل لك يا باشا؟!

حاول أيمن أن يستطلع من ملامحه ما يدل على الدهشة أو الإستياء؛ لكنه وجدها جامدةً، فضايقهُ ذلك.

ضحك الباشا قائلًا:

ـ ابن الكلب، يبدو أنه كان يحب هذه الجثة كثيرًا!

تدخل الشاب النحيل قائلًا:

ـ القاتل عذَّبَهُ قبل أن يقتله.

نظر إليه الباشا مَليًّا كأنه يَلْحَظُ وجوده للمرة الأولى ثم سأله:

ـ كيف ذلك؟

اقترب الشاب من الجثة، وأشار بسبابتهِ اليُمنى إلى فتحة مستديرة يمين المقصلة الخشبية صغيرة الحجم، وقال:

ـ لو ألقيت ـسيادتكـ نظرةً على تلك الفتحتين الدائريتين؛ ستدرك أن القاتل صنعهما ليضع فيهما يدي القتيل.

أدخل يده في الفتحة وأخرجها كأنه لا يثق في أنه استوعب ما يقوله... تثاءبَ الباشا وهو يثبت عينيه عليه، ثم نظر إلى مِعصَمي القتيل المتدليين إلى جانبيه قائلًا:

ـ لا يبدو أن هناك قيدًا ما حول معصمي القتيل ليكون مجبرًا على إدخال يديه في الفتحتين!

مالَ الشاب نحو الدائرة الموجودة في المقصلة الخشبية مشيرًا بأصبعه مرةً أخرى، وقال:

ـ انظر ـسيادتكـ لهذا السلك الخارج من الثقب في جانب الدائرة من الداخل.

مالَ الباشا يتطلع إلى ما يشير إليه الشاب، ولم يتمكن من الرؤية جيدًا لأن الغرفة كانت مظلمةً، ولكنه تراجع برأسه للخلف عندما أضاءَ له الشاب كشّاف الهاتف الجوال؛ فنظر نحوه قليلًا، ثم أعاد النظر إلى السلك، وانتصب واقفًا مرةً أخرى متسائلًا:

ـ ثم؟!

الحماس الذي بدا واضحًا على وجه الشاب أشعَرَ الباشا بمزيد من الملل، ولكنه ظل يُنصِت إليه وهو يقول بحماس زائد محركًا يديه:

ـ تخيل معي سيادتك.

استيقظ فجأةً غير عابئٍ بأن يتذكر آخر ما حدث له، ولكنه عبَأ بوضعه الحالي. السؤال الغبي الذي يعتري كل من يستيقظ فجأةً في مكان غريب: أين هو؟ سؤال مهم ولكنه لم يكن في الوقت المناسب أبدًا...

أول شيء بادر بتحريكهِ مِعصَماهُ، ولكنه التوقف الغريزي المفاجئ عندما لمحت عيناه الجاحِظتان – وهما تتحركان في حدودٍ ضيقة– ورقةً مكتوب عليها بخط رديء: "لا تحرك يديك حتى لا تموت"...

كيف لم يلحظها من قبل؟ سؤالٌ خاطفٌ مَرَّ بمخيلته!!

التقط الشاب الورقة من جانب الرأس المفصولة الملطخة بالدماء، وقربها إلى الباشا الذي قرأ الجملة من خلال بقع الدماء التي تتناثر على الورقة، وعلق أيمن:

– ابن الكلب... مجنون حقًّا.

ابتدأ عقله شيئًا فشيئًا يُلِمُّ بالأمور من حوله. لم يكن يعنيه أن يجيب على السؤال الأول الذي داهم رأسه فور استيقاظه المفاجئ، فعشراتُ الهواجس بدأت تأكل عقله، إحداها: ما الذي يحدث بالضبط؟!

أدارَ عَينيهِ فيما حَولهُ قدر المُستطاع؛ فبدأ يتبين تفاصيل المكان في حدود حركة عينيه الضيقة. وبحركة غريزية حاول أن يحرك رأسه، ولكنه وجده محبوسًا داخل شيء ما...

عندما حل عقله هذه الفرضية الأولى بدأ يستشعر خشونة ذلك الشيء المحيط برقبته... أدار عينيه بصعوبة يسارًا فلَمَحَ في حدود المشهد الذي أتاحته عيناه ذلك القفل الذي قفل شيئًا ما طوَّق عُنقهُ كالكلب.

مرةً أخرى حاول أن يعرف أكثر؛ فلمح لأول مرة مرآةً موضوعةً أمامه على سطح المكتب. كيف لم يلحظ كل هذا؟ حاول أن يرفع عينيه -قدر المستطاع- لأعلى فأحسَّ بألمٍ شديد فيهما، ولكنه فضول المعرفة... كانت الصدمة شديدةً... عجز عن الصراخ... لم يكن يتخيل ذلك!

كان رأسه يخرج من لوحٍ خشبي سَميك مقفول عليها بذراع خشبي، ومثبت إلى اللوح الخشبي قفل صيني كبير الحجم، ويداهُ تخرُجان من فتحتين مستديرتين في ذلك اللوح الخشبي المثبت إلى المكتب، وأعلى الطَّوق الخشبي الغريب الذي يحبس رأسه مجرى خشبي؛ يستقر في أعلاه نصلٌ حديديٌ يلمعُ بشدة، وفي طرَفي نِهايتهِ سِلكان مشدودان إلى مكان يستقر فوق الدائرتين اللتين تخرجان منهما يداه... سؤال جديد ضرب رأسه: ما هذا بالضبط؟!

أمسك الشاب بالنَّصل الحديدي، وأشار إلى ثقل حديدي مثبت بأعلاه، فعقَّبَ شارحًا ذلك:

- قام السفاح بعمل ثقل حديدي فوق النصل حتى يستطيع أن يقطع عظام وعضلات رقبته.

تساقط العرق من جبهته مرورًا بحاجبيهِ، ومنه إتخذ خطًّا على أنفه... للمرة الثانية؛ كيف لم يلحظ أن كف يده اليمنى موضوعٌ على

سطحٍ حديدي لمكواة؟ تتبع سلك المكواة حتى توصل إلى أنها موصلة بالكهرباء، ولكنه لا يشعر بسخونة في يده...

فكر في جُزءٍ من الثانية أن يحرك يده بعيدًا كَردٍّ فعلٍ غريزي، ولكن كان هناك سبب أكبر للتوقف: الورقة التي تحذره من مغبَّةِ تحريك يديه، يدُه اليسرى كما شاهد في المرآة؛ تستقر فوق زر مكبر الصوت الموجود بالهاتف الأرضي...

للمرة الثانية ضرب رأسه نفس السؤال السخيف: كيف لم يلحظ كل هذا؟ لماذا لا ترى عيناه كل هذا إلا بالتجزئة، ولا تراه دفعةً واحدةً؟!

رن جرس الهاتف... انتفض، ولكنه حاول ألا يحرك يديه... إستطاع أن يدرك أن هناك رابطًا بين نصل المقصلة الغريب وبين تحريك معصميه. ضغط على زر مكبر الصوت، وانتفض فزعًا مرة أخرى؛ فالموقف موقفُ فزَعٍ وخَوف.

ـ كيف حالك يا شيخ؟

سخيفٌ فعلًا أن يكون هذا ما ينتظره، ولكنها غريزة البقاء...

ـ أنقذني، أنا محتجز.

ـ اسمعني جيدًا يا شيخ لأن الوقت يمر بسرعة.

أصغى الشيخ جيدًا، كان على إستعدادٍ لفعل أي شيء، وكان من الممكن أن تطمئنه أي كلمة، ولو بدت في غير محلها.

قال صاحب الصوت:

ـ أعصابك الآن في حالة خدر، خاصةً ذراعُك الأيمن، لذلك تشعر فيهما بثقل وتَنْميل.

كيف لم يشعر بهذا؟ كيف لم يشعر بخدر وتنميل في أطرافه؟ لماذا لا يعمل عقله بطريقة طبيعية؟ لماذا تجاهل الكثير من الأشياء؟ ولكنه أوقف عقله عن دفع هذه الأفكار لأنه سخر نفسه كليًّا؛ وليس أذنيه فقط لسماع الصوت الذي راح يكمل:

ـ وبعد دقيقة من الآن، سيزول تأثير المخدر.

ـ من أنت؟

كالعادة لا ينفك العقل أن يطرح مثل تلك الأسئلة التي تبدو هامةً، ولكنها تأتي في غير محلها دائمًا، إن عقله بدأ يدخل في مرحلة اضطراب شديدة، ولم يعد يستطيع أن يسيطر عليه.

ـ ليس المهم من أنا يا شيخ، الأهم كيف ستخرج من هذه الورطة.

بدأ التنميل والخدر يزولان شيئًا فشيئًا من أطرافه، والشعور بأنه استعاد قدرته على تحريك أطرافه دفع إليه شعورًا بالأمل...

الصوت يستمر:

ـ انظر جيدًا على ظهر المكواة في المرآة.

الفضول... الفضولُ القاتِل... نظر بعينيه الجاحِظَتين إلى المرآة... لمبة المكواة مضيئة... مضيئة! لم يعلم كم من المرات التي صرخ عقله بهذه الكلمة: مضيئة! يعني أنها تعمل، كيف لا يشعر بسخونتها؟

أتَتْهُ الإجابة فورًا... ألمٌ صارِخ انفجر في كَف يده اليمنى بعد أن زال تأثير المخدر، ولكنها؛ الغريزة التي تتدخل على الرغم من إرادته، فكر لجزء من الثانية أن يحرك يده اليمنى، ولكن مرةً أخرى المفاضلة بين ألم كفه وبين بقائه على قيد الحياة جعلت يده تتجمد مكانها. أنفه بدأ في استقبال رائحة جلد يحترق، جلد كفه الأيمن...

صرخ الشيخ وقد احمَّر وجهه:

ـ قل لي ماذا أفعل، المكواة تحرق يدي!

ـ المكواة ـيا شيخـ حرقت جلدك منذ فترة وفحمت لحمك، وهي الآن تحرق عظم يدك.

الشيخ لم يكن يحس بأن كفَّهُ الأيمن هو الذي يحترق فقط ولكن كل أنحاء جسده تحترق، فحاول أن ُينفِّس عن بعض هذا الإحتراق في صراخ مُتصل، ولكن كل ذلك لم يشفع له في تخفيف آلامه...

عاد الصوت مرةً أخرى:

ـ آلامه كلها لمن كانت؟

الآلام لم تسمح له بالتركيز في أي شيء، وعجزه عن تحريك كفه حتى لا يقطع النصل عنقه زاده غضبًا وخوفًا وألمًا وإضطرابًا شديدًا... الصوت راح يصرخ:

ـ لماذا تتنكرون لتضحيته العظيمة؟

ـ أتنكر لمن؟ ومن الذي ضحى؟!

ـ لقد دفع حياته ثمنًا لكم، وماذا كان جزاؤه؟

آلام الشيخ جعلته يفقد كل اتزانٍ لديه، والأمر لا يحتمل جنون شخص آخر. الدموع التي إنهمرت بغزارةٍ من عينيه أفقدته الوعي والتركيز. الدوار شديد وعاصف برأسه والحرارة مرتفعة في كل جسده، ودقات قلبه متسارعة بجنون حتى توهم أن قلبه على وشك تمزيق صدره من قوة وتسارع الضربات. أصبح يصرخ بكلمات لا يَعيها، وكل عضو في جسده أصبح خارجًا عن سيطرته؛ يتصرف بجنون على غير مشيئته:

ـ عمن تتكلم؟!

صُراخهُ كان يتعالى مع صراخ صاحب الصوت الذي يتهمه بالقتل... أي قتل؟! قتل! لم يقتل أحدًا! من يوقف عذابه؟ من يطفئ هذه المكواة اللعينة؟ هل هذا كابوس؟!

فجأةً؛ اكتشف أن معصميه غير مقيدين...

مرة أخرى، العقل الذي يعمل بالتجزئة...

يستشعر ذلك السلك الذي يلف معصميه، الآن، يفهم بشكل واضح الرابط بين السلكين والنصل الحديدي، هل يحرك يديه خارج فتحتي اللوح الخشبي؟!... يجب أن يُنهي هذا الكابوس...لابد وإنه كابوس...

مجرد كابوس وسيستيقظ!

انفلت السِّلكان المُمسكان لطرفي النَّصل الحديدي، فهوى بسرعة جاريًا في مجراه؛ ليخترق الطوق الخشبي، ثم يخترق عظام وعضلات الرقبة، فَعَلَا صوت تهشُّم العظام، ونافورة دم انفجرت من الرقبة... إنتفض الجسد بشدة في مكانه على المقعد، وتزايد جنون تدفق الدماء من الرقبة المقطوعة، وأغرق الأرض والمقصلة والكرسي... المكتب... وكل ما طالَهُ، واستقرت الرأس بجوار المرآةِ، وتدفقت الدماء المُحتبسة فيها على سطح المكتب...

الكابوس انتهى بالفعل... انتهى إلى الأبد.

نظر الشاب إلى الباشا الذي تطلع إليه صامتًا بضع لحظات، ثم نفخ ونظر من حوله لجو هذه الغرفة الخانق، ثم خرج إلى سطح البيت يتبعه النقيب والشاب... إلتفت النقيب إلى الشاب قائلًا:

ـ أطلِع الباشا يا أستاذ فارس على الورقة التي استخرجتها من فم القتيل، والتي كتبها القاتل.

تسمَّر فارس للحظاتٍ في مكانه وكأنه لا يدري عن أي ورقة يتحدث النقيب، ثم رفع إصبعه الأيمن يهمس:

ـ آه؛ لحظةً واحدةً.

تركهما عائدًا إلى الداخل، فهَمْهَمَ الباشا دون إنفعال:

ـ خياله واسع، يبدو أنه يشاهد الكثير من أفلام الرعب.

إبتسم النقيب ولم يعلق، وانتظرا فارس الذي عاد رافعًا بيده اليمنى ورقةً صغيرةً مكتوباً عليها أرقام كثيرة بلون أزرق. الأرقام لا تبدو واضحةً تمامًا نتيجةً لأنها كُتِبت على عجل... تناولها الباشا من فارس؛ الذي أضاف كأستاذ أكاديمي:

ـ القاتل زار القتيل بعد قتله.

لم يولِه الباشا اهتمامًا وهو يتطلع إلى الورقة مقوس الحاجبين، وأعادها لفارس قائلًا في ملل:

ـ ابن الكلب هذا يكتب لنا شفرةً!

نظر فارس إلى الورقة قليلًا، ثم قال وكأنه يعاينها لأول مرة:

ـ لا أستطيع تحديد إذا ما كانت هذه شفرةً فعلًا أم لا، أو أنه يقصد شيئًا آخر غير الشفرات، هل هي مثلًا رسالة يحاول أن يرسلها لنا؟ أو يستهدف بها أشخاصًا معينين؟

بدأ الباشا يتفاعل معه لأول مرة بشكل جدي معقبًا:

ـ تقصد أشخاصًا آخرين ينوي قتلهم؟!

هز فارس رأسه موافقًا دون أي إضافة...

تحرك الباشا عائدًا إلى السلالم، فتبعه النقيب وفارس؛ والباشا يقول:

ـ عامةً؛ حاول أن تعرف ماذا يقصد هذا القاتل الغبي بهذه الأرقام البلهاء، وأبلغني بالأمر في أسرع وقت، ولا أريد أي تأخير بشأن هذا الأمر.

فارس كشاب أكاديمي لم يعتد أن تُوَجه له أوامر بهذه الصيغة الاستعلائية، ولكنه تجاوز عن لهجة الباشا ليشبع فضوله الأكاديمي حيال هذه الأرقام الغريبة، فهو يرى أن نوع الجريمة يبدو غريبًا وجديدًا على المجتمع المصري.

أول ما لاحظه فارس بصدد هذه الورقة أنها تمتلئ بأرقام عشوائية كثيرة؛ لا تدل على كونها حسابًا بنكيًّا لأنها طويلة بشكل مبالغ فيه، ولا تحمل أي إشارة واضحة. حفظ الورقة في جيب بنطاله، ونزل على

الدرجات الضيقة بحذر في تلك الظلمة، وعندما وصلوا إلى مدخل العمارة قال الباشا للنقيب دون أن يلتفت إليه:

ـ أنهِ هذا المحضر مع الغبي مأمور القسم، ثم الحق بي في المكتب، ولا تدع أي صحفي كلب يكتب أي شيء عن هذا الأمر حتى ينتهي.

توقف أمام (البوكس) والتفت إلى أيمن مشددًا على كلامه:

ـ ولا تنسى أن تذكر هذا الحيوان الذي يكتب عن الحوادث أن يكتب اسمي بخط عريض المرة القادمة، وليس مثل المرة السابقة كتب اسمي في مربع صغير حقير؛ حتى لا أجعله يندم على اليوم الذي ولدته فيه أمه...
وذكِّره أيضًا أنه الوحيد المسموح له بالانفرادات الصحفية، وإلا سأعلقه من قدميه عندي في المكتب.

كان النقيب يومئ برأسه مع كل أمر وقد ضاق صدره متمنيًا أن يختفي الباشا من أمام عينيه حتى يجيب على الهاتف الجوال المجنون الذي لا يكف عن الاهتزاز في جيبه. ركب الباشا إلى جانب السائق موجهًا أمرًا أخيرًا لأيمن:

ـ تابع مع هذا الإخصائي الحمار تلك الورقة المشفرة.

ـ تمام يا باشا.

التفت الباشا إلى السائق قائلًا في قرف:

ـ تحرك يا حيوان!

تطلع النقيب للبوكس وهي تغادر ساحة الجريمة، ثم استدار إلى فارس الذي بدا مشغولًا بالورقة التي في يده؛ وقد تراصت فيها أرقام غير مفهومة. قلب الورقة بين يديه ثم أطلق نفخة يأس وهو يهز رأسه دلالة الخضوع والإحباط. اقترب منه النقيب واضعًا يده اليمنى على كتفه وقال في صوت ودي:

ـ فارس؛ خُذْ وقتك في فكِّ هذه الشفرة الغريبة، وعندما تصل إلى نتيجة مر بي في المكتب.

تحرك النقيب تاركًا إياه، ولكنه توقف واستدار لفارس مضيفًا بابتسامة صفراء:

ـ ولكن كُن على حذر، لا تجعل الأمر يستغرق وقتًا طويلًا، فالعقيد صبره قليل ولسانه طويل وأنت رجل محترم!

نظر إليه فارس باستنكار ولم يرد، فتركه أيمن متجهًا إلى المأمور ويده تمتد إلى جيب بنطاله يخرج هاتفه الجوال. تحرك فارس نحو سيارته (الفيات ١٢٨) الحمراء ونظر إليها مُتأفِّفًا...

ركب سيارته وتحرك بها وهي تصدر صخبًا عاليًا وعقله يحاول أن يطرح جانبًا صورة الجثة المُفزعة، والغريب في الأمر؛ أنه رغم

وحشيته إلى أقصى حد إلا أنه دفع إليه فضولًا مُدهشًا لِلقاء ذلك السفاح الابتكاري!

*** * ***

(٢)

عندما دخل فارس إلى شقته لم يكن يشغل باله شيء إلا تلك الأرقام العشوائية التي لم تكن تعني له أي شيء سوى الغرابة الشديدة، وعلى الرغم من شعوره بالتعب الشديد إلا أنه جلس على كرسيهِ الهزَّاز المُجاور لمَكتبته التي تمتلئ بالعديد من الكتب في علم النفس بالإنجليزية والعربية، بالإضافة إلى رفوف أخرى تتناثر عليها في غير ترتيب أسطوانات مدمجة وشرائط كاسيت، ويتوسط التليفزيون الـ (LCD) تلك المكتبة التي تحتل أحد أركان صالة المعيشة، وعلى المكتب الصغير الملحق بالمكتبة حاسبه المحمول وأشياء أخرى...

أراحَ ظهره على مقعده الجلدي... وأكثر ما يحبه في كرسيه هو بطانته المنتفخة التي تدفع إليه شعورًا رائعًا بالاسترخاء...

أخرج الورقة المطوية من جيب بِنطاله ليتطلع إليها مرةً أخرى، ثم أمسك بقلم وأخذ يخُط بعض الأرقام من تلك الورقة إلى ورقةٍ أخرى بيضاء؛ يحاول أن يؤلف منها أي شيء مفهوم، ولكنه يَئِسَ في الوصول إلى نتيجة منطقية تجمع كل تلك الأرقام مع بعضها؛ فألقى

القلم في ضيق... يُغضِبُه كثيرًا أن يعجز عن حل أي لغز من الألغاز التي تصادفه.

نهض من كرسيه متجهًا إلى المطبخ ليُعد فنجان قهوة تركي. القهوة بدأت تفور؛ فرفع الكنَكة عن نار البوتاجاز وهو يتأمل (وش) القهوة الجميل الذي تكوَّر على سطحها، وصبَّها بمهارة في فنجانه الأبيض. في طريقه للخروج فتح باب الثلاجة ليتناول أي قطعة خبز يلوكها مع فنجان القهوة؛ خصوصًا وقد بدأت معدته تُكَركِر، وكأنها تشم رائحة القهوة!

رشَف رشفةً من فنجان القهوة وأمسك بالورقة مرةً أخرى يتأملها في حيرة، فمن خلال تلك الأرقام العشوائية استطاع أن يستنبط مثلًا أن تاريخ ميلاده مذكور فيه، وعدة أحداث تاريخية هامة مثل نكسة ٦٧، والغزو الأمريكي لأفغانستان في عام ٢٠٠١، ولكنه لا يستطيع أن يستقرئ من كل ما تدافع إلى مخيلته ما يمكن اعتباره دافعًا حقيقيًا ليرتكب السفاح جريمته...

ولكن النتيجة المؤكدة التي خرج بها أن هذه الأرقام تحمل الكثير من التواريخ التي تشير إلى أحداث تاريخية هامة، ولكنه لا يستطيع أن يربط أيًّا منها بالسَّفاح لأنه لا رابط بين هذه الأحداث التاريخية بأي شكل من الأشكال...

عقلهُ كان كمِرجَلٍ يغلي، ولكنه في النهاية يغلي دون نتيجة حقيقية من الممكن أن تسكن الصداع النصفي الذي بدأ يضرب مؤخرة رأسه، وهي إحدى الأعراض السيئة التي صاحبته عندما يعجز عن حل أي لغز ويعتبرها ضريبةً طبيعيةً لعمله!

أخيرًا؛ ألقى الورقة على المكتب وأخذ يرتشف من فنجان القهوة، ويفكر في اللاشيء حتى قفزت إلى ذهنه فكرة تبدو معقولةً إلى حد ما؛ فهناك صديق قديم يشاركه حب الألغاز والشفرات المختلفة، وكان يستعين برأيه في الكثير من الحالات المرضية النفسية التي تتوافد عليه على الرغم من بعد تخصص هذا الشخص عن لعبة الأحاجي والألغاز وعلم النفس!

أخرج فارس من جيب بِنطاله هاتفه الجوال وبحث في الأسماء حتى عثر على اسم معاذ، وضغط زر الاتصال حتى أتاهُ رنين الهاتف الآخر، وبعد الرنَّة الخامسة ردَّ معاذ بصوته الرَّخيم الهادئ جدًّا والضحوك في نفس الوقت:

ـ أخيرًا اتصلت؟! متى عُدتَ من لندن؟

ابتسم فارس وهو يرد:

ـ قل السلام عليكم أولًا.

ـ وعليكم السلام يا سيدي، متى عدت من لندن؟

ـ منذ أسبوعين.

ـ ألم تعدني أنك ستتصل بي فور عودتك؟ أم أنك نذل؟!

ـ أعتذر لك يا دكتور، ولكنها الظروف.

على الرغم من كره معاذ للألقاب إلا أن فارس يُصِرُّ على أن يسبق اسم معاذ بلقب دكتور.

ـ حسنًا أيها المؤدَّب يا حافظ الألقاب وحاميها.

تبسَّم فارس للمرة الثانية لأنه يتوقع منه هذا التعليق الساخر، فأكمل فارس:

ـ أريدُك في موضوع هام للغاية يا دكتور معاذ.

ـ عجيب أمرك! لا تتصل بي إلا إذا كان الأمر ينطوي على خدمة أُسديها إليك.

ـ والله أبدًا يا دكتور؛ ولكن فعليًّا الموضوع مهم وسري أيضًا.

الصمتُ الذي يفرضه معاذ كل مرة عَقِبَ أي استعانة لفارس به كأنه يُحِب كهربة الموقف، وإضفاء صبغة الرَّهبة عليه والأهمية المُفتعلة؛ فقال بهدوء:

ـ حالة مَرَضية ثانية فشلت معها؟!

ـ كلا.

ـ إذن؛ هو لغز من الألغاز؟!

ـ صحيح.

ـ رائع جدًّا، أجعل عقلي يعمل قليلًا، فلم يعد يميزني الآن سواه بعد أن فقدت أهم ما يميزني كرجل!

كان فارس يشعر بالغرابة حقًّا من أسلوب معاذ الذي يعطي انطباعًا لمن يسمعه بأنه من غير الممكن أن يكون أستاذًا جامعيًّا، وقد تصل إلى الحد أن يظن البعض بأنه حتى لم يتم تعليمه الأساسي، وهذا ضمن أشياء كثيرة يختلفان فيها مع بعضهما البعض، ولكنه تجاوز ذلك والدكتور يقول:

ـ ألقي إليَّ بالخبر السعيد، أخشى أن عقلي طالَهُ الصَّدَأ من كثرة الجُمود.

ضَحِك فارس ضحكةً مجاملةً، وليضفي مزيدًا من الحماس على جو الحوار السائد قال بصوت جاد جدًّا:

ـ الأمر لا يمكن أن يتم عبر الهاتف يا دكتور، اللغز عبارة عن أرقام كثيرة وعشوائية.

ـ جيد جدًّا، إذن أرسل لي هذه اللعبة المُسلية على بريدي الالكتروني.

سكت قليلًا، ثم قال بحماس استطاع فارس أن يزرعه فيه وقد كان واثقًا من ذلك:

ـ هل تتذكره أم نسيته؟

ـ محفوظ لدي يا دكتور.

ـ إذن؛ أسرع، لقد بدأت أهتاج!

استنكر فارس كلمة "أهتاج" جدًّا، وكأنه يحدثه عن موضوع جنسي شهواني، ولكنه كالعادة يتجاوز عن لهجة معاذ المفاجئة في كثير من الأحيان وقال في هدوء:

ـ الآن يا دكتور.

ـ إذن؛ مع السلامة.

ـ مع السلامة يا دكتور.

أنهى الاتصال وشرع في تشغيل حاسبه المحمول وما هي إلا ثوان معدودة حتى فتح بريده الالكتروني وكتب الأرقام بسرعة ثم ضغط زر الإرسال، وجلس ينتظر مغمضًا عينيه يحاول أن يسترخي وقد تسلل التعب إلى كل أعضاء جسده، وخاصةً فقرات عنقه التي تؤلمه جدًّا، وكان على ثقة أن الدكتور سَيعثُر على الحل ولو طال الوقت بعض الشيء.

* * *

(٣)

التقط العقيد إحدى سجائر المالبورو الأحمر وظل يتأملها بدون هدف حتى أَتَتْهُ دقات مؤدبة على باب غرفته، فتطلع إلى الباب لثانيتين ثم قال:

ـ نعم.

دخل النقيب يتصنع الأدب وهو يقترب من المكتب ويقول في صوت خفيض:

ـ مساء الخير يا باشا.

ـ خير.

ـ خير إن شاء الله يا باشا.

ـ اجلس يا أحمق.

النقيب أحد الشخصيات التي تكره العقيد كثيرًا لبذاءتهِ البالغة، ولكنه مجبٌر على أن يبتلعِ إهانته التي أصبحت عادةً أصيلةً لديه وجلس مُكملًا:

ـ القتيل يا باشا من البحيرة.

ـ ليس من سُكان محرَّم بِك؟!

بدا النقيب سعيدًا لأنه استطاع أن يخالف بالمعلومات التي لديه توقعات الباشا التي يراها ساذجةً، فاسترسل في حماس:

ـ نعم؛ يا باشا، هو من البحيرة، وكل أربعاء من كل أسبوع يعطي درسًا ما بين المغرب والعشاء في مسجد الفردوس بمحرم بك؛ أحد مساجد السلف يا باشا.

سكت الباشا قليلًا وانشغل بإشعال سيجارته وقد زال عن وجهه استغرابه، فاغتاظ النقيب لذلك، ثم رفع الباشا عينيه معقبًا:

ـ هذا يعني، أن من قام باستدراجه لهذه الحجرة كان أحد الحاضرين لدروسه الأسبوعية.

ـ بالتأكيد يا باشا.

ـ وهذا الشخص لا بد أن يكون من سكان محرم بك حتى يستدرجه أمام سكان المنطقة ولا يرتابون عندما يصعد به إحدى البيوت.

ـ أحسنت يا باشا.

رمقه العقيد بنظرة جانبية مستهجنة، فهو يعلم أن النقيب يُنافِقه وأن تحليلاته عادية وليست ابتكاريةً ليهلل على هذا النحو، ولكنه تعود نِفاقه ولم يعد يُلقي لهُ بالًا، وأكمل بعد أن سحب نفسًا طويلًا من سيجارته وذلك الدخان يتسرب إلى رِئَتيهِ بِقوَّة ثم إلى صدره؛ فيُضفي عليه إحساسًا كليًّا باحتراق صدره فيتلذذ بذلك:

ـ إذن؛ عليك أن تتأكد أن مأمور قسم محرم بك سيقوم باستجواب قاطني البناية التي قتل فيها ذلك الشيخ، وعلى المأمور أن يسارع

بالقبض على المتهم هذا إن لم يكن هرب بالفعل، ولو هرب المتهم فعليه بأبيه أو أخيه أو كليهما، (كارت) إرهاب حتى يدليا باعترافهما حول مكان المتهم، وأيضًا أن تقوم بالتعاون مع مأمور القسم باستجواب من يحضرون درس القتيل؛ كلهم بلا استثناء.

ـ تمام يا باشا.

نهض النقيب من مقعده ولم يغادر المكتب، بل تسمر في مكانه وبدا مترددًا بعض الشيء، فلوَّح العقيد بيده اليمنى المُمسِكة بالسيجارة وهو يقول:

ـ ماذا هناك؟ تكلم.

ـ الحقيقة ـسعادتكـ إن عدد من يحضرون الدرس للقتيل كبير، ومن الصعب جمعهم كلهم مرةً واحدةً.

ـ هل معهم أخوك يا أحمق؟!

ـ كلا يا باشا.

ـ إذن؛ نفذ.

أدى النقيب التحية وكالعادة لم يبادله العقيد التحية؛ بل انشغل بمراقبة سيجارته المتوهجة... وغادر النقيب المكتب في حين أن رأس العقيد أخذت تمتلئ بمشاكله مع سحر التي انتهت بطلاقه.

* * *

(٤)

تنبه فارس إلى صوت رنين هاتفه الجوال، فالتقطه وألقى نظرةً، ورفع حاجبيه دهشةً، وبعد الرنة الثالثة رد على المتصل:

ـ دكتور معاذ، هكذا سريعًا؟!

ـ هل تفاجأت؟

ـ دائمًا ما تعرف كيف تفاجئني.

ـ أخبرني، عندما طالعت هذه الأرقام، بماذا أوحت إليك؟

شعر فارس بالإحراج فهو يعلم مسبقًا أنه سؤال خبيث؛ الغرض منه السخرية ليس إلا، ولكنه على الرغم من ذلك أجاب:

ـ الحقيقة؛ استخرجت منها عدة تواريخ لحوادث تاريخية هامة لا تربطها صِلَة، وأيضًا تاريخ ميلادي، حتى أنني وجدتُ رقم هاتفي الجوال مكتوبًا!

ضحكة الدكتور المجلجلة اخترقت أذن فارس فزفر في ضيق، وانتظر أن يعلق الدكتور الذي تدفق حماس شديد إلى صوته:

ـ الأمر أبسط من ذلك بكثير.

ـ كيف يا دكتور؟

ـ ماذا تعرف عن حساب الجُمَل؟

ـ حساب الجُمَل؟!

ـ يبدو أنك صفحة بيضاء لم تُلَوَّث بمعلومة واحدة!

بدأ صبر فارس ينفذ فهو يعلم أن الدكتور قبل أن يدفع إليه بحل أي لغز يشركه فيه لا ينفك أن يمارس عليه دور الأكاديمي، وهو يعتبره أكاديميًّا مستفزًا؛ لأنه يحب ـدائمًاـ استعراض ما لديه من بنك معلومات ضخم يحتفظ به عقله، وأردف الدكتور في جدية:

ـ العرب منذ الجاهلية حتى صَدْر العصر العباسي استخدموا حساب الجُمَل، وأكثر شيء استخدموا فيه حساب الجُمَل تدوين تواريخ الأحداث.

فارس كالعادة لا ينفك يشعر بالانبهار ببنك معلومات الدكتور وتساءل في استغراب:

ـ ما هو حساب الجُمَل يا دكتور؟

ـ هذا يا سيدي باختصار القيمة العددية للحروف، بمعنى أن كل حرف له قيمة عددية مثل الحرف (أ) قيمته العددية واحد، والحرف (ي) قيمته العددية عشرة، وهكذا... وطبعًا هذه كانت شفرةً عربيةً تُسْتَخدم في مجال الجاسوسية والمراسلات السرية للجماعات المناهضة لنُظُم الحُكْم القائمة وقتها.

ـ إذن؛ هذا يعني أن الأرقام الكثيرة جدًّا المصفوفة أمامي على الورقة ما هي إلا جملة كُتِبَت بالقيم العددية للحروف.

ـ بالفعل؛ الرجل الذي أعطاك هذه الأرقام يبدو أنه مهووسٌ بالألغاز والأرقام السرية، ويبدو أنه مُطَّلع جيد على هذا الأمر.

صَمَت فارس قليلًا ثم قال في بُطء:

ـ وماذا تعني هذه الجملة يا دكتور؟

ضحك الدكتور، فعرف فارس أن الدكتور لن يعطيه الإجابة بهذه السهولة، وقد أكد الدكتور ظنونه بقوله:

ـ عيب يا أستاذ؛ لقد أرسلت لك على البريد جدولًا فيه القيمة العددية لكل الحروف العربية؛ استخدمه وستعرف الحل.

أغلق الدكتور الخط غير منتظر لرد من فارس، فالدكتور توقع أن يرد عليه فارس بقسوة، وهو ما كان فارس مقبلًا على فعله، لذلك لم يدع له فرصةً...

زفَر فارس في ضيق وفتح حاسبه المحمول، ثم توجه إلى بريده الالكتروني ونقر على رسالة الدكتور من ضمن عشرات الرسائل التي يمتلئ بها صندوق البريد...

انتظر لثوان معدودة حتى يتم تحميل الصفحة، فبدأ يتراءى أمامه جدول فيه الأحرف العربية وبجوار كل حرف قيمته العددية، فاتجه إلى

أيقونة الطباعة أمامه ونقر عليها متطلعًا إلى الطابعة التي بدأت تطلق أزيزها، ثم لفظت له من أعلاها ورقةً عليها الصفحة نفسها الماثلة أمامه على شاشة الحاسب المحمول.

تطلع إلى الجدول ثم إلى الأرقام المسطورة على الورقة أمامه، وبدأ يمسك بورقة جديدة وقلم جاف، وبدأ ينظر إلى كل حرف والرقم المقابل له ثم إلى الأرقام التي أمامه.

الحرف الأبجدي	الرقم المقابل	الحرف الأبجدي	الرقم المقابل
أ	١	ك	٢٠
ب	٢	ل	٣٠
ج	٣	م	٤٠
د	٤	ن	٥٠
ه	٥	س	٦٠
و	٦	ع	٧٠
ز	٧	ف	٨٠
ح	٨	ص	٩٠
ط	٩	ق	١٠٠
ي	١٠	ر	٢٠٠

ش	٣٠٠	ت	٤٠٠
ث	٥٠٠	خ	٦٠٠
ذ	٧٠٠	ض	٨٠٠
ظ	٩٠٠	غ	١٠٠٠

١٣٠_٣٠٦٧١٠_٢١٠٨٠٠١٠٠٣٠١_٥٠٤٠_١٧٠٠٦٥١٠_

٦_١٣٠_٤١١١٠٠٣٠١_٥٠٤٠_٥٧٠٠٦٠٠٨٠_١٠٤٠٠٨_

١٠٤٠٠١١٠_٧٠٤٠٧٣٠١_٥٠١_٣٠٦٠٢٠٠١٠_٦_٦٥_

٥٠٦٢٠١٠٦٠_٢٠٠١٩٠٠٤٠٠٥٠١_٤٠٤٠١٣٠١

وكأن الطلاسم التي عجز عن حلها بدأت تتفكك كلها أمامه، ويتساقط عنها كل لَبْسٍ وغُموض، فبدأت الحروف تتراءى أمامه وكانت أغرب ترجمة قام بها؛ فهو لأول مرة يترجم من أرقام إلى حروف. الكلمات بدأت تتكون أمامه بسرعة أكثر مما يتوقع...

ثم بدأت الجملة تتركب وكأن الحياة تَدُب فيها شيئًا فشيئًا، وفي كل كلمة يضيفها إلى الكلمات الأخرى المسطورة على ورقته تزداد دهشته وانعقاد حاجِبيهِ، حتى انتهى من ترجمة الأرقام كلها إلى جملةٍ كاملة، والحقيقة أنها أصابته بدهشةٍ بالغة؛ وكانت على عكس ما توقع تمامًا، فتلك الجملة كانت مفاجأةً بِحَق.

جُل توقعاتهِ أنَّ ترجمة هذه الأرقام إلى حروف ستكون ركيكةً أو تافهةً على الأكثر، فهو توقع أن يكتب القاتل جملةً تحمل الوعيد والتهديد لشخصيات مقبلة، أو سبابًا للقتيل، ولكنها فعلًا كانت غريبةً جدًّا إلى حد كبير.

* * *

(٥)

كان العقيد على وشك مغادرة المكتب، ولكنه توقف لدى دخول النقيب دون استئذان إلى مكتبه، فتطلع إليه يطلب تفسيرًا؛ فقال النقيب مرتبكًا:

_ آسف يا باشا، أعلم أنك كنت على وشك مغادرة المكان، ولكن الموضوع هام للغاية.

_ قُل ما عندك.

_ كانت هنالك صورة موضوعة في ظهر المرآةِ يا باشا.

الشيء الوحيد الذي أَحَسَّهُ النقيب بأن العقيد لا يُبدي أي تواصل معه، وذلك من نظرة الاستفهام في عينيه فأضاف:

_ المرآة الموجودة بمسرح الجريمة سعادتك.

بدا أن العقيد تذكر، فعادت عيناه إلى برودها الطبيعي وهو ينتظر الإضافة من النقيب الذي أخرج من جيبه صورةً مطويةً متسخةً بعض

الشيء، وفردها أمام العقيد ليتطلع إليها جيدًا، ولأول مرة استطاع أن يرى في ملامح العقيد تغيرًا كبيرًا... هذا الجو الوجيز من الصمت المشحون والمكهرب انقطع بطَرْقٍ مؤدب على الباب، فنظر كلاهما إلى الباب وانتظرا أن يدخل الطارق، ولكنه لم يفعل، وطرق الباب مرةً أخرى فصاح العقيد:

ـ ادخل يا حيوان.

دخل أمين شرطة، وبدا مرتبكًا من أثر صياح العقيد وقال:

ـ هناك شخص اسمه فارس يريد أن يرى سعادتك.

لم يعلق العقيد في حين عقَّبَ النقيب قائلًا:

ـ أظنُّه حل الشفرة يا باشا.

نظر إليه العقيد لثانية، ثم أومأ برأسه لأمين الشرطة، فخرج ودخل فارس وكل ملامحهِ تَشي بالتَّوتُّر الشديد، فقال العقيد في ضيق:

ـ خيرًا؟! ماذا وراءك أنت الآخر؟

ـ الشفرة التي استخرجناها من فم القتيل.

أخرج ورقةً من جيبه مطويةً باعتناء، وناولها للعقيد الذي فضَّها في عصبية، وقرأ ما هو مكتوب فيها، ثم نظر إلى الصورة في يده واتجه إلى مكتبه في حالَةٍ من الدهشة والتوتر. جلس إلى الكرسي وألقى الصورة والورقة على سطح المكتب...

القضية الآن لم تعد جريمة قتل عادية، ولكنها تعدت هذا الأمر بكثير. كل ذلك جعله يستعيد مسرح الجريمة، وكيف أن طريقة القتل كانت غريبةً عليه للغاية، وفيها وحشية بالغة تَنُم عن دافع عظيم من الغضب والانتقام.

اقترب أيمن وفارس من المكتب، وتطلع فارس إلى الصورة بجوار الورقة، كان متفاجئًا بالمقدار نفسه، وأدرك وقتها ذلك التحول الغريب في وجه العقيد، فهي الآن قضية أمن قومي من الدرجة الأولى...

التعرف على صاحب الوجه لا يقتضي الكثير من الذكاء، فهو بوجهه الطويل الرقيق وشعره الطويل لأسفل أذنيه ولحيته القصيرة الناعمة تجعله وجهًا مميزًا للغاية...

قال العقيد في بلاهة:

ـ أليست هذه صورة المسيح؟!

نظر إليه فارس كأنه يتحقق في ذهنه من صحة الإجابة، ثم قال في بساطة:

ـ نعم.

ـ إذن؛ الأمر الآن اختلف، وأصبح فيه مسيحيون ومسلمون، أي فتنة طائفية واضحة المعالم.

تدخل النقيب قائلًا:

ـ الموضوع خطير حقًّا.

التقط فارس الصورة وقربها إليه وكأنه يشك في أمر ما، وقال بصوت خفيض كأنه يكلم نفسه:

ـ ولكن المسيح فيها يبدو غريبًا بعض الشيء عما نألفه.

نظر إليه العقيد بدهشة ثم قال بغيظ:

ـ نعتذر لك، سنأتي لك بصورة أخرى لا ترى فيها غرابةً.

لم يلقِ له فارس بالًا، وقد بدأ يعتاد وقاحة العقيد:

ـ ما أقصده أنه ليس أشقر الشعر، ولا بشرته توحي بأنها بيضاء كما هو متعارف على شكل المسيح في اللوحات المرسومة له.

نهض العقيد من كرسيه وحرك ذراعه اليمنى هاتفًا في ضيق:

ـ كفى خبَلًا، وكأنه لم يعد ينقصني سوى هذا الخبَل الذي تقوله.

اقترب العقيد من الورقة التي ناولها له فارس منذ قليل متسائلًا:

ـ أليست هذه آيةً في الإنجيل.

ترك فارس الصورة على سطح المكتب وعاد إليه حماسه مرةً أخرى وهو يستعد ليخطب:

ـ كلا؛ في الحقيقة هذه الآية رقم عشرة من العهد القديم؛ والتي طُبِعت سنة ١٧٥٣ في مطبعة ملاك روتيلي.

تناول العقيد سيجارةً، وسأل مرةً أخرى:

ـ بصرف النظر عن هذه المقدمة السخيفة، لم تقدم لي حتى الآن تفسيرًا واضحًا.

تناول فارس الورقة واستعد لقراءتها عليهما في استمتاع شديد:

ـ لا يزول القضيب من يهوذا ولا القائد من فخذه، حتى يأتي المُزْمَع أن يُرْسَل، وهو سيكون انتظار الأمم.

قالها وصمت مبتسمًا، فقال العقيد في غضب ساخر:

ـ هل تتصور بإعادة قراءتك لما هو مكتوب أنك فسرت الأمر جيدًا؟!

ـ الآية باختصار تتحدث عن نُبوءة مَجيء المسيح الذي سيكون محل انتظار جميع أُمَم الأرض.

ـ حتى تتضح أمامي الصورة بشكل أوضح، نحن أمام قاتل مسيحي متطرف.

هزَّ فارس رأسه، فتساءل العقيد دون أن يوجه سؤاله لأي منهما:

ـ بالتالي، هو لديه شريك في الجريمة، وهذا الشريك هو من استدرج الشيخ لمكان الجريمة.

علق النقيب في استغراب:

- ولكن -سعادتك- ما الذي جمع الشَّامي مع المغربي، قاتلٌ مَسيحي؛ كيف يتفق مع مُلتحٍ سَلفي ويطلب منه أن يستدرج الشيخ إلى مكان الجريمة.

تمعَّن العقيد في كلام النقيب قليلًا ووجده منطقيًّا فعلًا، ما هو وجه العلاقة بين شاب سلفي مُلتحٍ وآخر مسيحي قاتل.

اغتاظ لأن هناك صَوتًا تدخل وقطع عليه أفكاره المسترسلة، فنظر إلى فارس الذي قال:

- لدي تصور غريب بعض الشيء حول هذا الأمر.

نظر إليه كلاهما؛ فأكمل:

- قد يكون شريكه المسلم هو في الأصل على قناعة تامة بما يعتنقه القاتل.

قال النقيب:

- هل تقصد أنه ادعى الإسلام؟

تطلع العقيد وفارس إليه باستخفاف، فهز العقيد رأسه وقد فهم ما يرمي إليه فارس وأكمل العقيد:

- تعني أن هذا المسلم تحول إلى المسيحية سرًّا.

هز فارس كتفيه في صمت والعقيد يأخذ آخر نفس من سيجارته ثم يلقيها من نافذة مكتبه المفتوح، ويفلت هواء السيجارة من فمه في نشوة وتلذذ، وفارس يقول:

ـ حالات المسيحيين الذين يتحولون إلى الإسلام والعكس ليست بالقليلة، وأغلبها يكون سرًّا؛ نظرًا لطبيعة المجتمع التي تعارض مثل هذه التحولات.

تجشَّأ العقيد؛ فظهر استياء خفيف على وجه فارس في حين قال النقيب:

ـ صِحَّة يا باشا.

أهمَلهُ الباشا وهو ينظر إلى فارس قائلًا:

ـ وعلى هذا الأساس؛ المؤكد أن القاتل المسيحي المتطرف قتل الشيخ بسبب آراء متطرفة قالها بحق المسيحيين مثل أنهم كُفار وأنهم مثلهم مثل اليهود إلى آخره، ومواضيع كثيرة مشابهة يتداولها المُلتحون.

هزَّ فارس رأسه نافيًا وقال:

ـ هذه الخطب ليست بالأمر الجديد على المسيحيين، ولا يمكن اعتباره دافعًا للقتل بهذه الوحشية.

لم يعجب العقيد أن يعترض أحد على تفسيراته، ولكنه ابتلع ضيقه وتطلع إلى فارس في صمت؛ والذي قال:

ـ هناك توتر كبير في العلاقات بين المسيحيين والمسلمين في البلد، وهذا شيء لا نستطيع إنكاره، والفتن التي تحدث بين المسلمين والمسيحيين كثيرة في أماكن شتَّى في مصر، ودور الدولة ينحصر في إخمادها بالقوة والتَّعتيم عَليها، وقُبلاتٌ مُتَبادلة بين القسِّيس وشيخٍ أزهري، ثُم تَزعم الدولة أن كُل الأمور على ما يُرَام...

والحقيقة أن الوضع قابلٌ للانفِجار في أي لحظة، وكل تلك العوامل تُسهِمُ في خلق حالة احتقان مُزمِنة بين المسلمين والمسيحيين...

وكما أن هناك بعض الجماعات الإسلامية التي تغذي روح الكراهية؛ هناك أيضا رجال دين مسيحيون متطرفون يغذون الطرف الآخر بأفكار الكراهية نفسها، والكثير منها يدور داخل بعض الكنائس، وما حدث واحدة من إفرازات خطابات الكراهية.

ضرب العقيد كفًّا بكف وقال ساخرًا:

ـ هكذا قفزت إلى نتيجة نهائية وحتمية بأن الكنيسة هي المسؤولة عن هذا التطرف؟!

قال فارس في حزم:

ـ أنا لم أقل إن الكنيسة هي السبب، ولكني قلت إن بعض رجال الدين المسيحي من أصحاب الفكر المتطرف قد يكونون وراء هذا الأمر بشكل مباشر أو غير مباشر...

ومن المؤكد أن هناك خلفيةً قويةً تصلح كدافع دامغ للقتل وراء هذه الجريمة البشعة؛ أفترض أنها تعود لقصة ما حول تحول مسيحي أو مسيحية للإسلام، وهذا الشيخ كان طرفًا في تحول هذا الشخص على نحو ما وجريمة القتل رد انتقامي.

صمت العقيد قليلًا وهو يفكر في كلام فارس وللمرة الثانية يجد نفسه مرغمًا على استحسان استنتاجه، فعقب قائلاً:

ـ إذن؛ بقي لنا أن نصل إلى شريك القاتل في الجريمة الذي ساعد القاتل على استدراج الشيخ، لأنه بلا شك الخيط الذي سيجعلنا نصل إلى القاتل نفسه، والقاتل سيكون الخيط لآخرين يقفون وراءه يغزون عقله بأفكار متطرفة، هذا بإفتراض أنهم من رجال الكنيسة كما تزعم.

قالها وأغلق باب النقاش بأن استدار متجهًا إلى مكتبه ملتقطًا علبة سجائره، ثم استدار موجهًا كلامه في لهجة آمرة إلى النقيب:

ـ ذلك الشريك في الجريمة يجب أن يكون في قبضة يدي في أقرب فرصة... أريد أن أنتهي من هذه القضية في أسرع وقت...

* * *

(٦)

دخل العقيد شقته المظلمة وهو يدخن سيجارته... كان منهكًا ويشعر بإرهاق شديد، ولكن لم تكن عنده أي نية للنوم؛ فحالة الأرق التي أصبحت تعتريه بعد طلاقه لا تجعله ينعم بالنوم إلا لساعات قليلة... لاحظ تحت عينيه هالةً سوداء تتضخم كل يوم؛ فأطلق نفخةً قويةً وهو يبتعد عن المرآة وقد حنقه تدهور حالته الصحية إلى حد بدأ يلاحظه الجميع.

توجه إلى البلكونة ليفتح درفتيها على مصراعيهما ويملأ صدره بهواء البحر الجميل الذي يحبه أكثر من أي شيء آخر، وابتسم... هواء البحر هو الشيء الوحيد الذي يجعله يبتسم...

العقيد لديه قدرة جيدة على أن يفصل بين واقع عمله المزعج وبين حياته الشخصية؛ فبمجرد دخوله إلى البيت يترك على عتبة بابه كل مشاكل العمل، ولكنه يستقبل نوعًا جديدًا من المشاكل، وهي مشاكل حياته الشخصية التي انتهت أخيرًا بالطلاق...

شقيقه الأصغر كثيرًا ما ألحَّ عليه في أن يتزوج مرةً أخرى، ولكن العقيد لا يبدو مستعدًا لذلك على الإطلاق. ظل يُماطِل شقيقه عدة مرات حتى ضاق ذرعًا بإلحاح أخيه، فأنهى النقاش حول هذا الموضوع بشكل حاسم كما اعتاد أن يفعل ذلك في عمله.

جلس على مقعده الهزاز المُحبب إليه متطلعًا من شقته بالطابق العاشر إلى البحر المُظلم والهائِج في ذلك الوقت وهواء البحر المالح يضرب وجهه، ويلمس شفتيه؛ فيُمَصْمِصهُما في تلذُّذ، وترك جفنيه يسترخيان في هدوء حتى غلبه النعاس أخيرًا، وسقطت السيجارة من يده اليمنى بعد أن تراخت أصابعه... ازداد وهج السيجارة جراء ضرب هواء البحر لها حتى انطفأت أخيرًا.

* * *

(٧)

لم يستطع فارس أن يمنع نفسه من الاتصال بالدكتور معاذ، وكان يأمل أن يجده مستيقظًا في ذلك الوقت من الليل؛ لأن الدكتور مُعتادٌ على النوم مباشرةً بعد صلاة العشاء، والساعة الآن الحادية عشر والنصف مساءً... بعد الرنة الخامسة أوشك أن يغلق الهاتف لولا أنه سمع صوت الدكتور يقول:

ـ كيف حالك يا فارس؟

ـ أنا آسف يا دكتور.

ـ لا بأس، كنت أنتظر اتصالك هذا.

ـ بسبب هذه الآية؟!

ـ وهل هناك غيرها؟

صمت فارس قليلًا وهو متردد بعض الشيء أن يفصح عن كل الأمر للدكتور، ولكنه حسم أمره وقال:

ـ الحقيقة أن الأمر يدور حول جريمة قتل.

ـ جيد.

توقع فارس حماسًا زائدًا من الدكتور، ولكنه بدا هادئًا جدًّا فأكمل فارس:

ـ ووجدنا في مسرح الجريمة صورةً للسيد المسيح.

ـ جيد، إذن؛ بدأَت تجتمع بعض الخيوط اللازمة لحل جريمة القتل؟!

ـ ولكن الصورة بدت غريبةً بعض الشيء يا دكتور!

ـ وجدتها على غير الشكل المألوف لصورة المسيح المعهودة.

بالتأكيد فارس لن ينفك عن الانبهار بيقظة وذكاء الدكتور؛ فتبسم وهو يقول:

- بالضبط؛ كانت بشرته خمريةً وشعره أسود، ناعم بعض الشيء، وبه تمويج، وعيناه سوداوان، وليس كما هو المألوف في صوره المعروفة!
- على العكس! الذي لا يعرفه غالبية الناس أن المسيح له أشكال كثيرة في تصورات المسيحيين حول العالم؛ تبرز في شكل منحوتات وصور مرسومة للمسيح، وتتنوع بين الشكل الإفريقي والهندي، وأشكال أخرى أشهرها الشكل الأوربي، وكما تعلم؛ هو الشكل الأكثر شهرةً...

فنانو كنيسة روما مثل مايكل أنجلو ودافنشي وغيرهم؛ عندما كانوا يتخيلون شكل المسيح كانوا يسقطون أشكالهم الأوربية على المسيح، وكانوا يستعينون بموديلات أوربية لرجال لرسم المسيح وتلاميذه، وموديلات نسائية لرسم السيدة مريم العذراء والمجدلية وغيرهما...

لا نستطيع القول تحديدًا أن الشكل المألوف في كنائسنا القبطية للمسيح بشعره الأشقر وبشرته البيضاء وعينيه الملونتين هو شكل المسيح الحقيقي، ولا يمكن الجزم بذلك بأي حال من الأحوال، كما أن الأناجيل الأربعة المعتمدة من قبل الكنائس المسيحية الحالية: البروتستانتية والكاثوليكية والأرثوذكسية والطائفة الإنجيلية وغيرها؛ لم تذكر أي وصف لشكل المسيح...

وشكل المسيح الأكثر شهرةً: الأوربي؛ وهو مُسْتَوحى من البيئة التي عاش فيها فنانو الكنيسة الذين رسموه... هذه هي الفكرة في أبسط صورها.

قدرة الدكتور معاذ على أن يفجر المفاجآت ويكسر المألوف هي سحره الأوحد، فهو استطاع أن يضع فارس في حالة صمت مطبق، وكأكاديمي متمرس لم ينتظر ردًّا منه بل قال مباشرةً:

- الذي لا يستطيع الناس فهمه يا فارس أن المسيح كان يهوديًّا، ويهود المشرق -كما تعلم- لا هم من الجنس الأبيض ولا من ذوي الشعر الأشقر، فالمسيح لم يظهر في أوروبا، ولكنه ظهر في منطقة الشرق الأوسط.

إذن؛ من الطبيعي أن يتشابه معنا، وليس مع الجنس الأوربي، والمعروف أن اليهود كانوا يعتبرون سائر الأمم (أُميين). حتى أقرب لك الصورة ببساطة؛ أي أقل مكانةً منهم ولا يصح الزواج منهم، ففكرة أنه كان مهجنًا لا تتسق مع هذه المعطيات.

فكر فارس في كلام الدكتور الذي أوقف تدفق أفكاره بسؤاله الفضولي:

- هل هي جريمة قتل مسيحيين في بعضهم البعض أم...؟

- القتيل شيخ سلفي يا دكتور.

ـ إذن؛ من المؤكد أن هذا الشيخ تفَوَّه بأمور مثيرة للجدل كانت الدافع لقتله.

ـ مشايخ السلفية دائمًا يتفوهون بأشياء تثير استياء الطرف الآخر، فلماذا الآن؟ أنا أعتبر الأمر واحدةً من صور الاحتقان الطائفي المتضرمة نيرانه منذ فترة طويلة بين المسيحيين والمسلمين، وهي الآن في أعلى صورها، ولكننا لا نراها طافيةً على السطح، فما زالت تغلي في القدور، ولا نرى سوى غطاء متراقص.

ـ أمر وارد، ولكن إحساسي يقول إنها أبعد من كونها عملية احتقان طائفي لكونها عملية تصفية مدروسة.

ضحك فارس وهو يعقب ساخرًا:

ـ نسيت أنك مهووس يا دكتور بنظريات المؤامرة.

ـ من الممكن أن أكون مخطئًا، ولكن ضع كل الاحتمالات على الطاولة.

ـ حسنًا يا دكتور.

ـ حان موعد إنهاء المكالمة لأني أشعر الآن بإنهاك شديد وأريد أن أنام.

ـ تصبح على خير يا دكتور.

ـ وأنت من أهله.

أنهى فارس المكالمة، وتطلع إلى نافذة صالته بعض الوقت، ثم هز رأسه يحاول أن يقذف بعشرات الأسئلة خارج محيط مخه المنهك، ونهض يغير ملابسه لينام قليلًا، ولكن حتى رغبته الملحة في النوم لم تشفع له من عجلة مخه التي لا تزال تدور.

* * *

(٨)

- المتهم –يا باشا– هرب من الإسكندرية إلى القاهرة ليلة وقوع الجريمة كما خمنت سعادتك.

نظر العقيد إلى ما وراء ظهره يتطلع إلى النقيب أيمن الذي يسير خلفه في رواق المبنى، ثم حاذى النقيب العقيد في المسير وهو يستكمل:

- السكان في البيت –يا باشا– الذي قُتِل فيه الشيخ اعترفوا على المتهم صاحب الغرفة، وهو من الملتحين الذين يحضرون دروس الشيخ القتيل، وعندما قمنا باستجواب عدة ملتحين أكدوا أنه المتهم نفسه فعلًا، وأنه انتظم في دروس المسجد منذ نحو ثلاثة شهور فقط...

أيضًا؛ قمنا باستجواب والده وشقيقه، ومع إبراز كارت إرهاب بسيط اعترفا بهروبه، وألزمنا أسرة المتهم أن ينصحوه بالعودة

وإلا سيكون والده وشقيقه رهن الاعتقال بتهمة التستر على مجرم، وزيادةً في الأمر احتجزنا شقيقه حتى نؤكد لهم جدية تهديدنا.

دخل العقيد مكتبه والعسكري يؤدي التحية، ومن ورائه النقيب، فسأله:

ـ إلى أي مكان هرب في القاهرة؟

ـ عند عمه في مدينة السلام، حي الحرفيين سعادتك.

كان النقيب أيمن يحاول أن يترك انطباعًا لدى العقيد بمدى دقة معلوماته، ولكن ذلك لم يلقَ أي صدى لدى العقيد كالمعتاد والذي سأله في روتينية:

ـ هل اتصلت بمديرية القاهرة؟

ـ نعم؛ وهم الآن يبحثون عنه دون أن يشعر أحد، والمقدم عبد الواحد مأمور قسم مدينة السلام أرسل أحد مرشديه منذ ساعة تقريبًا، وهذا المرشد ابن المنطقة، وربما يستغرق الأمر ساعةً واحدةً حتى يقع المتهم في أيدينا.

ـ الصحافة علمت بالأمر؟

ـ حتى الآن لم يحدث يا باشا، إذا أحببت أن أتصل بالصحفي سأفعل.

لوَّح العقيد بيده نافيًا، ثم أشعل إحدى سجائره وهو يرمي بنظرةٍ بعيدةٍ خارج حجرته، ثم أعاد عينيه ليركزهما على النقيب قائلًا:

ـ عندما تلقون القبض على المتهم أريدك أن تذيقه بعضًا من العذاب حتى يعترف باسم القاتل بسرعة. أريد أن أنهي هذه القضية سريعًا كما قلت سابقًا، هل تفهم؟

أدى النقيب التحية ثم غادر المكتب تاركًا العقيد في صمت مطبق والذي أخرج هاتفه الجوال من جيبه، وظل يبحث بين الأرقام حتى وصل إلى رقمها: رقم مطلقته.

يشعر برغبة ملحة في أن يهاتفها على الرغم من أنه لا يطيق رؤيتها في الوقت الحالي. تعجب من اشتياقه لها على الرغم من كون زواجهما تقليديًّا للغاية، وكونها تصغره بأربعة عشر عامًا. هو بكل بساطة لا يطيق وحدته، وتعود أن يكون هناك شخص ما في البيت: شخص يعبأ بأمره، ولو في أقل مستويات الاهتمام.

* * *

(٩)

ظلمة شديدة غلفت كل شيء حوله... آلام شديدة في ذراعه اليسرى وسُكونٌ مُطبِق... أُذُناه راحت تلتقطان صوت بابٍ صَدِئ

يُفْتَح، ووقع أقدام ثابتة وبطيئة تدخل ثم تتوقف، بدا النقيب أيمن على عتبة الباب كالشبح والضوء ينبعث من خلفه على هيئة حزم ضوئية.

ـ كيف حالك يا سيد؟

الانتفاضة الغريزية لسيد جعلت الآلام تتضاعف في جسده كله... تطلع إليه النقيب في شيء من العبث الطفولي وهو ينظر إليه وقد انزوى إلى أحد أركان الحجرة المظلمة الرطبة، ولم يَعِ كم بقيَ من الوقت فيها... أضاء النقيب المصباح الأصفر الوحيد في منتصف الغرفة، فرفع سيد يده اليمنى أمام وجهه مغلقًا جفنيه أمام ذلك النور المباغت.

ـ لماذا قتلت الشيخ يا سيد؟

ـ لم أقتل أحدًا يا باشا.

جرَّ النقيب الكرسي حيث يتكوَّم سيد، وجلس عليه واضعًا ساقًا فوق الأخرى وذلك المصباح الشاحب يضيء ثُلث الحجرة الغارقة في رائحةٍ عَطِنَةٍ نتيجةً لأنها مغلقة من جميع الجهات، فكان ذلك سببًا في زيادة حرارة الغرفة وعرق سيد.

ـ متى تحولت إلى المسيحية يا سيد؟

شعور سيد بالصدمة من سؤال النقيب أكبر الآن من شعوره بالألم، ولذلك رد بوهَنٍ ودهشة:

ـ أنا مسلم يا باشا، والحمد لله.

ـ قل غير هذا يا رجل.

ـ والله العظيم يا باشا.

ـ والله العظيم؟! كنت أظنكم تقولون صدقني.

سكت سيد ولم يعقب، فتأمله النقيب قليلًا دون اكتراث، ثم قال في هدوء بارد:

ـ تكلم يا سيد حتى أضمن لك الخروج من هنا.

لزم سيد الصمت، فصاح به النقيب:

ـ هل تعلم؟ سجن أبو غريب ـيا روح أمكـ ملائكة بالنسبة لنا، ومساكين مقارنةً بنا.

ابتلع النقيب ريقه وعاد إلى هدوئه:

ـ لو لم تقتله، فمن الذي قتله؟

ـ أرجوك يا باشا، ليس لي علاقة بكل ما حدث.

بكى سيد بحرقة شديدة فتطلع إليه أيمن وسأله:

ـ من قتله يا سيد؟

ـ لا أعلم يا باشا.

ـ هل سنبدأ؟

ـ والله العظيم يا باشا.

ـ يا رجل! لقد وجدوا الجثة عندك.

ـ يا باشا لقد استضفت الشيخ فقط لأنه من سكان البحيرة.

ـ أنت أيضًا من البحيرة يا سيد.

ـ أمي يا باشا.

ـ في أي مكان بالبحيرة؟

ـ من حمص.

ـ كم مضى عليك في طريق الالتزام يا سيد؟

ـ ثلاثة أشهر يا باشا.

ـ هل لديك أصدقاء من المسيحيين يا سيد؟

ـ والله أبدًا يا باشا؛ حتى جرجس الذي كنت أصادقه أيام الصنائع لم تعد تربطني به أي علاقة حاليًّا.

عقد أيمن حاجبيه وسأله في اهتمام:

ـ جرجس هذا الذي ساعدته في قتل الشيخ.

بكى سيد ألمًا مختلطًا بسخرية ومرارة، وقال بصوت ضعيف متقطع:

ـ جرجس هذا شاب منحرف يا باشا يشرب الحشيش.

ـ إذن؛ من يا سيد؟

ـ لا يوجد أحد يا باشا.

ـ لماذا هربت ليلة الدرس بعد أن استدرجت الشيخ للغرفة؟

الصمت الذي ساد المكان هيأ الظروف كلها لأن يبدأ سيد بأولى اعترافاته... أسلوب بوليسي قديم اكتسبه النقيب من سنوات عمله في المباحث الجنائية، فحشرجة صوت سيد وكحته تعني أنه مقبل على قول مهم للغاية...

ـ يا باشا أنا مررت بالشيخ ليلًا ووجدته غارقًا في دمائه.

بكاء سيد هو بداية الخضوع والاستسلام، والنقيب يعرف ذلك جيدًا... وأكمل سيد:

ـ شعرت بالفزع يا باشا. الشيخ مقتول في الغرفة، ومُؤَكد أنني سأُتَّهَم بقتله، فلم أفكر إلا في الهروب عند عمي بالقاهرة حتى وجدتموني يا باشا. وأنت تعلم ـ سيادتك ـ جريمة قتل في هذا الوقت: محاكمة وإعدام في يوم واحد، سعادتك.

انتشى أيمن وسيد يقولها بمرارة وحسرة، فهي تعطيه شعورًا بالقوة والانتصار، ولجأ إلى حيلة تكتيكية قديمة، فسأله:

ـ إذن؛ من هو ذلك الشاب الذي جعلته يبيت عندك في الغرفة في نفس اليوم الذي استضفت فيه الشيخ.

تغيُّر نبرة سيد جعل النقيب يُبدي اهتمامًا كبيرًا لأنه عن طريق ذلك السؤال الاستدراجي استطاع أن يصيب الجزئية الغامضة التي يبحث

عنها، ويحاول سيد أن يخفيها، وبالطبع توقع إجابة سيد المبتذلة التي اعتاد على سماعها...

ـ أي شاب يا باشا؟

النقيب يعرف الحل جيدًا: ركلة متوسطة في جنب سيد ستجعله يكف عن تلك الألاعيب الساذجة، فتأوَّهَ سيد وقال بسرعة:

ـ تذكرت يا باشا، والله تذكرت، منصور يا باشا.

ـ من منصور هذا يا سيد؟

ـ منصور شاب من بورسعيد. كان رفيقي أيام الدبلوم، وسافر مرةً أخرى إلى بلده ـبعد أن أنهى الدبلومـ هو وأهله، وجاء لزيارتي في اليوم نفسه الذي استضفت فيه الشيخ.

ـ شريكك في الجريمة؟!

ـ يا باشا والله العظيم أبدًا، لقد اعتاد أن يأتي إلى الإسكندرية بين الوقت والآخر، ولقد ظلت صداقتنا مستمرةً حتى بعد انتهاء الدراسة وعودته مرةً أخرى إلى مسقط رأسه.

بدا شعور الارتياح يظهر على وجه النقيب، فأولى خيوط الجريمة وحلها بدأت تتجمع بين يديه، وبادر سيد بسؤال آخر:

ـ ولماذا ساعدته في قتل الشيخ يا سيد؟

ـ والله لم أفعل ذلك يا باشا؟

ـ لماذا قتله منصور يا سيد؟

ـ ولماذا يقتل منصور الشيخ؟ هو لا يعرفه.

ضربه النقيب في جنبه مرةً أخرى بقوة أكبر، فصرخ سيد وبكى للحظة والباشا يصرخ فيه:

ـ أنا الذي أسأل يا روح أمك.

ـ يا باشا؛ منصور شاب مسكين ليس القتل سبيله، وليس بينه وبين الشيخ أي كراهية، كما قلت: هو لا يعرفه.

ضربه النقيب مرةً أخرى في جنبه ليفرغ فيه غيظه وغضبه، فهو يعلم جيدًا أن العقيد يضغط عليه بشدة لينهي الأمر، ويعلم أنه لو خرج من هذه الغرفة دون الحصول على إجابات كافية ستجعل العقيد ينهال عليه بالشتائم البذيئة، واتهامه بالفشل كما يفعل معه كل مرة.

ـ أخبرني باسمه كاملًا.

ـ والله لا أعرف غير منصور يا باشا.

ـ أصدقاء ـيا روح أمكـ منذ زمنٍ، ولا تعرف غير اسمه الأول فقط! هل تحاول التذاكي أم ماذا؟

بكى سيد ولم يتكلم، فنهض النقيب من على مقعده، ونادى على سالم أمين الشرطة الذي دخل يحمل وجهًا متجهمًا، فقال له النقيب وهو يغادر الغرفة:

ـ علقه يا سالم ساعتين، وأنا سأمر عليه مرةً أخرى.

تعالت صرخات سيد وهو يستجدي النقيب، ولكن صرخاته لم تجدي نفعًا وسالم بجسده الضخم يقترب منه في بطء مستمتعًا بلحظات الرعب البادية على وجه سيد، ثم بدأ في تكبيله بقوة وصرخات سيد تتزايد وجسده كله ينتفض بحركة غريزية للمقاومة.

ولكن بضع لكمات من سالم أسكنت جسده تمامًا، وبدأ في ربط ذراعه اليسرى إلى حبل غليظ، وربط رسغه الأيمن إلى قصبة قدمه اليمنى بحبل آخر، واتجه إلى الباب يشد حبلًا غليظًا؛ يمر عبر حلقة معدنية مثبتة إلى الحائط ومتصلة بحلقة معدنية أخرى في منتصف سقف الغرفة وجسد سيد يرتفع في الهواء وسط استجداءاته، وتوسلاته للنقيب الذي غادر الغرفة محبطًا، ثم أغلق الباب بقوة.

*** * ***

(١٠)

تجاهل العقيد طرقات باب غرفته وهو يتطلع إلى هاتفه الجوال الجديد، ولكن مع إصرار الطرقات رفع عينيه للباب متأففًا وهتف بصوت مغتاظ:

ـ ادخل يا حيوان.

دخل العسكري مرتبكًا، وقال بسرعة قبل أن يفقد تماسكه أمام العقيد:

ـ الأستاذ فارس في الخارج، ويريد مقابلة سيادتك.

صمت العسكري وقد توترت ملامحه، فهو يتوقع سبابًا آخر أو صياحًا، ولكن العقيد عاد يتطلع إلى شاشة هاتفه الجوال قائلًا بلا مبالاة:

ـ أدخله.

دخل فارس وقد بدت الجدية على ملامحه. دائمًا ما ترتسم ملامح الجدية على وجه فارس عندما يهم بطلب شيء ما:

ـ السلام عليكم.

لم ينظر إليه العقيد أو يرد السلام. انسحب العسكري بسرعة مغلقًا الباب وراءه بأقل صوت ممكن. الضيق بدأ يتسلل إلى فارس الذي لم ينتظر العقيد، وجلس على المقعد المجاور لمكتبه، فتطلع إليه العقيد في استنكار، ثم اعتدل في مجلسه شاخصًا بصره تجاه فارس وقال:

ـ نعم!

ـ في الحقيقة أريد أن تدبر لي مقابلةً مع المشتبه به لأن عندي شد...

صياح العقيد المباغت كان مفاجئًا لفارس:

ـ نعم! تريد أن تقابل من؟

حاول فارس أن يعترض، ولكن العقيد انطلق كالصاروخ في حالة من العصبية ألجمت فارس تمامًا:

ـ لماذا؟ هل تعلق نسرًا أو نجمتين على كتفيك دون أن ألحظ ذلك حتى يكون لك الحق في مقابلته؟

انفعل فارس وهو يرد عليه بحدة:

ـ لماذا تتكلم على هذا النحو دائمًا؟

ـ شيء رائع! وأيضًا لا يعجبك أسلوبي!

ودون مقدمات أو مبرر منطقي عاد العقيد لهدوئه وهو ينظر مرةً أخرى إلى شاشة الهاتف الجوال، ويقول بصوت بارد هادئ ولكنه ممتلئ حدةً وعصبيةً:

ـ عندما ننتهي من القضية يمكنك أن تطلب الاطلاع على المحاضر، وكبادرة حسن نية مني سأعطيك نسخةً من هذه المحاضر.

قال كلمته وتجاهل وجود فارس تمامًا، ولكن وجه فارس كان شديد الاحمرار ولم يكن ذلك يرضيه، فعقَّب بغيظ واضح في نبرته:

ـ أنت تعلم جيدًا أنني لن أسأل المتهم أسئلتكم الروتينية الخاصة بكم.

رفع العقيد عينيه إليه مستغربًا حدة فارس الذي كان يقول:

ـ ثم إنني لا أطلب منك إحسانًا وأتلهف له. هذه الجريمة جديدة من نوعها على المجتمع المصري، والسفاح غير تقليدي أو مخبول كما تدعون في تحقيقاتكم الرسمية. السفاح في علم النفس الإجرامي نعتبره في أعلى مراتب الخطورة، وأنا لديَّ الخبرة الكافية لكي أقدم لكم يد العون.

لم يتوقع فارس هذا الصمت المريب من العقيد الذي ظل يحدق به لثوان، وتوقع منه صياحًا وغضبًا وثورةً، ولكن العقيد علق بسخرية هادئة:

ـ أريدك أن تعرف شيئًا هامًّا بما أنك صغير السن. أنا في هذه المهنة قبل أن يفكر والداك بإلحاقك بإحدى رَوْض الأطفال، وعندما نحتاج إلى أخصائي مجانين سنطلبك وقتها في تحقيقاتنا.

بالطبع لم يعطِ العقيد فارس أي فرصة للرد فهو متمرس في أن يفقد الطرف الآخر أخذ أي مبادرة في الحديث، وقد تعود هو قيادة الموقف وقال في هدوء حاد وصارم:

ـ ولولا أنك قريب للواء مدحت لكنت ألقيت بك في الزنزانة الآن لقلة أدبك، والرصيد المتبقي لدي من الأدب قد نفد، وأي كلمة أخرى منك سأنسى تمامًا قرابتك للواء مدحت، وسأريك وجهًا

آخر لن يعجبك على الإطلاق: وجه ضابط مباحث قذر لم تره أبدًا في حياتك.

كان فارس يرى أن أفعال العقيد منذ التقى به هي أقبح وجه لديه، ولم يكن يتصور أن هناك ما هو أبعد من ذلك... نهض فارس من على المقعد، ورد عليه بهدوء حازم هو الآخر:

ـ بما أنك ذكرت اللواء مدحت، سأجعل وجودي في جميع التحقيقات القادمة رسميًّا، ولن أضطر وقتها لسؤالك مرةً أخرى.

هذه المرة قطع عليه فارس خط الاستطراد في الحديث وأنهاه بطريقة مسرحية وهو يستدير ملقيًا السلام بشكل أشبه بالهمهمة مغادرًا غرفته في هدوء والعقيد يتمتم من وراءه:

ـ اللعنة عليك، شاب أحمق.

نفخته الطويلة ساعدته على حالة الاسترخاء، وعاد يتطلع إلى تلك الرسالة القصيرة على شاشة هاتفه الجوال: "أرجوك لا تحاول الاتصال بي مرةً أخرى، الموضوع انتهى تمامًا"...

نظر إلى سقف الغرفة... توقع هذه الرسالة... بل توقع رسالةً أكثر عدائيةً منها بعد أن تجاهلت كل اتصالاته على هاتفها الجوال، ولكن كان يتمنى أن يخيب ظنه ويرق قلبها مرةً أخرى.

* * *

(١١)

أمسك الهاتف الجوال وبحث في قائمة الأسماء لديه حتى وصل إلى اسم الدكتور سالم، فضغط زر الاتصال وبعد ثلاث رنات أتاه صوت من الطرف الآخر يجيب بصوت رخيم وهادئ:

ـ السلام عليكم.

ـ وعليكم السلام يا دكتور سالم، أنا مؤمن من دار نشر مكتبتنا.

ـ نعم؛ أهلًا وسهلًا، أين أنت؟

ـ أنا على الطريق الصحراوي واقتربت من مدخل برج العرب.

ـ إذن؛ كلها دقائق وتصل.

ـ نعم؛ كنت أريد أن أطمئن إلى أنك موجود في المنزل.

ـ أنا في انتظارك يا أستاذ مؤمن.

ـ إذن؛ دقائق وأكون عندك.

ـ أنتظرك.

ـ السلام عليكم.

ـ وعليكم السلام.

أنهى الشاب الاتصال وهو يتطلع إلى الهاتف الجوال لثوان، ثم ابتسم وهو يلقيه على المقعد المجاور، ونظر إلى بوابة مجمع الفيلات على طريق برج العرب بالإسكندرية، وبعد ذلك ألقى نظرةً أخرى من خلال مرآة السيارة الداخلية على ذلك الصندوق الضخم القابع في

المقعد الخلفي لسيارته ذات الدفع الرباعي، وكأنه يطمئن إلى وجوده، فبعد دقائق معدودة سيلتقي بالدكتور سالم...

لقاء مرتقب منذ أمد بعيد على الرغم من أنه لم يقابل الدكتور سالم من قبل، ولكنه كان يترقب هذا اللقاء بالذات. شعر بنشوة قوية تملأ روحه. تطلع من خلال مرآة السيارة الداخلية مرةً أخرى إلى شعره المصفف بعناية، والذي يبدو متكلفًا غير متجانس مع بشرته الخمرية، ولاحظ توترًا في عينيه السوداوين...

إنها لحظة هامة وحاسمة بالنسبة له؛ على الأقل في طريق مهمته الربانية...

رفع ساعة يده إلى مستوى نظره وقد مرت الدقائق الخمسة، فأدار محرك السيارة التي بدأت تتسارع بالتزامن مع تسارع دقات قلبه أيضاً وهو يجتاز حارته الوسطى إلى الحارة اليسرى مستعدًا للدوران مع المنعطف القادم على بعد عدة أمتار... الإشارة الصفراء التي كانت تتوهج في مصباح سيارته الخلفية زادت توتره بشكل غريب، ثم اتجه إلى يمين الطريق سالكًا طريقًا معبدًا بأحجار مربعة صغيرة؛ حيث بوابة الأمن لمجمع الفيلات الكائن بهذا الطريق السريع.

أوقف السيارة في هدوء أمام فرد الأمن الذي توجه في تثاقل إلى باب السائق؛ يتفحص الراكب الذي منحه ابتسامةً ودودةً، وقال موظف الأمن في روتينية:

ـ خير يا باشا؟

ـ أنا الأستاذ وحيد صاحب الفيلا رقم سبعة.

صمت فرد الأمن قليلًا وكأنه يحاول استرجاع بعض المعلومات في رأسه، ولكنه يأس من ذلك؛ فاستأذن الراكب وعاد إلى غرفة الأمن يتشاور مع زميله الآخر، فحاول أن يبدو هادئًا ومتماسكًا، فهذا ليس وقت التخلي عن هدوئه وثباته، ثم شاهد فرد الأمن يعود إليه بابتسامة مرتبكة على شفتيه وهو يقول:

ـ اعذرني يا باشا، أنا جديد هنا، فقد مضى على وجودي شهر ولم أتعرف بعد على أصحاب كل الفيلات هنا، وليست معي القائمة التي تضم أسماء أصحاب الفيلات.

كان هذا هو الوقت المناسب لإظهار بعض من الغضب والجدية في صوته وملامحه وهو يرد:

ـ هل يعني هذا أن أنتظر حتى تتأكد؟

توترت ملامح فرد الأمن، هو رد الفعل الذي ينتظره الراكب، رد فرد الأمن بسرعة:

ـ كلا يا باشا، تفضل طبعًا.

واستدار إلى زميله الذي يقف على بوابة غرفة الأمن هاتفًا:

ـ افتح البوابة يا يوسف.

رفع فرد الأمن الآخر الحاجز الخشبي ليدخل الراكب الذي تحرك بسيارته دون أن يلقي السلام عليه وقد رسم ملامح الاستياء وعدم الرضا، وتخطى بسيارته بوابة الأمن في الطريق إلى فيلا الدكتور سالم...

أول عقبة استطاع أن يتخطاها بسهولة، بقي له أن ينجز مهمته الثانية في هدوء تام...

تعجب من ترتيب القدر، فرد أمن جديد لا يعرف زوار المكان أو أصحاب الفيلات، والأغرب في ترتيب القدر أن فيلا الدكتور سالم تقع آخر المجمع، وكما يرى وهو يجتاز شوارع المجمع التي تنتشر بها الفيلات بأسوارها الخشبية المنخفضة والحدائق الموزعة بعناية على جنَبَات الطرق... جميع الفيلات غير مسكونة، والظروف كلها ملائمة لمهمته المقدسة... تلك الترتيبات الإلهية التي تضفي طابعًا شرعيًّا يشعره بالاطمئنان على قدسية مهمته.

* * *

(١٢)

من دقات باب غرفته عرف العقيد أن الطارق هو النقيب أيمن الذي يدعي دائمًا الأدب المفتعل في طرقاته، فلم يبدُ مهتمًّا بالطرقات وهو يتطلع من نافذة مكتبه إلى الطريق الهادئ نسبيًّا ذلك اليوم. دخل النقيب أيمن وهو يتصنع ابتسامةً يكرهها العقيد، ويستمع إلى صوته الصاخب:

ـ كيف حالك يا باشا؟

ـ عرفت أي جديد من المشتبه؟

صمت النقيب جعل العقيد يلعنه بصوت غير مسموع؛ والذي التفت إليه وهو يحرك يديه في الهواء:

ـ خائب ككل مرة!

تعقدت ملامح النقيب وقد توقع هذه السخرية ولكنه ابتلعها مرغمًا وقال:

ـ يا باشا؛ المتهم لا يريد تغيير أقواله.

توقع أيمن تعليق العقيد المقبل، فقطع عليه فرصة التعليق وهو يرفع يديه مردفًا:

ـ يا باشا قمت بتعليقه من أرجله كما قلت لي وضربته وما زال مصرًّا على أنه لا يعلم أي شيء عن جريمة القتل.

هز كتفيه في يأس وهو يقول:

ـ أظن أنه لا يعرف أي شيء فعلًا عن الجريمة، وجعلت الرسام يأخذ منه تفاصيل وجه صديقه الذي يقول عنه أنه من بور سعيد والذي استضافه في الليلة نفسها؛ التي استضاف فيها الشيخ وأرسلنا نشرةً بالرسم إلى مديرية أمن بور سعيد.

صمت مرةً أخرى، ثم قال في صوت خفيض:

ـ سيادتك؛ تعلم أن مثل هذه الأمور تأخذ بعض الوقت.

خوفه من سباب العقيد جعله يقطع عليه التعليق مرةً أخرى وهو يقول:

ـ ولكن لا تقلق سعادتك، لن يمر يومان حتى يكون هذا الشاب حاضرًا بين أيدينا.

الصمت الذي ساد جعل أيمن يتوقع عشرات السيناريوهات لثورة العقيد فيه، ولكن الغريب هذه المرة أن العقيد اتجه إلى مقعده الجلدي وجلس عليه متناولًا إحدى السجائر المالبورو الحمراء؛ ليشعلها بتلذذ كعادته دائمًا، ثم راح يقول في صوت هادئ جدًّا أثار دهشة النقيب:

ـ اجلس يا أيمن.

جلس أيمن وهو يحاول أن يصيغ سيناريو آخر أكثر تفاؤلًا... العقيد يأخذ نفسًا عميقًا... إذن؛ هو مقبل على حديث هام للغاية:

ـ ذلك الإخصائي النفسي جاء وطلب مني استجواب المشتبه به وأنا رفضت.

رأى أيمن أنها الفرصة المناسبة ليظهر دعمه وتعاطفه مع العقيد:

ـ شاب قليل الأدب يا باشا، تحـ...

قاطعه العقيد وهو يقول في غيظ:

ـ توقف عن هذا النفاق الرخيص.

صمت النقيب وقد تبين له فشل تملقه، واستمع إلى العقيد الذي عاد ليقول في هدوء:

ـ أريدك أن تتصل به، وتطلب منه الحضور الآن لاستجواب المشتبه به كأنك صاحب العرض وكأني لا أعلم.

ـ حسنًا يا باشا.

رفع العقيد أصبعه محذرًا:

ـ كما قلت لك: كأني لا أعرف بالأمر، ويتم الأمر كله من خلال مكتبك.

ـ حسنًا يا باشا.

ـ اغرب عن وجهي الآن، ولا تنسى أن تطلعني على نتيجة الاستجواب، هل تفهم؟

نهض النقيب أيمن من على المقعد بسرعة وقال في حماسه المفتعل:

ـ حسنًا يا باشا.

غادر النقيب الغرفة وهو لا يبحث عن أي إجابات لهذا اللين المفاجئ من جانب العقيد...

تطلع العقيد إلى سيجارته التي قاربت على الانتهاء مستغربًا تآكلها بسرعة كبيرة، ولكن عقله عاد لينشغل بلينه بعد رفضه الشديد لاستجواب فارس للمشتبه، وذلك لأنه تمنى أن ينجح فارس في استخراج معلومات أخرى من المشتبه مستخدمًا ألاعيبه النفسية معه...

أكثر ما يؤرقه أن يستغرق أي ملف جنائي معه أكثر من يومين، فهذا نذير شؤم وشماتة مرتقبة من أقرانه، وآخر ما يتمناه في الوقت الحالي هذه الشماتة.

~~~~~~~
~~~~~~~

الفصل الثاني

"يُدْعَى أمينًا وصادقًا وبالعدل يحكم ويحارب"

(إصحاح ١٩ من رؤيا يوحنا اللاهوتي / سفر الرؤيا)

(١)

أوقف الرجل سيارته أمام بوابة فيلا الدكتور سالم وتأمل الأشجار الطويلة التي تحيط بالفيلا، وشكر الله كثيرًا، فهو يشعر بيد العناية الإلهية وكأنها تتجاوب معه لتسهل له مهمته إلى حد مذهل... كان بحاجة إلى هذا الإيمان القوي الذي يتبرهن له عبر دلائل قوية؛ تفيد أن الله يبارك هذه المهمة إلى أقصى حد، فليست هناك ظروف أكثر ملاءمةً من هذه...

ظهر رجل متوسط الطول، نحيل أبيض البشرة من داخل الفيلا ماشيًا في خطوات سريعة على الممر الحجري ليفتح للزائر البوابة المنخفضة؛ فيتحرك الزائر بسيارته فوق الممر الحجري حتى يتوسط الممر... نزل الراكب وقلبه يدق بقوة مصافحًا الدكتور الذي استقبله بابتسامة ودودة، ووضع الدكتور يده على ظهر الرجل وهما يتجهان إلى داخل الفيلا قائلًا بلهجة مُرحِّبة:

ـ تفضل يا أستاذ مؤمن.

ـ شكرًا يا دكتور.

دخلا إلى الفيلا ومشَيا إلى غرفة المعيشة التي تتوسط الصالة الواسعة للفيلا، دعاه الدكتور للجلوس؛ فجلس مؤمن على أريكة جلدية مريحةٍ جدًّا، وشعر أنها تبتلعه إلى حد كبير وتبعث على

الاسترخاء، ساعده ذلك على أن يعيد الهدوء لعضلات جسده المتوتر، والدكتور ظل واقفًا وهو يقول:

ـ هل تفضل شرب الشاي قبل البدء في النقاش؟ البراد يغلي الآن!

ـ حسنًا يا دكتور.

غاب الدكتور بضع دقائق، فتفحص مؤمن بعينيه المكان من حوله. كل شيء يبدو منظمًا وفي مكانه؛ مما يعني أنه وحيد ولا يأتيه زوار كُثر. الأثاث والديكور يدلان على ثراء الرجل، ولكنهما في الوقت ذاته يَنُمان عن المفضل لديه؛ فهو يفضل الأثاث الأمريكي... معلومات مؤمن عنه أنه عاش عشر سنوات في كاليفورنيا، ربما لهذا السبب تبدو الفيلا مؤثثةً على الطراز الأمريكي...

عاد الدكتور يحمل صينيةً عليها كوبا شاي وضعهما على المائدة المنخفضة وطبق بسكويت جاهز. لفتت نظر مؤمن مكعبات السكر؛ فتبسم قائلًا والدكتور يتخذ مجلسه على الكنبة الطويلة:

ـ ما زالت تفضل مكعبات السكر هذه يا دكتور! كنت بدأت أعتقد أنها اختفت من الأسواق.

ضحك الدكتور وهو يقول:

ـ والله يا أستاذ مؤمن؛ إني أفضل هذا النوع من السكر، وأظل أبحث عنه حتى أعثر عليه.

انقلبت ملامح مؤمن للجدية بعض الشيء وهو يميل قليلًا نحو الأمام قائلًا:

ـ يا دكتور هل من الممكن أن أطلع على نسخة الكتاب الذي تحدثنا بشأنه.

ـ طبعًا.

نهض الدكتور بخفة من مكانه، واتجه إلى مكتبة متوسطة الحجم تتخذ زاويةً في الصالة الكبيرة للفيلا، وقد أولى ظهره للضيف الذي تابعه لبعض الوقت، ثم مد يده في جيبه الأيمن وأخرج قارورةً صغيرةً، تأملها قليلًا في الوقت الذي جال الدكتور ببصره على رفوف المكتبة ليستخرج ملفًّا أزرق كبيرًا يحتوي الكثير من الأوراق، وتأكد من أنه النسخة الأخيرة المعدلة لكتابه، ثم عاد مرةً أخرى وجلس على الكنبة مناولًا النسخة للضيف الذي أعاد كوب الشاي للصينية، وأخذ يقلب في صفحات الكتاب، ورفع حاجبيه في إعجاب:

ـ بحث مهم، ويبدو دسمًا يا دكتور!

ـ بالفعل، أخذ مني الكثير من الوقت حتى أتمَمْته.

توقف عند صفحة ما بعينها، ثم وضع الملف على حافة المائدة أمامه، ووجه نظره إلى الدكتور متسائلًا:

ـ لقد وجدت وأنا أتصفح البحث أن سعادتك تتكلم عن زكاة المال عند الشيعة والسنة.

ـ نعم.

ـ إذن؛ من خلال بحثك أيهما وجدته أفضل يا دكتور.

ـ الآراء الفقهية، ليست من تخصصي صراحةً، مثل هذه الأمور تسأل فيها رجل دين متخصص. كل ما يرد في البحث أني أعرض نوعين من الزكاة...

فعند الشيعة يعتبرون زكاة المال هي الخُمس، ويستدلون في ذلك على الآية الكريمة التي تقول: {وَاعْلَمُوا أَنَّمَا غَنِمْتُمْ مِنْ شَيْءٍ فَأَنَّ لِلَّهِ خُمُسَهُ}، والسُّنة حددوا نسبة الزكاة باثنين ونصف في المائة على أي مال ينقضي عليه حولٌ كاملٌ ولم يُسْتَخدم، ويشمل هذا أيضًا الأشياء العينية غير المستخدمة مثل الذهب...

فكما تعلم؛ تتعدد الآراء الفقهية بين مختلف المذاهب وداخل المذهب الواحد، ودوري هنا أن أعرض هذه الآراء الفقهية، ولا أقوم بتفنيدها أو الاعتراض عليها؛ لأنه في مسألة أداء الزكاة فإنها تتبع الفقه، أما تأثير أداء الزكاة على الحياة الاقتصادية هي التي أتناولها بالشرح والتحليل.

توتر الدكتور قليلًا لأنه لم يبدُ على مؤمن الاقتناع بإفادته بشأن هذا الموضوع وقد لزم الصمت، فحاول أن يُنعِش الموقف بأن تناول كوب الشاي الخاص به، وهو يقول له:

ـ تفضل يا أستاذ مؤمن وخذ معه بسكويت، إن طعمه لذيذ.

ابتسم الضيف ابتسامةً رسميةً وهو يتناول كوبه وقطعةً من البسكويت، وساد الصمت نصف دقيقة بينهما حتى قطع الضيف الصمت وهو يعيد الكوب إلى الصينية، ويتناول ورقةً من جيب سترته الأيمن ويفضها متطلعًا لما فيها قائلًا:

ـ لقد عرفت يا دكتور من الحديث معك سابقًا في الهاتف أن لديك ولَعًا بالقيم العدَدية للحروف العربية حتى أنك كتبت عنها مقالًا كاملًا في واحدة من المنتديات على النت، وأنا قرأت مقالك واستفدت منه كثيرًا.

ـ فعلًا!

إجابة مقتضبة، لا بأس، ولكن الضيف كان يعد له مفاجأةً على غير العادة، وناوله الورقة قائلًا في هدوء بدت نبرته غير محببة للدكتور سالم:

ـ إذن؛ من الممكن أن نستفيد من خبرتك في ترجمة هذه الورقة.

أمسك الدكتور بالورقة، فهو يحفظ جدول القيم العددية للحروف العربية عن ظهر قلب، وراح يترجم الأرقام إلى حروف بصوت غير مسموع، ولكن شفتيه كانتا تتحركان، وكلما ترجم المزيد ازداد انعقاد حاجبيه، والضيف يتأمله في اهتمام شديد... شعر الدكتور بأن جفنيه وكأنهما يزدادان وزنًا، ويجاهد بعض الشيء لفتحهما، ولكن عقله ما زال نشطًا ويعمل بسرعة فائقة.

٦_٥٣٠_١٠٣٠٧٠_٥٦٥٠٠_٦_١٠٣٠٧٠_٥٧٠٠٦٠٠٨٠_

٤٠٦٠١_٢٦٤٠٠٢٠٤٠_٢٠٣٠٤٠_٢٠٦٣٠٤٠٣٠١_٦_

٢٢٠٠_٢١٢٢٠٠١٣٠١٢_٣٠_٩٠_

تساقطت الأرقام أمامه من على الورقة، وحلت مكانها الحروف في سرعة كبيرة حتى انتهى من ترجمة الأرقام كلها إلى جملة واحدة مفهومة وغريبة جدًّا في الوقت نفسه، فأطلق ضحكةً مبتورةً مستنكرةً وهو يرفع عينيه إلى الضيف وقد بدأ يشعر بدوار خفيف:

ـ ما هذا يا أستاذ مؤمن؟

ـ هل فهمت ما فيها؟

ـ نعم هذه آية من...

ـ أنا أعلم ما فيها، هل فهمت أنت ما المقصود منها؟!

استنكر عقل الدكتور اللهجة الحادة التي تحدث بها ضيفه، وما سر اهتمام الضيف بها، ولماذا يجب عليه أن يفهمها؟ أي نوع من الاختبارات السخيفة هذه.

ازداد دوار رأسهِ، وقد بدأ يشعر بأن عينيه تحرقانه قليلًا كأنها تستجديه لينام... وشعر كأنه لم يَنَمْ ثلاثة أيام متواصلة.

ـ أنا مسلم يا...

لا يستطيع أن ينهي الجملة، أو كأنه نسي اسم ضيفه. عقله بدأ يتباطأ... مؤشر مقلق جدًّا... حاول أن ينهض ولكن قدميه خذلتاه، فشعر بتوتر مضاعف... قاطعه الضيف وقد علَت نبرة صوته مكتسية بالغضب:

ـ لقد قالوا لي إنك لن تفهم ما المقصود منها.

ـ لم أعد أفهم ما الذي تريده بالضبط؟!

الإجابة الروتينية المعهودة عندما يتحول الموقف ليكون غريبًا وخارج المألوف... عندما يبدأ عقله في التراخي والرغبة التامة في الكسل والتوقف عن العمل بقيت إجابته هي آخر الأشياء التي أنتجها العقل قبل أن يسقط من غيبوبته المحتمة.

ـ يبدو من ظاهرك أنك إنسان صالح، ولكنهم قالوا لي أيضًا لا تنخدع بظاهر أمثالك. الشياطين تستطيع أن تتقمص مظهر الصالحين بمهارة.

شياطين! عن أي شياطين يتحدث هذا؟ ما الذي يحدث بالضبط؟ هذا هو الارتباك... لحظةٌ تداخلت فيها الأصوات، وتحول الأمر في عقلٍ راح ينزلق نحو غيبوبة مفاجئة إلى فوضى من الأسئلة؛ تضاعفت وتداخلت مع صوت ضيفه الذي كان يأتي من أعماق بعيدة مصحوبًا بمكبر للصوت غريب.

ـ قالوا لي إنك لو كنت مؤمنًا كنت ستفهم ما هو المقصود من هذه الآية، ولكن لأنك فاقد للإيمان لن تستطيع معرفة مقصدها أبدًا.

آخر ما فكر به الدكتور أنه دعا مجنونًا لدخول بيته، ولو كان ما قاله هذا الأخرق نوعًا من الدعابات فهي من العيار الثقيل و...

لا شيء... ظلام دامس وآخر ما انطبع في ذهنه: ضيفه ينهض من على مقعده ويتقدم نحوه بسرعة.

*** * ***

(٢)

كان شارع أبوقير مزدحمًا في مثل ذلك الوقت مما ضاعف شعور فارس بالضيق والغيظ وهو يتنقل ببطء شديد بين الحارة والأخرى

محاولًا أن يتجاوز هذه الزحمة المرورية الخانقة التي كانت تزداد كلما اقترب من سيدي جابر المحطة...

كان يجهز لعشرات الأسئلة التي يود طرحها على المشتبه به، ولكن رفض العقيد حال بينه وبين أن يتعرف على دوافع هذه الجريمة الطائفية بالدرجة الأولى.

اتجه بالسيارة يمينًا متخذًا طريق الكورنيش. كان دائمًا لا يحسن التفكير إلا وهو جالس بشكل مباشر أمام البحر، فدار بالسيارة مع أول منعطف صادفه متخطيًا مسرح السلام على يمينه، ثم توقف بالسيارة جانبًا بعد نادي القوات المسلحة على البحر، ونزل من السيارة (الفيات ١٢٨).

اتجه إلى سور البحر، وجلس عليه موليًا ظهره للطريق الذي تتسارع عليه السيارات بشكل جنوني.

اهتزاز الهاتف الجوال في جيب بنطاله جعله يخرج من حالة الاستغراق هذه، ويخرجه ليتطلع إلى الشاشة التي ظلت تومض باسم النقيب أيمن، فضغط الزر وهو يضعه على أذنه قائلًا بلهجة غير مُرَحِّبة:

ـ السلام عليكم.

ـ وعليكم السلام يا سيدي، أين أنت؟

رد عليه فارس بخشونة:

ـ لماذا؟

ـ اسمعني؛ لقد علمت بما حدث بينك وبين العقيد وأنك كنت ترغب في استجواب المشتبه به وأنه رفض.

لم يعلق فارس، بل التزم الصمت لأنه علم أن بعد هذه الافتتاحية عرضًا قد يكون جيدًا، فأضاف النقيب:

ـ يا سيدي؛ سأجعلك تستجوبه في مكتبي كما تشاء، ولكن يجب أن يظل هذا الأمر سرًّا بيني وبينك، اتفقنا؟!

لم يبدِ فارس أي اهتمام أو هكذا تصنع عدم الاهتمام وسأل:

ـ متى؟

ـ الآن لو أحببت، سأسهر اليوم في المكتب.

فكر فارس قليلًا؛ فهو الآن ليس بالمزاج المناسب لعمل أي شيء، خاصةً وإذا كان ذا أهمية، ولكن الحماس والفضول عادا إليه في اللحظة الأخيرة فأجاب باقتضاب:

ـ حسنًا؛ أنا قادم الآن.

أنهى فارس الاتصال وتأمل البحر قليلًا، ثم نهض من على السور متجهًا إلى سيارته؛ ليتخذ طريق العودة وهو يدرك أنها مناورة سخيفة من العقيد الذي تراجع عن رفضه، ولكن ذلك طرح في ذهنه تساؤلًا

آخر، إن تغير موقف العقيد المفاجئ يعني أنه أصبح يحتاج إلى ضَمِّهِ في سياق التحقيقات والاستفادة منه، وكان ذلك بمثابة عرض عمل، ولكن بشكل غير رسمي.

* * *

(٣)

ـ هل من الممكن أن تتركنا بمفردنا؟

تطلع إليه النقيب أيمن للحظات، وكأنه لم يفهم طلب فارس، فكرر قوله:

ـ ممكن.

صمت لثوان، ثم نهض مبتسمًا وهو يقول:

ـ نعم؛ ولم لا؟!

ثم تناول هاتفه الجوال يضغط أزراره، ووضعه على مكتبه قريبًا من فارس وسيد وهو يقول:

ـ ولكني سأقوم بتسجيل هذا الاستجواب، لأنه مهم كما تعلم.

تحرك باتجاه الباب، وقبل أن يغادر قال لفارس في هزل:

ـ لقد زودت هاتفي الجوال بذاكرة ٣٢ جيجا أول أمس.

كالعادة لم يعلق فارس، وظلت ملامح وجهه جامدةً، فغادر النقيب الحجرة مغلقًا الباب...

نظر فارس بعض الوقت إلى سيد الذي انكمش على المقعد المقابل له، وعيناه تتحركان كأنهما تبحثان عن شيء محدد في أرضية الغرفة سقط منه سهوًا. قطع فارس الصمت قائلًا في هدوء:

ـ سيد.

في البداية لم يرد سيد وظل منشغلًا بالبحث عن شيء وهمي في الأرض، فكرر فارس نداءه، فرفع سيد عينيه متسائلًا، فابتسم فارس كأنه يحاول أن يبُث إليه بعض الطمأنينة ثم قال:

ـ كم عمرك يا سيد؟

ـ ٢٣.

ـ ماذا تعمل؟

ـ نقاش.

ـ هل هو عمل مُربِح يا سيد؟

عينا سيد الزائغتان ركزتا أخيرًا على فارس مستنكرًا السؤال وهو يقول:

ـ وما علاقة هذا السؤال بالاستجواب سعادتك؟

لم يرد عليه فارس بل ظل يتطلع إليه في صمت... صمت بدا لسيد أنه مخيف، بالفعل هذا هو الانطباع الذي يريد أن يتركه فارس لديه، بعض من الليونة والكثير من الصمت المخيف، فأجاب سيد:

ـ نعم؛ يا باشا، تعتمد على الزبائن، هناك فئة من الزبائن ميسورة وأخرى لا، وفئة أخرى بخيلة، الناس أشكال وألوان سعادتك.

ـ هل أنت سعيد بالالتزام يا سيد؟

سؤال آخر أشد غرابةً، وقَفْزٌ من موضوع إلى موضوع آخر، إرباكٌ لعقل سيد، إرباك متعمد من جانب فارس ليحاول أن يَشُلَّ لديه آليات الدفاع التي تنطلق تلقائيًّا لتحصينه من الأسئلة التي يخشاها، وتقطع عليه طريق الانشغال بالكذب أو التفكير فيه على الأقل...

أجاب سيد:

ـ الحمد لله يا باشا.

ـ هل أحببت من قبل يا سيد؟

عقل سيد يحاول أن يرتب إجابات تبدو مقنعةً، ولكنها تنهار كلها مع هذه الأسئلة غير المتوقعة، وعقله يبدأ لحظةً بلحظة بالتخلي عن الحذر، ويألف وجود هذا الشخص الآخر مع قليل من الاطمئنان...

ـ حب الله أهم شيء يا باشا.

ـ والبنات.

ـ لقد تاب الله عليَّ يا باشا بعد الالتزام.

ـ ما هو اسم أبيك يا سيد؟

الآن عقل سيد في حالة من الفوضى، وقد انشغل بالإجابة عن أسئلة غير منسقة وغير مترابطة وكل الأكاذيب التي كان ينوي ترتيبها وتنسيقها بدأت تتداعى...

ـ أحمد يا باشا.

حان وقت السؤال المباغت الذي قد يجيب على الاحتمال القائم في رأس فارس...

ـ لماذا تكره الشيخ يا سيد؟

ـ لأن...

صمت سيد تمامًا، رجحت كفة الاحتمال في رأس فارس فكلمة "لأن" هي إجابة كافية من أجل تأكيد الاحتمال، سيد يستطرد بعد صمته القصير:

ـ لأنه السبب فيما أنا فيه الآن.

ـ هل كان يذكر المسيحيين في دروسه يا سيد؟

ـ مثل ماذا يا باشا؟

سيد يحاول أن يستجمع قواه وأن يتوخى الحذر من جديد، محاولة غريزية يتوقعها فارس، فكرر فارس السؤال بصيغة أخرى:

ـ هل كان يحرضكم على المسيحيين؟

ـ كلا يا باشا. كل ما كان يقوله بشأنهم ألا نتخذ منهم أصدقاء، لأن الصداقة معهم تعني الولاء لهم، وبذلك أكون واحدًا منهم، وأن تهنئتهم بأعيادهم الدينية من المحرمات؛ لأنها تعني إقرارًا مني بصدقها، وأن أشتري احتياجاتي من رجل مسلم خير من أن أشتريها من رجل مسيحي إلا في الضرورة فقط.

لم يكن هذا ما يبحث عنه فارس بالتحديد، وهذا أقل من أن يكون دافعًا لجريمة مرعبة كهذه، كان يجب أن يفكر في سؤال آخر من الممكن أن يجيب بعضًا مما يفكر فيه:

ـ هل هذا كل ما قاله عن المسيحيين، هل هذه هي كل مواضيعه عنهم؟

هناك احتمال أن يكون هناك ما هو أبعد من ذلك، شيء يصلح أن يكون دافعًا مقنعًا للجريمة، مثل أن يكون الشيخ قد سعى لنشر الدعوة الإسلامية بين المسيحيين من خلال الشباب الملتزم، وهذا سبب يبدو منطقيًا إلى حد قتله بهذه الطريقة.

ـ يا باشا، ذات مرة تحدث في أحد دروسه عن رجل مسيحي منذ زمن طويل كان يؤمن بأن المسيح ليس إلهً كما يزعم المسيحيون، وتحدث عن إنجيل ما؛ المسيحيون يخبئونه، يقول

نفس هذا الكلام، وهذا أكبر دليل على أن الإسلام يقول الحق وهو من عند الله.

كان ذلك مفاجئًا بالنسبة لفارس إلى حد كبير؛ ولم يضع في حسابه احتمالًا كهذا، ويبدو غريبًا كدافع للقتل، ثم إنها المرة الأولى التي يسمع فيها هذه القصة التاريخية الغريبة، ونتيجةً لارتباك الاحتمالات في عقله سأل سيد:

ـ ألم يتكلم من قبل عن وجوب نشر الإسلام بين المسيحيين؟

ـ لو فكر في ذلك يا باشا لم تكن الحكومة لتمهله أو تمهلنا الوقت لإنهاء جملته، ولربما كنا اعْتُقِلْنا جميعًا بسبب إثارة موضوع مثل هذا في المساجد.

الصمت الذي ساد نتيجةً للارتباك الذي كان من نصيب فارس هذه المرة. نهض فارس، فنظر إليه سيد يسأله:

ـ ألن أخرج من هنا يا باشا؟

نظر إليه فارس معقود الحاجبين ثم قال ببطء لانشغال باله:

ـ لا أعلم يا سيد.

اتجه إلى الباب يفتحه، فنهض العسكري من على مقعده ينادي بصوت عالٍ، ويدير رأسه يمينًا:

ـ الباشا خرج يا باشا.

ظهر النقيب أيمن من حجرة إلى يمين فارس وأسرع الخطى نحوه مبتسمًا:

ـ ما هذا يا رجل؟ لقد انهيت الأمر سريعًا، كنت أتوقع أن تستغرق وقتًا أطول من ذلك.

ـ لم أجد عنده شيئًا مفيدًا.

ـ وهذا ما يدفعني للاقتناع بأنه ليس له علاقة بالحادث، لقد حاولت من قبل، ولكن العقيد غير مقتنع بذلك.

هز فارس رأسه ثم قال:

ـ أنا مضطر أن أذهب لأني أشعر بتعب شديد.

ـ حسنًا يا فارس؛ مع السلامة.

ـ مع السلامة.

كانت خطواته بطيئةً وهو يشعر بخيبة الأمل، ولكنه توقف ملتفتًا إلى أيمن الذي نادى عليه قائلًا:

ـ فارس؛ لا تنسى هذا الجميل.

ابتسم فارس مجاملًا ثم لوَّح بيده مودعًا وغادر المبنى متجهًا إلى سيارته، كان يشعر بإرهاق شديد وأن رأسه على وشك الانفجار.

*** * ***

(٤)

استيقظ فارس في حركة عصبية على صوت رنين هاتفه الجوال، أدار رأسه يمينًا حيث وهج شاشة الهاتف الجوال الموضوع على (الكومودينو)، التقط الهاتف الجوال متطلعًا في تساؤل لهذا الرقم الغريب، ضغط الزر قائلًا في صوت مخدر:

ـ ألو.

ـ يا باشا.

ـ من؟

ـ أنا أمين الشرطة باسم، والباشا أيمن يريدك حالًا.

ـ الآن.

ـ نعم؛ لقد قال لي أن أوقظك مهما كان الأمر، هناك جريمة قتل على طريق مصر الإسكندرية الصحراوي.

نهض فارس من السرير فورًا وقد تبخر عنه النوم تمامًا وهو يقول:

ـ أين؟

وصف له أمين الشرطة مجمع الفيلات الفاخر الكائن بطريق مطار برج العرب أو كما يسميه أهل الإسكندرية الكافوري...

استغرب كيف استطاع أن يبدل ملابس النوم بهذه السرعة، ويغسل وجهه ثم يتناول مفاتيح البيت والسيارة من على (الجزامة)، ويفتح باب الشقة ليجد نفسه مستقلًّا المصعد... لم يكن يمشي، ولكنه كان أقرب إلى الجري وهو ينزل درجات مدخل العمارة متجهًا إلى سيارته الفيات ذات اللون الأحمر الباهت... ركب السيارة وأدار المحرك الذي دائمًا ما يتطلب محاولةً أولى وثانيةً وثالثةً، ولكنه هذه المرة استجاب من المحاولة الأولى.

* * *

(٥)

وصل إلى مدخل مجمع الفيلات على طريق الكافوري الصحراوي، وقد وقف فردا الأمن الخاص بالمجمع كحرف الألف بعد ما شاهداه الليلة من ملامح جريمة مرعبة لم يسبق لها مثيل، وهذا الوجود المكثف للشرطة قضى على أي ذرة نوم قد تلوح على وجهيهما. أوقف أمين شرطة فارس وتقدم نحوه بملامح جامدة صارمة ومال على نافذته يسأل:

ـ نعم!

ـ أنا فارس، النقيب أيمن يعرف بقدومي.

استغرق أمين الشرطة بعضًا من الوقت ينظر بريبة سخيفة إلى فارس تماشيًا مع أحداث الليلة الهامة، ثم اعتدل يرفع جهاز اللاسلكي إلى فمه يتحدث فيه للطرف الآخر، ثم أشار إلى فردي الأمن أن يفتحا له الحاجز الخشبي...

أصدر المحرك صوتًا عاليًا والسيارة تواصل مسيرها إلى الداخل... تطلع فارس إلى ذلك المجمع الساكن والهادئ جدًّا، نفس الملحوظة التي شغلت بال زائر الدكتور سالم هي التي شغلت بال فارس: إنه لا يوجد أحد في هذه الفيلات. ظروف مثالية لارتكاب جريمة جنونية... حاول أن يتخيل فارس شكل الجريمة الحالية، وعشرات الصور تتقلب في رأسه مع فلاشات مزعجة...

تقدم من فيلا تسطع فيها إضاءات خاصة وعربات شرطة بمصابيحها الزرقاء، أوقف السيارة، وغادرها وهو ينظر إلى حشد أمناء الشرطة ورجال بملابس مدنية ومخبرين، تقدم منه أمين شرطة والتوتر يأكل ملامحه:

- أستاذ فارس.

هز فارس رأسه، فمد أمين الشرطة ذراعه اليمنى ليتقدمه فارس وهو يتحدث إلى اللاسلكي يبلغ عن وصول الشخص المطلوب...

حاول فارس أن يسترق النظر من بين أغصان الشجر المتشابكة التي تحيط بالفيلا من جوانبها الأربعة، فضول... لا يستطيع الانتظار ولو لثانية على الرغم من أنه يعلم جيدًا أنه بعد أن يتخطى بوابة الفيلا سيرى كل شيء، إلا أنه لا يطيق هذه الثواني...

وتخطى بوابة الفيلا الخشبية القصيرة ونظر يساره إلى الحديقة الصغيرة وهاله ما رأى، فلقد كانت جريمةً جنونيةً بالفعل، وابتكارية إلى أقصى حد، وكأن القاتل تعمد أن تكون تحفةً فنيةً بلون الدم وإعدادها بالتأكيد يتطلب الكثير من الوقت وأيضًا الكثير من الهدوء.

أشعَرَ المشهد المهيب فارس بأنه يستحضر إحدى مشاهد صلب المسيح المهيبة ولكن بدموية شديدة إلى أقصى حد... ذلك الرجل النحيل المصلوب مثل المسيح تمامًا على صليب خشبي مُعَدٍّ له خِصيصًا...

كان العقيد يقف أسفل ذلك الرجل المصلوب وكأنه يتطلع بقرف إلى أحد التماثيل الرومانية، وفي فمه سيجارة مالبورو وإلى جواره النقيب أيمن الذي أدار رأسه إلى فارس، ولكن هذه المرة دون أي ابتسامة، ولكن بوجه أصفر مأخوذ بما يرى ولا يستطيع التعبير.

اقترب فارس من الاثنين بخطوات بطيئة رغمًا عنه. تتكشف له المزيد من التفاصيل الدموية التي تظهر كفلاشات أمامه كلما تقدم،

حيث أن جمجمة الضحية خسرت كل ملامحها وشكلها العام تقريبًا، وأصبحت تغطيها طبقة كثيفة من الدماء، ولا يظهر من هذا الوجه ضائعِ الملامحِ إلا فمٌ مفتوح، وصفًّا أسنان لا يظهر إلا القليل منهما مغطى بالدماء...

اليدان مثبتتان بمسمار صلب ٨ سم إلى لوح الخشب الأفقي والقدم مثبتة بمسمار صلب آخر إلى مسند خشبي يبرز من لوح الخشب الرأسي تمامًا كما شاهد فارس لوحات صلب المسيح في متحف اللوفر بباريس بصحبة ليندا.

الفرق بين اللوحتين أن الموجودة في اللوفر مرسومة بالزيت وهذه واقعية جدًّا ودموية بطريقة كابوسية، لم يتحدث فارس ولم يلقي السلام، فهيبة الموقف لا تسمح بأي كلمة في الوقت الحالي... الذي قطع هذا الصمت المهيب العقيد في انفعاله المعتاد وهو يلقي السيجارة بين قدميه قائلًا:

ـ كان هذا أيضًا رد فعلي فور رؤيتي للجثة.

نظر إليه فارس وهو يشعر بِتَشَنُّج عام في كل عضلات جسده، أطلق النقيب أيمن تنهيدةً طويلةً وهو يقترب من فارس ويسأله في توتر:

ـ ما رأيك؟

الإلمام الكلي الذي يستحضره عقل فارس وتساعده فيه حركة عينيه السريعة جعلت المشهد يسطع أمامه عدة مرات كفلاشات، ولكن باستحضار تفاصيل أكثر ومجزأةً... يد الرجل اليمنى تبدو وكأنها تحركت من مكانها...

الرجل شهد عملية إعدامه ولكن ببطء مفزع، يده اليمنى تحركت قليلًا كأنها تحاول أن تنتزع نفسها من ذلك المسمار الصلب ٨ سم، (فلاش باك) يأتيه من أعماق نفسه يعيد إحياء الرجل وهو: يقاوم على الصليب، ويحاول أن يحرك جسمه كله وهو يصرخ، خيط رفيع من الدماء يتفجر وهو يحرك يده اليمنى المثبتة بذلك المسمار الصلب.

أدار فارس رأسه إلى الخلف ليتطلع إلى تلك الآلة المثبتة على بعد خمس أمتار من الجسد المصلوب: منجنيق صغير... اتجه في خطوات سريعة إلى المنجنيق وأيمن يتبعه كطفل صغير، ثم يتطلع إلى آلة المنجنيق الغريبة صغيرة الحجم، ميكانيكا هذا المنجنيق يتحرك آليًّا دون تحكم من شخص ما...

استطاع أن يرى جليًّا من خلال ومضة الفلاش التي اعترت شاشة رؤيته أن الصندوق الخلفي للمنجنيق ممتلئ بالحجارة، وذلك الصندوق مزود بحساسٍ يُلَقِّمُ يد المنجنيق بالحجارة، ويد المنجنيق تنتصب رأسيًّا وتضرب وجه الرجل المسكين الذي يصرخ والدماء تتفجر من جبهته...

يد المنجنيق التي ضربت الرجل بالحجارة ذات مستويات متعددة، فهي بعد أن تُلَقَّم تنتصب واقفةً مرةً أخرى لتضرب مرةً صدر الرجل وأخرى تضرب ركبته اليمنى التي حاول تحريكها وقد ارتفعت ثلاثة سنتيمترات عن القدم اليسرى وهو يحاول أن ينتزعها بصعوبة من المسمار الصلب ١٢ سم، وعجز في الأخير عن فعل ذلك...

السفاح المجنون كان يعطيه الفرصة للنجاة، ولكنها شبه مستحيلة، فليس من السهل أن ينتزع الإنسان نفسه من مسامير صلبة طويلة تثبت أطرافه كلها إلى صليب خشب... الضحية كان بين نارين: احتمال آلام نزع أطرافه من تلك المسامير، واحتمال المنجنيق الذي يضرب كل خمس ثوان جسمه في كل موضع بالحجارة التي تناثرت أسفل الصليب على مسافات متقاربة...

(سوستة) يد المنجنيق الخشبية قوية، فهي كانت تضرب جسد الضحية بالحجارة بمنتهى القوة، حجارة أخرى تضرب الجانب الأيسر من وجه الضحية مصحوبة بنافورة دم صغيرة تتفجر من شجٍ عميق أحدثته الطوبة الضاربة.

قوة الألم العظيمة دفعت بشكل غريب قوةً كبيرةً إلى جسد الضحية التي نجحت في أن تخلص يدها اليسرى من المسمار الصلب، ولكن ضربةً أخرى بيد المنجنيق في يده اليسرى تعيدها إلى منتصف الطريق مع صرخات عظيمة تذهب كلها سدًى... آثار الطوبة الضاربة تبدو

واضحةً وهي تختلط بدماء الرجل في باطن يده اليسرى والجزء البارز من المسمار الصلب.

الضحية تتلقى ضربةً أخرى في عنقها تتبعها ضربة بحجارة ثانية تصيب فكه؛ ليتدلى وجهه على صدره وهو ينزف الدماء بغزارة، لم يمت بعد، ما زال حيًّا شبه غائبٍ عن الوعي؛ يشعر بآلام رهيبة في كل أنحاء جسده، تلك الآلام التي بدأت تتلاشى تدريجيًّا، ويحل مكانها خدر واسع في شتى أنحاء جسده مصحوبًا ببرودة شديدة ودوار قاسٍ...

النَّفَس بعد أن كان سريعًا أصبح بطيئًا وما زال يتباطأ، الضحية لا تعلم أن هناك الكثير من الدماء تتجمع الآن في الرئتين لتحول بينه وبين التنفس، الأكسجين يتبخر في الدماء ويحل مكانها ثاني أوكسيد الكربون، التنفس يتوقف تمامًا، كم مضى من الوقت حتى توقف تنفسه تمامًا، لا يعلم، الوعي يبدأ بالتلاشي بسرعة خرافية بعد أن كان يتلاشى في البداية بطيئًا، ثم ظلام دامسٌ مرةً ثانيةً ولكنه دائم هذه المرة.

يتخيل فارس السفاح شبحًا أسود يقف على بعد عشرة أمتار يراقب الضحية وهي تلفظ أنفاسها الأخيرة، ثم يبتعد في هدوء ويغلق من ورائه البوابة الخشبية لحديقة الفيلا... هدوء تام.

ـ فارس، هل ما زالت هنا؟

استدار فارس يمينًا إلى النقيب أيمن متفاجئًا بوجوده ثم يقول في هدوء:

ـ كنت أتخيل.

هز أيمن رأسه غير مهتم وسأله فارس في اهتمام:

ـ هل ترك القاتل رسالةً مثلما فعل مع الضحية الأولى.

ـ لم أعاين القتيل حتى الآن صراحةً.

توجه فارس إلى الجثة ولفت نظره ذلك الرجل الواقف بالقرب من باب الحديقة يتحدث إلى العقيد باهتمام وقلق شديدين، فسأل فارس أيمن:

ـ من هذا؟

ـ هذا أحد أصحاب الفيلات، اسمه الأستاذ وحيد وهو من عثر مصادفةً على القتيل وأبلغ الشرطة.

كان الرجل طويلًا، شعره مصفف بعناية وبشرته خمرية، سأل فارس أيمن مرةً أخرى وهو يتفحص الضحية:

ـ هل شاهد أي من فردي الأمن القاتل وهو يخرج أو يدخل إلى هذا المجمع؟

ـ كلا هذا القاتل، دخل وخرج من المجمع كالشبح بدون أن يراه أحد.

انعقد حاجبا فارس وهو يتطلع إلى المنجنيق مشيرًا إليه:

ـ وهذا المنجنيق كيف وصل إلى هنا؟

ـ لا أعلم، كما قلت لك؛ الشخص الوحيد الذي دخل هذا الرجل، والذي أبلغ عن القتيل والقتيل قبل موته أبلغ أمن البوابة بأنه يتوقع حضور زائرٍ من دار نشر ما اسمه مؤمن وكان هذا قبل مقتله بساعة.

سكت وفارس يتطلع إليه في فضول واهتمام مستنكرًا أن الكلام انتهى إلى هذا الحد، فأكمل أيمن وقد فهم تلميح فارس:

ـ لا توجد دار نشر اتصلت به أو شيء من هذا القبيل، أعتقد أن هذه كانت طريقة السفاح للوصول إليه.

عاد فارس يتطلع إلى الرجل مرةً أخرى، التقت عيناه بعيني الرجل الذي يتحدث مع العقيد، شعر ببرودةٍ تتسلل إليه وهو يركز في عيني الرجل الثاقبتين غير المريحتين على الإطلاق، بدا له أن الرجل أيضًا يحدق فيه ويهتم لأمره، قال فارس لأيمن:

ـ هل تحققتم إذا كان المبلغ عن الحادثة فعلًا من سكان القرية أم لا؟

ـ أرسلت المخبر ليأتيني بقائمة قاطني المجمع السكني من رجلي الأمن، والأحمق فرد الأمن أضاع القائمة منذ فترة، ومشرف أمن المجمع سيأتي بواحدة أخرى غدًا، وقبل أن تعلق؛ فمشرف الأمن

ليس من سكان الإسكندرية، ولكنه من سوهاج وهو في إجازة الآن وهو من معه القائمة.

ـ إذن؛ يجب أن تمنعوه من مغادرة المجمع السكني لحين انتهاء...

ـ هل أنت مجنون أم ماذا؟ تريد مني أن أمنعه من مغادرة المجمع السكني ثم أكتشف بعد ذلك أنه ذا شأن في الدولة أو أن له أقارب مهمين في الدولة، فليذهب إلى الجحيم، ثم إننا ليلًا والشركة مغلقة، أنا هنا لأؤدي عملي في حدود ما هو مطلوب مني فقط، وليس عليَّ أن أُعمِل عقلي فيما يدور.

تجاهله فارس وهو يركز النظر على الجثة وقد وجد أنه لا جدوى من الحوار معه، فالاستمرار في الحوار معه سيصيبه بالمزيد من الإحباط والغيظ، فم الجثة لا يوحي بأن ثمة ورقةً محشورةً فيه و...

يد الضحية اليمنى تبدو مكورةً وكأنها تقبض على شيء أو هناك شخص ما جعلها تقبض على شيء ما، اقترب فارس من يد الرجل ومد يده يفرد أصابع الرجل المغطاة بالدماء المتخشبة بقوة، لتسقط ورقة عنها ملوثة بالدماء، التقطها فارس وتطلع إلى الأرقام التي بها...

التصق به أيمن في فضول حتى تلاقت أنفاسهما، فابتعد عنه فارس قليلًا في ضيق، ولكن لم يبدو أن أيمن قد فهم، عينا فارس تجري على

الأرقام وتسقطها وتحل مكانها الحروف حتى اكتملت الصورة، وأيمن يردد في خلفية الأصوات التي تفكر داخل عقل فارس:

ـ رسالة أخرى مشفرة من رسائله الغريبة هذه.

استطاع فارس أن يقرأ الرسالة المشفرة بسهولة بالغة، لقد حفظ جدول القيم العددية للحروف عن ظهر قلب، آية مقدسة أخرى: "وله على ثوبه وعلى فخذه اسم مكتوب: ملك الملوك ورب الأرباب"... ولكنه استغرب تلك الكلمة الخارجة عن السياق وهي "صلب"، قطع حبل أفكاره اقتراب العقيد وفارس يعيد ترديد الآية لنفسه بصوت أقرب إلى الهمس:

ـ ابن الكلب كتب طلاسم من الإنجيل مرةً أخرى.

التفت إليه فارس وهو يمسك بالورقة:

ـ رسالة أخرى يريد أن يبلغنا بها.

ـ إذن فليقل له أحد أننا مسلمون.

هز فارس رأسه فلم يكن في مزاج يسمح بالدعابة، حاول أيمن أن يتدارك الموقف بأن ابتسم للعقيد الذي لم يكن مهتمًّا برد فعل أي منهما، أخرج واحدةً من سجائره وهو يسب ويلعن في القاتل الذي يعكر صفوه، وأشعل سيجارته وهو يسأل أيمن:

ـ ما هي آخر أخبار الولد البور سعيدي، عثروا عليه أم لا؟

ـ أخيرًا يا باشا استطعنا أن نعثر على شقيقه الأكبر، والضابط هناك ضغط على شقيقه حتى اعترف بأن أخاه سافر لأخواله في نجع حمادي، وأُرْسِل بلاغ لمديرية الأمن بنجع حمادي.

ـ من المؤكد أن أهله سيبلغونه بأن الشرطة تبحث عنه.

ـ لا تقلق يا باشا، الأمر مسألة وقت وسيسقط في أيدينا.

ـ من السهل جدًّا يا حمار أن يخفوه هناك في الغيطان، أنت تتحدث عن قرى ومراكز ومشايخ، دنيا مختلفة تمامًا، الصعايدة لا يشون ببعضهم البعض.

ـ هناك دائمًا نذل مستعد أن يتكلم ـسعادتكـ ويفصح عن مكانه، كما قلت لسعادتك؛ إنها مسألة وقت فقط.

استغرق العقيد بعض الوقت يفكر في موضوع آخر ثم انطلق يقول فجأةً وأيمن يتصنع الاهتمام البالغ:

ـ ولكن ما يشغل بالي الآن أن هذا الولد البور سعيدي ليس القاتل، ومن غير المعقول أن يكون انتقل من هناك إلى هنا ليتم جريمته ثم ذهب لأخواله في نجع حمادي إلا لو كان سوبر مان.

ـ ليس من المعقول يا باشا أن يكون هو القاتل في هذه الجريمة بافتراض أنه القاتل في الأولى، لن تطأ قدمه الإسكندرية مرةً أخرى.

غادرهما فارس ليجري اتصالًا تليفونيًا في حين شعر العقيد بشيء من العقلانية في كلام النقيب أيمن ولم يفوت أن يسخر منه كالعادة:

ـ يبدو أنك تفهم إذن لماذا يصفونك دائمًا بالحمار!

ابتسم النقيب أيمن على الرغم منه والباشا يعود ليردد بينه وبين نفسه كما يفعل دائمًا:

ـ إذن؛ على نحو ما سيكون على علاقة بالقاتل وساعده في جريمته الأولى، هذا بافتراض أن المشتبه به المحتجز لدينا بريء من الاشتراك في الجريمة.

ـ على هذا النحو لدينا أكثر من شريك في الجريمة.

ـ الواضح أن الأمر كذلك. يبدو أنه تنظيم عصابي! يبدو أنني لن أنتهي من هذه القضية قريبًا، والموضوع أكبر مما كنت أتخيله.

توقف الحوار بسبب اقتراب فارس منهما وهو يضع هاتفه الجوال في جيب بنطاله ويقول للعقيد:

ـ هذه آية من الإنجيل من رؤيا يوحنا اللاهوتي.

لم يبدو على كليهما أن ذلك أضاف أي جديد لهما والذي أكد ذلك لفارس تعليق العقيد:

ـ كما قلت أنا، لقد نسخها من الإنجيل، ما الجديد الذي قدمته أنت؟

بدت على فارس خيبة الأمل ولكنه تجاوز ذلك شارحًا:

ـ هذه المرة الآية لا تقصد المسيح كما هو حال السابقة، ولكنها مقتبسة من رؤيا يوحنا اللاهوتي؛ تتناول الرؤيا سمات وملامح شخص آخر... المثير في هذه السمات على حسب ما ورد في الرؤيا، أنه: "يُدعى أمينًا وصادقًا وبالعدل يحكم ويحارب"... وفي موضعٍ ثانٍ "وهو مُتَسربلٌ بثوبٍ مغموس بدم ويدعي اسمه "كلمة الله" والأجناد الذين في السماء كان يتبعونه على خيل أبيض"... الرؤيا في هذا الموضع تحديدًا تتكلم عن شخص آخر غير المسيح سيأتي، ويقوم بعمل كل ما هو مذكور في هذه الرؤيا، شيء غريب.

تطلع إليه الاثنان في صمت ولم يتفهما سبب حيرته البالغة، لم يبالِ فارس بهما، الدكتور معاذ عندما اتصل به فارس لفت نظره إلى هذه المقاطع التي تقع كلها تحت عنوان "الراكب على الفرس الأبيض"، ولكن ما هي علاقتها بالرجل المصلوب؟

ما هو الرابط بين هذه الرسالة المقدسة وبين الضحية؟ هل هو الثوب المغموس بدم؟ أم إشارة إلى الجنود الذين يأتون ويتبعون ذلك الراكب على الفرس الأبيض ويبدؤون في حملة التطهير الكاملة من أعداء الراكب على الفرس الأبيض، والضحية بهذا الشكل هو رقم اثنين في قائمة التطهير!!

ـ أحتاج لأن أدخل بيت هذا الرجل، وألقي نظرةً على ما بداخله.

لم يرد عليه العقيد الذي خطى باتجاه المنجنيق يتأمله بإعجاب شديد، أيمن قال لفارس برقة:

ـ خذ راحتك يا فارس، ولكن رجاءً اترك مسرح الجريمة كما هو حتى لا تتلف الأدلة.

أومأ فارس برأسه واتجه إلى داخل الفيلا...

أول ما لفت نظره الأثاث الأمريكي المُوقَعُ في أماكنه بعناية شديدة وترتيب ينم عن ذوق عالٍ، طقطق خشب الأرض الباركية تحت أقدام فارس وهو يتجه إلى مكتبة الرجل، ويتطلع إلى كعوب الكتب فيها باهتمام بالغ، لم يستوقفه أي عنوان، فهو يبحث عن عناوين مريبة من الممكن أن تكون دافعًا جيدًا للقتل، وتعطيه تبريرًا يبدو مقبولًا لعقله المرهق بعشرات الأسئلة...

يريد عنوان كتاب من الممكن أن يلقي الضوء على فكر الضحية التي دفعت القاتل لقتله بهذه البشاعة كما وجد خيطًا ضعيفًا غير مفهوم حتى الآن، ولكنه يشير بطرف خفي لأسباب قتل الشيخ، يجب أن يكون هناك رابط مشترك بين الضحيتين، سمات الجريمة واحدة والزمن متقارب...

استوقفه ملف أحمر سميك، أخرجه بعناية من مكانه على الرف وتأمل عنوان البحث العريض: "خط التماس بين الإسلام

والمسيحية"... الغريب أن البحث المعنون لم يُكْتَب فيه اسم كاتب البحث، استوقف ذلك الأمر فارس قليلًا، وقلب في أوراق البحث وقد سجل عقله عددًا من العناوين المثيرة جدًّا.

"النسطورية وخط الكفاح السري"

"كيف تسلل إلينا؟!"

"التشابه الكبير والمفاجأة الكبرى"

"ورقة بن نوفل والرسالة الخفية"

"أريوس والهرطقة الأكبر في تاريخ المسيحية"

_ العقيد يقول لك أسرع.

التفت فارس إلى أيمن وتطلع إليه قليلًا ثم رفع أوراق الملف إلى مستوى نظر أيمن وقال في هدوء:

_ أحتاج لأخذ هذا الملف معي، احتمال أن أعثر فيه على معلومات تقربني من دوافع أو أسباب القاتل لقتل ضحاياه.

تفكر أيمن قليلًا ثم هز كتفيه قائلًا:

_ حسنًا؛ لا مانع ولكن اطويه حتى لا يراه أحد وبخاصة العقيد حتى لا يسبب لنا الصداع، ولن ننتهي وقتها من كلامه اللاذع، لا أريد أن أسمع صوته الآن، فهو رجل روتيني للغاية.

هز فارس رأسه وطوى الملف في يده اليمنى وأراح ذراعه محاولًا أن يخفي الكتاب بجانبه الأيمن قدر المستطاع وهو يغادر الفيلا متجهًا إلى سيارته، استوقفه العقيد وقد لاحظ الملف في يده، توتر فارس ولكن العقيد أنهى توتره بقوله:

ـ عندما تصل إلى نتيجة مفيدة من هذا الملف لا تنسى وقتها أن تطلعني على ما وصلت إليه.

ـ إن شاء الله.

اتجه العقيد إلى السيارة (البوكس فورد) وهو يلقي السيجارة أرضًا مخاطبًا السائق بقرف:

ـ هيا يا حيوان، دعنا نذهب.

ركب فارس سيارته وهو يشاهد الرجل الذي يرتاب بشأنه يتجه إلى سيارته (الجيب الشيروكي) السوداء مودعًا أمناء الشرطة والغريب أن الرجل أيضًا ألقى نظرةً بدت لفارس طويلةً بعض الشيء، وفارس يتابعه بتحدٍ من خلال زجاج سيارته، ويده اليمنى تدير محرك السيارة.

أدار الرجل رأسه إلى اتجاه آخر وقد وصل إلى سيارته، واستقلها متجهًا بها إلى فيلته، التي طُبِع رقمها في عقل فارس وهو يسير خلفه ببطء، نزل الرجل من سيارته وعيناه تلتقيان بعيني فارس للمرة

الأخيرة، يغلق باب سيارته ويتجه إلى الداخل، يبتلعه ظلام الفيلا، غريب لماذا تبدو الفيلا مظلمةً إلى هذا الحد؟

يتجاوزه فارس وقد ازداد ضغطه على دواسة البنزين، السيارة تسرع حتى يصل إلى البوابة، يتخطاها بسرعة ملتحمًا مرةً أخرى بالطريق السريع، يضيء مصابيح السيارة الشاحبة لتنير له مسافة خمسة أمتار على الطريق، وصوت المحرك يزداد علوًّا كلما زادت سرعة السيارة، يشغل المذياع محاولًا أن يصرف التفكير عن رأسه بصوت الأغاني الصاخبة... ينظر إلى الملف الأحمر إلى يمينه، يعلم أنه لن ينام الليلة، لربما قضى الليلة كلها يقرأ هذا الملف المثير، هذا الملف الذي يعتقد أنه ربما قتل صاحبه... ربما.

*** * ***

(٦)

ـ باشا؛ لقد قبضنا على الولد البور سعيدي وأخواله في نجع حمادي كانوا يحاولون تهريبه على مركب نيلي لأسوان، ومنها يركب شاحنةً لشحن البضائع كانت متجهةً إلى السودان، وتم ترحليه إلى مديرية الأمن في بورسعيد اليوم صباحًا...

وقف العقيد للحظات يفكر في كلام النقيب بعد أن غادر (البوكس)، ثم بدأ التحرك، فرافقه النقيب أيمن يتطلع إليه في صمت منتظرًا منه أي تعليق فقال العقيد:

ـ وماذا قال في التحقيقات؟

ـ أنكر أنه شريك في قتل الشيخ طبعًا، وقال إن معه دليلًا يثبت أنه لم يكن موجودًا وقت وقوع الحادث في مكان الجريمة.

هز العقيد رأسه وهو يستقل المصعد مع النقيب ولزم الصمت، فسكت النقيب أيضًا، حتى توقف المصعد في الطابق الرابع وغادرا المصعد باتجاه المكتب. تثاءب العقيد، ثم قال وهو يدخل مكتبه والعسكري يؤدي التحية العسكرية:

ـ إذن؛ أين كان وقتها؟

ـ قال في المحضر إنه كان مع والده في الميناء ببور سعيد ليستلموا شحنة ملابس مستوردة من أجل المحل الخاص بهم.

ـ هل هناك شهود على هذا الكلام؟

ـ أصحاب المحلات المجاورة لهم تطابقت أقوالهم مع أقوال المشتبه به، وأضافوا أنهم شاهدوه يومها هناك في المحل مع والده وشقيقه الساعة التاسعة ليلًا.

ـ ملعونة هذه القضية.

جلس العقيد على مقعده وهو يفلت نفخةً طويلةً ويتناول إحدى سجائره يشعلها في ضيق معقبًا:

ـ تلك القضية تزداد تعقيدًا يومًا بعد يوم ولا تريد أن تنتهي.

ـ معك حق يا باشا، عامةً؛ لقد تم تحويله إلى النيابة ومن الممكن أن يصدر أمر بحبسه احتياطيًّا، أو تفرج عنه النيابة لعدم كفاية الأدلة.

ـ أخبر العسكري أن يصنع لي فنجان قهوة.

ـ تمام سعادتك.

أدار وجهه ناحية الباب يهتف:

ـ أنت يا ابني.

دخل العسكري يقول:

ـ أوامرك يا باشا.

ـ فنجان قهوة للباشا وكوب شاي لي.

ـ هل قلت لك أن تطلب شيئًا لنفسك؟!

ارتبك النقيب واحمر وجهه من الإحراج وغمغم بصوت غير مسموع، ثم أشار للعسكري أن ينصرف وقد انقلبت ملامحه للضيق محولًا نظره للعقيد مرةً أخرى.

ـ والمشتبه به الذي بحوزتنا، هل هناك جديد بشأنه؟

بصوت مكتوم يحمل الغيظ أجاب النقيب:

ـ لقد تم عرضه اليوم على النيابة، وأمرت النيابة بحبسه خمسة عشر يومًا على ذمة التحقيقات.

ـ هذه القضية الملعونة لا تريد أن تصل لنهايتها والاتصالات بي لا تتوقف من قبل المسؤولين، ونفدت كل تبريراتي.

ـ كان الله في العون يا باشا.

ـ من المرجح بدرجة كبيرة أن ذلك الولد البور سعيدي لا علاقة له بالأمر، إذن؛ المشتبه الآخر سيد من المؤكد أنه له يد في هذا الأمر وهو بطريقة ساذجة غبية حاول أن يصرف أنظارنا عنه وعن القاتل، وهذا أكبر دليل على أنه هاوٍ وهذه هي المرة الأولى التي يشترك فيها في جريمة قتل.

ـ تمام يا باشا.

ـ هل قمت بتحريز هاتفه الجوال؟

ـ يقول إن هاتفه الجوال ضاع منه قبل الحادث بيوم.

ـ كذاب ابن كلب، وأنت كالحمار صدقته.

ـ كلا يا باشا لقد قمنا بتفتيش بيته ولم نعثر عليه.

تبدلت ملامح العقيد للغضب وهو يندفع إلى الأمام واضعًا السيجارة على المنفضة يقول في انفعال:

ـ يا حمار لأن هذا الكلب حمار مثلك، من المؤكد أنه قام بكسر هاتفه الجوال وألقاه في أي صندوق قمامة قريب من بيته، ولو أننا محظوظون سنجد أن هاتفه ما زال هناك في صندوق القمامة...

اذهب يا أحمق وخذ معك أمين شرطة أحمق مثلك وفتشا في صندوق القمامة وأدعو الله أن عمال القمامة لم يفرغوا محتويات هذا الصندوق بعد وإلا سأجعل منك عبرةً لمن يعتبر.

وقف النقيب يتساءل في دهشة:

ـ تريد مني أن أفتش في القمامة يا باشا!

ـ ولم لا؟

ألم يكن حلمك وأنت صغير أن تصبح رجل قمامة، الآن أنا أحقق لك أمنيتك، تفضل!

اتجه النقيب إلى الباب يغادره فاصطدم بالعسكري الذي يحمل صينية القهوة فصاح به بغضب:

ـ أنت أعمى يا حيوان.

ـ آسف يا باشا.

دفعه النقيب جانبًا وهو يتمتم في غيظ:

ـ لعنة الله عليك، رجل قذر، يجب قطع لسانك.

* * *

(٧)

_ لماذا قتلته؟

_ لم أقتل أحدًا.

_ أنت كاذب... كاذب.

ذلك الشبح الأسود يقترب منه وهو يحمل سكينًا، حاول فارس أن يهرب منه، ولكنه حاصره في إحدى زوايا غرفته الصغيرة، أيقن فارس أنه لا مجال للهروب الآن، لقد انتهى كل شيء...

الآن سيموت، يلمح ابتسامةً قبيحةً ترتسم على شفتي الشبح الذي يكاد لا يتبين ملامحه، ثم يسطع فلاش قوي يكشف عن ملامح هذا الشبح كاملةً، إنه الشاهد الذي كان يقف في موقع الجريمة يراقبه باهتمام شديد.

كان حدسه يخبره أنه القاتل.

السكينة تهوي باتجاه قلبه وهو يرفع ذراعيه ليحمي وجهه ولكن دون جدوى، ثم على نحو غريب يسمع صوت أغنية تخترق فجأةً هذا الجو الكابوسي!!

ينتفض جسده انتفاضةً خفيفةً وهو يفتح عينيه وقد تشنجت كل عضلات جسده، ينظر إلى سقف الغرفة المظلم والغريب أنه ما زال

يسمع صوت الأغنية... الكابوس يختلط بالواقع، الرؤية ضبابية بعض الشيء، والتنميل الذي بدأ يتسلل إلى رأسه يخبره أنه كان يعايش إحدى كوابيسه الليلية التي لا تنتهي.

عندما استيقظت كل حواسه الإدراكية نظر إلى اليمين حيث شاشة الهاتف الجوال التي تتوهج وتنساب منها نفس الأغنية، سحب نفسًا عميقًا ثم تناول الهاتف الجوال يتطلع إلى هذا الرقم المجهول، ضغط الزر قائلًا بصوت شبه نائم:

ـ ألو.

أتاه على الطرف الثاني صوت أنثوي دافئ وحزين:

ـ أستاذ فارس.

ـ نعم.

ـ أنا ريم.

ـ ريم!

ـ آسفة، لا أستطيع التركيز مؤخرًا، أنا ابنة شقيقة الدكتور سالم الذي...

ساد الصمت وفارس ما زال عقله لم يستجمع الصورة كاملةً حتى سطعت مرةً واحدةً أمامه فانتصب جالسًا وهو يضع قدماه أرضًا قائلًا:

ـ نعم... نعم، البقاء لله.

ـ ونعم بالله.

ـ ولكن كيف عرفتِ رقمي؟

ـ النقيب أيمن أعطاني الرقم، أعتذر لك.

شعر بسخافة سؤاله وهو يهرش شعره لعل ذلك يساعده على التخلص من حالة الخمول.

ـ لا بأس، لا مشكلة.

ينهض من فراشه ويضيء نور الغرفة قائلًا:

ـ كيف يمكن أن أساعدك؟

ـ الملف الذي معك.

ـ آه، أعتذر لك أني أخذته من غير استئذان، ولكن أعتقد أن لهذا الملف دورًا كبيرًا في القضية التي نحقق فيها.

ـ أريد هذا الملف لو سمحت.

تطلع إلى شعره ووجهه النائم في المرآة وهو يقول:

ـ طبعًا سأعطيه لكِ، الحقيقة أن ما قرأته مثير للغاية وربما يكون دافعًا لقتل خالك.

ـ وأنا أعتقد نفس السبب أيضًا.

تسمر فارس بمكانه للحظات وهو يقول ببطء:

ـ وأنتِ أيضًا؟! ما الذي دفعك لقول هذا؟ هل قرأت ما في هذا الملف من قبل؟

ـ أنا صاحبة هذا الملف يا أستاذ فارس!!

دهشة فارس كانت كبيرةً للغاية، فكلما ظن أنه اقترب من الحل؛ وبشكل ساخر تظهر له حقائق جديدة تقلب كل تحليلاته واستنتاجاته.

ـ يخصك أنتِ؟!

ـ نعم.

ـ ولماذا هذا الملف في مكتبة خالك؟ ولماذا لم تكتبي اسمك عليه؟

ـ هذا الكلام يطول شرحه، لو عندك بعض الوقت يمكنك أن تقابلني في كافتيريا روستري بمحطة الرمل.

ـ روستري؟

ـ نعم.

ـ متى؟

ـ بعد ساعة من الآن لو أحببت.

ـ نعم، أحب ذلك ولكن كيف سأعرفك؟

ـ ستكون ملابسي سوداء يا أستاذ فارس.

شعر فارس بالغباء هذه المرة من سؤاله، من الطبيعي أن ترتدي الأسود، تأثير النوم ما زال يعطل جزءًا كبيرًا من قدرته على التفكير وقال في إحراج:

ـ آه، طبعًا، اتفقنا.

ـ مع السلامة.

أنهى الاتصال بدون أن يرد السلام، وهو ينظر لنفسه في المرآة مرةً أخرى ويقول لنفسه بصوت أقرب للهمس:

ـ إذن؛ كان من المفترض أن تموت هي وليس خالها.

*** * ***

(٨)

ـ هل تعرف مهمتك القادمة؟

ـ طبعًا.

ـ خذ حذرك، الشرطة هذه الأيام تعمل مثل خلية النحل، العنوان ستجده من خلال رسالة على مجموعتنا بالواتس آب.

ـ تمام.

ـ ربنا يوفقك، أنت مقامك كل يوم يكبر مع كل مرة تنجح فيها.

يسمع هو ضحكةً قصيرةً من على الطرف الثاني للهاتف الجوال؛ فيبتسم ابتسامة رضى وهو يقول بهدوء وثقة:

ـ هذا من فضله عليَّ.

ـ مع السلامة.

ـ مع السلامة.

يضع الهاتف الجوال على سطح التسريحة وينظر إلى عينيه المتوهجتين بالقوة والعزم في المرآة، ينظر إلى الحائط الأيسر وملامحه تتبدل تدريجيًّا إلى الورَع والخشوع التام، عيناه تلمع بالدموع هذه المرة وهو يردد بصوت متهدج:

- لن أخذلك أبدًا، أقسمت على نُصرتك وسأرجع حقك حتى لو كلفني هذا الأمر حياتي فهي فداك.

يمسح دموعه ويتجه إلى الدولاب ليرتدي ملابسه ويلتقط من على الرف باروكة شعر ضمن مجموعة متنوعة من الباروكات، باروكةً لشعرٍ أجعد، يعود للمرآة ليضبط وضع الباروكة فوق رأسه الحليقة، جَعَلَتْهُ يبدو رجلًا في الأربعين من عمره وهي تكشف عن جبهة عريضة وشَيبٍ يتوغل في الشعر بشكل عشوائي وصَلعةٍ بسيطة تزحف على رأسه من الأمام...

كل ذلك جعل شكل الباروكة طبيعيًّا جدًّا، ابتسم وهو يضع اللمسات الأخيرة، بعض التجاعيد أسفل جفنيه وشارب خفيف.

تناول قطعة إسفنج نصف دائرية صغيرة الحجم وضعها أسفل قميصه لتظهر كرشًا صغيرًا يتناسب مع مرحلته العمرية، تناول الهاتف الجوال، ارتدى ساعته الجلدية ودَسَّ مفاتيح السيارة في جيبه.

نظر إلى معصمه الأيمن الذي يبدو موشومًا بعلامة الصليب وابتسم مرةً أخرى، يبدو ملائمًا هذه المرة للمهمة القادمة والتي تُعَد بالنسبة له تحدٍ جديد في سلسلة مهام تُشكل ملامح رسالته المقدسة.

القائمة لا تزال تعج بالأسماء الواجب التخلص من أصحابها من أجل أن تتم الرسالة المقدسة مقصدها وغايتها الكبرى، وهو الإعلان عن ساعة الظهور والتجلي...

ستكون ساعةً رائعةً بكل المقاييس... سيفاجئ العالم بأغرب وأهم الحقائق.

* * *

(٩)

ـ أول شيء واضح في جريمتي القتل البُعد الديني حاضر في الرسائل التي يتركها السفاح مع الضحية... تمام.

ـ تمام يا فارس.

صوت الدكتور معاذ المُشجِّع يدفع فارس إلى طرح مزيد من الاستنتاجات وقد شغل مكبر صوت الهاتف الجوال لأن يديه كانتا على مقود السيارة؛ يتابع الطريق باهتمام كعادته ويستطرد:

ـ وشكل الجريمتين يدل على أنه يقصد أن تكون لهما دلالة تاريخية؛ لأن كل واحدة تتم بشكل مختلف، وتشير لحدث تاريخي ديني معين.

ـ الله ينور عليك يا فارس! أنت وصلت إلى ما كنت أفكر فيه وحتى أساعدك أ...

ـ حاسب!

ضغط فارس على دواسة الفرامل بقوة لتطلق سيارته صريرًا مزعجًا متوقفةً أمام شاب حاول أن يمر بسرعة من أمامه.. ساد الصمت لثوان حتى قال الدكتور بقلق:

ـ أنت بخير.

ـ شخص غبي يا دكتور كان يحاول عبور الطريق بدون أن ينظر للسيارات القادمة.

ـ لا بأس.

ـ أكمل يا دكتور، إني أسمعك.

ـ الجريمة الأولى، أنت قلت إن الشيخ قُتِل فيها بفصل رأسه عن جسده، صحيح؟!

ـ صحيح.

ـ لو اطَّلعت على إنجيل متَّى وقرأت الجزء الخاص بمقتل يوحنا المعمدان وهو عندنا يمثل يحيى بن زكريا؛ ستجد أن ابنة هيروديا

طلبت من هيرودس أن يأتي لها برأس يوحنا المعمدان على طبق من فضة.

تدفقت الحماسة إلى عروق فارس وهو يدخل إلى شارع جانبي ليهتف:

ـ بالتالي؛ الضحية التالية المصلوبة هي المسيح وفق اعتقاد المسيحيين!

ضحك الدكتور وهو يقول مداعبًا:

ـ لقد تسرعت في استنتاجك يا صديقي، كلا.

انعقد حاجبا فارس وهو يقول في حيرة:

ـ الضحية الثانية تم صلبها!

ـ ولكن نسيت أن الضحية ماتت بسبب الرجم وليس بسبب الصلب.

ركن فارس سيارته والتقط الهاتف الجوال ليلغي مكبر الصوت وهو يقول:

ـ وهل يجعل هذا الأمر مختلفًا؟

ـ كما قلت لك؛ الضحية ماتت جراء الرجم وليس الصلب... في الغالب الصلب لا يؤدي إلى الوفاة إلا إذا تُرِك المصلوب ثلاثة أيام فأكثر على الصليب؛ ليموت جوعًا وعطشًا كما كان يفعل الرومان بالعُصاة والمتمردين، وهناك حادثة تاريخية مشابهة لحادثة مقتل

الضحية الثانية وهي حادثة رجم استفانوس واستشهاده كما ذُكِرَت في أعمال الرسل.

ـ استفانوس؟!

توقف فارس عن السير مرددًا الاسم بعد أن تأكد من إغلاق باب السيارة، ثم قال ببطء:

ـ من استفانوس هذا؟

ـ إنه أحد أتباع المسيح؛ كان ينشر تعاليم المسيحية وقُبِض عليه وحُوكِم أمام مجمع اليهود، ثم تم رجمه على يد شاول.

ـ ومن شاول هذا؟

ـ ذلك الرجل هو من آمن بعد ذلك برسالة المسيح، وأصبح أشهر شخصية في تاريخ المسيحية، وهو بولس الرسول، ومن الممكن أن نقول إنه يتخطى في شهرته المسيح نفسه! له الفضل في نشر المسيحية خارج فلسطين وخاصة بين الرومان، وشكل المسيحية الحالية التي نعرفها؛ هو من وضع حجر الأساس الخاص بها.

ـ عذرًا يا دكتور؛ ولكن كل ما ذكرته حتى الآن درس في التاريخ لم يوضح لي أي شيء حول الرابط بين مقتل شيخ سلفي وأستاذ جامعي!

ـ مؤكد أن هناك رابط أو خيط ما بين الاثنين ولا شك، ولهذا أقول لك الاغتيال مدروس وليس عشوائيًّا... بدايةً اكتشفنا المدلول

التاريخي لطريقة اغتيال الضحيتين، بقي لنا أن نعرف لماذا هذان الاثنان تحديدًا؟ هذا أيضًا يرتبط بخلفية تاريخية تجمع الاثنين مع بعضهما.

فكر فارس في كلام الدكتور وهو يتابع السير مرةً أخرى، وقد قفز إلى ذهنه اسم "أريوس"؛ ذلك الراهب المسيحي الذي توصل إليه من خلال البحث عن الشخصية التي أشار إليها سيد في الاستجواب، وكان كلام سيد متقاربًا إلى حد كبير مع ما قرأه فارس، أيضًا الملف الذي يمسكه بيده يتكلم عن نفس هذه الشخصية وشخصيات أخرى مسيحية لعبت الدور نفسه الذي من الممكن أن يربط بين الضحية الأولى والثانية.

أنهى فارس الاتصال مع الدكتور وهو يتجه إلى مطعم روستري بمحطة الرمل، يأخذ نفسًا عميقًا ثم يدفع الباب متجهًا إلى الداخل.

*** * ***

(١٠)

وقف فارس يتطلع إلى الوجوه حتى وجد فتاةً تتشح بالسواد، محجبة تجلس إلى جوار إحدى النوافذ تتطلع منها إلى الطريق، راود فارس شعور أنه يعرف هذه الفتاة منذ فترة طويلة، فملامحها تبدو مألوفةً رغم أنها المرة الأولى التي يراها فيها، لم تكن صارخة

الجمال، ولكن ملامحها مريحة وطيبة إلى حد كبير... تقدم فارس من مائدتها، فأدارت وجهها للقادم، نهضت تصافحه بإيماءة من رأسها، فبادلها المثل وهو يقول في خُفوت:

ـ السلام عليكم.

ـ وعليكم السلام.

ـ أنا فارس.

ـ كيف حالك يا أستاذ فارس؟

ارتسمت ابتسامة شاحبة وهي تقول محركةً كَفَّيها:

ـ ريم.

ابتسم فارس مجاملةً، ثم جلسا... لف الصمت المكان لفترة قصيرة حتى أشارت بحاجبيها إلى الملف الذي بيده:

ـ ممكن الملف.

ـ آه؛ طبعًا.

ناولها الملف ثم قال:

ـ هل طلبتِ شيئًا؟

ـ نعم، انتهيت لتوي من شرب الشاي.

رفع فارس يده للنادل الذي اقترب من المائدة بسرعة وعلى وجهه الابتسامة الروتينية، فقال فارس:

ـ قهوة مضبوط لو سمحت.

أومأ الجرسون برأسه وانصرف مسرعًا، في حين ركز فارس عينيه على ريم وهو يقول:

ـ أنا اطلعت على الملف ولكن لم أقرأه بعناية للأسف ولكن كان الواضح من اطلاعي أن هذا البحث لم يكتمل.

ـ بالفعل، يُعْتَبر هذا الملف الخطوط الأولية للبحث.

ـ ما هو تخصص حضرتك؟

ـ أنا خريجة آداب قسم تاريخ.

ـ لا أعلم إذا كنتِ تعرفين الدكتور معاذ أم لا؟!

فكَّرَت للحظة، ثم ابتسمت ابتسامةً خاطفةً وهي تجيب:

ـ أعتقد أني أعرفه، هو درَّس لنا ذات مرة فصلًا دراسيًّا كاملًا، ربما في السنة الثالثة، ثم انتقل إلى جامعة أخرى، ربما.

ـ أنا على علاقة شخصية به.

عادت الابتسامة الخاطفة لوجهها وهي تهز رأسها ولم تعلق، كحكح فارس بعد أن وجد حشرجةً في صوته ثم قال:

ـ هل من الممكن أن أسأل حضرتك بضعة أسئلة.

قبل أن تفتح شفتيها، اقترب منهما الجرسون ووضع الفنجان على المائدة، ثم صب القهوة وابتعد في صمت وهو يبتسم لفارس، شكره فارس وهو يقرب منه فنجان القهوة ويستطرد:

ـ هذا إن لم يسبب لك الأمر ضيقًا.

ـ لا بأس.

ـ أتصور أن حادثة قتل خالك الله يرحمه مرتبطة بحادثة ثانية لشيخ سلفي قُتِل الأسبوع الفائت في محرم بك.

ـ الله يرحمه.

ـ الله يرحمه... في تصوري أن الرابط بينهما قد يكون تاريخيًّا.

بدا الاهتمام على وجهها وهي تحثه لقول المزيد، فأضاف:

ـ من خلال التحقيقات توصلنا لرابط قد يكون ضعيفًا، ولكن من الممكن أن يكون هو المحرك الأساسي في هاتين الجريمتين، والله أعلم؛ هل ستكون هناك جرائم أخرى أم لا؟

ـ تريد القول إن لدينا قاتلًا مسلسلًا في مصر مثل الأمريكيين.

ـ من الممكن قول ذلك.

ـ وما هو الرابط التاريخي الذي من الممكن أن يقتل على أساسه السفاح؟

ـ من خلال البحث في (جوجل) توصلت لشخصية اسمها أريوس، والذي تناولتِهِ في ملفك هذا بإيجاز، وعرفت أنه راهب مسيحي

عاش في الإسكندرية وكان يخالف الكنيسة وقتها في الاعتقاد بألوهية المسيح...

أريوس قال إن المسيح نبي مرسل، وإنه ابن الله، وتعاليمه هذه انتشرت ما بين المسيحيين وقتها، وأحدثت ضجةً كبيرةً؛ فتم حرمانه من دخول الكنيسة، وبابا الإسكندرية شنَّ حربًا كبيرةً عليه...

وكان له أتباع؛ طاردتهم الكنيسة حتى خفتت دعوتهم تمامًا، وهي نفس الدعوة التي نادى بها الإسلام بعد ذلك واعتبرتها الكنيسة وقتها كفرًا.

ران الصمت للحظات حتى طال الوقت الذي تصور فيه فارس أنها لن تنطق بأي كلمة، فاستحثَّ فارس الفتاة أن تعلق على ذلك، فسحبت نفسًا طويلًا في حين ارتشف هو من فنجان القهوة؛ لتساعده على تفتح خلايا مخه أكثر لاستقبال حديث مطول:

ـ الأمر ليس بهذه البساطة التي عرضت لها، والانترنت للأسف لا يمكن اعتباره مرجعًا موثوقًا لأي حدث تاريخي؛ خاصةً بأهمية هذا الحدث.

كان يستشعر من طريقة حديثها أنه يجلس أمام الدكتور معاذ، ولكن في صورة أنثى تبدو أكثر هدوءًا وجديةً وهي تقول:

ـ وأغلب منتديات الانترنت تعرض الموضوع بالطريقة التي قلتها للتو، واستخدمتها للأسف الكثير من المواقع الإسلامية للتأكيد على عقيدة التوحيد التي كانت في الأصل عقيدة المسيحية، ثم حُرِّفت بعد ذلك، ولكن الحقائق التاريخية الموثقة تختلف تمامًا عن ذلك، غير أن نظريات المؤامرة تحيط بهذه الشخصية إلى حد كبير، وتتضافر معها قصص أخرى تصب في صالح قالب المؤامرة التاريخية من منظور بعض المواقع المسيحية على الانترنت.

ابتسم فارس وهو يعقب:

ـ يبدو من خلال كلامك أن الأمر ليس بالبساطة التي كنت أتصورها، وأن له أبعاد أخرى أكبر مما أتصور.

على الرغم من الحزن البادي على وجهها إلا أن وجهها اكتسب حماسًا أكاديميًّا واضحًا يراه كثيرًا في ملامح الدكتور معاذ عندما يقدم على سرد حدث تاريخي هام:

ـ الفكرة أن عقيدة التثليث على شكلها الحالي كانت محل هجوم وجدل واسع النطاق من قبل لاهوتيين كثيرين فيما مضى، كان أكثرهم شهرةً أريوس. هذه المدرسة الفكرية التي كانت تخالف عقيدة التثليث في بعض المسائل؛ كان منبعها من مدينة أنطاكية،

وفكر أريوس تغير عندما ذهب إلى هناك ودرس على يد لوكيانوس.

كان لدى فارس ميزة -أو كما يقول والدته موهبة- وهي تجسيد الأحداث التاريخية كمشاهد سينمائية متتابعة، فهو يترجم كل ما يقرأه من تاريخ إلى فيلم سينمائي متكامل؛ يستطيع أن يرى فيه جميع الشخوص أحياء يتحركون... صوت ريم أصبح في خلفية المشهد السينمائي الذي تصنعه مخيلته الآن.

أريوس يقف منتصب القامة في ردائه الأسود معلقًا على صدره الصليب، شاب في أواخر العشرينات من العمر، يتطلع على بعد ٥٠ مترًا إلى كنيسة الإسكندرية المحاطة بالمباني الإغريقية من حولها والناس يروحون جيئةً وذهابًا، ويكمل سيره باتجاه الكنيسة وعيناه الثاقبتان تلمعان ببريق لا يخفى على أحد.

- بعد عدة أعوام، تقريبًا عام ٣١٨ ميلادي تصادم مع ألكسندروس أسقف الإسكندرية بسبب الاختلاف حول تفسير نص في الكتاب المقدس خاص بشخص ابن الله. وكان ألكسندروس كما هو المعتاد بين الأساقفة والكهنة أن يأمروهم بعمل بحث، والشرح الذي قدمه أريوس حاول أن يعبر فيه عن ابن الله بمفاهيم مخالفة للإيمان المستقيم.

ملامح أريوس الخمرية تشع غضبًا وقد نفرت ثلاثة عروق بجبهته وهو يحدق بالأسقف ألكسندروس؛ الذي احتقن وجهه الأبيض بالدماء، وجحظت عيناه وهو يلقي على الأرض ملفوفةً تحتوي البحث الذي طلبه من أريوس...

أريوس يستدير موليًا ظهره للأسقف الذي ظل يصب عليه غضبه وتهديداته... وقع أقدامه فوق البلاط كان قويًّا... رهبان آخرون وقساوسة يقفون على الجانبين؛ البعض يتابعه بفضول والآخر ينظر له شَزْراً، والأسقف يلوح بكفه، ثم يستدير هو الآخر لتبتلعه ظلمة الركن الذي أتى منه؛ يتبعه عدد من الرجال.

ـ أحس ألكسندروس في بحث أريوس أن فيه مخالفةً لاعتقاده بألوهية المسيح، أريوس أصر على رأيه بأن المسيح مخلوق، واعتبر أفكار ألكسندروس أنها سابيلية.

لوح فارس بكفه الأيمن وهو يتساءل:

ـ سابيلية؟!

ـ السابيلية ديانة مستمدة من عبادة الشمس والأوثان.

القساوسة يقفون أمام أسقف الإسكندرية وهو يمسك بملفوفة يفضها أمامهم ويقرأ ما فيها بصوت جهوري، وبعد أن انتهى من قراءتها ارتفعت صيحات التهليل من حوله تؤيد ما قرأه وتباركه...

بريق النصر يلمع في عيني ألكسندروس وهو يتطلع إلى جموع القساوسة التي تَتَّقد وجوههم حماسةً؛ فيزداد بريق عينيه وصدره يعلو ويهبط في سرعة من فرط الحماسة وفوران الغضب الذي يشعر به مُتأجِّجًا في صدره.

"اضطر الأسقف بعد ذلك أن يتخذ قرارًا من مجمع قسوس الكنيسة؛ أدان فيه أريوس بسبب بدعته وقطعه من شركة الكنيسة."

ـ أليس هذا ما يُسَمى مجمع نيقية تقريبًا.

ابتسمت ريم وهي تعقب عليه قائلةً:

ـ الواضح أن معلوماتك التاريخية ضعيفة جدًّا.

ظهرت مَسحةٌ من الخجل على وجه فارس وهو يرد:

ـ أغلب اهتماماتي تنحصر في مجال تخصصي وهو علم النفس.

ـ لهذا السبب!

قالتها وكأنها كانت تتوقع مثل هذه الإجابة، ولكنها تجاوزت الأمر وهي تصحح له المعلومة قائلةً:

ـ هذا يُعْتَبر مُجمعًا محليًّا، إنما أول مجمع مسكون هو مجمع نيقية سنة ٣٢٥ ميلادية.

أريوس يركب بغلته ويسير في رَكْب القافلة التي تقطع صحراء سيناء باتجاه فلسطين، بدت ملامحه مهمومةً خاصةً وهو يتطلع إلى

شمس الصحراء الحارقة في ظل هذا الوقت من الظهيرة، لم ينتبه لاستغراقه هذا إلا عندما توقفت القافلة في نقطة تجمع في انتظار انضمام قوافل أخرى لها...

نزل عن بغلته وساقها إلى جذع شجرة، وعقد الحبل إليها، واستكان أسفل ظل الشجرة؛ يسند ظهره الذي ينتشر فيه الألم إلى جذع الشجرة، يفلت زفرةً قويةً؛ حاول أن يودعها كل ما يموج به صدره، ولكنها لم تفلح إلا في أن تضغط أكثر وأكثر على صدره ويضيق نفسه.

"رحل أريوس إلى فلسطين وبعد ذلك اتجه إلى سوريا فآسيا الصغرى، وتمكن من أن يجمع حوله عددًا من الأساقفة ممن وافقوا على فكره، وكان من بين هؤلاء "أوسابيوس أسقف فيقوميديا" اللوكياني، "وأوسانيوس أسقف قيصرية" الأوريجاني. والأساقفة الذين تجمعوا حوله أيدوه وبرأوه في مجمع عقدوه. وطالبوا بأن يعود مرةً ثانيةً إلى الكنيسة."

جلس أريوس يكتب في ورقة البردي الإقرار الذي وافقوا عليه في مجمع نيقوميديا، كان يعلم أن ما تم اليوم في المجمع لن يغير من وضعه كثيرًا، فالشرخ العميق الذي وقع بينه وبين ألكسندروس أكبر من أن ينتهي بين ليلة وضحاها...

توقف لبعض الوقت عن الكتابة وهو يتطلع إلى النافذة التي تبث إليه أشعة شمس المغيب وقد تلونت بأحمر قانٍ، وهو الذي يحب لون الغروب، اليوم أصبح يمثل عبئًا إضافيًّا على صدره؛ يبث إليه شعورًا بالكآبة، وبأن الأيام القادمة ستكون أكثر مأساويةً...

استمر في كتابة إقراره حتى فرغ منه، ثم وضع القلم الخشبي جانبًا، ولف الورق البردي حول العصا التي تمسك طرف الورقة الأعلى، ثم ربطها بحبل صغير، وقام بختمه ووضعه على المائدة الصغيرة...

اتجه في خطوات ثقيلة صوب النافذة، وتطلع منها إلى المدينة الفقيرة الماثلة أمامه؛ والتي تدفع إليه المزيد من الحزن، فهي لا تضاهي جمال وروعة الإسكندرية التي تَربَّى بين شوارعها وعاش فيها.

"كتب أريوس إقرارًا وافقوا عليه في مجمع عقدوه في نيقوميديا، وأرسله كرسالة إلى أسقف الإسكندرية الذي رفضه، ودعا بالطبع إلى مجمع بالإسكندرية سنة ٣١٨ ميلادي أدان فيه أريوس."

رن هاتفها الجوال فتوقفت عن السرد، تطلعت إلى الرقم ثم رفعت عينين مرهقتين إلى فارس قائلةً:

ـ يجب أن أذهب الآن، أمي قلقة علي.

ـ هل ترغبين في أن أقوم بتوصيلك أم معكِ سيارة؟

ـ سأركب سيارة أجرة.

ـ إذن اعتبريني سائق سيارة الأجرة.

فكرت قليلًا فبدأت دقات قلبه تتعالى، لا يعرف لماذا شعر بكل هذا التوتر في انتظار قرارها؟ لا يعرف أيضًا لماذا يريدها أن توافق ويخشى من الرفض؟ هو لا يؤمن بنظريات الحب من أول نظرة، ولكن المؤكد أنها تركت بداخله انطباعًا قويًّا... تلك الانطباعات العفوية التي تتشكل في اللقاءات الأولى، ولا يعرف المرء لماذا حدثت وكيف تحدث؟!

ـ حسنًا، مع أني في العادة لا أفعل ذلك.

ـ كما قلت لكِ اعتبريني سائق سيارة أجرة.

ابتسمت، ثم نهضت... اتجه إلى الجرسون يحاسبه، استأذنه الجرسون ليأتي بورقة الحساب، في حين أدار رأسه إليها وهو يقول:

ـ هل من الممكن أن تكملي الحديث ونحن نتحرك؟

ـ ممكن.

أسند الإمبراطور قسطنطين صدغه الأيمن إلى يده اليمنى يفكر فيما وصله من أخبار، وثلاثة رجال بينهم أسقف يقفون جميعًا في صمت في انتظار كلمة الإمبراطور؛ الذي رفع رأسه إليهم، فانتصبت قامة

الرجال الثلاثة، والستائر الحريرية الحمراء ترفرف مع نسمة الهواء القوية التي عبرت من النوافذ إلى داخل المكان... نهض الإمبراطور من على مقعده ليعلن لهم قراره بهذا الشأن.

"الإمبراطور قسطنطين انزعج من الجدل الفكري الذي وصلت أخباره للقسطنطينية، وباعتباره قائدًا سياسيًّا وعسكريًّا خشي أن الأمر يتطور، ويهدد السلم الاجتماعي في إمبراطوريته بمصر وبلاد الشام، فأرسل "هوسيوس" أسقف قرطبة بإسبانيا للإسكندرية بخطاب لرؤساء الأطراف المتنازعة، ولكن هذه المحاولة باءت بالفشل، حينها دعا الإمبراطور إلى مجمع عام عُقِد في نيقية عام ٣٢٥ والذي اشتهر باسم "المجمع المسكوني الأول".

ناول الجرسون فارس غلافًا جلديًّا ليفتحه ويقرأ الفاتورة، ثم يضع ورقةً بمئة جنيه وهو يستدير نصف استدارة إلى اليسار ويغلق الغلاف الجلدي مرةً أخرى، فينحني الجرسون انحناءةً قصيرةً مبتسمًا وهو ينصرف عنه، في حين عاد ليركز بصره على ريم مرةً أخرى؛ التي استطردت في حماسة ذكرته معظم الوقت بحماسة الدكتور معاذ:

ـ طبعًا؛ أدان المجمع تعاليم أريوس وجرد أسقف نيقوميدية مع ثلاثة أساقفة آخرين من مناصبهم نتيجة لتأييدهم تعاليم أريوس.

أكثر من مائة وخمسين أسقفًا متواجدين بمجمع نيقية وهناك صخب عالٍ في القاعة الكبيرة التي تضم كل هذه الأعداد، ألكسندروس يقف بين أنصاره يخاطب المجمع بصوته الجهوري بوجهه الأبيض المحتقن بالدماء، ويشير بذراعه الأيمن إلى أريوس الذي يقف بين ثلاثة من الأساقفة متوجمين...

الصيحات تتعالى وألكسندروس يلقي بطرف عباءته على كتفه الأيمن وهو ينظر بغيظ وتحد إلى أريوس؛ الذي جال بعينيه في الجميع يستمع إلى هذا الصخب ولا يعلق بكلمة. كان يدرك أن هذه هي نهايته المحتومة، وتلك الوجوه الغاضبة ستدينه وبكل شدة، وقد تكون العقوبة التي سيقرها المجمع قاسيةً للغاية... أفلت نفخةً قويةً وهو يتطلع إلى عيون رفاقه الثلاثة البائسة ثم ينظر بين قدميه.

"أريوس في البداية ارتحل لنيقوميديا مكبلًا بالقيود، وبعد ذلك تم نفيه إلى لليريا، وعلى الرغم من كل هذا فالمجمع لم ينجح في أن ينهي الأمر عند هذا الحد، وهذا لأن أصدقاء أريوس استمروا في نشر مبادئه وتعاليمه، واقتنع قسطنطين بواسطة العناصر الموالية للاتجاه الأريوسي بأن يستدعي أريوس من منفاه عام ٣٢٧."

قسطنطين يتطلع إلى الوفد المصاحب لأسقف نيقوميديا الذي وقف في خشوع ورهبة أمام الإمبراطور؛ الذي ظل يراقبهم من على مقعده والضيق يكاد يستنطق ملامحه. تناول الملفوفة التي تحوي صيغة

اعتراف الإيمان من الأسقف، وقد تراجع الأسقف عدة خطوات إلى الوراء، وأطبق الصمت المخيف على المكان...

مر قسطنطين بعينيه على محتويات الملفوفة، ولم يبد أنه قرأها أو حتى اهتم بما تحتويه، دفعها إلى الأسقف الذي أسرع لأخذها من الإمبراطور منتظرًا الرد... نهض الإمبراطور من على مقعده وهو يطوح بيده اليمنى في الهواء يعني بها الموافقة، فانحنى الوفد أمام الإمبراطور وانصرفوا على عجل.

"عرض أسقف نيقوميديا صيغة اعتراف الإيمان على الإمبراطور وأخفوا فيها عنه حقيقة عقيدة أريوس، وكانت كنيسة نيقوميديا توافق على هذه الصيغة في المجمع الذي عُقِد بها والأرثوذكسيون لم يجبرهم الإمبراطور على منح أريوس العفو، حتى أن ألكسندروس وأثناسيوس الذي جاء بعده رفض رجوع أريوس لكنيسة الإسكندرية."

اقترب الجرسون مرةً أخرى منهما يناوله الغلاف الجلدي، ليفتحه فارس، فيتناول منه الباقي ويترك بعض العملات كبقشيش. تناول منه الجرسون الغلاف الجلدي وشكره، فأومأ له فارس برأسه، ثم أفسح المجال لريم كي تمر، وتبعها حتى حاذاها وهو ينصت إليها في اهتمام طفل تقص عليه قصةً مثيرةً قبل النوم:

ـ قسطنطين في هذا الوقت لم يكن يرغب في تأزيم الأمور بفرض قبول أريوس على أسقف الإسكندرية، لكن ما جعل قسطنطين ينقلب على الأريوسيين بعد ذلك هو أنهم طالبوه برسالة لهجتها شديدة أن يتدخل حتى يضمن عودة أريوس للإسكندرية، فغضب قسطنطين وأعاد إدانتهم بمرسوم آخر سماهم فيه "بالبورفوريين" أي المتبعين لتعليم "بورفيريوس".

غادرا المكان ليستقبلهما نسيم الإسكندرية الرقيق ليضفي عليهما حيويةً كانا يتوقان إليها. توقفت للحظة تسحب نفسًا عميقًا، ثم تابعت السير في صمت لثوان معدودة، وقد احترم فارس صمتها حتى أكملت:

ـ وبعد وساطات متعددة استطاعوا أن يغيروا مرةً أخرى مشاعر قسطنطين، وذهب أريوس إلى القسطنطينية وقرر أن يرفض الاعتراف بالإيمان الأرثوذكسي، ولكن المقابلة لم تتم...

والروايات هنا تختلف ما بين أنه مات ميتةً طبيعيةً قبل أن يتسنى له مقابلة الإمبراطور وما بين اتهام أتباعه لرجال الكنيسة الأرثوذكسية باغتيال أريوس حتى يقطعوا عليه طريق مقابلة الإمبراطور خوفًا من أن يميل الإمبراطور إلى الأريوسيين...

ومن بعده ظل اتباعه متمسكين بفكره حتى جاء الإسلام؛ فوجدوا أن عقيدتهم إلى حد ما تتقارب مع العقيدة الإسلامية، فاعتنقوا

الإسلام بأعداد كبيرة، فكان أول من دخل الإسلام من المسيحيين هم الأريوسيين.

الصمت كان يلف مشيهما باتجاه سيارة فارس التي ركنها في شارع جانبي، كان فارس يفكر في كلام ريم؛ التي آثرت الصمت التام بعد أن فرغت من إلقاء تلك المحاضرة التاريخية المثيرة...

بَدَت كأنها آلة توقفت عن إحداث الضوضاء وقد فرغت من مهمتها، فغرقت في أفكار شتَّى؛ كانت في أغلبها تتعلق بمقتل خالها الذي تعتبره أكثر شخص قريب إلى قلبها، لم يكن فقط خالها ولكنه كان أيضًا بمثابة صديقها المقرب إليها.

توقفا أمام سيارته فخرجت من شرودها وهي تقول بسخرية باهتة:

ـ هذه الفيات سيارتك؟!

ـ مشروع سيارة ولكنه فشل.

لم تعلق ولكنها اكتفت بالابتسام وهو يفتح لها باب السيارة؛ لتتخذ موضعها ثم يقوم بغلق الباب بقوة، استدار حول مقدمة السيارة ليتخذ مكانه هو الآخر خلف المقود وهو يقول ممازحًا:

ـ عذرًا لغلقي الباب بقوة، السيارات القديمة لا تعترف إلا بصلف الباب بقوة.

هزت رأسها وهي تعلق على شفتيها ابتسامةً شاحبةً، أدار المحرك فأصدر صخبًا عاليًا، في حين تَبادَر إلى ذهن فارس سؤال مفاجئ:

ـ ولماذا دعوة أريوس بالذات اكتسبت هذا الصخب العالي، وأثارت كل هذا القلق ولم تندثر كغيرها من الدعاوى المشابهة والتي سبقتها.

تدفق الحماس إلى عروقها وكأن الآلة الهامدة قد عادت للحياة مرةً أخرى، فقالت بحيوية فائقة:

ـ هذا لأن دعوة أريوس كانت مختلفةً نسبيًّا من حيث طريقة العرض. أريوس توجه بخطابه إلى العامة ولم يحصرها في الجدل اللاهوتي ما بين رجال الكنيسة فقط، ونتيجة لبراعته الخطابية وزهده وورعه استطاع أن يجذب إليه الكثير من العامة...
فتجد أن أغلب مؤيديه كانوا من العوام أكثر من طبقة رجال الدين، وهذا ما أدى إلى الزخم القوي لدعوة أريوس وجعلها تنتشر في حين أن أغلب الدعاوي الأخرى التي اعتبرتها الكنيسة الأرثوذكسية مهرطقةً أي منحرفةً، كانت سريةً في نشأتها ولهذا وُلِدَت في السر وماتت أيضًا في السر.

تحركت السيارة وفارس يصغي لها في إنصات تام وهي تضيف:

- وليس هذا كل شيء! فبالإضافة إلى أن تأثير قرارات مجمع نيقية الذي أفرز قانون الإيمان المسيحي لم يستطع أن يقضي على الدعوة الأريوسية... استطاع أن يحجمها، ولكن لم يقضِ عليها بالكامل، ويتبين ذلك من بعد وفاة قسطنطين...

جاء حاكم الشرق قنسطانطيوس وفرض الأريوسية على المناطق التي كان يحكمها، وبعد وفاة أخيه قسطنطين فرضها على جميع أنحاء الإمبراطورية، وسحق هذا الحاكم نشاط معارضيه ومقاوميه الأرثوذكسيين، وبدأ في وضع أساقفة أريوسيين مكان الأساقفة الشرعيين في أهم مراكز الشرق وبعض جهات الغرب...

وبعد وفاة قنسطانطيوس انهارت فجأةً سطوة الأريوسيين لأن يوليانوس الذي كان يدين بالعقيدة الوثنية عامل جميع المذاهب المسيحية بشكل متساوٍ، وهذا أتاح الفرصة لكل من خلعهم قنسطانطيوس أن يعودوا مرةً أخرى لمناصبهم، وبدأت الأرثوذكسية في إعادة تنظيم شملها، وهذا جعلها تسود وتنتصر ووصلت لأكبر درجة من السيادة أثناء حكم الإمبراطور الأرثوذكسي يوفيانوس...

وفي هذا العصر قام الأرثوذكس بأكبر حملة تطهير لكنائس الإمبراطورية من أي وجود يُذْكَر للأريوسيين، وطمسوا وحرقوا

كتبهم، وطاردوهم في كل أرجاء الإمبراطورية؛ حتى استطاعوا أن ينهوا وجودهم تمامًا في الإمبراطورية وقتها...

وكان من الطبيعي وقتها أن يكون الملاذ الآمن لباقي الأريوسين الذين استطاعوا الإفلات من حملات المطاردة والتنكيل هي منطقة بلاد الحجاز، فمنهم من استوطن في مكة، ومنهم من استوطن في نواحي العراق بالقرب من الفُرس، وحظوا بحمايتهم، ومنهم من أنشأ لنفسه كنائس في منطقة البحرين حاليًّا.

تنهد فارس بعد أن أنهت كلامها، وقد جاوز بسيارته سينما أمير، فسألها في صوت شارد وعقله ما زال يسترجع كل ما قالت:

ـ بالمناسبة؛ أين تقطنين؟

ـ أنا أقطن بكليوباترا على الترام.

ـ جيد؛ هذا يعني أنه قريب من هنا.

لم تعلق ولكنها اكتفت بهزة بسيطة من رأسها، انشغل عقل فارس مرةً أخرى بكل ما قالته، وحاول أن يربط بينه وبين الجريمتين؛ فدفعه ذلك لأن يقول باهتمام:

ـ وهذا دفعك لأن تضعي عنوانًا جانبيًّا للبحث؛ تتكلمين فيه عن التماس بين الأريوسية وبين الإسلام.

ـ هذا صحيح فعلًا، ولكن هذه قصة أخرى وطويلة واللغط فيها كبير جدًّا من كلا الجانبين، من الممكن أن تلمس ذلك من سخونة المناقشات المتجلية في مقالات هجومية متبادلة بين الطرفين، كل منهما يدافع عن التهم الموجهة له من الطرف الآخر، وفي نفس الوقت يكيل الاتهامات للطرف الآخر.

ـ هل من الممكن أن توضحي أكثر؟

تنهدت ولم تجب. بدا أن شعلة الحماس الأكاديمي لديها بدأت تذوب وتتبخر بشكل كامل، فاستشعر فارس الحرج وهو يقول:

ـ أعتذر إذا كنت أرهقتك بأسئلتي الكثيرة اليوم وأنت في حالة استثنائية، عذرًا لأني لم ألتفت من قبل لهذا الأمر...

ـ كل ما يمكن أن أقوله لك إن المسلمين كانوا يُعْرَفون بالأريوسيين...

وعلى سبيل المثال هناك بعض الاستنتاجات التاريخية التي تقول إن ملك الحبشة الذي استقبل أول هجرة للمسلمين من مكة كان يُشْتَبه في أنه أريوسي أصلًا، وإن المسيحيين الأريوسيين كانوا يعيشون بين المسلمين...

وإن سيدنا محمدًا لما بعث لهرقل برسالة يعرض عليه فيها الإسلام قال في نص الخطاب "من محمد بن عبد الله ورسوله إلى هرقل عظيم الروم سلام على من اتبع الهدى وأما بعد، فإني

أدعوك بدعاية الإسلام أسلِم تَسلَم يُؤتِكَ الله أجرَكَ مرَّتَينِ، فإن تولَّيتَ فعليك إثم الأريسيين"...

من الممكن في وقتٍ آخر أن أوضح لك هذا الموضوع باستفاضة أكثر.

ـ ما تقولينه مثير جدًّا، ويفتح أبوابًا كثيرةً لللغط والتشكيك.

ـ هذا صحيح فعلًا، الصراع قديم جدًّا، وليس من الممكن شرحه في عجالة، وتوضيح كل أبعاده في جلسة واحدة.

ـ معكِ حق.

توقف بالسيارة أمام محطة ترام كليوباترا عندما قالت:

ـ أرجوك توقف هنا يا أستاذ فارس.

ـ يسعدني أن أصل حتى باب البيت.

ـ أعتذر منك، دعني أنزل هنا، البيت على بعد عدة خطوات من هنا.

فتحت باب السيارة وهمت بأن تغادر السيارة لولا أن استوقفها فارس قائلًا:

ـ الرقم الذي هاتفتني منه رقمك؟

ـ نعم.

ـ هل من الممكن أن أتصل بك إذا احتجت معلومات أكثر.

لم ترد على الفور وظلت تُقلِّب الأمر في رأسها، ثم قالت في هدوء:

ـ لا بأس، ولكن بعد العاشرة مساءً أكون آويت إلى فراشي.

ـ طبعًا... طبعًا.

ـ السلام عليكم.

رد عليها السلام بصوت غير مسموع، وظل يراقبها وهي تغادر السيارة ثم تعتلي السلالم المؤدية إلى محطة ترام كليوباترا حتى اختفت عن ناظريه...

لقد قرر أن يتخذ من هذا الموضوع حجةً ليعاود الاتصال بها مرةً أخرى، فلم يكن في حاجة لمزيد من المعلومات التاريخية منها، يكفيه بنك المعلومات المذهل الذي يحمله الدكتور معاذ في رأسه، ولكنه كان يريد أن يفتح أي سبيل ليراها مرةً أخرى...

يستغرب من طبيعة شعوره ويرفض أن ينسبه إلى الحب من أول نظرة لأنه يصنف نفسه من المستهجنين لهذه النظرية الرومانسية الكلاسيكية، ولكن كما جال بخاطره من قبل أن الانطباع الأول الذي تركته لديه لا يستطيع أن يصرفه عن تفكيره، أصبح يستحوذ عليه بشكل كبير.

تحرك بسيارته وهو يفكر في كل كلمة قالتها، متناسيًا تمامًا أنها متعلقة بموضوع الجريمتين، ولكن يسترجع الكلمات التي تذكره بحيوية اللقاء الذي دار بينهما، يتذكر شفتيها اللتين تتحركان في

حماس ثم تطبقان في صمت محبب إلى قلبه وإلى هذه المسحة الحزينة التي تسيطر على عينيها، كل ذلك استطاع أن يحرك مشاعره بشكل غريب، أعادت إليه ذكرياته الجميلة مع ليندا البريطانية.

* * *

(١١)

ـ حمدًا لله لقد عثرنا على الهاتف الجوال للمشتبه به في صندوق القمامة بفضل تعليمات سيادتك.

تطلع العقيد إلى النقيب في قرف لتملقه الذي يكرهه وهو يرتشف من كوب الشاي، ونظر للنقيب منتظرًا منه إضافة المزيد، فقال النقيب:

ـ استخرجنا شريحة الذاكرة ووجدنا رقمًا غير مسجل لديه؛ اتصل به قبيل مقتل الشيخ بساعةٍ واحدةٍ فقط، وإخصائي الحاسب الآلي يحاول أن يصلحها...

حرك يديه يصف الأمر للعقيد وملامحه تتقلص في محاولة للوصول للشرح الأمثل:

ـ هناك شيء اسمه "بِنَّات" في هذه الشريحة لونها أصفر، إحدى هذه الـ "بِنّات" أصابها اعوجاج، وهو يحاول إصلاحها لأنه من الممكن أن نعثر على رسائل هامة أو أي شيء يصلح كدليل أو خيط يوصلنا للقاتل...

ـ هل واجهت هذا الحيوان بالرقم الذي هاتَفَهُ؟

هزَّ أيمن كتفيه قائلًا في رنة اكتست باليأس:

ـ ادَّعى البَلَه وقال إنه لا يعرف هذا الرقم فقمت بعمل اللازم معه حتى يعترف ولكن دون فائدة، ظل يدعي البَلَه.

تحرَّكَ العقيد في الغرفة وهو يفكر للحظة ثم توقف مُلتفتًا إلى أيمن:

ـ وبالطبع وجدت أن الرقم الذي هاتفه مغلق، وعندما تقصَّيتُ عن صاحِب الرقم اكتشفت أنه رقم مسروق من صاحبه.

صفق أيمن بيديه وهو يهتف:

ـ الله ينور عليك يا باشا، أتمنى أن أكو...

ـ توقف عن هذا التزَلُّفِ الرخيص يا أَبْلَه، كفى، لقد اكتفيت من نفاقك المُبتذل هذا.

اختفى الحماس المُفتعل من على وجه أيمن ولزم الصمت، في حين أن العقيد عاد ليشرب من كوب الشاي مرةً أخرى وهو يُكوِّرُ شفتيه مُتَلذِّذًا بآخر رشفةٍ في الكوب، لا يمكن أن يضاهي هذا الشاي الذي تصنعه طليقته، الشاي الذي شربه الآن سيء المذاق إلى حدٍ جعله يعقد حاجبيهِ وهو يضع الكوب على المكتب... الكوب يرتطم بسطح المكتب في صوت مسموع... عاد ينظر إلى أيمن وهو يسأل:

ـ والولد البورسعيدي.

ـ كما توقعت؛ النيابة أخلَت سبيله لعدم كفاية الأدلة.

هز رأسه متوقعًا هذا الإجراء، ثم مسح وجهه بكفيه وهو ينفخ بقوة يحدث نفسه بصوت لم يستطع أن يميزه النقيب أيمن:

ـ هذه القضية بنت الكلب لماذا تتعقد كل حين؟

لم يفسر أيمن بالطبع ما قاله العقيد ولكنه خَمَّن ما قاله فاندفع يقول:

ـ لا تقلق يا باشا، سينتهي هذا الموضوع أسرع مما تتصور، ولكن...

توقف أيمن عن الكلام وارتبك وجهه، فنظر إليه العقيد مُتأففًا، وسأله وهو لا يزال يضع كفيه على خديه:

ـ ماذا ورائك أيها المنحوس؟

ـ الصحافة يا باشا وصل إليها خبر مقتل الشيخ السلفي وبعض الفضائيات بدأت تتناول قصة مقتله.

ـ اكتملت!

ضرب العقيد كفًّا بكف وهو يدور حول مكتبه ويلقي بجسده المنهك على مقعده معلقًا بغضب:

ـ الآن سيتصل بي مدير الآمن ويسمعني خطبة عصماء.

لم يعلق النقيب، تعلم أن يلتزم الصمت عندما تنتاب العقيد نوبة من نوبات الغضب، ووقف منتظرًا لأي تعليمات أخرى حتى قال له العقيد في ضيق:

ـ اجعل السائق يجهز السيارة، أريد أن أعود للبيت، لم أعد أرى أمامي.

ـ سلامتك يا باشا، هل تحب أن أحضر لك...

ـ هل سمعتني يا بني آدم؟

لم يبدُ على النقيب أي تأثر ولكنه انسحب من الغرفة بسرعة وهو يُهَمْهِمْ:

ـ تمام يا باشا.

* * *

(١٢)

ـ بعد إذن حضرتك.

التفت رجل كان مقبلًا على فتح باب سيارته إلى مصدر الصوت خلفه؛ يستطلع صاحبه بتساؤل، أقبل عليه شخص في العقد الرابع من العمر ذو جبهة عريضة، وكرش صغير يتقدمه، يمسك في يده زجاجة عطر، ابتسم ذلك الشخص وهو يقترب بسرعة قائلًا:

ـ حضرتك كسبت معنا هدية.

ظهر الضيق على ملامح الرجل ثم استدار لسيارته مرةً أخرى يفتح بابها ويلوح له بيده اليسرى قائلًا:

ـ كلا؛ شكرًا، لا أهتم بهذه الأمور.

ـ هذه هدية حضرتك.

اتخذ الرجل مجلسه خلف مقود السيارة وهو يردد مرةً أخرى بضيق:

ـ قلت لك شكرًا.

ـ لم أقل سوى إنها هدية.

كاد الرجل يغلق باب سيارته، ولكن الآخر أمسك باب السيارة بقوة، جعلت الرجل يتحفز والآخر يقول:

ـ إذن؛ هل من الممكن أن تدعني أرش على ظهر يدك العطر وتخبرني عن رأيك في العطر؟

حاول الرجل أن يبتسم وهو يقول:

ـ كلا شكرًا، لدي الكثير منه.

ـ لن تخسر شيئًا، جرب واحدةً ثم امضِ في طريقك.

فكر الرجل للحظات وهو يحاول أن يطرد الضيق من وجهه، وعندما لَمَحَ الصليب الموشوم على معصم الرجل ارتخت ملامحه؛ فمد له يده اليسرى قائلًا بلهجة مازحة:

ـ حسنًا، فلتكن رشة واحدة فقط.

أومأ الآخر برأسه، ثم مال عليه يضغط على زر زجاجة العطر لينطلق رذاذ العطر على وجه الرجل الذي تراجع في مكانه منتفضًا قائلًا في غضب:

ـ ما هذا يا أخي؟ أنت أعمى.

ـ أنا آسف جدًّا يا أستاذ جورج.

انتفض الرجل مرةً أخرى وهو يركز عينيه على ذلك الغريب: كيف عرف اسمه؟ سؤال بديهي، ولكنه تماهى مع الدوار الذي بدأ يصيبه، شفتا الغريب تبتسم، الصورة تصبح مهزورةً، ولسانه ينقل ما يجول بخاطره ولكن ببطء:

ـ كيف عرفت اسمي؟

لسانه ثقيل، والدوار الذي يشعر به يزداد، يأتيه صوت الغريب ممتلئًا حيويةً وهو يقول:

ـ أنت رقم ٣ على القائمة عندي يا أستاذ جورج.

حاجبا جورج يلتقيان في حيرة ودهشة وهو يرد بصعوبة، لسانه يأبى أن يطاوعه، والكلمات تخرج بصعوبة كأنه يهذي:

ـ قائمة! أي قائمة؟

ـ هذا موضوع آخر، أعتقد أنه من الأفضل أن تنام الآن!

جورج يحاول أن يثبت عينيه على الرجل، ولكنه يعجز عن ذلك، كل شيء يدور من حوله، يحاول أن يرفع يديه ليمسك جبهته متصورًا أنه من الممكن أن يوقف هذا الدوار الغريب ولكن بدون أي فائدة، والغريب يميل نحوه ويبدأ في إزاحته من على مقعده إلى المقعد المجاور...

أنفاسه تختلط بأنفاس الغريب... رائحته غريبة... يحاول أن يرفع يديه ليبعده ولكنه يعجز عن ذلك، أطرافه لا تستجيب إلى نداءات عقله، رأسه يرتطم بالزجاج المجاور له، يطلق آهة ألم مكتومة، عقله يصرخ... يعتقد أن صرخاته مسموعة، ولكن تصيبه خيبة الأمل وهو يشاهد المارين من خلال زجاج السيارة يتحركون جيئةً وذهابًا ولا يلتفتون إلى صرخاته.

عقله يطلق الصرخة الأخيرة لينبهه إلى أن تلك الصرخات لم تتجاوز حنجرته بعد، كل هذه الاستغاثات ما زالت حبيسة عقله، بصعوبة يدير عينيه إلى الغريب الذي اتخذ مكانه خلف المقود وبدأ يدور محرك السيارة.

هل هذا كابوس؟ هل ما يحدث حقيقي بالفعل؟ حتى عقله بدأ في التباطؤ السريع... عقله خرج عن نطاق الإدراك الآن... الشاشة أظلمت فجأةً... لم يعد يشعر بشيء سوى الصمت الثقيل، والكثير من الرعب!

~~~~~~~

الفصل الثالث

" إنَّما جاءَ الوَقتُ لأن... أنْ... نَدفَع ثَمنَ ما ارتَكَبْ... ارتَكَبْناهُ مِن آثامْ"
~~~~~~~

(١)

ـ يا رجل! أخيرًا قررت أن تزورني؟

ـ كيف حالك يا دكتور معاذ؟

ـ بخير، تفضل يا سيدي.

دخل فارس إلى شقة الدكتور معاذ: شقة صغيرة تفتقر إلى الترتيب... الكثير من الكتب تتناثر في كل مكان... على المقاعد الموجودة بصالة البيت، وعلى مائدة الطعام، وعلى رَفِّ التُّحَف، وبعضها الآخر على مكتبه...

قادَهُ الدكتور معاذ إلى "الأنتريه"، وجلس قبالته بصعوبة، فهو يعاني من بدانةٍ مُفرطةٍ؛ يتقدمه كرشه الكبير ووجهٌ أسمر ممتلئ، وشعر أبيض غزيرٌ وناعِم، وشاربٌ كبير يميل إلى الاصفرار بسبب شراهتهِ للتدخين.

ـ ألم يَحِن الوقت لتجرب التدخين يا فارس.

ـ التدخين ضار بالصحة يا دكتور.

ضحكا ضحكةً مبتورةً ثم تنهد الدكتور معاذ محاولًا أن يلتقط أنفاسه ثم قال:

ـ والله حاولت يا فارس أن أتَّبِعَ (ريجيمًا) عدة مرات، ولكني فشلت في الأخير.

لم يعلق فارس واكتفى بالاستماع إلى الدكتور وعلى وجهه شبح ابتسامة والآخر يقول:

ـ شقيقتي حاولت أن تساعدني كثيرًا في هذا الموضوع، أَلتَزِمُ ليومين ثم أهجم على الحلويات كالمسعور.

ضحك فارس ضحكةً قصيرةً، ثم علق:

ـ البدانة التي تعاني منها هي التي تسبب لك ضيق التنفس وأيضًا آلام ركبتيك وأنت تصعد السلم وعند المشي.

ـ غدًا أراك بقرةً حلوبًا، لا تقلق!

هز فارس رأسه علامة على اليأس والاستسلام وهو يضحك في صوت مكتوم في حين قال الدكتور في خُبث:

ـ هل هي جميلة؟

تظاهر فارس بالحيرة وهو يسأل:

ـ عمن تتحدث؟

ـ عن أمي!

ضحك فارس وهو يعقب:

ـ ملامحها مريحة.

هز الدكتور رأسه وهو يرفع سبابته اليمنى قائلًا بثقة:

ـ إذن؛ أعجبتك.

ـ يا سلام.

ـ يا ابني أنا أعرفك جيدًا، لقد تربيت على يدي، أنا من أوائل الناس التي حملتك بين يديها عندما ولدتك أمك؛ الله يرحمها...

ساد الصمت لثوان ثم طفت الجدية على ملامح فارس وهو يقول:

ـ لقد أتيت من أجل موضوع آخر حدثتك عنه وليس هذا.

ـ هذا؛ حدثتَني فيه أيضًا.

قالها الدكتور وهو يضحك في خبث، ثم استدرك قائلًا:

ـ حسنًا؛ اذهب للمطبخ وأحضِر طبق "الهريسة" من الثلاجة أولًا، ثم نتحدث.

ـ ليس هناك وقت يا دكتور.

الجدية الظاهرة على وجه فارس جعلت الدكتور يتراجع عن حالة المزاح التي تقمصها، ثم انتقلت عدوى الجدية إلى وجهه وهو يقول:

ـ تقصد موضوع أريوس.

هز فارس رأسه في صمت منتظرًا إيضاحًا أكثر من الدكتور.

ـ كما قالت لك الفتاة التي تُسَمى...

ـ ريم.

ـ نعم؛ ريم...

العقيدة التي ارتكز عليها أريوس وخالف بها الكنيسة لم تكن بالشكل المعروض على صفحات الانترنت. الأمر لا يُعَد أكثر من جدل لاهوتي حول مفاهيم معينة في العقيدة المسيحية، وعلم اللاهوت متشعب ومركب لأنه يرتكز على الفلسفة الإغريقية بالأساس...

أريوس يرى أن الله واحد، لم يُولَد، سرمدي ليس له بداية، وهو من له الخلود فقط، وليس هناك مساوٍ له في الطبيعة، ولكن عن طريقه توجد قوة عامة هي "الحكمة والكلمة"...

وهذه التعاليم مأخوذة من "الوحدانية المقتدرة" لبولس الساموساطي؛ والتي تقول –باختصار– إن الله كان واحدًا؛ فهو لم يكن أبًا: "الله لم يكن دائمًا أبًا، أما فيما بعد فقد صار أبًا".

– هذا يعني أن هناك تقاربًا بين طرح أريوس والعقيدة الإسلامية على نحو ما.

فرقع الدكتور بأصبعيه وهو يميل بجسده نحو الأمام قائلًا في حماس شديد:

– وهذا هو مربط الفرس في الجريمتين كما أظن وسيكون الرابط المشترك في سلسلة جرائم أخرى لا قدر الله.

– كيف ذلك؟

– هل تتذكر عندما قلت لك إن هذا السفاح لا يقتل بشكل عشوائي؟

ـ نعم.

ـ من خلال الجريمتين نستطيع القول إن هناك فعلًا رابطًا ما بين الضحيتين والضحايا المحتملين، وهو أريوس.

ـ أفهم ما ترمي إليه، ولكن لا تزال الفكرة ضبابية بعض الشيء بالنسبة لي؛ لأن من قتلهم مسلمون، مهما كان هناك تقارب بين الفكر الأريوسي وبين عقيدة الإسلام فهذا ليس مبررًا لأن يقتلهم وعلى هذا النحو البشع... في تصوري؛ إنك ترمي إلى فكرة بعيدة تنتهج نظرية المؤامرة.

ابتسم الدكتور معاذ وهو يرفع سبابته اليمنى مرةً أخرى قائلًا في ثقة:

ـ سأثبت لك هذه المرة أنك مخطئ و...

انفلتت كحة قوية من الدكتور منعته من المواصلة وهو يضع يده على صدره، ثم تنهد قائلًا بصوت متحشرج:

ـ أنت نفسك في نظر بعض أصحاب الفكر المسيحي المتطرف مسيحي مهرطق!

ـ يا سلام!

لمعت عينا الدكتور معاذ مستمتعًا بالدهشة التي علت وجه فارس، ونهض من مكانه بصعوبة متجهًا إلى مكتبته، فتبعه فارس في لهفة

والآخر يستقر عند مكتبه يقلب بين كتبه، التقط كتابًا ما من بين الكتب؛ غلافه من الجلد الأسود ومكتوب عليه بماء الذهب "القرآن دعوة نصرانية"...

هز الكتاب في يده وابتسامة منتصر تأخذ مكانها على شفتيه قائلًا:

- ماذا تعرف عن ورقة ابن نوفل؟

سحب فارس نفسًا طويلًا وهو يجيب:

- هو قريب للسيدة خديجة زوجة الرسول، وهو من فسر لها الرؤيا التي شاهدها الرسول في غار حراء بأنه سيكون نبيًّا.

ألقى الدكتور معاذ الكتاب بين يدي فارس بقوة وهو يعود للأنترية مرةً أخرى، يلقي بجسده الضخم عليه ليلتقط أنفاسه في صعوبة:

- كتبه الأب يوسف درة الحداد، وُلِد في يبرود بسوريا سنة ١٩١٣، ويتكلم فيه عن طائفة الأريوسيين، ويذكر فيه مستندًا لبعض المرويات التاريخية أن ورقة بن نوفل قس مسيحي أريوسي.

- نعم!

- التاريخ فيه مفاجآت كثيرة.

لوح بكفيه معقبًا على المفاجأة التي فجرها:

ـ ليس معنى هذا أن ما قاله صحيح تاريخيًّا أو أنه اعتمد على مرويات موثقة تاريخيًّا، ولكن تذكر دائمًا أن أصحاب الهوى يعتمدون دائمًا على مرويات تعزز الفكرة التي يطرحونها.

عاد فارس ليجلس أمام الدكتور وهو يضع الكتاب على سطح المائدة المنخفضة التي تتوسط الأنتريه قائلًا:

ـ ليست كل المرويات التاريخية صحيحة؟!

ـ صحيح ما تقول، ولكن هناك دائمًا بعض الناس المستعدين لتلقف هذه المرويات وتصديقها والدفاع عنها حتى الموت!

ـ وكأنك تقول يا دكتور أن الرسول... أستغفر الله العظيم...

ساد الصمت لأن فارس لم يستطع أن يكمل الجملة، واستغفر مرةً أخرى... سحب الدكتور إحدى سجائره ليشعلها ولكن فارس استوقفه بحركة من يده، فأعادها إلى العلبة متأففًا وتراجع في مقعده قائلًا:

ـ إن الرسول تعلم الأريوسية على يد القس الأريوسي ورقة بن نوفل، ثم خرج بفكرة الإسلام، أو يمكن القول إن الإسلام في معظمه أو كله إرشادات الأريوسي ورقة بن نوفل.

رد عليه فارس بطريقة هجومية:

ـ هل تريد أن تقول إنك تصدق هذا الهراء؟

رفع الدكتور يده اليمنى أمام فارس قائلًا بصرامة:

ـ أنا باحث تاريخي وليس معنى ذلك أني أصدق هذا الكلام وإلا أكون قد كفرت، ولكني كباحث تاريخي أضع أمامي كل المعطيات وأنقاشها وأحللها وأُفنِّدها يا فارس...

والمعلومات التي أقدمها لك اليوم بصرف النظر عن صحتها أو كذبها قد تكون الخيط الذي يساعدك على فهم دوافع الجريمتين السابقتين، ولا قدر الله جرائم أخرى قادمة.

الصمت يسود لأن فارس جلس يفكر، ولكن الدكتور قطع عليه سبيل التفكير وهو يقول:

ـ افتح الكتاب صفحة...

سكت ليتذكر رقم الصفحة وهو يضيق عينيه ويردد بضعة أرقام بصوت هامس حتى صاح فجأةً:

ـ تذكرت، صفحة ١١.

تناول فارس الكتاب وقلب في الصفحات حتى وصل إلى الصفحة المذكورة، ثم رفع عينيه إلى الدكتور يسأله:

ـ أي فقرة تريدني أن أقرأها لك؟

ـ الفقرة الثانية لو سمحت.

لم يباشر فارس في القراءة فورًا، ولكنه مرر عينيه على الفقرة أولًا وعيناه تتسعان من الذهول، ابتسامة الدكتور تُنبئ أنه كان ينتظر

من فارس هذا التعبير بالذات الذي ظهر على وجهه ولكنه نبه فارس بقوله:

ـ هل من الممكن أن تقرأ بصوتٍ عال؟

نظر إليه فارس للحظة وكأنه في حالة شرود ثم استعاد وعيه يقول:

ـ آه، طبعًا.

أفلت نفخةً كانت ضروريةً أمام هذه المفاجآت التي تتوالى عليه وتُربِك مسار القضية التي انحرفت بعيدًا تمامًا عما كان يتصور، قال:

ـ القرآن كله دعوة نصرانية. وقد درس محمد هذه الدعوة مدة خمس عشرة سنةً بعد زواجه من خديجة ـثرية مكةـ على يد ورقة بن نوفل!

ـ هناك فكرة قوية منتشرة بين أروقة الفكر المسيحي المتطرف أن الإسلام ما هو إلا دعوة مسيحية أريوسية مهرطقة...

والبعض كان أقل حدةً في تطرفه؛ فقال إنها مستمدة من الفكر الأريوسي الذي تعلمه الرسول على يد الأريوسيين، ويعتقد أنهم كانوا بمكة...

والبعض الآخر ذهب لأبعد من ذلك وهو أن الإسلام ما هو إلا الأريوسية نفسها، ولكن اتخذت اسمًا جديدًا، وأتباعًا جددًا، وكان

قائد هذه الحركة هو محمد بن عبد الله، الرسول صلى الله عليه وسلم!

ـ ولكن ما أتذكره من التاريخ الذي درسناه في المدارس أن ورقة بن نوفل كان من الأحناف.

ضحك الدكتور؛ فأدرك فارس أنه على وشك أن يفجر مفاجأةً أخرى يضرب بها قوله في مقتل. سعل بقوة وهو يضع يده على فمه والأخرى على صدره، ثم تنهد وقال:

ـ تقصد الأحناف المعروفين بالأبيونية! هؤلاء أيضًا كانوا طائفةً من طوائف المسيحية التي تراها الكنيسة مهرطقةً؛ ظهرت قبل ظهور الاتجاه الأريوسي. هل تتصور أن أريوس هو صاحب هذه الفكرة فقط؟

ـ من هم الأبيونيين؟

ـ اشتقت الفئة اسمها من قول المسيح: "طوبى للفقراء..." وباللغة العبرانية "طوبى للأبيونيين..." انتشرت في أواسط مكة، وآمن بها بعض بطون قريش، وكان من ضمنهم القس ورقة بن نوفل كاهن كنيسة مكة المسيحية...

أما عقيدتهم في المسيح أنه وُلِد بطريقة إعجازية، وأن المسيح نبي جاء ليكمل ناموس موسى، وأنه ليس إلهً أو ابن الله، بل مثله

مثل البشر جاءه الوحي بعد معموديته على يد يوحنا المعمدان... ستجده أيضًا يتناول قصة الأحناف في صفحة ٢٨٩.

قلب فارس الصفحات حتى وصل إلى الصفحة المنشودة وقرأ بصوت مسموع:

ـ أطلقوا على دعوتهم للنصرانية اسم الحنيفية وسموا التَّعبُّد والصيام على طريقتهم: التحنف.

نهض فارس من مكانه ودار في الصالة يقلب الأمر في رأسه، ترك له الدكتور مساحةً كافيةً من الصمت، كانت هذه عادة فارس كلما استغرقه أمر بهذا القدر من التعقيد... دار حول نفسه في المكان حتى توقف ملتفتًا إلى الدكتور قائلًا وهو يحرك كفه الأيمن:

ـ رغم منطقية الأمر الذي طرحته؛ هو لا يفسر لماذا اختار هذين الاثنين تحديدًا؟ لأننا ـوفق هذا الطرحـ جميعًا أريوسيون، وعلى القاتل أن يقتل قرابة الخمسة وتسعين مليون مصري!

ـ طبعًا لا، على الرغم من أنك ذكي جدًّا؛ فهناك بعض الأشياء التي تفوتك يا فارس.

لم يعطه الدكتور الإجابة مباشرةً، عادته كأكاديمي تمنعه من إلقاء المعلومة أمام الطالب مباشرةً، ولكنه يحب أن يدعو الآخر للتفكير أولًا؛ لذا آثر الصمت لحين يفكر فارس مرةً أخرى...

جلس فارس وهو يضع رأسه بين كفيه لثوان ثم رفع وجهه للدكتور قائلًا بهدوء:

- طبعًا هو لن يقتلنا جميعًا، إنه ينتقي بعضًا منا والذين يمثلون خطرًا حقيقيًّا على قانون الإيمان المسيحي.
- تمام.
- مما يعني أن كل من يقتلهم لا بد أن يكونوا في مواقع أو مراكز تخول لهم الوصول للعامة بسهولة عن طريق الخطابة فيهم.

برقت أمام مخيلته صورة الشيخ يقف على المنبر يحدث الناس عن أريوس ومكبرات الصوت تنقل حديثه للمارة في الشوارع.

- وفئة أخرى تخاطب العقول المتعلمة من مفكرين وباحثين.

فتداعت صورة ريم إلى مخيلته وهي تنكب على جهاز الكمبيوتر تضرب أزرار الكيبورد بسرعة، اشتبكت مع الصورة المرعبة لخالها المصلوب في حديقة بيته.

- إعلاميون على قنوات دينية من الممكن أن يتناولوا هذا الموضوع... وهلم جرا.
- هذا صحيح... وطبعًا لأن أوجه الشبه ما بين الأريوسيين وطوائف مسيحية أخرى سبقتها، وجاءت بعدها النسطورية تصب في نفس الاتجاه، واستطاعت الكنيسة أن تقاومها وتسحقها

وتجعلها تمارس نشاطها تحت الأرض، فظهر الإسلام يطرح الفكرة نفسها بشكل أوضح وقاطع من حيث ضرب العقيدة المسيحية على شكلها الحالي في الصميم، ولم يستطيعوا أن يوقفوا المد المتنامي بسرعة فائقة للمسلمين...

بالنسبة لهم –وقتها– كانت وجهًا جديدًا من أوجه الهرطقة، وأن الفكر المهرطق هذا استطاع أن يستقطب آلاف البشر وقتها...

بنظرة سريعة على الأحوال الآن؛ ستجد حركة التحول من المسيحية إلى الإسلام –ولا نُنكر– أنها أكبر من التحول على الطرف الآخر.

قاطع فارس الدكتور وقد تدفقت حماسة زائدة إلى عروقه:

– وخافت أطراف معينة داخل الكنيسة من تجدد الفكرة مرةً أخرى عن طريق عقد المقارنة بين أوجه الشبه ما بين الأريوسية وما بين الإسلام، لأن هذا كفيل بزلزلة تفكير بعض المسيحيين...

الكنيسة تُرسِّخُ في تفكير المسيحيين أن المسلمين على باطل، وسيدخلون النار كما نقول نحن أيضًا...

إذن؛ عندما يفطن بعض المسيحيين أن هناك طائفةً مسيحيةً أخرى في قديم الزمن كانت تدين بنفس الفكرة التي تبناها الإسلام بشكل أوضح لاحقًا، كل هذا يصب في صالح الإسلام ويؤثر على

المسيحية، وهذا سيجعل عددًا من المسيحيين يراجعون مواقفهم الإيمانية مرةً أخرى.

ـ إلى حد ما؛ السيناريو الذي تقوله منطقي، ولكن هذا اتهام خطير يا فارس، والدليل عليه ما زال واهيًا للغاية... الوضع فعليًّا محتقن ما بين المسلمين والمسيحيين ولا يحتمل سيناريوهات من هذا النوع، خاصةً وأن الأطراف التي تحرك هذا الأمر ما زالت مجهولةً تمامًا.

بدا فارس وكأن جسده انهار في مكانه وهو يسلم ظهره للمقعد من خلفه ويغوص فيه قليلًا قائلًا:

ـ هذه هي المشكلة.

ـ من الممكن أن يكون عندي خيط يساعدك.

تجدد الأمل في عيني فارس وهو يرفعهما إلى الدكتور معاذ قائلًا:

ـ أرجوك ساعدني.

رفع الدكتور معاذ سبابته محذرًا وهو يقول:

ـ ولكن كن على حذر، لا بد أن تتقصى هذا الأمر أولًا ونصيحة؛ لا تحاول إشراك الشرطة في البداية بهذا الأمر إلا عندما تجتمع لديك الدلائل الكافية على الطرح الذي نتناوله الآن.

نظرة فارس المستجدية أرغمت الدكتور على الإفصاح...

- هناك موقع الكتروني اسمه دولة الأقباط الأحرار!

- دولة الأقباط الأحرار!

- نعم؛ اسمعني حتى الآخر... هذا الموقع عبارة عن دولة مصرية افتراضية لها دستور خاص بها ولها رئيس وعاملون بها، ولها شعار خاص؛ يفترضون فيها أنها دولة قبطية تخصهم...

وبعض رجال الكنيسة يكتبون من خلال هذا الموقع مقالات هجومية على الإسلام، وكنت تصفحت هذا الموقع من قبل، وكان هناك شخص يكتب- باسم أشك أنه مستعار- مقالات عنيفة ضد الإسلام والمسلمين، اسمه تقريبًا...

صمت محاولًا أن يتذكر وهو يشرد ببصره بعيدًا ثم فرقع أصبعيه وهو يهتف:

- نعم؛ تذكرت. يذيل مقالاته باسم الأب يوتا، وتكلم في مقال سابق عن هذا الموضوع نفسه، قد يكون هذا أول الخيط، ولا أعلم ما هو الطريق الذي من الممكن أن تصل به إلى هذا الشخص وهل هو فعلًا من رجال الكنيسة أو مدعٍ؟ ولكنها قد تصلح لأن تكون بداية الخيط.

عينا فارس بدت أنهما تركزان بشدة على اللاشيء، مستغرقًا في التفكير... الدكتور يتثاءب... اعتدل فارس في جلسته وهو ينظر إلى

ساعة يده التي تجاوزت الحادية عشر، ثم نهض فارس؛ فتطلع إليه الدكتور والآخر يقول:

ـ أعتقد أنه لدي هذا الشخص القادر على تعقب المكان الذي يكتب منه هذا الشخص.

ـ هذا شيء جيد.

رد الدكتور يوحي بأنه استنفد كامل طاقته، ولكن فارس أكمل غير منتبه:

ـ ومن الممكن بعد الوصول إليه أن نجد كاتب هذه المقالات لا علاقة له بجرائم القتل.

هز الدكتور كتفيه معقبًا:

ـ محتمل أيضًا، المهم أنه خيط من الممكن أن يوصلك لشيء...

صمت الدكتور وفارس يكمل الجملة:

ـ وممكن لا شيء.

ـ تصبح على خير يا فارس، لقد أجهز هذا الحوار عليَّ.

ابتسم فارس ومازح الدكتور قائلًا:

ـ ألن تقول: فلتبقي قليلًا، ما زال الوقت مبكرًا؟

ـ أنت تعرفني، ساعة النوم البيولوجية عندي عندما تدق لا ينفع وقتها أي رسميات اجتماعية.

نهض الدكتور يصافح فارس واتجها إلى باب الشقة، فتح فارس الباب وهَمَّ أن يغادر ولكن الدكتور استوقفه قائلًا بجدية:

ـ خذ حذرك يا فارس، اندفاع الشباب من الممكن أن يورطك في موضوع أكبر منك، كن حذرًا أرجوك.

ـ أشعر وكأن أمي هي التي تكلمني الآن!

ابتسم الدكتور وهو يتثاءب مرةً أخرى، فضحك فارس وهو يرفع يديه قائلًا:

ـ حسنًا... حسنًا، سأذهب.

*** * ***

(٢)

يستيقظ من نومه الثقيل، لا يعرف كم ساعةً غاب فيها عن الوعي، ولكن يبدو أن ما مر به كان مجرد كابوس سخيف. يشعر بحرقان في عينيه، حاول أن يفتحهما ولكنه يعود فيغلقهما مرةً أخرى. يشعر بصلابة غريبة تحت رأسه.

يفتح عينيه مرةً أخرى، يرى السماء فوقه! غريب أن يرى السماء... الرؤيا تبدو ضبابيةً، ولكنه يغلق جفنيه للمرة الثانية ثم يفتحهما، الرؤيا واضحة الآن تمامًا... إنها السماء فعلًا!

حاول أن يحرك يديه، ولكنه يتوقف بسرعة وصرخة ألم تفلت من حنجرته، وكأن سكاكين صغيرةً تضرب في كل جزء من يديه.

رأسه يلتفت يمينًا، فيرى أن يده اليمنى مقيدة إلى طوق حديدي يخرج منه شيء غريب. حاول أن يركز أكثر، لتتسارع خفقات قلبه بسرعة شديدة...

ذلك الطوق الحديدي يبرز منه ما يشبه أوراق الورد، ولكنها من الحديد وحوافها أشبه بشفرات. هل ينقل له عقله صورةً حقيقيةً؟ وكأن الكابوس لم ينتهِ بعد.

يبكي... بكاؤه دليل على أن ما يحدث لا يدخل في حيز الكوابيس، يشعر بدموعه التي تسيل ويرى خيوطًا من الدماء تسيل على معصمه، وتلوث شفرات أوراق الورد الحديدية.

ما هذا الجنون؟!

ينقل بصره للجهة اليسرى يجد الأمر نفسه، أين هو؟ الطبيعي أن يصرخ عقله بهذا السؤال اليائس جدًّا. ولكنه يبقى بحكم الموقف سؤالًا بلا جدوى...

حاول أن يرفع يديه، ولكن شيئًا يوقف حركتها، ويصيبه بآلام مضاعفة... صرخة ألم أخرى تنفلت من حنجرته... أين هو؟ ماذا حدث؟

أسئلة أخرى تجول بخاطره... تتشابك... تصنع ضجيجًا مرعبًا في عقله، وتزيد من خفقات قلبه بشدة. الطوق الحديدي الذي يقيد معصميه مثبت إلى الأرض بسلاسل حديدية، لماذا؟!

عقله يضاعف سؤاله عشرات المرات، جبينه يفرز عرقًا غزيرًا... قدماه حرة، ولكن بلا جدوى... بشكل غريزي يحركهما، ذلك يسرب إليه بعض من السعادة والطمأنينة والأمل، ولكن ماذا عن يديه؟

لماذا هو مقيد إلى الأرض؟! لماذا الأرض من أسفله صلبة؟ لحظة... إن يديه مثبتتان إلى الأسفلت... عقله يصرخ بالكلمة المتوقعة... "أسفلت!"... لماذا يداه مثبتتان إلى الأسفلت؟

ينظر يمينًا وبين قدميه... إنه في عرض الطريق... طريق هادئ تمامًا... الطريق الدائري!! عقله يصور له أسوأ الكوابيس: سيارة تنطلق بأقصى سرعتها وتدهسه بكل قوة وبلا رحمة. الإنذار الكابوسي الذي أطلقه عقله ترجم الأمر بسرعة مذهلة إلى صراخ يائس.

ـ أنقذوني.

بكاء مرير. يركل بقدميه الطريق ويحاول مرةً أخرى أن يخرج يديه من تلك الأوراق الحديدية التي تصنع جروحًا غائرةً في يديه، الآلام تتضاعف والدماء تغرق يديه مختلطًا بصراخه.

ـ الذنب ليس ذنبك، ولكن ستظل تحمل معك ذنب من قبلك، هم من أوصلوك إلى هذه المرحلة.

يعرف صاحب هذا الصوت... إنه بائع العطور! الآن الصورة تقفز أمام عينيه قويةً: رذاذ العطر الذي أصاب وجهه، ثم ذلك الغريب الذي يقفز إلى سيارته ويدفعه إلى المقعد المجاور.

يحاول أن يتتبع مصدر الصوت حتى يجد شبح رجل طويل، عريض الكتفين لا يستطيع أن يتبين ملامحه، يسند ظهره إلى السور الإسمنتي القصير على جانب الطريق. وإضاءة أعمدة الطريق الصفراء تلقي بظلال مخيفة على صاحب الصوت.

ـ أي ذنب؟ لم أفعل شيئًا.

ـ هذا الذنب يا أستاذ جورج لا يمكن أن يمحوه الزمن.

ـ أرجوك؛ فك هذه القيود، أي سيارة من الممكن أن تدهسني في أي لحظة.

ـ مفتاح النجاة في يدك يا أستاذ جورج، ولكن يجب أن تمر بالتجربة أولًا وتتحمل الألم كما تحملها هو، وتحاول أن تنقذ نفسك، إني أعطيك فرصةً لم تكن متاحةً له.

الرجل يبكي في يأس فهو أمام مجنون دموي. صرخ الرجل:

ـ أنا جواهرجي وسأعطيك كل ما تريده، ولكن فك قيدي أرجوك.

على الرغم من الظلال التي تخفي ملامح الرجل إلا أنه لمح ابتسامةً ساخرةً على شفتيه وهو يقول:

- لن يشفع لك كل ذهب الدنيا يا أستاذ جورج، ولن تبرأ من ذنبك العظيم أبدًا. لقد قتلتموه يا رجل، ثم شوهتم سمعته الطاهرة بأكاذيبكم.
- قل لي من هو، وأنا على استعداد أن أعوض أهله كلهم عما لحق بهم من ضرر على الرغم من أنني لم أقتل أي شخص، صدقني.
- أسلافك هم من قتلوه.

الرجل يبكي، فهو أمام حالة جنون فريدة. الشبح الذي أمامه يهذي بكلمات لا يفهمها ولا يعرف عمن يتحدث، فهو يتوقع في كل ثانية أن تظهر سيارة فجأةً وتدهسه بقسوة.

الشبح ينظر يسارًا، الظلام يخفي ملامحه بالفعل، ولكنه يرى الابتسامة هذه المرة أكثر وضوحًا، الشبح يعيد وجهه إلى جورج وهو يقول بشماتة دموية:

- من الممكن أن يكون موتك هو ثمن توبتك، ولكن يجب أن تخلص النية أولًا.
- أي نية يا مجنون.

ينظر إلى حيث كان ينظر الشبح... الكابوس الذي عبر مخيلته، تحقق أسرع مما تخيل. هناك مصابيح سيارة تبدو بعيدةً، ولكنها تقترب بسرعة شديدة.

ـ أنقذوني... أنقذوني.

عينا الرجل تتسع في رعب هائل... دقات قلبه تضغط على طبلتي أذنه بقوة... صرخاته تتوالى بسرعة... يشعر بأن أحباله الصوتية على وشك أن تتمزق من شدة الصراخ.

المصابيح تتوهج أكثر، والسيارة تقترب بسرعة مخيفة. ليست سيارة. إنها شاحنة صغيرة...

يسمع صوت فرملة الشاحنة ولكن دون جدوى، فالفرامل لا فائدة منها مع هذه السرعة العالية. الشاحنة تنحرف قليلًا إلى اليسار، ولكنها تواصل اندفاعها السريع نحوه. أنوار الشاحنة تبهر عينيه.

يغلق عينيه وصراخه يتواصل، ولكنه يضيع مع صوت صرير الإطارات، الشاحنة تمر فوق جسده بإطاريها الأماميين. يسمع بوضوح طرقعة عظامه، إنه يشعر بعظام قفصه الصدري وركبتيه ينسحقان أسفل أطاري الشاحنة الأماميين. الإطاران الخلفيان يجهزان على ما تبقى من عظامه.

لا يعرف كيف استطاع أن يختبر الشعور بأن قلبه وأمعاءه ينسحقان... يسمع بشكل غريب ومذهل صوت طرقعة عظام الترقوة والتي تضغط بدورها على رئتيه لتحبس آخر أنفاسه داخل صدره.

الشاحنة تتوقف على بعد عدة أمتار وهي تترنح ويصطدم الجزء الأيمن من مقدمتها بالحاجز الإسمنتي. عيناه تلمحان قدمي الشبح وهو يبتعد في هدوء وثقة. شاشة الرؤيا بشكل تدريجي تغرق في الظلام. ارتعاشة جفنية كانت الحركة الأخيرة قبل أن تهمد جثته تمامًا.

* * *

(٣)

ـ نعم يا أمي.

يصمت قليلًا وهو يدور حول نفسه في الغرفة التي تمتلئ بحواسيب محمولة والكثير من الأسلاك التي تتصل بعدد من الأجهزة الأخرى.

ـ حاضر؛ سآتي لزيارتك.

يطلق نفخة ضيق وهو يستمع إلى صوت والدته الغاضب. شاب آخر يجلس إلى الحاسب الآلي يتابع فارس في حركته حول نفسه وابتسامة ساخرة ترسم ملامحه.

ـ أعلم أني تأخرت عليكِ ولكن...

يبتلع باقي عبارته وهو يقطب حاجبيه، صوتها المرتفع يصل إلى الشاب الذي ضحك ضحكةً مكتومةً. تطلع فارس إلى شاشة هاتفه الجوال وخاصية الانتظار تظهر اسم النقيب أيمن. تشابك ضيقه مع توتر بدأ يتسلل إلى وجهه وقاطع والدته قائلًا:

ـ أمي، انتظري قليلًا، مضطر أن أضعك على الانتظار فلدي مكالمة أخرى هامة.

صوتها الغاضب مرةً أخرى يصل إلى مسامع الشاب الذي ضرب كفًّا بكف وجسده يهتز من الضحك. فارس يرميه بنظرة غاضبة فيرفع يده معتذرًا ويتظاهر بالعمل على الحاسب الآلي.

ـ أمي؛ حقيقةً مضطر لأن أضغط على الانتظار، ابقي معي.

لم يعطي لها أي فرصة للاستطراد وانتقل إلى المكالمة التالية قائلًا بتوتر:

ـ خير، جريمة أخرى يا أيمن.

ـ للأسف يا فارس.

ـ أين؟

ـ ستذهب لمشرحة العامرية، الجثة هناك، العقيد اتصل بمأمور قسم العامرية والناصرية ولديه خبر بقدومك، لقد أصبحت مشتركًا بشكل رسمي في التحقيقات يا فارس. العقيد يريدك هناك فورًا.

ـ حسنًا، سأذهب.

ـ آه، تذكرت.

ـ ماذا؟

الصمت يتسلل لِثَوانٍ فيزداد توتر فارس حتى قال النقيب:

ـ حتى تكون مهيئاً لما ستراه، الجثة دُهِسَت من قبل شاحنة صغيرة، والسفاح المجنون قد حفر بسكينة على ظهر الضحية كلامًا غير مفهوم، لا أعرف هل يكتب شعرًا هذا المجنون أم ماذا؟!

ـ شعر!!

ـ لا أعرفّ! المهم، اترك أي شيء تفعله الآن واذهب حالًا.

ـ حسنًا... حسنًا، سأذهب.

أنهى فارس الاتصال معه وانتقل مرةً أخرى إلى مكالمة والدته يرد عليها بكلمات سريعة وحازمة:

ـ أمي أنا بالفعل مضطر لأن أنهي الاتصال نظرًا لأن هناك موضوعًا شديد الأهمية بين يدي الآن و...

يتوقف عن الكلام وملامحه تتحول تدريجيًّا إلى الغضب، ويقاطعها مرةً أخرى:

ـ آسف يا أمي مضطر لإنهاء هذه المكالمة.

ينهي الاتصال بانفعال والشاب يلتفت إليه يقول ممازحًا:

ـ ما الأمر؟ يبدو أن الوالدة لا تطيقك.

ـ ظريف!

تقدم منه فارس وهو يقول:

ـ حاتم، أريد منك أن تؤدي لي خدمةً مهمةً جدًّا، هناك موقع اسمه دولة الأقباط الأحرار...

ـ دولة ماذا؟

ـ ليس هناك وقت لأشرح لك. المهم هناك شخص ما يكتب مقالات باسم الأب يوتا، هل تستطيع تعقب المكان الذي ينشر منه هذه المقالات؟

تظاهر حاتم بالتفكير، ثم رفع يده اليمنى وهو يقول بشكل مسرحي:

ـ الموضوع ليس سهلًا يا فارس و...

ـ اختصر يا حاتم، ليس لدي اليوم كله.

ـ ما تطلبه يفعله رجال المخابرات والأمن الوطني.

ـ حقًّا؟! معلومة جديدة! تستطيع القيام بهذه المهمة أم لا.

ـ سأحاول، ولكني لا أستطيع أن أعدك بشيء.

ـ إذن؛ ما كل هذا الكلام الذي تتشدق به على أنك هاكر عبقري وما إلى ذلك.

ـ يا ابني، المشكلة أنك تتعقب شيئًا اسمه الـ (IP)، أقصى شيء في برامج تعقب الـ (IP) المعروفة أنها تستدل على مكان الشركة المزودة لخدمة الانترنت، وليس الـ (IP) الخاص بالأشخاص المشتركين بهذه الخدمة، وكل شركة لديها حائط حماية من الصعب جدًّا اختراقه...

مباحث الاتصالات لها صلاحية الولوج المباشر لحائط الحماية لكل هذه الشركات، هم قادرون على الوصول للبيانات الشخصية الخاصة بعملاء كل شركة من هذه الشركات...

محاولتي لاختراق جدار الحماية الخاص بالشركة أمر صعب للغاية، وإن نجحت من الوارد جدًّا أن ينجحوا في تعقبي أنا شخصيًّا.

لم يبدُ على فارس أنه أدرَكَ تعقيد المشكلة التي يشرحها له حاتم، ولكنه ظل ينظر إليه لبعض الوقت ثم سحب نفسًا عميقًا وهو يميل أكثر على الشاب قائلًا بصوتٍ ضغط على كل حرفٍ فيه:

ـ هل تستطيع أن تخبرني بمكان هذا الشخص، أم أنك مجرد فقاعة هواء!

ابتسم الشاب وهو يقول بثقة:

ـ عيب؛ لا أكون حاتم إن لم أستطع أن...

حرك أصابع يده اليمنى وهو يقول:

ـ ولكن الأمر مكلف.

ـ يا ساتر يا رب! كل هذه المقدمة السخيفة من أجل طلب المزيد من النقود.

ـ وكيف سأطعم نفسي إن لم أفعل ذلك؟

ـ لن نختلف، متى ستتصل بي؟

ـ أعطني بعض الوقت لأني في اللحظة التي سأحاول فيها كسر جدار الحماية الخاص بالشركة سينتبه لذلك الفريق التقني الخاص بالشركة، ثم سـ...

ـ كف عن الثرثرة، ستروي لي قصة حياتك كاملةً، سترد عليَّ الليلة.

ـ قل يا رب.

ـ يا رب، هذا إن أفلحت.

تركه فارس بدون أن يلقي السلام وهو يهرول باتجاه الباب يفتحه في عجالة والشاب يقول في سخرية:

ـ لم تتناول كوبًا من الشاي حتى.

لم يهتم فارس بمزاحه، فعقله الآن أصبح يعمل بكامل طاقته محاولًا تخيل الجريمة الثالثة، ويشغله آخر ما قاله أيمن عن بيت الشعر

المحفور على ظهر الضحية. أسلوب جديد في الجريمة لم تشهده مصر من قبل، بل لم يشهده هو شخصيًّا من قبل.

* * *

(٤)

لما دُقَّ باب غرفته توقف عن خلع قميصه أمام المرآة، شخص للباب ببصره لثوان ثم قال في هدوء:

ـ ادخل.

دخل رجل يرتدي جلبابًا أسود ويضع على رأسه عمامةً سوداء، لحيته كثيفة سوداء هي الأخرى؛ يتخللها القليل من الشعيرات البيضاء. شاب في ربيعه الثالث.

ـ كيف هو حالك الآن؟

هز رأسه ولم يجب وهو يراقبه في هدوء بدا للآخر مخيفًا، رفع الشاب كفيه يحمل عليهما قماشةً صوفيةً داكنة اللون تلف شيئًا ما وقال:

ـ لقد أحضرت لك ما طلبته مني.

ـ شكرًا.

ـ هل أنت واثق فعلًا من أنك تريد ما طلبته؟

أكمل الآخر خلع قميصه، فتصلبت ملامح السائل وهو يشاهد آثار جروح طويلة وغائرة في ظهره، بعضها قد التأم مكونًا خطوطًا داكنة اللون، والأخرى بَدَت كجروح حديثة.

ـ إيمانُكَ بالله يُعينُكَ على أي جروح أو آلام، لقد خَذَلْناهُ.

أومَأ الشاب برأسه دون أن يناقشه وهو يتحاشى النظر إلى موضع الجروح بظهره، وتقدم منه يضع القماش الملفوف على سطح التسريحة.

فضَّ الرجل القماش الملفوف ليكشف عن مقبض خشبي يتصل آخره بعدد من السلاسل المعدنية معلق إليها أنصال حديدية حادة؛ تحسَّسها بأصابعه اليمنى في تلذُّذٍ بدا للآخر دمويًا، وشعر بأن برودةً قويةً تجعل شعيرات جسده تقف رغمًا عنه.

ـ رائعة.

ـ لقد أحضرناها من العراق.

ـ لذلك تبدو رائعةً.

استنكرت ملامح الشاب كلمة "رائعة". أي شيء رائع في هذه الأداة المروعة، ولكنه حاول أن يصرف تفكيره عن تخيل ذلك المشهد الدموي وهو يقول:

ـ لو أحببت أن تشاركنا الغداء، فهو جاهز.

لم يبدُ على الآخر أنه سمعه وقد انشغل بمطالعة ملامحه القاسية وجبهته العريضة في المرآة ثم التفت يسارًا إلى الشاب قائلًا:

ـ تناولوا أنتم الغداء، فأنا صائمٌ اليوم.

أومأ الشاب برأسه، وانسحب بسرعة من الغرفة وقلبه يكاد يقفز بين ضلوعه. كان يريد أن يغادر الغرفة بسرعة على الرغم من الحكايات الكثيرة التي تُرْوَى عن إيمان ورَع هذا الرجل، إلا أن بدنه كُلَّه ينتفض خوفًا عندما يراه. دائمًا ما يرى في عينيه نظرةً دمويةً مُرعبةً.

أمسك الآخر ذلك السَّوط الغريب من مقبضه الخشبي يتأمله للحظات ثم يُرخي ذراعه اليمنى إلى جانبه وهو يغلق عينيه للحظة... يسحبُ نفسًا عميقًا ثم يحرك يده اليمنى بقوة وبسرعة إلى الخلف، لتَشتبِكَ تلك السكاكين الحادة بلحم ظهرهِ لتسيلَ منها الدماء، وهو يكتم صرخة ألمٍ بصعوبة، يجز على أسنانه وعروق وجهه وعنقه كلها تنفر.

وجهه تداخله حمرة شديدة. يتصلب على هذه الوضعية وهو يمسك المقبض، ثم بقوة يجذب المقبض مرةً أخرى إلى الأمام والنِّصَالُ الحديدية تمزق أجزاءً من لحم ظهره، تُفجر معها الدماء مصحوبةً بصرخةِ ألمٍ حاول أن يكتُمها ولكنها فلتت منه رغمًا عنه.

يسقط رأسه قليلًا إلى الأمام وهو يتأوه ويجز على أسنانه، صدره يعلو ويهبط بسرعة، ثم تنتصب قامته مرةً أخرى ليعاود الكرة وعيناه تجحظان، وصرخة ألم محدودة تفلت من بين شفتيه ولكن حركته هذه المرة أسرع ليعاود جلد ظهره مرةً أخرى بهذه السكاكين الحادة.

بعد نصف دقيقة يتوقف عن جلد نفسه يسقط على ركبتيه مفلتًا السوط الحديدي، ويضع وجهه بين كفيه يبكي في حرقة... ليس من الألم. لكن نتيجةً لشعور عظيم بالذنب.

يبكي بكاء الفرح لأنه بجلد نفسه على هذا النحو القاسي يتطهر من إرثٍ ثقيلٍ يمتد لقرون طويلة، يُكَفِّرُ عن ذَنبٍ لم يرتكبه، ولكن قدَرَهُ وكل من على فِكرِهِ أن يتحملوا هذا الذنب إلى الأبد. يبكي كطفل صغير... يُنَهْنِه... يكتم بكاءً آخر أشدُّ قوةً حتى تهدأ نفسه. يَقِفُ مرةً أخرى على قدميه. هذه المرة أكثر قوةً.

عيناهُ تلمعان بِقوةٍ مُخيفة على الرغم من الدموع التي تسيل على خدَّيهِ. يمسح دموعه ويتجه إلى الطرف الأيمن من التسريحة، يقبض بيده على حفنةٍ من حبَّات كبيرة للملح موضوعٌ في إناءٍ من الألومنيوم.

يسحبُ نفسًا آخر ثُم بحركةٍ سريعة يحرك يده للخلف ليُمرِّرَ حفنة الملح على ظهره وهو يكتم صرخةَ ألمٍ أخرى.

عروقه تنفر هذه المرة أكثر ووجه يزداد احمرارًا كأنه على وشك الانفجار. أنفاسه تتهدَّج مع تأوهات ألم أشبهُ بالفَحيح. يعاود الكرَّةَ مرةً أخرى... وثالثةً... ورابعةً...

يشعر بدوار قوي يضرب رأسه ولكنه لا يترنح، بل يتجمد مكانه كتمثالٍ رُخاميٍ كبيرِ الحجم... جُمودُهُ لم يمتد لأكثر من عدة ثوان حتى تحرك مرةً أخرى باتجاه فِراشهِ، تناول من عليه حِزمَة شاشٍ طبي أخذ يلفهُ حول صدره مرورًا بظهره في شكلٍ لولَبي حتى آخر معدته بُقَعٌ من الدماء تتكون على سطح الشاش في أماكن متفرقة من ظهره.

يتجه إلى التسريحة مرةً أخرى؛ يتناول من عليها حجرًا أصفر اللون سداسي الشكل يُقَبِّلُهُ، ثم يرفعه إلى جبينه، ثم يقبله مرةً أخرى، ويعيد الكرة مرتين وهو يردد أدعيةً بصوتٍ أقرب للهَمْهَمة.

يضع الحجر السُّداسي الشكل على المائدة. يلفت نظره تَوهُّجَ شاشة هاتفهِ الجوال، فيرفعه ويُقرِّبُهُ من عينيه الثاقبتين على الرغم من معرفته بصاحب الرقم إلا أنه ظل يتابع حروف الاسم بتركيز غير مبرر.

ـ مُرني سَماحَتك.

ـ بلَغَني أنك كنت تُطَهِر نفسك من الذنب.

ابتسم الرجل في وهنٍ وهو يقول:

ـ بهذه السرعة أبلغوا سماحتك.

ـ إيمانك عظيم يا إدريس.

ـ البركة فيك يا سيدنا.

ـ المهمة القادمة تحتاج منك إلى إخلاصٍ عظيم وأنا أعلم أنه راسخٌ في قلبك.

ـ أنت تعلم إخلاصي سماحتك.

ـ أعلمُ يا إدريس.

صاحب الصوت يسكت ليترك انطباعًا بأهمية ما هو مُقبِلٌ على قوله ثم بصوته الهادئ يكمل:

ـ أحب أن أبلغك أن المباحث الجنائية تستعين بمحللٍ نفسي يباشرُ القضية بنفسه. هذا الرجل كان يعمل مع الشرطة الإنجليزية في قضية مشابهة هناك يا إدريس.

عَقَدَ إدريس حاجبيهِ وهو يقولُ بتحفُّز:

ـ تُحِب أن أقتله سماحتك؟

ـ لا، لا يا إدريس، نحن لا نقتل سوى المُدانينَ فقط، وهو ليس على قائِمَتِنا يا إدريس، ولكن...

صَمَتَ الصَّوتُ الرَّخيمُ لِوهلةٍ ثم أكمل:

ـ ولكن، لو مَثَّل عائِقًا أمام مُهمتكَ الإلـهيَّةِ سيكون التخلص منه وقتها ضروريًّا، لأن هذه المهمةَ إلهيةٌ ويجب أن تتم على أكمل وجه، ربنا يقفُ معك يا إدريس.

ارتعش جفنا إدريس وهو يقول بصوت متهدج:

ـ لا أريد سوى رضى الله عليَّ يا سيدنا.

ـ ربنا راضٍ عنك يا إدريس، أنت تسيرُ في نورهِ، لا تنسى ذلك.

ـ لا تعرف كم يسعدني كلامك هذا.

ـ أعرف يا إدريس... أعرف، ولكن كُن على حَذَرٍ منه وراقبه، لأني أخشى أن يصل إليك. وبذلك...

الصوت يصمت ليرد إدريس في حماس وقد امتلأ صوته بلهجةٍ حازمة:

ـ لا تقلق يا سيدنا، لقد كنتُ حاضرًا في مسرح الجريمة الثانية، وأعتقد أني أعرفه وجهًا لوجه، فلقد كان هناك شخص مدني يراقبني بتحفُّز.

ـ لدينا عنوانه، كما قلتُ لك لو مثَّل أيَّ عائقٍ سنُرسِلُ لك عنوانه.

ـ تمام سماحتك.

ـ سأرسِلُ لك تفاصيل المهمة التالية على الواتس يا إدريس.

ـ لا تقلق، سماحتك.

ـ ربنا يوفقك يا إدريس، مهمتك صعبة ولكن تذكر أنك ستكون هناك في الجنَّةِ بين يديها؛ لتَشكُرَكَ عليها السَّلامُ على ما قدمته من خدماتٍ جليلة.. صح يا إدريس؟

ـ وليس لي هدفٌ سِواه.

ـ سلامًا يا إدريس.

ـ سلام سماحتك.

ظَلَّ مُمسِكًا بهاتفه الجوال بعد انتهاء المكالمة في انتظار الرسالة. الشاشة تتوهج مرةً أخرى، وأيقونة الرسالة تظهر له، فتح الرسالة، وهو يقرأ كلماتها سريعًا، عيناهُ تَزدادانِ لَمَعانًا.

يُلقي الهاتف الجوال على التسريحة، ثم يستدير إلى صاحب الصورة المعلقة على الحائط من خلفه يقول في قوَّةٍ وجدية:

ـ لَنْ أَخذلكَ أبدًا.

* * *

(٥)

ـ هل وصلت للمكان أم لا؟

ـ لقد وصلت.

غادر فارس السيارة يسأل النقيب:

ـ هل عرفتم إذا كان الرجل الذي أبلغ عن حادثة قتل الدكتور من سكان المجمع أم لا؟

ـ أنت لا تنسى.

كان فارس يتحرك صوب المشرحة وهو يقول:

ـ طبعًا لا.

ـ هيييييه.

ـ ما كنت أخشاه حدث، صحيح؟

توقف فارس وهو ينتظر ردًّا تأخر من النقيب، الذي قال بإحباط:

ـ ليس من سكان المجمع، في الغالب أنه القاتل نفسه.

الغضب تسلل إلى صوت فارس وهو يقول:

ـ الأمر لا يحتاج إلى الكثير من الذكاء، هو طبعًا، كانت تساورني بشأنه الشكوك، وأنت رفضت أن تمنعه من مغادرة المجمع لحين التحقُّقِ من شخصيته.

ـ فارس! رجاءً؛ لا تتقمص شخصية العقيد، الأمر لا يحتمل.

تحرك فارس مرةً أخرى وهو يحاول استعادة هدوءه قائلًا:

ـ لقد تعمَّدَ أن يظل موجودًا بمسرح الجريمة حتى يتسنَّى له مُراقبَتُنا جميعًا والتَّعرف على طريقتنا في العمل عن قُرْب، كما أن

أمثاله من المرضى نفسيًّا يجدون لذةً ومتعةً خاصةً في متابعة جرائمهم عن قرب.

ـ هذا المخبول؛ ألم يكن يخشى أن نكتشف أمره؟

رد عليه فارس ساخرًا:

ـ لأنها بلد الكوسة والمحسوبية، كان يعلم أنه لن يجرؤ أحد على إيقافه خشية أن يكون ذا حيثية ومكانة كما قلت أنت.

ـ حقيقةً؛ بدأت تشبه العقيد في سماجته؛ ويبدو أنه سيكون لديَّ عما قريب أكثر سَمِجَينِ عَرفْتُهم على الإطلاق.

ضَحِكَ فارس.. والنقيب يقول بارتباك:

ـ فارس، رجاءً، لا تُبلِغ العقيد بما قُلتهُ لَك.

ـ لا تقلق، آجلًا أو عاجلًا سيعرف.

تجاوز أيمن عن سخرية فارس وهو يقول بجديةٍ تُخالِطُها الدَّهشة:

ـ فارس؛ القتيل هذه المرَّة مسيحيٌّ.

ـ مسيحي!

ـ يبدو الأمر غريبًا هذه المرة.

ـ بالفعل غريب.

ـ حاول أن تفهم هذا الشِّعر الذي حفَرَهُ على ظَهرِ القتيل أو أيًّا يَكُن، يبدو أن حظنا العاثِر أوقَعَنا في سفاحٍ مخبول.

ـ حسنًا، سلام.

ـ سلام.

وضع فارس الهاتف الجوال في جيب بنطاله ودخل إلى المشرحة. يقف على باب المشرحة عسكري مُتَراخٍ في وقفته اعتدل لما رأى فارس، وظهر الحَزمُ والصَّرامَةُ على وجههِ وهو يقول:

ـ إلى أين يا أستاذ؟

ـ أبلِغ المأمور بقدومي.

ـ مَن حضرتك؟

ـ فارس.

دخل العسكري إلى المشرحة، ثم خرج بعد ثوانٍ قائلًا وقد بدا على وجههِ احترامٌ زائِف:

ـ تفضل سعادتك.

دخل فارس إلى المشرحة وقد تسللت إلى أنفهِ بسرعة رائحةُ الفورمالين وأيضًا رائحةَ الدم. كان يقف إلى جوار الجُثَّة رجل في العَقْدِ الرابع من عمره يُدَخِّنُ سيجارتهُ، قال لفارس في ضيق:

ـ أنت فارس.

ـ نعم.

هزَّ رأسهُ وهو يقول في لامُبالاة:

ـ العقيد أوصى بشأنك.

أشارَ الرجل برأسه للجثة وهو يقول:

ـ ها هي الجثة.

الجثة مُغَطَّاة بقماشٍ أبيض قَذِر، وتنتشرُ فيها بُقعُ دِماءٍ قديمة، سأل فارس المأمور وهو يُطالِعُ الجثة:

ـ هل عَلِمَ أهله بالأمر؟

ـ يستخرجون الآن من مكتب صحة العامرية شهادة وفاة. الطبيب الشرعي أمر بالإفراج عن الجثة.

ـ هل من الممكن أن تساعدني في تقليب الجثة؟

ظهر الاشمئزاز على وجه المأمور ولم يتحرك على الفور حتى استحثَّهُ فارس بنظرة استنكارٍ مِن عَينيه، فتحرك يساعد فارس على قلب الجثة، فظَهَر أمامهُ حروفٌ مَنقوشة بسكين على ظهرِ الجُثَّة، عَقَّبَ الآخر على ذلك المنظر قائلًا:

ـ هذا المخبول كان يتسلى بالجثة.

تجاهَلَهُ فارس وهو يحاول أن يقرأ الحروف التي طُمِسَت بعضها بفعل احتكاكِ ظَهرهِ الشَّديد بأسفلت الطريق، ولكنه لم يُفلِح، يَقطَعُ عليه تركيزه تعليق المأمور:

ـ الجثة عبارةٌ عن كَومٍ من اللحمِ والعَظْمِ المفري جراء الدهس.

لم يرد عليه فارس وقد بدا مشغولًا بقراءة الكلمات وحاجباه ينعقدان بشدة وشفَتاهُ تتَحرَّكانِ دون صَوت.

ـ سأقوم بتصوير ظهر القتيل بالهاتف الجوال، هل لديك مانع؟

هَزَّ المأمور كَتِفَيهِ بِلامُبالاة دونَ أن يَرُد، فأخرج فارس هاتفه الجوال يلتقط عِدَّةَ صُورٍ لظهر القتيل. التَفَتَ إلى المأمور يسأله:

ـ أين وجدتموه؟

ـ على الطريق الدولي قبل مخرج الـ (٢١) بكيلو ونصف الكيلو تقريبًا، وكانت يداه مُصَفَّدَتانِ بِقَيدٍ حَديديٍ غَريب الشَّكل.

رفَعَ المأمور سَبابَتَهُ وهو يضع السيجارة بين شفتيه قائلًا:

ـ لقد أخبرني العقيد أن أُبقي على الأدلة معي لتَطَّلِعَ عليها.

تَناولَ كيسًا شفافًا مِن ورائِهِ؛ بداخلِهِ القيدُ الحديدي، أخَذَ فارس الكيس، وتطلَّع إلى القيد الحديدي وهو يُدَوِّرُ الكيس في يَديهِ.

ـ كما لو أنَّها مُصنَّعةٌ يدويًّا.

ـ وما الغَريبُ في هذا؟

تجاهَلَ فارس سؤال الضابط الاستنكاري والذي يَنطَوي في نفس الوقت على شيءٍ من السُّخريةِ وقال:

ـ أعتقد أنهُ مِن المُمكن أن نعرِفَ في أي ورشةِ حِدادة صُنِعَت هذهِ القُيود.

ـ وكيفَ ذَلِك؟!

ـ كما قُلتُ لَك إنها قُيودٌ مصنوعة يَدويًّا، وبالتالي هناك ورشة حدادة هي التي قامت بتصنيع هذا القيد. علينا أن نبحث عن هذه الورشة.

ـ أتُصَدِّق؟ إنكَ ذَكي!

شعَرَ فارس بالغَيظ من المأمور ولم يُعَلِّق منتظرًا منه إجابةً وقد بدا أن المأمور يُحدِّثُ نَفسَهُ.

ـ لم تخطر على بالي هذه الفكرة العبقرية.

قال فارس وقد نفَدَ صَبرُهُ:

ـ سألت حضرتك، هل من الممكن أن نَصِلَ لورشة حدادة قامت بتصنيع هذه القيود؟

ـ نظريًّا ممكن.

حرَّكَ ذراعيهِ في الهواء وهو يُضيفُ ساخرًا:

ـ ولكن هناك مليون ورشة، أيٌّ مِنها هي التي صَنَعتْها؟!

رَدَّ عليهِ فارس بِسُخريةٍ اختَلَطت بالجدِّية:

ـ جيد؛ إذن سيادتك ستبدأ من ورَش الحدادة المُتَواجِدَة في منطقتك.

ظهَرَ الاستِنكارُ على وجه الضابط وهو يُلقي السيجارة أرضًا ويُطفِئُها بِقَدَمِهِ اليُمنى.

ـ هل تريد مني أن أُفَتِّش وِرَش العامرية والناصرية والكينج كلها؟ والأغلب أنها لم تُصْنَع في أي ورشةٍ منها، والاحتمال الأكبر أنَّها لم تُصْنَع ـأساسًاـ في الإسكندرية.

ـ ما المانع أن تُجرِّب ـسيادتكـ حتى نَصِلَ لهذه الإجابة التي افترضتها.

انقلبَت مَلامِحُ الضابط إلى الغضب وهو يَرُدُّ بِحِدَّة على فارس:

ـ العقيد أخبَرَني أن أمُدَّكَ بالمعلومات التي بحوزتي ولكن لم يخبرني أن سيادتك تُعَلِّق على كَتِفَيكَ نسرًا وسيفًا!

هزَّ فارس رأسَهُ مُستَسلِمًا وهو يقول:

ـ لا نسر ولا سيف، كان مُجرد اقتراح.

استَمرَّت نبرة الحِدَّة في صوت الضابط وهو يقول:

ـ لا تشغَل بالَك، نحنُ نعرف عَملنا جيدًا وكيف نُديرهُ.

ـ عامةً، شكرًا على المساعدة.

ـ العفو يا سيدي.

قالها المأمور باستهزاء... غادر فارس بدون أن يُلقي السلام فعلَّق الضابط في سُخريَةٍ غاضبة:

ـ وعليكم السلام يا سيدي.

غادر فارس المشرحة ليجد عند مكتب الاستقبال امرأةً ومُسِنًّا يَسألانِ موظف الاستقبال وقد لَبِسا الأسود. المرأة تبكي والمُسِنُّ يُرَبت على ظهرها، موظف الاستقبال يُشيرُ إلى باب المشرحة، فينظُرانِ نحو فارِس الذي سارَ بِبُطءٍ اتجاهَهُما...

تحرَّكت المرأة في خطواتٍ سَريعَة والمُسِن يحاول أن يلحق بها، ولكن خطواته المتعثرة تمنعه من محاذاتها. مَرَّا بِجوار فارس الذي دَارَ بِرأسه مَعهُما حتى دَفَعت المَرأة بابَ المَشرَحة، وقبل أن ترى جُثَّة الضحية علا صَوتُ بُكائِها وهي تَضَعُ يَدها على فَمِها، يلحق بها المُسِن ويحوط كتفها بذراعه اليمنى.

يواصل فارس سَيرَهُ حتى غادَرَ المكان. توقَّف أمام باب المبنى يَشُدُّ إلى صدرهِ أكبر قدرٍ من ذلك الهواء الصحراوي. اعتادَ أن يدخُل إلى الكثير من المَشارِح، ولكن هذه المَرَّة كان وقْعُها مُختَلِفًا، لا يَعلَم؛ هل بِسَبب قَذَارة المكان بالداخِل؟ أم لأن الأمر يزدادُ تَعقيدًا.

والقضية كلما حاول أن يقترب منها تَتباعد أكثر... أعدادُ القتلى تتزايد... جرائمُ مُرعِبَة لم يعرفها المُجتَمعُ المِصري من قبل... القاتل كان بين أيديهم، ولكنه ضاعَ بسبب غِيابِ الإجراءاتِ الأمنيَّةِ اللازِمَة.

قَضيَّةُ السَّفاحِ الإنجليزي مُقارنةً بِهذه القضية تَبدو هزليةً وبسيطةً.

يتحرك في خطواتٍ بَطيئَةٍ مُحبطَةٍ باتجاهِ سَيارَتهِ. يتوقف لَحظَةً ليَمُر مِن أمامهِ توك توك وصبي في الخامسة عشر من عمره يتوقف هاتِفًا به:

ـ هل تُريدُ أن أوصِلَكَ لِمَكانٍ ما يا باشا؟

فارس لا يرد عليهِ ويدورُ مِن حَول التوك توك ليواصِلَ سَيرَهُ باتجاهِ سَيارَتهِ، التوك توك يتَحرَّكُ مرةً أخرى.

مِن الغَريبِ أن تَقتَحِمَ تَفكيره ـبدون أي مُبَرر ـ صورةُ ريم وهي تَجلِسُ على مائِدَتِها بالمَقهى؛ تَشردُ بِبَصَرِها مِن خِلال النَّافِذَة، وتَتطلَّعُ إلى اللاشيء. تتَقاطَعُ معها صورة ليندا.

النَّفخَةُ التي تُفلِتُ منه لا تفلح في أن تَرفع من على صَدرهِ هذا الثقل. يفتحُ باب سيارتهِ وقَد بَدأ الصُّداعُ النِّصفي يَضرِبُ مُؤَخِّرَة رَأسهِ.

* * *

(٦)

ـ حاول أن تَفهَم أن الموضوع مَرفوضٌ تمامًا.

ـ لماذا؟ هل هو قَرضٌ بَنكي حتى يَتِمَّ رَفضه؟!

ـ لم تَتغير، كل الأمور تأخُذها على مَحملِ السُّخرية.

ـ دَعينا نَبدأ من جديد، فلم تَعُد أمامكَ أي فُرصَةٍ للزَّواج مِن غَيري!

أنْهَت الاتصال. ظلَّ مُمسِكًا بالهاتف المحمول لِلَحظَةٍ يُلصِقهُ بِقوةٍ على أُذنهِ اليُمنى، ثم ألقى الهاتف الجَوال على مكتبه بِغَضب. رفَعَ عَينين غاضِبَتين إلى بابِ غُرفتهِ والنَّقيب أيمن يدخل بِسرعة إلى المكان، هَمَّ بأن يَصيحَ في وجهِ النقيب أيمن غاضبًا إلا أنَّ الآخر لَم يُعطِهِ الفُرصَةَ وهو يقول بِحَماس:

ـ لدي أخبارٌ جَيدة يا فندم.

أطلَقَ زَفيرًا طويلًا كالعادة؛ لَم يَستَطِع أن يَمتَصَّ معهُ الهَمَّ الذي يَحملهُ بين ضُلوعهِ ولكنهُ رَدَّ بِلا مُبالاة:

ـ قُل يا فالِح.

ـ المتهم سيد مسجل المكالمة التي تلقاها من الرقم المجهول، مُتَخصص التقنية استطاع أن يَستَخرِجها من شَريحةِ الذَّاكِرة الخاصَّة بالهاتفِ الجَوال للمُشتَبهِ به.

بدا الاهتمامُ جَليًّا على وجه العقيد وهو يسند ظهره إلى ظهر المقعد الجِلدي الكبير يسأل النقيب:

ـ وما هو نَصُّ المكالمة؟

جَلَسَ النقيب على المقعد المجاور لمكتب العقيد... في حالاتٍ أخرى كان من الممكن أن يوجِّه لهُ العقيد كلامًا لاذعًا، ولكنه لم يُعلِّق هذه

المرَّة لأن اهتمامه البالِغ بالخَبَر جعَلَهُ يتَجاهَلُ هذا الأمر، في حين أن النقيب يضغط بِضعةَ أزرارٍ على هاتفهِ الجوال وهو يقول:

ـ لقد قُمتُ بِنَقلِ نَصِّ المُكالمَة على البلوتوث الخاص بي.

ـ دَعني أسمع وكُفَّ عَن هذا الهُراء.

ضغط النقيب على زر تشغيل الملف والعقيد يَميلُ بِجَسَدهِ نحو الأمام ويُشَبك أصابِعَ يديهِ.

ـ كيف هي أخبارك؟

ـ جيدة.

ـ هل أنت مُستَعِد؟

ـ ألا توجد طريقةٌ أخرى؟

ـ هل سَتَتَردد الآن؟

سَيِّد يَدورُ حول نفسهِ في الغُرفة فوق سطح البِنايةِ القَديم، ثم يقول بِتَوتُّر:

ـ إنها جَريمة... جَريمة!

ـ ما الذي دَهاك؟ ليس هناك وقتٌ للتَّراجُع.

ـ أعلم ذلك ولكن الأمر...

الصوت الصَّارِم يُقاطِعُهُ:

ـ انظُر للهَدَف الأكبر ولا تنسى.

ـ لا أعلم، ولكن قَلبي يَنتَفِض بين ضُلوعي.

الصَّوت يَزدادُ صَرامَةً وهو يقول:

ـ مَوعِدُنا الساعة الرابعة فجرًا.

ألقى سَيِّد الهاتف الجوال على الفِراش، وهو يُمسِكُ رأسَهُ بيَديهِ ويُرَدد في توتر شَديد:

ـ سامحني يا رب، سامحني.

تَراجَعَ العقيد في مقعدهِ وهو يَرفَع حاجِبَيهِ ثُم يخفضهما. النقيب ينظر إليه في زَهوٍ، لَم يَنتظِر مِن العقيد أي ثَناءٍ أو مَدح لأنهُ آخر شخصٍ من الممكن أن يُثني على أي فعل، ولكنه يستمتع بذلك الاستغراق الذي على وجهه. العقيد يحرك يده اليمنى وهو يسأل:

ـ ولماذا سجل المتهم المكالمة للطرف الآخر؟

العقيد في حقيقة الأمر لم يكن يوجه هذا السؤال إلى النقيب، ولكنه يناقش الأمر مع نفسه، ولأن النقيب أيمن يعلم ذلك لم يتفاعل مع العقيد، وفضل أن يستَمتِعَ بِحالةِ التَّفكير العميقة التي رسمت ملامح وجه العقيد.

تخلص العقيد من حالة الاستغراق، ثم تبدلت ملامحه إلى الصرامة المعهودة وهو يوجهُ حَديثَهُ إلى النقيب قائِلًا بِصَوتٍ آمِر:

ـ فرِّغ هذه المحادثة على أسطوانة وأرسلها إلى النيابة وأريدُ أن تَصِلَ للمُشتَبهِ بهِ معلومة أن الاشتراك في القتل حكمها بين مُؤَبَّد وإعدام، من الممكن وقتها أن يعترف على شريكه في الجريمة.

رفع النقيب رأسه في زَهوٍ وهو يقولُ بِثِقة:

ـ تِلميذَك يا باشا، لقد قمت بعمل ذلك فعلًا، والمشتبه به انهار واعترف، ولكن قال كلامًا آخر غير الذي كنت أتوقعه.

ـ ماذا قال؟

ـ بعدما مارَسْتُ عليهِ كل الضُّغوط، ظَلَّ مُصِرًّا على أن الاتِّفاق كان يَشمل خَطفَ الشيخ وطَلبَ فِدية لأن الشيخ من الأعيان في الفلاحين وعنده الكثير من الأراضي.

ـ كذاب ابن كلب.

ـ هو مُصِر على هذه الأقوال، وأنه لم يكن يعرف أنها ستتحول إلى جريمة قتل، وأن الطَّرَف الآخر أغراهُ بالكثير من النُّقود.

ـ هل ذَكَر اسم شَريكهِ في الجريمة؟

صَمتُ النقيبِ جعل العقيد يضربُ كفًّا بِكف وهو يقول بسُخريةٍ اختلَطَت بِغَيظ:

ـ تكلَّم يا منحوس.

- مُصِر في أقوالهِ على أنه لم يرَهُ أبدًا وأن وسيلة الاتصال الوحيدة به عن طريق أرقام مجهولة وفقط.
- وهل صدقته يا أبْلَه؟

لوَّحَ النقيب بذراعيهِ في يأسٍ وهو يقول:

- ما زال مُصِرًّا على هذه الأقوال حتى أمام النيابة، وقد تم مواجهته بالدليل الحالي ولم يغير أقواله.

العقيد ينهض من على مقعده وهو يحرك ذراعيه في الهواء قائلًا بصوتٍ غاضب:

- ماذا يعني هذا؟ هل مكتوب علي النحس في هذه القضية؟

نهض النقيب من على مقعده قائلًا بصوتٍ مُتَرَدد:

- الأمر مسألة وقت وسيقع القاتل في النهاية يا فندم.
- وهل سأنتظر هذا الملعون حتى يقتل عشرة آخرين؟ ما هذا الحظ العاثر؟
- يا باشا، على الأقل أصبح معنا شريك في الجريمة وبالدليل يصرف عنا الأنظار حتى يقع الطرف الآخر في أيدينا، انظر لنصف الكوب المملوء.

النقيب يتوقع كالعادة أن يسترسل العقيد في كيل الشتائم له، ولكن العقيد نظر إليه للحظة ثم قال:

ـ اتصل بذلك الصحفي واجعله ينشر خبر أننا قمنا بالقبض على المتهم الرئيسي في جرائم القتل هذه، وأن شريكه ما زال هاربًا وجارٍ البحث عنه بمعرفة السلطات.

ـ النص المعهود يا باشا، اسم سيادتك سيضيئ الخبر.

نفخة العقيد كانت قويةً وهو يضرب سطح مكتبه بقبضته يقول لنفسه:

ـ قضية ملعونة!

*** * ***

(٧)

ـ هل هناك أخبار جديدة يا حاتم؟

ـ ماذا تتوقع من حاتم؟

ـ الاسم والعنوان.

ـ أخشى إذا أرسلته لك على الواتس ألا تعطيني مليمًا واحدًا.

ـ وهل تراني نذلًا مثلك؟

يبتسم فارس وحاتم يضحك بصوت عالٍ ثم قال:

ـ لم أكن أعرف أن دمك خفيف، أتصور أنك طالب ملتزم لا يعرف الهزار.

أنهى فارس الاتصال معه وهو يتجه إلى مدخل العمارة، يلقي السلام على البواب، ثم يستقل المصعد إلى الدور الرابع... هاتفه الجوال يرن مرةً أخرى، يتوقع أنه حاتم ولكن ملامحه تنقلب إلى السعادة وهو يقرأ اسمها على شاشته، فيرفع الهاتف الجوال إلى أذنه قائلًا:

ـ كيف حالك يا آنسة ريم؟

ـ الحمد لله، هل هناك أخبار جديدة؟

بداية غير موفقة، انقلب وجه فارس إلى الوجوم، كان يتمنى أن يكون صوتها أكثر ودًّا من الجدية التي ترسم به صوتها.

ـ للأسف ليس بعد، ولكن لدينا خيط مبدئي من الممكن أن يقودنا إلى معلومات أكثر.

ـ لو احتجت إلى مساعدة؛ لدي اتصالات جيدة بالكنيسة.

ابتسم فارس وهو يسألها:

ـ وما الذي صرف تفكيرك إلى أن الكنيسة من الممكن أن تكون طرفًا في القضية!

كان يتخيل رد فعلها وقد ظهرت على شفتيها ابتسامة استنكار؛ تأكدت لديه هذه الصورة عندما أجابت:

ـ لست بمفردك الذكي يا أستاذ فارس، استنتاج بسيط مبني على الموضوع الذي تحدثنا بشأنه من قبل.

ـ الموضوع لا يتعدى في الوقت الحالي حَيِّزَ الاشتباه وليس هناك دليل مؤكد.

ـ هذا الخيط الذي تتحدث عنه لو كان مرتبطًا بالكنيسة على نحوٍ ما فأنا من الممكن أن أساعدك.

إعجاب فارس بهذه الفتاة يزداد. أكثر ما يثير اهتمامه بالجنس الآخر هو الذكاء فارس لا يتصور نفسه شخصًا فوق العادة، ولكنه لا يطيق الفتاة بسيطة التفكير مثل أغلب الفتيات. ولأنه يعشق المنافسة الفكرية فهي تزيده حماسةً وحميمية تجاهها، وكان هذا أكثر ما أحبه في ليندا.

ـ من المؤكد وقتها أني سأطلب مساعدتك.

ـ أنا في الانتظار، لن يهدأ لي بال حتى يتم القبض على قاتل خالي.

ـ مؤكد أنه في نهاية الأمر سيتم القبض عليه.

قالها فارس بقوة وعزيمة، كان لابد للصمت بعدها أن يفرض مساحةً زمنيةً ولو قصيرةً، ولكنها كافية لأن تحرك الخيط الخفي الذي بدأ يتأرجح بينهما.

أنهى الاتصال ومشاعر رقيقة تداعبه. يغادر المصعد متجهًا إلى شقة الدكتور معاذ. يرن الجرس. يعلم أنه سينتظر أكثر من خمس دقائق حتى يفتح الدكتور الباب.

صوت الدكتور يأتيه من خلف الباب مُحَمَّلًا بِسعادةٍ كَبيرة، يبتسمُ رغمًا عنه، الخطوات تتوقف أمام الباب، فينتظر فارس ولكن الباب لا يفتح. حاجباه يلتقيان وهو يتوقع مزاحًا ثقيلًا من الدكتور.

ـ هل أحضرت معك الهريسة؟!

كما توقع بالضبط، في أوقات أخرى مزاجه لم يكن يسمح بمثل هذا النوع من الدعابات، ولكن مكالمة ريم تركت لديه رحابة صدر.

ـ كلا يا دكتور، دمك لم يعد يحتمل المزيد من السكر والكوليسترول.

ـ شقيقتي تتحدث.

ضحكة فارس المكتومة تهز جسده، الباب يفتح والدكتور يستقبله بوجهٍ مُتَكَدِّر.

ـ هل من اللائق أن يزور أحدٌ شخصًا ما دون أن يحضر أي شيء معه؟

ـ من أجل صحتك.

ـ أم بُخل.

ـ مُمكن أدخل؟!

لا يرد عليه، ويوليه ظهره متجهًا للداخل. فارس يدخل ويغلق الباب خلفه. مازَحَ فارس الدكتور قائلًا:

ـ ولكن من الممكن أن أصنعَ لكَ كوبًا مِن الشاي.

لوَّح الدكتور بذراعهِ اليُمنى في الهواء وهو يتجه إلى مقعده المفضل في الأنتريه قائلًا:

ـ كل ما يلزم ستجده عندك في المطبخ.

دخل فارس إلى المطبخ. وقف قليلًا يتطلع إلى المطبخ الذي يبدو في حالة يُرْثَى لها، ثم اتجه إلى الحوض يغسل كوبين ويملأ السخان الكهربائي بالماء، يضع ملعقة شاي في كل كوب، يأتيه صوت الدكتور عاليًا:

ـ ثلاثة ملاعق سكر يا فارس.

هَمَّ فارس بأن يعترض ولكن الدكتور سَبقهُ قائلًا:

ـ ولا تجادل.

ابتسم فارس وهو يضع السكر في الكوبين منتظرًا أن تغلي المياه، انشغل عقل فارس ببيت الشعر الذي قرأه ولكنه لم يَبدُ مفهومًا نتيجةً لبعض الحروف المطموسة.

صَبَّ المياه الساخنة في الكوبين وقَلَّب الشاي، ثم وضع الكوبين على صينية حديدية صَدِئَةٍ وهو يهز رأسه مُستنكرًا، واتجه إلى الصالة وهو يقول:

ـ القتيل مسيحي هذه المرة.

ـ لماذا؟ لا أبدو مندهشًا!

ـ كنت أتوقع أن تقول هذا.

جلس إلى جواره وناوله كوب الشاي، ارتشف الدكتور منه في تلذذ ثم قال:

ـ هل تعرف أني أحب كوب الشاي الذي تصنعه، تُحسِنُ صُنعَهُ، آه، لو كان معها قطعةُ هريسة.

ـ دعنا نستكمل الحديث.

ـ آه، هذا الحديث.

ـ التحريات التي أجرتها المباحث عن هوية القتيل كشفت أنه جواهرجي، وأنه يسافر كل سنة لأمريكا، معه جِرين كارْد.

استوقفه الدكتور في حماسته الطفولية وهو يضع كوب الشاي على المائدة قائلًا:

ـ دعني أكمل لك، وتبين أنه عضو في جماعة شُهود يَهْوَه.

أومأ فارِس بِرأسهِ مُضيفًا:

ـ شقيقَتهُ صرَّحت بهذا الأمر وهي في قِمَّة خجَلِها وحُزنِها.

ـ من الطبيعي أن تشعر بالإحراج والإشفاق أيضًا على شقيقها.

ـ هل أفهم من كلامك هذا أن جماعة شهود يهوه مثلهم مثل الأريوسيين.

ـ طبعًا.

ـ لقد كنت أتصور أن الأريوسيين أصبحوا من التاريخ وأن الكنيسة استطاعت القضاء عليهم تمامًا.

ـ هذا غير صحيح، هناك أريوسيون يطلقون على أنفسهم الأريانيين، ولهم كنيسة في إنجلترا وجماعة شهود يهوه فكرهم هو الأقرب إلى الأريوسية حاليًّا في أمريكا، وهي عبارة عن جماعة صهيو–مسيحية عالمية متأثرة بالديانة اليهودية؛ ترتدي ثوب المسيحية و"يهوه" هو الترجمة العِبرية لإله الحرب...

وهم لا يعترفون بأي حكومة في أي بلد في العالم، ويرون ضرورة تدمير كل حكومات العالم الشريرة، والكلام هذا ورد في كتاب مشهور عندهم اسمه "ليكن الله حقيقةً" ولا يعترفون إلا بِعَلَمٍ يَحمِلُ نَجمَة دَواد السُّداسيَّة.

انطلق خَيال فارس كالعادة يُجَسِّد الأحداث التاريخية في صور سريعة مُتتابعة ويبقي صوت المتكلم في خلفية المشهد.

جماعة من الناس يقفون في قاعة كبيرة والمشاعل تضيء المكان بِلَونٍ ناري مُتوهِّج؛ يتَّشِحونَ باللون الأسود ويقف في وسطهم رجل له لحية بيضاء "تشارلز رسيل"، يتحدث إليهم وهو يحرك يديه، ثم يلتفت إلى عَلَمٍ مُعَيَّن يَقعُ خلفهُ؛ يتَدلى من ساريته الذهبية المُثَبَّتة إلى حائط، ويتوسط عمودين من بين ستة أعمدة لينحني أمامه في توقير

وتعظيم، فيتبعه الآخرون بنظرهم إلى حيث التفت، ثم ينحنون كلهم في حركة واحدة.

ـ إذن؛ عقيدتهم حاليًّا هي خليط ما بين اليهودية والفكر الأريوسى.

ـ طبعًا، وأضف لذلك أيضًا أنهم يتسترون بالمسيحية، ويعملون لخدمة السياسة التوسعية لليهود، ويمجدون الحركة الصهيونية، ويصفون زعيمها تيودور هيرتزل بالمحبوب من الله، ويعتبرون الكيان الصهيوني نعمة "يهوه" التي أرسلها لشعبه الخاص والمختار للأبد.

رجل في العقد السادس من العمر؛ يقف في مكتبه متطلعًا بإعجاب إلى صورة تيودور هيرتزل المرسومة بالزيت. يرفع الغليون إلى فمه، ويسحب منه نفسًا طويلًا، ثم يتجه إلى مقعده أمام الصورة الزيتية كبيرة الحجم؛ ليجلس عليه وهو يتطلع إلى ضيفيه اللذين يجلسان على مقعدين مجاورين لمكتبه الخشبي الكبير شبه البيضاوي.

ـ وهل هذه الحركة لها انتشار في بلدان أخرى؟

ـ كان لها انتشار في لبنان وتركيا ومصر وسويسرا وإيطاليا وألمانيا والنمسا وكندا وغيرها... ولكن صدرت قرارات بمنعها بحجة أن جمعية شهود يهوه حركة سياسية تعمل لمصلحة الصهيونية ووفق توجيهاتها.

ـ هذا يعني أن اليهود لهم دخل في نشأتها.

ـ بالتأكيد، والدليل على ذلك أن شهود يهوه أعلنوا أن سنة ١٩١٤ شهدت ارتفاع غضب الله عن اليهود بعدما وقع عليهم غضبه سنة ٦٠٦، وأنهم بعد العام ١٩١٤ سيكونون أصحاب السلطة في العالم، وطوال فترة عدم حكمهم كان الحكم للشيطان!

ـ واللوبي اليهودي حاليًّا تأثيره قوي جدًّا في الدول الغربية وبالأخص أمريكا، فهو من يحرك الإعلام في الغرب كله تقريبًا ويجرم التشكيك في الهولوكوست أو حتى مناقشة الفكرة، وأكبر دليل على ذلك أنهم بسطوا سيطرتهم الرسمية وغير الرسمية على أهم حُكوماتٍ في العالم وهي أمريكا والتي بدورها تؤثر في الدول الأخرى.

ارتشف الدكتور من كوب الشاي ثم نظر لفارس قائلًا:

ـ اشرب الشاي.

تناول فارس كوبه وهو يَسْتَحِثُّ الدكتور بعينيه أن يواصل حديثه.

ـ تمجيد الحركة الصهيونية واليهود تكلم عنها جوزِف راذرفورد في كتابه "الخلاص" وهو خليفة شارلز رسيل مؤسس شهود يهوه.

ـ وبما أنها حركة مدعومة من اليهود، فوجودها في مصر ولو كان بشكل سري يمثل خطرًا على مستقبل الكنيسة، خاصةً أن العالم

كله كان واقعًا تحت حكم الشيطان طول الفترة السابقة وفق ما يعتقدون، فالكنيسة بالتالي هي أيضًا من صنع الشيطان!

ـ بالفعل، ملخص العقيدة التي يرتكز عليها شهود يهوه هي إنكار عقيدة ألوهية المسيح، ومع ذلك فهو ابن الله، غير أنهم شخصيتان منفصلتان، وأن الابن غيرُ مُساوٍ للأب كما تدعي الكنيسة، وإنكار عقيدة الثالوث، واعتبارها من مخلفات العقائد الوثنية القديمة. إذ لم ينص الكتاب المقدس على كلمة ثالوث. غير أن سؤال المسيح من دون الله أمر مشروع عندهم وقولهم بأن العهد الجديد نفسه فيه تحريف.

اهتزَّ كرش الدكتور من الضحك وهو يرفع كوب الشاي قائلًا:

ـ أعلن شهود يهوه في مجلتهم "استيقظ" في سبتمبر ١٩٦٧ أن هناك خمسين ألف خطأ في الكتاب المقدس!

ـ وبذلك يصبح من الواضح جدًّا الرابط الوثيق بين الضحايا الثلاثة هو فكر أريوس بتنوعاته المختلفة والذي يتجلى في فكر شهود يهوه وعقيدة الإسلام.

أومأ الدكتور برأسه وهو يتناول آخر رشفةٍ من كوب الشاي وقد رانَ الصمت للحظات حتى قال فارس:

ـ ولأنه جواهرجي هذا يعني أنه من أصحاب المال، ولو أحَبَّ أن يُبَشِّر بعقيدةِ شهود يهوه فهو قادرٌ على التمويل.

ـ مُحتمل جدًّا.

ـ ولكن ما يجعلني مُرتابًا بشأن هذه النظرية أن وجود جماعة شهود يهوه ونظرة بعض رجال الفكر المسيحي على أن الإسلام امتدادٌ للأريوسية هو أمر موجود منذ زمن وليس مستحدثًا، وهنا السؤال لماذا الآن؟

ـ نحن في وقتٍ تمر فيه الأمة باحتقان طائفي بين المسلمين والمسيحيين وهو للأسف في ذروته، وازداد أكثر بعد الثورة... كنائسُ تُحْرَق سواءً على يد مسلمين متعصبين أو فلول النظام السابق...

وظهر ما يُسَمى بائتلاف المسلمين الجدد عقب الثورة، وأصبح يعمل في النور وليس طي الكتمان كما كان قبل الثورة، وعلى الرغم من ابتعاد هذا الائتلاف حاليًّا عن الأضواء لا يمكن أن ننكر التأثير السلبي الذي أحدثه في المجتمع المصري، وكل ذلك يزيد الكنيسة خوفًا من أنها تتعرض في الوقت الحالي لأشرس الهجمات في العصر الحديث...

وبالتالي لا بد أن يتبنى بعض رجال الفكر المسيحي ولو بشكل متطرف قضية الدفاع عن المسيحية وبأي وسيلة ممكنة، أضف

إلى ذلك أنه عقب الثورة –وخاصةً في وقت حكم الإخوان– اندفع عدد من المسيحيين للهجرة إلى الخارج...

كل هذه العوامل ضعها بجوار بعضها تشكل خطرًا محدقًا بالمسيحية في مصر وفق تصور بعض المتطرفين، وفي مثل هذه الأوقات تكون الأرضية خصبةً لاستقبال أي فكرٍ مُتطرف، وسيجد أي فكر متطرف وقتها مُريدين ومشجعين له حتى لو ظل محصورًا في نطاقٍ فردي، ولكنه موجود ويقوم باتخاذ رد الفعل اتجاه ما يحدث...

وأنا أُرَجِّحُ أن الكنيسة لا تعلم بما يحدث، ولكن ربما هناك عناصر معينة أخذت على عاتقها واجب الدفاع عن الدين المسيحي ضد الهجمات الشرسة التي تصيبه من كل جانب...

وقت الأزمات الطائفية توقع أي ردات فعل عنيفة ومن الممكن أن تَنجُم عن جماعة صغيرة، ولكن يكون لها تأثيرٌ مُزلزل.

سُعالُ الدكتور مَنعَهُ من أن يواصل حديثه، أشفَقَ عليه فارس وهو يقول:

– لو تقلع عن السجائر.

– اخرسي يا أختي.

– لديَّ لغز جديد.

لمعت عينا الدكتور معاذ وهو يتابع فارس بلهفة الذي أخرج هاتفه الجوال من جيبه وأخذ يضرب أزراره، ثم ناول الهاتف الجوال للدكتور معاذ الذي ضيَّق حدقتيه ليرى الصورة الموجودة على الشاشة، قرب الهاتف الجوال أكثر إلى عينيه ثم زفر في ضيقٍ قائلًا:

ـ اللعنة على الكهولة.

أدارَ رأسه فيما حوله حتى عثَرَ على نظارتهِ فوق منضدةٍ صغيرةٍ إلى يمينه، ثبَّتَ في عجلٍ النظارة على وجهه، ثم ركز في الصورة مرةً أخرى... بدا مُستغرقًا للغاية في النظر وأصابع يده اليسرى تداعب ذقنه النامية.

ـ بيت شعر.

ـ لقد تصورت أن يَبُثَّ إلينا واحدةً من رسائِلهِ الرقمية، ولكن يبدو أنه في كل مرة لديه الجديد.

لم يُعلِّق الدكتور ولكن بَدا مستغرقًا في محاولة قراءة بيت الشعر وعشرات الكلمات تتوافد على رأسه محاولًا أن يستبدلها بالكلمات التي طُمِسَت بعض حروفها. الكلمات تتوافد وتحل مكانها كلمات أخرى بسرعة شديدة... حُبُّهُ لحل المسائل الرياضية نَشَّطَ عقله وجعله سريعًا في حَلِّ الألغاز... تراجع فارس في مقعدهِ وقد بدأ يشعر بالألم في عموده الفقري، تقلَّصَت ملامحهُ قليلًا.

خلع الدكتور نظارته، ونظر إلى فارس ثم قال في هدوء:

ـ أحضر لي من على المكتب ورقةً وقلمًا بسرعة.

نهض فارس في كسلٍ وهو يتجه إلى مكتب الدكتور يقلب بين الأشياء الكثيرة الموجودة عليه حتى عثَرَ على قلمٍ ومفكرة صغيرة، الآلام تتزايد في ظهره، ولكنه يتحامل على نفسه ويعود بسرعة إلى الدكتور الذي تناول المفكرة والقلم، وراح يكتب بضعة سطور ويشطب على بعضها، ويُعيدُ كِتابة سطورٍ أخرى ثم يشطب البعض الآخر، استمر على هذا النحو لدقيقة كاملة حتى نفد صبر فارس، وقاطَعَ استغراق الدكتور بقوله:

ـ أقربُ شيءٍ للأصل يا دكتور، لا تتحرى الدقة الكاملة.

ظهر الضيق على وجه الدكتور وهو ينظر إلى فارس، ثم ضربه بالقلم وهو يقول:

ـ غير جائز أيها المتذاكي، لأنها ترتبط بالقيمة العددية للحروف.

ـ ما هو وجه الارتباط؟

رفع الدكتور يده اليمنى المُمسكة بالقلم يريد الصمت فسكت فارس وهو يُمسك كوبه يشرب منه ويتابع الدكتور باهتمام.

ـ أعتقد أن هذه هي الصيغة الصحيحة.

ـ وما هي؟

نظر نحوه الدكتور بفخر وهو يتراجع في مكانه قبل أن يقول بثقة:

ـ أحاطوهُ كَكِلابٍ يَسيلُ منها الزَّبَدْ... ووجد بهم حل الوهن وبه كل الجلد.

تأمَّل فارس بيت الشعر لبعض الوقت ثم هز كتفيهِ قائلاً:

ـ الحقيقة أنه شِعرٌ رَكيكٌ جدًا.

ـ قد يكون ركيكًا ولكن المغزى في التاريخ الذي من الممكن أن تستخرجه من بيت الشعر هذا.

ـ تاريخ من بيت شعر؟!

ـ هناك مذهب اسمه المذهب الحروفي في كتابة الأشعار، ومن أبرز رواد هذا المذهب الشاعر الأذربيجاني عماد الدين النسيمي، ستجد أن أبيات الشعر تتكلم عن حدَثٍ معين، وعندما تقوم بجمع عدد حروف البيت يظهر لك تاريخ الحدث المذكور في البيت.

ـ وما هو هذا التاريخ؟

ابتسم الدكتور في خُبث فنفخ فارس في ضيق، ثم رفع يديه قائلًا:

ـ حقيقةً؛ أنا لستُ في حالةٍ تسمح بأن تُخضِعَني لأي اختبار.

اهتز جسد الدكتور بالضحك المكتوم وهو يقول:

ـ أنت تعرفني جيدًا يا فارس.

نظر نحو ساعته ثم أكمل:

ـ فارس هذا ميعاد نومي وأنا أشعر بأني منهك تمامًا، عندما تصل للتاريخ الوارد في بيت الشعر هذا اتصل بي غدًا صباحًا فهو موعد استيقاظي.

نظر نحوه فارس باستنكار ثم قال في غضب:

ـ مؤكد أنك تمزح يا دكتور.

نهض الدكتور من مكانه بصعوبة وهو يقول بأنفاس تلهث من المجهود الذي بذله:

ـ الحقيقة أنني لا أمزح ليلًا أبدًا.

نظر نحو فارس بحزمٍ وهو يقول:

ـ تصبح على خير يا فارس.

ـ يا دكتور أ...

ـ تصبح على خير.

تحرك فارس وهو يُردِّدُ في ضيقٍ بصوتٍ خفيض:

ـ وأنت من أهله.

كتَم الدكتور ضحكةً أخرى كانت على وشك الإفلات وهو يشاهد فارس يغادر شقته مُغتاظًا، لم يكن فارس في مزاج يسمح له الآن بأي حال من الأحوال بمُمارسةِ هذه الألاعيب التي يهواها الدكتور. عقله

يرفض أن يعمل، يشعر بإرهاق قوي يهاجم جسده ويجبره على اللاتفكير.

دخل إلى المصعد محاولًا إسقاط الحروف واستبدالها بالأرقام ولكن العشوائية التي فرضت نفسها على مجال التفكير، جعلت الأرقام تسقط في غير موضعها، فهز رأسه وقد عاوده ألم الصداع النصفي الذي ضرب مؤخرة رأسه.

أغمَضَ عينيهِ وصورة ريم رغمًا عنه تُقحِمُ نفسها على مُخيلته، سعيدٌ هو بهذا الشعور ولكن الإرهاق البالغ يمنعهُ من الاستمتاع.

* * *

(٨)

ـ هل استطعت أن تعرف التاريخ؟

يحاول أن يستجمع شتات تفكيره ولكنه يعجز عن ذلك، الظلام يلف المكان كله، الصوت يأتيه عميقًا لا يتناسب مع قرب مصدر الصوت منه.

يحاول أن يتكلم ولكن الكلمات تأبى أن تغادر فمه، ذلك المتحدث غائب الملامح يقترب منه. يلمح ابتسامةً مريبةً على رُكنِ فَمِهِ الأيمن، يحاول أن يتحرك من مقعده؛ ولكن يعجز عن ذلك رغم أنه غير مُقيَّد.

الوجه يقترب منه أكثر فتتضح ملامحهُ إلى حدٍ كبير على الرغم من الظلال الكثيرة التي تلفها.

إنه ذلك الشخص الذي رآه في موقع الحادث الثاني... كيف وصل إلى هنا؟ ذلك السؤال الغبي الذي يتكرر دائمًا.

ـ لِمَ لا تُجيبني يا فارس؟

يسمعُ دقات قلبه، يسمعها تدق في أذنه.

ـ هل عرفت التاريخ؟

ـ ٦٠٠ و...

ـ خطأ.

صاحبُ الصوت يصيح والغضب قد تمكن من كل ملامحه، عيناهُ النافذتان تخيفان فارس أكثر، يحاول أن يتحرك من مقعده ولكنه يجدُ نفسه ثقيلًا، ينظر إلى قدميه...

غريب!! لا يرتدي حذاءه... لماذا يبدو كل شيء غريبًا؟! صاحب الصوت يتنحى عن المشهد وهو يشير بيده اليمنى إلى عِدَّةِ أرقامٍ محفورةٍ على حائطٍ قديمٍ متهدم من خلفه وقد عاد الهدوء إلى صوته مرةً أخرى:

ـ انظر إلى هذه الأرقام.

فارس يحاول أن يركز في الأرقام الكثيرة المُتناثرة على ذلك الحائط، هناك دقات عالية بدَت وكأنها لصيقةٌ بأذنهِ إلى حدٍ مُزعج.

_ ٦٨٠.

صاحَ بها فارس، ينتفض في مكانه وهو يلمح نَصْلَ السكين يندفع نحو رأسه. يحاول أن يصرخ ولكن الصرخة لا تغادر أعماقه، يغلق عينيه و...

ينتفض جسد فارس على فراشه وهو يفتح عينيه على وسعهما. يغمض عينيه للحظة وهو يشعر بحرقان فيهما، الدماء تنتفض في عروقه، يُفلِتُ نفخةً قويةً لينفِّثَ عن هذا التوتر.

ينهض من فراشه وهو ينظر إلى الهاتف الجوال على يساره، يطلقُ أزيزَ مُتصل وشاشته تتوهج، يطفئ المنبه، ثم يتطلع إلى الساعة: السادسة صباحًا!

ينهض من فراشه في تَثاقُلٍ مُتجهًا إلى الحمام... ينظر إلى وجهه المرهق في المرآة وإلى عينيه المحلقتين بالأسود، يتذكر الرقم الذي ردَّدهُ في الحلم، يفتح صنبور المياه على عجل ويقذِفُ وجهه بالماء الفاتر، ثم يمسح وجهه على عجل بالمنشفة، ويغادر الحمام إلى ركن مكتبته ليفتح الحاسب الآلي.

يضغط على أيقونة الانترنت، ثم يتجه إلى جوجل ليضرب سريعًا على أزرارها: "٦٨٠ ميلادية في تاريخ المسيحية"، تتوالى نتائج البحث سريعًا:

- **الحسين بن علي بن أبي طالب – ويكيبيديا، الموسوعة الحرة.**
- **الإمبراطورية البيزنطية – ويكيبيديا، الموسوعة الحرة.**
- **جمهورية مقدونيا – ويكيبيديا، الموسوعة الحرة.**

لم يُكمل قراءة باقي رؤوس مواضيع البحث واتجه إلى ضغط العنوان الثاني وشرَعَ في قراءة رأس المقال، ولكن شعوره بالاستعجال جعله يضغط على زري الـ (Ctrl) وحرف الـ (F) يظهر له مربع البحث، كتب فيه الرقم ٦٨٠، فتحركت الصفحة إلى منتصف المقال، وهي تظلل الرقم الوارد في سياق المقال باللون الأصفر، فقرب وجهه من الشاشة وهو يقرأ هذه الجملة:

"تقدَّمَ البلغار إلى الجنوب من نهر الدانوب مع وصول أفواج الخزر، وأُرْسِلَت القوات البيزنطية عام ٦٨٠ لتفريق هذه المستوطنات الجديدة لكنها هُزِمَت."

تراجع فارس في مقعده معقود الحاجبين مُرددًا بخفوت:

– البلغار!!

ضغط على زر الرجوع الكائن بأعلى صفحة متصفح الانترنت ليعود مرةً أخرى لصفحة نتائج البحث ويضغط على رأس الموضوع الثالث ويعيد نفس الكرة ليقرأ بخيبةِ أمل: "السجلات التاريخية الموثقة في ٦٨٠ ميلادي تقول إن مجموعة من السلاف، البلغار والبيزنطيين بقيادة البولجار كوبر استقروا في منطقة سهل كيراميزيان ومدينة بيتولا."

ضرب فارس سطح المكتب، ثم عاد إلى غرفته يلتقط الهاتف الجوال مترددًا بين أن يجرى اتصالًا وبين أن يعيد الهاتف الجوال إلى مكانه، ولكنه حسَمَ أمره وأجرى الاتصال منتظرًا الرد من الطرف الآخر.

ـ ألو، من معي؟

ـ احم... أنا فارس يا دكتور.

ـ فارس...

لحظة صمت عرَفَ فارس أن الدكتور سينفجر بعدها غاضبًا، وقد ظهر ذلك بوضوح في رنة صوته:

ـ هل أنت مجنون يا ابني؟ لقد أخبرتك أن تتصل بي في الصباح وليس في الصباح الباكر!

ـ البلغار يا دكتور... البلغار.

ـ من؟

لم يرد فارس وآثر الصمت وقد غلب الضيق على ملامحه وهو يدور حول نفسه في الغرفة يحك شعره بأظافر يده اليمنى حتى قال الدكتور بعد أن نفخ:

ـ هل كنت تبحث عن ذلك التاريخ من خلال الانترنت؟

ـ نعم.

ـ مشكلتك أنك غير صبور.

ـ هل من الممكن أن تساعدني حتى أستطيع أن أنام؟

ـ يا سلام، أساعدك لتنعم أنت بالنوم الهانئ في حين أنك جعلت النوم يهرب من عيني.

ـ أرجوك يا دكتور.

استقبل نفخةً أخرى أكثر قوةً من الدكتور، ولكنه ظل منتظرًا لرد الدكتور:

ـ لقد أصَبْتَ في التاريخ، ولكنك بحثت في المكان الخاطئ.

قال فارس بنفاد صبر:

ـ وما هو المكان الصواب؟

ـ تاريخ الأقباط يا فالح.

جلس فارس على طرف فراشه وهو يغلق عينيه يقول مُحدِّثًا نفسه:

ـ لم يخطر ذلك على بالي.

ـ طبعًا، لأنك عَجول.

ـ هل من الممكن أن تُخبرني؟

استدرَكَ فارس سريعًا لأنه يخشى أن يُمارس الدكتور لعبةً أخرى:

ـ وأرجوك هذا ليس وقت الفوازير.

ـ البابا يوحنا الثالث.

ـ ماذا حدث له؟

ـ البابا يوحنا الثالث كان معروفًا جدًّا بين العامة، واكتسب شهرةً في القداسة والفضيلة، فانْتُخِب بالإجماع لكرسي البطريركية في نوفمبر ٦٨٠ ميلادي في عهد خلافة معاوية ابن أبى سفيان، وعانى معاناةً شديدةً من عبد العزيز بن مروان والي مصر...

والسبب في ذلك أن والي مصر ذهب للإسكندرية حتى يأخذ خَرَاجَها، ولم يكن البطريرك في استقباله والمصادر المسيحية تورِدُ أن هذا بسبب مرضه وقتها، فوشى به الحُسَّاد عند الوالي، فقُبِض على البابا وغرَّمهُ مائة ألف دينار، وأمر بأن يوقفوه على جَمْر...

والمصدر المسيحي يروي أن زوجة الوالي شاهدت البابا في حلم وأنه مبارك ومن أجل ذلك أخبرت الوالي عن حلمها، وطلبت منه أن لا يُسيء معاملة البابا، فأخذ الوالي البابا للسجن وقلل الغرامة لعشرة آلاف دينار؛ فدفعها المسيحيون وخرج البابا من السجن.

- أليس فيما ترويه شبهٌ كبيرٌ بما ورَدَ في قصة حياة السيد المسيح؟ أتذكر ذلك الفيلم الأمريكي عندما حذَّرت زوجة بيلاطس زوجها من أن يصلبه كما يطلب منه اليهود لأنه شخص مبارك، فأعلن براءته من دم المسيح.

- إلى حدٍ ما تستطيع قول ذلك.

- والذي أهان هذا البابا والٍ مُسلم مما يعني أنه أريوسي.

- أُريدُك أن تكون حذرًا في الاستدلال المنطقي، ولكن من الممكن أن تُحيل القصة للفكرة نفسها مع الحذَر، فليس كل حدَثٍ سنقوم بإسقاطه على التشابُهِ بين الفكر الأريوسي والإسلامي؛ لأن هناك فروقاتٍ جوهريةٍ بين الاثنين من الناحية العقائدية.

- ولكن وفق تفكير القاتل ونفسيته، قد تكون هذه الفروق اللاهوتية التي تذكرها بدقَّتِها المُتناهيةِ غائبةً تمامًا عن وعي القاتل.

- صحيح، ولكن لا تنسى أن القاتل أو من يقفُ وراءهُ لا يمكن القول بأنه محدودُ التفكير، وهذا قد اتضح من خلال الرسائل التي يبثها مع كل ضحية.

- فعلًا، ولكن بريق الفكرة التي طرحتها بالنسبة لمستوى تفكير القاتل حسبما أتصور أن الإسلام رافِدٌ من روافِدِ الأريوسية في أشكالها المختلفة، ومن الممكن أن تتماشى مع فكرة أن واليًا

مسلمًا عذب بطريرك الأرثوذكس تجديدٌ للصراع نفسه بين الأريوسية وكنيسة الإسكندرية في القرن الرابع الميلادي.

ـ أمرٌ مُحتملٌ أيضًا لو تصورنا أن هذا هو مستوى عقلية القاتل، هل من الممكن أن تتركني أنام قليلًا؟

لوَّحَ فارس بيده اليمنى وهو يقول:

ـ أنا آسف يا دكتور أني أيقظتُكَ بهذه الطريقة ولكن كان الأمر ضروريًا بالنسبة لي، لقد كان عقلي على وشك الانفجار.

ـ ليتَهُ ينفجر لتُريحني وتتركني أنام قليلًا كما يفعل المُسِنُّونَ في عمري.

ضَحِك فارس معتذرًا للدكتور مرةً أخرى، وأنهى الاتصال معه، ونهض متجهًا إلى المطبخ يُعِدُّ كوب القهوة الذي تعود أن يشربه كل صباح، ولكنها العادة السيئة التي دائمًا تلاحقه، فكلما شمَّت معدته رائحة القهوة أصدرت أصواتًا كثيرةً تُطالبه بأن يأكل أي شيء أولًا قبل أن يتناول القهوة، فتح الثلاجة ليبحث عن أي شيء يُؤْكَل.

* * *

(٩)

ـ كنتُ واثقةً من أنك ستُهاتِفني.

ضَحِك فارس وهو يدور حول نفسه في صالة شقته، وقال:

ـ ولماذا هذه الثقة؟

ـ إحساس.

داخلُهُ شُعورٌ كبيرٌ بالسعادةِ وهو يستشعر المَرَحَ في صوتها. كان هذا ما يبحث عنه. سنواتُهُ الثلاثون جعلته يتجاوز الشعور بالمراهقة ومحاولة ملء فراغٍ عاطفيٍ يشعرُ به، أما هذا الشعور بالتحديد فيُعيدُ صِياغَة مشاعرهِ بشكل مختلف.

ـ أنا أحتاج إلى مساعدتك فعلًا.

ـ الموضوع يتعلق بالكنيسة.

ـ فعلًا، هناك شخص اسمه الأب يوتا، ضروري أن أقابله.

ـ الأب يوتا، لا أتذكر أين قرأت هذا الاسم من قبل.

شعر فارس بنقطة امتياز وهو يرد عليها بزَهو:

ـ يكتب مقالاتٍ معاديةٍ للإسلام والرموز الإسلامية على موقع اسمه دولة الأقباط الأحرار.

شعورٌ بالغبطة يجتاحُهُ الآن وهو يستعرضُ أمامها تفوقه المعلوماتي ولو في جزئيةٍ بسيطةٍ مثل هذه، هتَفَت في حماس:

ـ نعم، موقع دولة الأقباط الأحرار أنا أعرفه.

توقف عن الدوران حول نفسه في صالة البيت وهو يقول مبهوتًا:

ـ يا سلام، هل هو موقع مشهور إلى هذه الدرجة؟

ـ ليس مشهورًا جدًّا، ولكن يُمثِّلُ أرضًا خصبةً لأصحاب الآراء المتطرفة. كنت قرأت لهذا الشخص مقالات على الموقع، وأعتقد أنه اختيار مناسب منك؛ لأن لديه مقالات في فكرة ارتباط الإسلام بالأريوسية.

ـ بالفعل.

تسلل الصمت للحظات حتى قاطَعَتْهُ هي بِقَولٍ اشتَمَّ فيه فارس رائحةَ الخُبث:

ـ وأنت طبعًا تريد أن تحقق معه، ولا تملك أي صفة رسميةٍ لفعل ذلك، فبالتالي...

ابتسم فارس وهو يقول:

ـ عُدنا مرةً أخرى لمباراة الذكاء والاستنتاج.

ـ اعترف أني على حق.

لم يعلق فارس، ولكن لزم الصمت لثوان وهو مُنتَشٍ بصبغة الفرح التي تَكسو صوتها، هتَفت بهِ:

ـ ألو.

ـ نعم، معكِ.

ـ أين ذهبت؟

ـ أحتاج منكِ أن توفري لي قناةً مقبولةً للحديث معه عن طريق علاقاتك بالكنيسة. معي معلومات تقول إن المكان الذي يستخدمه لنشر مقالاته يأتي من كنيسة ماري جرجس بمحرم بك.

ـ دعني أفكر.

ـ نعم.

جلجلت ضِحكَتُها، فاتَّسَعت ابتِسامَتُهُ وقد ازدادَ شُعورهُ بالسعادة واستَدرَكَت قائِلَةً:

ـ فعلًا؛ إنها دُنيا صغيرة، لديَّ علاقاتٌ طيبة بهذه الكنيسة.

ـ هذا شيءٌ عظيم، إذن متى يمكننا أن نذهب؟

ـ غدًا لو أحببت.

ـ إذن متى نلتقي؟

ـ الساعة العاشرة صباحًا، ما رأيك؟

ـ لا بأس.

ـ مضطرة لأن أُنهي المُكالمة معك الآن، مع السلامة.

ـ مع السلامة.

أنهى المكالمة وهو يتابع انطفاء شاشة الهاتف الجوال، ثم وضع الهاتف الجوال على سطح مكتبه وهو يتخيل أن وجهها الضاحك بالتأكيد جميل جدًّا.

* * *

(١٠)

يقف مُنتظرًا أمام سيارته (الفيات ١٢٨) ينظرُ في الساعة، ثم يتَطلع إلى المارَّة والميكروباصات والتاكسيات التي تقف على مقرُبةٍ من كنيسة ماري جرجس.

نظَرَ في ساعتهِ مرةً أخرى. كانت العاشرة وعشر دقائق، بدأ التذمُّر يظهر على ملامحهِ، لفَتَ نظره توقف تاكسي بجوار رصيف مسجد أولاد الشيخ وثمة فتاة تنزل منه، تبدَّلَت ملامِحُهُ من التذمُّرِ إلى الانفراج، إنها ريم.

تحرَّك التاكسي في حين أدارت رأسها فيما حولها، لوَّح لها بذراعهِ الأيمن ولكنها لم تره، فتحرك من مكانه وهو ينظر إلى يساره يتفادى الترام الصفراء والسيارات المُقبلة حتى وصل إليها. ابتسما لحظة تلاقت أعينهما.

ـ السلام عليكم.

ـ وعليكم السلام.

أشارَ إلى ساعَتهِ وهو يقول بعتابٍ ممزوجٍ بالدُّعابةِ:

ـ تأخرتِ عشرة دقائق كاملة.

ـ أعذرني، استغرقتُ كل هذا الوقت في إيقاف سيارة أجرة ووافق واحدٌ منهم بصعوبة.

هز رأسه، يكره من يتأخر عن مواعيده ولو دقيقةً واحدةً، هذه عادةٌ لم يكتسبها من سفره إلى لندن، ولكنه اكتسبها من والده.

تحركا باتجاه الكنيسة حتى وقفا على مدخلها، نظر لهما العسكري الجالس على الكرسي بجوار بوابة الكنيسة بكثيرٍ من الرِّيبة والتحَفُّز، ثم نهَضَ مُتجهًا نحوهما يقول في غلظة:

ـ هل أستطيع مساعدتكما؟

أجابت ريم في هدوء:

ـ لدينا موعد.

إجابتها الواثقة بَدَت غير مُتَّسِقة مع حجابها مما دفع إليه إحساسًا أنها تسخر منه، ولكنه قبل أن يفتح فمه أقبَلَ عليها رجلٌ في منتصف العقد الرابع من عمره، كان يقف على مدخل الكنيسة. تحرك نحوهما فور أن شاهد ريم وهو يبتسم ثم قال بصوت مرتفع:

ـ كيف حالك يا أستاذة ريم؟

تراخَت ملامح العسكري التي تقلَّصَت وعاد ليجلس في مقعده وهو يقول للشخص الذي أقبَلَ على ريم:

ـ والنبي؛ بعد إذنك، هل من الممكن أن تُرسِل لي كوبًا من الشاي.

حيَّاها عماد برأسهِ وصافَح فارس، ثم التفت إلى العسكري وهو يقول مازحًا:

ـ ما الأمر يا سعيد؟ هذا ثاني كوب شاي تطلبهُ اليوم؟

ـ رأسي يكاد ينفجر يا أبانا.

ضَحِك الرجل وقال:

ـ سأُخبر مينا أن يصنعِ لكَ واحدًا، لا تقلق.

التفَت مرةً أخرى لريم وفارس وهو يدعوهُما إلى الدخول. بعد أن تجاوزا البوابة استوقفهما الرجل عند الدرج الأول من السلالم قائلًا بلهجةٍ ودية:

ـ بالمُناسبة اسمي عماد، ولكن سعيد ما زال مُصِرًّا على تسميتي بأبينا على الرغمِ من إخباري له عدة مرات أني خادِم الكنيسة، ولكنه يقول لي ستَظل أبانا!

ابتَسَمَت ريم وفارس مُجامَلةً، وخادِمُ الكنيسة تنقلب ملامحه إلى شيءٍ من الجديَّة وهو يقول بصوتٍ مُهذَّب:

ـ عُذرًا؛ سأُبلِغُ الأنبا كيرلس أنكُما أتيتُما.

أومأت ريم برأسها، في حين أن رجلًا آخر يقف على الدرج الأعلى للسلم يتحدث مع شخصٍ آخر تباطآ في الحديث وهما يختلِسانِ النظرات المُستريبة لفارس وريم.

مالَت ريم قليلًا إلى اليسار وهي تهمِس لفارس وتحاول أن تَكتُم ابتسامةً تكادُ تهربُ من بين شفتيها الصغيرتين:

ـ هل تعرف لوحة الشهيد ماري جرجس وهو يمتطي حصانه؟

قالتها وهي تشير برأسها للوحة الفُسَيفِساءِ الكبيرة الكائنةِ أعلى درجات السلم. هو يعرفها جيدًا، فلا يوجدُ مصري مسلم أو مسيحي لا يعرف هذه اللوحة، الشهيد ماري جرجس وهو يجلس على حصانه الأبيض ويُسَدِّدُ رُمحَهُ إلى التنِّين الأسطوري وحرملته الحمراء ترفُلُ من ورائه، ويرتدي الخوذة الرومانية الشهيرة.

ـ طبعًا أعرفها جيدًا، أخبريني عن مصري لا يعرفها.

ـ هل تعرف قصتها؟

ـ على حسب ما أتذكر أن هذا التنين يمثل الوثنيَّة أو ملكًا فارسيًّا وثنيًّا اسمه دادیانوس كان يحكم مصر، وأنها لوحةٌ تعبيريةٌ عن انتصار الشهيد ماري جرجس على الوثنية.

ـ وهذا ما أطلِقُ عليه أنا تجاوزًا التاريخ الرسمي.

ردَّدَ فارس باستنكار واستغراب مصحوب بالضيق لأنها أطاحت بإحساسه بالرضى عن عقله الذي لا يزال يحتفظ ببعض المعلومات التاريخية الدقيقة والتي تُتيحُ له أن يُجاريها بعض الشيء...

ـ الرسمي!

- التاريخ دائمًا أصوره بشكل شخصي على أنه يسير في خطين متوازيين، خط تاريخ رسمي وآخر غير رسمي.

لم يعلق فارس على كلامها، وتخلل بينهُما الصمت وهو يتفرَّس أكثر في ملامحها بشيءٍ من التعجب وأيضًا الإعجاب! كان لابد للصمت أن يأخذ مساحةً كافيةً، ربما هي لثوانٍ ولكنها كانت كافيةً ليملأ عينيه من ملامحها الواثقة الهادئة. أسلوبها في الكلام يذكره كثيرًا بالدكتور معاذ...

كان لا بد أن يقطع الصمت وهو يسأل بشيء من السخرية:

- وما هي الرواية غير الرسمية؟!

- الرواية الأخرى التي لا تحظى بشهرةٍ تقول إن هناك أسقفًا أريوسيًّا اسمه جرجس، والرمح الذي يضرب به التنين هو إشارة لتغلبه على أثناسيوس صاحب قانون الإيمان النيقاوي!

هَمَّ فارس بالرد عليها في استنكارٍ شديد، ولكن قطَعَ حديثهما خادم الكنيسة عماد الذي ظهر أعلى الدرجات الرخامية وهو يقول بابتسامة مُهذَّبة:

- آسف على التأخير، كان الأنبا معه اتصال هاتفي، تستطيعان أن تُقابلاه الآن.

هَمَّت ريم بأن تتحرك ولكنها توقفت وهي تتطلع إلى ملامح فارس المستنكرة الذي بدا أنه يتجاهل كلام خادم الكنيسة أو لا يشعر بوجوده.

حاولت أن تكتم ضحكتها وتحركت، هز فارس رأسه وتحرك معها وهو يتأمل اللوحة الفسيفسائية لماري جرجس الكائنة بمدخل الكنيسة، وكأنه يشاهدها لأول مرة، يتأمل فيها بتركيز شديد، وهو يصعد درجات السلم حتى وصلا إلى الغرفة المُلحقة بمكتب الأنبا.

تقدم خادم الكنيسة وطرق الباب في تهذيبٍ بالغ، استغل فارس الفرصة وأدارَ رأسهُ لريم يَهمِسُ لها:

ـ على حسب ما أعرف أيضًا أنه ضابطٌ روماني.

أومأت برأسها وهي تُشيح بوجهها قليلًا إلى اليمين تُواري ضحكةً تكاد تهرب من بين أسنانها، فأكمل فارس في عصبية هامسة:

ـ إذن؛ من غير المعقول أن يكون أريوسيًّا!

فتح خادم الكنيسة الباب وأشار لهما بالدخول. أشارت ريم لفارس بعينيها، فالتفت إلى خادم الكنيسة، وتقدما في صمت حتى دخلا على الأنبا كيرلس. قام من خلف مكتبه يصافحهما في ترحابٍ ومودَّة ويدعوهُما إلى الجلوس.

انقلبت وقتها ملامح ريم إلى الجدية، كذلك فارس وقد تناسَيا بشكلٍ مؤقت وبدون اتفاق بينهما الحوار الساخن والتركيز فيما أتيا من أجله.

خرج خادم الكنيسة من الغرفة في صمت، في حين أن الأنبا اتخذ مكانه خلف مكتبه وشبك أصابع يديه على المكتب وهو يوجه بصره إلى ريم قائلًا:

ـ كيف حالك يا آنسة ريم؟

ـ بخير؛ الحمد لله.

أدار رأسه لفارس كأنه يحاول قراءة ما خلف ملامحه، ولكن الوجه الثلجي الذي رسمه فارس أعجَزَهُ على أن يستَشِف ما وراء هذه الملامح، فقال الأب:

ـ الأستاذ؟!

ـ فارس.

ـ أهلًا وسهلًا بك.

ـ أهلًا بك.

ـ قبل الخوض في أي حديث، ماذا تشربان أولًا؟

قالت ريم بجدية:

ـ الأمر لا يستحق نيافتك.

حرك رأسه علامة النفي وهو يتراجع في مقعده قائلًا بحزم وابتسامة رسمية على شفتيه:

- هل تريدين أن يظن بنا الأستاذ فارس في أول زيارة يشرفنا بها أننا بخلاء؟

ابتسمت ريم مجاملةً وهي تحرك يديها:

- لا، العفو؛ طبعًا.

- بما أن اليوم حار؛ أتصور أن أفضل مشروب سيكون الليمون، هل توافقني الرأي؟

أومآ برأسيهما في صمت، في حين تناول هو سماعة التليفون من جانبه الأيمن وطلب رقمًا داخليًّا، وقال في صوت وقور:

- ثلاثة أكواب ليمون مثلج يا سميح... بسرعة لو سمحت... شكرًا.

وضع سماعة التليفون، ثم عاد ينظر إليهما في اهتمام. طبيعة عمل فارس كطبيب نفسي تفرض عليه بشكل لا إرادي أن يتفرس في ملامح أي شخص جديد يحدثه، فالملامح والتعبيرات التي يظهرها الوجه مهما كانت خاطفةً ترسم أمام فارس خريطةً كاملةً للحالة النفسية التي عليها هذا الشخص...

فعينا الأب ثابتتان تدلان على ثباته الانفعالي وأيضًا الخطوط المستقيمة التي ترسم ملامحه تدل على صرامته وجديته، والنظرة الثاقبة التي يحاول اختراق ضيوفه بها خاصةً من يراهم لأول مرة تدل

على رغبته في كسر الحاجز الذي يعوق بينه وبين ما يدور في مخيلة ضيفه...

تراجعه في مقعده تدل على ثقته بنفسه... رجل جدير بموقعه هذا، قوامه إلى حد ما رياضي، استنتج فارس من ذلك أنه كان يمارس الرياضة قديمًا، ولحيته البيضاء لا تتماشى مع ملامحه التي لا تزال تحتفظ بالكثير من رونق الشباب، وانتشار الشعر الأبيض يدل على كثرة التفكير والتأمل.

كان الأب يمارس نفس الدور مع فارس، ولكن بدون أن يستند لخلفية علمية كمثل التي عند فارس، ولكن يستند إلى فراسته في محاولة استشفاف شخصية من أمامه، كل هذا كان عبارةً عن ثلاث ثوانٍ قطعهما الأب وهو يتوجه بعينيه إلى ريم ويقول في هدوء المحقق:

ـ الواضح أن الزيارة هذه المرة ليست بغرض البحث كما اعتدنا منكِ يا آنسة ريم.

ارتبكت ريم قليلًا وهمَّت بالنطق ولكن فارس قاطعها معتذرًا بعينيه وهو يقول بلهجة واثقة:

ـ الحقيقة نيافتك، أنا من طلبت مساعدة الآنسة ريم في الوصول إليك.

أدار الأنبا عينيه إلى فارس كأنه يعيد اكتشافه مرةً أخرى، يحاول مرةً أخرى أن يخترقه، ولكنه لا يفلح، ملامحه ما زالت تحتفظ بصلابتها وجمودها فقال:

ـ وسيادتك تعمل...

صمت ليترك المجال لفارس ليقول:

ـ محقق نفسي، لو أمكن قول ذلك، طبيب نفسي وأعمل مع المباحث الجنائية حاليًّا.

ملامح الأنبا تحولت إلى الاستفهام مع التحفز، تراجع مرةً أخرى في مقعده ليُضفي مزيدًا من الهدوء على حالة انفعالية بدأت تجتاحه، ولكنه نجح في السيطرة عليها وإخفائها... هز كتفيه وهو يقول بهدوء ممزوج برنة سخرية:

ـ وما المثير عندنا ويشغل بال المباحث الجنائية؟

قرر فارس أن يدخل في صلب الموضوع مباشرةً:

ـ هناك جرائم قتل حدثت في الأيام الفائتة، مؤكد أن نيافتك سمعت عنها في الفضائيات أو الجرائد.

أومأ الأنبا برأسه ولم يعلق، هم فارس بالإضافة، ولكن طرق الباب منعه من ذلك، ارتفع صوت الأنبا:

ـ ادخل.

دخل رجل في العقد الخامس من عمره يحمل صينيةً مذهبةً عليها ثلاثة كؤوس من عصير الليمون، وضعها على المكتب وانصرف في صمت، أشار الأنبا إلى ضيفيه قائلًا:

ـ تفضلا.

تناول كل منهما كأسه ووضع فارس كأسه على حافة المكتب وأضاف:

ـ الموضوع معقد وسيكون بالنسبة لنيافتك في بعض جوانبه غير منطقي، ولكن هناك قرائِن تجعلنا نعتقد أن أول خيط لحل القضية يبدأ من هنا.

ـ أنا عامةً أحب أن أسمع الموضوعات غير المنطقية، كما يقولون: كلي آذان صاغية.

ـ هناك ثلاث ضحايا أولهم شيخ سلفي قُتِل في محرم بك، والثاني أستاذ جامعي قُتِل في منزله، والثالث صائغ مسيحي قُتِل في الطريق الدولي، وبالمناسبة القتيل الثاني خال الآنسة ريم.

أطرقت ريم برأسها في الأرض تواري دموعًا كادت تفلت من عينيها، فأدارَ الأنبا رأسه لريم قائلًا في صوتٍ آسِف:

ـ البقاء لله يا آنسة ريم، أشعر بالحزن لخسارتك.

أومأت ريم برأسها وهي مطرقة أرضًا وهمهمت ببعض الكلمات الشاكرة، فسارع فارس للخروج من هذه الحالة التي سيطرت على المكان بأن حرَّكَ يديه وهو يقول:

ـ ونشتبه أن القاتل في الحالات الثلاث هو شخص واحد.

أعاد الأنبا رأسه ليركز على فارس وهو يداعب لحيته، حاول أن يربط بين ما يرويه فارس وعلاقة كنيسته بهذه الجرائم، ولكنه توقف عن التكهنات السريعة وعاد ليسند مرفقيه على سطح مكتبه قائلًا:

ـ والطبيعي أن هناك رابطًا مشتركًا بين الضحايا الثلاثة على أساس اشتباهكم بأن القاتل واحد.

أومأ فارس برأسه وهو يقول:

ـ بالضبط.

ـ وهذا الشيء المشترك...

لم يجب فارس على الفور، لم يَفُت الأنبا بعينيه الثاقبتين أن يلمح التوتر البادي على وجه ريم بطرف عينيه في حين ظل مركزًا بصره على فارس الذي قال:

ـ الأريوسية.

من الطبيعي أن يخيم صمت ثقيل على المكان، وأن يتجمد المشهد، ليس للحظة ولكن للحظات قصيرة بدَت طويلة جدًّا في نظر الأشخاص

الثلاثة، ردَّدَ الأب في استنكار ولكن بهدوء حاول أن يستدعيه من أعماقه:

ـ الأريوسية!

ـ نعم.

حانت منه التفاتة إلى ريم وكأنه يلومها على ما يقوله فارس أو يدعوها معه إلى الاستنكار، ثم ركَّز بصره مرةً أخرى على فارس، وهو يقول بلهجةٍ اصطبغت ببعض من الحدة:

ـ هل تعلم ما هي الأريوسية يا أستاذ فارس وتاريخها؟

ـ من واقع التحقيق في الجرائم الثلاثة ظهر أن الرابط المشترك فيما بينهم هو الأريوسية، وساعدتني الأستاذة ريم مشكورةً في التعرف على تاريخ الأريوسية أكثر.

ـ وأنت شرفتني بحضورك الكريم اليوم لتحدثني عن جماعة انقضى أمرها منذ ١٧٠٠ عام تقريبًا.

التعبير الضاحك الذي رسمه الأنبا على وجهه لم يَرُق لفارس، ولكنه تجاوز عن ذلك وقال بجدية:

ـ كما قلت لنيافتك هناك قرائن تؤكد على هذه الفرضية.

حرَّك الأب يديه وهو يقول:

ـ وهل من الممكن أن أعرف ما هي هذه القرائن؟ أم أنها معلومات سرية؟

ـ لا، ليست سريةً، ومن حق نيافتك أن أضعك في الصورة بشكل أوضح.

هز الأنبا رأسه ثم تراجع في مقعده وهو يستمع في تركيز إلى ما سيقوله فارس، ولا يدري فارس أتلك النظرة في عينيه نظرة تهَكُّمٍ أمْ أنه يتفحصه مرةً أخرى ويحاول سَبْرَ أغواره.

ـ الشيخ السلفي تناول الأريوسية عدة مرات في خطاباته ودروسه المختلفة.

هز الأنبا رأسه ولم يعلق فأكمل فارس:

ـ ثم عثرنا على ملف يتناول موضوع الأريوسية في منزل المرحوم خال الآنسة ريم، والضحية الثالثة الصائغ المسيحي تبين أنه انضم إلى جماعة شهود يهوه أثناء فترات إقامته المتقطعة بأمريكا.

الصمت مرةً أخرى هو اللاعب الرئيسي، الأنبا يفكر بجدية في كلام فارس، ثم يرفع عينيه إليه قائلًا:

ـ اسمح لي أن أقول إنها مجرد شواهد ولا ترقى لأن تكون قرائن ولا يمكن أن تبني عليها قضيةً.

لا يعرف فارس لماذا اعتبره خصمًا. حاول أن يطرد هذا التفكير السلبي من رأسه وأن يحافظ على هدوئه وهو يقول:

- ومن أجل ذلك قادتني تلك الشواهد لأن ألتقي نيافتك اليوم تحديدًا.

الجملة الأخيرة التي نطقها فارس، تُكَهرِبُ الأجواء إلى حد ما. أُعجِبَ فارس بثبات الأنبا الذي قال سريعًا مُستعيدًا بسرعة غير اعتيادية هدوءه:

- وهل ينطوي قدومك إلى هنا على اتهامٍ للكنيسة؟

- بالتأكيد ليس هذا هو المقصود.

- إذن ما قصة الكلمة "تحديدًا" لأنها -اعذرني- تنطوي على بادرةٍ غير طيبة.

أومأ فارس برأسه وقد شعر بالغيظ من نفسه لأنه انجرف إلى المشاعر السلبية، ثم حاول أن يُعيد الهدوء إلى نفسه مرةً أخرى، ويطرد شبح أي تفكيرٍ سلبي وهو يقول:

- هناك شخص ما في كنيسة نيافتك يستخدم اسمًا مستعارًا "الأب يوتا" يكتب مقالات عن المسلمين وأنهم يتحدَّرونَ من أصولٍ أريوسية، وأنه يجب مقاومةُ عقيدتهم وفكرهم المُهَرطِق، وينشرُ مقالاته هذه على موقع اسمه دولة الأقباط الأحرار.

توقف فارس عن الحديث والأنبا يدور اسم الموقع في رأسه، يحاول أن يتذكر شيئًا، ولكنه هز رأسه نافيًا وهو يقول:

ـ لا أعتقد أني سمعت عن موقع بهذا الاسم من قبل.

ـ هذا الموقع مع الأسف الشديد يلقي الضوء على نوع من الفكر المتطرف والعدائي تجاه المسلمين.

هز الأنبا رأسَهُ مُتفهمًا وهو يقول بلهجةٍ دبلوماسية:

ـ هذا أمر مؤكد، نحن مرَرْنا بثورةٍ واحتقانٍ طائفي مُتزايد ومن الطبيعي أن يفرز كل هذا بعضًا من الأفكار المتطرفة على كلا الجانبين، ودورنا في الكنيسة أن نُزيل أسباب الاحتقان الطائفي.

ـ طبعًا.

ـ وكيف عرفت أن هذا الشخص موجودٌ بالكنيسة؟

ـ عن طريق تعقب المستخدم باستخدام التقنيات الحديثة.

ـ العلم يتطور، أليس كذلك؟

قالها في رنة مازحة كأنه يحاول أن يزيل الجو المكهرب وهو يدور بعينيه في وجه ريم وفارس، ابتسما الاثنان ابتسامةً مجامِلةً ولم يُعَلِّقا، فقال الأنبا:

ـ لديَّ بالفعل شخص اسمه الأب يوتا، هذا اسمهُ الكَنَسي، وهو مسؤول عن معمل الكمبيوتر بالكنيسة.

انتصَب فارس في مقعده واندفع قليلًا إلى الأمام لأن ما قاله الأنبا بدأ يضع قدمه لأول مرة على طريق الوصول إلى حلٍ لهذه الجريمة، ولكن قطع عليه الأنبا كيرلس أفكاره وهو يقول:

ـ وأنت قدمت اليوم لتحقق معه بشكل رسمي، أتصور لو أن ما ذكرته هو الشخص المقصود فإن المختصين في العادة بهذه الأمور هم رجال المباحث الجنائية، ومعهم أيضًا إذن من النيابة للاستجواب إلا في حالة أن الأوضاع في الداخلية هذه الأيام تُدَارُ بطريقةٍ مختلفة لم أعُد على إطلاعٍ بها.

لم يكن مفاجئًا لفارس تحفُّز الأنبا هذا. كان رد فعل يتوقعه لذلك ابتسم، وقال في هدوءٍ لم يغفل أن يضع فيه لمسةً صارمةً محذرةً:

ـ كلا، حتى لو كان هو الشخص المقصود سيكون التحقيق معه بشكل غير رسمي، وكما ترى نيافتك لم آتي هنا على نحو رسمي مع أنه في استطاعتي أن أجعل وجودي اليوم رسميًّا، وبإذن من النيابة كما ذكرت...

ولكني أفضل أن يكون الموضوع على غير هذا النحو، لأن الطرق الرسمية سخيفة، ولا أعتقد أنا أو نيافتك سنحبذها، ولكن يمكن أن تعتبره حديثًا وديًّ ليس إلا، وأعتقد أن نيافتك ستوافقني على هذا الرأي أن يتم الأمر بيننا فقط وبشكل سري تمامًا.

الصمت الذي تسرب بينهم جميعًا مع التوتر البادي على وجه ريم والتفكير العميق الذي احتل كل ملامح الأنبا يدل على أنه يعيد تقييم كلام فارس ويدرسه جيدًا. كان فارس يعلم أنه يجب أن يترك مساحةً كافيةً للأنبا ليأخذ قراره في ظل وضعه أمام خيارين.

عندما هز الأنبا رأسه شعر فارس بالراحة وأن عبئًا ثقيلًا قد زال من عليه، والأنبا يقول:

ـ إذن؛ أحب أن أذكرك يا أستاذ فارس أن أي حديث سيدور بينكما كأنه لم يكن بمجرد خروجك من هذه الغرفة، لأنك كما قلت هو استجواب غير رسمي.

هز فارس رأسه متفهمًا وهو يؤكد بجدية على كلام الأب:

ـ هذا أمر بديهي طبعًا.

تراجع الأب في مقعده وهو يتناول سماعة التليفون ويطلب رقمًا داخليًّا حتى أتاه صوت محدثه على الطرف الآخر فقال في حزم:

ـ لو سمحت يا يوتا، احضر فورًا إلى مكتبي واترك أي شيء في يديك مهما كان.

كان يستمع لمحدثه بنفاد صبر ثم كرَّرَ في صرامةٍ:

ـ اترك ما تفعله الآن، اعتذر عن إكمال الدرس اليوم، ومن الممكن أن تعوضهم في وقت آخر، الأمر لا يحتمل التأجيل، أنا في انتظارك.

أنهى الاتصال وهو يتطلع إلى ضيفيه قائلًا بابتسامة عصبية:

ـ تفضلا اشربا الليمون وهو مثلج، لن يكون طعمه طيبًا بعد ذلك.

لم يكن لدى أي منهما رغبةٌ في تناول أي مشروبات في ظل ذلك الجو المتوتر، ولكن تناولا كأسيهما ورشفا منه رشفةً ثم أعادا الكأسين إلى مكانهما والصمت يفرض نفسه على المكان، حتى سمعوا طرقاتٍ مهذبة على الباب فقال الأنبا:

ـ ادخل.

دخل الأب يوتا، كان طويل القامة، نحيلًا. بشرته سمراء داكنة، لحيته قصيرة، شاب في منتصف العقد الثاني من عمره... نظر بريبةٍ إلى فارس وريم، ثم ثبت نظره على الأنبا. توترت ملامحه لرؤية ملامح التحفز على وجه الأنبا الذي دعاهُ للجلوس بيده اليمنى، وقال في هدوء ولكن بنبرةٍ مخيفة:

ـ الأستاذ فارس يرغب في توجيه بعض الأسئلة إليك.

لم ينتظر منه الأنبا جوابًا وقد تحركت شفتا الأب يوتا للكلام، ولكنه لزم الصمت عندما وجه الأنبا حديثه لفارس قائلًا:

ـ تفضل يا أستاذ فارس.

شكرَ فارس الأنبا برأسه ثم توجه إلى يوتا قائلًا:

ـ أنت ما زالت تكتب مقالات على موقع دولة الأقباط الأحرار؟

لم يُجِب يوتا ولكنه تبادَلَ النظر مع الأنبا الذي بدَت ملامحه في هذه اللحظة باردةً كالثلج، فأعاد نظرهُ مرةً أخرى لفارس وهو يقول بضيق حاول أن يخفيه:

ـ كنت.

ـ جيد، ولكن لديك مقالات كثيرة عليه ومن الواضح أن هناك تفاعلًا جيدًا من القراء من خلال تعليقاتهم على مقالاتك.

ردَّ يوتا بسخرية:

ـ وهل يمثل هذا جريمةً؟

بقيَ الأنبا جامدًا في مكانه وهو يشبك أصابع يديه أمامه على سطح المكتب، في حين ابتسم فارس ورد:

ـ بالطبع لا، ولكني كنت أريد أن أسألك عن مقال تكلمت فيه عن الأريوسية، وأن الإسلام يُعْتَبر وجهًا من وجوه الأريوسية التي تسترت وراء الإسلام، وأن الفتح العربي الإسلامي هو مجرد غزو أريوسي لمصر كما ورد في إحدى مقالاتك.

قاطعه الأنبا يوتا بانفعال وهو ينظر بطرفٍ خفيٍ إلى الأنبا الذي بدا الاهتمام على وجهه، وهو يندفع بنصفه الأعلى قليلًا إلى الأمام:

ـ نعم، هذا رأيي الشخصي، ما الضَّررُ في ذلك؟

كان هذا ما يريده فارس أن يدفع يوتا إلى الانفعال، يريده أن يتخلى عن حذره ويخترق جدران الحماية التي يحاول أن يفرضها على شيء ما يخفيه. ذهبت ابتسامة فارس وغير ملامحه إلى الجدية ليترك انطباعًا نفسيًّا لدى يوتا وهو يضيف:

ـ وأنه يجب علينا، بين قوسين الأقباط أن نتخلص من هذه الأرواح الشريرة التي غزت بلادنا ونعيدهم من حيث أتوا.

الشُّحوب البادي على وجه يوتا ينبع من النظرات التي يسددها له الأنبا الذي تعكرت ملامح وجهه قليلًا وهو يتابع الحديث في صمت تام... صمت يُقلِقُ يوتا إلى حد كبير، كان ذلك بالنسبة إلى فارس أهم نقطة في الحوار الذي قرر أن يوجه له السؤال المراد من هذا الحوار:

ـ هل تعتقد أن جورج أخذ مجموع مقالاتك هذه على محمل الجدية وقرر أن ينتقم؟

تراجع الأب يوتا في مقعده وهو ينظر بغيظٍ واستنكارٍ إلى فارس، في حين أطرقت ريم برأسها مرةً أخرى أرضًا تبحث عن شيءٍ وهمي وقد داخلها شعور بالخجل من عبارة فارس الأخيرة.

تجاهل يوتا فارس ونظر إلى الأنبا يدعوه لاستنكار سؤال فارس، ولما لم يجد أي رد فعل من الأنبا اندفع قائلًا:

ـ هل من المفروض أن أرد نيافتك على هذه السخافات؟ هل أنا قيد التحقيق الرسمي؟

لم يُعقِّب الأنبا مباشرةً، ولكنه تراجع في مقعده وهو يفك تشابك يديه قائلًا في هدوءه الثلجي:

ـ كلا، هذا ليس تحقيقًا رسميًّا، ولكن يجب أن ترد على الأسئلة.

لاحظ فارس ارتعاشةً في الجفن الأيمن للأب يوتا وهو يُعيدُ نظره مرةً أخرى إلى فارس؛ الذي شاهد في عينيه خيبة الأمل والغيظ الشديد وأجاب ببطء:

ـ جورج كان من أكثر المتجاوبين مع مقالاتي، ولكن لا يعني هذا أنه قرر أن يبادر بالانتقام من طرفه، هذه مجرَّدُ خيالاتٍ في رأسك أنت فقط.

هز فارس رأسه وقرر أن يهدئ الجو المشتعل، فقال:

ـ لا أعرف لماذا يجول بخاطري أنه تم اتصال شخصي بينك وبين جورج؟

رد عليه يوتا بعصبية زائدة:

ـ ولماذا تفترض شيئًا مثل هذا؟

ـ لأن التفاعل بينك وبينه في التعليقات كان مُلفتًا للنظر، كما قلت لقد كان أكثر المتفاعلين معك.

آثر فارس الصمت لثانية واحدة ثم اندفع قائلًا:

ـ وكان من الملحوظ أيضًا تجاوبك الحماسي معه بشأن ما يجب أن نفعله بصدد هذه الأرواح الشريرة.

بحركةٍ لا إراديةٍ وقف الأب يوتا وهو يوجه عينيه للأنبا قائلًا:

ـ هذه سخافاتٌ لا أستطيع احتمالها نيافتك.

كانت المفاجأة هذه المرة من نصيب يوتا حينما قال الأنبا:

ـ هل حدث بينك وبينه اتصال على المستوى الشخصي؟

كان لابد للصمت أن يجد حيزًا واسعًا لأن يُطبِقَ على المكان وقد ظهر الذهول جليًّا على وجه يوتا الذي جلس مرةً أخرى كالمهزوم على كرسيه وهو يقول بانكسار:

ـ تحدثنا عدة مرات من خلال البريد الالكتروني، ثم قمت بإضافته عندي على الفيس، وكنا نتناول هذا الموضوع أكثر من مرة خلال حوارنا، ولكني كنت دائمًا أنصحه بأن العنف ليس هو السبيل لمعالجة مثل هذه الأمور.

صمَتَ يوتا وهو ينظر إلى اللاشيء بعد هذه الإجابة، وأحب فارس ألا يفوت لحظة الخنوع التي سقط فيها يوتا واندفع قائلًا:

ـ وأعتقد أن الأمر امتد بعد ذلك للحديث عبر الهاتف الجوال لأنه على ما يبدو لم يكن مقتنعًا بالحلول السلمية.

رفع يوتا عينين مهزومتين إلى فارس بهما مسحة دهشة سرعان ما اختفت وهو يجيب:

ـ نعم؛ ولكن بعد عدة اتصالات أقلع عن هذه الفكرة تمامًا، واقتنع أن العنف ليس هو الحل.

ـ أين هو الآن؟

ـ مسافر.

لم تكن هذه هي الإجابة التي ينتظرها فارس... أربَكَت حساباته، ولكنه استعاد هدوءه مرةً أخرى وهو يضع احتمالية أن الأب يوتا يكذب ليحمي صديقه.

ـ هل من الممكن أن تعطيني رقم هاتفه الجوال أو بريده الالكتروني؟

ثم نظر سريعًا إلى الأنبا قائلًا:

ـ هذا بعد إذن نيافتك.

المفاجأة هذه المرة كانت من نصيب فارس عندما ردَّ الأنبا بحزم:

ـ آسف يا أستاذ فارس، أعتقد أن هذه الجزئية تحديدًا من عمل النيابة، وليس من اختصاصك أنت، لو أن لديك إذنًا من النيابة وبه اتهام واضح سَيُسعِدنا وقتها أن نمدك برقم هاتفه الجوال.

بدا الارتياح لأول مرة على وجه يوتا. شعر فارس بالغيظ، لكنه نجح في كبته، ثم قال بهدوء:

ـ لو تحول الأمر للرسميات لن يكون الموضوع لطيفًا بالمرة، وهذا لن ينسحب فقط على الأستاذ جورج.

فَهِمَ الأنبا رسالة التهديد، ولكنه لم يهضمها وشعر بالاستياء من رد فارس، ولكنه ببراعة حافظ على هدوئه وهو يقول:

ـ عندما تصل الأمور إلى هذا الحد أُفَضِّلُ أن تحمل طابعًا رسميًّا.

كان رد الأنبا قاطعًا وشعر فارس أمامه بالهزيمة وأدرَك مُتأخرًا، أنه ما كان يجب أن ينطق بالعبارة الأخيرة التي عرقَلت الخط الذي يحاول إمساكه، هز فارس رأسه ورسم ابتسامةً رسميةً وهو ينهض واقفًا يمُدُّ يده إلى الأنبا وهو يقول:

ـ شكرًا لسِعَةِ صدر نيافتك.

ـ العفو.

صافَحهُ الأنبا بفُتور وصافح ريم التي ابتسمت ابتسامةً مرتبكةً، حيا فارس الأب يوتا برأسه الذي نظر له بتحفظ، ولم يُبادله التحية، غادرا المكتب، هم الأب يوتا بأن يغادر المكتب ولكن استوقفه الأنبا قائلًا:

ـ انتظر أنت يا يوتا.

عاد التوتر مرةً أخرى إلى ملامح الأب يوتا وهو يجلس على المقعد المجاور لمكتب الأنبا ببطء.

في الخارج وقف فارس لثوان أمام الكنيسة ثم تحرك وريم إلى جواره، كان الصمت يقف حائلًا بينهما، اتجهت بشكل لا إرادي معه إلى سيارته، فتح لها الباب الأيمن للسيارة لتتخذ مكانها، ثم دار حول السيارة ليفتح الباب، لم يجلس بهدوء ولكنه ألقى جسده على المقعد لتهتز السيارة، فقال في صوت خفيض:

ـ آسف.

هزت رأسها في صمت ولم تُعلِّق، أدارَ محرك السيارة وانتظر قليلًا قبل أن يتحرك بالسيارة وهو يلقي بين الحين والآخر نظرة سريعةً عليها، ثم قال:

ـ ما هي القصة الأخرى الموازية لماري جرجس؟

كانت محاولةً منه لاختراق الصمت الذي طال بينهما. لم تجب على الفور، بدا أن رأسها مشغولٌ بأشياء أخرى حتى أنها ردت ببطء:

ـ مجرد قصة.

ـ وما هي القصة؟

ـ هل أنت حقًّا مهتم بسماعها؟

ـ طبعًا.

تنهدت ثم اعتدلت في جلستها لتستعد لإلقاء محاضرة أكاديمية.

ـ الأقباط يرددون دائمًا أن مصر بلادهم وغزا العرب بلادهم واستولوا عليها، أليس ذلك صحيحًا؟

ـ صحيح.

ـ هو ليس صحيحًا بالمناسبة، الأقليات العرقية والدينية والمذهبية في العالم عادةً تتميز بالقلق، وتحاول دائمًا أن تتخطى هذا العائق، وفي هذه المحاولة يتحول التاريخ لعبءٍ يُثقِلُ كاهِلَهُم، والتخلص منه ضروري، فتقوم بصُنع أسطورةٍ بديلة للحقيقة؛ فهي بالتالي تعمل على تزييف التاريخ بزعم اختلاف الأصل العرقي بين المسيحيين والمسلمين، القصة التي نعرفها جميعًا.

ـ نعم؛ إن المسلمين أحفاد الغُزاةِ العرب المتوحشين، وعندما أتوا لفتح مصر حدث تزاوجٌ بينهم وبين أعداد كبيرة من سكان مصر المسيحيين، بالإضافة إلى الزعم بأن هناك مجموعةً أخرى تحولت من المسيحية إلى الإسلام بسبب عجزهم عن دفع الجزية، وأن سكان مصر الأصليين هم المسيحيون، والتي تعود أصولهم

إلى المصريين القدماء، في حين أن مسلمي مصر ليس لديهم هذا الأصل العريق.

ـ حتى تعرف الحقيقة يجب أن تُلقي نظرةً على الطبيعة الجغرافية السكانية لمصر في هذا الزمن. كم كانت أعداد المصريين وقت الفتح الإسلامي، وهل كان كلهم على الديانة المسيحية كما يتم الترويج له.

بدا الاهتمام جليًّا على وجه فارس وهو يقود سيارته إلى شارع أبو قير ويسأل:

ـ وكيف كانت الطبيعة الجغرافية السكانية لمصر في هذا الوقت؟

بدا الحماس متدفقًا في وجه ريم التي اعتدلت للمرة الثانية في جلستها وهي تقول:

ـ حسنًا؛ على الرغم من كون فكرة نقاء العنصر فكرةً عنصريةً سخيفةً إلا أنها في الحقيقة لا تخدم المسيحيين في بلادنا، المصريون من قديم الأزل اختلطوا بشعوب كثيرة من المناطق التي تجاورهم...

وبالتالي لا يستطيع أحد أن يؤكد أن كل المصريين وقت الفتح الإسلامي ينتمون جينيًّا إلى المصريين القدماء فقط، سكان مصر

في ذلك الوقت وقبل الفتح الإسلامي كانوا خليطًا من أجناس وديانات كثيرة، فكان يخالطهم الإغريق واليهود والعرب.

ـ وكيف يؤثر هذا في إمكانية أن يكون المسيحيون الحاليون هم امتدادٌ للمصريين القدماء؟

تقلصت ملامح ريم قليلًا تعبر عن ضيقها من مقاطعته لها، فابتسم رافعًا لها يده اليمنى قائلًا:

ـ أعتذر من المقاطعة، أكملي حديثك.

كعادته دائمًا يصنع فيلمًا كاملًا في خياله لكل ما يُرْوَى له، يصيغ لكل حكاية مجموعة من المشاهد السينمائية التي غالبًا ما تتلون باللون الرمادي؛ تخالطه درجات من البني.

ـ سأعطيك مثالًا حتى أوضح لك الصورة أكثر: اليهود والإغريق كانوا يعملون كجنود مرتزقة في جيش ابسماتيك الثاني...

يرى الآن ابسماتيك الثاني في لباسه المصري القديم الملكي يقف على أعلى درجة في قصره يتطلع إلى حشود الجنود الأجانب وهم يقفون في صفوف طولية أسفل درجات السلم الطويلة التي تؤدي إليه في النهاية.

ـ وهو من الأسرة السادسة والعشرين، بالإضافة إلى أن أصول هذه الأسرة من ليبيا، وعُرِف هذا العصر بالعصر الصاوي، وكان ملوك هذا العصر يشجعون الأجانب على القدوم إلى مصر حتى يشتغلوا بالتجارة والجندية.

الآن يرفعون رماحهم عاليًا وهم يطلقون صيحات هادرة تحيةً للملك الذي يبتسم في سعادة، وأحد قادته يميل على أذنه يهمِسُ إليه ببعض الكلمات فيهز رأسه برضى ثم يستدير متجهًا إلى داخل القصر بين عمودين طويلين عليهما نقوش مصرية قديمة.

ـ مضطر أن أقاطِعَكَ للمرة الثانية... أنا أتضور جوعًا، ألا تشعرين بالجوع مثلي؟

ابتسمت ريم على الرغم من ضيقها من مقاطعته لها للمرة الثانية، هزت كتفيها وقالت:

ـ قليلًا.

ـ ما رأيك إذا تناولنا أي شيء على البحر؟

ظهر الارتباك على وجه ريم وهي تجيب:

ـ حقيقة لا أعلم، لم أخبر والدتي أني سأتأخر.

ـ هاتفيها الآن وأخبريها أنك ستتأخرين لبعض الوقت.

ـ هل تريد أن تسبب لي المشاكل؟

ابتسم فارس للمرة الثانية وهو يستجديها بنظرة من عينيه، فتنهدت وهي تخرج الهاتف الجوال من حقيبتها وتتصل بوالدتها.

ـ أمي، سأتأخر لبعض الوقت في حدود...

أشار لها فارس بأصبعيه وهو يحرك شفتيه:

ـ ساعتين.

ـ ساعتين.

دار فارس بسيارته مع أول ملف صادفه، متخذًا طريقه إلى ساعة الزهور، أنهَت ريم المكالمة قائلةً:

ـ أين سنذهب؟

ـ هل تفضلين مطعم جاد للفول والفلافل؟

ـ لا بأس به.

ـ حسنًا.

ـ هل حسَمْتَ أنت الأمر بدلًا مني؟

ضحك فارس لنظرة الغضب الطفولية في عينيها قائلًا:

ـ حسنًا، أنا آسف، هل لكِ رأي آخر؟

فكرت قليلًا قبل أن تُفلت نفخةً قائلةً:

ـ كلا، حسنًا، فليكن جاد.

ـ إذن؛ هل من الممكن أن تستطردي في الحديث؟

ابتسم لاستعادة ملامحها بسرعة للحماس الطفولي الذي أصبح يحبه كثيرًا، وقد تألقت عيناها وهي تقول:

- الذي يفسر لك لماذا لم يقبل المصريون على الدخول في المسيحية التي كان يبشر بها اليهود والإغريق، أولًا: لأن لليهود الذين كانوا يعيشون في مصر موقفًا سلبيًّا من الغزو الفارسي لمصر، واشتركوا في إخماد ثورة المصريين ضد الفرس...
وثانيًا: أن الإغريق رحبوا بقدوم الإسكندر لمصر وهذا دفع المصريين إلى كره الإغريق، ولذلك لم يتقبلوا المسيحية التي جاءت على يد اليهود والإغريق.

يتخيل جموعًا من الإغريقين يقفون على مدخل مدينتهم يهللون ويصفقون وهم يستقبلون الموكب المهيب للإسكندر الأكبر وهو يَرفُل في حرملته ويعتلي صهوة جواده الأسود ومن حوله كبار القادة العسكريين، وخلفه سرية يمتد طولها إلى ما بعد أسوار المدينة، في حين وقف عدد من العمال المصريين يمسحون بأيديهم جباهَهُم التي بلَّلَها العرَق ينظرون بغيظٍ إلى الإسكندر الأكبر.

- وجهة نظر منطقية.
- احذر، لقد قاطعتني للمرة الثالثة حتى الآن.
- آسف جدًّا.

قالها وضَحِك، فوجدت نفسها تضحك هي الأخرى، خجلت بداخلها من ذلك الشعور الذي رافَقَ ضحكتها، ولكنها استطاعت أن تواريهِ خلف استكمالها للدرس التاريخي الذي تُلقيه عليه:

- وبدخول الإسكندر لمصر كان حريصًا على أن يستقدم مهاجرين إغريق خاصةً المقدونيين، وتحولت مصر إلى مركز رئيسي وقتها للحضارة الإغريقية.

وبعد ذلك جاء بطليموس وأنشأ مدينةً جديدةً في صعيد مصر حتى يوطن فيها الجنود المقدونيين، ومكانها الآن محافظة سوهاج.

يتبلور أمامه الآن مشهد سينمائي أُفُقي لمحافظة سوهاج ومبانيها وشوارعها وميادينها وهي تتبخر ومعها الناس والمركبات، وتحل مكانها أرضٌ تمتد إلى ما لا نهاية تمتلئ بآلاف الجنود المقدونيين الذين يشعلون النيران في تجمعاتٍ صغيرة تتناثر هنا وهناك، وبطليموس يُلقي النظرة الأخيرة على هذه الحشود قبل أن يدخل خيمته الكبيرة وقد انتصب الحارسان الواقفان على مدخلها.

- وجعل منها مركزًا لنشر الحضارة الهلينية في قلب مصر، والرومان أيضًا فعلوا المثل؛ فالجندي الروماني بعد أن يقضي ٢٥ سنة في الخدمة يتم توطينه في مصر ويكون من حقه شراء الأراضي المصرية.

توقف فارس إلى جانب الرصيف قائلًا بلهجة اعتذار واضحة:

ـ فعلًا أنا مضطر أن أقاطعك للمرة الرابعة.

سادَ الصمت لثوانٍ وهو يترقب ملامحها الجامدة حتى قالت بمرَح:

ـ لا بأس، هل وصلنا لجاد؟

ـ نعم.

بدا عليها الارتباك وهي تقول:

ـ إذن...

حاول فارس أن يدفع عنها الشعور بالإحراج بقوله:

ـ ماذا تريدين؟

قالت بعد تفكر:

ـ لا أعلم، ربما شطيرة فول ومثلها فلافل.

ـ فقط.

ـ نعم، يجب ألا أفرِطَ في تناول الطعام حتى أكون قادرةً على تناول طعام الغداء مع والدتي.

ابتسم فارس وهو يهز رأسه وغادر السيارة، ولكنه عاد ومال على النافذة مرةً أخرى عندما قالت بصوت مرتفع:

ـ انتظر، لا تدعه يضع لي أي خضروات في شطيرتي.

ـ إن طعمها لذيذ.

قالت في خجل:

ـ الحقيقة؛ لا أثق في نظافة خضرواتهم.

ـ حسنًا، والطحينة؟

ـ كلا.

ـ حسنًا.

ابتسمت على الرغم من التحذيرات التي وجهتها لنفسها بألا تفعل ذلك، مضى هو بعيدًا وهي تراقبه لبعض الوقت ثم شردَت تُفكِّر في اللاشيء في محاولةٍ منها للهروب من التفكير فيه!

انشغل هو أيضًا بالتفكير فيها... مُنتظرًا دوره أمام الكاشير ومرةً أخرى أمام من يجهز الشطائر، كانت تحتل تفكيره بقوة... لا يريد أن يعترف أمام نفسه بأنها مؤشرات أولية ومؤكدة عن الحب، يبدو أنه تخطى مرحلة الإعجاب إلى السقوط في فخ الحب كما يسميه دائمًا.

لا يعلم أيضًا لماذا اندفعت إلى تفكيره المشحون بريم صورة صديقته البريطانية، لا يعلم هل هو شعور بتأنيب الضمير؟ ولكن لماذا اقتحمت عليه المشهد والآن؟

عاد إلى السيارة وهو يحمل كيس الشطائر... بدا الكيس منتفخًا، ابتسمت وهو يجلس مكانه، فنظر لها مستفسرًا، فهزت رأسها وهي تقول:

ـ لا شيء، الواضح أنك أحضرت الكثير من الشطائر.

ـ فعلًا، لم أتناول شيئًا منذ الصباح الباكر وأشعر بالجوع الشديد.

ـ إذن، بالهناء والشفاء.

ـ هل تفضلين تناول الشطائر في السيارة أم نذهب لمكانٍ ما؟

ـ لا؛ أفضل أن أتناول شطائري في السيارة حتى أتمكن بعد ذلك من الذهاب إلى البيت سريعًا.

يعلم جيدًا لماذا داخله الشعور بالضيق لدى قولها الأخير، كان يتذرع بالحجج حتى يبقى معها أطول فترة ممكنة، تبين له أن المؤشرات الأولية للحب بدت جليةً للغاية.

ـ حسنًا، لا بأس.

ناولها شطيرةً، تناولتها بغير اهتمام وقد عاودها حماسها الأكاديمي في حين ظل هو يستمع إليها في اهتمام وهو يقضُم من الشطيرة التي بيده في نَهَم:

- هل تعلم أن مصر في عهد أوكتافيانوس كان بها ما يزيد على ٢٢ ألف جندي، ٣٠٠ عام من حُكم البطالمة، ٣٢٠ عامًا تقريبًا من حكم الرومان، ٣٢٥ عامًا من الحكم البيزنطي.

- عدد كبير بالفعل، لم أكن أعرف هذا.

هزت رأسها وهي تكمل:

- وكان هناك قبائل عربية تعيش في برنيقي، وهي ميناء على البحر الأحمر والذي أنشأها بطليموس الثاني بالإضافة إلى مدينة قفط؛ وهي مدينة عربية أيضًا على البحر الأحمر.

توقف عن الأكل وهو يقول بدهشة:

- العرب كانوا يعيشون في مصر قبل الفتح الإسلامي.

- طبعًا، لو ألقيت نظرةً متفحصةً على التاريخ عامةً ستُدرِك أن أغلب البلاد المستعمِرة كان يسبق فترة غزوها للبلاد الأخرى ارتحالُ أعدادٍ كبيرةٍ من بلد المُستعمِر للبلد المُستعمَر، ويتم ذلك على مر سنواتٍ طويلة قد تمتد لمئات السنين، ثم يكون الاستعمار وقتها نتيجةً منطقيةً للبلد المُستعمرة.

- هذا صحيح فعلًا، لأن هذا ما حدث في فلسطين.

هزت رأسها مبتسمةً وقد بدأت في فَضِّ الورق الذي يغلّفُ الشطيرة، وتناولت قضمةً خجلةً من الشطيرة وابتلعتها سريعًا حتى يتسنى لها إكمال كلامها:

ـ وكانت الأكثرية في مصر للإغريق القادمين من جزر بحر إيجة، ولذلك غيَّرَ الإغريق اسم البلد من بلاد وادي النيل إلى أرض إيجي يعني إيجبتوس، وغيروا أسماء مُدُن من الفيوم إلى إرسنيوي، وبانوبوليس بدلًا من أخميم، وهيراكليوبوليس بدلًا من أهناسيا وهكذا...

ـ هل يعني هذا أن كلمة إيجيبت كانت إشارةً للمستعمرين وليس للمصريين!

ـ للأسف؛ الأمر كذلك.

ـ مما يعني أن المرادف الإنجليزي الحالي لكلمة مصر لا يمت لنا بصلة.

ـ هناك مآسي أكثر من ذلك.

هز فارس رأسه في استغراب وأكمل أكل الشطيرة ليسودَ الصمت بينهما لفترة قصيرة حتى تقطعه هي بقولها:

ـ وهذا يوضح مدى ما كان من غلَبَةٍ للإغريق على سكان مصر الأصليين.

ـ هذا بالنسبة للإغريق، ماذا عن تعداد اليهود في مصر؟

- كنت على وشك الحديث عنهم... المؤرخ اليهودي يوسفيوس ذكر أن عدد اليهود في مصر وصل لمليون في عهد فلاكوس، وبالطبع ينطوي العدد المذكور على قدرٍ من المبالغة، وحدث ذلك عندما سقط الهيكل سنة ٧٠ ميلادي، أُرْسِل لمصر ٩٧ ألف يهوديًّا ليعملوا في استخراج المعادن لصالح أغنياء اليهود الذين يقطنون مصر.
- أنتِ تمزحين ولا شك.

لم تعلق في حين شعر هو بسخافة تعليقه، فاعتذر لها بعينيه، فتخطت الأمر بهدوء لتكمل حديثها:

- والإغريق كان عددهم أكبر من اليهود، ولم يكونوا يتعاملون على أنهم مجرد مستعمرين، ولكن كانوا يتعاملون على أنهم أصحاب البلد، والسلطة الحاكمة تتعامل معهم من المنطلق ذاته.
- شيء طبيعي؛ فلقد غيروا أسماء البلدان المصرية كما ذكرتِ.

أومأت برأسها وأضافت:

- وبالرغم من دخول الرومان لمصر سنة ٣١ قبل الميلاد إلا أن الإغريق ظلوا في وضع أفضل من جميع السكان حتى الفتح الإسلامي لمصر... ويليهم في ذلك اليهود، فكان الإغريق أصحاب المناصب والإقطاعات، وكان يُسْمَحُ لبعضهم بالانضمام

للجيش الروماني، وإعفائهم من الجزية على عكس وضع المصريين الأصليين.

ـ ما تقولينه مؤشر على أن المصريين الأصليين لم يكن لهم أي وجود يُذْكَر على أرض مصر.

ـ للأسف.

تناولت قضمةً أخرى من الشطيرة في حين تناول هو الشطيرة الثانية ليتناول منها قضمةً نهمةً وهو يستحثها على أن تكمل:

ـ هذا يقودنا في النهاية إلى حقيقة تاريخية تَخفى على الكثير من المصريين وهي أن المسيحية ظلت غريبةً على سكان مصر الأصليين، وانتشرت بين الغرباء من اليهود والإغريق كما قال لوفيفر وشميدت وشولتز.

ـ إذن؛ ما يمكن أن أستنتجه أن التفاوت الطبقي بين المصريين والإغريق واليهود جعل المصريين أقل الطبقات حظًّا، فبالتالي ليس هناك مجال للاحتكاك بين طبقة السادة والميسورين وطبقة الفقراء؛ والتي تمثل غالبية المصريين وأن أعداد المصريين الذين انضموا إلى المسيحية قلة، وهذا نتيجة لقلة الاحتكاك بين هذه الطبقات.

هزت رأسها موافقةً وقد اعتادت مدخلاته المتكررة والذي توقف هو أيضًا عن الاعتذار عنها، وقد شارف على الانتهاء من الشطيرة الثانية، ويستعد لفض الورقة عن الشطيرة الثالثة وهي تقول:

- والشعب المصري وقتها كان يتعبد بديانات الآلهة المصرية القديمة، ولم يتقبل المسيحية إلا بتحفظ شديد.
- وبطرس الرسول جاء إلى مصر حتى يبشِّر بالمسيحية بين اليهود وليس سكان مصر الأصليين، وفي مصر التقى بمرقس في مدينة بابيليون...

مرقس يتناول يد بطرس يقبلها، وبطرس يضع يده على رأس مرقس في حنو وهو يبتسم، في حين يلتف حولهم عدد من اليهود المرحبين بقدوم بطرس، ويمسكون في أيديهم سعف النخيل.

- ومن المعروف أن مدينة بابيليون أنشأها اليهود الذين قدموا من مدينة بابل الفارسية، وكانت بابل المكان المخصص لإقامتهم في فارس، فكان الهدف هو تبشير اليهود في مصر، ولذلك كتب مرقص إنجيله باليونانية التي كانت لغة اليهود وقتها في الإمبراطورية الرومانية في هذا الوقت، والتوراة تُرْجِمت إليها في وقتٍ سابق والتي عُرِفَت بالتوراة السبعينية...

مرقس يجلس إلى مائدة خشبية وعلى ضوء السراج المتوهج في وسط هذه الظلمة يمسك ريشته الخشبية ويكتب على أوراق البردي المجففة بضعة سطور باليونانية بعد أن يغمس كل حين ريشته في "الدواية".

- استقر مرقس بالإسكندرية لأن اليهود كانوا يتواجدون فيها بكثرة بالإضافة لليونانيين، أغلب سكان الإسكندرية وقتها اعتنق المسيحية، وكان أول بطريرك للإسكندرية أنانيوس وهو اسم كنسي يوناني وهذا يدل على مدى سيطرة اليونانيين على الكنيسة وقتها، واسمه الأصلي حنانيا، وكان يهوديًّا...

وفي عهده دخل الإغريق في المسيحية وكان أغلبهم من أصحاب المناصب العليا والأكابر والأعيان وبعض رجال الدولة وأيضًا الرومانيين.

تتضح لك الصورة أكثر عندما تعرف أن أسماء آباء كنيسة الإسكندرية أو مديري المدرسة اللاهوتية كلها يونانية مثل أوريجانوس، إلكسندروس، ، أثناثيوس، ديمتريوس وهكذا... وكان من المعتاد في العصر الهيلينستي والروماني استخدام الأسماء الإغريقية والرومانية، فضلًا عن الزيجات المختلطة بين المصريين واليونانيين كانت تفرز أجيال بأسماء إغريقية أيضًا...

تتابع وتتلاحق أمام مخيلة فارس وجوه آباء كنيسة الإسكندرية، وأسمائهم تبرز أمامهم باللاتينية، ثم يبرز أمامه جليًّا المدرسة اللاهوتية وعليها لوحة كبيرة محفورٌ عليها باللاتينية اسم المدرسة.

- في عهد الإمبراطور ساويرس حرَّمَ على رعاياهُ الدخول في الديانة المسيحية لأنه كان يخشى من أن يجتمع أصحاب الدين الجديد ويخرجوا عليه لأن اليهود دائمي الثورة والإغريق أيضًا ناقِمون على الرومان لأنهم أخذوا مُلكَهُم وسُلطانَهُم، وبالتالي الاضطهاد والتعذيب الذي حدث كان من نصيب المسيحيين الإغريق واليهود فيما يُعرَفُ بعصر الشهداء الأول والثاني وليس على المسيحيين المصريين كما يتم الزعم به...

يسير الإمبراطور ساويرس في ممر حجري طويل وعلى جانبي الممر تنتصب صلبان خشبية معلق عليها المسيحيون من الإغريق واليهود وجنود الإمبراطورية الرومانية؛ يضربونهم بالسياط، وصرخاتهم تتعالى مع ضربات السياط في حين تتألق عينا الإمبراطور وهو يشاهد وسط حاشيته التي ترافقه مهرجان التعذيب هذا وعددًا آخر من الجنود ينزلون أحد المعذبين من على صليب خشبي جثةً هامدةً والدماء تتدفق من أنحاء متفرقة من كل جسده وعيناه غائرتان تتلونان بالأحمر القاني.

ـ كهنة الشعب المصري من الديانات المصرية القديمة حرضوا الإمبراطور فاليريان على اضطهاد المسيحيين وقتها، والذي عانى بالأساس من الاضطهاد الذي تسميه الكنيسة عصر الشهداء من علية القوم، كبار موظفي الدولة وضباط الجيش والأثرياء، وكان وقتها محرم على المصريين الخدمة في الجيش، فبالتالي؛ المصريون في أغلبهم لم تكن لهم علاقة بهذا الاضطهاد.

قررت أن تلزم الصمت بعد كلامها الأخير هذا وهي تطلع إلى ملامح وجهه التي تزداد ذهولًا كل حين مع كل كلمة قالتها، وقررت أن تقطع فترة الصمت القصيرة هذه قائلةً:

ـ أعتقد أنه من الأفضل أن نتحرك الآن لأن الساعة الثالثة ونصف.

ـ آه، طبعًا... عذرًا.

أدار محرك سيارته، ثم بدأ التحرك بها مبتعدًا عن المكان عائدًا مرةً أخرى إلى طريق أبو قير، وهو يتناول القضمة الأخيرة من الشطيرة الثالثة في حين فرغت هي للتو من الشطيرة الأولى.

ـ ولكن ما لا تعرفه أن المصريين تعرضوا للاضطهاد فعلًا.

ـ على يد الإمبراطورية الرومانية؟

ـ لقد تسرعت في الاستنتاج.

شعر بالخجل ولكنه واراه خلف انشغاله الوهمي بقيادة السيارة وتهدئة السيارة حتى التوقف في إشارة كلية هندسة.

ـ هل ضايقك كلامي؟ لقد كنت أمزح معك.

ـ كلا، ولكن معكِ حق، سأحاول ألا أقاطعك مرةً أخرى.

ـ المصريون الوثنيون تعرضوا للاضطهاد فعليًّا على يد المسيحيين من اليهود والإغريق في عصر الإمبراطور الروماني ثيوديوس عندما أعلن أن المسيحية الديانة الرسمية، فلذلك دخل منهم الكثير في المسيحية خوفًا من الاضطهاد، وتم الاستيلاء على الكثير من معابدهم وتحولت إلى كنائس وأديرة.

تحرك بالسيارة ولكنه اضطر للتوقف مرةً أخرى عندما قطع عليه الطريق ميكروباص مسرع دخل في خط سيره فجأةً، ولكن كل ذلك لم يدفعه للغضب كما اعتاد أن يغضب من مثل هذه التصرفات لأنه كان مشغولًا كليةً بما تقوله ريم، وأيضًا خياله الجامح الذي يقوم بتحويل كل كلماتها إلى مشاهد سينمائية متكاملة حية أمامه تضعه في قلب الأحداث.

يرى عددًا من أتباع المسيحية الإغريقيين واليهود وهم يلاحقون المصريين الوثنيين، ويضربونهم بسيوفهم ليسقط منهم القتيل والمصاب، وصرخات النسوة والأطفال تتعالى في الطرقات الترابية

لقُراهُم الفقيرة، والبعض يحاول أن يحتمي ببيته، ولكن كل ذلك لم يُفلِح في صد الهجمة الشرسة لأتباعِ الكنيسة...

وعدد آخر من المسيحيين المُدَجَّجين بالسلاح يتجهون إلى أحد المعابد المصرية القديمة التي يحتمي بها عدد من الكهنة وخدام المعبد الذين يقفون في الساحة الداخلية للمعبد يُمسِكونَ بأيديهم العصي وبعض القدور النحاسية في محاولةٍ بائسةٍ منهم للدفاع عن مَعبدِهِم...

يقف المسيحيون المُشهِرونَ لسيوفهم في مدخل ساحة المعبد وصدورهم تعلو وتهبط في قوة. ثم يهجمون بقوة وهم يطلقون الصرخات العالية، ويرفعون سيوفهم عاليًا في الهواء ويهوون بها على كل من لاقوهم من المصريين الذين اشتبكوا معهم في معركة خاسرة بالعصي الخشبية والقدور النحاسية.

- **ولكن كان هناك فئة أخرى من المسيحيين المصريين، كانوا يختلفون مع اليهود والإغريق في المعتقد والأناجيل المعترف بها، وهذا يظهر في مجموعة من المخطوطات التي اكتشفوها قرب نجع حمادي بمحافظة قنا.**

توقف فارس مرةً أخرى بسيارته في إشارة الإبراهيمية وهو يدير لها رأسه، وقد استحوذت كلماتها السريعة المنفعلة على كل حواسه مصغيًا لها في اهتمام شديد.

- وهذا له دلالته أن معتقد المصريين من المسيحيين لم يكن له وجود يُذْكَر في الإسكندرية التي كانت تعج بأغلبية من اليهود واليونانيين، ولم يكن لهم وجود في سوهاج التي كانت فيما مضى بطليمية أو الفيوم وإنما نشأت في مناطق بعيدة عن السلطة المركزية؛ حيث تضعف فيها سلطة القائلين بالصَّلب وألوهية المسيح...

في حين أن هذه المخطوطات كانت في بعضها تهزأ من تلك المعتقدات وكان المسيحيون المصريون يؤمنون وقتها بأناجيل أخرى مثل إنجيل المصريين، وإنجيل يحمس، وكما تسمع فالأسماء كلها مصرية خالصة.

- ألم توصم الكنيسة هذه الكتب بأنها كتب مهرطقة.

هزت رأسها موافقةً على كلامه وهي تتابع:

- ولها اسم آخر أطلقته عليها الكنيسة، كتب أوبوكرافيا أو كتابات غنوصية على حسب رؤية أوريجانوس وجيروم وقتها، وبدأ عصر الاضطهاد للمصريين المسيحيين في القرن الخامس على يد المسيحيين الإغريق واليهود...

وكان للمسيحيين المصريين أسقف فاقت شهرته عنان السماء وهو الأسقف جرجس أو بالأحرى الأسقف جرجا، وهو بالأساس أريوسي المعتقد...

وهناك في صعيد مصر مدينة باسم جرجا، وكأنها دلالة وفاءٍ من المصريين لهذا الأسقف الجليل بتخليد ذكراه من خلال إطلاق اسمه على مدينة مصرية في الصعيد ولكن فيما بعد تم تحوير اسمه للنطق اليوناني وهو جرجس.

- ولكني أستغرب جدًّا أنك تقولين على ماري جرجس أنه مصري أريوسي على الرغم من أنه معروف في تاريخ الكنيسة القبطية بأنه ضابط روماني.
- كأكاديمية لا أستطيع الجزم بصحة أي من هاتين القصتين لأننا نتناول أحداثًا تاريخيةً حدثت منذ أكثر من خمسة عشر قرنًا، ولذلك نحن نحاول سَبْرَ أغوارِ تاريخٍ موغِلٍ في القِدَم...

والتاريخ الذي نعيشه اليوم يتم تزويره أكثر من مرة، فما بالك بقرونٍ ولَّت، فمن الطبيعي أن تظهر روايات متعددة للحدث الواحد، وأن تُرْوَى عشرات القصص المناقضة لبعضها عن الشخص الواحد...

وجل ما نستطيع فعله هو اختبار مدى مصداقية هذه القصص الواردة؛ وذلك يكون من خلال أي القصص الأكثر تداولًا، فتكتسب مصداقيةً أكثر، وإن كان هذا في بعض الحالات لا يُعَد دليلًا دامغًا، لأن بعض القصص التي رُوِيَت أكثر من غيرها كانت بفضل

السلطة الحاكمة التي روجت لها في حينها، وقد تكون قصةً زائفةً، ولكنها تخدم مصالح السلطة الحاكمة في ذلك الحين...

وبالتالي نُصَنِّف المرويات المتناقضة مع بعضها البعض على حسب معيار تكرارها وروايتها في أكثر من مصدر باعتبارها الأولى بالاعتبار، ولكن في الوقت نفسه لا نستبعد أو نستثني الروايات الشاذة، وإن كانت غريبةً، بمعنى أتت من مصدر واحد، لأنه لا يمكن الجزم بالمصداقية التامة لأيٍ منهم ولكن نكتفي بالترجيح.

هز رأسه متضامنًا مع كلامها وهو يستكمل السير بالسيارة باتجاه كليوباترا، في حين كانت هي تبتلع ريقها قبل أن تكمل بوتيرة الحماس ذاتها؛ والتي لم تفتر ولو للحظة واحدة:

_ وعندما بدأ الاضطهاد المسيحي اليهودي الإغريقي للمسيحيين المصريين من أصحاب المذهب الأريوسى استولوا على كنائسهم.

تجاوز فارس إشارة كليوباترا، فاستفاقت ريم من النشوة الأكاديمية التي استغرقتها بالكامل وهي تقول:

_ توقف إلى أي جانب لو تكرمت.

_ ياااه، لقد وصلنا بسرعة.

_ نعم، بيتي قريب من خط الترام، يبدو أنك نسيت ذلك.

هز رأسه وهو يتهادى بسيارته نحو اليمين حتى يتوقف قبل ناصية الشارع بأمتار قليلة وقد داخَلَهُ شعورٌ بالضيق، ساد الصمت لثوان بينهما قبل أن تقول وهي تحاول أن تبتسم ويدها تمتد لتفتح باب السيارة قائلةً برنة صوت حاولت أن تجعلها مرحةً:

ـ حسنًا، أستأذنك يا أستاذ فارس، وشكرًا على وجبة الغداء.

ـ العفو، هذا من دواعي سروري.

فتحت باب السيارة وهمت بالخروج ولكنه استوقفها قائلًا:

ـ هل سأراكِ مرةً أخرى؟

ألَّا ترد عليه فورًا كان رد فعل طبيعي يتوقعه، ولكن يدفع إلى نفسه المزيد من التوتر على الرغم منه. وهي كانت تتوقع منه هذا السؤال، ولكن ذلك لم يمنعها من أن ترتبك حين قالت:

ـ لو هناك شيء له علاقة بالقضية من المؤكد سنلتقي، أنا في نهاية الأمر أريد أن أعرف من قتل خالي وأن ينال جزاءه.

كانت ترى هذه الإجابة مناسبةً جدًّا للخروج من حالة الإحراج التي تشعر بها وأيضًا تترك له الباب مواربًا للقاءات محتملة ومرتقبة.

اطمئن هو بعض الشيء لإجابتها، ولكنه قرر أن يحسم أمره بقوله:

ـ هل من الممكن أن ألتقي بك دون أي مبررات أو أعذار؟

هذا بالضبط ما كانت تتوقعه وتخشاه ولم تكن ترغب في سماعه حاليًّا، ولا تعرف لماذا يشعرها بالقلق تطور العلاقة بينهما على هذا النحو، وأيضًا لا تعرف لماذا يقلقها ذلك... تحب ذلك الشعور وتخاف منه في الوقت نفسه.

ـ لا أعلم.

لم يستطع أن يحدد إذا كانت هذه إجابةً قاطعةً بالنفي أم تترك فيه الباب مفتوحًا، فقرر أن يتمادى، لم يستطع أن يسيطر على انفعالاته الداخلية أكثر من ذلك، حينما قال:

ـ إذن اتركي لي الباب مواربًا أن أتصل بك في أي وقت على الأقل.

أوشك أن يرى في وجهها ملامح اعتراض، فبادر إلى القول حتى يقطع عليها طريق الرفض:

ـ في أوقات مناسبة طبعًا.

كان كمن يعطي لها طريقًا للخروج من مأزق الموافقة الصريحة أو الرفض القاطع عن طريق باب آخر للموافقات الضمنية، كل ما يريده باب موارب فقط.

هزت رأسها في صمت ثم غادرت السيارة بسرعة، ولم يشأ أن يضغط عليها أكثر وهو يشاهدها تبتعد في خطوات سريعة عنه، ثم يبتلعها الطريق، ليتحرك بسيارته مرةً أخرى وقد جثم على صدره

عبء ثقيل، يعرف ما هو جيدًا، ولكنه لا يستطيع أن يدفعه بعيدًا عنه...

أحس في ذلك الوقت أنه يحتاج إلى أن يمر على والدته وألا يعود إلى شقته، فهو يعلم جيدًا بل على ثقة أن مشاعره في هذا التوقيت تحديدًا من الممكن أن تتسلى عليه جيدًا.

* * *

(١١)

ـ ماذا فعلت؟ إنه كالثور الهائج.

ـ لماذا؟

هز أيمن كتفيه قائلًا:

ـ ادخل حتى تعرف.

وقف فارس أمام باب المكتب وقد داخَلَهُ التَّوتُّر لأول مرة. دفع الباب وهو يُسرِّبُ إلى ملامحِهِ وخطواته ثقةً مُفتعلةً علَّها تُخفف من غضب العقيد الذي رفع إليه عينين ناريتين وحاجبين معقودين.

أغلق فارس الباب في وجه النقيب. ثم تقدم من المكتب ليقف في صمت. وقف العقيد وهو يستند بيديه إلى سطح المكتب مُتَطلعًا لوهلةٍ في وجه فارس، وقد نَفَرت عُروق جَبهتِهِ العَريضة ثم انفجر فيه صائِحًا:

ـ هل أنت شخص أبله أم ماذا؟

ـ رجاءً، لا داعي لهذا.

لم يتوقع فارس ذلك الصياح الهادِر من العقيد وهو يضرب بيده اليمنى سطح المكتب:

ـ من أنت لتقول لي لا داعي لهذا يا ابن الكلب يا ملعون؟

تراجع فارس مصعوقًا أمام صياح العقيد الذي تحرك من خلف مكتبه ليواجه فارس:

ـ لماذا ذهبت إلى كنيسة ماري جرجس بمحرم بك؟

ـ كيف عرفت؟

ـ هل تتصور أني غافِلٌ عنك؟

ـ كنت أحاول أن أتَتبَّع خُيوطًا جديدةً في القضية.

لوَّحَ العقيد بذراعه في الهواء وهو يرد عليه في سخرية مشبعة بالغضب:

ـ بِمُفردك؟! لماذا؟ هل تناسيت أن هناك مباحث جنائية تتولى القضية؟

حاول فارس أن يُعَقِّب، ولكن العقيد لم يُعطِ له فرصةً وهو يُضِيفُ بصوتٍ غاضب:

ـ أنا يُهاتِفني مساعد وزير الداخلية ثم وزير الداخلية شخصيًّا ليعطوني درسًا في أني أغُطُّ في نومٍ عميق لا أدري بما يحدث من وراء ظهري.

ارتفع صوته وقد إحمَرَّ وجهُه وهو يُشيرُ إلى فارس:

ـ وهذا بسبب كلب مثلك لا وزنَ له.

حاول فارس أن يَكظِمَ غَيظه وهو يُطْبِق على أسنانه، فالموقف في الوقت الراهن يستلزمُ منه هُدوءَ أعصاب في ظل الثورة الهادرة للعقيد:

ـ بأي صفةٍ تذهب للكنيسة وتستجوب القساوسة؟

اقترب منه العقيد كثيرًا حتى ظَنَّ فارس أنه سَيلكُمهُ في وجهه والعقيد يحرك رأسه بين كتفي فارس يقول في سخرية:

ـ لا أفهم حقيقةً كم نسرًا على كتفيك لأنني لا أراهم بوضوح؟

ـ الأمر ليس كما تتصور.

ضرب العقيد كفًّا على كف قائلًا بصوت يزداد غيظًا مُختلطًا بالسخرية:

ـ إذن؛ اشرح لي.

ـ الأمر كله كان استجوابًا غير رسمي والأنبا يعلم ذلك ووافق عليه.

ـ حسنًا، أحب أن أخبرك أن هذا الأنبا اتصل بمعارف له في وزارة الداخلية يشتكي لهم، وبسبب ذلك تعرضت أنا للنقد بسبب شخصٍ مثلك.

استدار العقيد عائدًا إلى مكتبه وهو يمسحُ وجهه بيديه، ثم جلس على مقعده يحاول أن يهدأ من نفسه، ولكنه فشل وهو يضرب سطح المكتب مرةً أخرى قائلًا بصوت هادِر:

ـ لقد سَبَبْتُ لواءً من قبل. هل تعرف ماذا تعني كلمة لواء؟

لم يرد فارس وحاول أن يحفظ توتره وكل انفعالاته وراء قناع ثلجي، ولم يكن العقيد ينتظر منه ردًّا، وبدا وكأنه يحدث نفسه وقد استطرد قائلًا:

ـ لأنه لم يستطع أن يتصيد لي خطًأ واحدًا، فسبَّني فسَببْتُه.

سكت لثوانٍ يبتلع فيها ريقه وهو يشعر بجفافٍ شديد في حلقه وأكمل:

ـ لعمري، طوال فترة عملي بالداخلية، استطاع أي شخص أن يتصيد لي خطًأ واحدًا، لأني أقوم بعملي على أكمل وجه.

لوح بكفيه وهو يضحك في سخرية قائلًا:

ـ لقد خسرت بسبب سبي للواء ترقيتي، فكان من المفترض أن أكون عميدًا، ولكن كرامتي فوق كل شيء.

أشار إلى صدره كنوع من زيادة التأكيد وهو يقول:

ـ ومنذ ذلك الحين لم يستطع أحدٌ أن يوجه لي كلمةً واحدةً لأنهم يعرفون جيدًا من هو يوسف صبري.

ضرب سطح مكتبه، وهو يقول من بين ضروسه:

ـ ولكن اليوم تلقيت الكثير من المكالمات التي تنال مني وتتشفى في، وتوجه لي النقد اللاذع وأقف عاجزًا عن الرَّد لأول مرة؛ لأنهم للمرة الأولى أيضًا استطاعوا ـوأخيرًاـ أن يتصيدوا لي خطأً كان السبب فيه شخص حقير مثلك.

تراجع العقيد في مقعده وقد فُوجِئ بثورة فارس:

ـ لأني أعرف جيدًا أسلوبكم العقيم في الاستجواب من تعذيبٍ وإهانة... لم أخبرك بالأمر وقررت أن أفعله بنفسي في إطارٍ غير رسمي، هل عرفت الآن لماذا لم أخبرك؟!

سكَت العقيد للحظةٍ وهو يتأمل فارس ثم ضغط على زر بمكتبه، فدخل العسكري فورًا يؤدي التحية، ولكن العقيد لم يمهله وقال:

ـ اطلب من النقيب أيمن الحضور.

قفز النقيب أيمن إلى الداخل وهو يقول بحماس مُفتَعل:

ـ أوامرك يا باشا.

أشار العقيد إلى فارس قائلًا بغيظ:

ـ ألقي بهذا الكلب في الحجز الأرضي، الأرضي يا أيمن.

هتَفَ فارس مُستنكرًا:

ـ نعم!

في حين قال أيمن مترددًا:

ـ هل أنت جاد فيما تقول يا باشا؟

انتفض أيمن في مكانه والعقيد يصيح:

ـ هل تراني أمزح معك أيها الأبله؟!

أطبقت يد أيمن فورًا على ذراع فارس الذي انتفض في عصبية، وحاول أن يخلص ذراعه من يد أيمن وهو يقول للعقيد بعصبية:

ـ ليس من حقك قانونيًّا أن تفعل ذلك.

رد عليه العقيد بثورة:

ـ هذا القانون تستطيع أن تكوره و...

وأشار بيده لأعلى، ثم أدار رأسه لأيمن قائلًا:

ـ هيا يا أيمن.

ـ تعالى معي الآن يا فارس.

لانَ له فارس وقد طمأنَته نبرة صوت أيمن، وغادر معه المكتب، في حين التقط العقيد علبة سجائره وسحب منها واحدةً وأشعلها بعصبية.

* * *

(١٢)

ـ ألم يحضر حمدي حتى الآن يا صبحي.

ـ كلا، لم يحضر بعد يا حاج.

قلب الرجل الذي تجاوز عقده السادس كفيه في حيرة وهو يدخل مكتبه ويمسك بهاتفه المحمول ليجري اتصالًا، ولكنه يجد نفس الرسالة التي تخبره بأن الهاتف مغلق، ينهي الاتصال وهو يجلس خلف مكتبه والحيرة تغزو ملامح وجهه؛ لتضيف تجاعيد إضافية إلى وجهه المُمتلئ بالتجاعيد، يداعب شاربه في شرود.

بعد لحظات من شروده يتطلع إلى الباب وصبحي يدخل إلى المكتب وهو يحمل في يده طردًا في علبة مربعة، يضعها أمام الحاج وعليها علامة الـ (DHL)، ينظر لها الحاج باستغراب، ثم يرفع عينيه إلى صبحي متسائلًا:

ـ ما هذا يا صبحي؟

ـ لقد وصل هذا الطرد من ساعة يا حاج.

يشير الرجل برأسه للعلبة بلا اهتمام ليفتحها صبحي والرجل المُسن يغوص في شروده وبعقله تدور عشرات التساؤلات: أين ابنه الآن؟ ولماذا يغلق هاتفه؟ لماذا لم يصل حتى الآن إلى مخازن الخشب؟

يفتح صبحي العلبة ثم يتطلع باستغراب إلى محتوياتها مما يلفت نظر الحاج الذي حرك كفه الأيمن متسائلًا:

ـ ماذا هناك يا صبحي؟ هل رأيت عفريتًا؟

ـ العلبة بها هاتف جوال ومظروف كأنه يحمل جوابًا.

انتقل نفس الاستغراب إلى الحاج، ثم نَفَضَ عنه استغرابه وقال لصبحي في لهجة آمرة:

ـ حسنًا، اذهب أنت يا صبحي، واجلس بجوار باب المخزن حتى يأتي حمدي، هل فهمت؟

ـ حاضر يا حاج.

انصرف صبحي وقرب الحاج إليه العلبة في فضول وهو يتطلع بنوع من الريبة إلى المحمول والظرف المجاور له، تناول الظرف وفَضَّهُ مُتناولًا منه ورقةً، ضَيَّق ما بين عينيه حتى يقرأ ما فيها، ومع كل كلمة يقرأها تزداد خفقات قلبه حتى خُيِّل إليه أنه يسمعها جليًا.

"اتصل على الرقم... الأمر يتعلق بابنك"

ألقى الحاج الورقة على المكتب أمامه وتراجع في مقعده وقد انقلبت ملامحه كلها إلى توتر شديد، وهو يراقب الهاتف بخوف.

الكلمة التي تضرب رأسه حاليًّا.

ابنه... ماذا بشأنه؟

لم تَطُل تساؤلاته وتغلب على خوفه المُبهَم وتناول الهاتف وأجرى الاتصال بالرقم المُدوَّن على الورقة... انتظر لثوانٍ كانت بالنسبة له مدةً طويلةً حتى أتاهُ الرد.

صوتٌ رَخيمٌ هادِئ إلى حد الخوف يقول:

ـ كيف حالك يا حاج إسماعيل؟

ـ من معي؟

ـ هذا السؤال شديد السخافة يا حاج.

ارتعشت شفتا الحاج ولسانه يرفض أن يسأل السؤال التالي، ولكنه أجبر نفسه على نطقها:

ـ أين حمدي؟

ـ هذا هو السؤال الصحيح يا حاج.

يُخالِط صوت الرجل الهادئ إلى حد الخوف صوتٌ آخر في أُذن الحاج وهو دقات قلبه القوية، ولكنه يجاهد حتى يتغلب على صوت دقات قلبه وهو يسمع الطرف الآخر يقول:

ـ هناك فيديو قصير على الهاتف الجوال... أريد منك أن تراه.

ـ فيديو!

ـ هل تعرف كيف تشغل الفيديوهات على الهاتف الجوال؟

ـ أخبرني مباشرةً: ماذا تريد؟

تجاهَلَ الصوت سؤال الحاج وأكمل في هدوئِه المخيف:

ـ سأتصل بك بعد خمسة دقائق من الآن، حتى يتسنى لك مشاهدة الفيديو بِتَمعُّن.

لم يُهمِل المتصل الرجل الذي شاخَت ملامِحُه دُفعةً واحدةً بفعل الخوف والقلق الشديدين وأنهى الاتصال، الرجل يتطلع إلى الهاتف في ذهول وخوف، ثم أخذ يضغط على شاشة الهاتف حتى وصل إلى معرض الصور، ولم يكن هناك سوى فيديو واحد يظهر فيه وجه ابنه جليًّا...

يستطيع الآن أن يتوقع الأسوأ، نعم... هو يعلم أن ما سيشاهده الآن أسوأ مما يتوقع. ارتعش إصبعه وهو يضغط على الفيديو.

في ذلك الوقت كان إدريس يجلس خلف مقود سيارته في الطريق السريع الممتد إلى الكيلو ٢١ ويتطلع بين الفينة والأخرى إلى مخازن الحاج إسماعيل وولده للأخشاب، يبتسم في هدوء، ثم يتطلع إلى التنكر

الجديد، وقد بدا كرجُلٍ في العقد الخامس من عمره مع صلعةٍ خفيفة، ونظارة سميكة وتجاعيد مُتقنة أسفل عينيه، ثم شفتين كبيرتين.

عاد يتطلع إلى الطريق أمامه، ثم انتقل إلى مطالعة ساعته وعاد بعدها ليركز على الطريق.

أسنَدَ رأسهُ إلى ظهر مقعده وأغلق جفنيه، ارتعاشة جفنيه تدل على أنه يتذكر شيئًا ما... شيئًا مهمًّا جدًّا، استطاع أن يَقلِبَ حياتهُ رأسًا على عقب، ذكرى مُعينة جعلت منه شخصًا آخر على نقيض مما كان عليه:

ـ "مستعد للتضحية من أجل السيد يا إدريس"

ـ أنا وعائلتي كلها فداء للسيد وله الأمر في الأول والآخر.

ربتت اليد المعروقة لرجلٍ على كتف إدريس الذي كان يجلس على ركبتيه أمام ذاك الرجل ذا العمامة السوداء والجالس على مقعد خشبي.

قبَّل إدريس يد الرجل ودموعه تسيل رغمًا عنه. رفع رأسه إلى الرجل ذا العمامة وقال:

ـ هل تعتقد أن الله سيتوب علي؟

ـ مؤكد يا إدريس، باب الرحمة والتوبة دائمًا مفتوحٌ على مصراعيه، وتوبَتُك تَجُبُّ ما قبلها يا إدريس.

سكَتَ الرجل لثوان، ثم قال بجدية وهو يميل عليه واضعًا يده على رأس إدريس:

ـ ويجب أن تشعر بالفخر لأن الله اختارك من أجل القيام بهذه المهمة الإلهية يا إدريس، هذه علامة على رضى الله عليك، وهذه المهمة هي الشيء الوحيد القادِر على غَسل ذنوبك جميعها.

أمسَكَ إدريس يد الرجل بكلتا يديه يُقَبِّلها ويبللها بدموعه، وبكى بين يديه كطفل صغير حتى علا نَشيجُهُ والرجل ذو العمامة يَبتسِم في هدوء ويمسح بيده الأخرى على رأسه.

يستفيقُ إدريس من هذه الذكرى المُميزة لديه والتي تَحتل مكانًا خاصًّا في قلبه وينظر إلى ساعته ثم يجري الاتصال:

ـ هل شاهدت الفيديو يا حاج؟

يسمعُ بوضوحٍ بُكاءَ الحاج قبل أن يقول بصعوبة:

ـ اطلب ما تشاء من مال.

ـ لا أريد مالك يا حاج.

ـ إذن؛ ماذا تريد؟

ـ أريد روحك أنت.

الصمت الذي يسود يجعله قادرًا على تخيل ملامح الرجل المذهولة ويقطع الحاج الصمت بقوله المرتجف:

ـ روحي أنا!

ـ هل كثير على ابنك أن تفديه بروحك؟

الصمت كانت الإجابة التي كان يتوقعها إدريس، لكنه قطعه بقوله:

ـ ألا تلاحظ شيئًا آخر في الصندوق يا حاج؟

الصمت يُطبِق على الحديث بينهما مرةً أخرى... جَلَبةٌ بسيطة إثر عَبَث الحاج بالصندوق، ثم يقول باستغراب:

ـ نعم؛ هناك زجاجة صغيرة بها سائلٌ مُلون!

ـ جيد يا حاج، هذا سُم!

ـ ماذا؟!

كتَم إدريس ضحكةً كانت على وشك أن تفلت منه، وقال بجدية:

ـ لو رغبت في أن تُنقِذ ابنك من الموت المُحقق، عليك أن تخرج الآن من مكتبك أمام كل العاملين لديك وتشرب هذا السائل أمام الجميع، وأن تردد ما هو مكتوب في ظهر الورقة التي بين يديك.

ـ أنا لا أفهم شيئًا.

ـ كل وقت تضيعه يا حاج محسوب من عمر ابنك.

يسمع بكاء الحاج... في ظروف أخرى كان من الممكن أن يتعاطف معه إدريس، ويتفهَّم لوعَتهُ على ابنه الوحيد، ولكنه يُدرِك جيدًا أن الأمر مُختلفٌ كُليَّةً هذه المرة، فهذا الرجل كما أخبروه هو شيطانٌ في

شكلٍ بَشري؛ فلا يجب أن تأخذه به شفقة أو رحمة كما كُل الضحايا الذين سبقوه.

ـ أليس هناك حل آخر؟ يمكنك أن تطلب مني أي شيء آخر.

كم يكره إدريس استجداء الشياطين أمثاله... كم يُجيدونَ الاستجداء، ولا يعرفون غير لُغة المال. يتصورون أن كل شيء يمكن إصلاحه بالمال، ولكن ليس هذه المرة.

ـ ألم أقل لك يا حاج أن الأمر لا يتعلق بالمال.

هياج الحاج هو الشيء الآخر الذي يتوقعه إدريس: هياج اليائِس.

ـ وما الذي يضمن لي أنني لو فعلت ما تطلبه أنك لن تؤذي ابني أو تقتله.

سؤالٌ منطقيٌ جدًّا، هكذا يراهُ إدريس ولكن هل من ضمانات للشياطين؟! لا يوجد أي ضمانات، لقد خرجوا من رحمة الله منذ أن ارتكبوا جريمتهم التي لن تُطْمَس مهما طال الزمن لقرون، ولكن الجانب الآخر من الأمر أن المهمة أصبحت الآن على المَحَك، فلو رفَض الحاج أن يشرب السم فهذا يُنذِر بفشل المهمة.

لامَ إدريس نفسه على هذا التفكير وعَدَّهُ من نَزْغِ الشيطان، كيف يُفكر في ذلك؟ كيف يفقد إيمانه للحظة بكل هذه السهولة؟ كيف يتخلى عنه الله وهو في مهمةٍ إلهية؟

ـ لكَ مُطلَق الحرية يا حاج، إن لم تشرب السم ستكون حكَمت على ابنك الوحيد بالموت، الواضح أن حياتك أغلى بكثير من حياة ابنك.

ـ أنت مجنون! والله إنك لمجنون.

لم يُبالِ إدريس بصريخ الرجل الهستيري، وانتظر اللحظة التي يخضع فيها الرجل بالكُليَّة. إنه يثق في وقوف الله إلى جانبه وأنه لن يخذله أبدًا، وهذا امتحانٌ لإيمانه... التوتر يتطرق إلى دواخلهِ وملامحِهِ، ولكنه سينجح في الاختبار ولن يفشل.

الرجل يعاود البُكاء، إدريس يتنفس الصعداء وهو الوقت المناسب ليضغط عليه أكثر ليكسر بواقي التحدي الموجودة لديه.

ـ الوقت يمر يا حاج وابنك كل حين يقترب من الموت أكثر.

ـ ما هي الضمانة في أنك لن تؤذيه أو تقتله إذا نفَّذت طلبك؟

يُكرِّر الأمر نفسهُ مرةً أخرى، ولكن بنبرةٍ أكثر انهزامية.

ـ هل تحب أن تسمع صوته؟

ـ أرجوك.

تناول إدريس هاتفًا آخر وأجرى اتصالًا ثم شغَّل مُكبر الصوت في الجهازين.

انفجر صوتٌ يصرخ:

ـ والله لأقتلنَّك أيها المجنون.

قفَز الحاج إسماعيل من مكانه وهو يهتف بِلَوعة:

ـ حمدي ابني.

الصمت يسود لثوان، ثم صوت الشاب يقول بتردد وخوف:

ـ أبي.

ـ أين أنت يا حمدي؟

حمدي يتجاهل صوت أبيه وينفجر قائلًا:

ـ والله لأقتلنك أيها مجنون يا ابن الكلب لو مسَسْتَ شعرةً منه.

ضحِك إدريس ضحكةً مكتومةً وهو يستمع إلى ذلك الحوار الصاخب بين الهاتفين.

ـ لا تشرب السم يا أبي، إنه مجنون، لا تستمع إليه.

أنهى إدريس الاتصال من طرف حمدي، ثم ألغى خاصية مكبر الصوت في الهاتف الآخر متحدثًا بهدوء مستفز إلى الحاج إسماعيل:

ـ تأكدت الآن يا حاج.

الصمت هو مفتاح النصر لدى إدريس، لقد اقترب كثيرًا الآن من تحقيق هدفه، أتاه صوت الرجل واهِنًا وقد اكتملت أركان الهزيمة في صوته.

ـ أرجوك يا ابني.

تجاهَل إدريس استجداءات الرجل وهو يقول بحزم:

ـ لا تدع الهاتف من يدك وضعه على أذنك وأنت تنفذ ما طلبته منك، أريد أن أسمع كل شيء حتى موتك.

بكاءُ اليائس هو ما يرغب إدريس في سماعه الآن. يسمع صوت الرجل يتحرك من مكانه. أغلق عينيه وهو يشكر الله كثيرًا على أنه يقف بجواره في هذه المهمة المقدسة.

خرج الحاج إسماعيل من مكتبه ووقف على الممر العلوي المُطِل على الساحة الداخلية لمستودعات تخزين الأخشاب وهو يمسك بيد الهاتف يقربه من فمه وفي اليد الأخرى ورقة وزجاجة صغيرة، يده ترتعش وعيناه تمتلئ بالدموع.

ـ يا أيها الرجال، اقتربوا حتى تسمعوا ما سأقوله.

ترك الرجال المنهمكون في نقل الأخشاب ما يصنعون، وتجمعوا أسفل الطبقة العلوية للمخزن ينظرون باستغراب وقلق إلى الحاج إسماعيل الذي ارتعش جسده كله.

اتَّسَعت عينا صبحي وهو يشاهد الحاج بهذه الحالة السيئة.

ـ أريد أن أخبركم بأمرٍ هام.

انطلق صبحي يصعد درجات السلم الحديدي المؤدية إلى الممر العلوي وحاول أن يقترب من الحاج، الذي استوقفه بإشارةٍ من يده قائلًا في هلَع:

ـ لا تقترب يا صبحي، ابق مكانك.

تسمر صبحي مكانه وهو لا يفهم شيئًا، في حين قرب الحاج الورقة من عينيه يقرأ ما فيها بتلعثم وصوت باكٍ:

ـ إنما جاء الوقت لأن... أن... ندفع ثمن ما ارتكب... ارتكبناه من آثام على قتل (يصمت لثانية غير مصدق لِما يقرأ ثم يُتابع) ... سيد الرجال وقتل ابنه ومن... (يسكت مرةً أخرى، لا يعقل أي سطر مما يقرأه) ... ومن قبل أمه، وما تعرض له أهله من سب... ماذا؟! (الدموع تُربِك مساحة الرؤية لديه) ... سبي... سَبيٍ وإيذاءٍ لأهله الأطهار.

غمغم صبحي في استغراب:

ـ ماذا تقول يا حاج؟

ـ اخرس يا صبحي.

نظر الرجال لبعضهم البعض في دهشة وما يجول بخاطرهم الآن أن الحاج أصابته لوثةٌ مفاجئة، ولا يعرفون أمَسَّهُ جِن أم ماذا حل به؟!

في الوقت نفسه كان إدريس يضغط بقوة على الهاتف وهو يستمع إلى ما يقوله الحاج إسماعيل، ومع كل كلمة يزداد ضغطه أكثر على الهاتف، ورغمًا عنه تفلت من عينيه دموع يشعر معها أنها تحرق عينيه وقلبه معًا.

ـ وإن طال زمن الحساب فهو آتٍ لا ريب فيه، ويجب أن نُحَاسَب على... (شفتاه ترتعشان وعقله يرفض قراءة هذا العبث الجنوني، ولكنه يتذكر وجه ابنه في الفيديو؛ فيُجبِر نفسه على المُضي قُدمًا).

... جرائمنا في حقهم، فنحن من نسل... (أستغفر الله العظيم... يضغط أسنانه بغيظ مع ارتعاش شفتيه ثم يقول).

... شياطين الإنس؛ فحُقَّ علينا العقاب واليوم أقتل نفسي... (تصدر عنه التفاتةٌ لا إرادية نحو رجاله الذين يرفعون رؤوسهم نحوه، وقد اكتَسَت ملامحهم بكل آيات الذهول والاستغراب البالِغ، فيُحاول أن يركز ويُعيد عينيه إلى الورقة مرةً أخرى قائلًا).

... بِمِثل ما قتلتموهم من قرونٍ طويلة!

ـ ما هذا يا حاج؟ ما هذا العبث؟

كان صبحي يُقلِّب كفيه في ذهول، ولكن الحاج إسماعيل تجاهل كلامه، ثم أسقطَ الورقة من يده وارتعشت يده القابضة على الزجاجة الصغيرة يرفعُها إلى شفتيه.

أدركَ صبحي أن الحاج سَيُقدِم على فعلٍ جُنوني، فحرَّكتهُ غريزته أن يندفع نحو الحاج ليمنعه من شرب ما في الزجاجة.

ولكن الحاج ضربه بمرفقه في صدره عندما اقترب منه، تلقى صبحي ضربةً قويةً شعر أنها اخترقت ضلوعه مباشرةً... المفاجأة كانت في قوة ضربةٍ لا تتناسَبُ مع رجل مسِن مثله، سقط صبحي أرضًا في حين سَكَب الحاج كل ما في الزجاجة بجوفه.

توقف الحاج للحظاتٍ مُتصورًا أنه سيسقط فورًا على الأرض، ولكنه ظل واقفًا على قدميه فدفعه ذلك إلى أن يصرخ في الهاتف:

ـ اتركه الآن لقد شربت السم.

ترددت بين الرجال في الساحة الأرضية بالمخزن هذه الكلمة بجزعٍ، أفلَت الحاج إسماعيل الزجاجة والهاتف... تراجع للخلف خطوتين، فيُقبِل نحوهُ صبحي مرةً أخرى يمنعه من السقوط، لكن الرجل يشعر بهبوط حاد، ودوار يضرب رأسه فجأةً، لم يكن يعلم أن دقات قلبه تتباطأ بسرعةٍ كبيرة، مما يسبب هبوطًا حادًّا في الدورة الدموية، صبحي بِكُمِّ قميصه يَمسحُ عرقًا باردًا يتصبب عن وجه الحاج الذي يحاول ابتلاع ريقه في صعوبة.

يُجلِسه على مقعد بجوار باب المكتب وهو يصيح:

ـ يا سعيد... اتصل بالإسعاف فورًا.

على الطرف الآخر من الهاتف كان إدريس يستمع إلى الجلَبة، أنهى الاتصال في هدوء، ثم تناول شريحة الذاكرة من الهاتف، وألقى الهاتف من النافذة.

أدارَ محرِّك السيارة منطلقًا بسيارته سريعًا وهو يمسح دموعه التي بدأت تجف على خديه... شفتاه ترسمان ابتسامة نصر.

جفنا الحاج إسماعيل يرتعشان، فخفقات القلب بدأت تتباطأ بشكل مخيف... يشعر ببرودة شديدة في أطرافه وتنميلٌ يجري في جسده بأسرع مما يتصور.

يحاول أن ينطق ولكن شفتيه تفشلان في أن تتحركا، يطبقهما مرةً أخرى وصبحي يقرب أذنه من شفتي الحاج محاولًا أن يسمع ما يحاول قوله ولكن دون جدوى.

البرودة تسري في أوصاله الآن، دقات قلبه القوية التي كانت تتردد في أذنيه أصبحت الآن تأتيه من بئرٍ سَحيق، يستغرب من توقفها تمامًا، يطمئِن إلى حالة الصمت التامة التي تسود الجو من حولِه، ارتعاشُ جفنيهِ سَريع.

الآن يغلق عينيه في استسلام تام ويتراخى جسده بالكامل بين ذراعي صبحي الذي يعاود الصياح لتأتي الإسعاف... الرجال يتوافدون

على المَمر الحديدي العلوي وهمسهم يرتفِعُ رويدًا... رويدًا حتى يتحول إلى صخب.

يدخل الحاج في حالة صمت تام وآخر صورة تنطبع أمامه في وسط هذا الظلام الدامس وجه ابنه في مقطع الفيديو وصوته الصارخ يخترق جدار الصمت.

الفصل الرابع

تنوحون وتبكون من أجلنا فمن ذا الذي قتَلَنا؟!

(١)

ـ كيف حالكِ يا سحر؟

كان آخر شخص تتوقع أن يطرق الباب، ظلَّت لثوان تُحدِّق فيه بذهول، يعلم جيدًا شعور المفاجأة هذا الذي داهمَها فورَ رؤيتهِ، أحب أن يُنهي حالة الذهول هذه بقوله الذي انطوى على شيءٍ من العصبية:

ـ ممكن أدخل.

الذهول ما زال يشل تفكيرها، أفسحت له الطريق في صمت، بشكل لا إرادي. استطلع صالة البيت قبل أن يدخل، وصوت أمها يأتيه من حجرتها الداخلية:

ـ من على الباب يا سحر؟

لم تُجِب سحر. كان صوتها يقترب لأنها كانت تخطو ببطء باتجاه الصالة، كان يتوقع ذهولها هي الأخرى وهي تراهُ يقف في منتصف الصالة ينظر إليها بعينين خاويتين، ألجمَتْها المفاجأة، ولكنها سرعان ما تخلصت منها، وهي تقول بنبرةِ ترحابٍ زائفة وقد خرجت الكلمات منها بطيئة:

ـ كيف حالك يا صبري؟ ما هذه المفاجأة؟

لم يكن العقيد يحب تلك المودة الزائفة منها فقرر أن يقول بصرامته التي تفرض نفسها من واقع عمله:

ـ كيف حالك يا حاجة؟ أريد أن أُحادِث سحر قليلًا.

نظرت الأم إلى سحر وكأنها تقول: (هل توافقين على ذلك؟) لكنها لم تتلق أي إجابة من سحر التي شغلت نفسها بإغلاق الباب فأسرعت تقول:

ـ بالتأكيد يا ابني، ولِمَ لا؟ يمكنكما الجلوس بالشرفة حتى أفرغ من عمل كوب الشاي الذي تفضله.

يعلم أنها تخاف منه وتكرهه في الوقت نفسه! فكرت في أن تبدل إحساسه ذلك الذي لمسته جيدًا في ملامح وجهه المقطبة، فحاولت الابتسام وهي تعود أدراجها من حيث أتت في حين التفت هو إلى سحر قائلًا:

ـ هل من الممكن أن نتوجه للشرفة؟

لم تعقب ولكنها اتجهت في صمت إلى الشرفة، وقف لثوان يتابع حركتها، ثم تبعها، اتخذ مجلسه الذي اعتاد عليه أثناء فترة الخطوبة، تفصل بينها وبينه مائدةٌ من خَشب البامبو مستديرة، عليها قرصٌ زجاجي لم يعد صافيًا كما كان وكما هي حياته الآن.

تطلع إلى المباني المتناثرة أمامه، ثم ثبت نظره عليها قائلًا في نبرةٍ حاول أن يجعلها مرحةً:

ـ مكاني المفضل منذ أيام الخطوبة لو تتذكرين؟

حاولت أن تبتسم ولكنها لم تنجح، فقبل أن تتشكل الابتسامة على شفتيها ذابت بسرعة، كان يحاول أن يستقطبها لما هو مُقبِلٌ على قوله من خلال استدرار الماضي، ولكنه يدرك الآن أن هذه المحاولة لن تجدي نفعًا.

قرر أن يفعل ما يجيده دائمًا وهو أن يقصد صلب الموضوع مباشرةً دون الكثير من المقدمات:

ـ أريد أن أعود لكِ يا سحر.

نظرت له لتتشكل علامات الدهشة على وجهها وعينيها، أطرقت برأسها لا تجيب، كان عليه أن يتوقع ذلك، فبذل مجهودًا إضافيًّا لكبح انفعالاته والسيطرة عليها.

دخلت الأم عليهما لتقطع حديثًا كان على وشك أن يقوله وهي تضع الصينية أمامه وعليها كوب من الشاي وكوب آخر من الماء المثلج، كوب الماء المثلج مناسب جدًّا لهذا الجو المتوتر والحار أيضًا.

ابتسمت ابتسامةً متكلفةً أخرى وانسحبت في صمت وهي ترمُق سحر بِتَحفُّز وتحاول أن تسرب لها رسالةً: (لا توافقي على طلبه يا سحر)، تجاهل هو نظراتها وتعبيرات وجهها المتوترة وعادَ ليُركِّز على وجه سحر الذي رفعته لما فوق حافة الشرفة تطلع إلى اللاشيء؛ كأنها تبحث عنه بين المباني الكثيرة المتناثرة.

ـ وجدت نفسي بعد طلاقنا ما زلت أحبك يا سحر.

نظرت إليه باستنكار وقد لمح الغضب يغزو ملامحها، ظهر له ذلك جليًّا في نبرة صوتها:

ـ الآن تذكرت ذلك؟ الآن فقط؟

لم يُجِب، لو اندفع ليقول شيئًا سَيُفسِد الأمور كما تعود دائمًا أن يفسدها في مثل هذه اللحظات الحرجة فبدَّل هذا الفعل بآخر وهو أن مدَّ يده في جيب بنطاله يُخرِج علبة سجائره، ولكنها أوقفته بإشارة من يدها:

ـ لو سمحت؛ لا تدخن هنا، لقد تعب صدري لسنين من دخان سجائرك، وأنت كنت تتجاهل توسُّلاتي لك...

ألقى العلبة على المائدة وهو ينفخ بِغَيظ، ثم أغلق عينيه لثوانٍ في محاولة بائِسة منه للسيطرة على انفعالاته وتوتره الذي يتصاعد من جوفهِ إلى وجهه.

ـ لم أكن أتخيل أن حياتي ستكون بهذه الصعوبة وهذا الجمود الغريب بعد طلاقنا يا سحر.

ـ ولماذا لم تكن تشعر برُبع هذا الشعور وأنا معك؟ ولِمَ وصلنا لهذه المرحلة المؤسفة؟

ـ للأسف لم أشعر وقتها بهذا الشعور إلا بعد رحيلك.

لأول مرة تَلينُ ملامحها، فهذه من المرات القليلة التي يُعبِّرُ فيها عن مشاعره ولو كانت على ذلك النحو المُختزَل، والأهم بالنسبة لها أنه لأول مرة يقدم لها اعتذارًا يحمل كل المصداقية التي كانت تتمنى أن تسمعها منه في مرات سابقة.

ظلَّت تُحدِّق فيه لثوانٍ في حين تناول هو كوب الشاي وهو يحاول أن يهرب من عينيها المثبتتين على وجهه، ويرتشف منه رشفةً، ثم يُبقي الكوب في يده وهو يُعيد النظر إليها، حاول أن يمازحها قائلًا:

ـ الحاجة تصنع كوب شاي رائع، جاء في الوقت المناسب.

لم تُعلِّق، لم تَبتسِم حتى، ولكنها قالت في جدية متجاهلةً مزحته:

ـ أريد أن أخبرك بشيء ما وأتمنى ألا تُسيء فهم ما سأقوله باعتباره أنه رغبة مني في التعالي، أو محاولة لإثبات كم أنا مطلوبة، كان من الممكن أن أفعل ذلك منذ سنوات طويلة، ولكن للأسف أنا وأنت كبِرنا على مثل هذه الأمور.

كان يخشى ما ستقوله بعد ذلك، لذلك ضيَّقَ حدَقتيهِ وهو يتطلع إليها منتظرًا في قلق ما ستقوله.

ـ منذ أسبوع تقدم لي شخص لخطبتي، ليس صغيرًا، أعتقد أنه في عمرك أو يصغرك بعامين، وأمي تُلِحُّ عليَّ أن أوافق.

ضرب سطح الصينية بكوب الشاي، فانتفَضَت هي انتفاضةً خفيفةً للضجيج الذي أحدثه ارتطامُ الكوبِ بالصينية وهو يُعلِّقُ بسخريةٍ غاضبة:

ـ وأنا أتساءل منذ البداية لماذا يبدو طعم هذا الشاي ماسِخًا؟ الآن عرَفت.

تراجَع في مقعده للحظة، ثم اندفع مرةً أخرى نحو الأمام، في حين تحفَّزَت هي وتراجعَت في مقعدها، ولكن جسمها لانَ مرةً أخرى وهي تراهُ يتناول علبة سجائره وينهض قائلًا:

ـ حسنًا يا سحر، الرسالة وصلت.

هم بأن يتحرك، ولكن استوقفه ثورتها المفاجئة:

ـ هذا هو دأبك دائمًا: الهروب من مواجهة المشاكل.

علَت الدهشة وجهه وهو يتطلع إلى وجهِها الثائِر في حين لوحت بيدها قائلةً:

ـ هيا؛ افعلها ككل مرة، اذهب بعيدًا كما اعتَدْتَ أن تفعل لدى حدوث أي مشكلة.

عضلات جسدها كلها مشدودة من فرط الانفِعال وهي تقف مُنتصبةً متحفزةً للهجوم، جلَست وقد اكتسَت ملامِحُها بهدوءٍ وصمتٍ تام كأنها آلة توقفت للتو عن العمل، وبشكلٍ مُفاجئ لا إرادي عاد إلى مقعده

وجلس عليه ببطء وهو يتطلع إلى وجهها الشارد في اللاشيء وقد أسندت مرفقها الأيسر على سور البلكونة الخشبي.

ـ أعلم جيدًا أنني... لا أستطيع الإنجاب يا سحر وهذا سبب ط...

قاطعته قائلةً بِحدَّة:

ـ كلا يا صبري؛ ليس هذا سبب طلاقنا، السبب هو مُعاملتك الجافة لي، فأنت لم تقل لي أبدًا كلمةً طيبةً، إنني حتى لا أتذكر أنك قلت لي ولو لمرة واحدة شكرًا، هذا هو سبب طلاقنا يا صبري...

أما كونك لا تستطيع الإنجاب فلقد سلمت أمري لله، وقررت البقاء معك رغم ذلك، ولعل الله يدبر لي الأفضل ويجازيني الأجر عن صبري، لأنه لو كان هذا سبب طلاقنا لكان حدث قبل ذلك بكثير.

هزَّ رأسه ولم يعقب هذه المرة، أخرج علبة السجائر مرةً أخرى وتناول منها واحدةً، وضعها في فمه وهمَّ بأن يُشعِلَها ولكنه أبعَد الولاعة وأعادَها لجيبهِ وأمسك بالسيجارة ليطوحها بعيدًا.

ابتسمَت. لأول مرة يراها جميلةً رغم بدانَتِها الواضحة، ولكنها مع ذلك جميلة، وتلك الابتسامة تُظلل شفَتيها اللتين يراهما أيضًا جميلتين.

ـ من الممكن أن نتبنى طفلًا أو...

ـ التبني حرام.

رد بغيظ:

ـ نكفل يا مؤمنة.

لَزِمَت هي الصمت في حين أخَذَ هو نفسًا طويلًا وقال في هدوءٍ هذه المرة:

ـ ويكون هذا الطفل رضيعًا.

ـ أوافق.

الذهول هذه المرة كان من نصيبه هو، لم يكن يتوقع موافقتها السريعة، كان يَهُمُّ بحديثٍ طويل؛ يحاول أن يقنعها به ولكن كل ملامح وجهها الآن تقول إنها توافق على العودة له...

ألجَمَتهُ المفاجأة، لم يكن يتوقع أن ينجح سريعًا، ولكن ما كان يثق فيه هو أنها كانت ستُغلق الباب في وجهه فورَ رؤيته، هذا ما كان يثق أنه سيحدث، لا يعرف كيف تبخَّر ذلك الحِمْلُ الثقيل الذي يحمله على صدره دُفعةً واحِدةً؟ يشعر أنه يستطيع أن يتنفس بحرية، لا يعرف كيف يفسر ذلك ولكنه يشعر أن لذلك النفَس رائحةً مختلفةً... مُحببةً إليه.

كمَن انهار في كُرسيّهِ، فهي وفرَت عليه شرحًا مطولًا، ولأول مرة يبتسم في سعادة وهو يتطلع لخارج حدود الشرفة... الأنوار الصفراء والبيضاء التي تتوهج من نوافذ العمائر المتناثرة أمامه لم تعد كئيبةً... لقد صارت مبهجةً.

أعاد النظر إليها فوجد شفتيها ترسُمان ابتسامةً هادئةً تمتلئ بسعادة مفاجئة.

ـ دعينا نذهب الآن إلى البيت.

ضَحِكا، لا يُمكن أن يصفا الضحكة بأكثر من كونها ضحكةً صافيةً، ضحكةً تخرج لأول مرة من قلبهما، منذ سنوات طويلة.

ـ أحتاج لأن أُرتب أمري، المرأة دائمًا وضعها مختلفٌ عن الرجل.

هز رأسه مؤمِّنًا على كلامها، ذهبت الضحكة من على ملامحها، وبقيت عليها ابتسامة هادئة، رنَّ هاتفه الجوال، زفَرَ في ضيق، أخرجه من جيبه ينظر إلى الشاشة، كان مُترددًا بين الإجابة وبين إنهاء الاتصال وهو ينقل عينيه بين سحر وشاشة الهاتف الجوال، أخذ قراره وهمَّ بأن يضغط على الزر الأحمر ولكنها استوقفته قائلةً:

ـ رُد على الاتصال.

أطلَّت من عينيه نظرة امتنان وأجاب على الاتصال:

ـ نعم يا أيمن، ماذا وراءك أيها المنحوس؟

ـ جريمة جديدة يا باشا.

ـ الله يخرب بيت أخبارك الكئيبة يا نحس!

ـ وما ذنبي يا باشا؟

ـ ذنبك أنك منحوس.

لم يرد عليه النقيب أيمن الذي كان يكظِم غيظه، وينتظر رد العقيد المتردد في قراره وهو ينظر إلى سحر التي اتسعت ابتسامتها المطمئنة فقال:

ـ أنا قادم حالًا.

ـ هل تحب أن أرسل لك السائق على البيت يا باشا.

ـ كلا، على بيت أم زوجتي، هل تعرفه؟

ـ نعم يا باشا أعرفه...

صمَت النقيب أيمن قليلًا، ثم جاءت نبرة صوته مرتبكةً:

ـ لكن كيف يا باشا؟

ـ هل ستتغابى الآن يا أيمن؟

لم يأته رد أيمن سريعًا الذي أفاق على صوت العقيد:

ـ أنت أيها المنحوس!

ـ نعم يا باشا، تمام، على بيت الحاجة، إنها بالجوار، ثوانٍ وسيكون السائق عندك.

أنهى الاتصال وهو ينظر متأسفًا إلى سحر، فقالت بتفهم:

ـ أعلم يا صبري كم تحب عملك، أنت مريض بعملك وأوافق على ذلك.

ـ حسنًا إذن؛ سنعود لبعض مرة أخرى...

صمت قليلًا وهو يستغرب من ذلك الارتباك الذي يعتريه، وحسَم أمره قائلًا:

ـ لِنَعُد يا سحر.

ـ الخميس القادم أكون رتَّبت أموري.

ـ الخميس القادم.

هزت رأسها ثم استدركت قائلةً، وقد تذكرت شيئًا:

ـ بالمناسبة، ستقوم بتغيير الحمام يا صبري.

ـ لماذا؟

ـ هل ستناقشني في هذا الأمر مرةً أخرى؟

ظل يُتَمتِم في ضيق، فقالت هي في دلال:

ـ توقف عن الهمهمة.

نفخَ نفخةً قويةً، وقال من بين ضروسه:

ـ سأفعل، ولكن ليكن هذا الأمر عند رجوعك.

تراجعت في مقعدها قائلةً بحزمٍ مصبوغٍ بدلال:

ـ قبل العودة يا صبري، أنا أعرفك جيدًا، يومك بعامٍ كامل، وستختلق لي كل حين الأعذار.

ـ حسنًا... حسنًا، لا تكوني لحوحةً منذ هذه اللحظة على الأقل.

لم تُعلِّق، فهي تعلم حدودها ومتى تتوقف حتى لا ينفجر في وجهها، رن هاتفه الجوال مرةً أخرى، تطلع إلى الشاشة، ثم وقف ينظر من خلف سور الشرفة إلى سيارة (البوكس)؛ التي ركنت إلى جانب رصيف العمارة، وقفت إلى جواره تطلع إلى ما يتطلع إليه، تبادلا النظر لثوان، وقال هو في ضيق:

ـ أعتذر لكِ يا سحر ولكن مضطر للرحيل الآن.

ـ أعرف.

ـ سأراكِ الأسبوع المقبل.

ـ كلا.

ـ ألم نتجاوز مرحلة التدلل هذه وقد كبِرنا على هذا الأمر.

ـ ليس هذه المرة يا صبري.

هز رأسه ثم غادر الشرفة وهي تتبعه إلى منتصف الصالة؛ حيث كانت تجلس والدتها التي نهضت من على الأريكة فور رؤيتهما، كانت وثبَتُها من على الأريكة سريعةً رغم ألم مفاصل الركبة التي تعاني منه، جزَّت على أسنانها وهي تنهض بشكل سريع، ولكن ما يحدث الآن يتجاوز آلام مفاصل الركبة لديها، القلق يأكل ملامحها ويزيدها تجعيدًا.

ـ خير يا ابني.

ـ بالمناسبة يا حاجة، أنا وسحر سنعود لبعضنا، أين الزغرودة يا حاجة.

كاد يضحك وهو يرى وجهها يكاد ينفجر ويزداد احمرارًا، ثم تنظر لسحر التي تحاول أن تَكتُم ضحكتها، وهي تشاهد وجه أمها المذهول.

ـ حسنًا يا ابني... حقًّا... أقصد... آه!

هم بأن يتحرك، ولكنه توقف قائلًا:

ـ بالمناسبة يا حاجة؛ الشاي كان مُرًّا جدًّا.

ضربَتهُ سحر في كتفه وهي تواري ضحكتها، في حين لم يضحك هو لأن ملامحه كانت تنطوي على الغيظ، هزت العجوز رأسها ولم تعقب، في حين اتجه هو إلى باب الشقة يفتحه، وقبل أن يُغادِر قال لسحر وهو ينظر بطرف عينه للمرأة العجوز المذهولة:

ـ الخميس القادم يا سحورة.

تجاهلت سحر تلميحه وقالت بابتسامة هادئة:

ـ السلام عليكم يا صبري.

ـ وعليكم.

هبط درجات السلم سريعًا في حين هتفت هي به:

ـ ألن تركب المصعد؟

ـ تعلمين أن بيني وبين هذه الأشياء مصانع الحداد.

استكانت ملامحها وهي تغلق باب الشقة بعد أن اختفى عن ناظريها، في حين أجرى هو اتصالًا بأيمن:

ـ اسمعني جيدًا يا أيمن.

ـ نعم يا باشا.

ـ هل أنهيت توضيب شقتك أم لا؟

ـ لم أنتهِ بعد. شكرًا على السؤال يا باشا.

ـ أي سؤال يا حمار؟

ـ مُرْني يا باشا.

ابتسم العقيد لرنَّة الغضب المكتومة في صوت أيمن وهو يسأله:

ـ هل أنهيت عمل السيراميك في شقتك؟

ـ عامل السيراميك سيأتي أول الأسبوع القادم ليُتِم عمله قبل البدء في أعمال الطلاء.

ـ حسنًا، أرسله لي بعد أن ينهي عمله عندك.

كان قد وصل إلى مدخل العمارة وهو يضيف:

ـ كلا، أرسله لي أولًا.

ـ خير يا باشا.

ـ سأغير الحمام أيها الفضولي.

ـ مبروك يا باشا.

ـ توقف عن النفاق يا أيمن.

ـ أوامرك يا باشا.

ـ هناك أمرٌ آخر.

لأول مرة يبادل العسكري التحية العسكرية وهو يدور حول السيارة ليأخذ مكانه بجوار السائق مُضيفًا:

ـ هل فارس معك؟

لم يرد عليه أيمن فورًا ولكنه قال بصوت متردد:

ـ الحقيقة هو معي الآن.

اتسعت ابتسامة العقيد وهو يقول:

ـ حسنًا، لن أستغرب أيضًا إذا قلت إنك لم تودعه الحجز كما أمرتك.

ـ يا باشا أنت صاحب قلب طيب، هذا الشاب محترم، ولن يكون من اللائق وضعه مع بضعة أوغاد في الحجز.

ـ هل تخاف يا بغل من زوج عمته اللواء مدحت؟

ـ يا باشا طول عمرك صاحب قلب كبير.

ـ انتظر، سيكون حسابك عسيرًا.

ـ أطال الله في عمرك يا باشا!

أعقبها بضحكة بدَت للعقيد سمجةً، فأنهى الاتصال وهو يتطلع من نافذته إلى الطريق المزدحم والسيارة تتحرك تحاول أن تجد لها منفذًا وسط ذلك الازدحام الشديد.

* * *

(٢)

ـ أين أنت يا باشا؟

ـ أقتربت من المكان، أني أرى جسر العامرية.

ـ القتيل هذه المرة ليس بِمُفرده يا باشا.

ـ ماذا تعني؟

ـ هناك قتيلان.

ـ هل هذا القاتل يعاني من الفراغ ليقتل كل هؤلاء؟

ـ في انتظار سيادتك يا باشا.

أنهى أيمن الاتصال وهو يستديرُ لفارس الذي يدور في الحجرة يتطلع إلى الجثة، كان هناك مصور جنائي يلتقط عددًا من الصور للمكان، في حين وقف عسكري وأمين شرطة على باب الغرفة ينظران بدهشة إلى ما تحتويه هذه الغرفة فقد كان مذهلًا.

أكثر ما لفت نظر فارس هو العبارة التي كُتِبت بواسطة "أسبراي" أحمر اللون على الحائط الأيمن للغرفة.

قرأها عدة مرات وحاول أن يفهم ما المقصود منها، توقف عن محاولة الفهم وقرر الاتصال بالدكتور معاذ، رن الهاتف لعدة مرات ولكن ما من مجيب، أنهى فارس الاتصال، وقرر أن يستخدم محرك البحث جوجل ليبحث عن هذه الجملة.

تقدم منه أيمن متسائلًا:

ـ هل هي رسالة أخرى من رسائل هذا المجنون؟

كان فارس مشغولًا فرد عليه بلامبالاة واقتضاب:

ـ نعم.

ـ من الإنجيل أيضًا.

ـ لا أعلم.

تركه أيمن وأخذ يدور في الحجرة؛ يشاهد الطريقة الاستثنائية التي قُتِلت بها الضحية الشابة، كتب فارس العبارة وانتظر نتائج البحث التي توالت أمامه.

- خطبة فاطمة الصغرى.
- سبي أهل بيته... العتبة العباسية المقدسة.
- لماذا يبكي الشيعة مقتل الحسين [الأرشيف].
- AL SerdaaB.

• **منهاج السنة.**

نتائج البحث لا تبدو تتسق مع كل ما سبق، تبدو مُربِكةً لأقصى حد، العبارة التي ظلت تتضخم برأسه، "أن نتائج البحث تبدو غير منطقية".

التفَتَ فارس وراءه كأنه يرى الجثة لأول مرة، ذلك السهم الذي يخترق رقبة الجثة جاحظة العينين، يد الضحية اليسرى محشورة في صندوق معدني مربع يتدلى من السقف بواسطة سلسلة معدنية غليظة، ويده الأخرى إلى جواره.

هاتف جوال آخر يتدلى من السقف على مسافة قريبة جدًّا من وجه الضحية. وسلك معدني مقطوع يتدلى بالقرب من يد الضحية اليمنى، تتبع فارس السلك المعدني الممتد عبر سقف الغرفة حتى ماكينة قوس الأسهم الآلية التي تتدلى من السقف من خلال عمود معدني يثبتها إلى السقف.

يستطيع أن يرسم بالكامل الصورة في مخيلته، ولكنه يعجز عن استعراضها كشريط سينمائي كما تعود أن يفعل دائمًا في مسارح الجرائم السابقة.

عقله مشغول إلى أقصى حد بنتائج البحث التي تتابعت أمامه على جوجل.

اختار العنوان الذي لفت انتباهه أكثر: "سبي أهل بيته – العتبة العباسية المقدسة"... لماذا تبدو الأمور كلها غير منطقية؟

الصفحة يتم تحميلها ببطء. عقد بين حاجبيه وهو يرى الصورة التي تتشكل أمامه أعلى الصفحة. لفت نظره العنوان (النهضة الحسينية) ...

تحرك قليلًا للأسفل ليقرأ أول فقرة، فزاد هذا من ارتباكه ودهشته أكثر، ما يقرأه يجعل القضية تنحرف أكثر عن مسارها الذي كانت تسير عليه منذ بدأ القضية.

"بعث عمر بن سعد برأس الحسين عليه السلام في يوم عاشوراء مع خولي بن يزيد الأصبحي..."

حرك الصفحة للأسفل مرةً أخرى حتى وصل إلى المقطع المطلوب: "فقال علي بن الحسين عليه السلام: تنوحون وتبكون من أجلنا فمن ذا الذي قتَلَنا؟!"

عاد لينظر مرةً أخرى على الحائط: "تنوحون وتبكون من أجلنا فمن ذا الذي قتلنا؟!"، ولكنها منسوبة إلى الإمام على بن الحسين، كان يتوقع أن تكون منسوبةً إلى أحد القساوسة أو القدسين، ولكن أن تكون منسوبةً إلى الإمام زين العابدين، فهذا شيء لم يكن يتوقعه على الإطلاق.

رن هاتفه ليظهر اسم الدكتور معاذ فأجاب الاتصال قائلًا بشرود:

ـ أهلًا يا دكتور.

ـ اعذرني يا فارس كنت في الحمام وقت اتصالك، خيرًا، هل هناك جديد بشأن القضية؟

ـ نعم.

ـ فلتُخبِرني، هل يجب أن تحيط الأمر في كل مرة بجو من الريبة والإثارة؟

ـ تنوحون وتبكون من أجلنا فمن ذا الذي قتلنا؟!

ـ ماذا؟

رد فارس بضيق:

ـ هل تحب أن أعيدها على مسامعك مرةً أخرى يا دكتور.

ـ كلا، أنا فقط مندهش، هل تعلم من قائل هذه العبارة؟

تنهد فارس وهو يقول:

ـ عندما اتصلت بك ولم ترد، قمت بعمل بحث عن هذه العبارة على الجوجل، وعرفت أن قائلها هو الإمام علي بن الحسين.

ـ حلو هذا الجوجل، يعرف كل شيء.

لم يكن ذهن فارس صافيًا ليستقبل أي مداعبة أو مزحة من الدكتور وظل صامتًا لوهلة ثم قال:

ـ ما أريد أن أعرفه الآن ما هو الرابط بين كل رسائله المسيحية في الجرائم السابقة والتحول الغريب للإسلام في الجريمة الحالية؟

ـ كلا يا فارس لقد سألت السؤال الخاطئ، تقصد أن تقول ما هي العلاقة بين المسيحية والمذهب الشيعي؟

ردد فارس باندهاش:

ـ الشيعة!

لفتت الكلمة انتباه أيمن الذي توقف عن السير في الغرفة متطلعًا باهتمام إلى فارس الذي أكمل:

ـ ماذا تعني بهذا الكلام يا دكتور؟

ـ يجب أن أقوم بترتيب بعض الأمور في عقلي أولًا قبل أن أجيبك على هذا السؤال، وهذا يعتمد على بضعة أسئلة سأطرحها عليك.

ـ حسنًا.

ـ كيف ماتت الضحية الحالية؟

ـ بسَهمٍ في العُنق.

ـ والضحية السابقة كانت مَصلوبةً، أليس كذلك؟

ـ نعم، ولكن هذه المرة هناك ضحيتان في جريمة واحدة.

ـ حسنًا؛ والضحية الثانية في هذه الجريمة كيف ماتت؟

ـ مسمومًا.

- ذكرني بالسابقين لأن ذاكرتي ضعيفة.

- حسنًا، ولكن هل من الممكن أن أفهم أولًا؟

لأول مرة يسمع فارس نبرة حنق في صوت الدكتور:

- لا تقطع حبل أفكاري يا فارس وأخبرني.

- ضحية تم صلبها.

- ذكرناها من قبل.

- حسنًا، هناك ضحية دهستها سيارة.

- والأول.

- فُصِلت رأسه.

ساد الصمت بينهما لثوان، كانت بالنسبة لفارس دهرًا كاملًا، حاول أن يمني نفسه بالصبر حتى يسمع صوت الدكتور مرةً أخرى، ولكن طال الصمت فهتف فارس في ضيق:

- ما الأمر يا دكتور؟ لماذا أطلت السكوت؟

- هذه الجرائم خلفياتها شيعية بامتياز يا فارس، وليست مسيحيةً كما كنا نعتقد، القاتل يتلاعب بنا ويقوم بتوجيه نظرنا لزاوية مختلفة تمامًا.

المفاجآت التي تتوالى على فارس أكثر مما ينبغي وعندما قرر أن يسأل الدكتور كانت مخارج الألفاظ لديه بطيئةً وكأن عقله لم يعد قادرًا على استيعاب كل هذه المتغيرات دفعةً واحدةً:

ـ ما معنى كل هذا يا دكتور؟

ـ الضحية التي فُصِلت رأسها هي رأس الإمام الحسين بن الإمام علي، وقد حدث هذا في موقعة كربلاء على يد جيش يزيد بن معاوية، هل تعرف هذه القصة؟

ـ لا أتذكر التفاصيل، ولكن أكمل لو سمحت رؤيتك بشأن باقي الضحايا.

ـ الضحية التي تم صلبها هو زيد بن علي بن الحسين، والضحية التي ماتت مسمومةً ـكما ترجح بعض مرويات التاريخـ هو الإمام الحسن بن علي، والضحية التي دُهِست هو أيضًا الإمام الحسين وفق بعض المرويات الشيعية...

وأيضًا تجد لها صدى عند مرويات أهل السنة: أن هناك عددًا من الخيالة دهسوا جثمان الحسين بعد قتله بسنابك الخيول كنوع من التمثيل والتنكيل بجثته، والضحية التي ماتت بسهم في عنقها هو عبد الله بن الحسين: طفل صغير...

وكان ذلك في معركة كربلاء، ووفق المرويات الشيعية: عندما كان يحاول الحسين الاقتراب به من بئر مياه ليسقيه شربة ماء أصابه أحد رماة الأسهم في عنقه من جيش يزيد بن معاوية.

ـ إذن؛ أحداث القتل بهذه الطريقة لها دلالات تاريخية عند الشيعة.

ـ نعم.

ـ حسنًا، وكيف فهمناها نحن بطريقة خاطئة وهي في نفس الوقت ترمز لأحداث مسيحية مطابقة في طريقة القتل؟

ـ مثل هذا الكلام لا يصلح تداوله في حديث هاتفي، يجب أن نجلس ونتناقش في هذا الأمر لأنه سيطول الحديث فيه.

هز فارس رأسه في خيبة أمل، وفي اللحظة التي أنهى فيها الاتصال واضعًا الهاتف الجوال في جيبه، كان العقيد قد وصل للغرفة وقد تقلصت ملامحه بشدة وهو يشاهد مسرح الجريمة. اقترب من فارس الذي بادله نظرات باردة لائِمة.

تجاهل العقيد نظرات فارس وقال:

ـ ما هي الأخبار يا فارس؟ هل وصلت لشيء؟

تجاهل فارس الأمر أيضًا وحاول أن يتخطاه بقوله في جدية:

ـ هناك تحول كبير في مسار القضية.

هذا ما جعل معدة العقيدة تتقلص هي الأخرى لتتشارك مع ملامح وجهه وهو يسأل في قلق:

ـ لماذا؟

ـ الدوافع وراء هذه الجرائم ليس لها علاقة بالمسيحية، ولكن لها علاقة بالشيعة غالبًا.

صرخ العقيد، ولكن فارس قد اعتاد ذلك ولم يتأثر:

ـ ماذا؟ هل تمزح؟

لوح بيده يقول في سخرية غاضبة:

ـ لقد ألقيت القبض أمس على ذلك الشاب المسيحي الذي كان على تواصل مع القسيس الذي قمت باستجوابه.

ـ وكيف لي أن أعرف أنك فعلت ذلك؟

ـ كان من الواجب أن أفعل ذلك، هل تريدني أن أظهر أمام المسؤولين في الداخلية أنني لا أعرف ما يدور خلف ظهري؟

لقد ذهبت لمعارف لي في النيابة، واستخرجت قرارًا من النيابة لاستجواب القسيس، وجعلت التحقيقات كلها ذات صفة رسمية، وأفهمت القيادات العليا أننا كنا نريد أن نجعل الأمر بشكل ودي فقط...

ولكن طالما الطرق الودية أزعجت الكنيسة؛ قررنا أن نجعلها في إطارها الرسمي...

وهم لاموني لأني لم أجعلها رسميةً منذ البداية، وابتلعت اللوم بصعوبة، وقمت باستجواب القسيس، وكما توقعنا هاتَفَ القسيس المشتبه به، ولكن الحمد لله كنا قد وصلنا للمشتبه به قبل أن يهرب على بوابة الإسماعيلية...

كان في طريقه من القاهرة للإسماعيلية ليتوارى في شقة أحد أصدقائه هناك، وسيتم ترحيله غدًا من القاهرة للإسكندرية...

توقف قليلًا ليأخذ نفسه، وقد انفعل بشدة وصدره يعلو ويهبط بسرعة ثم قال في نفس وتيرة غضبه:

ـ فتأتي أنت وتقول لي أن المسيحيين بريؤون من كل هذه الجرائم، هل ترى الأمر مجرد لعبة سخيفة؟

تفاجأ العقيد بأن فارس أمسكه من ذراعه اليمنى يحثه على السير إلى الحائط الذي كُتِبت عليه العبارة التي غيرت مسار القضية بالكامل.

ـ هل ترى سيادتك هذه العبارة؟

ولكن العقيد تجاهله ناظرًا باستنكار ليد فارس، فأفلَت فارس ذراعه في ارتباك؛ فأعاد العقيد بِبُطء النظر للعبارة وعيناه تحمل صبغة استهجان لفعل فارس، ثم قال بلامبالاة محمولة على السخرية:

ـ مالها؟ هل تحتاج إلى ترجمة مثلًا؟ القاتل لأول مرة يسهل علينا الأمر، ولا يلجأ لحيلة الشفرة السخيفة هذه، ويكتب عبارةً واضحةً.

قال فارس بنفاذ صبر:

ـ هذه العبارة للإمام علي بن الحسين.

ـ أليس هذا من تزوج بنت النبي.

ـ هذا حفيده.

ـ لا يوجد فارق، ما أمره؟!

ـ ألا تستطيع سيادتك ملاحظة الفارق؟

قالها فارس بسخرية واضحة جعلت العقيد ينظر إليه بغيظ لبعض الوقت ثم قال ببطء من يفكر:

ـ تقصد أن الأمر عبارة عن صراع بين مسلمين وليس مسلمين ومسيحيين.

ـ نعم؛ ويرتبط بالشيعة.

ـ بالشيعة... كيف ذلك؟

ـ كما ترى سيادتك، القاتل ظل يخدعنا طوال الوقت ويصرف نظرنا عن الدافع الحقيقي للقتل، وورطنا في اتهام أطراف أخرى بريئة.

ـ عذرًا، هو بذلك يكون القاتل الأكثر حمقًا إذا كان يفكر بهذه الطريقة.

ـ لماذا؟

هنا أقحم أيمن نفسه في الحوار قائلًا:

ـ لأنه بهذه الطريقة يفضح أمره وبطريقة ساذجة للغاية، إذا كان يريد صرف أنظارنا فعلًا عن المتهم الأصلي، فلن يفضح نفسه بهذه الطريقة أبدًا، المفترض أننا لا ندرك خديعته هذه والأغرب أن نصل إليها من خلاله.

قال العقيد بسخرية يُخالِطُها الغضب ولكن كانت نبرته هادئةً هذه المرة:

ـ حتى أيمن فهمها!

"هذا صحيح"، تضخمت هذه العبارة في رأس فارس، كيف لم يلحظ ذلك؟ شعر بالغضب يتسلل إلى كل جسده، الغضب من أن عقله لم يعد يعمل بالشكل الملائم، كيف لم يدرك ذلك منذ البداية؟

رفع فارس عينيه إلى العقيد الذي التقط إحدى سجائره يشعلها وفارس يقول:

ـ هذا يعني أن القاتل يستهزئ بنا، وهناك هدف أبعد من فكرة الاستهزاء وحدها.

تساءل أيمن:

ـ وما هو؟

ـ هناك رسالة وراء هذا الأمر، رسالة أكبر مما نتصور، الموضوع ليس أنه يقتل ضحاياه على خلفية تاريخية فقط، ولكنه يريد أن يبلغنا رسالةً معينةً لم أصل لمفادها حتى الآن.

ـ ومن يستطيع أن يُفهِمَنا رسالته الخفية.

أدارَ فارس عينيه إلى العقيد بعد أن سأل سؤاله هذا ولكنه لم يجب، فضَّل أن يبقي الدكتور معاذ بعيدًا عن مسار القضية، فهو يعلم كراهية الدكتور للشرطة، وهاجِسه الدائم من الشرطة وعدم رغبته في التعامل معهم.

تخطى العقيد هذا السؤال لأنه لم يكن يتوقع إجابةً فوريةً من فارس، وألقى نظرةً لا مباليةً على الجثة تمتزج بالاشمئزاز.

ـ كيف قُتِلت الضحية؟

استحضر فارس المشهد السينمائي بالكامل الذي رسمه في مخيلته لكيفية مقتل الضحية، وأخذ نفسًا ثم قال في هدوء:

ـ انظر لهذا السلك المعدني الرفيع المتدلي من السقف والمقطوع في نهايته.

رفع طرف السلك المقطوع أمام العقيد الذي قرب وجهه من السلك ثم عاد لوقفته الطبيعية وهو يسحب نفسًا آخر من السيجارة منتظرًا مزيدًا من الإيضاح من فارس الذي قال:

ـ هذا السلك يمر عبر السقف في حلقات كما ترى وطرفه الآخر معقود في مفتاح عداد رقمي.

تحركا باتجاه القوس الآلي، هز أيمن رأسه وهو يقول بانبهار:

ـ صحيح، لم ألحظ ذلك منذ البداية.

ابتسم العقيد في سخرية وهو ينظر لأيمن، ثم أعاد التركيز على وجه فارس الذي قال وهو يتحرك بحماسة باتجاه الجثة، ويُشيرُ بسبابته إلى يد الضحية اليُمنى:

ـ نهاية طرف السلك المقطوع كان مربوطًا بأصبع الضحية الأوسط.

انحنى كل من أيمن والعقيد يتطلعان إلى السلك، ثم انتصبا كتلميذين يُنصِتانِ باهتمامٍ شديد لشرح فارس؛ الذي اتجه إلى يد الرجل اليسرى التي تمزقت تمامًا وقد غطَّتها الدماء، يتبعه الرجلان، وأصابع الضحية مُتشنجة وملوثة بالدماء.

ـ القتيل كان يحاول أن يأخذ من هذا الصندوق المعدني مفتاحًا حتى يستطيع به فك الطوق المعدني المحيط برقبته، والمثبت إلى سقف الغرفة بواسطة عمود معدني.

سأل أيمن في بلاهة:

ـ ولماذا قام بتثبيت رأسه على هذا النحو؟

نظر له العقيد بنوع من الضيق، وترك المجال لفارس ليعقب وهو يشير بيده اليمنى لآلة القوس وشاشة رقمية أعلاها:

ـ حتى تكون رأسه في مرمى السهم المجهز للانطلاق من القوس، والعداد الرقمي يقوم بدور العد التنازلي لانطلاق السهم.

تراجع أيمن مبهوتًا وهو يقول ببلاهة:

ـ إنه مجنون بحق.

ـ إنه فعلًا مجنون.

سأل العقيد أيمن في اهتمام:

ـ الطبيب الشرعي عندما كشف على الجثة؛ هل حدد ساعة الوفاة؟

رد أيمن:

ـ قال إنها ماتت منذ ساعة فقط.

ـ ومتى تم التبليغ عن اختفاءه؟

ـ لم يبلغ أحد عن اختفائه، وعندما سألنا زوجته قالت إنه نزل منذ الساعة التاسعة صباحًا.

نظر العقيد إلى ساعته ثم قال:

ـ الساعة الآن الثالثة عصرًا، لو افترضنا أن القاتل اختطفه التاسعة صباحًا، ثم ساقَهُ إلى هنا في حدود العاشرة صباحًا، ولأنه مات منذ ساعة، أي أنه مات في الثانية ظهرًا، إذن هو بقي على هذه الوضعية قبل موته أربع ساعات كاملة.

قال فارس:

ـ نعم.

هز العقيد كتفيه وأشار للجثة قائلًا:

ـ وما الذي جعله يصبر كل هذا الوقت؟ لو نظرت إلى عداد الوقت ستجد أنه مضبوط على عد تنازلي لعشر ثوانٍ فقط، إذن كان لديه فرصة لا بأس بها ليحرر نفسه قبل أن يصيبه السهم، ما الذي جعله يصبر أربع ساعات كاملة قبل أن يحاول تحرير نفسه؟

قال فارس مشيرًا إلى الهاتف الجوال المُتدلي من سقف الحجرة قريبًا من وجه القتيل:

ـ هذا الهاتف الجوال.

اتجهت أنظار العقيد وأيمن للهاتف الجوال فتابع فارس:

ـ لقد تفحَّصتُ هذا الهاتف الجوال وجدت أن آخر مكالمة وردت إليه كانت الساعة الثانية إلا خمس دقائق.

قال العقيد وقد بدأت تنتقل إليه عدوى الشعور بالحماس من فارس:

ـ هذه من القاتل طبعًا.

ـ نعم.

ـ والهدف.

ـ يُبلِغُه برسالة.

ـ وهي.

تدخل أيمن قائلًا:

ـ في توقيت قريب من توقيت مقتل الضحية الماثلة أمامنا يا باشا كان والد الضحية في مخازن الخشب الخاصة به في منطقة الواحد والعشرين، قد مات بعد أن تجرع سمًّا، عمال المخزن أجمعوا على ذلك.

ـ هل تجرع هذا السم أمام العمال؟

ـ نعم.

ـ غريب!

قال فارس:

ـ الهاتف الجوال الذي كان يمسكه والد القتيل قبيل تجرعه السم، مسجل به آخر اتصال من القاتل.

قال العقيد بسخرية وإحباط:

ـ وكالعادة يتضح أن هذا الخط مسروق.

قال أيمن:

ـ نعم يا باشا.

نفخ العقيد في قرَف ثم قال:

ـ لهذا انتظر هذا القتيل كل هذه الفترة قبل أن يحاول تحرير نفسه ويفشل في ذلك.

ـ وكان طبيعيًّا أن يفشل.

قالها فارس بثقة وأضاف:

ـ يجب أن تلاحظ أنه بقي على وضعه هذا لأربعة ساعات، أضف إليهم القلق والتوتر والحالة النفسية السيئة التي انتابته، كل ذلك أنـهَكَ قواه، ثم استقبل مكالمةً من القاتل تُخبره بأن والده قد مات، كل هذا أثر فيه بشكل سلبي؛ أعجزَهُ عن تحرير نفسه بسرعة... لو لم تجتمع عليه كل هذه العوامل السلبية لربما كانت أمامه فرصة حقيقية للنجاة، ولكن القاتل خطط للأمر جيدًا في أن تفشل الضحية في النهاية بالإفلات من الموت.

ـ القاتل مجنون بدرجة عبقري.

ـ هو بالفعل كذلك.

وضع العقيد سبابته على شفتيه وهو يقول في بُطءِ المُنشغل بفكرةٍ ما:

ـ ألم تلاحظ أمرًا ما في كل هذه الجرائم يا فارس.

ـ ما هو؟

أدار وجهه إلى أيمن وقد تلونَت عيناه بنظرة ساخرة يسأله:

ـ أو أنت يا حمار؟

قال أيمن بضيقٍ مكتوم:

ـ كما قلت سيادتك: أنا حمار!

هز العقيد رأسه ثم رفع سبابته اليمنى عاليًا في حركة مسرحية وقال مزهوًا بنفسه:

ـ القاتل في كل مرة لم يقتل الضحية بنفسه، دائمًا ما يجعل الضحية تقتل نفسها، بالإضافة إلى أنه يترك فرصةً ضئيلةً للضحية لأن تنجو من الموت، ولكنها أشبه بالفرصة المستحيلة عمليًّا، وكما شاهدنا في كل هذه الجرائم أنه لم تنجح ضحية واحدة في الإفلات من الموت.

كعادته انطلق أيمن يثني على ملاحظات العقيد الذي كعادته أيضًا ينظر له باستحقارٍ شديد، ثم يقطع وصلة مديحه متجهًا إلى فارس يقول:

ـ أريدك كما فعلت في المرات السابقة أن تحكي لي ما الذَّي حدث تحديدًا؟

...

ـ أين أنت يا حمدي؟

ـ في الطريق يا حاج.

ـ أسرع يا بني الساعة الآن التاسعة.

ـ حاضر يا حاج، سأعمل على القدوم سريعًا، لا تقلق.

...

"أنهى حمدي الاتصال مع والده وهو يتجه إلى سيارته أمام مدخل عمارته، على الرغم من كونها التاسعة صباحًا إلا أن الشارع بدا صامتًا كعادته، كفر عبده كلها تبدو في هذا الوقت حتى الساعة الثالثة عصرًا في حالة موتٍ تام...

يكره هذا الحي كثيرًا، ولم يهنأ بالعيش فيه يومًا، ولكنه انصاع لرغبة زوجته في السكن بهذا الحي لتكون قريبةً من والدتها، حتى بواب العمارة كان يغط في نومٍ عميق، أو ربما كان في إحدى المشاوير كالعادة أيضًا.

اقترب من سيارته وهو يخرج مفتاح السيارة، استوقفته يد من كتفه بشكل غليظ، فالتفَتَ بحدة يتطلع إلى صاحب اليد الذي بادَرَهُ برشِّ شيءٍ ما من بخاخةٍ في يده على وجهه، فتراجع حمدي بحدة للخلف حتى اصطدم ظهره بباب سيارته وهو يضرب الهواء بكلتا يديه، سعَلَ

بشدة والآخر يبتعد عنه بضعة خطوات في ثقة تامة وهدوء، يتطلع إليه بلا مُبالاة غريبة.

مسحَ حمدي وجهه بعصبية وهو ينظر بغضب إلى صاحب البخاخة، كان ضخمًا بشكل واضح، زَعَقَ فيه:

ـ هل جُننْت؟

لم يجب عليه الآخر، ولكنه أمالَ رأسه لليمين قليلًا وهو ينظر لحمدي وعلى ركن شفته اليمنى ابتسامةٌ ساخِرة، هكذا بدَت لحمدي الذي جُنَّ جنونه.

حاول أن يتقدم منه حمدي ولكن قدميه لم تقويا على التحرك، خدرٌ غريب يتسلل إلى كل جسمه وقبلها عقله، لماذا يشعر بتنميل في رأسه؟ تنميل يغزو رأسه من كل ناحية... غريب!

دفع نفسه بكل قوة باتجاه ذلك الآخر وهو يحاول بيديه أن يطالَ وجهه، وصلت يديه بالفعل إلى وجه الآخر وحاول أن يضربه، ولكن الآخر دفعه عنه فسقط حمدي أرضًا، فقدماه لم تعودا قادرتين على حمله.

نظر حمدي إلى يديه ليجد أنهما قد تلطختا بمسحوق ما، نظر إلى وجه الآخر الذي التقط من جيبه منديلًا يمسح به وجهه ليتبدل لون جلده من تلك السمرة إلى بشرة قمحية".

ـ كيف عرفت أن القاتل كان متنكرًا؟

أشار فارس إلى أظافر القتيل اليمنى ليجد عليها آثار مسحوق.

هز العقيد رأسه وهو ينتصِبُ واقفًا ومعه أيمن؛ الذي تنهد وهو يهز رأسه قائلًا في خُفوت:

ـ أنت عبقري يا فارس، لديك خيالٌ خصب.

لم يُلقي الاثنان بالًا لتعليق أيمن، وأخذ فارس نفسًا عميقًا وهو يعود لتصوره السينمائي عما حدث.

"ما الذي يحدث؟ لماذا يهاجمني؟ الآخر ينظر يمينًا ويسارًا بقلق، يخشى أن يظهر شخص ما بناصية الشارع اليمنى أو اليسرى... رفع رأسه أيضًا عاليًا يستطلع الشرفات والنوافذ، وجدها كلها مغلقة، أزيز المكيفات يعطيه الإجابة لماذا كل النوافذ والشرفات مغلقة في هذا الوقت من الصباح.

شعر ببعض الارتياح وعاد ليركز بصرَهُ على حمدي الذي يحاول أن ينهض ولكن يفشل، ينظر إلى ساعة يده وقد عاوده القلق مرةً أخرى ثم ينظر إلى حمدي كأنه يرجوه أن يتخدر سريعًا.

لم تمضِ ثوانٍ على أُمنيته حتى استسلم حمدي تمامًا لتأثير المخدر ونام كطفلٍ هادئ، تنهد القاتل وهو يميل نحوه يرفعه على كتفه الأيمن

ويسيرُ به نحو سيارة دفع رباعي، يضعه في المساحة الخلفية للسيارة ويغلق الباب الخلفي للسيارة عليه.

يتخذ مكانه خلف المقود ويدير محرك السيارة وينطلق اتجاه مكان الإعدام، يستعيدُ ذلك الجو الهستيري الذي صاحب إعداده لمنصة الإعدام الفريدة من نوعها هذه.

هاتفه الجوال على أرضية الغرفة وهو يركب آلته باعتناءٍ شديد وسعادةٍ مُستَغرَبة؛ كأنه يُشَكِّلُ بيديه منحوتةً جميلة ويستمع إلى أناشيد دينية تزيده حماسةً.

"يا علي يا وصي ... يا أخا المصطفى"

يردد مع المنشد عبارته في حماس وابتسامته تتسع، يسمع بين كل حين وآخر أصوات بعض الناس يمرون من أسفل هذا البيت الصامت جدًّا في هذه المنطقة النائية نسبيًّا.

يوقف السيارة أسفل مدخل البيت القديم في ذلك الشارع الترابي بمنطقة الناصرية، يدور رأسه في كل اتجاه ليتأكد من خلو الشارع تمامًا، ينظر إلى ساعته، يتأكد أن كل شيء يسير وفق الجدول الموضوع لعمليتي إعدامٍ هو مقبل عليهما.

يطمئنُّ إلى أن كل شيء يسير هادئا ميسرًا، هذا تيسيرٌ إلهي ولا شك في ذلك.

يفتح الباب الخلفي للسيارة ويخرج منها جسد حمدي، يحمله مرةً أخرى على كتفه الأيمن، ثم يتجه لمدخل البيت القديم، يفتحه ويصعد طابقين حتى يصل إلى الغرفة المنشودة.

يُلقي الجسد أرضًا؛ والذي يصدر أنَّةً واهِنَةً، يحاول حمدي أن يفتح عينيه ولكن دون جدوى، الرائحة بالداخل عطنة والإضاءة شاحِبة إلا من حِزَمٍ ضوئية تتسلل للداخل بصعوبة من فتحات الشيش.

يستسلم حمدي لحالة الخدر هذه، ويغلق عينيه تمامًا، وكان آخر ما شاهده هو قدمي الآخر التي تسير باتجاه شيء ما.

عندما بدأ يستعيد وعيه تدريجيًّا حاول أن يفتح عينيه مرارًا، ولكن جفنيه بديا ثقيلين، أخيرًا استطاع أن يفتحهما، وأول ما لمحه ذلك الآخر الذي يوليه ظهره، ويكتب بإسبراي شيئًا ما على الحائط الأيمن، لا يستطيع أن يتبينه جيدًا...

الصور تبدو مهزوزةً أمامه... يغلق عينيه بقوة كأنه يحاول الاستيقاظ من سُباتٍ عميق، ويفتح عينيه مرةً أخرى يحاول أن يستجلي الصورة أكثر، ولكنها تبدو مشوشةً مرةً أخرى، انتهى الآخر من كتابة شيء ما على الحائط، استدار له الرجل الضخم، وبشكلٍ غريزي تسارعت دقات قلب حمدي أكثر، يشعر أن عنقه مطوق.

يحاول أن يتكلم ولكنه يستشعر ثقلًا في لسانه، يسعل بقوة، يشعر بحرقان في حلقه، يطبق شفتيه وهو يحاول أن يدير رأسه فيما حوله.

للمرة الأولى أيضًا يلفت نظره ذلك القوس الآلي الموجهة مباشرةً إليه، وهناك ما يشبه السهم المعدني يبرز من وسط ذلك القوس.

لا؛ إنه لا يشبه... بل هو سهم معدني بالفعل موجه بشكل مباشر إلى رأسه تقريبًا... ما هذا الجنون؟ سؤال آخر ينفجر برأسه يُزاحِمُ أصواتًا عديدةً تدوي في رأسه الواحدة تلو الأخرى لتزيد من حدة الصداع الذي يعصِفُ برأسه الخامِلة.

يقترب منه ذلك الآخر وقد تبدلت ملامحه من البشرة الداكنة إلى بشرة قمحية وجبهة عريضة تكاد تكون مستطيلةً وعينين حادتين واسعتين.

ـ هل ترى هذا العداد الرقمي الماثل أمامك؟

لا يدير حمدي رأسه مباشرة إلى حيث أشار الآخر وهو يتطلع إليه في بلاهة، ثم يدير رأسه بصعوبة للقوس الآلي مرةً أخرى ويلفت نظره للمرة الأولى أيضًا بشكل غريب، حيث أن عقله لا زال مخدرًا على نحو ما غير قادر على استيعاب كل بيئة المكان دفعةً واحدةً، ولكنه يكتشف كل حين جزءًا منها... هذا عداد رقمي فعلًا.

ـ هذا العداد الرقمي موصول بأصبعك الأوسط عن طريق سلك طويل يسير عبر حلقات في السقف... هل تراه؟

يتابع بعينيه المجهدتين الناعستين ذلك السلك الطويل الذي يمر عبر حلقات إلى أن يصل إلى مفتاح ما أعلى العداد الرقمي.

إلى أين سيقوده هذا الجنون؟

ـ ما الذي تريده مني؟ ماذا فعلت لك؟

على الرغم من بداهة السؤال ومنطقيته إلا أنه ليس في محله الآن.

مخارج الألفاظ بطيئة بل ثقيلة، ينطق الحروف بصعوبة كأنه يتعلم النطق لأول مرة، يتجاهله الآخر وهو يزيح عصا خشبيةً طويلةً من تحت مرفقه الأيمن ويمسك مرفق حمدي الأيمن بحرص.

ـ لا أريدك أن ترخي ذراعك الأيمن إلى جوارك، لأنك لو فعلت ذلك، السلك المعقود حول أصبعك سينقطع وينطلق السهم بعد عشرة ثوان من الآن.

ثم لمَس بتلذُّذٍ عنق حمدي الذي انتفض جسده كأن السهم فعليًّا أصابه... أمعاؤه تتقلص بشدة.

ـ ولكن لا تقلق، أنا وضعت في حسباني إمكانية أن تحرر نفسك قبل أن يصيبك هذا السهم في عنقك.

أشار بسبابته اليمنى نحو شيء على يسار حمدي، يجب أن يدق قلب حمدي بسرعة أكبر من السرعة التي يدق بها الآن، هناك صندوق معدني به حواف حديدية مدببة، هز الآخر رأسه وهو يقول بابتسامة عريضة:

ـ يمكنك أن تستخدم يدك اليسرى الحرة لأن تجلب من داخل هذا الصندوق مفتاحًا ما.

هز كتفيه مستمتعًا بشدة بملامح الرعب والذهول البادية على وجه حمدي، ويضيف بشكل مسرحي مبتذل:

ـ طق... السهم سيخترق عنقك ويخرج من الخلف لو لم تخرج ذلك المفتاح من الصندوق المعدني في أقل من عشر ثوان لتحرر رقبتك من ذلك الطوق المعدني وتتفادى السهم.

الفعل اللاإرادي بالتأكيد سيكون سيد الموقف، أول ما سيفعله حمدي أن يحرك يده اليسرى باتجاه ذلك الصندوق المعدني، يسارع الآخر بيده ليمسك ذراع حمدي ويقول بحذر مصطنع:

ـ توقف، أنت ما زالت فاقدًا للتركيز، تأثير المخدر لم يَزُل بعد، هناك مفاجأة أخرى بانتظارك، وفكر كثيرًا قبل أن تُقحِم يدك اليسرى في ذلك الصندوق لأن حوافه الحادة بالتأكيد ستمزق جلد ولحم يدك في محاولتك للإمساك بالمفتاح المعدني، وستمزقه أكثر عندما

تحاول إخراج يدك من ذلك الصندوق، فضلًا عن مفاجأة أخرى أعددتها لك.

ابتعد عنه وهو يحذره:

ـ احرص دائمًا على رفعِ ذراعك الأيمن حتى لا ينقطعِ السلك المعدني.

بشكل لا إرادي مرةً أخرى تتجمد كل عضلات حمدي استجابةً لهذا التحذير والآخر يقول:

ـ لدى محاولاتك لمد يدك اليسرى لداخل الصندوق ستضطر لأن تستدير بنصفك العلوي قليلًا إلى اليسار مما سيعني بالضرورة قطع السلك المعدني عن أصبعك الأوسط بيدك اليمنى، ففكِّر جيدًا قبل أن تفعل ذلك، لا تفعلها إلا بعد أن تستعيد تركيزك كاملًا.

يضحك كأنه ألقى نكتةً طريفةً في حين قال حمدي في وهَنٍ وذهول:

ـ أنت مجنون... أقسم بالله؛ إنك لمجنون.

يسحب إدريس نفسًا عميقًا وهو يسرب ضحكته كلها في هذا النفس العميق، ويهز رأسه مؤمِّنًا على كلام حمدي ثم يقول:

ـ بالمناسبة؛ لقد اتصل بك والدك الحاج إسماعيل نحو خمس مرات، ولكني أغلقت هاتفك الجوال.

ـ والدي... هل تعرف والدي؟

ـ ليس هذا هو المهم، الأهم هو العرض الذي سأقدمه لك.

صمت قليلًا ليضفي جوًّا مسرحيًّا في غير محله؛ غرضه أن يوتر أعصاب حمدي أكثر وأكثر ثم قال:

ـ حياتك مقابل حياة والدك.

ـ ماذا؟

ـ كما سمعت.

كان الآخر منفعلًا، لم يرد عليه وظل ينظر إليه كجماد، ولكنه في الحقيقة يشعر بفوران شديد في كل جسده من فرط الانفعال، في حين أردف حمدي بصوته الواهن:

ـ أنت لست طبيعيًّا.

استعاد الآخر هدوءه وهو يقول بفخر:

ـ وهذا ما يجعلني مميزًا.

ـ أنت مجنون... مجنون!

ـ والدك من الممكن أن يشرب السم في مقابل الإبقاء على حياتك، لو أردت أن تفديه بحياتك، عليك أن تنتظر مني مكالمةً من خلال هذا الهاتف الجوال.

إتبع حمدي الإشارة التي أومأ بها إدريس برأسه، فاتجه نظر حمدي إلى هاتف جوال حديث يتدلى من السقف على يمين رأسه، كيف لم

يلحظ ذلك؟ استغرب من صدى الصوت الذي يردد هذا السؤال في رأسه، ولكنه تجاوز عن ذلك فهناك ما هو أهم بكثير من الوقوف عند مثل هذه الأشياء، أولها ذلك الكابوس المرعب الذي يعيشه.

ـ لو أردت أن يُكْتَب لوالدك حياة جديدة، فانتظر مني مكالمةً بعد قليل أطمئنك فيها أن والدك ما زال على قيد الحياة، وأعتقد أنه سيكون من المناسب وقتها أن تقتل نفسك. تقدم منه إدريس قائلًا بنبرة صوت حاول أن يجعلها مخيفةً قدر المستطاع:

ـ بعد أن تطمئن على أن والدك ما زال حيًّا إن حاولت أن تخدعني وتفلت من الموت، وقتها سيدفع أبوك ثمن خداعك.

حاول حمدي أن يستجمع قوته ويرد عليه بسخرية:

ـ وما الذي يضمن لي أنك لن تقتله إن نفذت طلبك.

هز إدريس كتفيه وقال:

ـ لا توجد ضمانة، ستنتظر مكالمتي فقط، إذا أردت المقامرة بحياة والدك فلتفعل.

لم يترك له إدريس الفرصة ليرد لأنه تحرك بعيدًا عنه، أصبح الآن خلف ظهره وحمدي يحاول أن يصيح فيه، ولكن طبقة صوته ضعيفة خافتة رغمًا عنه على الرغم من أنه حاول أن يضع فيها كل قوته:

ـ أين ستذهب؟ أجبني.

لم يرد عليه إدريس ووقْعُ خطواتهِ في أذن حمدي قوية وتتعالى أكثر كلما ابتعدت، حمدي ينهار الآن ويبكي بحرقة، يبكي بصمت، دموعه تسيل على خديه وجسده يهتز، يحاول أن يبقي ذراعه اليمنى مرفوعةً عاليًا ويواصل بكاءه.

سمع صوت إغلاق الباب من خلفه، الآن بعد صوت غلق الباب لم يعد هناك أمل باقٍ، لقد وقع فريسةً لمجنون كامل النضج في جنونه، لم يتصور أن يخوض في كابوس مثل هذا يومًا...

شيء لم يخطر على باله أبدًا، استرعت انتباهه العبارة المكتوبة على الحائط؛ والتي لم يفهم معناها وما هو المقصود منها؟ وما علاقة هذه الجملة به؟ ماذا يقصد القاتل بأنهم يبكون على من قتلوا...

المؤكد أن القاتل يوجه إليه هذه الرسالة، ولكن هو لم يقتل أحدًا، هو الذي يُقْتَل الآن، وبأبشع طريقة ممكنة، ليس فقط لبشاعة طريقة القتل، ولكن العذاب النفسي ورعب انتظار الموت المصحوب لعملية القتل نفسها، أم أن القاتل يقصد نفسه بهذه العبارة...

كيف حال والده الآن؟ هل يعاني من هذا الوغد مثلما يعاني هو الآن، ذلك الرجل العجوز الطيب! دموع حمدي تنهمر مرةً أخرى... ذكريات كثيرة تتداخل وتتقاطع قديمة وحديثة وأخرى لا يعلم لها تاريخًا، ولكنها تتدافع إلى ذاكرته وتحترق دفعةً واحدةً مع اقتحام

صورة إدريس لمشهد استعراض الذكريات... يغمض حمدي عينيه كأنه يحاول طرد الصورة عن رأسه.

كم بقي على هذا الوضع؟ لا يعرف، يشعر وكأنها ساعات كثيرة يعجز عقله عن إحصائها، يشعر بصداع عنيف يمسك برأسه كلها ودوار... لا؛ إنها ليست ساعات بل هي أيام، الحر يزداد، وجبهته تتصبب عرقًا، والذباب يدور حول رأسه ويقف على رأسه وجبهته.

قد تكون مرت ساعة؟! لا يعرف! ألم شديد يشعر به في ذراعه الأيمن الذي يرفعه عاليًا، يده ترتعش وجبينه غارق في عرقه، يريد أن يرخي ذراعه، ولكنه لا يقوى على ذلك.

ألم شديد في حلقه، والوقت لا يريد أن يمر، الثانية انقلبت إلى دقيقة، والدقيقة انقلبت إلى ساعة وهكذا، الوقت يكاد لا يمر.

متى يأتي هذا الاتصال؟ يبدو أنه لن يأتي أبدًا، يحب أن يخدع نفسه بأن كل ما يحدث مجرد مزحة سخيفة، وستذهب لحالها، وقتها سيكون ممتنًّا جدًّا لمن مارس معه هذا النوع الثقيل جدًّا من المزاح.

ولكنه يعلم يقينًا أن هذا غير حقيقي، وأن هذه ليست مجرد مزحة، فقط يحاول أن يخدع نفسه ليعطيها أي شعور بالأمل أن كل هذا الكابوس السخيف سينتهي.

كم من مرة قاوم رغبةً ملحةً في النوم، لا يعلم هل هذا من تأثير المخدر؟ أم أنه مرتبط بالإجهاد الشديد الذي يشعر به والضغط النفسي غير المحتمل، صوته يلتقط صوت توكتوك يمر بجوار المبنى المحبوس فيه، يصيح بأعلى صوته، ولكن صوته لا يستطيع أن يتغلب على صوت المهرجانات المنبعث من التوكتوك.

يبكي حينما يوقن أن محاولته باءت بالفشل، ألم شديد يضرب كالسكاكين في ذراعه وكتفه الأيمن، ويتسلل إلى جانبه الأيمن، يريد أن يرخي ذراعه ولكنه يعلم العاقبة.

متى يأتي هذا الاتصال اللعين ليرحمه من عذابه؟ يبدو كأنه لن يأتي أبدًا.

يستيقظ من غفوة لا يعرف كيف استولت عليه، وتعجب كيف استطاع في ظل غفوته -التي يظن أنها طالت- أن يبقى ذراعه عاليًا، أمر غريب! غريزة البقاء هذه تستطيع أن تتحدى قانون الطبيعة.

كيف دار كل ذلك بخلده وهو يرى شاشة الهاتف الجوال تتوهج أمامه... لا يعرف، ولكنه نفض كل تلك التساؤلات السخيفة عن رأسه، وحرك يده اليسرى بحذر شديد وبطء باتجاه شاشة الهاتف الجوال ليمسح على الشاشة بإصبع سبابته المرتعش، وأجاب على الاتصال فأتاه صوت إدريس الهادئ المخيف:

ـ كيف حالك؟

صرخ حمدي بكل عزم لديه:

ـ أقسم بالله أنني سأقتلك أيها المجنون.

اهتز كيان حمدي وهو يسمع صوت أبيه المُلتاع:

ـ حمدي، ابني.

شعر حمدي برعشة قوية تغزو كل كيانه وهو يستمع إلى صوت أبيه، رغمًا عنه تهدج صوته:

ـ والدي.

ـ أين أنت يا حمدي؟

صوت والده الباكي يدفع إلى عروقه حالةً شديدةً من الغضب جعلته يصرخ:

ـ أقسم بالله لأقتلنك أيها المجنون لو مسَسْتَ منه شعرةً.

يسمع ضحكة إدريس المكتومة، ولكنه يتجاهل ذلك قائلًا لوالده في لهجة راجية:

ـ لا تشرب هذا السم يا أبي، لا تسمع كلام هذا المجنون، أرجوك يا أبي.

يقطع إدريس الاتصال عليه، الشاشة بعد عدة ثوان تظلم، كذلك يشعر حمدي بإظلام شديد من حوله، رأسه يدور بشدة، عشرات الصور تتدفق إلى مخيلته تجمعه بوالده في مراحل حياته المختلفة.

لا يعرف كيف يحدث ذلك التدفق السريع لهذا الزخم الهائل من الذكريات، ولكنه يحدث، وأيضًا تتقاطع معها عشرات الذكريات التي تُعْرَض أمامه كفيديو قديم يصبغه اللون الرمادي.

يفتح عينيه مرةً أخرى وهو يتطلع إلى عداد القوس الآلي، يتمنى أن ينتهي هذا الجنون فورًا، لا يريد أن يمضي دقيقةً واحدةً في هذه الحياة، وقد اطمأن إلى أن والده ما زال حيًّا، بقي أمامه أن ينفذ ما طلبه منه هذا المجنون.

الصوت الذي يصرخ في أذنه الآن يخبره ألا يفعلها، لا يوجد ضمانة على أن والده ما زال حيًّا، لربما قتله بعد أن أنهى المكالمة، فلما يضيع حياته نظير اللاشيء، وصوت آخر يحثه على أن يفعلها من أجل أن ينجو والده بحياته، الصوتان يتصارعان داخل عقله، وتترجم عيونه الدامعة حيرته البالغة.

مرت عشر دقائق كأنهم الدهر كله، كان يتوقع مكالمةً أخرى من ذلك المجنون، ينظر إلى ذراعه اليمنى المعلقة في الهواء، هل يرخي ذراعه الآن ويواجه مصيره المرعب... أن يعرف المرء أنه سيموت

بعد لحظات وعليه أن يقف منتظرًا موته، كانت بالنسبة لحمدي أشد قسوة من طريقة الموت البشعة التي تنتظره...

كاد فعلًا أن يرخي ذراعه ويستجيب إلى الصوت الذي يحثه على فعل ذلك في حين أن الصوت الآخر الذي يصرخ بألا يفعلها يجعله يتراجع.

أوقف ذلك الصراع الصوتي في عقله توهج شاشة الهاتف الجوال مرةً أخرى، فأجاب الاتصال فأتاه صوت والده مختلطًا بصبغة بكاء واضحة:

ـ فنحن من نسل ـأستغفر الله العظيمـ شياطين الإنس، فحُقَّ علينا العقاب واليوم أقتل نفسي... بمثل ما قتلتهم من قرون طويلة!

يسمع صوت جلبة، ثم صراخ أحدهم وجلبةً أخرى، ثم سقوط جسدٍ أرضًا... انقطع الصوت فجأةً لينتفض حمدي وصوت إدريس الهادئ يأتيه:

ـ والدك قرر أن يفديك بحياته، مبروك عليك النجاة.

أنهى إدريس الاتصال ولم ينتظر أي رد من حمدي، الذي حدق في شاشة الهاتف الجوال التي أظلمت مرةً أخرى والذهول يعلو كل ملامحه، تجمدت الحياة للحظة وعيناه تطلق الدموع بلا توقف، رغمًا عنه وبدون تفكير، أرخى ذراعه اليمنى.

بدا أنه مدرك لما فعل لأنه انتفض مرةً أخرى على صوت العداد الذي يعلو القوس الآلي وهو يقلب الأرقام بصوت رن في أذنه جليًّا، استعاد غريزة حب البقاء، تناسى كل شيء، مد أصابع يده اليسرى باتجاه الصندوق، وعيناه الجاحظتان تراقبان العداد الرقمي.

ثمانية...

يده اليسرى ترتعش وهو يحاول إقحامها داخل الصندوق، وحوافه الحادة تمزق جلدها ولحمها، والدماء تتفجر منها بغزارة.

سبعة...

يسب ويلعن، تتوقف يده في منتصف الطريق وقد اعتراه شعور كلي بوهن شديد... شعور مفاجئ بهبوط حاد في الدورة الدموية... ولكنه يقاوم مرةً أخرى وهو يطلق صرخات ألم مكتومة وقد احتقن وجهه بشدة وهو يجبر يده رغمًا عنها على الدخول بالكامل داخل الصندوق.

ينجح بعد عناء شديد والعرق يتصبب من وجهه غزيرًا... عروق رقبته وجبهته تبرُز بقوة... يحاول بأصابع مرتعشة واهنة بلوغ المفتاح، ينزلق من بين أصابعه.

جسده كله يرتعش، لا يفلح في تهدئة أعصابه الفائرة، إرهاق أربع ساعات، خبر مقتل والده... حياته التي أصبحت بالفعل على المحك.

ستة...

يطبق على المفتاح أخيرًا، يدير رأسه للصندوق المعدني وهو يلمح بخيبة أمل تلك السكاكين الحادة التي تبرز من فتحة الصندوق وتطبق على معصمه.

إما أن يفعلها ويخرج يده وهو يعلم تمامًا أنها لا محالة ستتمزق تمامًا، ولكن أيهما أهون أن تتمزق يده كلها أو يضيع عمره كله.

خمسة...

يستجمع قواه وشجاعته ليخرج يده اليسرى من بين تلك السكاكين الحادة، نصفها الآن أصبحت خارج الصندوق والسكاكين تقطع فيها، وتكشف عن لحمها وعظامها... يصرخ صرخةً عظيمةً، تحين منه التفاتة إلى العداد الرقمي.

أربعة...

يحاول أن يستجمع البقية الباقية من قوته لينزع يده من ذلك الصندوق المعدني وهي تنزف بغزارة، صرخ مرةً أخرى وهو ينتزع يده من الصندوق وقد عَلِقَ بأسِنَّةِ السكاكين بعض من جلده ولحمه.

كان ينهج بشدة وهو يتصبب عرقًا، ويده تغطيها الدماء وتقطر منها، وتحين منه التفاتة إلى العداد الرقمي.

ثلاثة...

يمد يده اليمنى لتتناول المفتاح من يده اليسرى المرتعشة والتي على وشك أن تفلت المفتاح، كل جسده يرتعش... من عِظَم الخوف... من التوتر والعصبية... من الحزن على أبيه... صورة أبيه تطوف بمخيلته في جزء من الثانية...

ثانيتان...

طفله الصغير على الفراش بجوار أمه... يرفع المفتاح إلى الطوق... أصابعه المرتعشة تفلت المفتاح... العداد الرقمي يصدر الصوت الأخير... عينيه تلمح الرقم واحد...

يغمض عينيه ودمعتان أخيرتان تفلتان... يسمع صوت السهم وهو ينطلق من القوس...

البداية كانت كلكمة قوية تضرب عنقه، ثم الشعور بأن هناك شيئًا معدنيًّا يخترق حنجرته، ويمزقها ويمزق ما في طريقه، ورأس السهم يبرز من قفاه...

يشعر بالدماء الدافئة تسيل بغزارة على صدره... عيناه جاحظتان... يحاول أن يسحب أي نفس إلى صدره، ولكنه يعجز... يشعر بما يشبه احتراق رأسه وهو يحاول مرةً أخرى أن يدفع الهواء إلى رئتيه الممزقتين، فيفشل... فيزيد شعوره باحتراق رأسه وجسده كله...

يفتح فمه محاولًا الدفع بأي أوكسجين إلى رئتيه، ولكن دون جدوى... ينتفض جسده عدة مرات لثوان وأصابع يده ترتعش، ثم تتخشب وقد بدأ جسده يتراخى، وعيناه الجاحظتان يخبو فيهما ضوء الحياة وجفناه يتثاقلان... مساحة الرؤية أمامه الآن تتسلل إليها بخبث غيوم سوداء حتى تملأ شاشة الرؤية أمامه.

تتبخر الذكريات والإحساس بما يدور من حوله... صوت توكتوك آخر مصحوب بصخب المهرجانات أصبح الآن يأتيه من بئر سحيق حتى خبا الصوت تمامًا... لم يعد هناك إلا الظلام..."

يهز العقيد رأسه في صمت في حين يطلق أيمن نفخةً قويةً وفارس يعبث بشعر رأسه في نفس الوقت، ابتعدوا عن الجثة والعقيد يقول في شرود:

ـ هذا يعني أنه يجب أن أطلق سراح الشاب المسيحي.

هز فارس رأسه وعيناه ترسلان رسالة أسف واضحة للعقيد الذي لم يلاحظها، وهو يتحرك خارج الشقة يتبعه الاثنان.

توقفوا جميعًا عندما قال فارس:

ـ أحتاج لأن أستجوب سيد مرةً أخرى.

نظر العقيد إلى أيمن وسأله:

ـ هل هو في سجن برج العرب الآن؟

أومأ أيمن برأسه، استكملوا جميعًا سيرهم حتى وصلوا إلى أسفل مدخل البيت المكون من طابقين وقد تجمع عدد من الناس أمام الكردون الذي فرضته الشرطة والعقيد يضيف:

ـ سأتحدث إلى مدير السجن، إنه دفعتي.

لم يعقب فارس في حين استوقفه العقيد يسأله بصوت يغلب عليه ترجي الأمل:

ـ هل تعتقد أنك من الممكن أن تخرج منه بمعلومات مفيدة هذه المرة؟

ـ هذا ما أتمناه، لأن مسار القضية الآن أصبح مختلفًا تمامًا، نحن أمام صراع طائفي بين السنة والشيعة، ومن الواضح أن سيد تَشَيَّع، وهو بذلك شريك أصلي في الجريمة الأولى.

ـ هل أخبرتك من قبل أن هذا المتهم قد سجل للقاتل مكالمةً له معه حول الترتيب للجريمة الأولى؟

ظهر الاهتمام على وجه فارس وهو يهز رأسه نافيًا، في حين أكملوا جميعًا المسير باتجاه (البوكس)؛ التي كان يستقلها العقيد، وفتح هو باب السيارة، فاستوقفه فارس بقوله:

ـ وفي تصورك لماذا سجل له سيد المكالمة؟

ـ كنوع من محاولة تخفيف الحكم عليه عندما يسقط في أيدينا، وألا يتحمل هو مسؤولية الجريمة كلها بمفرده.

هز فارس رأسه نافيًا، ابتسم العقيد وهو يتخذ مكانه ويغلق الباب والسائق يدير محرك السيارة بشكل آلي، في حين استند العقيد إلى نافذة الباب المفتوحة على يمينه وهو يضيف:

ـ هناك طرف ثالث أوصاه بأن يفعل ذلك.

ـ في ظني نعم.

تدخل أيمن قائلًا:

ـ وما هي المصلحة في أن يكشف عن القاتل طالما أنهم كلهم في قارب واحد والهدف مشترك.

عقب فارس هذه المرة:

ـ هناك من له مصلحة في أن يسهل علينا مهمة الكشف عن القاتل حتى يبقى الطرف الثالث دائمًا في الظل.

الإيماءة من رأس العقيد توافق على ما قاله فارس وهو يضيف إلى استنتاج فارس بحماس:

ـ الأمر لم يعد يتعلق بقاتل منفرد، ولكن هناك خلية شيعية تقف وراءه، وهي التي تحركه وتملي عليه ما يفعله.

ـ لقد بدأت في التفكير بهذا الاتجاه منذ فترة وجيزة.

ابتسم العقيد مرةً ثانيةً وهو يقول:

ـ كان يجب أن تكون شرطيًّا يا فارس وليس رجلًا يختص بالمجانين.

ضرب بيده مرتين على الباب فتحركت السيارة على الفور، وهم أيمن وفارس بالانصراف، ولكن توقفا لدى توقف (البوكس) وهو يعود هذه الأمتار التي قطعها مرةً أخرى وأشار العقيد بسبابته إلى سيارة أيمن قائلًا:

ـ هل هذه سيارة جديدة يا أيمن؟

ـ نعم يا باشا.

ـ ما نوعها؟

ـ كيا سيارتو.

ـ كيا سيارتو أعرفها.

ـ السيارة تحت أمرك في أي وقت يا باشا.

همهم العقيد وهو يهز رأسه ثم قال:

ـ هل ترتشي من وراء ظهري؟ أم ماذا يا أيمن؟

ضحك أيمن على مزاح العقيد، ولكن بدا في عيني العقيد أنه لم يكن يمزح، فانقلبت ملامحه للجدية وهو يقول مدافعًا عن نفسه:

- كلا يا باشا، أقسم بالله، لست أنا من يفعل ذلك، هذا ورث يا باشا، لقد ورث أبي وعمي وعمتي جدي رحمة الله عليه؛ بضعة أفدنة في أبيس المنطقة الرابعة.

- أمممم.

- بالإضافة إلى مبلغ نقدي لا بأس به، وأبي قام بتوزيع ورثه علي وعلى أخوتي، هذا كل ما في الأمر، فأخذت نصيبي، وابتعت به هذه السيارة.

- أفدنة في أبيس.

- نعم يا باشا.

- وجدك، كيف أفلت من يد عبد الناصر؟

ضحك أيمن ضحكةً مفتعلةً يجامل بها العقيد الذي ظلت ملامحه جامدةً، ثم ضرب على باب السيارة مرةً أخرى لتتحرك.

همهم أيمن في خفوت:

- كم أكره ثقل دمك.

ابتسم فارس ولم يعقب وتحركا باتجاه سيارة أيمن، توقف أيمن للوهلة كأنه تذكر شيئًا، ثم مد يده إلى جيب بنطاله الأيمن يلتقط منه شيئًا ويرميه على مقدمة السيارة نحو فارس الذي بادر بالتقاطه والنظر فيه...

كانت صورةً للوحة تظهر امرأةً جالسةً وترتدي ما يشبه العباءة وخمارًا طويلًا لا يظهر من ملامح وجهها شيء، وتحمل بين ذراعيها طفلًا صغيرًا لا يظهر من ملامحه شيء أيضًا، ولكن الملفت للنظر ذلك الطوق النوراني الذي يحيط برأسه ومن خلفها وهج أبيض كبير.

ظل فارس يحدق بعض الوقت في هذه الصورة ثم رفع عينيه إلى أيمن متسائلًا:

ـ أين وجدتها؟

ـ كانت بارزةً من جيب القتيل، أليست هذه صورة مريم العذراء وهذا هو المسيح، أم أني لم أفهم الأمر جيدًا.

ـ تبدو كذلك مع أنها تبدو غريبةً بعض الشيء عما اعتدنا عليه من رسومات المسيحية.

لوح أيمن بذراعه الأيمن وهو يقول ساخرًا:

ـ عامةً، كل ما يتصل بهذا السفاح غريب.

هز فارس رأسه وهو يضع الصورة في جيب قميصه الأيسر، ويتخذ مكانه في السيارة يفكر في تلك الصورة والدلالات الغريبة التي يتركها السفاح في كل مرة بمسرح الجريمة.

التقطها مرة أخرى وقام بتصويرها بالهاتف الجوال، ثم أرسلها للدكتور معاذ عن طريق الواتس آب، ناول الصورة مرةً أخرى لأيمن الواقف بجوار باب سيارة فارس وقد تساءل:

ـ ألا تريدها.

ـ لقد قمت بتصويرها.

حيَّا فارس بيده اليمنى، واتجه إلى سيارته يلقي على (التابلوه) الصورة، يتخذ مكانه خلف المقود ليدير محرك سيارته.

*** * ***

(٣)

فارس يجلس على مقعد مجاور لمكتب مدير السجن الذي قال له:

ـ دقيقة واحدة، وسأرسل في طلب السجين.

هز فارس رأسه ولم يعلق، ومرت دقيقة بالفعل حتى سمعا طرقاً على باب المكتب؛ فسمح مدير السجن للطارق بالدخول، فدخل أمين شرطة وبصحبته سيد في رداء السجن الأبيض، مُنكَّسَ الرأس، مرهق الملامح.

نظر إليه فارس بتركيز، في حين نهض مدير السجن من خلف مكتبه وهو يقول:

ـ سأتركك معه لبعض الوقت، وحينما تفرغ من استجوابه، يمكنك أن تنادي على الشاويش سعيد.

شكر فارس الضابط الذي غادر المكان ومعه أمين الشرطة، في حين ظل سيد مُتسمرًا بمكانه مُطرَقَ الرأس، فقال له فارس:

ـ اجلس يا سيد.

تحرك سيد في آليةٍ باتجاه المقعد المقابل لفارس وجلس عليه وهو مطرق الرأس، لم يبادره فارس بأي حديث بل ظل يستطلع ملامحه لثوان، ثم مال قليلًا نحو الأمام وقال:

ـ كيف هي أحوالك في السجن؟

رفع سيد رأسه وهو يقول بصوت منكسر:

ـ مظلوم والله يا باشا... مظلوم.

لم يرد عليه فارس ولكنه بعد ثوان قال:

ـ متى تشيَّعت يا سيد؟

لم ينوي فارس هذه المرة أن يمارس مع سيد أي ألاعيب نفسية، بل فضل أن يطرق صلب الموضوع وبسخونة... يريد أن يُحدِث صدمةً نفسيةً لدى سيد، ويبلغه رسالةً أنه أصبح يعرف الكثير...

ظهر ذلك جليًّا في ملامح سيد المُرتاعة، وهو يحدق في فارس، وملامح وجهه تَشي بأن أمره افْتُضِح، ولم يعد هناك مناصٌ من الإنكار، كان يعلم أن أمره سيُفْتَضح، لقد أخبروه بذلك وهو يجب أن يكون مستعدًا لهذا، يجب أن يُظهِر الإيمان الحقيقي الذي طالما وعدهم به.

أطرق سيد برأسه ولم يجب، ترك له فارس مساحةً قصيرةً من الزمن ليرد، رفع سيد رأسه مرةً أخرى وقد تبدلت ملامحه المذهولة المرتاعة بملامح حاول أن يجعلها صارمةً قويةً وهو يقول بثقة اصطبغت بعض الشيء بالقلق:

ـ منذ عام تقريبًا يا باشا.

ـ لماذا يا سيد؟

ـ لأنهم على الحق، الذي لا تستطيعون رؤيته وهذا لأنكم مغرقون في الضلال.

ـ كيف ذلك يا سيد؟

ـ يجب أن تجلس مع السيد حتى تعرف.

كان هذا ما يريد فارس أن يسمعه، أي شيء يقوده إلى الطرف الثالث، "من السيد؟"، سؤال تكرر في عقل فارس قبل أن ينطقه:

ـ من هذا السيد يا سيد؟

ابتسامة ساخرة هي التي رسمت ملامح سيد كلها وهو يقول:

ـ هل تريدني أن أخون السيد؟

ـ لهذه الدرجة مستعد لأن تفديه بحياتك.

الثقة التي سكنت عيني سيد كانت الإجابة الكافية لفارس وسيد يقول:

ـ وهل تعتقد أن الطريق إلى الجنة سيكون سهلًا بسيطًا؟ أليس من المفترض أن يمتحن الله قلوبنا ويبتلينا حتى يمحص الله ما في قلوب عباده ليتبين المؤمن من المنافق.

ـ وهل أنا من وجهة نظرك من المنافقين؟

تراجع سيد في مقعده، وانتصبت قامته وكأنه وجد أخيرًا نقطة قوة يتفوق بها على كل من حوله وهو يجيب:

ـ أنت على ضلال يا باشا، أنت أبعد ما يكون عن الإيمان القويم.

ـ وكيف أؤمن يا سيد؟

ـ ما الذي يحدث في اليمن يا باشا؟

عقد فارس حاجبيه وهو يسأل:

ـ ما علاقة اليمن بالإيمان يا سيد؟

بدا الموضوع مربكًا بالنسبة لفارس، وكالعادة كل الأحاجي منذ بدأت هذه القضية تبدو غير مترابطة على الإطلاق، وهو قد اعتاد ذلك وانتظر الإجابة من سيد الذي قال:

ـ هل تعتقد أن ثورات الربيع العربي كما يسمونها هذه محض صدفة، أو أنه تخطيط أمريكي صهيوني كما يروجون.

هز سبابته اليمنى علامة النفي وهو يتقمص مظهر العارف ببواطن الأمور وابتسامة ساخرة تتسع على شفتيه مضيفًا:

ـ هل ما يحدث في اليمن من قبيل الصدفة؟ أن تقوم فيها ثورة على الحاكم الكافر علي عبد الله صالح، ويخلعوه من الحكم في عشرة أشهر، وبعد ذلك تبدأ صحوة الحوثيين المباركة؛ ليستردوا اليمن التي كانت حقًّا لهم وأضاعها منهم الكافر عبد الناصر، هل تتصور أن كل هذا من قبيل الصدفة؟

ـ وماذا أيضًا يا سيد؟

ـ ما يحدث الآن في سوريا ـيا باشاـ والعراق، هل كل هذا صدفة؟ ما حدث كان يجب أن يحدث، وسيحدث أكثر من ذلك، وسيتسمر لأن كل هذا مجرد تحضير للبُشرى الكبرى.

فارس منتبه كليةً الآن لكل كلمة ينطق بها سيد وهو يسأله ليستحثه للإفصاح عن المزيد، حالة النشوة التي تعتري سيد الآن تجعله مستعدًا لأن يسقط كل حواجز الحيطة والحذر ويكشف عما بداخله:

- وما هي البشرى الكبرى؟
- ظهور الإمام عجل الله فرجه.
- الإمام؟!
- المهدي عليه السلام.
- تقصد المهدي المنتظر؟
- كلا، هذا المسيح الدجال الخاص بكم، والذي سيقتله الإمام بعد أن يخرج من غيبته الكبرى.

تراجع فارس في مقعده يهز رأسه، هو أمام مجنون بالكلية، لقد شاهد مثل هذه الحالات من قبل خلال دراسته في بريطانيا.

- وما هو الدليل على أن ذلك المهدي المنتظر سيظهر الآن؟

ابتسم سيد مرةً ثانيةً، ثم ذهبت الابتسامة وهو يقول بجدية العارف بكل شيء:

- انظر لوضع اليمن الآن وأنت تعرف كل شيء، ما يحدث في اليمن العلامات الأولى لظهور المهدي، الأمر مُنتهٍ وكل الأمور ماضية في طريقها.

ـ ما الذي سيفعله بخلاف قتل المهدي المنتظر المزعوم، وما تسميه الخاص بنا؟

ـ سينتقم.

ـ مثل السفاح.

ضحك سيد ضحكةً قصيرةً وهو يهز رأسه نافيًا وقال:

ـ ما تقول عنه أنه السفاح يقوم بدور إلهي مرسوم له؛ يمهد به الطريق للمهدي، المهدي سيُعيد الحق لأهله وهم شيعته من محبي آل البيت، وما يقوم به الأخ المجاهد هو تنفيذ لجزء من الخطة الكلية للإمام المهدي عليه السلام.

ـ تقصد الانتقام؟!

لم يرد سيد، بل أومأ برأسه بطريقة مسرحية، لقد تقمص دور العارف بالكامل، بشكل يثير السخرية، ولكن فارس لم يشأ أن يبين له ذلك، وحاول أن يجاريه في تقمصه لذلك الدور ليعرف منه الأكثر، وهو يسأله باهتمام:

ـ سينتقم ممن لأجل من؟

ـ ممن قتلوا الأئمة الأطهار.

ـ الأئمة؟!

- أليس مذكورًا في القانون المصري -يا باشا- أن هناك جرائم القتل مهما طال عليها الزمن تظل عقوبتها قائمةً.
- تقصد لا تسقط بالتقادم.
- الله ينور عليك! إذن نحن أولى بهذا الحق.
- على حسب علمي يا سيد أن الأئمة الذين تتحدث عنهم ماتوا منذ قرون طويلة.

فَهِمَ سيد ما يحاول فارس التلميح إليه، ثم اقترب من فارس أكثر، وفارس بشكل تلقائي مالَ نحوه، وسيد يقول بصوتٍ مسرحي:

- في الصعيد عندما تقتل عائلة ما فردًا من عائلة أخرى؛ تثأر العائلة الأخرى بقتل عشرة في مقابل قتيلهم، أليس كذلك؟
- نعم.
- حسنًا يا باشا! إذن؛ كل الأمور واضحة وضوح الشمس، نحن لدينا ثأر قديم، وسنأخذ ثأرنا هذا من ذرية القتلة الذين ما زالوا على قيد الحياة حتى يومنا هذا.

صدم قول سيد فارس بالتأكيد، لم يكن يتوقعه على الإطلاق، لم يكن يتوقع مثل هذا الجنون الهستيري... "ذرية القتلة"؛ تضخمت هاتان الكلمتان في رأس فارس أكثر وأكثر، والذي تراجع مرةً أخرى في مقعده ولكن ببطء.

ـ وكيف ستعرفونهم يا سيد؟

قالها ببطء وحذر، فتراجع سيد في مقعده هو الآخر وهو يقول بثقة شديدة:

ـ ألم أقل إن هذه من علامات ظهور الإمام عجَّلَ الله فرجه.

ـ اشرح لي أكثر.

وقف سيد بشكل مسرحي مبالغ فيه وهو يقول بثقة برزت من وسط ملامحه المرهقة:

ـ لا تستعجل الأمر يا باشا... إعلان ظهور المهدي سيكون قريبًا جدًّا، وسيكون على يد سفيره اليماني الموعد، وسترى وقتها كل شيء بعينيك ولربما تؤمن وقتها.

ضحكة ساخرة مبتورة أفلتت من ركن شفته اليمنى وهو يعلق على ما قاله:

ـ أو تظل على كُفرِكَ وتكون في رَكْبِ الملعون المسيخ الدجال.

فارس لم يعلق، بل كان يراقب تعبيرات وجه سيد التي كانت تتسم بجنون حقيقي، جنون في أعلى مراحله، وهذا ما دفع إلى عقله سؤالًا آخر "إذا كان سيد بكل هذا الجنون، فما هو حال السفاح نفسه؟"...

نهض فارس وهو يقول بهدوء:

ـ أليس لديك شيء آخر تضيفه يا سيد؟

ـ لا أعتقد أن هناك ما يمكن أن يُقَال أكثر مما قِيل يا باشا.

هز فارس رأسه وهم بالتحرك، ولكنه توقف وهو يقول:

ـ هل تعلم يا سيد أن عقوبة الاشتراك في جريمة قتل من الممكن أن تكون الإعدام.

ـ {قَالُوا لَنْ نُؤْثِرَكَ عَلَى مَا جَاءَنَا مِنَ الْبَيِّنَاتِ وَالَّذِي فَطَرَنَا فَاقْضِ مَا أَنْتَ قَاضٍ إِنَّمَا تَقْضِي هَذِهِ الْحَيَاةَ الدُّنْيَا}.

تيقن فارس وقتها أن سيد قد بلغ الجنون معه مداه الأخير، اتجه إلى باب الغرفة، وأدار مقبضه يفتحه وقال لسيد دون أن يلتفت إليه:

ـ إذا تم إعدامك يا سيد، وبعدها اكتشفت زيف كل ما تؤمن به، وأن مصيرك من الممكن أن يكون وقتها النار، أتساءل كيف سيكون حالك؟

لم يرد عليه سيد في وقتها، أدار فارس وجهه إليه فوجده ينظر إليه شذرًا حتى قال:

ـ نفس حالك عندما تكتشف أنني على حق، وأن مصيرك هو النار وأنا في جنة الخلد.

هز فارس رأسه وأشار بيده اليمنى لأمين الشرطة أن يأخذه، فدخل أمين الشرطة إلى المكتب ليأخذ سيد الذي مر من أمام فارس وعلى

وجهه ابتسامة نصر وثقة لا حدود لهما، في حين ظل وجه فارس جامدًا لا يشي بشيء محدد.

* * *

(٤)

ـ لن يعترف بشيء يا أيمن، ثق في كلامي.

ـ دعني أخبرك أنك لا تعرف طرقنا في استخراج المعلومات من المتهمين، سنجعله يندم على اليوم الذي ولدته فيه أمه حتى يخبرنا بكل ما نريد.

ـ لن يحدث ذلك، أنا دكتور نفسي، وأؤكد لك أنه لن يخبرك بشيء مهما فعلت، هذا رجل قم تم غسل عقله تمامًا، افعل ما تشاء، ولن يخبرك بحرفٍ واحد لأن كل ما ستفعله سيمثل بالنسبة له تطهيرًا لذنوبه وطريقًا للجنة.

ساد الصمت قليلًا وفارس يستقل المصعد بعد أن سلم على البواب، وأيمن يسأله:

ـ وما هو الحل من وجهة نظرك؟

ـ أطلقوا سراح سيد، هذا هو الحل.

ـ هل جُنِنت يا فارس؟

غادر فارس المصعد متجهًا إلى شقة الدكتور معاذ، وهو يرد عليه بحزم:

ـ دعه يكون طعمًا لاستدراج السفاح، أثق بنسبة كبيرة أن نبأ إطلاق سراح سيد سيصل للخلية أو التنظيم الذي يقف وراءه، وسيطلب هذا التنظيم وقتها من السفاح أن يقابل سيد ليقتله، أو ليتأكد على الأقل أنه لم يدلِ بمعلومات ذات قيمة تكشف عنهم.

ـ لا أعلم، ولكن يجب أن أناقش هذا الأمر أولًا مع العقيد.

ـ يجب أن تقوموا بإنجاز هذا الأمر بأسرع وسيلة ممكنة حتى نتمكن من القبض على السفاح...

لو استطعنا إلقاء القبض عليه سيتأكد للسفاح وقتها أن مهمته الإلهية قد فشلت، وأن كل ما آمن به السفاح أصبح محل شك، وسيشكل له صدمةً نفسيةً عميقةً قد تدفعه للإفشاء عن باقي أعضاء التنظيم، أو قد يفعلها سيد إن لم يقتله السفاح.

ـ كلامك يبدو منطقيًا ومعقولًا.

رن فارس جرس باب شقة الدكتور معاذ، وهو يقول لأيمن:

ـ إذن، هل من الممكن أن تبلغني بآخر المستجدات في حالة لو وافق العقيد على هذا.

ـ حسنًا؛ سأفعل، مع السلامة.

ـ مع السلامة.

أنهى فارس الاتصال وهو يسمع خطوات الدكتور معاذ الثقيلة، وهي تقترب من باب الشقة... يفتح الباب، ثم يتنهد وهو يقول بلهجة مازحة:

ـ أضحى السير حتى باب الشقة مجهودًا مرهقًا للغاية.

ـ أدام الله عليك عافيتك يا دكتور.

استدار الدكتور عائدًا إلى الصالون وفارس يتبعه بعد أن أغلق الباب، جلس الدكتور على الأريكة بعد جهد، في حين ألقى فارس نفسه على الأريكة المجاورة لأريكة الدكتور وقد شعر بإرهاق كلي.

ـ يبدو عليك الإرهاق الشديد يا فارس.

ـ هذه القضية شديدة التعقيد يا دكتور خصوصًا بعد استجوابي للمتهم الثاني في القضية: "سيد"، قلب كل شيء رأسًا على عقب.

ظهر الإشفاق على ملامح الدكتور معاذ وهو يطيل النظر إلى وجه فارس الذي أغلق جفنيه محاولًا الاسترخاء في مقعده، ولكنه فتح عينيه مرةً أخرى والدكتور يقول بحنو أبوي:

ـ يجب أن تنال قسطًا من الراحة يا دكتور.

ـ سأحاول.

ـ هل تعرف من سيزورني اليوم؟

بدا الاهتمام على وجه فارس وهو يعتدل في مجلسه وشبح ابتسامة يظهر على شفتيه يسأل:

ـ من؟

ـ أختي ليلى.

ـ يااااه، مضى زمن طويل لما أرها فيه، وكيف حالها؟

ابتسم الدكتور وهو يجيب:

ـ بخير، الحمد لله.

ساد الصمت بينهما لثوان؛ قطعه الدكتور قائلًا بجدية:

ـ هيا؛ احكِ لي.

شبك فارس أصابع يديه وهو يطرق برأسه أرضًا ينفخ في ضيق ثم رفع رأسه للدكتور قائلًا:

ـ لا أعرف من أين أبدأ، ولكن تغير مسار القضية مائة وثمانين درجةً بشكل لم أكن أتوقعه.

ـ المنطقة كلها في الشرق الأوسط تفور وتغلي وتمر بمراحل لم يسبق لها في العصر الحديث أن مرت بها هكذا دفعةً واحدةً، وما يحدث حاليًّا في هذه القضية واحدة من الإفرازات السلبية للوضع الحالي، ومن الطبيعي أن تجد نوعيةً جديدةً من الجرائم؛ لم تكن

تتصور أنها من الممكن أن تحدث في بلادنا... العالم هذه الأيام يتغير أسرع مما نتصور...

هز فارس رأسه مؤمنًا على كلام الدكتور، ثم انقلبت ملامحه للجدية تمامًا وهو يقول:

ـ سيد حدثني عن علامات ظهور المهدي المنتظر وفق المعتقد الشيعي، وأن جرائم القتل التي حدثت والتي ستحدث هي واحدة من علامات ظهوره، وأن قَتَلَة الأئمة المفترض أنهم قضوا نحبهم منذ قرون طوال، سيتم الانتقام منهم، وأنه ثأر قديم وحديث طويل مُربِك لم أفهمه، ولا أستطيع ربطه ببعضه البعض.

وضع الدكتور معاذ يده على يد فارس اليمنى يضغط عليها ويقول مترفقًا به:

ـ اهدأ يا فارس، سأشرح لك كل شيء منذ البداية حتى النهاية.

ـ أتمنى ذلك يا دكتور، لأن عقلي على وشك الانفجار.

تراجع الدكتور في مقعده وسحب نفسًا عميقًا، لأن الواضح أنه مقبل على شرح مطول، في حين أنصت له فارس باهتمام بالغ:

ـ أنت تعلم أني ذهبت لليمن إعارةً لأربعة سنوات قبل الثورات العربية.

هز فارس رأسه في صمت في حين قال الدكتور:

ـ وتعرفت هناك في صنعاء على الحوثيين، وهُم طائفة من الشيعة: الطائفة الزيدية.

ـ وهل هناك طوائف مختلفة في الشيعة؟

ـ كثيرًا جدًّا يا فارس، ولكن أشهرهم الجعفرية أو الإمامية أو الاثني عشرية؛ والتي تحكم إيران حاليًّا وهم موجودون أيضًا في السعودية في المنطقة الشرقية بالطائف والدمام وغيرها، وفي البحرين والكويت والعراق وفي جنوب لبنان، ويمثلهم هناك ـ كما تعلم ـ حزب الله...

وهناك أيضًا العلويون في سوريا وأيضا الطائفة الإسماعيلية، وهم حاليًّا البَهَرة في الهند، طوائف أكثر مما تتصور وكل طائفة تعتقد أنها على الشيعة الصحيحة أو الحقَّة.

ـ كما هو الحال لدينا في السنة: عندنا الصوفيين والسلفيون والإخوان وغيرهم الكثير...

ـ تستطيع أن تقول ذلك، ولكن الخلاف بين الطوائف الشيعية أكثر تعقيدًا وعمقًا من الخلاف بين الطوائف السنية المختلفة.

ـ لهذه الدرجة؟!

ـ نعم؛ لأن أساس الاعتقاد الشيعي قائم على فكرة الإمام، وبالتالي هنا يكمن محل الخلاف بين الطوائف الشيعية المتعددة.

ـ الموضوع كبير فعلًا.

هز الدكتور معاذ رأسه وهو يبلَع ريقه ثم أردَف قائلًا بحماسه الأكاديمي الذي عهده فيه فارس:

- لقد اختلط الأمر علينا في تحديد هوية القاتل، وإنصراف نظرنا إلى المسيحية كان متعمدًا من القاتل أو من يقف وراءه.
- ما لا أستطيع فهمه: لماذا يكشف عن هويته الحقيقية؟ لماذا لم يتركنا في وهمنا أن من يقف وراء جرائم القتل هذه المسيحية؟

فرقع الدكتور معاذ بأصبعيه وهو يقول كمن وقع على اكتشاف مذهل:

- هنا مربط الفرس يا فارس، هو تعمد أن تعرف ذلك، ومن الواضح سواءً كان هو أو جماعة تقف وراءه أن ما يقومون به ليس عشوائيًّا بالمرة، وإنما مخطط ومدبر له بعناية فائقة.
- بمعنى؟!
- بمعنى، أن فكرة صرف أنظارنا للمسيحيين والربط بينهم وبين جرائم القتل هذه يخدم فكرةً جوهريةً وهامةً للغاية، وهي أن المعتقد الشيعي نفسه ليس مجرد اختراع أو تأليف من قبل مجموعة من الناس، ولكن هناك ديانات سابقة على الإسلام؛ كانت تبشر بهذا المعتقد...

وأكبر دليل على صدق نظريتي هذه هي الآية التوراتية التي أرسلها مع الضحية الأولى، ومن بعدها آية أخرى من الإنجيل

أرسلها مع الضحية الثانية، الوصف الوارد في الآيتين ينطبق إلى حد كبير مع تصور الشيعة للمهدي المنتظر لديهم.

غرقت ملامح فارس في التفكير وتذكر الآيتين، فتدخل الدكتور معاذ قائلًا:

ـ لا يزول القضيب من يهوذا ولا القائد من فخذه حتى يأتي المزمع أن يُرْسَل، وهو سيكون انتظار الأمم، وركز أيضًا مع ذلك النص: "سيكون انتظار الأمم" وأما الآية الثانية المتعلقة برؤيا يوحنا اللاهوتي والتي تقول: "وله على ثوبه وعلى فخذه اسم مكتوب "ملك الملوك ورب الأرباب" وهذا...

توقف الدكتور معاذ ليبتلع ريقه بسرعة وهو يستشعر جفافًا في حلقه، ولكن حماسه الزائد جعله يتغاضى عن ذلك الشعور ويستكمل حديثه:

ـ وهذا سيجعلني آخذك لمسار مختلف بعض الشيء عن الإجابة التي تنتظرها مني؛ تتعلق بالخلط الذي حدث في البداية بشأن تفسير دوافع كل جريمة، وكيف اتفقت في نفس الوقت مع الدوافع الجديدة رغم تغير هوية القاتل مع الضحيتين الأخيرتين.

ـ كنت على وشك أن أسألك هذا السؤال فعلًا.

ـ هذا الأمر له خلفية تاريخية مهمة جدًّا، فلنأخذ مثالًا على ذلك، هل تتذكر صورة المسيح التي أخبرتني عنها.

ـ نعم.

ـ هذه صورة الحسين بن على.

ـ فعلًا؟!

أومأ الدكتور برأسه وأكمل:

ـ وصورة السيدة التي تحمل طفل رضيع وتعلو رأسه طاقة نور والتي من المؤكد وقع في ظنك وقتها أنها تخص السيدة مريم والمسيح لأن هذه أشهر لوحة يعرفها العالم أجمع، ولكن هذه الصورة لم تكن بالشكل المعهود الذي أَلِفناه في اللوحات الفنية المسيحية.

ـ صحيح.

ـ هذا تأثر وتلاقح الحضارات مع بعضها البعض، صورة السيدة مريم والمسيح تكررت على النحو الذي نعرفه عدة مرات قبل المسيحية في حضارات أخرى منها الحضارة المصرية القديمة.

قاطعه فارس ممازحًا وهو يلوح بيديه:

ـ لماذا تُصِرُّ في كل مرة أن تسبب لي صدمةً تاريخيةً؟

ابتسم الدكتور معاذ لمزحة فارس، ثم نهض بصعوبة من مكانه فنهض فارس من مقعده تلقائيًّا وهو يقول:

ـ أخبرني ما الذي تريده بدلًا من أن ترهق نفسك.

ـ لن تصل إليها وسط هذه الفوضى التي تعم المكتب، لقد جهزتها قبل مجيئك من أجل هذا الموضوع تحديدًا.

اتجه الدكتور إلى مكتبه وهو يتأوه من ألم المفاصل، أخذ يعبث بمحتويات مكتبه الكثيرة حتى عثر على مراده وعاد إلى فارس الذي جلس مرةً أخرى، والدكتور يجلس بصعوبة في مكانه وصدره يعلو ويهبط بسرعة ممسكًا بيده اليمنى المرتعشة صورةً فوتوغرافيةً لشيء ما، ناوله لفارس وهو يطلق العنان لسعلة قوية منعت فارس من النظر إلى الصورة، وظل محدقًا بالدكتور معاذ بإشفاق وقال له:

ـ هل هناك دواء معين من الممكن أن آتي لك به ليخفف عنك السعال قليلًا؟

لم يستطع الدكتور الرد على فارس وهو في نوبة سعاله المفاجئة، ولكنه هز رأسه نافيًا وهو يشير بيده لفارس أن يطالع الصورة، فطالع فارس الصورة ونوبة سعال الدكتور بدأت تهدأ بشكل تدريجي... كانت الصورة التي يحدق فيها لتمثال لامرأة من المصريين القدماء تحمل طفلًا صغيرًا بين يديها.

- هل تعرف من هذه السيدة ورضيعها في هذه الصورة؟
- الحقيقة لا، لولا أن الصورة فرعونية بشكل واضح لقلت أنها للسيدة مريم والسيد المسيح.
- يخرب بيت الجهل، ماذا كانوا يعلمونكم في المدارس؟

ابتسم فارس ولم يعقب في حين قال الدكتور معاذ:

- هذه صورة لإيزيس وهي تحمل بين يديها الإله حورس.
- فعلًا، إنها تشبه إلى حد كبير صورة السيدة مريم والسيد المسيح، كما لو أنها النسخة القديمة منها.
- وهي نفس صورة السيدة فاطمة الزهراء والإمام الحسين.
- لماذا تفعل بي هذا؟!

ضحك الدكتور معاذ لتعبير وجه فارس الذي وضع الصورة على سطح المائدة أمامه وتراجع أكثر في مقعده وهو يعبث بشعره محاولًا أن ينعش رأسه المرهق ليستقبل المزيد من المفاجآت.

- أتقصد يا دكتور أن المذهب الشيعي الجعفري تحديدًا به اقتباسات كثيرة من المسيحية.
- فتح الله عليك يا عم فارس، الأمر بالفعل كذلك.

- حسنًا، وذلك السفاح ومن ورائه يريدون أن يوصلوا رسالةً مفادها أن المذهب الشيعي مقتبس من المسيحية، أليس الأمر على هذا النحو غير منطقي ويتعارض مع أهدافهم المرجوة.
- أنت لم تَعِ ما قلته في بداية حديثي جيدًا، هذا الربط يعزز من المكانة الدينية للمذهب الشيعي، يمكنك أن تعتبره نوعًا من التأصيل لشرعية المذهب الشيعي من خلال استعراض تاريخ الديانات السابقة...

الهدف هنا؛ أن في صورة السيدة فاطمة والحسين إحالة لنفس الوضع الذي كانت عليه السيدة مريم والمسيح.. كل من المسيح والإمام الحسين تم خيانتهما على يد أنصارهما، الاثنان مقدسان، الاثنان تحيط برأسهما هالة نورانية أو طاقة نور...

هذا الربط يفرض هالةً قدسيةً أكثر على الفكرة الشيعية ويخدم عليها، لأنك على هذا النحو ستكون مجبرًا على وضع المسيح في حالة مقارنة مع الإمام الحسين، مما يعني أنك ساويت بينهما، وجعلتهما في مرتبة واحدة، مما يستتبع أن ترفع الإمام الحسين وأئمة آل البيت لمرتبة النبوة...

وبهذه المناسبة هم وفق معتقدهم يرون أن الأئمة معصومون من الخطأ؛ شأنهم في ذلك شأن الأنبياء، وأنهم يتلقون علمًا لدنيًّا من

الله مباشرةً، ومنزلتهم أعلى من منزلة بعض الأنبياء؛ إلا أنهم بدون رسالة.

- يا سلام!!

ابتسم الدكتور معاذ لِرَنَّة صوت فارس الاستنكارية الساخرة، فأضاف الدكتور معاذ:

- إنهم ينسبون للأئمة قدرات إلهية مثل القدرة على الخلق والرزق والإماتة والإشفاء؛ ما يُسَمى بالولاية التكوينية، وهي سلطة خوَّلَهم فيها الله بإذنه، وإذا ناقشتهم في هذا الأمر يكون ردهم الجاهز والمكرر دائمًا أن هذا مجرد تفويض من الله، كما فوض الله المسيح في إحياء الموتى وإبراء الأبرص وإبصار الأعمى.

- هذا جنون فريد من نوعه.

- ليكن في علمك؛ هذا جنون تام من وجهة نظرك أنت، وليس من وجهة نظرهم هم، وتصوير الأئمة على هذا النحو ليس من قبيل التخريف غير المقصود، ولكنه متعمد أن يقوموا بأسطرة هذه الشخصيات، وأن يصوروا لأتباعهم أن للأئمة هذه القدرات لأن في هذا إسقاط على المرجعيات الشيعية وهو رسم هالة قدسية حولهم، ورفعهم لمكانة فوق البشر...

وبالتالي إتباعهم هو إتباع للأئمة وتصديقهم في كل ما يذهبون إليه هو تصديق للأئمة، أي تصديق لله وإتباع لله، فأسطرة بعض

الشخصيات التاريخية لم يحدث من قبيل المصادفة أو تخلف تلك العصور وقتها؛ ولكنها مقصودة ومتعمدة كما أسلفت.

ـ وإن يكن، يبقى هذا خارج إطار المعقولية ويجنح لجنون محض في طريقة التفكير.

ـ جنون أو عقل، هذا هو الواقع الحالي، ومن كل ما سبق وقلته فإن استنتاجي أنا الشخصي لطبيعة المذهب الشيعي الجعفري أنه خليط بين الإسلام والمسيحية واليهودية، وهذا ما جعلنا ننصرف في بادئ الأمر عن هوية القاتل الأصلية...

ـ هذا الموضوع يحتاج بالتأكيد إلى فنجان قهوة مركز لأني أريد أن أناقشك في الكثير من الأمور التي طرحها علي سيد.

هم فارس بالنهوض ولكن استوقفه قول الدكتور:

ـ موضوع اليمن مثلًا.

نظر إليه فارس مذهولًا وقال:

ـ هل كنت معنا أم ماذا؟

ضحك الدكتور معاذ أمام ملامح الذهول التي طغت على وجه فارس وعقب:

ـ هذا لأن معلوماتك التاريخية والدينية تستوي مع الرقم صفر فقط.

لوح بيده اليمنى مضيفًا:

ـ اذهب لإعداد فنجان القهوة لأن النقاش سيطول بنا اليوم.

هز فارس رأسه وهو يقول:

ـ يبدو الأمر كذلك فعلًا.

وفارس يتجه إلى المطبخ سأل الدكتور بصوت عالٍ:

ـ متى ستحضر شقيقتك يا دكتور؟

نظر الدكتور إلى ساعة يده وأجاب:

ـ المفترض أنها على وصول، لأنها هاتفتني منذ ساعة وأخبرتني أنها غادرت بيتها.

غاب فارس في المطبخ لدقيقة، دق جرس الباب، برز فارس من المطبخ متجهًا لباب الشقة يفتحه ليستقبل شقيقة الدكتور معاذ بترحاب والتي تلقته بترحاب مماثل.

ـ كيف حالك يا فارس؟

ـ بخير الحمد لله، وأنتِ؟

ـ بخير الحمد لله.

اتجها إلى الصالة ليقف الدكتور معاذ في صعوبة يستقبل شقيقته بابتسامة كبيرة، ويفتح ذراعيه لها قائلًا:

ـ أهلًا بمن تنساني دائمًا.

احتضنته وهي تقول مازحةً:

ـ لا تفضحني أمام فارس.

ربت على ظهرها وهو يقول:

ـ فارس ليس بالغريب.

جلس بصعوبة واتخذت هي مجلسها على الأريكة الطويلة بجواره وفارس يقول:

ـ هل تحبين أن أصنع لك فنجان قهوة معي؟

ـ نعم يا فارس، فأنا بحاجة شديدة إليه.

ثم استدركت قائلةً في خجل:

ـ ما الذي أقوله؟ لا يصح هذا، أنا من يجب أن أصنعه لي ولك.

ـ لا تصنعي فارقًا بيني وبينك.

نهضت من مكانها بسرعة وهي تلوح بذراعيها نافيةً وهي تقول:

ـ لن يحدث، اجلس أنت بجوار معاذ، وأخبرني كيف تحب قهوتك؟

انصاع فارس أمام إصرارها، وقال بابتسامة خجول:

ـ مضبوط.

ـ مثلي.

اتجهت إلى المطبخ، ثم علقت في سخرية:

ـ كما عودتني دائمًا يا معاذ، المطبخ في حالة يُرْثَى لها.

ضحك الدكتور معاذ بدون صوت وجسده يهتز في حين اتخذ فارس مقعده بجوار الدكتور. نظر الدكتور إلى فارس الذي ظهر في عينيه التوسل لأن يكمل الحديث، فانقلبت ملامح الدكتور للجدية، وهو يكمل ما انقطع من حديثهما:

ـ ما أدى للخلط في تحديد هوية السفاح هو التلاقح الحضاري والديني بين الحضارات المختلفة، وهذا الأمر سنة طبيعية في أي اجتماع بشري...

مثلًا؛ ستجد عند الشيعة الجعفرية أن المخول له إقامة دول إسلامية شيعية هو الإمام المهدي فقط، وغير مقبول دينيًّا إقامة أي دولة إسلامية شيعية قبل ظهور المهدي، وأي دولة تُقَام تحت هذا المُسَمى هي دولة طواغيت فقط...

والخميني حاول أن يتحايل على تلك المعضلة الفقهية التي اخترعوها لأنفسهم بما يُسَمى بولاية الفقيه لحين ظهور المهدي، وقُوبِلت الفكرة بمعارضة مرجعيات شيعية في إيران...

وتجد للفكرة نفسها صدًى في الديانة اليهودية وهو أن المسيا أو المسيح المنتظر لدى اليهود هو المخول فقط بإقامة دولة اليهود الدينية، وأنه لا يجوز إقامة أي دولة لليهود قبل ظهور المسيا...

وعندما قامت دولة إسرائيل قُوبِلت أيضًا بمعارضة واسعة من عدد من الحاخامات واعتبروها إنذارًا بدمار اليهود.

بشكل سينمائي يتخيل فارس شاشةً وقد انقسمت إلى نصفين، الشاشة اليمنى تعرض صورة الخميني واقفًا على منصة مرتفعة متجهم الوجه، وأسفل المنصة عدد من المرجعيات الشيعية بملابسهم السوداء؛ يعارضونه ويلوحون بقبضاتهم غاضبين، وفي الشاشة اليسرى يقف عدد من الحاخامات اليهود وأمارات الغضب تعلو وجوههم ويعطون ظهورهم لرجل بزي مدني.

- **وتجد أنهم اقتبسوا شكل المواكب الحسينية من جلد الذات والضرب بالسيوف ومواكب الدم التي اشتهرت بها الكنيسة الأوربية، وأيضًا التماثل في بناء الحسينيات وزينتها ووظائفها، وعن تشابهات في طقوس التطبير واللطم والضرب بالجنازير؛ تماثل ما لدى الكنيسة... وتشتبك أيضًا مع الطقوس البوذية...**

ويُذْكَر أن وزير الشعائر الحسينية في الدولة الصفوية التي نشأت في إيران ذهب لأوروبا الشرقية، وكانت تربطها بالدولة الصفوية روابط حميمة فيها الكثير من الغموض، وعمل هناك تحقيقات ودراسات واسعة حول المراسم الدينية، والطقوس المذهبية والمحافل الاجتماعية المسيحية، وأساليب إحياء ذكرى شهداء المسيحية والوسائل المتبعة في هذا...

وزير الشعائر الحسينية بملابسه الشرقية يقف بالقرب من إحدى المواكب المسيحية؛ التي تُحيي ذكرى شهداء المسيحية، ويتابعها باهتمام بالغ وقد وقف إلى جواره أحد القساوسة؛ يهمس له ببضع الكلمات كل حين، والآخر يهز رأسه بتأثر وانبهار شديدين.

- حتى نمط الديكورات التي كانت تتزين بها الكنائس في تلك المناسبات، واقتبس هذه المراسيم والطقوس، وعاد بها إلى إيران، واستعان ببعض الملالي ليقوموا بإضفاء تعديلات عليها؛ حتى يصلح استخدامها في المناسبات الشيعية، وتكون منسجمةً مع الأعراف والتقاليد الوطنية المذهبية في إيران...

وهذا أدى إلى ظهور موجة جديدة من الطقوس والمراسم المذهبية؛ لم تكن معهودةً في الفلكلور الشعبي الإيراني، ولا في الشعائر الدينية الإسلامية، ومن بين هذه المراسيم: النعش الرمزي والضرب بالجنازير والأقفال والتطبير، واستخدامهم للآلات الموسيقية، وأشكال جديدة في قراءة المجالس الحسينية جماعةً وفرادى.

مجموعة من الرجال يرتدون ملابس سوداء، ويعصبون جبينهم بعصابة خضراء كُتِب عليها (يالثارات الحسين)، ويحملون نعشًا رمزيًّا ملفوفًا بغطاء قماشي حريري أخضر اللون، يسيرون به في الطرقات المؤدية لإحدى المآتم الحسينية والناس يصطفون على جانبي

الطريق؛ يبكون وينوحون، ومجموعة أخرى تسير خلف النعش، ويلهبون ظهورهم مع كل نداء بالجنازير؛ فيدمي ظهورهم وقد احتقنت وجوهم من شدة الآلام والغضب.

- وهي مظاهر تم استيرادها بالكامل من المسيحية؛ بحيث يستطيع كل إنسان مطلع على تلك المراسيم أن يلحظ بكل وضوح أن هذه المراسيم نسخة مكررة من مثيلتها الأوربية...

أما النوائح والذي يؤدى بشكل جماعي؛ فهو تجسيد دقيق لمراسيم مشابهة تُؤَدى في الكنائس اسمها (كر)، وأيضًا الستائر ذات اللون الأسود التي كانت تُوضَع على الأبواب وأعمدة المساجد والتكايا والحسينيات هي بالضبط كأنها مرايا لما كان يدور بالكنيسة في مثل هذه الاحتفالات الدينية، مضافًا إلى كل هذا مراسيم التمثيل لوقائع وشخصيات كربلاء وغيرها؛ تحاكي مظاهر مماثلة لما كان يُقَام في الكنائس أيضًا.

السماء رمادية اللون وتمتلئ بالكثير من السحب، والستائر السوداء ترفرف في الهواء عاليًا... تلك الستائر المنسدلة على عمودي مدخل الجامع وعلى نوافذه الأمامية، وفي ساحة المسجد يقف مجموعة من المنشدين ينشدون بصوت شجي ما وقع من أحداث في كربلاء، والناس متحلقون من حولهم جلوس يخفون وجوههم بين أيديهم يبكون بصوتٍ عال.

ـ وأيضًا عملية تصوير الأشخاص رغم كراهة ذلك في الدين الإسلامي سواء السني أو الشيعي إلا أنه تم إدخاله ودمجه في المذهب الشيعي، حتى هالات النور التي تُوضَع على رأس صور الأئمة وأهل البيت هو تقليد مقتبس من المسيحيين...

والمسيحيون أيضًا اقتبسوا هالة النور الموضوعة على رؤوس المقدسين عندهم من الحضارة المصرية القديمة للملوك والآلهة المصريين مثل حورس وإيزيس وأوزوريس مثلًا... وأيضًا في احتفالاتهم الدينية جذور أخرى ممتدة لطقوس موروثة عن قصص أيزد ويزدان وغيرها من المعتقدات الزرادشتية في إيران القديمة.

قطع حديثهما ظهور شقيقة الدكتور معاذ بصينية تحمل عليها فنجانين من القهوة، وضعت واحدةً أمام فارس، ثم جلست بجوار الدكتور معاذ تضع الصينية أمامها وتقول بابتسامة مؤدبة على شفتيها:

ـ أعتذر عن مقاطعتكما، اشرب القهوة يا فارس، أتمنى أن تعجبك، فأنا ماهرة في صنع القهوة، أليس كذلك يا معاذ؟

هز معاذ رأسه في صمت ولم يَبدُ سعيدًا بمقاطعتها لحديثه، فهو حين يندمج كليًّا في أي حديث أكاديمي عادةً ما يكره من يقطع حبل

أفكاره المسترسل، ولكن بدا أنها لم تلحظ تغير وجهه، وأكملت في رنة صوت مازحة:

ـ ولكن بالطبع لم أصنع لك واحدةً يا معاذ لأنها ترفع لك ضغط الدم، ووضعك الصحي لا يسمح بذلك، فأنت من أصحاب ضغط الدم المرتفع أساسًا.

لم يعقب أي منهما على حديثها، بدا أنهما غير مهتمين بما تقوله، فآثرت الصمت بعد أن قالت:

ـ أكملا حديثكما.

اتجه معاذ بنظره إلى فارس الذي قال باهتمام:

ـ ولهذا السبب أخطأنا في تحديد هوية القاتل منذ البداية، ثم قرر هو بنفسه أن يكشف في حادثة القتل الأخيرة عن هويته الأخيرة.

ـ بالفعل.

تناول فارس فنجان القهوة ورشف منه رشفةً ثم أعاده إلى مكانه ويضيف:

ـ حسنًا، وبعد أن عرفنا هوية السفاح، هنا يأتي السؤال الهام، ما هو دافع السفاح من جراء قتل كل هؤلاء وما هو الرابط بينهم؟

تنهد الدكتور معاذ وقد بدا أن هذا السؤال سيطول وقت الإجابة عليه وقد قال:

ـ هذا الموضوع تحديدًا يطول الحديث فيه لأنه مُتَشعِّب وبه محاور متعددة.

ـ هل هذا ترجمة للقول: اشرب قهوتك، ثم شرفنا برحيلك السريع.

ضحك الدكتور معاذ وشاركَتْهُ شقيقته الابتسامة، ثم رد على فارس:

ـ لا تقلق، نحن حتى لم نتجاوز وقت العصر.

ـ جيد، تصورت أنك تطلب مني الرحيل.

تدخلت شقيقة الدكتور معاذ قائلةً:

ـ لا تقل هذا يا فارس.

ـ الأمر كله يبدأ من اليمن.

ـ كما قال سيد.

ـ نعم.

ـ وهذا هو السؤال الثاني، لأنه حدثني عن الثورة في اليمن والمعارك التي تدور رحاها الآن في اليمن، وما يحدث في سوريا والعراق، وأن كل ما يحدث لا علاقة له بما يتم الترويج له على أنه مخطط أمريكي صهيوني، بل هو تخطيط إلهي يمهد لظهور المهدي المنتظر.

ـ لا تستغرب من كلامه، لدينا أيضًا نحن السنة تلك النظرة لما يحدث في الشرق الأوسط، ولكن دعنا نركز جهدنا وقراءتنا على

الشيعة، ولماذا ذكر لك اليمن تحديدًا لأنه مرتبط بظهور ما يسمى باليماني الموعود.

قاطعه فارس متسائلًا:

ـ لقد أتى على ذكره أيضًا، وهل هو يختلف عن المهدي المنتظر؟

قال الدكتور معاذ بنفاذ صبرٍ لأنه يكره من يقاطعه:

ـ هل من الممكن أن تسمعني للآخر؟

ـ آسف يا دكتور، تفضل.

هز الدكتور رأسه بطريقة أكاديمية كمَن قبل اعتذار الطرف الآخر وأردف قائلًا:

ـ اليماني الموعود هو من سيبشر بظهور المهدي المنتظر عند الشيعة، أحد أهم سفراء المهدي المنتظر لعامة الشيعة، وظهور اليماني الموعود مرتبط بحدوث ثورة في اليمن، وهو ما حدث الآن، كما تسمع في نشرات الأخبار عن الحوثيين وبَسْط سيطرتهم على شمال اليمن ومحاولة بسط سيطرتهم على محافظات جنوب اليمن، وتصدي السعودية لهم ودعم إيران للحوثيين.

رجل ممشوق القوام طويل يرتدي عباءةً سوداء، ويعدل من وضع عمته السوداء فوق رأسه؛ يتأمل لحيته البيضاء وتهذيبها، ثم يخرج

من غرفته ليقف أربعة رجال معممين ينحنون أمامه في توقيرٍ بالغ، فيدعوهم بيديه بابتسامة بسيطة أن ينتصبوا مرةً أخرى، فينتصبون وهم يفسحون له الطريق ليمُر بينهم باتجاه الساحة المفتوحة ليستقبله الناس المتجمهرة أمام ساحة بيته.

- والحوثيون هم شيعةٌ زيدية ينتسبون إلى الإمام زيد بن علي، ومن خلال تعامُلي معهم في سنوات إعارتي باليمن على الرغم من اختلاف مذهبهم عن الجعفرية الإيرانية إلا أنه تبين لي أن قطاعًا كبيرًا منهم يدين بالمذهب الشيعي الجعفري على نحو سري، وعلى رأسهم عبد الملك الحوثي الذي يرأس الحوثيين الآن...

حيث إن شقيقه حسين الحوثي زعيم الحوثيين سابقًا تتلمذ على يد مرجعيات شيعية في النجف بالعراق، وأعد العديد من الدراسات حول المذهب الشيعي الجعفري، وهو له الدور الأكبر في إدخال التشيع الجعفري إلى طائفة الزيدية.

ينحني حسين الحوثي ليقبل يد مرجعٍ شيعي مُسِن، والآخر يضع يده اليمنى على كتف حسين، ثم ينتصب حسين واقفًا تعلو شفتيه ابتسامة واسعة، والمرجع الشيعي يبادله الابتسام في حين يقف عدد آخر يصفق.

- ووفق المرويات الشيعية الجعفرية؛ فإن اليماني الموعود سيخرج من قرية اسمها كرعة في اليمن، وهناك فعلًا قرية في اليمن بهذا الاسم في منطقة بني خولان وهي قريبة من صعدة معقل الحوثيين، وإن هذا اليماني سيحارب السفياني، وهذا السفياني محسوب على أهل السنة وعندهم أحاديث تذكر فضل الإيرانيين في التمهيد لظهور الإمام المهدي ومساندة اليماني الموعود.

يتخيل فارس اليماني الموعود بقوامه الممشوق يعتلي إحدى عربات الدفع الرباعي، ومن حوله عدد من حراسه يشهرون أسلحتهم عاليًا؛ يطلقون الأعيرة النارية ترحيبًا بوصول اليماني الموعود إلى معسكر المقاتلين الرابضين على مشارف مدينة مكة.

تتوقف السيارة وسط غبار رملي كثيف، ويهبط منها اليماني الموعود في وقار وسط عبارات التهليل وصياح المقاتلين المرددة لهتاف: "لبيك يا حسين" ... "يالثارات الحسين" ...

- وكما ترى؛ فإنه وفق ما يحدث الآن في الشرق الأوسط فإن إيران تقوم بدور حاسم في مسألة الصراع السني الشيعي في العراق وسوريا ولبنان واليمن والبحرين، وإثارة المنطقة الشرقية في السعودية...

وكما ترى يبدو أن هناك خليةً شيعيةً سريةً انتقلت من اليمن إلى مصر لتبدأ عمليات ترتيب ظهور اليماني الموعود من مصر

وعلى الرغم من تأخر دور مصر الإقليمي إلا أنها ما زالت الدولة المحور في المنطقة...

ولا تنسى أن مصر كانت فاطمية شيعية في وقت من الأوقات، وهناك حنين شيعي لاستعادة مصر الشيعية مرةً أخرى على الرغم من اختلاف المذهب الشيعي الفاطمي عن الجعفري إلا أنها تقع في نهاية الأمر تحت مظلة التشيع و...

قاطعه فارس في حماس:

- وبالتالي؛ فإنه من المفترض أن اليماني الموعود قد ظهر فعلًا، ولكن لم يعلن عن وجوده حتى الآن ومن الممكن أن يكون انتقل من اليمن إلى مصر كما قلت أنت، وأن جرائم القتل التي تُرْتَكب الآن في مصر ما هي إلا علامات تؤيد أنه هو اليماني الموعود.

أومأ الدكتور معاذ برأسه مؤمِّنًا على كلام فارس، ثم عقب على كلامه:

- ولكن هذا مجرد ترجيح، وأعتقد أنه من الواجب عليك أن تنبه الشرطة لهذا الأمر، يجب أن يبحثوا في قوائم اليمنيين الذين دخلوا مصر منذ بدأت الثورة اليمنية حتى الآن، لربما استطاعوا الوصول لليماني الموعود؛ الذي بالضرورة سيمكن الشرطة من

أن تضع يدها على السفاح، الحقيقة أن الأمل في هذا الخيط ضعيف ولكنه يستحق عناء البحث.

ـ ولكن من المؤكد أنه وضع في حسبانه ما أثرته الآن، ولربما دخل هو وجماعته بجوازات سفر مزورة.

ـ هذا الأمر محتمل، وكما قلت هو أمل واهٍ؛ لكنه يستحق عناء البحث.

هز فارس رأسه موافقًا رأي الدكتور وتبادر إلى ذهنه سؤال آخر:

ـ حسنًا، إذن ما أريد أن أعرفه عن ذلك السفاح تلك التوجيهات التي تصل إليه ليقتل ضحاياه، على أي أساس يقوم بانتخاب ضحاياه، لأنه من الواضح أنها لا تتم بطريقة عشوائية.

ـ آه يا فارس، سؤالك هذا يحتمل إجابات عدة، والآن أشعر بأن معدتي تصرخ جوعًا.

ابتسم فارس في حين أردَفت شقيقة الدكتور معاذ قائلةً بحماس مفاجئ:

ـ ما رأيكم في أن نطلب بعض من الطعام؟

فكر الدكتور معاذ ثم قال:

ـ لا بأس، ماذا نطلب؟

نهضت من مكانها في حماس وهي تقول بابتسامة عريضة:

ـ اتركا لي هذا الأمر، سأتدبر الأمر وأكملا حديثكما.

شكرها الدكتور معاذ بنظرة من عينيه، ثم أدارهما إلى فارس مضيفًا:

ـ حتى أجيبك على هذا السؤال يجب أن أرجع بك أولًا إلى تاريخ قديم مباشرةً بعد مقتل الإمام الحسين بعد موقعة كربلاء على يد جيش يزيد بن معاوية.

ـ ما الذي حدث بعد مقتله؟

ـ ظهرت حركة اسمها التوابون بزعامة شخص اسمه سليمان بن صُرد الخزاعي، ومعه أربعة من قيادات الحركة؛ لا أستطيع تذكر أسمائهم في الوقت الحالي...

ولكن المهم في هذه الحركة أن أهدافها الرئيسية هي التكفير عن ذنب أهل الكوفة بتخاذلهم عن نصرة الإمام الحسين، وأن يتخذوا موقفًا انتقاميًّا من المسؤولين عن مقتل الإمام الحسين؛ سواء كان أمويًّا أو متعاونًا معهم، وتجسيد فكرة الاستشهاد عن طريق اعتزال النساء والتنازل عن أملاكهم وتحقيق التوبة من خلال التضحية بالنفس في كفاح مسلح ضد الأمويين.

كعادة فارس عقله يعمل كآلة تصوير سينمائية يجسد فيها حكايات التاريخ حتى يستطيع هضمها جيدًا، فهو الآن يرى سليمان بن صرد الخزاعي ـذلك الرجل المسنـ يقف بين أربعة من رفاقه في ساحة

دارِهِ الداخلية بمدينة الكوفة؛ يناقشهم في أهداف الحركة ودوافعها، وهم يؤمنون على كلامه الحماسي برؤوسهم...

يحتقن وجه سليمان من الانفعال فيزداد احمرارًا، فيلوح بيده اليمنى وقد علا صوته من فرط حماسه، فيُهَلِّلُ الجمع وقد أدار سليمان رأسه بينهم في سعادة بالغة.

ابتلع الدكتور معاذ ريقه بعد أن شعر بجفاف في حلقه، ثم أضاف:

- هذه الحركة فشلت عسكريًا في نهاية المطاف وبعدها ظهرت حركة المختار وهو ابن أبي عبيد الثقفي وكان هدفه التنكيل بقتلة الإمام الحسين وحصل على مباركة محمد بن الحنفيّة ابن الإمام علي.

المختار بقوامه الممشوق يتقدم بخطوات سريعة من مجلس محمد بن الحنفية ذلك الشيخ الوقور يميل نحوه ويقبل يده، وقد علَت وجه محمد بن الحنفية ابتسامةٌ واسعة.

- والمختار رأى في نفسه أنه قائد ثورة الضعفاء والمستضعفين من عرب وفرس، فضلًا عن أطماعه؛ كان يريد أن يصبح زعيمًا يتم تداول اسمه بين العرب، وكان عبد الله بن الزبير طامعًا في الاستيلاء على ولاية الكوفة، فرفض خدمات المختار الذي حارب معه وقت حصار مكة، وله أعمال بطولية مع بن الزبير...

واستطاع المختار أن يستقطب عددًا كبيرًا من العراقيين حول ثورته ممن كانوا ينقمون على الخلافة الأموية، وأيضًا ينقمون على بن الزبير والطبقة الأرستقراطية العراقية المحلية، ونجح قائد جيش المختار إبراهيم بن الأشتر النخعي ابن قائد جيش الإمام علي في أن يهزم جيش عبيد الله بن زياد الأموي على نهر المناذر.

وقف إبراهيم بن الأشتر النخعي على رأس جيشه يرفع سيفه عاليًا وهو يردد التكبيرات ومن ورائه جيشه، يستعرض أمامه قتلى جيش عبيد الله بن زياد على ضفاف نهر المناذر... تحرك بجواده يمر بصفوف جيشه الذي وقف يهلل لهذا الانتصار الكبير وسيفه يرفعه عاليًا وقد لمع تحت ضوء الشمس المبهر.

- وعمل المختار عملية تطهير واسعة لقتلة الحسين، ولم يشفع لديه زعمهم بأنهم قاتلوا مُكرَهين، ووصل به الأمر إلى حد ادعاء النبوة، في هذا الوقت أمر عبد الله بن الزبير أخاه مصعب والي البصرة بأن يهاجم المختار في الكوفة والقضاء عليه، وبعد حصار جيش مصعب للكوفة أربع شهور قُتِل المختار وأتباعه، وكان عددهم تقريبًا سبعة آلاف.

المختار يزحف على تلك الرمال الساخنة مُثخَنًا بالجراح في كل أنحاء جسده، يحاول أن يرفع رأسه التي تتصبب عرقًا، يشاهد أنصاره

قتلى من حوله على امتداد البصر من كل الاتجاهات، يتوقف عن الزحف وهو يسمع وقع خيل يقترب منه ويثير التراب من حوله...

يدير رأسه للخلف بصعوبة وهو يتطلع لأعلى، لذلك الجواد الذي يستقر فوقه مصعب بن الزبير، ينظر له شزرًا، ثم يرفع سيفه عاليًا ونصله يلمع، ثم يميل مصعب بجسده من على صهوة جواده باتجاه المختار الذي يصرخ في فزع وهو يحاول رفع ذراعه الأيسر كمحاولة يائسة منه ليصد ضربة السيف المتجهة إلى عنقه.

آثر الدكتور معاذ الصمت ليترك المجال لفارس ليفكر فيما قصه عليه، وكان يتوقع من فارس سيلًا آخر من الأسئلة... فارس كانت ملامحه غارقةً في التفكير وهو يستعيد بسرعة كل ما ذكره الدكتور معاذ حتى قال:

- حسنًا، الإسقاط التاريخي الذي فهمته من حديثك أن السفاح والتنظيم الذي وراءه يقومون حاليًا بإعادة إنتاج لهذه الأحداث التاريخية مرةً أخرى وهو إحياء حركة التوابين، وحركة المختار في العصر الحالي...

وعلى الرغم من منطقية الفكرة ولكن ما زالت هناك الحلقة المفقودة، وهي كيف ينتخب السفاح ضحاياه، ما قصصته منذ وهلة متسق؛ لأنه يقع في فترة زمنية واحدة قريبة جدًّا من مقتل الإمام الحسين، فمن الطبيعي أن يكون قتلته ما زالوا على قيد

الحياة، ولكن بعد مضي أربعة عشر قرنًا من الزمان، لقد قضى القتلة نحبهم!

هم الدكتور معاذ بأن يجيب وقد توقع هذا السؤال من طرف فارس، ولكن فارس لم يمهله وقد اندفع قائلًا منشغلًا بالفكرة التي تختمر في رأسه:

ـ أفهم أنها محاولة منهم لإعادة تمثيل الحدث التاريخي، ولكن السؤال هو في كيفية إعادتها.

ابتسم الدكتور معاذ وهو يقول ساخرًا:

ـ على عقلك الصدأ يا فارس، كيف لا تستطيع الربط؟

احتقن وجه فارس من سخرية الدكتور معاذ وهو يجيب بصوت شابته بعض الحدة:

ـ لا أستطيع الربط لأن قتلة الحسين ماتوا منذ مئات السنين.

ابتسم الدكتور معاذ مرةً أخرى وهو يميل نحو فارس ملوحًا بيده اليمنى معقبًا:

ـ أليس لهؤلاء القتلة ذرية يمكن الانتقام منهم؟

ـ ماذا؟! أنت تتحدث مثل سيد بالضبط.

ـ عندما أشرح لك الأمر سيزول هذا الاستغراب.

ـ ولكن الكلام لا يبدو منطقيًا بالمرة.

ـ ليس منطقيًّا من وجهة نظرك أنت، ولكنه منطقي جدًّا من وجهة نظرهم هم.

ـ اعذرني، ولكن كيف سيتعرف أولًا على ذريتهم، وأنت تتحدث عن حدث تاريخي وقع منذ ألف وأربعمائة عام مضت؟

ـ قبل أن نخوض في هذه الجزئية، ألسنا متفقين على أننا عرفنا من هم قتلة الإمام الحسين.

لم يستطع فارس صبرًا وقاطع الدكتور محتجًا:

ـ متفقان، ولكنك لم تجب بعد كيف سنتعرف على ذريتهم؟

لم يستأ الدكتور معاذ لمقاطعة فارس هذه المرة؛ فهو يستلذ دائمًا بإلقاء الأحجية والألغاز على طلابه قبل أن يشرع في الإجابة، ويستمتع بحصد علامات الاستفهام والاستنكار من على وجوههم؛ فأكمل في هدوء:

ـ ومن قال لك أن ذرية معاوية بن سفيان غير معروفة في هذه الأيام؟!

ـ أنت بالتأكيد تمزح!

ـ أو أنك جاهل؟!

غير الدكتور معاذ وضعية جلوسه لشعوره بتصلب في مفاصله وهو يتأوه في خفوت، في حين عادت مرةً أخرى شقيقته لتجلس بجواره وهي تقول:

ـ لقد طلبت بيتزا، هل من مُعترض؟

هز كلاهما رأسه نَفيًا، ثم قال الدكتور معاذ:

ـ هناك قبيلة آل عياض وقبيلة آل حرب وقبيلة آل الصفار وقبيلة بنو شادي، جميعهم ينتسب بشكل مباشر إلى ذرية معاوية بن أبي سفيان، وهم متفرقون في شتى أنحاء الوطن العربي بعد هزيمة العباسيين للدولة الأموية، ومن هذه القبائل من استقر في مصر.

هَمَّ فارس بالاعتراض، ولكن الدكتور استوقفه بإشارة حازمة من يده اليمنى لأنه أدرك ضمنيًّا مغزى الاعتراض وقال:

ـ ستقول إن هذا كلام ليس عليه دليل قطعي الثبوت، فمثلًا هناك الأشراف الذين ينسبون أنفسهم إلى ذرية الرسول وآل البيت ونعلم أنه من السهل استخراج شهادة الأشراف هذه.

هز فارس رأسه كتلميذ مبتدئ في حين كان الدكتور يقول:

ـ التاريخ من وجهة نظري الشخصية ـ وقد يختلف أكاديميون معي في هذا ـ هو جملة من الأكاذيب، أغلبه يحتمل الخطأ، هذا ما وقر

في ذهني حول التاريخ من دراستي له، ولكن هل نحن نحاكم التاريخ أم نستخدمه من أجل أن نعرف كيف يفكر هؤلاء؟

شعر فارس بالضيق من نفسه لأنه لم ينتبه إلى هذه الزاوية من الحوار والهدف منه، ولامَ نفسه على ذلك، كل ذلك دار بخلده في جزء من الثانية، ولكنه تغاضى عن ذلك وتخطاه ليسمع المزيد من الدكتور معاذ الذي كان يقول:

ـ لذلك في ظني أن الضحايا لن يخرجوا عن هذه القبائل، والذين لبعضهم وجود فعلي في مصر، بهذه الطريقة يمكن تضييق دائرة البحث.

ـ ولكن مثل هذه الفرضية من الممكن أن تستغرِقَنا سنوات، نحن لا نتحدث عن البحث في نطاق عدة أشخاص، ولكن نتكلم عن أربعة قبائل أو عائلات في مصر مما يعني أننا نتكلم عن عدة آلاف، المفروض نتحرى عنهم جميعًا...

ـ ولكن وفق النظرية التي تدور رحاها في عقلي أن السفاح لن يقتل كل رجال هذه القبائل.

ـ ولِمَ لا، أليسوا كلهم من ذرية معاوية بن سفيان؟!

ـ دعني أكمل نظريتي للآخر.

قالها الدكتور معاذ في ضيق، فاعتذر فارس بعينيه في حين ارتسمت ابتسامة باهتة على شفتي شقيقة الدكتور، وذلك لمعرفتها بطباعه. ابتلع الدكتور معاذ ريقه وأكمل:

ـ سيقتل تحديدًا اثني عشر رجلًا فقط، وأنا شبه متيقن من نظريتي هذه.

ـ ولماذا اثني عشر شخصًا فقط؟

فرقع الدكتور معاذ بأصبعيه وهو يجيب:

ـ لأنه عدد سحري عند السحرة، وعدد مقدس عند الديانات السماوية الثلاثة، وكثير من الديانات الوضعية، عدد القبائل اليهودية وفق التوراة اثنا عشر، وعدد تلامذة المسيح اثنا عشر، وعدد النقباء الذين خرجوا من المدينة ليتفاوضوا مع الرسول على صحيفة المعاقل كانوا اثنا عشر، والمذهب الشيعي الجعفري يعتمد اثنا عشر إمامًا فقط لآل البيت... إنه رقم مقدس.

غاص فارس في مقعده يتفكر في كلام الدكتور وهو يقلبه من كذا وجه فعقله، فترجم هذا التفكر إلى هزة من رأسه، ورفع كلتا يديه قائلًا ببطء لأنه يفكر فيما يقول:

ـ هذه النظرية فيها خلل بسيط من الممكن أن يقضي عليها بالكامل.

عقد الدكتور حاجبيه وهو يقول:

ـ وما هي؟

ـ أليست كل هذه القبائل مسلمة؟

أومأ الدكتور معاذ برأسه وهو ينتظر توضيحًا أكثر من فارس الذي قال:

ـ وهناك قتيل مسيحي.

رفع فارس حاجبيه وخفضهما علامة الانتصار على الدكتور معاذ الذي ابتسم في ثقة وهو يرد:

ـ هناك فرع من آل حرب مسيحي أساسًا، ويتركز وجودهم في لبنان، لقب العائلة عندهم ينتهي بحرب، ومن المؤكد أنه إذا بُحِثَ وراء القتيل المسيحي سَنَجِدُ أن له جذورًا لبنانية من أبيه أو جده...

لم يشغل فارس أن الدكتور انتصر عليه في حُجَّتِهِ، ولكنه استغرق بعض الوقت يستوعب كلام الدكتور ثم سأله:

ـ إذن؛ وفق نظريتك يمكن حصر الضحايا حاليًّا في أربع عائلات فقط، من المحتمل تواجدهم في مصر، وينتسبون إلى معاوية، وجميع ضحايا السفاح من الرجال، فتضيق دائرة البحث أكثر، ومن بعد ذلك يأتي أنه سيقوم بقتل ثلاثة رجال من كل عائلة أو ينتخب واحدةً، ويقتل منهم الاثني عشر أو أيًا يكن الأمر...

كل هذا جيد، ويظل السؤال الملعون الذي يطاردنا بعد كل هذا كيف سيقوم بانتخاب الاثني عشر ضحيةً.

لم يكن يتوقع فارس أن يكون المجيب هو شقيقة الدكتور التي قالت في حماس:

ـ هذه الإجابة من الممكن أن تكون عندي.

التقى نظر كليهما بعيني شقيقة الدكتور التي أشارت إلى نفسها بشيء من الفخر:

ـ أنا خريجة كلية علوم قسم حيوان ـ كيمياء بتقدير جيد جدًّا.

عقَّب الدكتور معاذ ساخرًا:

ـ تشرفنا يا أستاذة ليلى.

ابتسمت لسخريته ثم تجاوزتها قائلةً:

ـ عن طريق (الدي إن إيه)، أو الخريطة الجينية لكل إنسان.

بدا الاهتمام على وجه فارس في حين رفع الدكتور معاذ حاجبيه وخفضهما معجبًا بالفكرة في حين سأل فارس:

ـ هل من الممكن أن توضحي الأمر أكثر؟

ـ قرأت كتابًا ذات مرة اسمه سبع بنات لحواء، كتبه باحث علمي اسمه بريان سايكس متخصص في علم الوراثة والبيولوجيا

الجزئية، قام بعمل أبحاث على نوع مختلف من الجينات، غير الجينات المتواجدة في نواة الخلية...

هذا النوع يتواجد داخل أجزاء من السيتوبلازم، اسمها الميتوكوندريا، وجينات الميتوكوندريا تورث من الأم فقط، وليس من الأب والأم معًا كما يحدث مع جينات النواة...

وبالتالي دراسة دي إن إيه الميتوكوندريا قادت أبحاثه لمعرفة الأمهات السلف، وبواسطة هذا البحث استطاع أن يتعرف على تسلسل نسب الأمهات السلف من الأم للجدة وجدة الأم وهكذا، حتى وصل لأول مرة بدأت بها أي جماعة والتي يسمونها أم العشيرة السكانية...

وأثبتت أبحاث سايكس حول دي إن إيه الميتوكوندريا الموجودة في الأوروبيين المحدثين أن لهم سبعة أمهات عشائر؛ سماهم البنات السبع لحواء، وهناك قصة يتناول فيها إثبات صلة قرابة بين سيدة حية معاصرة وإنسان عثروا على جثته محفوظةً في الجليد منذ خمسة آلاف سنة...

لقد ضربت لك هذا المثال لتقريب الفكرة ليس أكثر ولكنه علمياً لا ينطبق على حالتنا هذه، فهم بمنتهى السهولة إذا افترضنا أنهم استطاعوا التوصل للدي إن إيه الخاص بمعاوية يستطيعون أن

يحددوا انتماء الخرائط الجينية للضحايا الحاليين بنسب وليس بشكل قطعي.

تعابير وجه الدكتور معاذ تدل على الإعجاب بطرح شقيقته لهذا الشق العلمي، ومما جعل فارس يطمئن لطرحها العلمي واعتباره إجابةً لتساؤله هو تعبير وجه الدكتور معاذ، فقال ببطء من يفكر بأمر جلل:

ـ ـإذن؛ ما يمكنني فهمه أن هذا التنظيم السري الذي يقوده ذلك اليماني المزعوم استطاع أن يصل للدي إن إيه الخاص بذرية معاوية من العائلات الأربعة، وعلى أساس تحليل الدي إن إيه يحرك السفاح لقتل ضحاياه، أليس كذلك يا دكتور؟

أومأ الدكتور برأسه وهو يقول ببطء أيضًا يحمل حذر المُستريب:

ـ أعتقد أنه نظريًّا هذا الكلام صحيح، قبل حدوث الثورات العربية كانت هناك صحوة لترميم الآثار الإسلامية بشكل عام في المنطقة العربية، وفي مصر على سبيل المثال قامت طائفة البهرة التي تتبع المذهب الإسماعيلي الشيعي بتحمل نفقات تجديد وترميم مقامات ومقابر آل البيت في مصر وأيضًا في سوريا، وهناك قبر معروف لمعاوية بن أبي سفيان في دمشق.

رفع الدكتور معاذ يديه معقبًا على قوله:

ـ هذا بافتراض أن هذه القبور هي بالفعل لأصحابها، وليست مجرد شواهد لهم، لأن هناك فرقًا جليًّا بين القبر والشاهد، وأيضًا لو افترضنا أن هذه هي قبورهم بالفعل يجب أن نفترض أيضًا أن رفاتهم ما زالت موجودةً وتسمح باستخراج الدي إن إيه منها.

استدركت ليلي على رد الدكتور معاذ مضيفةً:

ـ أيضًا الإنسان بعد وفاته يمر بعوامل تحلل، وآخر جزء يتحلل في الجسم هو العظام، والتي تستغرق الكثير جدًّا من الوقت حتى تتحلل وهذه المواد يمكن العثور عليها في التربة، أما الفقرات العُصْعُصِيَّة لا تتحلل، ومن خلال باقي العظام والتربة أستطيع أن أحدد صلة القرابة بين المُتَوفى وشخص آخر حي بنسبة كبيرة... وهناك أيضًا عوامل أخرى تتدخل في إمكانية العثور على دي إن إيه في المُتَوَفى؛ تتوقف على عامل الوفاة مثلًا هل مات مسمومًا، غريقًا، مريضًا، هناك نوع من الأمراض يعمل على تهتك لأعضاء الجسم فتتحلل بسرعة، ومن لديهم هشاشة عظام تتحلل عظامهم بشكل أسرع، كذلك السم يعمل على تهتك الأعضاء فتكون فترة تحللها قصيرةً وسريعةً والغريق يتحلل ببطء بسبب الملح وهكذا.

هز فارس رأسه في حين دق جرس الباب فنهضت ليلى لتفتح الباب وفارس يقول للدكتور معاذ:

ـ إذن على المستوى النظري، من الممكن أن يعثروا على الدي إن إيه الخاص بمعاوية بن أبي سفيان، ولذلك مبدئيًّا أنا أحتاج لقائمة بأسماء القتلى حتى أستطيع معرفة لقب العائلة لدى كل قتيل ومدى تطابق هذه المعلومات مع النظرية المطروحة.

ـ نعم.

اتجهت ليلى إلى المطبخ تعد الطعام في حين رفع فارس سبابته إلى شفته وقد استغرقت ملامحه في تفكير عميق ثم قال:

ـ هذا يعني أن القتلى قد أُجُري لهم تحليل دي إن إيه بعلمهم أو بدونه.

ـ هذا محتمل أيضًا.

ـ وكيف تم هذا الأمر؟!

ـ هذا درب آخر من دروب متعددة للتحقيق في هذه القضية يا فارس.

ـ فعلًا.

ـ من المهم أن تعرفوا عدد المعامل التي تقوم بعمل تحليل الدي إن إيه في الإسكندرية والقاهرة، وهل هناك من الأصل معامل في الإسكندرية مؤهلة للقيام بهذا أم أنها في القاهرة فقط؟

ولو كانوا أكثر من معمل؛ فهل يقوم هذا التنظيم بعمل التحليل في معمل واحد فقط؟ أم في معامل متعددة؟ وأتمنى أن يكون حظكم جيدًا؛ فتكون عدد المعامل المؤهلة للقيام بهذا التحليل قليلةً.

ـ أتمنى ذلك فعلًا.

نهض فارس فهتف به الدكتور معاذ ملوحًا بيديه:

ـ أين ستذهب يا فارس؟ ليلى تعد الغداء.

ـ اعذرني يا دكتور معاذ، لا أستطيع.

ـ ما هذا الذي تقوله؟ من الممكن أن تذبحك ليلى.

أتاه صوت ليلى من المطبخ تقول ممازحةً:

ـ لقد سمعتك يا فارس، لن ترحل قبل أن تتناول الغداء معنا.

جلس فارس مجبرًا في حين عادت هي بأطباق الطعام تضعهم على المائدة وتقول موجهةً كلامها لمعاذ:

ـ بمناسبة أنني سمعتكم في المطبخ تتحدثان عن معامل التحاليل، هل قمت بتحليل سكر صائم يا معاذ؟

ضحك معاذ ولم يجب، هزت رأسها وقالت في لوم:

ـ كان لدي شعور بأنك لم تفعل، سأهاتف المعمل ليرسل لك أحدهم ليقوم بتحليل سكر صائم لك.

* * *

(٥)

ـ المطلوب قائمة بأسماء الضحايا حتى نستطيع تحديد العائلات التي ذكرتها، وأيضًا قائمة أخرى بمعامل التحاليل في كل محافظات مصر المؤهلة لعمل تحليل الدي أن إيه، وحصر لأماكن تواجد العائلات الأربعة في مصر، وأيضًا قوائم اليمنيين الذين دخلوا إلى مصر بعد الثورة اليمنية حتى الآن.

كان العقيد يتابع في ملل ما يُمليه عليه فارس، لم يعتد أن يملي عليه أحد ما يفعله، ودائمًا هو في موضع من يصدر الأوامر فقط، ولكنه هذه المرة وبشكل غريب تجاوز عن ذلك وعقب على كلام فارس قائلًا:

ـ هل تعلم كم من الوقت سيستغرق ما تطلبه؟

هز فارس كتفيه وهو يقول:

ـ ليس هناك حل آخر في الوقت الراهن يا سيادة العقيد، والإفراج عن سيد من الممكن أن يكون الحل الآخر الذي نوقع به هذا التنظيم.

ـ وفق النظرية التي طرحتها؛ إن هذا السفاح لا يعمل بمفرده، وإن من ورائه تنظيمًا يحركه، فوقوعه لن يكون مكسبًا كما تتصور،

لأنهم وقتها سيجهزون سفاحًا آخر ليكمل المهمة، وكلما ألقينا القبض على أحدهم أرسلوا آخر ليتم الأمر وهكذا.

ـ هذا محتمل بالفعل، ولكن ربما وقوعه في أيدينا قد يكون خيطًا يقودنا إليهم، هذا أيضًا محتمل.

هز العقيد يده اليمنى نافيًا وهو ينهض من خلف مكتبه قائلًا:

ـ لا أعتقد ذلك، لأنه وفق نظريتك هناك تنظيم ما يحركه، معنى ذلك أن طريقة بنائها يعتمد على خلايا منفصلة، مما يعني أن كل خلية لا تعرف الخلية التي تعلوها، لذلك لن نعرف دائمًا كيف نصل للرأس الكبيرة المدبرة لكل هذا الأمر... لقد مررت بحالات مشابهة كهذه في وحدة مكافحة الإرهاب التي كنت أخدم بها.

ـ على الأقل معنا بداية خيط من الممكن أن يساعدنا على أن نوقف قتل باقي الاثني عشر على مستوى مصر.

ـ هذه مشكلة أخرى.

عقد فارس حاجبيه متسائلًا:

ـ لماذا؟

ـ لأنك تفترض أن السفاح سيقوم بقتل اثني عشر شخصًا فقط على مستوى مصر.

ـ حسنًا، ما الذي تريد أن تصل إليه؟

ـ كم قتل بالإسكندرية فقط حتى الآن؟

ـ خمسة.

ـ حسنًا، إذن وفق هذا العدد أتصور أنهم سيكونون من الإسكندرية وحدها فقط، وعندما ينتهي من الإسكندرية سيتتبع هذه العائلات أينما وُجِدت ليقتل اثني عشر آخرين، وهكذا أو ربما أن هناك سفاحين آخرين في كل أماكن تواجد هذه العائلات على مستوى مصر.

فكر فارس في كلام العقيد ووجده منطقيًّا فعقب على كلامه:

ـ ولكن وفق هذا التصور فإن الدائرة تتسع مرةً أخرى.

هز العقيد رأسه نافيًا وقد تحرك من خلف مكتبه.

ـ ما يهمني ويشغل بالي هو الإسكندرية فقط لأنه مكان عملي، بهذه الطريقة أنا قمت بتضييق دائرة البحث فيما يخص المحافظة التي أعمل بها، نحن بحاجة لمعرفة كم عائلةً ممن ذكرتهم متواجدون بالإسكندرية، ثم البحث عن كم رجل من هذه العائلات قام بعمل أي تحليلات مؤخرًا مما يجعلنا نصل إلى عدد تقريبي مستهدف في نهاية الأمر.

قاطعه فارس مما جعل ملامح العقيد تنقلب إلى الضيق ولكن فارس تجاهل ذلك ومضى قائلًا:

- ولكن أحب أن ألفت نظرك إذا كان هناك أكثر من سفاح، فلم لم تظهر حالات قتل مشابهة في محافظات أخرى.
- هل تريد أن تقول إنه سفاح واحد فقط؟ لا بأس، وأنهم ينوون الانتهاء من كل محافظة على حدة، ولِمَ لا؟

الاحتمالات كثيرة، لا تكن مثل النساء يعشقن الخوض في التفاصيل وترك الصورة الكلية، ما يشغلني فقط هو في حدود محافظتي ولا يعنيني في شيء سائر المحافظات فليتحمل هذا القرف شخص آخر تعيس مثلي!

احمر وجه فارس إحراجًا وضيقًا من سخرية العقيد، ولكنهما اعتادا على تجاوز هذه المضايقات واستكمال الحديث بينهما، سرعان ما عادت ملامح فارس مرةً أخرى إلى طبيعتها وهو يقول:

- وبالنسبة لمعامل التحاليل المؤهلة لمثل هذه النوعية من التحاليل.
- بافتراض أن هناك معامل في الإسكندرية مؤهلة للقيام بهذه النوعية من التحاليل سواء كانت واحدةً أو اثنتين أو عشرةً حتى لا تقاطعني بتعليق آخر مستفز حول التفاصيل، فإنه لن يبادر بتركها وإجرائها في محافظة أخرى لأنه من الواضح أن الجدول الزمني لقتل الضحايا قريب من بعضه البعض، وإن لم تتواجد بالإسكندرية معامل مؤهلة لمثل هذا فإن أقرب محافظة مؤهلة لذلك ستكون القاهرة بالتأكيد.

ـ تفكير منطقي، كل هذا يضيق الدائرة أكثر فأكثر، إذن ما نحتاج للقيام به هو حصر لنوعية المعامل القادرة على القيام بهذا التحليل في الإسكندرية والقاهرة ونتفحص قائمة زوار هذه المعامل الذين تنتهي أسماؤهم بلقب أي من العائلات الأربع.

ضحك العقيد في سخرية مما أثار استغراب فارس، وانتظر منه تعليقًا على سخريته، فلم يتأخر العقيد في التعليق وهو يتجه إلى مكتبه يلتقط علبة سجائره:

ـ هذا بافتراض أن نظريتك صحيحة يا عم فارس، لا تنس أنك بنيت نظريةً سابقةً كاملةً، وكدت أن تورطنا مع الكنيسة في مشاكل لا حصر لها لولا ستر الله.

ـ لقد شرحت لك الأمر سابقًا.

أومأ العقيد برأسه محاولًا أن يخفف من نبرة الضيق التي علَت صوت فارس قائلًا في تحذير:

ـ ولكن احذر هذه المرة يا فارس، الأمن الوطني أصبح شريكًا في هذه القضية بعدما اطلع على التقارير، الأمر لم يعد مجرد قضية جنائية، ولكنها تحولت لقضية أمن قومي...

ـ هل من المفترض أن أشعر بالقلق؟

قال العقيد بسخرية وقد علت نبرة صوته:

ـ نعم يا حبيبي، المفترض أن تشعر بالقلق الشديد أيضًا، الأمن الوطني لا يمزح في مثل هذه الأمور، ولن يتيح لك فرصةً أخرى لأن تخطئ مرةً أخرى في تصوراتك هذه، بالإضافة إلى أن قرار الإفراج عن سيد لم يعد بأيدينا أو حتى بأيدي النيابة.

ـ أفهم من ذلك أنهم لن يطلقوا سراحه؟!

عاد العقيد ليجلس خلف مكتبه وابتسامة خبيثة ترتسم على شفتيه ملتقطًا إحدى سجائره ويشعلها قائلًا:

ـ لا تقلق، سيطلقون سراحه غدًا باكرًا دون إذن من النيابة حتى.

ـ جيد.

ـ ولكنهم اعتقلوا شقيقه الأصغر ولفقوا له قضية فرش حشيش، وحذروه من مغبة خيانتهم وعدم التعاون معهم وإلا سيكون مصير شقيقه السجن لمدة طويلة.

هز فارس رأسه أسفًا، والعقيد يتابعه بعينين ساخرتين تتلذذ بملامح فارس الآسفة، ولكنه لم يعلق هذه المرة وهو ينفث دخان سيجارته، تغيرت ملامحه للجدية وهو يقول بصوت يحمل لأول مرة وداعةً:

ـ يا فارس الأمر أصبح خطيرًا جدًّا، وفي مثل هذه الحالات لا تحدثني عن حقوق الإنسان، فلتذهب وقتها إلى الجحيم.

ـ وهذا ما يجعلنا دائمًا في الخلف.

ضحك العقيد ساخرًا وهو يقول:

ـ ونحن نعشق كل ما هو من الخلف.

لم يبتسم فارس لتلميح العقيد وقد تعود أن يتجاهله وهو يهز رأسه قائلًا بنفاد صبر:

ـ هل تريد مني شيئًا آخر؟

بنفس نبرة الصوت الساخرة قال العقيد وهو ينشغل عنه بتدخين سيجارته:

ـ كلا.

تحرك فارس صوب باب الغرفة ولكن استوقفه العقيد وقد عادت الجدية لملامحه مرةً أخرى:

ـ فارس، نريد أن نعتقله قبل أن يقتل شخصًا آخر.

ـ أتمنى ذلك فعلًا.

انشغل عنه العقيد باللعب في هاتفه الجوال، فأدرك فارس أن الحديث قد وصل بينهما إلى نهايته، فغادر الغرفة بدون أن يلقي السلام، ولم يهتم العقيد لأن ينظر نحوه وهو يغادر الغرفة.

وفارس في طريقه إلى سيارته انشغل تفكيره بريم، وتردد بين أن يتصل بها وألا يفعل ذلك، ولكنه حسم أمره في النهاية وقرر أن يتصل بها.

ـ السلام عليكم

ـ وعليكم السلام، كيف حالك يا أستاذ فارس؟

شعر بضيق يراوده للقب "أستاذ" التي سبقت اسمه، فهي بذلك لم ترفع جدار الرسميات كليةً، ولكنه مضى قائلًا:

ـ كيف حالك يا ريم؟

آثر أن يناديها باسمها كأنه يلفت نظرها أنه لم تعد هناك حاجة لتلك الرسميات، ولكنه استقبل نبرة صوتها يحمل الكثير من الحياد:

ـ الحمد لله، هل هناك أخبار جديدة عن القضية؟

ـ هناك تصور مبدئي ومقنع وضعه الدكتور معاذ، أراه مقبولًا إلى حد كبير، ولذلك أحتاج لأن أراكِ وأتناقش معكِ بشأنه.

كان يعلم وهي تعلم بالضرورة أن ما يقوله لم يكن سوى حجة واهية ليقابلها، كان قلقًا من رد فعلها، لا يريدها أن ترفض ويراهن على أنها ستقبل بابتلاع هذه الحجة ولو كانت واهيةً.

ـ ليست لدي مشكلة في ذلك.

الارتياح الذي سكن صدره كان كافيًا لأن يبتسم ابتسامةً كبيرةً وهو يقول:

ـ إذن حددي الموعد والمكان.

ـ ما رأيك العصر غدًا في حدود الساعة الرابعة.

ـ وقت مناسب جدًّا، أين؟!

ـ في كوستا كوفي على البحر.

ـ الكائنة بالقرب من كوبري ستانلي.

ـ نعم هي.

ـ حسنًا، سأراكِ غدًا إن شاء الله.

كان بحاجة إليها في هذا التوقيت الآن، أدرك أخيرًا أن الأمر تجاوز بالنسبة له على الأقل مرحلة الإعجاب إلى البدايات الأولى للحب، لم يكن قلقًا هذه المرة من هذا الشعور، بل كان سعيدًا...

وجودها قادر على تجديد طاقته وإخراجه من حالة توتره التي تفرضها عليه هذه القضية... استغرب أنه لم يشعر بأي وخز ضمير اتجاه صديقته الإنجليزية، ولكن الأغرب أنه سرعان ما أسقط أمرها من تفكيره وملأ حيزه كله صورة ريم.

*** * ***

(٦)

تواجد في المكان المحدد في الموعد المتفق عليه؛ يجلس إلى طاولة تلاصق زجاج النافذة الكبير المطل على كوبري ستانلي في الطابق الأول للمقهى، يقترب منه النادل ولكنه يعتذر له فينصرف عنه النادل في أدب، ينظر إلى ساعته متوترًا قلقًا وقد جاوزت عقارب الساعة

الرابعة وعشرة دقائق، يحنقه دائمًا من يتخلف عن مواعيده، ولكنه يحاول أن يتغاضى عن ذلك...

حاول أن يشغل نفسه بالمشهد البديع للعربات التي تتحرك جيئةً وذهابًا على كوبري ستانلي، وبعض المارة يتحركون بسرعة وآخرون ببطء، وغيرهم يقف ليلتقط الصور تحت أشعة شمس العصر المتوهجة.

ـ كيف حالك يا فارس؟

رغمًا عنه انتفض واقفًا ينظر إليها بدهشة، كيف لم يلحظ دخولها للمكان، وهو المسيطر على مشهد الرؤية بالكامل من خلال النافذة... قد شغلته حركة الناس والعربات على الكوبري عن أن يلحظ دخولها للمكان.

مد يده يصافحها فصافحته في خجل، واتخذت مقعدها أمامه، وجهها مشرق على الرغم من خلوه من أي مكياج، هادئ رقيق... أكثر ما يريح فارس في ملامحها هو رقة الملامح والهدوء الساكن فيها، وفي نفس الوقت غير ملفتة للغير على الإطلاق، فهو بطبعه رجل شرقي يحنقه أن تلفت امرأة يحبها بجمالها أنظار الآخرين.

ابتسم فارس في سعادة وهو يقول:

ـ هل ترغبين في تناول أي مشروب؟ أم الأفضل أن نتناول الغداء؟

- أعتذر منك عن عدم تناول الغداء، فلقد وعدت والدتي بأن أفطر معها اليوم رغم أنني لست صائمةً.

- حسنًا، إذن فلتتناولي مشروبًا على الأقل.

- لا بأس بكوب من النسكافيه.

رفع فارس يده اليمنى للنادل ليقترب ويملي عليه الطلبات، فينصرف النادل في حين يدير رأسه لها يقول:

- الجو حار اليوم.

هزت رأسها بدون تجاوب حقيقي وهي تقول في خفوت:

- فعلًا.

كان مرتبكًا؛ لا يجد ما يقوله، أو الأحرى؛ أن لديه الكثير مما يقوله بشأن القضية، ولكن لم يكن هذا هو غرضه الحقيقي من رؤيتها، يريد أن يلقي على مسامعها كلامًا آخر يرتبط بمشاعره نحوها، ولكنه أحس بنفسه كالطالب المرتبك الذي لا يعرف من أين يبدأ.

- ما هو تصور الدكتور معاذ الجديد بخصوص جرائم القتل التي حدثتني بشأنها أمس؟

لم يجد مدخلًا آخر أفضل من ذلك بدايةً لفتح باب الحوار بينهما؛ فشرع يقول في حماس ارتبط بلقائه بها، ولم يكن متعلقًا بتصور الدكتور معاذ، وشرح لها بالتفصيل ما دار بينهما من حوار، وقاطع

النادل شرحه لها، ولكنه عاد مرةً أخرى ليكمل حواره، وحين فرغ تراجع في مقعده وهو يتناول فنجانه يرتشف منه ويرقب انفعالات وجهها التي غرقت في تفكير عميق.

لا يعرف بالضبط هل هو يستمتع بمراقبة ملامحها نتيجةً للحالة العاطفية التي تجتاح كيانه اتجاهها أم ذلك نتيجة نقله لتصور الدكتور معاذ الغريب لها، لم يعد يعنيه أي من الخيارين؛ فأياً كان السبب، يكفيه أنه يستمتع بمراقبة ملامحها، والأهم الآن أنه يشعر بالسعادة لرؤيتها ومراقبة ملامحها الغارقة في التفكير.

ـ تصوره منطقي على الرغم من غرابته، ولكن ينقصه جوانب أخرى لا تقل أهميةً.

هنا بشكل فجائي وبدون أي مقدمة، اختفت حالة الشعور العاطفي التي تعتريه وحل محلها الفضول وهو يسألها:

ـ وما الذي ينقص تصوره؟

ـ هناك قبائل أخرى تنتسب لمعاوية ولمروان بن الحكم ولعثمان بن عفان، للأمويين بشكل عام، لأنه وفق التصور الذي طرحه الدكتور معاذ فكل ذريات الأمويين من الممكن أن تكون في دائرة الاستهداف.

ـ أنتِ بهذا وبعدما ضيقنا دائرة البحث؛ توسعينها لتكبر مرةً أخرى.

ـ لا أستطيع الجزم بأن كل هذه القبائل لها فروع في مصر، ولكن أشهرهم من ذكرهم الدكتور معاذ وبعضهم لهم وجود فعليًّا في مصر مثل آل حرب وآل الصفار، ولكن هذا لا يمنع أن هناك تمثيلًا أيضًا ولو ضعيفًا لعائلات أخرى؛ ينتهي نسبها إلى معاوية بشكل خاص، وللأمويين بشكل عام...

لا تنسى أن آخر خلفاء الدولة الأموية مروان بن محمد هرب إلى مصر بعدما انهارت الدولة الأموية على يد العباسيين.

ـ دعينا نكون أكثر تحديدًا، وفق التصور الذي طرحه الدكتور معاذ؛ فالقاتل سينتقم من قتلة الإمام الحسين، ووفق أحداث التاريخ قتلة الإمام كانوا تحت إمرة يزيد بن معاوية، وبالتالي القاتل على الأرجح سينتقم فقط من ذرية معاوية.

هزت كتفيها وقد بدا عليها شبه اقتناع وهي تعقب على كلامه:

ـ هذا أيضًا وارد، ولكن يجب أن تعرف أن كل ما نفترضه ونطرحه هنا هو في الأخير مجرد تصور، وليس شرطًا أن يكون الواقع الفعلي، وكما قلت لك القبائل الأربعة التي أورد الدكتور معاذ ذكرهم ليسوا هم فقط الوحيدين الذين ينتهي نسبهم إلى معاوية.

توترت ملامح فارس بعض الشيء ولكنه سرعان ما وارى ذلك وهو يستعيد ملامحه الهادئة متسائلًا:

ـ وما هي القبائل الأخرى التي أغفل الدكتور معاذ ذكرها؟

توقفت للوهلة تفكر في أسماء هذه القبائل وهي تجاهد لاستعادتها من الذاكرة حتى قالت:

ـ الحاضر في ذهني حاليًّا قبيلة الجماعي في اليمن والماريا في السودان وأريتريا، بالإضافة إلى قبيلة المنسع، وهم إخوان لقبيلة المارية، وأيضًا هناك قبيلة المعاوي...

رشف فارس من فنجانه وهو يستعيد من ذاكرته ما ذكرته للتو، نظر لثوانٍ باتجاه كوبري ستانلي. أشعة الشمس تبهت وذلك لمرور عدة سحب حجبت نور الشمس لأقل من دقيقة ثم عاد الكوبري ليتوهج مرةً أخرى تحت أشعة الشمس، أدار رأسه لريم التي انشغلت مثله بمراقبة كوبري ستانلي، فأعادت نظرها إليه، وجدته مستغرقًا في التفكير، أو ربما يحاول أن يتذكر شيئًا هامًّا ويفشل في استعادته من ذاكرته، ركز بصره عليها لبعض الوقت ثم قال:

ـ المعاوي... المعاوي... هذا الاسم ليس غريبًا علي.

حاولت أن تشاركه تذكر شيء غير محدد، ففشلت لذلك هزت كتفيها وهي تقول:

ـ لا أعلم، ولكنه لا يوحي لي بشيء معين، ماذا بشأنه؟

أمال رأسه ناحية المائدة وهو يداعب بأصابع يده اليمنى جبهته يحاول جاهدًا أن يتذكر وهو يقول ببطء:

ـ ألا يذكرك بشخص ما هذا اللقب؟

ـ الحقيقة كلا.

ـ لماذا أشعر وكأني أعرف هذا اللقب.

ـ ربما سمعته ذات مرة مصادفةً؛ مما يعطي مؤشرًا بأن هذه القبيلة لها وجود في مصر فضلًا عن القبائل الأخرى التي ذكرها الدكتور معاذ.

هب فارس واقفًا وقد ذكره اسم الدكتور معاذ بمراده، وهتف قائلًا بصوت يحمل الكثير من الجزع:

ـ كيف غاب عن بالي هذا الأمر؟ الدكتور معاذ، اسمه الدكتور معاذ المعاوي.

راود ريم نفس إحساسه بهروب الدم من العروق، رأت في ملامح فارس المرتاعة ملامحها المرتاعة أيضًا، هبت واقفةً هي الأخرى وهي تقول:

ـ اسمه معاذ المعاوي!

لم يرد عليها فارس، ولكنه اتجه فورًا إلى النادل يحاسبه فالتقطت حقيبتها تتبعه، وهو يكاد يَثِب على درجات السلم ليغادر المكان ويده

تعبث بالهاتف الجوال يستخرج رقم تليفون الدكتور معاذ... يظل الهاتف الجوال يرن ولا رد من الطرف المقابل، ما يخشاه فارس يكاد يكون حقيقةً، ازداد هروب الدم من عروقه وقلبه يخفق بقوة، يسير بخطوات تقترب من الركض وهي تحاول أن تجاريه وهو يقول بصوت مُلتاع:

ـ الدكتور معاذ من ذرية معاوية بن أبي سفيان.

كانت تعرف ذلك قبل أن ينطقها، ولكن وقع الكلمة عليها وتأكيده لظنونها جعل قلبها يخفق بشدة، فلاش باك ضرب رأس فارس وهو يتجه إلى سيارته.

صوت ليلى شقيقة الدكتور معاذ وهي تسأله عن التحاليل، لقد وصلوا إليه، واستخلصوا عينةً دي إن إيه من دمه، ويبدو أنهم تأكدوا فعلًا أنه من نسل معاوية.

جاء الدور على الدكتور معاذ ليُنْتَقم منه على جريمة ارْتُكِبت منذ أربعة عشر قرنًا، يدفع ثمنها الدكتور معاذ فقط لأنه بمحض الصدفة ثبت بالحمض النووي أنه من ذرية القتلة.

حساب جاء متأخرًا بعد أربعة عشر قرنًا! يحاول أن يتصل به مرةً أخرى، ولكن ما من مجيب للمرة الثانية، عضلات جسده كلها تتوتر، يدير محرك السيارة وهي تقف إلى جوار بابه الأيسر المفتوح لا تعرف

ماذا تفعل، يلقي الهاتف الجوال إلى المقعد المجاور، ينظر باعتذار لريم وهو يقول:

ـ يجب أن أذهب فورًا يا ريم، أنا آسف، ولكن ما قلتِه كان مفاجأةً بالنسبة لي، ولا أعلم كيف لم يخبرني هو بأمر هكذا، كيف غفلت أنا بمزيد من البحث عن هذا الأمر؟

ـ وماذا ستفعل الآن؟

ـ لا أعلم، ولكن يجب أن أذهب إلى الشقة فورًا، قد يكون نائمًا، أريد أن أطمئن عليه.

ـ الله معك ولا تنسى أن تطمئنني.

هز رأسه وهو يغلق عليه باب السيارة، هم بأن ينطلق ولكنه توقف ثم قال لها:

ـ الحقيقة يا ريم لم تكن في نيتي مقابلتك اليوم من أجل مناقشة القضية.

حاولت أن تبتسم ولكنها فشلت، فقط أومأت برأسها وهي تقول بخفوت يختلط به التوتر مع الخجل:

ـ أعلم...

حاول أن يبتسم ولكنه فشل هو أيضًا وقال قبل أن يتحرك بالسيارة:

ـ سأهاتفك بعد أن أطمئن عليه لأحدثك بشأن موضوع آخر.

أومأت برأسها وهي تقول متراجعةً خطوتين:

ـ سأنتظر مكالمتك وبإذن الله ستكون كل الأمور جيدةً.

كان يريد أن يستمد الاطمئنان من قولها الأخير، ولكنه فشل؛ فضغط على دواسة الوقود بغضب ليعلو صوت محرك سيارته قبل أن ينطلق بسرعة، السيارة تطاوعه هي الأخرى في انطلاقة سريعة كأنها تشاركه القلق على الدكتور معاذ.

* * *

(٧)

يصل إلى باب شقته وهو يجري اتصالًا بالعقيد الذي لم يجب هو الآخر، لماذا يبدُ الكون كله اليوم في حالة تآمر لصالح السفاح وجماعته؟! يدق جرس الباب، ما من مجيب، أوشكت ظنونه أن تتحول إلى حقيقة قاتلة، يضع الهاتف الجوال في جيب بنطاله، ويدق الباب بيده اليمنى، ما من مجيب مرةً أخرى...

يتذكر مرةً واحدةً أنه يحمل مفتاح شقة الدكتور معاذ، لقد أعطاه له منذ سنوات مع ميدالية فضية ليكون متاحًا له دخول الشقة في أي وقت إذا أصابته نوبة من نوبات غيبوبة السكر.

أخرج الميدالية الفضية التي تضم عدة مفاتيح لشقته وسيارته يبحث بتوتر عن المفتاح ولا يتذكره، جرب عدة مفاتيح حتى أصاب

واحدًا، وأداره في الثقب ليفتح باب الشقة، يتسمر مكانه وهو يجد السجادة الطويلة الممتدة في الممر المفضي إلى صالة البيت وقد انبعجت في مواضع كثيرة، لفت نظره أيضًا أن زهرية الورد الزجاجية قد تناثرت شظاياها أرضًا.

عبر مخيلته تصور سينمائي لما حدث، جرس الباب يدق، الدكتور معاذ في خطواته الثقيلة البطيئة يتجه إلى باب الشقة، كعادته يفتح الباب بدون أن ينظر من العين السحرية، كم من مرة نبه عليه فارس أن يفعل ذلك، ولكنه كان يضحك في سخرية.

يستقبل شخصًا ضخم الجثة على باب شقته، ما جرى يوحي بأن السفاح لم يمارس أي نوع من الخداع ليدلف إلى الشقة، هناك آثار معركة على الأرض، السفاح يدفع بيديه الدكتور نحو الأرض، يندفع جسد الدكتور باتجاه "الجزامة"...

يحاول أن يتعلق بأي شيء، يده تمسك بالزهرية، يطيح بها من فوق "الجزامة"... تسقط أرضًا محدثةً دويًّا، وشظاياها تتناثر على مساحة واسعة، ويسقط معها الدكتور معاذ وهو يصدر آهة ألم، يسارع السفاح بإغلاق الباب.

الدكتور يحاول أن ينهض من وقعته وهو يتابع السفاح بعينين جاحظتين والذي اقترب منه وأمسكه من ذراعه اليمنى يجره نحو الصالة والدكتور يئن في ألم.

فارس يخطو إلى الصالة، يجد أن مائدة الصالون مقلوبة إلى جانب، وقد تحطمت إحدى أرجلها والسجادة التي كانت تستقر تحتها لم تعد موجودةً.

السفاح يترك ذراع الدكتور بعد أن جره إلى الصالة، وبيده اليسرى قلب المائدة بعيدًا عن السجادة، اندهش الدكتور معاذ لقوة السفاح وهو ممدد على الأرض، الألم يعتصر ذراعه الأيمن...

السفاح يعود إلى الدكتور معاذ يرفعه بسهولة ويسر غريبين، ثم يلقيه فوق السجادة، ثم يميل نحوه ليكتم أنفاسه بمنديل قماشي مبلل بمخدر قوي... يتسلل المخدر إلى أنف الدكتور معاذ ليدور رأسه، ويشعر بتنميل في كل أطرافه وحرقان في أنفه يتسلل إلى حلقه فيسعل بصوت مكتوم.

فارس ينظر إلى المنديل القماشي الملقى أرضًا، لم يعد السفاح يعبأ بموارة آثار الجريمة.

السفاح يقف ليراقب الدكتور معاذ الذي بدأ يشعر بتثاقل في جفونه، حاول أن يتحرك، ولكن عوضًا عن ذلك انقلب على جانبه الأيسر وهو يسعل مرةً أخرى ودوار شديد يضرب رأسه.

نظر السفاح بهدوء إلى ساعة يده، فهو يعلم تحديدًا متى سيفقد الدكتور وعيه.

لم تمض ثوانٍ معدودات حتى فقد الدكتور وعيه بالفعل، فحرك جسده إلى طرف السجادة، ثم دحرج جسد الدكتور لتغطيه السجادة بالكامل.

التقط من جيب سترته لفة حبل طويلة ربط بها السجادة من المنتصف وقام بثني طرفي السجادة للداخل حتى تواري جسد الدكتور معاذ تمامًا، شعر بالامتنان لأن السجادة استطاعت أن تواري جسد الدكتور تمامًا.

دائمًا اليد الإلهية تساعده في مهامه المقدسة، إن الله معه بلا شك، كل ذلك يبث إليه شعورًا بالرضى وراحة الضمير عما يقوم به، فهو ينتقم من قتلة الإمام الحسين، يثأر لكل آل البيت الأطهار.

يميل نحو السجادة ليرفعها على كتفه الأيمن بدون أي تعب كما لو أنه يحمل حملًا خفيفًا؛ يتجه إلى باب الشقة يفتحه في هدوء، يجد أحد الجيران يغادر شقته وينظر له باستغراب، ولكن السفاح يرميه بنظرة

نارية جعلت الجار يدير عنه رأسه وينشغل بغلق باب شقته، يغلق السفاح باب شقة الدكتور معاذ بهدوء ويهبط درجات السلم بسرعة لا تتناسب مع الحمل الثقيل.

يتجه إلى سيارته وقد عاد بواب العمارة للتو من صلاة الظهر، ينظر باستغراب للسفاح الذي قام بفتح الباب الخلفي لسيارة الدفع الرباعي ويلقي السجادة لترتطم بأرضية السيارة؛ فيسمع البواب آهة ألم خافتة، تنقلب ملامحه للرعب، يغلق السفاح الباب الخلفي للسيارة، ثم ينظر بعين ثاقبة للبواب الذي ارتعدت أوصاله ولم يَقْوَ على النطق أو حتى الجري بعيدًا.

يتجه السفاح إلى سيارته ويستقلها في هدوء، عند هذا الحد يتحرك البواب من مكانه ويقف عند منتصف الشارع يتابع السيارة التي مضت سريعًا، وبشكل غريزي يرفع بصره لأعلى للعمارة المقابلة ليجد رجلًا يرتدي نظارةً طبيةً كان يتابع الموقف في وجوم ودهشة...

يعود للنظر للشارع الذي اختفت منه السيارة، يبتلع ريقه ثم يعود للجلوس على الدكة في صمت، لا يريد أن يفكر فيما رأى، حاول أن يتناسى، ويشغل تفكيره بشؤونه الخاصة ولكنه لم يفلح في ذلك، مد يده اليمنى أمامه فوجدها ترتعش، انتفض واقفًا وهو يسمع جار الدكتور معاذ يقول:

ـ يا جابر، لقد رأيت رجلًا منذ دقيقة يغادر شقة الدكتور معاذ، هل تعرفه؟

ـ كلا يا بك، ولكنه يبدو مريبًا.

ـ لقد شاهدته يحمل سجادةً من شقة الدكتور.

أول تصور داهم جابر البواب أن هذه السجادة تضم جسد الدكتور معاذ، فأذنه لم تخطئ سماع تلك الآهة والسفاح يلقي بالسجادة في المكان الخلفي للسيارة.

لم يشأ أن يشارك الجار تصوراته، ولكنه قال في خفوت:

ـ من الممكن أن يكون عامل تنظيف أو ما شابه وجاء ليأخذ السجادة للتنظيف.

استنكر الجار كلام البواب وقال:

ـ عن أي عامل نظافة تتحدث، لقد كان يرتدي حلة.

شحب وجه البواب ولم يعقب في حين قال الجار بقلق:

ـ اذهب إلى شقة الدكتور معاذ واطمئن عليه فورًا يا جابر.

لم تكن لدى البواب أي رغبة في الصعود إلى شقة الدكتور معاذ وهو يتخيل وجه السفاح، ابتلع ريقه ومضى مكرهًا إلى المصعد يستقله إلى شقة الدكتور معاذ، طرق الباب ولكن ما من مجيب، لا

يعرف لماذا داهمه تصور أحمق بأن السفاح الذي شاهده منذ دقائق مضت سيقوم بفتح الباب ويجره إلى الداخل ليذبحه...

ارتعش جسده كله لهذا التصور، فمضى مبتعدًا يستقل المصعد يتنفس هواءً محبوسًا عن رئتيه.

" هذا ما حدث يا أستاذ فارس"...

ـ أين كنت أنت عندما حضرت؟

ـ كنت أصلي الظهر يا أستاذ فارس.

ـ ولماذا لم تتصل بالشرطة؟

لم يجب الرجل ووقف كالطفل الخائب، فهز فارس رأسه ثم سأل البواب:

ـ هل تعرف نوع السيارة؟

ـ لا خبرة لي بأنواع السيارات يا أستاذ فارس، ولكن يبدو أنها واحدة من سيارات الدفع الرباعي.

قال فارس بنفاذ صبر:

ـ هل تعرفت على الأقل على لوحة السيارة؟

طأطأ الرجل برأسه وهو يجيب بصوت خفيض:

ـ أنا رجل أمي يا أستاذ فارس.

كان فارس يريد أن يفتك بالرجل، ولكنه تحكم في أعصابه بصعوبة وقد استبد به القلق والخوف إلى أقصى حد، أشار برأسه للعمارة المقابلة وهو يسأل البواب:

ـ ذلك الساكن الذي حكيت عنه ما زال موجودًا.

ـ لا أعرف، ولكن هل تحب أن أستعلم عن أمره.

ـ بسرعة.

ركض البواب باتجاه العمارة المقابلة يخاطب البواب القائم عليها فسارع البواب الآخر لإبلاغ الساكن.

مضت ثلاث دقائق ثقيلة على فارس بدت كالدهر، بشكل تلقائي رفع فارس نظره لأعلى ليجد الساكن يختلس النظر إليه من شرفة شقته، ثم يمضي إلى الداخل، التفت فارس للبواب قائلًا في ضيق:

ـ إن لم يكن ينوي النزول سأصعد له.

ارتبك البواب وهو يقول:

ـ من المؤكد أنه سينزل، سأذهب لاستعجاله.

مضى البواب في خطوات سريعة إلى العمارة المقابلة، ولكنه توقف وهو يرى الساكن يظهر عند مدخل العمارة، اتجه إليه فارس يصافحه ويسأله بحزم:

ـ هل رأيت ما حدث؟

عدل الرجل من وضع نظارته وهو يقول بصوت مرتبك متوتر:

ـ نعم.

ـ هل تعرف نوع السيارة؟

ـ كيا سبورتاج سوداء.

ـ هل لاحظت لوحة السيارة.

ـ س ب ف ...

ـ أشكرك جدًّا.

غادرهما فارس وهو يسمع البواب يقول بصوت عالٍ:

ـ لا تنسى أن تطمئنا على الدكتور معاذ، إن شاء الله سيكون على ما يرام.

لم يرد عليه فارس وهو يسرع إلى سيارته وينتزع هاتفه الجوال مرةً أخرى يتصل بأيمن هذه المرة، في أثناء ذلك كان يركب سيارته ولا يعرف إلى أين يجب أن تكون وجهته، يشعر بأن صدره يغلي وعلى وشك أن يخرج دخانًا ساخنًا من أذنيه وعينيه ومنخريه، يرد عليه أيمن:

ـ كيف حالك يا فارس؟

ـ لقد اختطف السفاح الدكتور معاذ.

يرد أيمن في بلاهة:

ـ معاذ من؟

ـ قريب لي.

ـ قريبك.

يرد عليه فارس بصوت مرتفع محمل بالعصبية:

ـ نعم؛ يا أيمن.

ـ متى؟

ـ منذ ثلاث ساعات ونصف تقريبًا.

ـ وأين هو الآن؟

لم يكن الأمر يحتمل المزيد من الأسئلة الغبية، تجاهل فارس سؤال أيمن وقال له:

ـ السيارة التي اختطفته كيا سبورتاج سوداء ولوحتها (س ب ف ...)، أريد أن أعرف أين مرورها، لأن معرفة هذا الأمر مرتبط بأشياء كثيرة في رأسي.

ـ حسنًا، أمهلني بضعة دقائق وسأرد عليك.

أنهى فارس الاتصال وتحرك بسيارته صوب مكتب العقيد، على الأقل هذه هي الوجهة الوحيدة المتاحة أمامه في الوقت الحالي.

*** * ***

(٨)

ارتعاشة جفنيه دليل على بوادر الاستفاقة، يشعر بصداع شديد في رأسه، يحاول أن يفتح جفنيه ولكنهما يرتعشان، أخيرًا يفلح في فتحهما، ليستقبل لفحة هواء باردة تضرب وجهه مع مشهد الرؤية الذي بدأ يتكون أمامه ببطء، يشعر باختناق لا يعرف مصدره، رغم الهواء البارد الذي يلفحه، ضبابية المشهد تنقشع شيئًا فشيئًا، يرى أمامه سورًا ممتدًّا بالطوب الأبيض اللبني.

غريب هذا المشهد! هكذا هتف صوت داخلي برأسه، يشعر بخشونة حول عنقه، يحاول أن يبصر من تحت ذقنه ليجد حبلًا سميكًا يلف عنقه، هذا الأمر يدعو للغرابة أكثر، عقله يستوعب البيئة المحيطة به في بطء، هناك شجرة تقف في منتصف المسافة بين عينيه والسور من خلفه، غريب أنه لم يلحظ هذه الشجرة من قبل.

يداه حُرَّتان، هذا شيء إيجابي، يحاول أن يحركهما بشكل غريزي، ولكن يستوقفه ذلك الصوت الذي يلمح صاحبه لأول مرة على يمينه، كيف لم يلاحظه من البداية؟ عقله يعمل ببطء شديد نتيجةً للمخدر الذي يسري في عقله وباقي أطراف جسده كلها.

_ لا تحاول الحركة كثيرًا.

يلمح ذلك الشخص ضخم الجثة الطويل الذي يقف على يمينه وقد ارتدى ما يشبه العباءة السوداء وغطاء رأس يواري الكثير من ملامح

وجهه القاسية، ولكنه يرى بوضوح هذه الابتسامة المخيفة على شفتيه.

الآن عقله عاد ليعمل بسرعته الطبيعية، شيء جيد! ولكنه يكشف له في الوقت نفسه المزيد من المفاجآت غير السارة على الإطلاق والمخيفة جدًّا.

يقف على لوح خشبي قديم، بالكاد يستوعب قدميه المضمومتين، أما ما هو كائن أسفل ذلك اللوح الخشبي فهو مخيف بحق، هل المشهد الذي قام عقله بترجمته صحيح؟ هل هذا بئر بالفعل؟ يعود بنظره مرةً أخرى إلى الواقف على يمينه كأنه يستيقن من حقيقة ما يراه، عيناه التي تكتنفهما ظلال خفيفة نتيجةً لغطاء الرأس يجيبه بأنه نعم!

ـ كيف حالك يا دكتور معاذ؟

إذن هو يعرفه معرفةً دقيقةً، دق قلب الدكتور معاذ، لقد وقع ضحيةً لذلك المجنون، وهذه واحدة من ألاعيبه الجديدة في قتل ضحاياه، أي نهاية سيئة يتم اقتياده إليها، عقله يحاول أن يستعرض عشرات الميتات الجنونية، ويحاول أن يربطها بذلك البئر، ولكنه لا يفلح في الوصول إلى أي جنون يرتبه له ذلك السفاح وكيف ستكون الميتة هذه المرة؟

"أين أنت يا فارس؟"، سؤال يائس ردده عقله وهو يعلم إجابته المسبقة عليه.

يتذكر كل ما حدث، يدير رأسه بصعوبة باتجاه السفاح فهو بالكاد يلمحه بطرف عينيه، الآن يستطيع أن يبصره بشكل أدق وأوضح، السفاح يقترب من حافة سور البئر ليضع الدكتور في مجال رؤية أوضح، كأنه يريد أن يتعرف عليه قبل أن يقتله.

ملامحه عادية لا توحي بالخوف، ولكن تلك النظرة المخيفة التي ترسمها عيناه والتعابير القاسية المفروشة على وجهه تعطي ذلك الانطباع الشديد بالخوف.

ـ هل تستغرب أن تكون على قائمتي يا دكتور؟ لقد أخبروني أنك الوحيد الذي تعلم أنك ستكون على قائمتي.

سكت قليلًا ليترك انطباعًا أكبر بالخوف لدى الدكتور الذي يدق قلبه بشدة، لا يحتاج الدكتور إلى المزيد من التلميحات؛ ليرتعد فكل خلية في جسده حاليًّا ترتعد من الخوف والرعب:

ـ أنت حاصل على الدكتوراه في التاريخ، أليس كذلك؟

لم يستطع الدكتور الرد عليه فالحبل الملتف حول عنقه يحد من قدرته على النطق، يكاد يختنق ويتنفس بصعوبة شديدة.

السفاح يعلم ذلك؛ فهو لا ينتظر أي رد من الدكتور، نظر السفاح إلى ساعة يده ثم رفع رأسه إلى الدكتور قائلًا بصوت هادئ مصبوغ بجدية وصرامة:

ـ هناك حبل ملفوف حول عنقك كما شاهدت بنفسك، من الممكن أن تعتبره حبل مشنقة.

سخيف، الأمر لا يحتاج إلى كثير من الذكاء فهو بالطبع يدرك ذلك جيدًا، هذا المجنون على وشك أن يعدمه شنقًا ولكن لماذا فوق بئر؟!

نظر السفاح إلى البئر ثم رفع بصره إلى الدكتور معاذ مضيفًا:

ـ هذه البئر تقريبًا عمقه بين أربعة أو خمسة أمتار، لست متأكدًا الحقيقة، وارتفاع المياه بالبئر نحو الخمسين سنتيمترا.

سكت قليلًا وابتسامة تلوح على شفتيه، ابتسامة مريضة تصطبغ بالجنون والسادية.

هز السفاح كتفيه وهو ينظر للبئر مرةً أخرى ويقول:

ـ لا أعلم؛ هل سيكون بإمكانك النجاة من حبل المشنقة، وإذا نجوت من حبل المشنقة فهل سيكون مقدرًا لك النجاة من السقوط، أعتقد أن قدرك سيجيبك عن هذه الأسئلة...

كان الدكتور معاذ يصغي إليه باهتمام، يحاول أن يتعرف على فرص نجاته، إذا كانت هناك أي فرصة للنجاة أصلًا.

ابتعد السفاح عن سور البئر وهو ينفض يديه من أثر التراب قائلًا:

ـ وإذا بقيت حيًّا بعد كل ذلك، ربما كانت هناك فرصة أخرى للنجاة، ربما.

كان أداء السفاح مسرحيًّا للغاية، بل بدا متكلفًا للغاية ومبتذلًا في أدائه المسرحي وهو يضيف:

ـ الفرصة الأخيرة للنجاة ستكون عبارةً عن سؤال لو استطعت الإجابة عليه لربما كُتِب لك عمر جديد.

مال السفاح نحو الأرض يلتقط قضيبًا حديديًّا، فجحظت عيني الدكتور رعبًا، ماذا ينوي أن يفعل هذا المجنون؟ ألا يكفيه أنه سيقتلني شنقًا.

اقترب السفاح من سور البئر وهوى بالقضيب الحديدي على اللوح الخشبي ليتشقق من المنتصف، بشكل لا إرادي رفع الدكتور معاذ قدمه اليمنى متخوفًا من أن يصيب القضيب الحديدي قدمه، ولكنه أدرك المغزى من ذلك فيما بعد، لقد تشقق اللوح الخشبي من المنتصف واختل توازن الدكتور معاذ عندما رفع قدمه اليمنى فازداد تشقق اللوح الخشبي.

ألقى السفاح القضيب المعدني من يديه وهو يراقب اللوح الخشبي والتشققات تزداد به، ويسمع طقطقات الخشب في استمتاع غريب،

وابتسامته تتسع مع كل طقطقة... الدكتور معاذ بعينين جاحظتين يراقب اللوح الخشبي وهو ينهار من تحت قدمه اليسرى وهو ما زال يرفع قدمه اليمنى في صعوبة وآلام المفاصل تنتشر بسرعة البرق في ساقه اليمنى بالكامل، إلى متى سيصمد ذلك اللوح الخشبي؟

اللوح الخشبي على وشك أن ينقسم من المنتصف مما جعل جسد الدكتور يهبط سنتميترات قليلة، ولكنها كافية لمضاعفة شعوره بالاختناق، يفتح الدكتور فمه بقدر المستطاع وهو يحاول أن يحصل على أي أوكسجين، ولكن الكمية أقل مما يجب، عيناه تجحظان...

يسمع السفاح صوت خوار يصدره الدكتور، تختفي من على وجهه الابتسامة، ويحل محلها بريق مخيف في عينيه، بريق سادي لرجل يستمتع بموت ضحيته... يقول السفاح وهو يشير إلى جيب بنطال الدكتور الأيمن:

- هناك سكين حاد في جيب بنطالك الأيمن، يمكنك استخدامها لقطع الحبل قبل أن ينقسم اللوح الخشبي إلى نصفين وتموت شنقًا، ما زال هناك أمل للنجاة بعد أن تقع في هذا البئر.

تجمد السفاح مكانه بعدما فرغ من كلماته الأخيرة، لثانية لم يستوعب الدكتور ما يقوله، لثانية توقف عقله عن العمل ولكنه استعاد وعيه مرةً أخرى وهو يستنكر كيف لم يستشعر بأن هناك شيئًا معدنيًا

في جيب بنطاله الأيمن، لا وقت للاستنكار، عليه أن يتحرك بسرعة قبل أن ينهار اللوح الخشبي من تحت قدميه.

مد يده اليمنى إلى جيب بنطاله يخرج السكين، كان كبيرًا ونصله حادًا بالفعل، وبيده اليسرى أمسك بالحبل الممتد من أعلى رأسه إلى رقبته وبيده اليمنى حاول أن يقطع ذلك الحبل بالسكين في حركات سريعة وبيد مرتعشة.

يسمع طقطقة الخشب مرةً أخرى نتيجةً لحركته الزائدة هذه؛ فيزداد خفقان قلبه وجحوظ عينيه.

هل ما مر عليه مجرد ثوان أم ساعات كاملة؟ ما زال يمر بحركات سريعة بالسكين على الحبل، ولكن هل سينقطع الحبل في الوقت المناسب؟ هل أحدثت السكينة فيه شيئًا أصلًا؟

عليه أن يستمر في فعل ذلك حتى لو شعر بكل كيانه أن السكينة لا تفعل شيئًا؟ ليس أمامه شيء سوى انتظار النتائج... هل سينجو أصلًا بعد سقوطه في البئر لو أفلح في قطع الحبل في الوقت المناسب؟

يشعر بخدر وألم شديد في عضلات ذراعه الأيمن، ولكن غريزة البقاء تعطيه طاقةً أكبر على المضي قدمًا.

يسمع طقطقةً جديدةً للخشب مرةً أخرى، وكأنها دافع ليده اليمنى لأن تسرع من حركتها أكثر.

ينقسم الخشب من المنتصف، في نفس الوقت الذي يفلح فيه الدكتور في قطع الحبل، مصادفة غريبة، ولكن الآن جسده يهوي بسرعة الصاروخ باتجاه البئر ولوح الخشب المقسوم يهوى معه ويده تفلت السكين ويصرخ بأعلى صوت لديه.

لم يستغرق الأمر أكثر من ثانية ولكن بالنسبة له كانت طويلةً كفايةً ليشعر بأعلى درجات الرعب والهلع.

جسده يرتطم بالماء ولكن صرخةً أخرى صدرت عنه نتيجة للألم البالغ لدى اصطدام جسده الممتلئ بأرض البئر الصلبة، شعر وكأن هناك من انتزع روحه فجأةً لدى اصطدامه بأرض صلبة أو هكذا ظن، غاب وجهه داخل الماء لتستقبل رئتاه بشكل فجائي دفعةً قويةً من الماء...

شعوره باحتراق أنفه وحلقه، وشعوره بالألم في شتى أنحاء جسده، تعني أنه لا يزال حيًّا، لقد نجا من الموت شنقًا، ونجا مرةً أخرى من الموت من هذا الارتفاع، حمدًا لله... إنها أمتار قليلة. يرفع نصف جسده العلوي بكل ما تبقى لديه من قوة، لا يعرف من أين استجمع كل هذه القوة، إن غريزة البقاء توفر للإنسان طاقةً مذهلةً لتبقيه على قيد الحياة.

يشهق في ذهول وعدم تصديق ورغبة قوية في استنشاق الأوكسجين، ثم يسعل بقوة وهو يتقيأ المياه التي دخلت رغمًا عنه إلى رئتيه وأنفه، ظل على هذا الوضع لدقيقة جالسًا.

وبعد أن أطمئن عقله إلى بقاء جسده على قيد الحياة بدأ في بث الكثير من رسائل الألم والإنهاك الشديد، ظل يتأوه ألمًا وهو على وضعيته هذه، نصف غائب عن الوعي.

السفاح يقترب من سور البئر ويتطلع إليه لثوان مبتسمًا ثم يقول:

ـ لقد كتب الله لك يا دكتور عمرًا جديدًا.

كان الدكتور معاذ قد استنفذ ما تبقى له من قوة، فلم يعد قادرًا حتى على رفع رأسه لأعلى، يشعر بآلام فظيعة في ذراعه وقدمه اليمنى التي التوت تحت جسده السمين جدًّا نتيجةً لسقوطه على جانبه الأيمن.

يحاول أن يسند جسده كله على ذراعه اليسرى التي تنوء بذلك الحمل الكبير.

ـ بما أنك أستاذ في التاريخ يا دكتور، هل تعرف من الذي قُتِل بإلقائه من مكان مرتفع؟ هو لم يكن محظوظًا مثلك، فالمكان الذي أُلْقِي منه كان أكثر ارتفاعًا، وقبلها قد عُذِّب بشدة، إذا عرِفت إجابة هذا السؤال يا دكتور معاذ قد تكون هذه هي فرصتك للنجاة الأخيرة والحاسمة.

لم يرد عليه الدكتور معاذ، كان عقله يبث إليه رسائل سريعةً صارخةً بأن جسده بالكلية على وشك الانهيار... حتى أنه لم يقوَ على رفع رأسه عندما بدأ السفاح بوضع غطاء حديدي ثقيل ليغلق به فتحة البئر، كل ما استطاع عقله أن يمده به هو تلك الدموع التي سالت من عينيه.

بدأ ضوء وقت العصر يتسرب خارج البئر تدريجيًّا كلما ازداد انغلاق فتحة البئر حتى أظلمت الدنيا تمامًا، أصبح الآن محصورًا بين الظلمة المعتمة وآلامه الصارخة ودموعه التي تسيل في صمت.

عقله كانت القوة الباقية في جسده القادرة على العمل بكامل فاعليتها، فكر في سؤال السفاح، هل كان يعني ما يقوله حقًّا؟ إن الإجابة على هذا السؤال من الممكن أن تكون المفتاح لنجاته...

لن يخسر شيئًا إذا حاول أن يستدعي من ذاكرته الحدث التاريخي الذي يتماشى مع أسلوب قتله بهذه الطريقة، فإن أفلح في إجابة السؤال لربما يكون هذا هو طوق النجاة...

وإن لم يفِ السفاح بوعده في أن يعطيه فرصةً أخرى للنجاة فهو على الأقل لم يخسر شيئًا، لأن كل الاحتمالات في وضعها الحالي تنبئ بموته المؤكد، فبالتالي لن يخسر شيئًا إذا اعتصر ذهنه، وبحث عن إجابة لذلك السؤال.

من مات شنقًا؟

لا يحضر في ذهنه حاليًا شخصية في التاريخ الإسلامي ماتت شنقًا، إلى أي العصور عليه أن يرجع حتى يستحضر مشهدًا مقاربًا لذلك... بالتأكيد عصر يزيد بن معاوية فهو المتماشي مع أحداث القتل حتى الآن.

من مات مشنوقًا ويُحْسَب على آل البيت، لا يتذكر أن أحدهم مات شنقًا، أو ربما عقله لا يعمل بالقوة الكافية.

أو... أو ربما لم يكن المقصود هو الشنق لأنه نجا من الموت شنقًا، لربما كانت العبرة في سقوطه التي كانت من الممكن أن تكون السبب في مقتله.

هل قُتِل أحد آل البيت في موقعة كربلاء مثلًا بأن أُلْقِيَ في بئر؟ لا توجد حادثة واحدة تتماشى مع طريقة القتل هذه، فجل ما يتذكره الآن مقتل عبد الله ابن الإمام الحسين بالسهم في رقبته وفق بعض المرويات، وهذه الحادثة قد طبقها السفاح من قبل في الضحية الخامسة.

إذن من الذي أُلْقِيَ في بئر من آل البيت؟ عقله الآن يعجز عن الإجابة؟ يبدو أن السفاح كان يلاعبه ويتلذذ بحرق أعصابه قبل موته، الأمر لا يعدو عن ذلك و...

مرق بعقله سؤال عابر جاء بنبرة استنكارية، ولما لا يكون أحد صحابة الإمام الحسين على سبيل المثال أو صحابة أحد أئمة آل البيت، نعم؛ لربما كان كذلك.

من الذي أُلْقِيَ في بئر من صحابة أئمة آل البيت أو صحابة الإمام الحسين، مرةً أخرى يفشل في العثور على إجابة لهذا السؤال.

هو يعلم جيدًا أنه يعلم الإجابة! غريب أن يعجز عقله حاليًّا عن الاتيان بها، هو يعلمها، كيف لا يدركها عقله بالسرعة المطلوبة، لماذا يبدُو عاجزًا عن الإجابة؟

في ذلك الوقت كان إدريس يجلس خلف مقود سيارته، يتطلع إلى الجهاز اللوحي الملقى إلى جواره مبتسمًا، فلولا العناية الإلهية لما ورد إليه خاطر أن يبحث في محتويات درج تابلوه السيارة ليعثر على ذلك الجهاز اللوحي، فيقوم بإغلاقه فورًا...

حقًّا في كل مرة تتدخل يد العناية الإلهية لتنقذه من مصير محتوم، لم يعد على يقين بأن كل مهامه إلهية ومقدسة فقط، ولكن أصبح مطمئن القلب إلى أن الله راض عن كل ما يفعله، ويبارك خطواته، والدليل تلك المؤشرات الواضحة وضوح الشمس على مباركة الله لأفعاله...

التقط من جيب معطفه سماعة أذن صغيرة دسها في أذنه اليمنى، يسترق السمع لشيء ما بتركيز شديد.

بعد أن توقف عقل الدكتور معاذ عن إيجاد الإجابة المناسبة عاد ليعمل مرةً أخرى بنشاط وقد سطعت في رأسه فكرة جديدة، لما لا يكون السقوط في البئر مجرد دلالة رمزية، وليس بالضرورة أن يكون الحدث التاريخي أن أُلْقِيَ شخص في البئر؟ الدلالة الرمزية في السقوط نفسه!

نعم، فكرة السقوط هي مربط الفرس في الربط بين ما حدث له وبين الحدث التاريخي المشهور، الآن سطعت الإجابة في ذهنه، ذهنه ترجم الإجابة إلى هتافٍ عال.

"مسلم بن عقيل... مسلم بن عقيل"

انتصب النصف العلوي لإدريس على مقعده وهو يسمع الإجابة، لم يكن يتوقع أن تجيب الضحية على السؤال، لقد توقع أن يفشل، ما الذي يحدث بالضبط؟ هل فشلت المهمة الإلهية؟! لا يمكن، فيقينه بالله لا يمكن أن يتزعزع، إذن ما الذي حدث؟

لأول مرة ترتبك ملامح إدريس حتى أنه نظر إلى ملامحه المرتبكة المتوترة في مرآة السيارة الداخلية، يريد أن يعرف هل ما حدث؛ حدث فعلًا؟! كيف عرف الإجابة؟

الآن الصورة مكتملة في رأس الدكتور معاذ، كم من مرة قرأ قصة مسلم بن عقيل، وتأثر لأحداثها، كم من مرة؟ كم من مرة طفرت الدموع في عينيه وهو ينهي آخر سطر من هذه القصة المؤلمة.

الإمام الحسين يقف أمام مسلم بن عقيل يناوله كتابه إلى أهل الكوفة، ورقة مطوية في غطاء من الصوف الخشن معقود عليها خيط سميك، يضعها مسلم بن عقيل في جراب سراج خيله، يعانق الإمام الحسين ثم يعتلي صهوة جواده متوجهًا من مكة إلى الكوفة ليأخذ البيعة له من الناس.

وهو على صهوة جواده يتذكر ما كتبه الإمام الحسين في كتابه المُرْسَل به إلى أهل الكوفة "وأنا باعث إليكم أخي وابن عمي وثقتي من أهل بيتي"، يبتسم في سعادة لثقة الإمام به وأنه دعاه بأخي وأنه من أهل بيته، وهو الذي على استعداد أن يفدي الإمام بحياته.

يقف على أعتاب مدينة الكوفة يبصرها من أعلى قمة التل الذي يقف عليه، ينشرح صدره للمهمة العظيمة المقبل عليها، يتحرك بجواده من أعلى التل حتى يلتقي بآلاف من الناس يقفون في جمهرة عظيمة ينتظرونه على مشارف المدينة، يحمد الله كثيرًا على هذا النصر القادم، يبتسم وصدره يعلو ويهبط في انتصار ونشوة.

يقف أعلى المنبر وقد بايع الحسين ثمانية عشر ألفاً من أهل الكوفة، ينظر إلى تلك الحشود بسعادة حقيقية، ويستعجل رسوله في الذهاب إلى مكة لاستقدام الإمام الحسين لأخذ البيعة بنفسه، كم سيسعد الإمام بذلك.

تمر برأس الدكتور معاذ أحداث أخرى وهو على وضعه الواهن، ولكن عقله يعمل بقوة أكبر من الاعتيادي.

يزيد بن معاوية يعزل النعمان بن بشير من ولاية الكوفة، ويعين زياد ابن أبيه واليًا عليها، بعض أنصار مسلم بن عقيل ينفضون من حوله، وهو الآن جالس قلقًا في دار هانئ بن عروة، يجهز رسولًا آخر للذهاب إلى مكة ليمنع الإمام الحسين من القدوم إلى الكوفة، فالأوضاع الآن اختلفت أيما اختلاف، من كانوا أنصاره بالأمس، اليوم انفض جمع كبير منهم من حوله.

هز رأسه أسفًا وهو يتذكر خذلان أهل البصرة والكوفة من قبل عدة مرات للإمام علي، كيف وثق فيهم؟ ولكن ما زال فيهم رجال من الممكن أن يغيروا مجرى الأحداث بالكامل.

الأحداث تتسارع ويستطيع رجال زياد بن أبيه القبض على هانئ بن عروة واقتياده إلى قصر الإمارة.

شاءت العناية الإلهية أن تنقذ مسلم بن عقيل من الأسر؛ فلقد كان وقتها في صحبة رجاله الذين بقوا معه على العهد، فيتناهى إلى مسامعه خبر اعتقال هانئ بن عروة فيعجل بالثورة...

يخرج في ركب من رجاله مدججين بالأسلحة يتجهون إلى قصر الإمارة؛ يحاصرون فيه زياد بن أبيه وبعض رجاله، ولكن تنقلب الأمور رأسًا على عقب مرةً أخرى، ويستطيع زياد بن أبيه من خلال بعض رجاله الموجودين خارج قصر الإمارة أن يدفعوا أهل الكوفة بالإغواء والترهيب عن نصرة مسلم بن عقيل...

ينفض الرجال شيئًا فشيئًا من حوله حتى يبقى نفر قليل جدًّا من رجاله، فيأذن لكلٍ منهم أن يذهب لحاله وهم يبكون أسفًا، ثم يتوارى عن الأنظار في بيت طوعة؛ يحاول أن يؤمِّن طريقاً للخروج من الكوفة، ولكن جواسيس زياد بن أبيه ينتشرون في كل الشوارع، ويفتشون كل البيوت... هل هناك من أمل في النجاة من هذا الكرب؟

لقد خذل أهل الكوفة آل البيت مرةً أخرى، ولكن ما كان يشغله أكثر وترتعد له أوصاله أكثر من بقائه حيًّا هو هل وصل رسوله إلى الحسين، وأبلغه بما كان من أمر الكوفة؛ ليرجع الحسين مرةً أخرى إلى مكة... يدعو الله أن يكون وصل إليه.

مرت أيام قليلة وهو مختبئ بدار طوعة، ولكنها بالنسبة له مرت كالدهر وما زال الأمل غائبًا في أن يخرج من الكوفة دون أن يلاحظه جواسيس زياد بن أبيه، استطاع أن يرسل رسولًا آخر أفلت من جواسيس زياد ليبلغ الحسين آخر رسائله أنه ميت لا محالة فلا تأتِ، فهل سيسمع لكلامه؟! يتمنى ذلك.

ينتصب مسلم بن عقيل واقفًا في حجرته وقد فرغ من الوضوء لأداء صلاة الظهر، يسمع تلك الجلبة على باب البيت، اتجه إلى سيفه يستله من غمده في الوقت الذي دفع فيه باب غرفته ليدخل عليه ثلاثة عساكر يشهرون سيوفهم؛ يقاتلهم في بسالة حتى يدفعهم خارج الحجرة وقد سقطوا بين جريح وقتيل...

يلتقي عددًا آخر في ساحة البيت يدفعهم ببسالته ومهاراته في القتال إلى خارج البيت، وقد سقط بعضهم بين قتيل وجريح، ولكن لا جدوى من بسالته وشجاعته ومهاراته القتالية أمام هذه الأمواج التي لا تنتهي من عسكر زياد حتى أطبقوا عليه وقادوه في نهاية الأمر إلى قصر الإمارة.

يغلق عينيه وهو يستقبل نسمة هواء باردة تداعب وجهه وخصلات شعره المتهدلة على وجهه، يفتح عينيه مرةً أخرى وهو ينظر من أعلى سور القلعة إلى تلك الأرض الحجرية القابعة بالأسفل...

جند زياد يقفون من خلفه وهو مكبل اليدين خلف ظهره ، وواحد منهم يقف خلفه مباشرةً ، يبتسم وهو ينطق الشهادتين، وما كاد يكملها حتى دفعه ذلك الواقف خلفه في ظهره فيسقط من ذلك الارتفاع ليرتطم رأسه بالأرض، وتسيل الدماء غزيرةً على تلك الأرض الحجرية وزياد ابن أبيه يشاهد ذلك بسعادة بالغة وابتسامة واسعة ترتسم على شفتيه.

ما هو تاريخ اليوم؟

سؤال آخر ضرب رأس الدكتور معاذ قبل أن يجيب عقله بسرعة عن هذا السؤال، صورتان تسطعان أمام عينيه رقم ٨ وشهر ذي الحجة، ذلك هو اليوم الذي قُتِل فيه مسلم بن عقيل.

يبكي الدكتور معاذ في تأثر بصمت، وبعد أن يفرغ من نوبة البكاء هذه يقول بصوت متهدج باكٍ:

- تقبل أسفي يا مسلم بن عقيل، آسف يا ابن عم سيد شهداء أهل الجنة، جدودي قتلوك وقتلوا الإمام من بعدك، أنا آسف.

يبكي مرةً أخرى، اهتز إدريس لقول الدكتور معاذ رغمًا عنه، وتسقط دمعة ساخنة من عينه اليمنى لتسيل على خده، واستشعر صدق الدكتور في أسفه وندمه... يستغرب تأثره، فلقد أخبروه أن خلف تلك الوجوه البريئة تستقر الشياطين، كيف يتعاطف مع الشيطان؟ يستعيذ

بالله ثم يطلق زفرةً طويلةً قبل أن يجري اتصالًا أخيرًا يحسم به تردده وارتباكه.

* * *

(٩)

ـ هذه اللوحة يا فارس لسيارة من محرم بك، السيارة مسروقة بالطبع.

ـ متى سُرِقت؟

ـ أبلغ صاحبها عن سرقتها في قسم محرم بك الساعة العاشرة والنصف صباحًا.

ران الصمت على المكان وفارس يغرق في تفكير سريع استدعاه منه أيمن هاتفًا:

ـ فارس.

ـ من الممكن أن نقول إن السيارة سُرِقت الساعة العاشرة والربع تقريبًا، وبواب عمارة الدكتور معاذ عاد من صلاة الظهر حوالي الساعة الثانية عشر وربع عندما شاهد السفاح يغادر العمارة متجهًا إلى السيارة...

الواضح أن السفاح انتظر ذهاب البواب لصلاة الظهر حتى يدخل للعمارة بهدوء؛ مما يعني أنه كان يراقب بيت الدكتور معاذ منذ فترة.

العقيد وأيمن يتطلعان إليه في صمت، في حين بدا فارس أنه تناسى وجودهما وهو يدور حول نفسه في غرفة العقيد مستطردًا:

ـ إذن، هو تحرك من الإبراهيمية في حدود الساعة الثانية عشر وربع.

هنا تدخل أيمن بحماس متسائلًا:

ـ وبماذا ستفيد كل هذه التفاصيل؟

تجاهل فارس سؤال أيمن وقد تبادر إلى ذهنه خاطر سريع فترجمه إلى سؤال مباشر لأيمن:

ـ الرجل الذي أبلغ عن سرقة سيارته، هل سُرِقت منه أمام عينيه، أم بعد أن صفها وذهب ليفعل شيئًا ما.

ـ وما الفارق؟

رد عليه فارس بعصبية:

ـ هل من الممكن أن تجيب على السؤال.

كان العقيد يتابعهما بصمت وبنوع من الاستمتاع وهو يلتقط واحدةً من سجائره، رد أيمن في ضيق:

ـ قال في المحضر أنه صف السيارة أمام السوبر ماركت وقد تركها دائرةً ليبتاع شيئًا...

هنا صفق فارس بيديه وهو يقول بانفعال:

ـ إذن من المحتمل جدًّا أنه ترك هاتفه الجوال في السيارة، إذن علينا تعقب هاتفه الجوال حتى نعرف أين مكان السيارة الآن.

ازداد ضيق أيمن وهو يجيب:

ـ نحن نعرف كيف ندير عملنا جيدًا يا فارس، ومن المؤكد حاولنا تعقب هاتفه الجوال عن طريق مباحث الاتصالات، ولكنه أغلق الهاتف الجوال.

اقتحم العقيد الحديث وهو ينفث دخان سيجارته قائلًا في رنة سخرية:

ـ وهل كنت تتوقع أن يتركه مفتوحًا يا فارس، كنت أتصور أنك أذكى من ذلك، نحن لا نتعامل مع شخص هاوٍ.

هز فارس رأسه وقد غاب عنهما بالتفكير في أمر آخر في حين انشغل العقيد بتناول رشفة من فنجان قهوته، في الوقت الذي عدل أيمن من وضع جلوسه، توقف فارس عن التحرك وهو يلتفت لكليهما قائلًا:

ـ كل جرائم القتل الخاصة بالسفاح كانت تتم في مناطق نائية ما عادا الجريمة الأولى، وهذا يعني أنه اصطحب الدكتور معاذ لمنطقة نائية...

قاطعه أيمن قائلًا:

ـ لقد مرت هذه الفكرة بخاطري وبالمصادفة عرفت أن هناك كمينًا في الطريق الصحراوي، وتواصلت مع ضابط الكمين وأكد لي مرور سيارة بنفس المواصفات منذ نصف ساعة تقريبًا.

ضحك العقيد ضحكةً مكتومةً وهو يهز رأسه مما دفع فارس لأن يهتف به بعصبية:

ـ عذرًا، ما هو المضحك في الأمر؟

ـ هذه هي المرة الأولى يا فارس الذي يعمل فيه أيمن عقله، لقد فاجأني حقيقةً.

ازداد غيظ فارس للامبالاة الظاهرة على وجه العقيد، ولكنه حاول أن يتجاوز ذلك ويعيد ذهنه لحالة إجبارية من الصفاء حتى يتمكن من التفكير مرةً أخرى وهو يوجه سؤاله لأيمن:

ـ أين الكمين تحديدًا؟

ـ في منتصف الطريق الصحراوي بعد محطة بنزين الوطنية.

ـ حسنًا، إذن من المرجح أن يتجه إلى الكينج مريوط أو الناصرية، ومن المستبعد أن يقوم بجريمته في العامرية أو العجمي لأنهما منطقتان بهما كثافة سكانية عالية...

تدخل العقيد مرةً أخرى في الحوار قائلًا بلهجته المازحة:

ـ كان يجب أن تكون ضابط شرطة يا فارس.

حاول فارس أن يكظم غيظه من الحالة اللامبالاة التي تعتري العقيد وهو يضيف:

ـ ولا أتصور أنه سيضيع الوقت بمغادرة الإسكندرية وسينفذ جريمته داخلها.

هز أيمن كتفيه معقبًا:

ـ منطقة شمال التحرير بعد بوابة الإسكندرية محتملة جدًّا لأنها قريبة.

توترت ملامح فارس للطرح الجديد الذي قاله أيمن وقد مثل بالنسبة له عبئًا إضافيًّا، فكر فيه سريعًا، وحاول أن يستبعده حتى لا يفقد الأمل في أي فرصة لنجاة الدكتور معاذ، هز رأسه نافيًا قائلًا في إصرار:

ـ أتمنى ألا يكون هذا الاحتمال قائمًا في أن يتجه لمنطقة شمال التحرير لأن الوقت بالنسبة له عامل حاسم في جرائمه، خصوصًا أنها جريمة في وضح النهار.

أضاف أيمن:

ـ إذن؛ لو تحرك القاتل من الإبراهيمية في حدود الثانية عشر وربع ظهرًا فسيستغرق ما لا يقل عن ساعة ونصف حتى يصل أي من المنطقتين اللتين ذكرتهما.

نهض العقيد من خلف مقعده وهو يسعل، فالتفتت إليه الأنظار وقد أرجع كتفيه للخلف استعدادًا لإلقاء خطبة.

ـ اتصل يا أيمن بمأمور قسم العامرية فورًا، واجعله يتحرى عن مواصفات السيارة في منطقة الناصرية، ويرسل إشارةً لنقطة شرطة الكينج مريوط ليقوموا بالأمر نفسه.

علَت آيات الفخر ملامح أيمن وهو يقول بثقة وصوت يصطبغ بالسعادة:

ـ تلميذك يا باشا، لقد فعلت ذلك وفي انتظار الرد خلال نصف ساعة.

ضحك العقيد وهو يقول ساخرًا:

ـ يخرب بيتك، أصبحت تفهم الآن يا أيمن، من أين لك بعقلٍ يفهم يا بغل؟

تنحنح أيمن وهز كتفيه كطفل صغير، في حين أوشك صبر فارس على النفاذ وهو يقول بعصبية:

ـ هل من الممكن أن نتحرك الآن على الأقل لحين ورود مكالمة مأمور قسم العامرية؟

قال أيمن بسعادة طفولية وهو يبتسم:

ـ والسيارة جاهزة للتحرك.

ضحك العقيد وهو يقول ساخرًا:

ـ بهذه الطريقة سيعتريني الشك اتجاهك يا أيمن، هل أنت هو فعلًا؟

صاح فارس في عصبية:

ـ هل من الممكن أن نتحرك؟

لم ينفعل العقيد، بل بشكل ما كان يُقَدِّر ما فيه فارس من توتر وانفعال، فوضع يده على كتف فارس وهم يتحركون جميعًا قائلًا بحنو أبوي لأول مرة يلاحظه فارس في صوت العقيد:

ـ يبدو أنه عزيز عليك يا فارس.

لم يرد فارس، فكانت هناك غصة قوية ورغبة في البكاء تمنعه من الرد.

*** * ***

(١٠)

ـ اتصل بالهاتف الجوال يا إدريس طالما عرف الإجابة، من حقه أن تعطيه فرصته الأخيرة للنجاة.

لم تفلح هذه المكالمة في خفض مستوى التوتر لدى إدريس، بل أضافت إليه مستوى أعلى من التوتر بالإضافة إلى الارتباك، هل يعطي الفرصة لآثم لأن يفلت من العقاب، والموت الذي يستحقه؟ كيف يفعل ذلك؟

ـ هل تسمعني يا إدريس؟

ـ أسمع سماحتك.

ـ إذن؛ نفذ يا إدريس ولا تفكر.

ـ آسف سماحتك.

ـ ربنا يوفقك يا إدريس.

أنهى إدريس الاتصال وظل يتطلع لشاشة الهاتف الجوال لعدة ثوان، ثم تطلع إلى بوابة الفيلا الحديدية، مر به رجل بدوي ألقى عليه السلام فبادله سلامًا شاردًا.

حسَمَ إدريس أمره وأجرى اتصالًا برقم آخر.

لا يعرف كم أمضى الدكتور معاذ من الوقت وهو على وضعه هذا، المياه تصل إلى منتصف كرشه، يشعر ببرودة شديدة في جميع أطرافه

نتيجة للمياه الباردة وآلام تعصف بكل أنحاء جسده، جفاف شديد في الحلق ودوار عظيم بالرأس.

كرنفال من الآلام يعصف بكل كيانه؛ يوشك أن يسقط في غيبوبة سكر، ربما مرت ربع ساعة وهو على وضعه هذا في هذه الظلمة المعتمة، يشعر بثقل في جفنيه عظيم، أنها البدايات الأولى لغيبوبة السكر ولاشك.

تنتفض كل حواسه عندما يسمع صوت رنة هاتف جوال، هل ما يسمعه حقيقي؟! هل هي هلاوس؟ الرنات تتلاحق، إنه لا يهلوس بل الأمر حقيقي.

الرغبة الأزلية في البقاء هي التي دفعت إلى جسده طاقةً غريبةً تغلب بها على انحداره السريع لغيبوبة السكر وآلام جسده.

صوت الهاتف الجوال يأتيه من خلفه، يحاول أن يدير نصفه العلوي باتجاه الصوت، تتسع عيناه وهو يشاهد الموبايل يتوهج أمامه.

يدير جسده كله وهو يشعر بإجهاد شديد، ولكنه حب الحياة الذي يجعله يقاوم كل ذلك، يعطيه تلك الطاقة الاستثنائية ليزحف باتجاه الهاتف الجوال الذي تتوهج شاشته، فيقترب منه، ويحاول أن يمد يده اليمنى لأعلى ليلتقطه، ولكنه على مسافة أبعد من يده اليمنى، لا يقوى على الوقوف مع التواء قدمه اليمنى أسفل فخذه الأيمن.

الرغبة في البقاء تحركه... الهاتف الجوال هو فرصته للنجاة... يجب أن يفعلها...

يتحسس الجدار أمامه بيديه؛ يبحث عن أي نتوء فيه ليساعده على النهوض... أخيرًا؛ يجد هذا النتوء... يحاول أن يرفع جسده... يفشل... يحاول مرةً أخرى؛ فيفشل... يتأوه ألمًا ويجز على أسنانه... يشعر أنه على وشك أن يحطم أسنانه.

الهاتف الجوال يتوقف عن إصدار رنينه والشاشة تظلم... اللعنة... ليس الآن، ليس الآن... عقله يصرخ، أيها الأحمق، هل أضعت الفرصة؟ هل فعلت ذلك حقًّا؟

الغضب... الرغبة في البقاء حيًّا... يبثان فيه طاقةً إضافيةً تعاونه على أن يحاول الوقوف مرة أخرى. أخيرًا يقف وصرخة ألم مكتومة تفلت من بين شفتيه.

تحرك إدريس بسيارته متجهًا إلى إحدى الشوارع الترابية الخالية من المارة والفيلات فيها تبدو خاليةً أيضًا من سكانها، أوقف السيارة تحت شجرة وارفة الظلال، شرع في إبدال ملابسه الحالية بأخرى بدوية...

غادر السيارة ثم عاد إلى حيث الطريق المطل على الفيلا الموجود بها الدكتور معاذ، أمسك غصن شجرة ملقى على الأرض، ثم جلس

على طوب أبيض عريض ملقى إلى جانب الطريق؛ يعبث بالغصن في الأرض الترابية.

ملامح وجهه تبدلت تمامًا، وقد ثبت لحيةً قصيرةً إلى ذقنه وحاجبين كثيفين وشفتين غليظتين... كم هو جيد في التنكر؟

عليه أن يبقى ليتابع موت الضحية أو نجاتها، لو نجت الضحية تحققت فيه رؤية المرجعية أو تلك القصة التي قصها عليه بشأن هذه الضحية تقريبًا، كم هي قصة مؤثرة، بل هل من الممكن أن تنطبق تفاصيلها على هذه الضحية؟

يهز إدريس رأسه كأنه يحاور نفسه، يترك المجال لصوتين يتصارعان داخل رأسه؛ كل منهما يلقي برأيه وحجته... لمَ لا؟ بعض الشياطين تتوب إلى بارئها، وتستقيم، ربما كان أحدهم، سيعرف قريبًا جدًّا إذا كان هو أحد هؤلاء أم لا، عليه فقط أن ينتظر ويرى!

يتحسس الدكتور معاذ جدار البئر في هذه الظلمة حتى تصل يده اليمنى إلى الهاتف الجوال المثبت إلى جدار البئر، يحاول أن يجذبه نحوه، ولكن بدا أنه مثبت بإحكام إلى الحائط، يجذبه بعنف؛ فيفلح في انتزاعه، ولكن يختل توازنه ويسقط أرضًا في قاع البئر ضاربًا سطح المياه الراكدة بجسده والهاتف الجوال يفلت من يده ليسقط في القاع.

أي حظ تعيس هذا الذي يواجهه؟

أذنه التقطت بشكل مذهل مكان سقوط الهاتف الجوال، إلى يمينه، في أي موضع لا يهم، سيجثو على ركبتيه رغم كل آلامه ليتحسس بكلتا يديه قاع البئر في هذا الاتجاه.

جنون الرغبة في البقاء تجتاح كل كيانه... يبحث... يده تمسك حجرًا ما، يلقيه بعيدًا، يعيد تحسس القاع مرةً أخرى في عصبية شديدة، أخيرًا يعثر على ملمس يقارب ملمس الهاتف الجوال، يرفع يده إلى أعلى.

الفكرة التي مرقت برأسه، لقد وجد الهاتف الجوال، ولكن هل تلف نتيجةً لسقوطه في المياه؟ عليه فقط أن يجرب، يحاول أن يضغط أي زر، فتتوهج شاشة الهاتف الجوال أمامه، حمدًا لله ما زال يعمل... إنه موبايل سوني... يهتف عقله في سعادة بالغة، موبايل رائع لم يتأثر بالمياه، مؤكد سيشتري واحدًا مثله إذا كُتِبت له النجاة!

يعجب من أن عقله قادر على ابتداع فكاهة في ظل هذا الجو الكابوسي، يتغاضى عن كل ذلك ليفكر الآن بشكل عملي. أول اسم تدافع إلى رأسه، هو اسم فارس، لم يكن هناك غيره، هل يتذكر رقمه؟

اللعنة، لماذا تعجز ذاكرته عن استدعاء رقمه، عقله من شدة السعادة بعثوره على الهاتف الجوال وأيضًا آلامه تعجزه عن تذكر الرقم.

يحاول أن يهدأ... يغلق جفنيه... يطلق زفرةً طويلةً، ثم يفتح عينيه مرةً أخرى متطلعًا إلى شاشة الهاتف الجوال. يجري الاتصال، وأصابعه تضرب لوحة الأرقام ببطء، ويحاول بصعوبة استدعاء الرقم، ثم يضغط زر اتصال... ينتظر أن يجيب الطرف الآخر، أين أنت يا فارس؟ أين أنت؟

بعد الرنة الخامسة لا يأتيه الرد، رسالة تظهر له تنبئه بأن البطارية على وشك إفراغ شحنها، اللعنة، هذا السفاح يتلاعب به.

ينهي الاتصال، هنالك رقم خطأ، عليه أن يركز أكثر، حسنًا سيحاول مرةُ أخرى، يضرب لوحة الأرقام مرةُ أخرى، ويسمع الرنة الأولى ثم الثانية و...

ـ ألو.

إنه صوت فارس، كم هو محظوظ؟ قلبه يتراقص في سعادة، دقاته أضحت أقوى مما كانت.

ـ فارس.

يأتيه صوت فارس مذهولًا:

ـ الدكتور معاذ، أين أنت؟

سؤال غبي ولكن سيتجاوزه وهو يرد بعصبية واستجداء:

ـ لا أعلم يا فارس، لا أعلم.

ـ حاول أن تصف لي المكان.

ـ لقد سقطت في بئر ما ومحبوس بداخله.

لم يأته رد من فارس، الصمت يسود لثانية، يصيح فيه الدكتور معاذ بعصبية:

ـ يا فارس.

ـ معك يا دكتور معاذ، هل تتذكر شيئًا آخر قبل سقوطك في البئر؟ أقصد هل رأيت المكان بوضوح مثلًا؟

يبتلع الدكتور معاذ ريقه وهو يضيق عينيه ثم يجيب بلهفة:

ـ فيلا... فيلا قديمة يا فارس.

يستدير فارس يسارًا إلى أيمن متسائلًا:

ـ إنه يقول فيلا قديمة، مؤكد أنه في الكينج مريوط.

هم أيمن بأن يجيب ولكن العقيد تدخل قائلًا:

ـ الناصرية والعامرية والكينج بهم فيلل، اسأله عن شيء آخر يدلنا أكثر.

عقد فارس بين حاجبيه، لا بد أن يكون هناك حل آخر... الوقت ليس في صالحه، مؤكد أن الدكتور معاذ مقبل على غيبوبة سكر.

في ذلك الوقت رن هاتف أيمن الجوال فتناوله من جيبه بسرعة يجيب الاتصال:

ـ معك يا باشا، شوهدت في الكينج مريوط، شكرًا يا باشا.

يتحفز فارس، وأيمن ينهي الاتصال، ثم يضغط دواسة الوقود أكثر متجهًا إلى مدخل طريق برج العرب، تسطع الفكرة فجأةً في رأس فارس وهو يسمع تأوه الدكتور معاذ فيقول:

ـ دكتور معاذ أنت الآن في الكنيج، لو أن الحظ الجيد حليفنا سيكون هذا الهاتف الجوال متصلًا بالإنترنت، أرجو أن تستمع جيدًا لكل كلمة سأقولها، وإتباعك لها حرفيًّا سيجعلنا نصل إلى مكانك في أسرع وقت.

ـ قل يا فارس.

ـ ستقوم بتسجيل رقمي عندك في قائمة التسجيل.

ـ قائمة التسجيل هذه المقصود بها حفظ أرقام الأصدقاء أم ماذا؟

رد الدكتور معاذ بعصبية جعل فارس يتوتر أكثر، ولكنه حاول أن يعيد الهدوء إلى نفسه مرةً أخرى وهو يضيف:

ـ نعم، ستنهي معي الاتصال الآن وستدخل على قائمة التسجيل، هل تعرفها؟

الصمت يسود لثانية، لم يكن الموقف يحتمل أي صمت فهتف فارس بعصبية:

ـ دكتور معاذ هل أنت معي؟

ـ نعم... نعم، أحاول التذكر، أنا لا أفهم في هذه الهواتف الحديثة الكثير.

ـ أرجوك يا دكتور، أحتاج إلى كامل تركيزك.

قالها فارس في استجداء وهو يحاول أن يمنع دمعةً تكاد تفلت من عينه اليمنى، حتى أتاه صوت الدكتور معاذ:

ـ حسنًا، وماذا بعد؟

ـ ستقوم بتسجيل رقمي باسمي، ثم تذهب إلى تطبيق الواتس آب.

ـ وهذا الواتس زفت من أين يمكنني العثور عليه؟

ـ ستجد له أيقونة على الـ (Home Screen).

على الرغم من صوت الدكتور معاذ الواهن إلا أنه صرخ فيه:

ـ وما هو الهوم زفت هذا؟

استدرك فارس سريعًا قائلًا:

ـ الشاشة الرئيسية يا دكتور معاذ.

ـ ها! وماذا بعد؟

ـ ستجد أيقونةً على شكل دائرة خضراء اللون بداخلها سماعة هاتف أرضي بيضاء اللون، ستقوم بالضغط عليها، ثم تذهب إلى قائمة الأصدقاء وتبحث في مربع البحث عن اسمي سيظهر لك، ستقوم بالضغط عليه ستنتقل إلى شاشة أخرى، أعلى هذه الشاشة إلى اليمين ستجد علامة على شكل "مشبك" الذي يضم عدة أوراق إلى بعضها.

يسمع صوت الدكتور معاذ يكاد ينتحب وهو يرد في يأس:

ـ هل تتصور أن رجلًا في سني ووضعي هذا سيكون قادرًا على تذكر كل ما تقوله.

يحاول فارس أن يكبح توتره ويحافظ على هدوئه وهو يرد:

ـ لا يوجد حل آخر يا دكتور، يجب أن تتذكر أن هذه فرصتك الوحيدة للنجاة.

ـ أكمل.

ـ ستقوم بضغط هذا "المشبك" وستجد عدة أيقونات أخرى تختار منها (حدد موقعك) ...

ـ أسرع يا فارس، البطارية على وشك النفاد.

ـ تقوم بالضغط عليها، ستظهر لك خرائط جوجل، هل تعرفها؟

ـ إلى حد ما، وماذا بعد؟

ـ ستنتظر لبضعة ثوان حتى يحدد الهاتف الجوال موقعك تلقائيًّا، ثم تضغط على زر اسمه تقريبًا: أرسل موقعي، شيئًا من هذا القبيل، لأني لا أعرف مسميات هذه الأدوات بالعربية.

ـ بطارية الهاتف الجوال على وشك النفاد يا فارس.

قالها الدكتور معاذ بيأس، فلم يستطع فارس هذه المرة أن يكبح توتره وهو يرد:

ـ إذن فلتغلق الهاتف الآن ولتفعل كل ما قلته لك فورًا.

رد عليه الدكتور معاذ بسخرية تختلط بالمرارة واليأس:

ـ هذا لو تذكرت كل ما قلته.

ـ أنا أثق أنك ستكون قادرًا على التذكر، كلها عدة دقائق وسألتقي بك.

الذي أنهى الاتصال هو فارس ليدع المجال أمام الدكتور ليقوم بكل ما قاله له وقد بلغ به التوتر والقلق مبلغه، أفاق على صوت أيمن:

ـ هل تعتقد أن رجلًا في وضعه الحالي وسنه المتقدمة سيكون قادرًا على تذكر كل ما قلته؟

حاول فارس أن يجيب على تساؤل أيمن ولكنه آثر الصمت لأنه لم ترق له الإجابة، فهذا جل ما يخشاه الآن.

لم يكن يتوقع أيمن من فارس أي إجابة وقد ألقى نظرةً على العقيد في المرآة الداخلية الذي جلس باسترخاء تام على المقعد الخلفي لسيارة أيمن يدخن سيجارته كأن كل ما يدور حوله لا يعنيه، سأله أيمن:

- الآن يا باشا لا أعلم أي الشوارع التي يجب أن أسلكها لأدخل إلى منطقة الكينج، هل هو شارع الكينج الجديد أم القديم أم شارع رشيد.

أجاب العقيد بهدوء ولامبالاة:

- ادخل أيًّا منهم وقف بالسيارة عند مدخل الشارع حتى يتمكن صديق فارس من إرسال موقعه أو...

آثر الصمت ولم يكمل عبارته، تطلع إليه فارس من خلال مرآة السيارة الداخلية وقد حملت عيناه كل الضيق ثم عاد لينشغل بمراقبة شاشة هاتفه الجوال، قطع أيمن تركيزه وهو يسأله:

- ستكون مشكلةً حقيقيةً إن لم يكن هذا الهاتف الجوال متصلًا بالإنترنت، أو أن خاصية تحديد المواقع غير مفعلة بالهاتف.

هز فارس رأسه نافيًا في ثقة وهو يجيب:

- طالما أتاح له الهاتف الجوال، من المؤكد أنه لم يتجاهل هاتين النقطتين، وإلا سيكون وقتها الهاتف الجوال بلا قيمة.

هز أيمن كتفيه وهو يعقب:

ـ أو أن السفاح يريد أن يتسلى بنا، ويجعلنا نشهد بأنفسنا موت...

شعر أيمن بسخافة ما كان سيقوله لذلك بتر عبارته وآثر الصمت... حاول فارس أن يشغل نفسه بمتابعة شاشة هاتفه الجوال في انتظار رسالة الدكتور، فهذا الخاطر قد ورد أيضًا إلى رأسه، ولكنه يحاول أن يبقي على أي أمل في نجاة الدكتور.

* * *

(١١)

كتب رقمه، قام بحفظه بعد أن كتب اسم فارس بأصابع مرتعشة، ضغط على زر الرجوع إلى الشاشة الرئيسية.

يحاول أن يبتلع ريقه، ولكنه شديد الجفاف، لا يجد ريقًا ليبتلعه... الرغبة الملحة في النوم، تلك الرغبة تداهمه الآن وبقوة، يحاول أن يتخلص من الشعور بالنوم بإغلاق عينيه بقوة.

يضغط على أيقونة الواتس آب، رسالة تحذيرية تظهر أمامه تنبئه بأن الهاتف الجوال على وشك الإغلاق، يمحو الرسالة، تظهر له الشاشة الرئيسية لبرنامج الواتس آب، يضيق عينيه، وهو يبحث عن قائمة الأصدقاء، ليست أصابعه فقط التي ترتعش ولكن جسده كله الآن.

يشعر ببرودة شديدة في كل أنحاء جسده، يحاول أن يقاوم ذلك، وهو يبحث عما يشبه مربع البحث، كيف لا يراها؟! يغلق عينيه ثم يفتحهما؛ فكأنه يرى الشاشة من جديد، يسطع أمام عينيه مربع البحث، يكتب فيه اسم فارس.

يظهر له اسم فارس منفردًا، فيضغط عليه، يده اليمنى ترتعش بشدة، والرؤية تكاد تكون ضبابيةً، جسده يزداد ارتعاشًا من فرط الانفعال، يبحث عما يشبه علامة "الدبوس"، عقله يتباطأ بشكل غريب، لماذا لا يرى بوضوح؟

الآن يراها، لا يعرف كيف؟! ولكنه يراها فجأةً، يضغط عليها يختار منها تحديد الموقع، ينتظر الهاتف الجوال، تظهر رسالة أخرى تحذيرية، يحاول أن يصرفها فلا تنصرف، يسب بعصبية فيضغط على زر موافق في الرسالة فتختفي من أمامه.

الخريطة لا تتكون، يبدو أن الشبكة داخل البئر ضعيفة للغاية... كم بقي يحدق في الشاشة؟ لا يعرف، ربما دقيقة، ولكن بالنسبة له لم تكن دقيقةً، كانت أكثر من ذلك بكثير

الخريطة تتضح أمامه رويدًا... رويدًا... هل هناك أمل بالفعل؟ أم ما يخشاه سيحدث حتمًا، ستنطفئ شاشة الهاتف الجوال في هذه اللحظة بالذات ليكتمل حظه التعس.

يبدأ جوجل في تحديد موقعه، ببطء، يسب مرةً أخرى في ضيق ويأس، وهو يلاحظ أن أيقونة البطارية وصلت إلى ٢%.

إن كان سيموت فليكن الأمر سريعًا، لماذا كل هذا العذاب؟ أخيرًا الهاتف الجوال يحدد موقعه، أصبع مرتعش يتجه للضغط على أرسل، يضغط عليه، ولكن الهاتف الجوال فجأةً ينطفئ مصدرًا تلك الموسيقى القصيرة، تلك الموسيقى التي جمدت الدماء في عروقه، تحققت أسوأ كوابيسه.

يفلت الهاتف الجوال من يده ليسقط في المياه محدثًا دويًّا مكتومًا وهو ينهنه في صمت، تتحول نهنهته إلى بكاء صامت وجسده كله يهتز لبكائه، يشعر بدوار كثيف في رأسه، الغيبوبة هي الأخرى تنذره بأنه على وشك السقوط فيها، يحاول أن يتحرك باتجاه حائط البئر على يساره ليسند إليه كتفه لعله يمنعه ذلك من الانزلاق إلى قاع البئر فيموت مختنقًا في المياه، فليمت بغيبوبة سكر أفضل من الموت مختنقًا.

إنها أخر طاقة متبقية له بالفعل، هي التي يحاول أن يستخدمها وهو يزيح جسده السمين باتجاه الحائط على يساره، يتحرك سنتميترات قليلة، يقاوم بما تبقى له ليصل إلى الجدار، ويسند مرفقه ثم كتفه الأيسر إلى الجدار، عيناه ترتعشان، فكه السفلي يتدلى رغمًا عنه، دوار عنيف الآن يغزو رأسه، يغلق عينيه رغمًا عنه.

الآن سينام... سينام... كل الآلام تتسرب من جسده الآن، ولا شيء سوى الرغبة العميقة في النوم... عقله يعطي الأوامر لجميع أنحاء جسده الآن للاسترخاء التام، تمامًا مثل الهاتف الجوال، الآن يشعر براحة وسعادة لأن آلامه انتهت إلى هذا الحد، رأسه الآن يسقط على صدره ونصفه العلوي يميل قليلًا إلى الأمام، يتجمد على هذه الوضعية، كل شيء يبدو رائعًا الآن، وشاشة الرؤية لديه تصطبغ باللون الأبيض البراق.

* * *

(١٢)

ـ كيف حاله الآن؟

ـ الحمد لله مستقر، هو في العناية المركزة الآن.

ـ الحمد لله، وأنت كيف حالك؟

كان بحاجة لأن يسمع منها هذا السؤال بشدة، بل كان ينتظره، وشكرها بنفسه كثيرًا أنها لم تخيب ظنه وسألته هذا السؤال، أجابها:

ـ حمدًا لله، أفضل الآن.

الصمت تسلل بينهما، لم يقطع هو الصمت، إرهاق نفسي وجسدي كامل يستولي على كل كيانه الآن، قطعت هي الصمت قائلةً بصوت يصطبغ بالحزن والرجاء:

ـ أتمنى أن نوقف هذا الكابوس قريبًا جدًّا، الأمر أصبح جنونيًّا.

ـ بالفعل، أنا أيضًا أتمنى ذلك، لقد أحرزنا بعض التقدم.

ـ كيف ذلك؟

ـ توصلنا إلى معمل تحاليل في الإسكندرية مؤهل للقيام بتحاليل الدي إن إيه، وبتحقيق الشرطة مع العاملين بالمعمل وباستخدام أساليبهم التي تعرفينها.

صمت قليلًا وقد ظهر الاستياء على وجهه ثم أكمل:

ـ اعترف أحدهم بأنه قام بعمل تحاليل دي إن إيه سرًّا لعدد من الأسماء، وبمراجعة هذه الأسماء تبين أنها أُجريت لعائلتي آل الصفار وآل حرب، ومن بينهم أسماء الضحايا، وهذا الموظف كان يتلقى رشاوى مقابل هذه التحاليل.

ـ وهل احتفظ هذا الموظف بهذه الأسماء وتقاريرهم الطبية؟ من المؤكد إنه لا يتذكرهم جميعًا، أتصور أن عددهم ليس بالقليل.

ـ هذا حقيقي، بالفعل احتفظ بتقاريرهم الطبية كاملةً.

ـ ألا تجد هذا غريبًا؟

ـ الأغرب من ذلك أنه لما وُجِّه إليه سؤالك هذا، تبين أنه تلقى اتصالًا من رقم مجهول يخبره بأن يحتفظ بنسخة من هذه التقارير الطبية.

ـ غريب! بماذا يخبرك حدسك حول هذا الأمر وقد سبق أن تكرر من قبل.

ـ هل تقصدين عندما قام سيد بتسجيل المكالمة التي دارت بينه وبين السفاح قبيل مقتل الشيخ السلفي؟

ـ نعم؛ لقد تذكرتها عندما أخبرتني بها ذات مرة وربط بينها وبين هذا الموظف.

دق قلب فارس ليس حبًّا فقط ولكن إعجابًا بذكائها وفطنتها؛ مما يجعلها تحرز مزيدًا من نقاط الإعجاب لديه، وهذا يمحو كل حين مزيدًا من المسافات التي تفصل بينهما وتجعلها قريبةً جدًّا إلى نفسه... صاحبه هذا الشرود اللحظي وهو يرد عليها قائلًا:

ـ هناك من يدير الأمر وبشكل غريب؛ يورط أعضاء التنظيم، كأنه يعطينا إشارات تجعلنا نتعرف عليهم أكثر ونقترب منهم أكثر، هل هو يتعمد ذلك؟ لا أفهم، هل هو يتلاعب بهم من وراء ظهورهم، أو أنها مقصودة من ذلك التنظيم، أشعر بحيرة بالغة.

ران الصمت بينهما لثانية واحدة حتى قاطعته ريم متسائلةً:

ـ سيكون سؤالًا ساذجًا، ولكن هل وصلتم إلى أي معلومة مفيدة من هذا الموظف؟

ابتسم فارس لصبغة السخرية الواضحة في صوتها وهو يجيب:

ـ للأسف لم نستطع أن نخرج منه بمعلومة مفيدة، فيبدو أن السفاح كان يقابله في كل مرة متنكرًا، لأنه أعطى الشرطة عدة أوصاف للشخص الذي يقابله، ولم تكن حتى هناك سابق معرفة بين هذا الشخص والسفاح، فلقد تعرف عليه السفاح وعرض عليه الرشوة وقبلها الآخر.

ـ لماذا تزداد هذه القضية تعقيدًا؟

تنهد فارس وهو يتجه للجلوس على المقعد الخشبي بممر المستشفى، وقد انتابه شعور بدوارٍ خفيف، ابتلع ريقه ثم قال وهو يعيد وضع الهاتف الجوال على أذنه:

ـ هناك نقطة مضيئة في كل هذا الظلام.

ـ وما هي؟

ـ من خلال تاريخ أول تحليل دي إن إيه لأول ضحية توصلت إلى تصور ما؛ أتمنى أن يكون صحيحًا.

ظهر الاهتمام في صوتها وهي تسأله بحماس:

ـ وما هو هذا التصور؟

ـ التصور هو ربط تاريخ أول تحليل ومراجعته بقوائم اليمنيين المترددين على مصر قبل هذا التاريخ بثلاثة أشهر تقريبًا.

ـ هذا بافتراض أن التنظيم القادم من اليمن لم يقم بتزوير جوازات السفر الخاصة به.

زفر فارس في ضيق وهو يعبث بيده اليسرى في شعره معقبًا:

ـ ربما؛ ولكن يجب أن نضع كل الاحتمالات أمامنا، لعله سقط منهم سهوًا هذا الأمر، لا بد أن يكون هناك خلل ما أو ثغرة في خطتهم نستطيع منها الوصول إليهم.

ـ أتمنى ذلك حقًّا، ولكني لا أريد أن أبدو متشائمةً، فمستوى التخطيط لهذه الجرائم يشي بأنهم لن يقعوا في خطأ بسيط كهذا.

ـ هذا ما أخشاه أيضًا، ولكن لن يثنينا ذلك عن المضي في هذا الاتجاه؛ لربما أصبنا.

ـ أعتقد أن التوفيق سيكون حليفك يا فارس.

كم اغتبط فارس لعبارتها الأخيرة، لا يعرف لماذا شعر براحة مفاجئة لجملتها الأخيرة؟ كأنها مسكن أزاح عنه كل الآلام التي يشعر بها ولو بشكل مؤقت... شعر ببعض الانتعاش يدب في أطرافه، وابتسم رغمًا عنه وهو يقول:

ـ بعد أن يتجاوز الدكتور معاذ محنته سأعمل على تحديد زيارة رسمية لـ...

بتر عبارته وهو يشعر بخجل يعتريه دفعةً واحدةً، يشعر وكأنه عاد عدة سنوات للوراء صبيًّا مراهقًا؛ يتلعثم في الكلام، ويستشعر احمرار خديه، فسابقًا كان يحنقه هذا الشعور، ولكنه الآن سعيد به للغاية... كان يتوقع صمتها، ويتخيل ابتسامةً عريضةً تحتل شفتيها وتسكنهما، قالت بعد فترة من الصمت القصير:

ـ لا بأس، دعنا نطمئن أولًا إلى استقرار حالته الصحية، ثم...

كان لا بد للصمت في النهاية أن يستولي على الحديث بينهما، ولم يكن ينتظر منها الرد، فهز رأسه وهو يسند ظهره إلى ظهر المقعد قائلًا:

ـ سأراكِ قريبًا، وأعدك أننا سننتصر في النهاية يا ريم.

ـ أثق بك بعد الله سبحانه وتعالى.

حتى تلك العبارات الإيمانية أصبحت تحلو الآن له وتطرب مسامعه، لم يكن يومًا متدينًا، ولكن الأمر الآن يختلف، فلقد بدأت مشاعره تزداد عمقًا اتجاهها، وأصبح كل ما تقوله له وقع جميل في أذنه، فقال بصوت خافت لا يعرف كيف تمكن منه:

ـ بإذن الله.

ـ مضطرة لأن أنهي المكالمة الآن، السلام عليكم.

ـ وعليكم السلام.

أنهى الاتصال ووضع الهاتف بجواره وهو يبتسم مرةً أخرى بسعادة ونشوة بالغين... فكر أن يهاتف والدته؛ يخبرها فيه عن ريم وما ينوي، ولكنه عدل عن قراره وهو يتطلع إلى نافذة غرفة العناية المركزة، ويفلت نفخةً قويةً؛ يحاول الاسترخاء أكثر في مقعده، وهو يغلق جفنيه ينشد بعضًا من الراحة التي أصبح لا ينالها مؤخرًا...

كان يحلم بتوقف مفاجئ لكل شيء من حوله، ويحلم بإظلام تام يغرق فيه، فلا يفكر في شيء... فقط الظلام الدامس وصوت الصمت المحبب... دقائق وتسلل النوم إلى جفنيه واسترخى جسده لحالة النوم التي داهمته.

~~~~~~~
~~~~~~~

الفصل الخامس

{فَحَمَلَتْهُ فَانْتَبَذَتْ بِهِ مَكَانًا قَصِيًّا}

(مريم: ٢٢)

(١)

كان يعلم أنها ساعاته الأخيرة... كل ما يدور في عقله الآن، هو مجموعة من الهواجس، يختلط فيها الواقع بالخيال المضطرب... لم يعد يشعر بالجوع أو الظمأ... لم يعد يشعر بالإعياء أو حتى الرغبة في التقيؤ، كل ما يشعر به هو شلل كامل في كل أنحاء جسده، وصعوبة بالغة في التنفس.

يكاد لا يشعر بدقات قلبه، فهي خافتة وبطيئة جدًّا، لم يعد يقوى حتى على فتح شفتيه أو جفنيه.

جسده مُلقى أرضًا على تلك الأرضية الرطبة، لم يعد يملك حتى إرادة التحكم في جسده، هو فقط ينتظر الموت... يتمنى أن يأتي سريعًا... الرؤية تخطت مرحلة الضبابية إلى مرحلة الإظلام التام.

عقله يتباطأ ويصبح عرضه للصور بطيئًا للغاية، وبعض من ذكرياته بدأت تتوه وتذوب في العدم، حتى وجه مختطفه لم يعد يذكره، كل شيء يغدو لأن يكون عدميًّا... جسده ينتفض انتفاضةً ضعيفةً... هل يلفظ أنفاسه الأخيرة؟ ربما.

أذناه لا تلتقطان ذلك الفأر الذي يمر بالقرب منه، ثم يتوقف كأنه يستطلع هذا الكائن الغريب المُلْقَى أمامه ثم يواصل طريقه.

آخر مشهد يستعرضه عقله: لحظة أن قفز مختطفه عليه وأطاح به باتجاه الحائط، عقله يستحضر لحظة الألم التي شعر بها، وهو يصطدم بالحائط الإسمنتي، وبعدها سقوطه أرضًا.

يتأوه في ألم وقلبه يدق في رعب من هذا المجنون، ذلك المجنون منذ دقائق معدودة كان شخصًا ودودًا للغاية، يستعرض معه الشقة التي ينوي شراءها.

لا يعلم لماذا شعر بالتوجس ناحيته، عندما استقبله عند مدخل العمارة، ربما لقامته الطويلة وجبهته العريضة... ليس هذا ما دفعه للريبة والتوجس، ولكن نظرة عينيه المحدقتين به منذ أن صعدا درجات السلم الإسمنتية؛ يستعرض معه العمارة وهي في مراحل تشطيبها الأخيرة، ثم يتجه به إلى الشقة؛ يستعرض معه إمكانياتها المختلفة...

يريبه أن الزبون لم يكن يتابع حقًّا ما يستعرضه أمامه، ولكنه يتابعه هو شخصيًّا، ويراقبه بشكل غريب... أحس في لحظة ما أنه فريسة ثمينة أمام صياد مختل نهم إلى دمائه.

يقترب الزبون من حافة سور الشرفة والآخر يقف من خلفه يتمنى أن ينتهي سريعًا ليذهب إلى بيته بعد يوم شاق في العمل.

ـ هل أعجبتك الشقة يا فندم؟

التفت إليه الزبون في حلته البنية وهو يقول بابتسامة غير مريحة على شفتيه:

ـ لا بأس بها.

ـ جيد، إذن سأنتظر سيادتك غدًا بمقر الشركة لتوقيع العقد.

ـ لا أعتقد ذلك.

ـ هل لديك أي ملاحظات على الشقة؟ فلدي غيرها.

شعر بالندم لدى نطقه للجملة الأخيرة، وبشكل ما داهمه شعور غريب، فهو يريد التخلص من هذا الشخص، وكان من المفروض أن ينهي الأمر بعد أن أبدى الزبون تردده، ولكنه لام نفسه أيضًا على شعوره بالندم، فهو يحتاج إلى هذا الزبون من أجل أن يحقق المستهدف من عدد مرات البيع لهذا الشهر.

هز الزبون رأسه وهو يقترب منه ويضع يده على كتفه... لم يطمئن أبدًا لهذه الحركة، واستنكرها ولكن حاول التجاوز عنها وهو يفرض على شفتيه الابتسام قائلًا بتردد:

ـ هل تريد أن ترى شقةً أخرى؟

ـ لم يعد هناك غيرنا في هذه البناية.

كان يجب أن يخفق قلبه وبشدة، ما الذي يعنيه بأنه لم يعد هناك غيرنا في البناية؟

سؤال يتضخم في رأسه ولكنه يذوب سريعًا وهو يقول بصوت بدأت تتلبسه نبرة خوف:

ـ أعتقد ذلك.

يتوه عن رأسه ما حدث بعد ذلك، كل ما يتذكره دفع ذلك المجنون له باتجاه الجدار الإسمنتي، وبضعة ركلات غاضبة في وجهه وصدره وبطنه ثم إظلام تام.

استيقظ أول مرة في هذا المكان شبه المظلم الكئيب ذي الرائحة العطنة، وأثاث بسيط متهالك موغل في القدم.

كان يأتيه كل يومين يلقي أمامه طعامًا متعفنًا ومياهً آسنةً؛ يضحك والآخر يصرخ، ثم يغادر المكان والآخر مكبل في أغلال ثقيلة تعوقه عن الحركة.

مضى عليه أسبوعان، كل يومين يكون مضطرًا فيها لأكل طعام متعفن ولشرب مياه آسنة، ويتغوط مكانه لعدم قدرته على الحركة نتيجةً لهذه الأغلال.

كم من مرة تقيأ هذا الطعام الفاسد؟ ولكن شعوره العظيم بالجوع هو ما يرغمه على الأكل والشرب... لا يذكر عدد المرات التي تقيأ فيها وحالات التقلص المعوي التي أصابته، كل ذلك لم يعد يشعر به الآن، لم يعد يهم كل ما سبق.

يسمع بصعوبة شديدة الآن صوت باب صدئ يفتح وهو يصدر صريرًا مزعجًا، ووقع أقدام تطأ الأرضية الرطبة الخشبية للغرفة... الأقدام تقترب منه كأنها تتفقده للمرة الأخيرة، ثم يمضي مبتعدًا عنه عدة خطوات لتتوقف هذه الخطوات أمام مائدة خشبية قديمة متهالكة...

يد الزائر تلتقطان من جيب سترته كيسًا قماشيًّا يفرغ ما فيه على المائدة، ليشكل كومةً من رمال حمراء؛ يرشق في منتصفها ورقةً مكتوب عليها شيء ما.

يبتسم الزائر وهو يلقي نظرةً أخيرةً على الضحية، ثم يقول له:

ـ أنت أيضًا منبوذ في مكانٍ قصي، لا يعرف فيه أحد بأمرك.

الضحية تكاد تسمع صوت الزائر بصعوبة شديدة والحقيقة أنها لم تعد تهتم بما يقوله، فكم من مرة سمع منه من أحاديث جنونية وخرف كثير؛ لم يستطع في لحظات وعيه أن يعي منه شيئًا، وما الرابط بين هذا الزائر وبينه هو، لم يكن يرى أي علاقة تربطه بما يهذي به...

كان يستمع إليه في يأس وإحباط تام، ولا يعرف ماذا يقول في المقابل، ويكتفي فقط بدموعٍ تسيل في صمت ويهز رأسه من فرط الأسى.

الزائر يغادر الغرفة ويغلقها وراءه، يسمع صوت القفل الحديدي الضخم وهو يغلق، يتمنى أن يبتسم ولكنه ممتن بداخله لذهاب الزائر، فأقصى أمانيه الآن أن يموت في صمت لينتهي هذا الكابوس الثقيل.

لم تعد دقات قلبه وحدها هي المتباطئة ولكن أيضًا أنفاسه تتباطأ... جيد، سينتهي الأمر الآن، بعض من المعاناة، ولكنه سينتهي، سيعاني للساعات القادمة من صعوبة التنفس وبرودة كاملة في كافة أطرافه، وبعض الانتفاضات الخفيفة ولكن لا بأس... في نهاية الأمر سينتهي كل ذلك...

* * *

(٢)

- حتى الآن لم يحاول السفاح الاتصال بسيد، ترى هل فهم أنه مجرد طعم لاصطياده؟
- في ظني أنه حتى لو أدرك هذا الأمر لن يثنيه ذلك على أن يلتقي بسيد، هو لا يخشى التحدي بل هو يعشقه ويصبو إليه.
- أتمنى أن تكون على حق.
- أنا على ثقة من أنه سيفعل ذلك، ولكن ربما تأخره نابع من كونه يرتب للمكان الذي سيلتقي فيه سيد حتى يفوت علينا فرصة القبض عليه.

ـ إذا أفلت من أيدينا هذه المرة، فهذا معناه أن هناك واشيًا بيننا، ألا تظن ذلك؟

صمت فارس قليلًا وهو ينظر إلى العقيد يتأمل جملته الأخيرة ثم يهز رأسه قائلًا:

ـ هذا الاحتمال أصبح قائمًا في رأسي منذ فترة وجيزة.

ـ وربما كان متشيعًا مثل سيد.

ركز فارس بصره في عيني العقيد لوهلة، حدسه كطبيب نفسي يخبره أن العقيد لا يناقش معه الفرضية، ولكنه يرمي إلى ما هو أبعد من ذلك.

إنه يرمي إلى أنه...

ـ هل هي محاولة اتهام؟

ـ لماذا تقول ذلك؟

ابتسامة العقيد الساخرة التي تبرز على شفتيه تؤكد ظنون فارس، فهز فارس رأسه قائلًا:

ـ يمكنني أن أنسحب من التحقيق لو أردت ذلك.

ـ لم أقل ذلك، بالعكس أنا أريدك معي في التحقيقات حتى نهايتها، الحقيقة يا فارس أنا لا أريدك أن تغيب عن ناظري، حتى يتأكد ظني أو تنفيه الحوادث القادمة.

نهض فارس وقد احتقن وجهه قائلًا:

ـ لا بأس، سأظل إلى جوارك أخطو معك في كل خطوة حتى تزول ظنونك أو تتأكد.

تحرك فارس صوب باب مكتب العقيد الذي استوقفه قائلًا بحزم وهو يلاعب هاتفه الجوال:

ـ لا تحاول مغادرة المدينة لحين الانتهاء من هذه القضية، ولا تنسى: لي عيون في كل مكان.

هم فارس بأن يرد عليه، ولكنه أمهل نفسه قليلًا قبل أن يقول في نبرة صوت حاول أن يجعلها هادئةً:

ـ هل من الممكن أن أعرف سبب ظنونك؛ لعلي أبددها؟

ابتسامة العقيد الخبيثة التي استكانت على شفتيه أعطته الإجابة التي يطلبها، ولكنه انتظر الرد من العقيد الذي قال:

ـ لا تحاول التذاكي يا فارس، سأعلن عن كل شيء في وقته، ولكن دعني أضع بين يديك سؤالًا أريدك أن تفكر فيه جيدًا.

ـ وما هو؟

ـ لماذا ظهرت فجأةً، واشتركت في هذه التحقيقات تحديدًا؟

ـ أنت تعرف الإجابة مسبقًا، أعتقد أن أيمن أخبرك بها.

ـ لم تعد مقنعةً بالشكل الكافي بالنسبة لسير الأحداث الآن.

هز فارس رأسه ثم بادل العقيد نظرةً متحديةً وهو يقول:

ـ وأريدك أيضًا أن تعي شيئًا مهمًّا.

مال العقيد نحو مكتبه وهو يسند مرفقيه إلى سطح المكتب متسائلًا بسخرية:

ـ وما هو؟

ـ إنك تبحث في الاتجاه الخاطئ، وتهدر وقتًا ثمينًا تحتاجه بالتأكيد للبحث عن السفاح.

ـ ربما، ولكن تبقى كل الاحتمالات مفتوحةً.

لم يعلق فارس هذه المرة وفوران من الغضب يصعد من صدره إلى رأسه، ألقى السلام في شبه همهمة وهو يغادر المكتب... تبدلت وقتها نظرة العقيد من السخرية إلى التحفز، ثم شغل نفسه بهاتفه الجوال مرةً أخرى.

* * *

(٣)

ـ مبارك خروجك من السجن يا سيد.

ـ لقد خرجت بكفالة.

ـ لا بأس، سنتدبر أمرك، نحن لا نترك رجالنا أبدًا.

ـ إذن، هل يعني هذا أنني سأراك قريبًا؟

- ستراني غدًا يا سيد.

دق قلب سيد وهو يستمع إلى صوت السفاح الهادئ، ويعجب من غبائه، لماذا يتحدث بهذه الطمأنينة والثقة الزائدة؟ ألم يفطن مثلًا أن خروجه من السجن غير منطقي بالمرة، وأنه لربما يكون مراقبًا، ألم يفطن إلى أنه مجرد طعم لاصطياده.

- أين أنت يا رجل؟

- أنا معك.

- ظننتك أغلقت الخط.

- لم أفعل، ولكن شردت للحظة.

- لا تقلق يا سيد، كل شيء سيكون على ما يرام.

هز سيد رأسه وهو ينهي الاتصال مع الطرف الآخر وقد خاب ظنه فيه، حسبه أذكى من ذلك، لم يقوى سيد على تنبيهه بأي شكل من الأشكال، فهو يعلم أن هاتفه الجوال مراقب، ويعلم أن شقيقه أيضًا ينتظره حكم قد لا يقل عن المؤبد في قضية الحشيش الملفقة له...

لقد حذروه من أي محاولة منه للخيانة أو تنبيه للسفاح... كان يأمل في أن يلحظ السفاح ذلك بنفسه، هل ستفشل الخطة الإلهية؟ هل لا تزال إلهيةً بالفعل وهو يقود السفاح إلى حتفه؟ إذن من سيكمل المسيرة بعده للاقتصاص من قتلة الأئمة والسيدة فاطمة الزهراء؟

هل التنظيم يدرك ما يفعله؟ هل كل التنظيم حفنة من الأغبياء؟ لا يمكن ذلك، فبينهم سماحته اليماني الموعود، لا يمكن أن يخطئ التقدير، لعل هناك خطةً ما لا يعرف تفاصيلها...

الأمر أكبر من عقله الصغير الذي لن يسع تلك الخطط الكبيرة، فمنذ بدأ المهمة وكل شيء يسير وفق ما خُطِّط وقُدِّر له... إذن لن يفوتهم أمر بسيط مثل هذا، فهم أذكى من أن يقعوا في فخ كذلك، إن الله يعلم أنهم على حق، ولن يخذل الله أنصاره أبدًا؛ فالله ولي المؤمنين... من غيرهم قد يكون مؤمنًا إن لم يكونوا هم؟ هم فقط!

استلقى سيد على فراشه وقد حانت منه التفاتة إلى فراش أخيه الخالي... نفخة قوية تفلت منه وهو يصبر نفسه بأن هذا تمحيص من الله لقلوب مؤمنة... الأمر لا يعدو كونه ذلك.

*** * ***

(٤)

ـ السفاح هاتف سيد هذا الصباح يا فندم في تمام الساعة السابعة صباحًا، وطلب منه أن يقابله في المرسى أبو العباس في وقت صلاة الظهر.

فكر العقيد في كلام أيمن قليلًا ثم وضع سبابته اليمنى على شفتيه وهو يقول:

ـ هو يريد أن يكون اللقاء في مكان عام حتى يصعب القبض عليه، وأيضًا وقت صلاة الظهر حتى يكون المكان مزدحمًا بالمصلين وخاصةً عند خروجهم من الصلاة.

ـ إنه ذكي بحق يا باشا.

ـ ولكن ليس أكثر منا ذكاءً.

ـ بالتأكيد يا باشا.

نهض العقيد من خلف مكتبه كعادته دائمًا حينما يقبل على اتخاذ قرارات هامة وقال في جدية تامة:

ـ أريد وضع مخبر على كل مدخل من مداخل مسجد البوصيري ومسجد المرسى أبو العباس، وأيضًا آخرين على مداخل الشوارع المؤدية كلها إلى منطقة المرسى أبو العباس، بالإضافة إلى ثلاثة مخبرين في كل مسجد من المسجدين، يجب أن نسبقه الآن إلى المكان حتى نكون مستعدين لاصطياده.

ـ عُلِم، وسيُنَفَّذ يا فندم.

ـ تحرك فورًا وجهز سيارة التنصت وبالنسبة لسيد...

قاطعه أيمن قائلًا وابتسامة زهو تعلو شفتيه:

ـ تم وضع جهاز تنصت له داخل قميصه.

ابتسم العقيد معلقًا:

ـ يبدو أن كثرة معاشرتك لي جعلتك تفهم بعض الشيء.

ـ تلميذك يا باشا.

ـ تحرك.

غادر أيمن المكتب في حين تناول العقيد علبة سجائره والولاعة، ودسهما في جيبه وأجرى اتصالًا وهو في طريقه لمغادرة المكتب حتى أتاه صوت الطرف الآخر:

ـ فارس؛ جهز نفسك، السفاح سيقابل سيد في منطقة مرسى أبو العباس وقت صلاة الظهر، أريدك أن تذهب الآن، لم يبق لنا سوى ساعتين فقط.

ـ هل أنت متأكد من طلبك هذا؟

توقف العقيد في وسط الممر المؤدي إلى المصعد وهو يقول بعصبية:

ـ لا وقت للتذاكي الآن، أريدك أن تكون حاضرًا هناك والآن.

ـ حسنًا.

أنهى العقيد الاتصال بدون أن يلقي السلام متجهًا إلى المصعد بخطوات سريعة متجاهلًا كعادته التحية العسكرية لكل من يلقاهم في طريقه.

* * *

(٥)

ـ أين أنتم؟

ـ ستجد ميكروباصًا مصفوفًا إلى يمينك، اتجه إليه.

توقف فارس للحظات ممسكًا بهاتفه الجوال يبحث حتى وجد ميكروباصًا فضي اللون مصفوفًا إلى يمينه على بعد عشرة أمتار، فاتجه إليه بخطوات سريعة، ودق على باب الميكروباص الجانبي، ففتح له أيمن الباب ليدخل متطلعًا إلى أجهزة عديدة مصفوفة أمامه، فاستقبله أيمن بابتسامة واسعة قائلًا:

ـ أهلًا بك في وحدة التنصت المتحركة.

هز فارس رأسه بغير حماس وهو يدير رأسه للعقيد الذي جلس خلف شخص يضع على أذنيه سماعتين، ويتفحص الأجهزة أمامه، لم يُدِر له العقيد رأسه، فاتخذ فارس مجلسه على مقعد جلديٍ طويل بجوار أيمن الذي أغلق باب الميكروباص قائلًا:

ـ المفترض أن سيد على وصول الآن ولا توجد أي إشارة لظهور السفاح.

ـ سيظهر متنكرًا كعادته.

تدخل العقيد قائلًا:

ـ ولكن يمكن على الأقل مراقبة كل شخص طويل القامة، هذا شيء لن يفلح في إخفائه.

ـ ربما.

نظر له العقيد شزرًا وقد انتبه أيمن لحالة التوتر القائمة بينهما فعلق قائلًا:

ـ سيسقط في أيدينا حتمًا.

قال العقيد في رنة صوت يشوبها الإحباط:

ـ أتمنى ذلك.

ساد الصمت قليلًا حتى قطعه العقيد قائلًا:

ـ سؤال ظل يشغلني طوال ليلة أمس.

توقع فارس أن يكون هذا تلميحًا جديدًا من العقيد يتعلق بشأن ظنونه حوله، ولكن آثر الصمت مستمعًا للعقيد الذي قال:

ـ كيف قام السفاح بجمع عينات دم لكل ضحاياه، ثم ذهب بها إلى هذا المعمل ليجري تحليل الدي إن إيه؟

هم فارس بأن يرد، ولكن العقيد أكمل قائلًا كأنه لا يوجه إليهما هذا السؤال:

ـ وعندما اطلعت على بعض الأسماء الواردة في القائمة وجدت أشخاصًا آخرين من آل حرب وآل الصفار قد تم إجراء نفس التحليل لهم، والعدد الذي أتذكره من الأسماء التي قرأتها للعائلتين تجاوزت الخمسة وعشرين، وربما هم أكثر من ذلك، بعضهم تم قتله والبعض الآخر لا... ربما كان تحليل الدي إن إيه غير مطابق أو لم يأت دورهم بعد.

توقف العقيد عن الحديث وهو ينظر إلى كليهما فقال فارس:

ـ هناك أمر آخر غريب بعض الشيء.

سأله أيمن والعقيد في نفسٍ واحدٍ:

ـ وما هو؟

ـ إن السفاح كان يحصل على نتائج التحليل، ولم يحدث أن طابق المعمل بين الخرائط الجينية التي خرجت من عنده وبين خريطة جينية أخرى ربما خاصة بمعاوية تثبت نسبهم إليه.

قال العقيد بحماس:

ـ مما يعني أن هناك فردًا من أفراد التنظيم مؤهل للقيام بهذه المهمة.

ـ بالتأكيد.

ـ لقد خطر على بالي هذا الأمر، ولكن يبقى السؤال، كيف استطاع جمع عينات الدم لكل هؤلاء؟

ـ هذا التنظيم يترصد الرجال من هاتين العائلتين منذ ما يقرب ستة إلى ثماني أشهر.

ـ وكيف استطعت تحديد هذه المدة؟

ـ من خلال تاريخ أول تحليل لرجل على القائمة وينتمي إلى عائلة الصفار.

ـ ثم.

ـ يمكننا أن نقول إنهم بدأوا في التخطيط للأمر قبل ذلك بأربعة أشهر مثلًا، في جمع عينات الدم لكل الرجال من العائلتين، وهي تأتي بطريقتين: إما من خلال شرائهم لعينات الدم لهؤلاء من معامل تحاليل يتعاملون معها، أو من خلال لعابهم أو خصلة من الشعر، كل هذا يصلح لاستخراج عينة دي إن إيه.

تساءل أيمن:

ـ وما أدرانا أنهم سيقتصون من هاتين العائلتين فقط، ألم تقل سابقًا، أن هناك أنساب أخرى لمعاوية؟

شعر العقيد بالضجر من سؤال أيمن فتدخل قائلًا قبل أن يهم فارس بالرد:

ـ لأن جميع تحاليل الدي إن إيه التي عثرنا عليها تخص هاتين العائلتين فقط مما يعني أنهما فقط المتواجدتين في مصر، اعمل عقلك قليلًا يا أيمن.

داخل أيمن الشعور بالخجل وهو يهز رأسه في صمت، فبادر العقيد فارس قائلًا:

ـ وما هو تاريخ أول تحليل دي إن إيه؟

ـ كان في الأول من يناير الماضي وكان يخص الشيخ السلفي الذي قُتِل بمحرم بك.

توجه العقيد بسؤاله هذه المرة إلى أيمن:

ـ هل بحثت في تاريخ اليمنيين الوافدين على مصر قبيل هذا التاريخ بأربعة أشهر؟

ـ أرسلت طلبًا لمباحث الجوازات لتستخرج لنا قائمةً باليمنيين المترددين على مصر خلال عام كامل، ولكن عمن نبحث، هذا هو السؤال؟ نحن حتى لا نعرف أسماءهم.

تذكر فارس ما قاله الدكتور معاذ عن اليماني الموعود ومكان خروجه فقال في حماس:

ـ يمكنك أن تبحث عن اليمنيين القادمين من صنعاء أو صعدة وكل الأماكن المحيطة بهاتين المحافظتين.

ـ يمكننا أن نفعل ذلك ولكن ما زال السؤال قائمًا، هل لدينا اسم محدد نبحث عنه، هذا إذا كانوا قدموا من اليمن أصلًا، أو أنهم لم يدخلوا إلى مصر من اليمن بجوازات سفر مزورة.

هز العقيد رأسه وهو يتمتم:

ـ كنت أعرف أننا نبحث في اتجاه مظلم لن يقودونا إلى شيء، نحن أشبه بشخص أخرق لا يعرف عما يبحث.

ـ حتى وإن كنا لا نعرف أسماءهم، ولكن تضييق دائرة البحث في هذا النطاق سيضع أمامنا عددًا من الأسماء من الممكن تقصي أماكن تواجدهم جميعًا في مصر.

قال أيمن بانفعال:

ـ يا فارس، من المحتمل جدًّا أن يغيروا أماكن إقامتهم في مصر دون أن يخطروا الجهات الرسمية، والبحث في هذا الطريق أشبه بوقت ضائع واستنزاف لجهد بلا طائل.

هز العقيد رأسه موافقًا لكلام أيمن في حين قال فارس بنفاذ صبر:

ـ لن يضيرنا البحث في هذا الاتجاه وإن بدا أنه بلا طائل، يجب أن نصل فيه إلى نهايته حتى نتأكد تمامًا أنه طريق مسدود بالفعل.

حرك أيمن يده اليمنى وهو يقول منفعلًا:

ـ نفعل ذلك، ولكني أخبرك أنه مجهود بلا طائل.

لم يشأ فارس أن يخوض أكثر في هذه المناقشة، ولزم الصمت، في حين التفت الشخص القائم على أجهزة التنصت إلى العقيد قائلًا:

ـ يبدو أن سيد وصل إلى المكان، فهو يتحدث إلى الطرف الآخر الآن.

قال العقيد بتوتر من فرط انفعاله:

ـ ضع المحادثة على مكبر الصوت.

...

ـ لقد وصلت إلى المكان، أين أنت؟

صوت سيد يبدو مضطربًا قلقًا، يأتيه صوت الطرف الآخر:

ـ اتجه إلى مسجد البوصيري.

ـ هل أنت بالداخل؟

لا يأتيه رد من الطرف الآخر، ويسمع الجميع صوت انتهاء المكالمة وسيد ينفخ في قلق شديد، قال العقيد بصوت هامس:

ـ كيف لم يلحظه رجالنا يدخل إلى المسجد؟

لم يجب أحد تساؤله، ولم يكن يبحث عن إجابة منهم، لقد خيم جو من التوتر والقلق على ملامح الجميع، تدخل أيمن قائلًا بصوت متردد:

ـ هل نأمر الرجال بالتوجه إلى مسجد البوصيري ومحاصرته؟

ـ ليس الآن يا أيمن، إذا استشعر بحركة غير مألوفة قد يفلت من أيدينا، أريده أن يشعر بأنه غير مراقب.

لزم أيمن الصمت بعد أن أتاهم صوت سيد يقول:

ـ كيف حالك؟

ـ بخير يا سيد، رافقني.

ـ إلى أين؟

لم يسمعوا ردًا من الطرف الأخر، التفت العقيد إلى أيمن قائلًا:

ـ أبلغ الرجال أن يتقصوا سيد داخل المسجد.

أجرى أيمن مكالمة سريعة ثم قال بانفعال:

ـ تتبعوا سيد فورًا.

ينهي أيمن الاتصال ويتابع الجميع الموقف بتوتر وقلق بالغ، فرك أيمن يديه ثم وضع يده اليمنى في جيب بنطاله، يأتيهم من مكبرات الصوت صوت تنبيه لرسالة ما أُرْسِلت على الواتس آب، قال العقيد بانفعال:

ـ هل هذا صوت رسالة على الواتس آب؟

قال أيمن بتوتر:

ـ نعم.

أدار العقيد رأسه للجالس على الأجهزة قائلًا:

ـ هل وصلت هذه الرسالة على هاتف سيد الجوال؟

نظر الآخر إلى جهاز محمول أمامه وهز رأسه نافيًا، بطريقة غريزية أدار العقيد رأسه لفارس وإمارات التوجس والريبة تعلو وجهه، فطن فارس إلى ما يجول بخاطر العقيد، فأخرج هاتفه الجوال وناوله إياه، أخذه العقيد بعصبية وهو يستدير للجالس للأجهزة:

ـ لماذا لا يتكلمان؟

ارتبك الرجل وهو يهز كتفيه في صمت... تطلع العقيد إلى شاشة الهاتف الجوال الخاص بفارس، وتفحص الرسائل بسرعة وعصبية، ثم أعاد له هاتفه المحمول مرةً أخرى، انتفض الجميع عندما سمعوا صوت جلبة شديدة، وصرخات مكتومة، أصوات تتقاطع تنبىء بأن هناك عراك ما يدور بين عدة أشخاص وسيد يصيح:

ـ ماذا تفعل؟

هتف أيمن بانفعال شديد:

ـ دعنا ندفع إليه بكل رجالنا ليحاصروا مسجد البوصيري ويمنعوا الجميع من مغادرة المسجد، لقد أنهى الإمام الركعة الأخيرة، والكل سيخرج الآن.

توترت ملامح العقيد أكثر واستغرق في التفكير لثانية فلم يحتمل أيمن وقال بعصبية:

ـ سيادة العقيد.

ـ أفعل.

رفع أيمن جهاز اللاسلكي وهو يغادر الميكروباص موجهًا أوامره للجميع في حين اعترض فارس قائلًا:

ـ هذا تصرف خاطئ، لا تدفع الرجال كلهم إلى مكانٍ واحد.

غرقت ملامح العقيد في حيرة بين استحسانه لكلام فارس والشك فيه، ثم ظهر بنصفه العلوي خارج الميكروباص ينادي على أيمن الذي عاد إليه جريًا:

ـ اترك رجلين عند مدخل مسجد أبو العباس وثلاثة رجال في محيط المسجدين، ولا تدفع بهم جميعًا إلى مسجد البوصيري.

هز أيمن رأسه ورفع جهاز اللاسلكي مرةً أخرى إلى فمه يصدر المزيد من الأوامر، وعاد العقيد إلى مقعده يفرك كفيه ويقول من بين ضروسه:

ـ هناك واش بيننا، لقد أصبحت على يقين من هذا الأمر الآن.

يقطع عليهما الحديث صوت سيد يقول للسفاح:

ـ لقد انتهى الأمر.إنهم يحاصرون المكان كله يا أبله.

يسود الصمت لثوان ثم يسمعون صوت صرخة مكتومة لسيد والسفاح يقول بصوتٍ لاهث:

ـ لا تشغل بالك أنت.

قفز العقيد خارج الميكروباص ووراءه فارس يركضان باتجاه مسجد البوصيري، وقد تجمع رجال الشرطة حول مداخل المسجد يصدون الناس عن الخروج وشاهد أيمن وهو يندفع إلى داخل المسجد.

رفع العقيد جهاز اللاسلكي إلى أذنه اليمنى وهو يركض باتجاه المسجد يدفع بعض الناس عنه، ومن خلفه فارس يحاول اللحاق به.

ـ ما الموقف عندك يا أيمن؟

ـ نفتش المسجد يا باشا.

وصل العقيد إلى إحدى مداخل المسجد، وحاول أن يصنع طريقًا بين جمهور المصلين المحتجزين عند المدخل يعبرون عن سخطهم وغيظهم حتى تجاوزهم إلى ساحة المسجد الرئيسية وهو يشاهد أيمن وعددًا من الرجال يندفعون باتجاه محراب آخر للصلاة أصغر حجمًا من المحراب الأول الذي يصلي فيه الإمام، فاندفع وراءه حتى وقف الجميع أمام مشهد دموي حيث تكوم ثلاثة من رجال الشرطة على

الأرض غارقين في دمائهم وفي ركن آخر تكوم سيد والدماء تسيل من صدره، صرخ العقيد في غضب:

ـ أين هو؟

كان وجه أيمن شاحبًا، شفتاه ترتعشان ولا يجيب على تساؤل العقيد، لفت نظر فارس باب غرفة الإمام الموارب، فاندفع نحوه ومن خلفه العقيد وأيمن، صاح العقيد مرةً أخرى وهو يلوح بيديه:

ـ أين ذهب ابن الكلب هذا؟

التفت إلي أيمن قائلًا:

ـ هل غادر أي شخص المسجد؟

ـ لا يا باشا.

ـ ألم تعثروا على أي شخص طويل القامة بينهم؟

ـ عثرنا على اثنين وتأكدنا أنهما غير متنكرين.

ـ أين ذهب؟

للمرة الثانية يلفت نظر فارس انبعاجٌ بسيطًا في السجادة المنبسطة على أرض الغرفة، مال نحو طرف السجادة يرفعها.

كانت مفاجأةً مذهلة للجميع، غطاء خشبي صغير في أرضية الغرفة، جذب فارس الغطاء من المقبض الحديدي ليظهر من خلفه سلالم حجرية تقود إلى دهليز مظلم.

قال العقيد مبهوتًا:

ـ ما هذا؟

رد فارس:

ـ يبدو أنه سرداب.

دفع العقيد فارس ليزيحه جانبًا وهو يهبط بصعوبة درجات السلم الحجري قائلًا:

ـ لا وقت لدينا للتساؤل، لربما كان هذا طريق هروبه.

لم يتبعه فارس على الفور ولكن تبع العقيد شرطيان، وهم أيمن بأن يتبعهم ولكن فارس استوقفه قائلًا:

ـ انتظر يا أيمن، هذه المنطقة بالمناسبة تمتلئ بالعديد من السراديب منذ العهد الروماني، وتتشعب لمسافات طويلة...

ـ قل المفيد يا فارس لا وقت للشرح.

ـ المقصود أنه ربما هذا السرداب متصل بشكل ما بمسجد المرسى أبو العباس، يجب أن تدفع بعدد من رجالك إلى هناك فورًا قبل أن يفلت من بين أيدينا.

لم ينتظر أيمن طويلًا ليعقل ما يقوله فارس، ولكنه أمر رجاله بالتحرك صوب مسجد المرسى أبو العباس في حين تعثر فارس وهو

يهبط درجات السلم الحجري ما إن وطئت قدماه الأرض الترابية، فأخرج هاتفه الجوال يضيء الكشاف به ليستعرض الطريق من أمامه.

كان الجو خانقًا وحارًّا جدًّا والهواء يضعف كلما أوغل في المسير داخل السرداب، وفي طريقه لاحظ فارس حذاءً رياضيًّا مُلقى على الأرض، وبعد عدة أمتار سترةً جلديةً ملقاة أيضًا، عندما بلغ نهاية السرداب، وجده يتفرع إلى طريقين، يسارًا ويمينًا...

استرعى انتباهه وجود ضوء في نهاية الطريق الأيمن فمضى فيه مسرعًا، وقد ضاق صدره من قلة الهواء، ومسح جبينه بكم قميصه، وقد ازداد الحر في هذا المكان المعتم، وجد في منتصف هذا السرداب لحيةً وباروكة شعر ملقيتان إلى جانب، تبينت له على ضوء هاتفه الجوال سلالم حجرية، وشعوره بالحر الشديد يقل تدريجيًّا، وتيار من الهواء يندفع إلى هذا السرداب...

صعد السلالم الحجرية بصعوبة، وقادته السلالم إلى غرفة ضيقة مماثلة للأخرى في مسجد البوصيري... أضاء عقله بفلاشة سريعة وهو يتطلع إلى مشجب ملقى على سرير صغير.

غادر فارس الغرفة ليجد العقيد يدور وسط رجاله في ساحة المسجد ويضع يده اليمنى على رأسه، تشي ملامحه بشديد الغيظ والحيرة، اتجه إليه فارس مسرعًا:

ـ ابحث عن رجل في زي أزهري.

لم يناقش العقيد الأمر مع فارس وقد سمع الآخرون فارس فاتجهوا يفتشون بين الناس عن رجل طويل القامة بملابس أزهرية، وقد وقف عدد من رجال الشرطة على مداخل المسجد يمنعون الناس من الخروج وسط همهمات الاعتراض والتذمر، اتجه فارس إلى المدخل الرئيسي للمسجد والعقيد يتبعه بشكل تلقائي وقد دب اليأس في ملامحه.

اجتاز فارس الجموع بصعوبة في حين صاح رجال الشرطة في الناس أن يبتعدوا عن مدخل المسجد وهم يشاهدون اقتراب العقيد ويدفعون بعضهم.

وقف فارس على درجات سلم المسجد يستطلع الناس المتجمهرة في الساحة الواسعة بين المسجدين يحاول أن يلمح أي شخص بزي أزهري، والعقيد يقف إلى جواره بعد أن أعطى أوامر سريعةً في جهاز اللاسلكي... كان أيمن يقف أسفل مدخل المسجد يدور حول نفسه حتى التقت عيناه بالعقيد فهز كتفيه بيأس، صاح به العقيد وهو يهبط درجات السلم:

ـ أغلق كل المداخل والمخارج المؤدية إلى المسجدين، وخاصةً البحر.

ـ نشرت الرجال بالفعل على كل الشوارع المؤدية إلى البحر يا باشا، والشوارع الكائنة خلف مسجد البوصيري والمرسى أبو العبا...

بتر أيمن حديثه وهو يسمع صيحات تأتيه من خلفه، فاستدار إلى مصدر الجلبة فوجد عددًا من الناس يتدافعون إلى شخص ما سقط أرضًا، فاندفع ثلاثتهم نحو مصدر الجلبة ليجدوا أحد رجال الشرطة يتلوى أرضًا وهو يمسك جانبه الأيمن والدماء تسيل منه والهمهمات تتعالى بين الواقفين، دفع العقيد المتحلقين من حول الرجل ليميل نحوه وقد شحب وجه رجل الشرطة، الذي قال بصعوبة:

ـ حاولت القبض عليه يا باشا.

ـ ماذا يرتدي؟

ابتعد فارس عن المتحلقين حول الشرطي الملقى أرضًا، وهاله أن يرى أن رجال الشرطة المنتشرين على رؤوس الشوارع المؤدية إلى البحر يندفعون نحو مصدر الجلبة... استدار فارس لأيمن الذي وقف تائهًا ويده اليمنى الممسكة باللاسلكي تتراخى إلى جواره.

بشكل لا إرادي اتجه فارس إلى خط الترام ووقف عنده... لديه شعور دفين يخبره بأنه سيراه يقف ساخرًا منهم جميعًا.

لم يخب ظنه، لقد رآه واقفًا على رأس الشارع المؤدي إلى البحر بملابسه الأزهرية، رآه بكل وضوح بقامته الطويلة وابتسامة ساخرة ترتسم على شفتيه، لم يدم الأمر أكثر من ثانية واحدة، وتحرك بعدها السفاح مختفيًا بين الناس، ركض فارس باتجاه ذلك الشارع فلاحظ ذلك العقيد فصاح في أيمن:

ـ اتبعه.

ثم أعاد نظره للشرطي الذي أقبل نحوه مسعفان يميلان نحوه، فتركه راكضًا خلف أيمن يتبعه ثلاثة رجال رغمًا عنهم.

عندما وصل إلى رأس الشارع المؤدي إلى البحر وجد فارس يقف واجمًا، وأيمن يجثو على إحدى ركبتيه يقلب في شرود عباءة أزهرية رمادية اللون وعمة أزهرية ملقاه على الرصيف.

وقف أيمن ينظر إلى العقيد ونظرة آسفة على وجهه، صاح به العقيد:

ـ انشر الرجال على امتداد الكورنيش يسارًا ويمينًا.

ـ ليفعلوا ماذا يا باشا؟ هناك عدد هائل من سيارات الأجرة وميكروباصات وأوتوبيسات النقل العام، وهناك عشرات المقاهي والفنادق والعمارات الممتدة على طول الكورنيش... ربما حجز

غرفةً في إحدى الفنادق من قبل، أو استأجر شقةً وهرب إليها الآن، أين سنبحث؟

العقيد يدور حول نفسه مبهوتًا غير مصدق لما حدث، لا يستطيع أن يتقبل إفلات السفاح من يديه، كيف عرف بوجودهم؟ من هذا الواشي؟

تحول نظره إلى فارس الذي كان ينظر إلى البحر بشرود، لا يعرف هل شكه فيه في محله أم أنه يبحث في الاتجاه الخاطئ كما قال له فارس، هم بأن يتحرك، ولكن أيمن اعترض طريقه متسائلًا كطفل مرتبك:

ـ ماذا سنفعل يا باشا؟

دفعه العقيد في صدره بقوة حتى كاد يختل توازن أيمن ويسقط أرضًا وهو يصيح بغضب شديد:

ـ اغرب عن وجهي الآن.

* * *

(٦)

أغلق فارس جفنيه في محاولة للنوم بعد يوم شاق ومرهق، يضاعف من شعوره بالإرهاق إفلات السفاح من أيديهم اليوم، كان يتمنى أن يتم إلقاء القبض على السفاح لإيقاف سيل الدماء المسال هذا، ولكن من يضمن وقتها أن هذا السفاح هو الوحيد، لربما كان

هناك كتيبة كاملة من أمثاله، ولكنه أملٌ واهٍ يتعلق به فارس ليتم طي صفحة هذه القضية المفزعة في كل تفاصيلها...

جريمة لم يعهد أن شهدت مصر مثلها من قبل... أصوات كثيرة تتداخل مع بعضها البعض داخل رأس فارس، تحرمه من النوم، فيغلق جفنيه على أمل أن ينال قسطًا من النوم، ولكن تلك الأفكار المتصارعة داخل رأسه تمنعه من ذلك، وتضرب مؤخرة عنقه كإبر حادة.

رن جرس الهاتف الجوال وكان هذا ما ينقصه ليتبخر أي أمل في النوم، قرب شاشة الهاتف الجوال من عينيه ليقرأ اسم أيمن، خفق قلبه بشدة كأنه على وشك استقبال خبر موت شخص عزيز عليه.

أجاب الاتصال قائلًا بتوتر حاول أن يواريه ولكن تسرب رغمًا عنه إلى صوته:

ـ مساء الخير يا أيمن.

ـ أي خير يا فارس، ارتدي ملابسك بسرعة، سأمر عليك خلال عشر دقائق.

ـ ماذا حدث؟

ـ أحسبك ذكيًّا يا فارس.

ـ جريمة قتل جديدة.

ـ نعم.

ـ أين؟

ـ في أبيس المنطقة الرابعة.

ـ ماذا؟

ـ هذا المجنون دائمًا ما يختار أماكن نائية لقتل ضحاياه.

ـ أليست هذه...

ـ نعم... نعم، أعد نفسك، فلقد اقتربت.

أنهى فارس الاتصال ووثب من على الفراش، يتناول أقرب ما طالته يداه من بين كومة ملابس ملقاه بإهمال على مقعد خشبي مجاور لفراشه.

اتجه إلى الحمام يضرب وجهه بماء فاتر لعل ذلك يسرب إليه شعورًا بالانتعاش، ولكن التنميل الذي غزا رأسه أكد له أنه في حالة يُرْثَى لها.

غادر الشقة مستقلًّا المصعد حتى وصل إلى مدخل البناية في نفس الوقت الذي توقفت فيه سيارة أيمن بجوار رصيف البناية.

أسرع فارس الخطى ليتخذ مكانه بجوار أيمن الذي انطلق بالسيارة وقد علا وجهه توتر ملحوظ يقول بصوت اصطبغ بالانفعال:

ـ العقيد الآن في حالة ثورة عارمة.

ـ بالتأكيد، بهذه الجريمة الجديدة كأننا نتلقى ضربةً جديدةً موجعةً في الرأس في يومٍ واحدٍ.

ـ هذا السفاح لا يهدأ يا فارس، يواصل قتله للناس ليلًا نهارًا كأنه لا يكتفي من الدماء.

لم يرد عليه فارس، بل شرد لبعض الوقت، فخُيِّل لأيمن أنه يحدق فيه مباشرةً، ولما أدرك حالة الشرود التي اعترت فارس فرقع بأصبعيه حتى يستفيق فارس من حالة شروده.

ـ إلى أين ذهبت يا فارس؟

ـ أشعر بالإحباط واليأس من هذه القضية، كأن هذا الكابوس لا يريد أن ينتهي.

هز أيمن رأسه موافقًا فارس وغرق هو الآخر في حالة صمت مطابقة لحالة فارس، ظلا على هذا الوضع لعدة دقائق وضوء مصابيح السيارة يخترق الطريق المعتم بحزمتين من نورٍ قوي يفرشان الضوء على مساحة واسعة...

لفت انتباه فارس قوة مصابيح هذه السيارة، وتعجب من العقل البشري القادر على إبداء ملاحظات عادية في أوقات تتسم بالتوتر والضغط العصبي كهذه، وأن تخترق ملاحظة عابرة كهذه رأسه المشحون بعشرات الأفكار الهامة، جذوع الشجر التي تظهر كأشباح

ليلية يشكلها ضوء السيارة المبهر؛ تبعث في نفس فارس الرهبة ومزيدًا من النفور مما هو مقبل عليه... التفت إلى أيمن يسأله باهتمام:

ـ هل الجريمة وقعت في محيط المنطقة التي...

لم يكمل فارس؛ فآيات الضيق التي علت وجه أيمن أجابت فارس بكل شيء، رد أيمن ببطء:

ـ الأكثر من ذلك أنها في نفس الأرض التي قمنا ببيعها منذ شهور قريبة.

هل كان يجب على قلب فارس أن يخفق لهذه المعلومة؟ والتي استنتجها بسهولة، ولكن يبدو الأمر غريبًا، إن كان أيمن هو الطرف الواشي في الداخلية، هل التنظيم من الغباء حتى يفضح أحد أطرافه بهذه الطريقة الساذجة؟ أن يجعل الجريمة في هذا المكان تحديدًا.

ـ أين بالضبط يا أيمن؟

ـ في مخازن القمح الملحقة بالأرض.

ـ اللعنة.

ـ فارس، إن كان هناك ما يدور في رأسك فقله فورًا.

ـ أعتقد أنك تعرف ماذا يدور برأسي.

ـ هل تعتقد أنني الواشي؟

ـ لم أقل ذلك.

ـ سؤالك يقول ذلك، وأعتقد أن هذا ما يفكر فيه العقيد الآن.

ـ يجب أن تعذرنا في ذلك.

ـ ألم تفكر في أنها محاولة منه لصرف أنظارنا مرةً أخرى عن الواشي فعلًا، وأنه يحاول إثارة الفتنة بيننا حتى ننصرف في بحثنا عن الطرف الحقيقي الواشي.

ـ ربما.

ـ وربما لا.

ـ اعذرني يا أيمن.

ـ لا بأس، كنت سأفكر مثلك أيضًا، ولكني أحب أن أقول لك أني لو كنت الطرف الواشي لن أكون بهذا الغباء لأسمح لهم بتوريطي بذلك الشكل الفاضح.

ـ أتفق معك في ذلك ولكن لدي وجهة نظر أخرى.

ـ وهي؟!

ـ لو افترضت فعلًا أنك طرف فاعل في التنظيم، فهناك من نصب لك ذلك الفخ لتقع فيه ويُفْتَضح أمرك.

ضحك أيمن بسخرية وعصبية معقبًا:

ـ ولماذا سيفعل ذلك؟ سيخسر بكشفي على هذا النحو ومن مصلحته أن يبقي علي حتى أمده بمزيد من المعلومات مستقبلًا.

ـ هذا كلام منطقي، ولكن في حالة أن هذا هدفه بالفعل.

ـ لماذا أشعر وكأنك تتكلم عن شخص تعرفه؟

نظرة متشككة من أيمن وقد حدق لثوانٍ في عيني فارس، ثم أعاد النظر للطريق جعلت فارس يبتسم ويهز رأسه وهو يقول بهدوء:

ـ لربما كنت محقًا حينما قلت إنه يحاول أن يخلق بيننا فتنة لننصرف عن الطرف الحقيقي الخفي في الداخلية.

لم يعلق أيمن ولكن اكتفى بمتابعة الطريق وقد دخل إلى طريق فرعي يمينًا، طريق ترابي ممهد، فخفف من سرعته والسيارة تتأرجح على هذا الطريق، ومن بعيد لمحا إضاءات سيارات الشرطة.

توتر الأعصاب المفاجئ الذي تسرب إلى كليهما كان طبيعيًا جدًّا والسيارة تقترب أكثر من مخازن القمح، حيث تقف سيارتا شرطة، وعدد من رجالها ينتشرون حول المخزن وفي المنتصف يقف العقيد يدخن سيجارته بعصبية ويتحدث إلى رجل يرتدي عمامةً وجلبابًا بني اللون.

توقفت السيارة إلى جانب، وغادرها فارس بسرعة متجهًا إلى العقيد الذي بتر حديثه مع ذلك الرجل، ولما اقترب منه فارس تأبط ذراعه بشكل مفاجئ، وهو يحثه على المشي باتجاه بوابة المخزن قائلًا بانفعال حاول أن يكبته، ولكنه تسرب لصوته على الرغم منه:

ـ أريدك أن ترى الغرفة الداخلية التي قُتِلَت فيها الضحية الجديدة.

ـ كيف قتله؟

ـ بالتجويع والسم.

ـ ماذا؟

ـ فارس، لن أعيد ما أقول.

ـ لقد سمعتك ولكني مذهول.

لم يعقب العقيد وهو يستحثه على السير بخطى أسرع وأيمن يهرول من ورائهما حتى وصلا إلى الغرفة المضاءة بمصباح وحيد يتدلى من سقف الغرفة، يرسل نورًا أصفر شاحبًا ورائحة عطنة جدًّا تخالطها رائحة براز قوي، جعلت فارس يضع يده على فمه وأنفه، وكذلك فعل أيمن والعقيد.

توقف فارس أمام جثة رجل تعرى من كل ملابسه إلا سرواله الممزق، مُمدد أرضًا على ظهره، يستطيع أن يحصي فارس بسهولة أضلع الرجل، وفمه المفتوح وعظام وجنيته البارزتين وعينيه الغائرتين للداخل، نحولٌ شديد، جعل بدن فارس تسري فيه برودة مفاجئة.

لاحظ فارس ذلك الطوق الحديدي الملتف حول قصبة قدم الرجل اليمنى متصلًا بحلقات معدنية مثبتة إلى جدار الغرفة؛ تتيح له الحركة

فقط في حدود ضيقة، أرض رملية، ينتشر في محيط جثة الرجل بقع من بقايا طعام متعفن وفضلاته الشخصية بعضها تلوث به جسده.

ـ هل تم تحديد وقت الوفاة؟

ـ يقول الطبيب الشرعي منذ ساعتين تقريبًا، ويُرَجح أن سبب الوفاة تسميم الطعام وقِلَّتُهُ أيضًا.

دار فارس في المكان وعيناه تحاول اصطياد أي شيء غير مألوف، يبحث عن رسالة أخرى تركها السفاح ثم توقف مستديرًا للعقيد وأيمن قائلًا:

ـ يبدو أنه حجزه في هذا المكان لفترة لا تقل عن أسبوعين مثلًا.

تناول العقيد سيجارةً أخرى يشعلها قائلًا؛ وقد تقلصت ملامحه والرائحة العطنة تعبر لأنفه وفمه:

ـ صحيح، لقد احتجزه في هذا المكان لمدة أسبوعين بالفعل، صاحب الأرض والمخازن أكد لي أن السفاح قد أتى إليه منذ ثلاثة أسابيع تقريبًا زاعمًا أنه صديق شخصي لأيمن.

اضطرب أيمن والعقيد يُحدِجُه بنظرة خاصة ويضيف في هدوء:

ـ وأنه طلب منه أن يستخدم مخازن القمح لمدة أسبوعين فقط.

سأل فارس مستنكرًا:

ـ وهل وافق صاحب الأرض بهذه السهولة؟ ألم يرتب في الطلب؟

ـ يقول صاحب الأرض أنه لا يعرف أيمن شخصيًّا، ولكنه يعرف والده؛ لأنه هو الذي باعه الأرض وقام بالاتصال به يخبره عن صديق أيمن هذا، فعلى حد قول ذلك الرجل أن والد أيمن قال له: صاحب أيمن مثل صاحبك تمامًا، وأن هذا ليس موسم حصاد القمح وأنه لا يستخدم المخازن حاليًّا.

صمت العقيد لثوان ينظر لأيمن كأنه ينتظر منه إجابةً؛ فقال أيمن بعصبية:

ـ لم يذكر لي والدي هذا الأمر، من الممكن أنه تصور أنه صديق لي بالفعل.

لم تبدو أن هذه الإجابة مقنعةً بشكل كافٍ للعقيد الذي أدار رأسه لفارس مضيفًا:

ـ وعلى هذا الأساس سمح صاحب الأرض الجديد للسفاح باستخدام مخازن القمح.

لوح فارس بذراعه اليمنى قائلًا باستنكار أكبر:

ـ ألم يجد أن الطلب مريب وغريب وأن تردد السفاح لعدة مرات على مخازن القمح أكثر ريبةً، وتواصله مع والد أيمن ليس مبررًا كافيًا لأن يغض الطرف عن تصرفات مريبة مثل هذه.

ابتسم العقيد ساخرًا وهو ينظر إلى أيمن مرةً أخرى بنظرة خاصة معقبًا:

ـ كلامك منطقي في حالة واحدة يا فارس.

ـ وهي.

ـ إذا كان والد أيمن رجلًا عاديًّا وليس لواءً سابقًا في جهاز أمن الدولة.

رد فعل طبيعي أن يسب أيمن بدون صوت وأن يحمر وجهه بشدة؛ يحاول كطفل صغير مذنب أن يدير وجهه بعيدًا، أعاد أيمن النظر إلى وجه العقيد، وهو يقول بغضب:

ـ هل تقصد أن والدي هو الطرف الواشي في الداخلية؟

السخرية ترسم ملامح العقيد كاملةً وهو يقول:

ـ أو أنت يا أيمن.

الصمت، هو الشيء الوحيد الذي كان له الصدى الأكبر في هذا المكان الضيق، تحت هذه الضوء الأصفر الشاحب الذي يصبغ الوجوه الثلاثة المتحفزة العصبية بلون أصفر قاتم.

ـ أو أنت يا سيادة العقيد.

قنبلة جديدة مدوية بصوت فارس؛ لتلفت إليه أنظارًا متحفزةً مستنكرةً وأخرى مذهولةً، وصمت آخر يتلاعب بمشاعر الثلاثة، ليقطع هذا الصمت القصير المشحون أيمن قائلًا بعصبية شديدة:

- توقفا رجاءً، هذا ما يريده بالضبط السفاح أو ذلك التنظيم، أن يتم الإيقاع بيننا، أن نشكك في بعضنا البعض، أن ننصرف عن الطرف الحقيقي... تذكر يا سيادة العقيد أننا لم نكن بمفردنا في منطقة أبو العباس...
كان هناك ملازم أول وعدد من أمناء الشرطة فضلًا عن العساكر؛ كلهم من الممكن أن يكونوا وقتها موضع اشتباه، هذا التنظيم -كما قلت- يحاول صرف انتباهنا عن المشتبه الحقيقي.

لم يكن ما يقوله جديدًا... بالفعل فكر فيه كل من فارس والعقيد، ولكن بدت كلمات أيمن كمنبه مهم للغاية في هذا الوقت الدقيق ليستفيقا ويعيدا ترتيب أفكارهما مرةً أخرى، ليعود الهدوء إلى أعصابهم جميعًا ويبدؤوا التفكير من جديد بشكل أكثر عقلانيةً.

هز العقيد رأسه ثم قال في هدوء:

- محتمل أيضًا! هذا ليس وقتًا للتشاحن وتبادل الاتهامات، وإن لم يلغي هذا فكرة أن الجميع...

وصمت للوهلة ثم أضاف، وهو يضغط على مخارج حروفه قائلًا:

ـ بما فيهم أنا، في دائرة الاشتباه، حتى نستطيع الإمساك بالطرف الواشي بيننا.

ارتاح الجميع لتصريح العقيد الأخير، وبدا أن هذا هو أفضل الأطروحات في الوقت الحالي، فيجب أن يعيدوا التركيز على القضية نفسها حتى يصلوا إلى أي نتيجة تستطيع أن توقف سلسال الدم؛ هذا المتدفق بغزارة وجنون.

أعاد العقيد النظر مرةً أخرى لفارس قائلًا:

ـ ألم تلاحظ أن السفاح هذه المرة لم يترك أي رسالة.

ـ لا أعتقد أنه لم يفعل، ذلك السفاح لديه نمط واحد في قتل ضحاياه، لن يتخلى عنه، بالنسبة له هو طقس مقدس، ولكن هو يلعب معنا فقط، يدفعنا للبحث عن الرسالة أين تكون.

دار كل منهم حول نفسه في الغرفة بحثًا عن تلك الرسالة، اقترب أيمن من الجثة يحاول تفحصها بتقزز وهو يكتم أنفاسه بيده اليمنى ويعبث بيده اليسرى حول الجثة، في حين اقترب العقيد من دولابٍ حديديٍّ يتفحصه ويفتح درفتيه.

فارس يتحرك ببطء نحو إحدى الجدران، وقد لفت نظره شيء ما بذلك الحائط.

صورة ملونة كبيرة بعض الشيء بدت كأنها مثبتة حديثًا إلى ذلك الحائط، ولا تناسب بيئة الغرفة، صورة ثُبِّتت عن عمد للفت أنظار الداخلين إلى الغرفة إليها، ولم يكن وضعها هكذا عبثًا.

تفحص فارس إطار الصورة، ثم قام بتمزيق الصورة من المنتصف، ليلفت صوت تمزق الورق انتباه العقيد وأيمن اللذين أسرعا نحوه والعقيد يقول بفضول:

ـ هل عثرت على الرسالة؟

لم يعلق فارس، بل تراجع خطوتين إلى الوراء ليحاذي العقيد وأيمن وقد تطلعوا جميعًا إلى تلك الرسمة غير مصدقين ما رأوه، فلقد كان الأمر مربكًا، الرسمة تبدو مألوفةً لهم، ولكن الغريب فيها أنها لا تناسب الحدث تمامًا، أم أن الأمور كلها تنقلب رأسًا على عقب مرةً أخرى.

مال العقيد نحو فارس قائلًا باستنكار:

ـ أليست هذه علامة عبدة الشياطين؟

هز فارس رأسه نافيًا وهو يقول بشبه شرود:

ـ كلا؛ إنها النجمة السداسية، نجمة...

قاطعه أيمن قائلًا بحماس:

ـ نجمة الإسرائيليين، أعرفها.

صحح له فارس في شروده الذي غرق فيه:

ـ داود.

علق العقيد ساخرًا:

ـ لم تضف جديدًا، تخص الإسرائيليين كما ذكر هذا المأفون!

لم يبالِ بهما فارس، وهو يقترب منها أكثر محدثًا نفسه:

ـ ما علاقة نجمة داود بهذه الجريمة؟

ضرب العقيد كفًّا بكف، وهو يقول بسخرية وعصبية:

ـ هل نفهم من ذلك أن الشيعة لا علاقة لهم بالأمر، وأن الإسرائيليين هم المتورطون في هذه الجرائم الآن؟

قال فارس وحاجباه يتعانقان:

ـ بالتأكيد لا.

ـ إذن؛ فسر لي هذه النجمة، وكيف سأفسرها لرجال الأمن الوطني؟

رفع فارس يده اليمنى في رجاء وهو يرد:

ـ أرجوك امنحني بعض الوقت حتى أفهم هذه الرسالة، وما الذي يريده؟

ـ ماذا تتوقع من مجنون سوى مزيد من الهذيان.

لم تكن لدى فارس أي رغبة في أن يعقب على كلامه أو يحاول أن يشرح له وجهة نظره، كل ما فعله أنه رفع جهازه الجوال إلى مستوى اللوحة والتقط لها عدة صور.

يحاول أن يفهم ما الذي يريده هذا السفاح من رسم هذه النجمة بالذات، قاطع أفكاره اقتراب أيمن من بقايا اللوحة الممزقة في جزئها السفلي ليزيلها تمامًا وهو يقول:

ـ يبدو أنك لم تلتفت إلى شيء آخر يا فارس.

وضع فارس يده اليمنى على ذقنه، والعقيد يقترب معه ليقرأ ذلك الخط الرديء: {فَحَمَلَتْهُ فَانْتَبَذَتْ بِهِ مَكَانًا قَصِيًّا} ...

ـ هذه آية من القرآن صحيح.

لم يعلق أحد... صمت الاثنان، وكانت إجابةً شافيةً بالنسبة للعقيد، في موقف آخر كان سيتباهى بمعرفته هذه ولكن بالتأكيد ليس اليوم، أنهى فارس استرساله المؤقت هذا وهو يقول بخفوت:

ـ هذه الآية تخص السيد المسيح، ما هذا العبث؟

ـ كما قلت لا يجب أن نتوقع من سفاح مجنون أن يبثنا رسائل عاقلة، يجب أن تتسم بالجنون كأفعال القتل التي يقوم بها.

تدخل أيمن متسائلًا:

ـ هل لديك من تفسير لهذه الرسالة يا فارس؟

هز فارس رأسه نافيًا في يأس وإحباط، لم يعد هناك أي خيوط من الممكن أن يتعلق بها، كل الخيوط تداخلت وتشابكت بشكل معقد للغاية، كل ما في الأمر أن هذه القضية تحولت إلى دوامة كبيرة؛ تبتلع كل صغيرة وكبيرة في طريقها، ولا تعني بأن تعطي أي تفسير لذلك الغضب الجنوني.

جنون ولكن وفق منهجية وخطة ونظام، أي جنون هذا؟! هذا السؤال ضرب عقل فارس كمطرقة، وعقله يردد ساخرًا: "جنون منظم، هذا فعلًا أكثر جنونًا!"

* * *

(٧)

ـ الحمد لله تم نقله من العناية المركزة إلى إحدى الغرف الطبية، نعم تحسنت حالته كثيرًا.

كان فارس يقطع ممر المستشفى بالطابق الثاني في خطوات سريعة، وهو يضع الهاتف الجوال على أذنه اليمنى يقول بعد فترة صمت:

ـ أنا في طريقي إليه الآن يا ريم، لدي في جعبتي الكثير لأسأله.

توقف أمام باب الغرفة، وقد انتصب العسكري واقفًا في تأهب، ابتسم فارس وهو يرد:

ـ سأبلغه سلامك بالتأكيد، مع ألف سلامة.

أنهى الاتصال ليصوب نظره باتجاه العسكري قائلًا بحزم وهو يمد يده نحو مقبض الباب:

ـ فارس من فريق البحث الجنائي.

هز العسكري رأسه نافيًا وهو يقول بريبة:

ـ لا أعرف سيادتك.

دفعه فارس في رفق بعد أن حاول العسكري أن يحول بينه وبين الباب قائلًا بغضب:

ـ لا وقت لدي لهذه السخافات.

دفع فارس الباب والعسكري يلحق به متوترًا، لاحظ الدكتور معاذ ــ الذي كان يستلقي على الفراش ويتابع التلفاز الصغير على يسارهـ هذه الجلبة، وتلون وجهه بسعادة طفولية، وقد ميز وجه فارس بصعوبة قائلًا بصوت ضعيف ولكن عاليًا:

ـ فارس.

اطمئن العسكري عندما تعرف عليه الدكتور معاذ، وانسحب في هدوء وهو يسدد نظرات نارية لفارس الذي لم يعبأ له وهو يقترب من الدكتور معاذ مبتسمًا يقول في سعادة:

ـ الحمد لله على سلامتك يا دكتور.

ـ الله يسلمك يا فارس.

قرب فارس مقعدًا بجوار فراش الدكتور قائلًا ببهجة:

ـ لقد كدت أفقدك، ولكن مشيئة الله تدخلت وأنقذتك.

أومأ الدكتور معاذ برأسه قائلًا وقد ذهبت تلك السعادة الطفولية عن وجهه:

ـ هي بالفعل كذلك، فبقائي حيًا للآن معنى وسبب.

ـ لم يكن من قبل بلا سبب.

ابتسم الدكتور معاذ ابتسامةً شاحبةً لرد فارس، ومد يده المعروقة المرتعشة إليه، فأمسكها فارس بحنو والدكتور معاذ يقول:

ـ من الجيد أن أراك مرةً أخرى يا فارس، وأعلم كعهدي بك أن هذه الزيارة ليست فقط من أجل الاطمئنان علي، فالوجوم والتوتر المستكين بين ملامحك والتي تحاول أن تجعلها سعيدةً يفضح كل شيء.

ذهب الابتسام عن وجه فارس وهو يفلت يد الدكتور معاذ ويتراجع في مقعده يعبث بشعره، فقال الدكتور بجدية:

ـ جريمة قتل أخرى.

ـ نعم.

ـ لا حول ولا قوة إلا بالله.

ـ وكالعادة رسائل مختلفة يقلب بها الدنيا رأسًا على عقب.

ـ أخبرني.

تنهد فارس، ثم اندفع بنصفه العلوي إلى الأمام قائلًا:

ـ نجمة داود وتحتها كُتِبت آية من القرآن: {فَحَمَلَتْهُ فَانْتَبَذَتْ بِهِ مَكَانًا قَصِيًّا} ...

ـ هل قمت بتصوير تلك النجمة؟ أريد أن أراها.

تناول فارس هاتفه الجوال من جيبه، وظل يضغط على شاشته لثوانٍ وهو يقول:

ـ لقد عرفت أنك ستطلب الصور.

ناول الدكتور معاذ الهاتف الجوال، فالتفت الدكتور معاذ يمينًا ويسارًا فأدرك فارس أنه يبحث عن نظارته، قام فارس يقلب بعض المحتويات على (الكومودينو) الكائن على يمين الفراش فعاجله الدكتور قائلًا:

ـ فلتبحث في الدرج، لربما وضعتها ليلى فيها.

فتح فارس درج (الكومودينو) ووجد فيه النظارة، ناولها لمعاذ الذي وضعها على عجل وهو يضيق عينيه ليستجلي الصورة... أطلق كحةً؛

حاول أن يكتمها حتى لا تسبب له ألمًا أكبر مما يشعر به في جانبه الأيمن، أعاد الهاتف الجوال إلى فارس قائلًا:

ـ هذه ليست نجمة داود كما تتصور.

ـ أليست نجمة داود سداسية؟

ـ نعم.

هز فارس كتفيه مستنكرًا ولم يعلق، فَلاحَ شبح ابتسامة على شفتي الدكتور سرعان ما ذابت وتقلصت ملامحه في ألم وهو يقول:

ـ فارس؛ حاول أن ترفع هذا الفراش قليلًا حتى أكون في موضع الجلوس، ستجد المقبض الذي ترفع منه الفراش في مقدمته.

نهض فارس من مكانه يبحث عن ذلك المقبض حتى وجده، فأداره عدة مرات حتى رفع الدكتور معاذ يده اليمنى قائلًا بألم:

ـ توقف يا فارس، هذا يكفي.

عاد فارس إلى مكانه يستمع بإنصات إلى الدكتور معاذ الذي قال:

ـ كما قلت لك القاتل وفق اعتقادي ومن واقع فهمي لرسائله السابقة لا يقصد نجمة داود تحديدًا، ولكنها إشارة إلى اسم شخص.

ـ اسم شخص!

ـ -نعم؛ وسيفاجئك عندما تعلم اسم هذا الشخص.

ضحك فارس ضحكةً مبتورةً وهو يعقب:

ـ أنت دائمًا صاحب مفاجآت.

ـ هذه النجمة كما يعتقد القاتل هي إحدى أشكال الرسم بالخط لاسم "محمد".

لم يبد أي ذهول على وجه فارس، ولكنه الجمود التام... لحظة من السكون توقعها الدكتور، فترك المساحة الكافية لفارس لأن يخرج من حالة الجمود هذه ويقول جملةً استنكاريةً كان يتوقعها:

ـ أنت بلا شك تمزح.

ـ أنا لا أمزح.

ـ وأي خط عربي هذا الذي يكتب اسم محمد على شكل نجمة داود.

ـ على حد علمي؛ بالخطوط العربية لا يوجد.

ـ إذن.

ـ هذا لا يمنع أن هناك من يعتقد ذلك، ستجد هذا الموضوع منتشرًا بكثرة على منتديات الشيعة تحديدًا على الإنترنت؛ التي يتحدثون فيها حول هذا الموضوع، ويعتبرون أن اسم محمد مكون من خمس أحرف، فالميم الواقعة بين الحاء والدال هي اثنان، وليست واحدةً، ولكنها مشددة فحُذِفت الميم الثانية، وذلك على حد زعمهم وزعموا أيضًا أنها لو كُتِبت بشكل دائري ستتخذ شكل نجمة داود.

بدا على ملامح فارس أنه لم يفهم شيئًا فقال الدكتور:

ـ هل لديك ورقة وقلم؟

أمسك فارس بهاتفه مرةً أخرى وهو يستخرج من جانب منه قلمًا ويفتح صفحةً بيضاء على الهاتف، ويناول الدكتور القلم والهاتف، فينظر له الدكتور في استغراب وقليل من الاستنكار، ثم يهز رأسه علامة الامتعاض، ويبدأ بيد مرتعشة في رسم ما وصفه لفارس...

تأملها الدكتور لثوانٍ ثم شرع في إضافة بعض الرتوش، ثم ألقى بالهاتف على الفراش باتجاه فارس وهو يسعل، انشغل فارس بعض الوقت باحتقان وجه الدكتور معاذ حتى سكن وهدأت ملامحه، ثم أمعن النظر في شاشة الهاتف الجوال لبعض الوقت.

ـ هذا جنون فريد.

ـ أتفق معك في ذلك، فشبكة الإنترنت تعج بالكثير من المنتديات والمواقع التي تزخر بالكثير من المعلومات المغلوطة والمجنونة في الوقت نفسه، والعوام يفضلون كل ما هو جنوني وغير مألوف...

العوام في الغالب لا يبحثون عن الحقيقة، ولكن يبحثون عن كل ما هو خارج المألوف، وإن بدا غير منطقي، فهذا يثيرهم أكثر، وهذا السفاح مهما كان متطلعًا إلا أنه ينتسب للعوام الذين تثيرهم مثل هذه الأشياء بشدة.

أقلت فارس الهاتف الجوال مثبتًا عينيه مرةً أخرى على الدكتور معاذ الذي أضاف مبتسمًا بخبث:

ـ أراهنك على أنك ستتفاجأ أيضًا إذ قلت لك أن إحدى البلدان العربية تحمل على علمها نجمة داود.

ـ أنت تمزح.

ـ لا أمزح ولكنك جاهل حتى النخاع.

شعر فارس بالإحراج وهو يسأل:

ـ هل ستخبرني اسم هذه الدولة العربية؟ أم تنوي تعذيبي قليلًا.

ابتلع الدكتور معاذ ريقه وهو يرد:

ـ لا تقلق؛ سأخبرك على الفور.

ـ حسنًا، أنا أسمع.

ـ دولة المغرب يا صديقي.

ـ ماذا؟!

ـ ابحث عنها من خلال جوجل وستجد أن النجمة الإسرائيلية تكاد تتطابق مع نجمة دولة المغرب، بل أزيدك أن عملة المغرب الـ ٢٠٠ فرنكًا للعام ١٩٥٣ تحمل نجمةً لا تكاد تجد فارق بينها وبين نجمة داود.

ـ هل هذا يعني أننا قمنا بتقليدهم؟

ـ أشعر بخيبة الأمل من جهلك الشديد.

أطرق فارس برأسه في ضيق يخالطه مزيد من الخجل، ولكنه رفع رأسه مرةً أخرى للدكتور معاذ الذي استطرد قائلًا:

ـ النجمة السداسية كشكل معروفة قبل ظهور اليهودية أو الإسلام، واسْتُخْدِمت عدة مرات في حضارات وديانات مختلفة، على سبيل المثال سقف مقبرة سنفرو من الأسرة الرابعة مزين بالنجوم السداسية، وهي موجودة أيضًا في الديانة الهندوسية والزرادتشية...

وهي وموجودة بكثرة في الرسومات الزخرفية الإسلامية، وتحمل معانٍ دينية خاصة؛ تؤكد العلاقة الوثقى بين السماء والأرض، وتعبر عن اندماج شكلين يمثلان السماء والأرض عن طريق تداخل مثلثين المتجه رأسه لأعلى وقاعدته لأسفل يمثل الأرض، والمتجه رأسه لأسفل وقاعدته لأعلى يمثل السماء.

ـ حسنًا؛ ولكن سؤالي هذا خارج إطار القضية، من سبق استخدامه لهذه النجمة السداسية، نحن أم اليهود؟

ـ المفاجأة قبل الأخيرة...

بتر الدكتور معاذ حديثه مبتسمًا ليعقب فارس وقد نفد صبره:

ـ توقف عن هذا الأسلوب يا دكتور معاذ.

غابت الابتسامة عن وجه الدكتور معاذ وهو يجيب بجدية:

ـ أول ظهور للنجمة السداسية عند اليهود كانت في العام ١٦٤٨م، ويمكنك أن تطالع موسوعة عبد الوهاب المسيري عن اليهود، وحكايتها بدأت في مدينة براغ التي كانت في ذلك الوقت جزءًا من الإمبراطورية النمساوية...

عندما تعرضت براغ لهجوم من قبل جيش السويد كان هناك من بين المجموعات العرقية المتعددة والتي تولت الدفاع عن المدينة مجموعة من اليهود، فاقترح إمبراطور النمسا آنذاك فرديناند الثالث أن يكون لكل مجموعة من تلك المجموعات راية تحملها، وذلك للتمييز بينها وبين القوات الغازية...

وعلى إثر ذلك الاقتراح، قام أحد القساوسة بأخذ أول حرف من حروف "داود" وهو حرف الدال باللاتينية والذي هو على شكل مثلث وكتبه مرةً بصورة صحيحة وأخرى مقلوبة، ثم أدخل

الحرفين ببعضهما البعض، وبهذا حصل على الشكل الذي نعرفه اليوم تحت اسم "نجمة داود"...

وأخيرًا قام ذلك القسيس برسم النجمة على الراية وعرضها على الإمبراطور، فوافق على أن تكون شعارًا لمجموعة اليهود المدافعين عن مدينة براغ، ويبدو أن الفكرة أعجبت الجالية اليهودية هناك؛ فاتخذت من نجمة القسيس رمزًا دينيًّا لها.

هز فارس رأسه وقد غزت وجهه أمارات الدهشة والاستغراب حتى تخلص منها تدريجيًّا وهو يقول بهدوء:

ـ وماذا عن المفاجأة الأخيرة؟

ـ سيذهلك أيضًا أنك أخطأت في تخمين لمن يشير اسم محمد.

ضرب فارس كفًّا بكف معقبًا:

ـ توقف عن قراءة أفكاري.

اهتز جسد الدكتور معاذ بالضحك وهو يقول:

ـ تخمينك في غير محله.

ـ هل تعني أن الاسم محمد لا يشير إلى الرسول؟

ـ وفق تصور بعضهم لا يشير إلى الرسول، ولكن إلى شخصٍ ما من نسله.

فرقع فارس بأصبعه يجيب في حماس:

ـ عرفته! تقصد محمد بن عبد الله المهدي المنتظر.

ـ هذا عندنا نحن أهل السنة.

عقد فارس حاجبيه وهو يسأل:

ـ وهل يختلف عند الشيعة؟

ـ اسمه عند الشيعة محمد بن الحسن العسكري.

ـ حقًّا.

لم يرد عليه الدكتور وآثر أن يخلع نظارته ويضعها برفق على سطح (الكومدينو).

ـ هذا يجعلك تفهم ما هي أهمية اليماني الموعود، ذلك الاسم الذي سمعته يتردد كثيرًا، وهو سفير ونصير للمهدي المنتظر عند الشيعة وهو الذي سيذيع على العالم نبأ خروجه للعالم ليملأها عدلًا بعد أن مُلِئَت جورًا.

رفع الدكتور معاذ حاجبيه وخفضهما بشكل مسرحي وقد آثر الصمت حتى قال فارس بعد فترة وجيزة من الصمت:

ـ هنالك آية قرآنية كتبت تحت النجمة تقول: {فَحَمَلَتْهُ فَانْتَبَذَتْ بِهِ مَكَانًا قَصِيًّا} ...

بشكل غريزي اندفع الدكتور معاذ قليلًا للإمام يقول مستغربًا:

ـ هل كُتِب ذلك فعلًا؟

ـ نعم؛ لماذا؟ هل يبدو لك ذلك مألوفًا أو منطقيًّا؟

هز الدكتور معاذ كتفيه قائلًا:

ـ يبدو أنه ذو ثقافة ما على الأقل.

ـ حسنًا، وماذا تعني؟ أو ما هو ارتباطها بنجمة داود؟

ـ لا يوجد ارتباط تاريخي ولكنه ارتباط ديني.

ـ بمعنى؟!

ـ حتى تفهم لماذا استخدم القاتل هذه الآية تحديدًا؛ كان يجب أن تقرأ كتاب الحسين في الفكر المسيحي للدكتور أنطوان بارا، وهو يربط بين المكان الذي وُلِدَت فيه السيدة مريم المسيح والمكان الذي قُتِل فيه الإمام الحسين...

ووفق زعمه أنه نفس المكان، وبربط ذلك بنجمة داود؛ يمكنك أن تُكَوِّن فكرةً جليةً أن نجمة داود التي ترمز إلى الاسم محمد وفق ما يتصورون هي إشارة للإمام المهدي عند الشيعة؛ الذي سينتقم من قتلة الإمام الحسين في ذلك المكان، والذي يمكن اعتباره مقدسًا، وذلك نظرًا لأن دم الحسين سال فيه...

وهو المكان ذاته الذي تشرف بأن تلد فيه السيدة مريم السيد المسيح، وأيضًا هو رابط ديني آخر للعذاب الذي تعرض له الإمام الحسين، والاضطهاد والإنكار من الجميع بمثل ما تعرض له المسيح في المسيحية... الكتاب يقوم على ذلك الربط.

ـ هل تعني بذلك أنهم يبثون رسائل تحاول أن تُؤصِّل وتُجَذِّر لمذهبهم الشيعي دينيًّا عبر ربطه بديانات أخرى وحضارات أخرى؟

ـ بالضبط، الآن أنا أشعر بالفخر لأن عقلك بدأ يعمل بالطريقة التي كنت أتمناها، أي أقلية سواء دينية أو عرقية تجنح دائمًا لتأصيل وتجذير مذهبها تاريخيًّا ودينيًّا حتى تكتسب قُدسيةً وهالةً تغطي بها على كونها أقليةً.

تخلل الصمت بينهما لثوان؛ حاول فيها الدكتور الاعتدال في مجلسه لما تسرب إليه شعور بألم مفاجئ في ظهره، ولما انتهى مال بنصفه العلوي قليلًا باتجاه فارس يقول:

ـ حتى أن هناك رقمًا مشتركًا بين المسيح والمهدي... لقد تذكرت هذا الأمر للتو والشيء بالشيء يُذْكَر.

ـ وهو؟!

ـ ١٤٩.

ـ دعني أخمن هذه المرة.

أسبل الدكتور جفنيه للحظة وهو يستند على يديه ليعدل من جلسته مرةً أخرى في حين قال فارس:

ـ إنها قيمة عددية للحروف، أليس هذا ما تقصده؟

ـ أحسنت.

ـ ولكن القيمة العددية لحروف كلمة المسيح تختلف عن كلمة المهدي.

ـ بعد أن اقتربت ابتعدت للأسف.

ـ إذن ما الذي فاتني؟

ـ اسم الحسن هو الذي يشترك في قيمته العددية مع كلمة المسيح.

ـ تقصد الحسين.

ـ بل أقصد الحسن.

قالها الدكتور معاذ بحسم ثم أضاف:

ـ اسم المهدي عند الشيعة هو محمد بن الحسن العسكري، فبالتالي نجمة داود تمثل اسم محمد وفق تصورهم، والآية التي تتحدث عن حمل السيدة مريم بالمسيح كأنها إشارة إلى الأشياء المشتركة بين المسيح والحسين، والهدف السامي الذي كان يسعى إليه الاثنان، ولكن قومهما لم يقدرا هذا، وسيأتي من يكمل هذه المهمة الناقصة...

وأيضًا من وجه آخر القيمة العددية ١٤٩ بين كلمة المسيح واسم الحسن واحدة وهو والد المهدي المنتظر والعسكري...

ـ كنت على وشك أن أسألك هذا السؤال، أين الإشارة إليها في الرسالة؟

ابتسم الدكتور معاذ بخبث وهو يقول:

ـ في النجمة نفسها.

ـ وكيف ذلك؟

ـ اليهود يزعمون أن النجمة السداسية مستمدة من درع النبي داود الذي كان على شكل سداسي له ستة رؤوس، وبما أنه درع فهو يُسْتَخدم لأغراض عسكرية.

رفع الدكتور معاذ كلتا يديه كأنه يفاضل بين شيئين مستطردًا:

ـ أغراض عسكرية... العسكري...

أراحَ يديه مكملًا:

ـ فكأن القاتل يريد أن يبلغك من خلال كل هذا بأن ما تم وسيتم يحدث من أجل الإمام المهدي المنتظر محمد بن الحسن العسكري.

نهض فارس من مقعده في بطء كأنه يفكر في أمرٍ ما أو يحاول تذكر شيء ما، وبدأ بالتحرك فعليًّا باتجاه باب الغرفة فاستوقفه الدكتور مُمازحًا:

ـ بدون أن تُلقي السلام حتى.

ابتسم فارس وقد بدا الإرهاق جليًّا على وجهه وهو يقول:

ـ آسف يا دكتور.

ـ لا بأس، أعرف أن هناك مئات الأفكار تدور في رأسك الآن.

ـ هذا صحيح.

اتجه فارس إلى الباب، ولكنه استدار مرةً أخرى متسائلًا:

ـ من الذي قُتِل مسمومًا؟

ـ الإمام جعفر الصادق.

ـ هذا كان من أصحاب الإمام الحسين.

لوح الدكتور معاذ بذراعه اليمنى علامة اليأس وهو يقول:

ـ اغرب عن وجهي يا فارس.

ابتسم فارس وهو يفتح باب الغرفة ملقيًا السلام على الدكتور معاذ وعقله يردد باستمرار الرقم ١٤٩، يبدو هذا الرقم مألوف لديه؛ يذكر أنه رأى هذا الرقم بالأمس... كلا، ليس بالأمس، ولكن فجر هذا اليوم...

توقف في منتصف الردهة ثم التقط هاتفه الجوال من جيبه، يقلب في آخر المكالمات التي وردت إليه وتوقف عند مكالمة بعينها. مكالمة كان توقيتها الواحدة بعد منتصف الليل و... وتسعة وأربعون دقيقة. طبيعي أن يطلق آلاف اللعنات الآن، ضجيج صوتي يتم تكبيره عشرات المرات في عقله... هل يمكن أن يكون هذا كله صدفة؟ صاحب الرقم هو... أيمن! هل هي صدفة فعلًا؟!

*** * ***

(٨)

يدخل فارس مكتب العقيد والتوتر يتسرب إليه ليتلاعب بأعصابه، فالموقف متأزم بينهما منذ فترة وجيزة، ولكنها بالنسبة لفارس تبدو وكأنها ممتدة منذ سنوات طويلة... يحاول أن يواري كل هذا التوتر خلف قناع جليدي، تدرب على ذلك ولن يترك مجالًا للعقيد أن يستنطق ملامحه بأي شكل من الأشكال... إحباط مخطط الخصم يبدأ من قناع جامد يفرضه على وجهه فرضًا.

لقد استدعاه العقيد، ولا يحتاج إلى الكثير من الذكاء ليُخَمِّن سبب هذا الاستدعاء، فالإجابة تتجلى بوضوح على وجه العقيد، ولكنه فضل أن يلزم الصمت وألا يبادر هو بالخوض في هذا الموضوع، وملامح العقيد تبدو وكأنها تتسلى بهذه اللحظة البوليسية التي يحاول أن يرسمها على فارس، تلك النظرات المريبة التي يحاول أن يُقَنِّعَها بقناعٍ من السخرية وبعض الاستهزاء...

حاول فارس أن يدفع كل هذه المؤشرات السلبية بعيدًا عن رأسه وأن يعمل على تصفية رأسه من كل هذا، فهذا آخر ما يحتاج إليه الآن.

–كيف حالك يا فارس؟"

هناك ترجمة واحدة لهذا السؤال، أن جلسة الاستجواب قد بدأت للتو ولربما تنتهي بألا يغادر فارس هذا المكان.

كما تعود من والده، أن يطرح أمام نفسه السيناريو السيء، فإذا تحقق فلا يكون مُفاجئًا له، وإن لم يتحقق فهذا يعني أن الحظ ما زال حليفه.

- بخير، هل لي أن أعرف سبب هذا الاستدعاء المفاجئ؟

رد العقيد في سخرية:

- وكأنك لا تعرف.

- أحب أن أسمعه منك.

ران الصمت للحظات... هي مقدمة ضرورية يمارس فيها العقيد دوره كرجل شرطي يحاصر المتهم بعد أن أسقط في يده الأدلة التي تدينه... صمت سخيف قطعه فارس بأن قال:

- قد يبدو السؤال الذي سأسأله قد مضى عليه الوقت، ولكني في انتظار الإجابة عليه.

- وهو.

- هل قامت الشرطة بتعيين حراسة على الأسماء الباقية الواردة بقائمة معمل التحليل؟

محاولة ذكية من فارس لصرف تفكير العقيد عن أن ينغمس أكثر في دور المحقق، ويحاول أن يشتت الخطة التي وضعها لمحاصرته،

ولكن العقيد كان أذكى من أن يقع في هذا الفخ، فخبرته الطويلة كفيلة بأن ترشده لتفادي هذه الفخاخ الصغيرة التي تُنْصَب له من قبل المتهمين.

"لن ينجح في تشتيتي"... تضخم صوته في عقله وهو يلقي بهذه الجملة، ولكن قرر أن يساير فارس ويجيب قائلًا:

-وهل تتصور أنه فاتنا أمر مثل ذلك؟

-لن يكون غريبًا على الشرطة المصرية أن يفوتها ما هو أكثر من ذلك.

انقلبت ملامح العقيد للغضب والتحدي... كان هذا اندفاعًا غبيًّا من فارس... ترددت هذه الكلمة في رأسه وتضخمت كعادته إذا أخطأ التقدير، وقرر أن يلوم نفسه، ليس هذا ما يحتاجه الآن... لا يجب أن يستفز خصمه؛ بل يجب أن يستدرجه للهدوء والتفكير بروية وعقلانية، وهو الآن بتعقيبه هذا قد فوت على نفسه فرصةً ثمينةً في أن يستميل العقيد لصالح التفكير العقلاني.

لم يعلق العقيد، بل تراجع في مقعده وهو يمد يده إلى درج مكتبه يفتحه، ويخرج منه صرةً قماشيةً رمادية اللون مربوطةً بحبل متهالك؛ ألقاها على سطح المكتب، ألقى عليها فارس نظرةً لا مبالية، ثم قال بهدوء:

– ما هذا؟

– ألا يثيرك الفضول لتعرف ما كنهه؟

ليس من الحكمة أن يرفض ويتصنع مزيدًا من المبالاة، فمال نحو المكتب يلتقط هذه الصرة، ويفض حبلها المعقود، ويطلع إلى ما بداخلها، فينعقد حاجباه في استغراب وهو يفض بعض محتويات الصرة في قبضة يده اليسرى، هي حبات رمل حمراء اللون...

يضع ما تجمع في يده على سطح المكتب وبجاورها الصرة القماشية، ثم ينظر إلى العقيد متسائلًا:

– هل تخص السفاح؟ تركها في مسرح الجريمة الأخير!

ابتسم العقيد ابتسامةً صفراء يشتعل لها صدر فارس غضبًا، ولكنه يكظم غضبه هذا، ويرسم على وجهه ملامح باردةً لا يستطيع العقيد سبر أغوارها والذي ذابت ابتسامته وهو يقول:

– هل أعتبر ذلك ذكاءً؟

– الأمر لا يحتاج إلى الكثير من الذكاء، فأي شيء غريب مثل هذا بالتأكيد سأحيله في مخيلتي إلى السفاح.

أومأ العقيد برأسه وهو ينظر إلى ما بين يديه، ثم يرفع رأسه مرةً أخرى لفارس الذي قال:

–السؤال: لماذا قمت بإخفائها من مسرح الجريمة قبل قدومي؟

–يحنقني هذا التذاكي الزائد منك يا فارس، ولكن لماذا تتصور أنني فعلت هذا؟

أشار فارس بعينيه لما هو بين يدي العقيد ويخفيه وراء المكتب:

–من أجل رسالة ما تخفيها تحت سطح المكتب.

تَحَفُّزُ مَلامِحِ العقيد يَشي بأن القادمِ أسوأ... ملامحه تلين فجأةً وهو يهز رأسه ويرفع يده اليمنى من أسفل سطح المكتب ويدفع بقصاصة ورق باتجاه فارس قائلًا:

–مكتوب في هذه الورقة اسم الحر بن يزيد.

تناول فارس الورقة من العقيد يتطلع فيها إلى الاسم، ثم أعاد النظر إلى العقيد الذي قال:

–وتساءلت بيني وبين نفسي؛ هل هي إحدى رسائل السفاح المجنونة؟ قلت لنفسي انتظر لحظةُ، فلنفكر بعقلية مختلفة بعض الشيء، هذه رسالة يقصد بها شخصًا ما، شخصًا ما يريد أن يُفتضح أمره، الاسم هنا إشارة إلى الواشي بيننا.

عقب فارس ساخرًا وهو يفهم جيدًا ما يرمي إليه العقيد:

–وهل دلك هذا الاسم على الواشي؟

- على نحو ما.

هز فارس رأسه ولم يعقب في حين استطرد العقيد قائلًا:

- تبين لي بالفعل يا فارس أن الجوجل اختراع جيد.

فضل فارس أن يلزم الصمت في هذه الأثناء، فهو يريد أن يعرف إلى أي مدى قادت الظنون العقيد بشأنه، يخشى فارس من أن العقيد يحاول أن ينهي هذه القضية بأي طريقة ممكنة ولو على حساب حياة شخص آخر، لا بد من أن يتحمل أوزار هذه القضية شخص ما، ولِمَ لا يكون هو... لربما كانت هذه خطته لتقديمه كبش فداء أمام الداخلية؛ ليستريح من ضغوطاتهم، وليفلت من أن يُوصَم بالفشل.

- بالبحث في جوجل تعرفت على هذه الشخصية، هل تريد أن تسمع عنه؟

لم يعلق فارس بل آثر الصمت، فلم يهتم العقيد، ولم يكن ينتظر منه ردًّا، وأعجبه هذا الدور المسرحي الذي يتقمصه الآن... حاول أن يتلذذ بأي ملامح للتوتر على وجه فارس، ولكن يحنقه هذا القناع الثلجي الذي يفرضه فارس على وجهه، ولكنها مسألة وقت وينهار، هو قد تدرب جيدًا على هذه الأمور لسنوات طويلة خدمها في الشرطة، ويعلم أنه عند نقطة ما سينهار وسيعترف بكل شيء.

-قصته باختصار أنه كان مع جيش شخص يُدْعَى عبيد الله بن زياد؛ حاصروا الحسين في منطقة تُدْعَى كربلاء، وبعد فترة وجيزة ارتد...

شدد العقيد على نطقه لكلمة (ارتد)، وابتسم ابتسامةً صفراء باهتةً سرعان ما زالت وهو يضيف:

-وانضم إلى الحسين ورفاقه ضد الآخرين حتى قُتِل في هذه المعركة.

أسند فارس ظهره إلى ظهر المقعد وقد بدا على وجهه أمارات الملل وهو يتابع العقيد الذي لم يكترث لما يبديه فارس وهو يسأل فارس برنة صوت تداخلها السخرية:

- هل تعني لك كلمة المستوفي شيئًا؟

الجمود هو اللاعب الرئيسي، هو الشيء الوحيد الذي استطاع أن يتلاعب بمشاعر فارس... الحقيقة أن تبدل مشاعره لم يطف إلى سطح وجهه، بل بقي حبيس صدره، ولكن دنت منه حركة متوترة وهو يعتدل في مقعده يجيب ببطء:

- اسم عائلتي.

ابتسم العقيد وهو يهز رأسه عدة مرات وينظر إلى يديه التي يقلبها:

– هذا صحيح فلقد اطلعت أيضًا على بياناتك كاملةً.

وقف العقيد وهو يلتقط سيجارةً من علبة سجائره؛ يشعلها في تلذذ ثم قال:

– المثير في الأمر يا فارس أن هذا اللقب "المستوفي" يرجع نسبه إلى...

لم يكن فارس بحاجة لمزيد من الإضافة أو تلك الممارسة المبتذلة من قبل العقيد، فلقد فهم تمامًا ما يرمي إليه العقيد.

وقف فارس وهو يشد قامته ليبدو متحديًا للعقيد وهو يجيب:

– إلى الحر بن يزيد.

– لك أصول عراقية أنت يا فارس.

– جد أبي عراقي من أربيل.

– نعم، تأكدت من هذا الأمر أيضًا.

– ثم...

هز العقيد كتفيه ولزم الصمت لثانية واحدة فقط، ثم انقلبت ملامحه للجدية وحمل صوته الكثير من الوعيد وهو يضيف:

–صدقني يا فارس، لو كنت مثل بقية الضباط الذين تسمع عنهم، لكنت جعلتك كبش فداء في هذه القضية، خاصةً وأن معي بعض الدلائل التي قد تثبت تورطك في هذه القضية، من الممكن بمنتهى السهولة أن أودعك في الحجز وأفصِّل تلك القضية على مقاسك وستكون مناسبةً للغاية.

قال فارس باستهزاء:

–ولكن...

–ولكني للأسف من الذين يؤمنون بأن المتهم بريء حتى تثبت إدانته، أؤمن بأن ما معي من أدلة حتى الآن لا يكفي لأن أدينك بها، ولذلك سأصبر عليك بضعة أيام أخرى حتى أتيقن من أمرك؛ إما أنك بريء فعلًا أو متهم.

– هذا أفضل شيء سمعته منك منذ عرفتك.

–وفر هذه السخرية يا فارس، لأنه لو ثبت بالدليل القاطع أنك متورط في ذلك، أعدك أنك ستندم على اليوم الذي ولدته فيه أمك.

بدا لفارس أن العقيد جاد للغاية في كل حرف ينطقه، لقد قرأ فارس ذلك في عينيه المحتقنة قبل أن ينطق بها لسانه، هز فارس رأسه ولم يعقب، كان يعرف أن الأفضل في مثل هذه المواقف أن ينسحب بهدوء لذلك قال:

– هل مسموح لي الآن بمغادرة المكان؟

أشار له العقيد بعينيه دون أن ينطق وهو يعود ليجلس على مقعده يتلذذ بآخر نفس في سيجارته.

غادر فارس المكتب بخطوات ثقيلة، شعر بأن هناك حملًا ثقيلًا يجثم على صدره، يعوقه عن التنفس الطبيعي... لقد انقلبت الأمور كلها الآن رأسًا على عقب، التنظيم بدأ في زرع الفتنة بين أعضاء فريق البحث، وجعلهم يتشككون في بعضهم البعض، ونجح أن يصرفهم على الأقل حتى الآن عن الأطراف الأخرى الخفية الفاعلة.

التقط العقيد سماعة الهاتف، وطلب رقمًا داخليًّا ثم قال بحزم:

– اسمعني جيدًا يا ياسر، أريدك أن تتبعه في كل خطوة يخطوها بمجرد أن يغادر المكان، ولا تجعله يغيب عن عينيك للحظة واحدة، أريد تقريرًا يوميًّا مفصلًا عن تحركاته على مكتبي، لا يجب أن يشعر بوجودك حوله، هل تفهم؟

أغلق سماعة الهاتف قبل أن يرد عليه الطرف الآخر وهو يطفئ السيجارة بعصبية في منفضة السجائر.

*   *   *

(٩)

اتخذ فارس مكانه خلف عجلة القيادة، وحاول أن يسترخي... محاولة يائسة منه للسيطرة على العصبية التي بدأت تنتشر في جسده كمرض خبيث مصحوبةً بالتوتر والانفعال البالغ.

فشل في سبغ الهدوء على نفسه، فضرب مقود السيارة بعصبية، وأغمض عينيه محاولةً أخيرةً منه وبائسةً للتحكم في أعصابه، ثم يفتح عينيه ويجرى اتصالًا سريعًا بالدكتور... ألقى الهاتف على المقعد المجاور له بعدما يأس من رد الدكتور على الهاتف، وأدار محرك السيارة، وشرع في الابتعاد عن هذا المكان الذي يبث في نفسه كل هذه العصبية.

تمكنت العصبية من جسده بالكامل حتى أن جسده ظل يرتعش طوال الطريق، كان لا يعلم إلى أين يذهب؟ هل إلى بيته؟ أم إلى بيت والدته؟ أم إلى بيت ريم؟

ربما تذكره لاسم ريم يخفف عنه العصبية التي تغزو كل جسده كجيش من النمل، فيبدو أنها بدأت تؤتي مفعول السحر في أن تجنح نفسه نحو الاستكانة وبعضًا من الهدوء... هدوء هو بأشد الحاجة إليه الآن.

تذكر الدكتور معاذ مرةً أخرى، فتناول الهاتف الجوال ونظر إلى الساعة التي تشير إلى التاسعة والنصف، جرب محاولة مرةً أخرى وأخيرةً لعله يسبق ميعاد نوم الدكتور.

توقف إلى جانب وهو ينتظر المجيب من الطرف الآخر بأمل حتى أتاه صوت الدكتور معاذ بعد الرنة السادسة.

– لقد لحقت بي قبل أن أذهب في نومٍ عميق يا فارس.

– هذا من حسن حظي يا دكتور.

– هل اتصلت من قبل؟ يُخَيل لي أني سمعت الهاتف يرن وأنا في الحمام.

– بالفعل.

– ها، ما الجديد وراءك؟ أخبرني.

فضل فارس أن يطرق صلب الموضوع مباشرةً دون الاعتذار عن إقلاقه لراحة الدكتور، فما يعتمل في صدره وما يشغل فكره أكبر الآن من مثل تلك الأعذار.

– إلامَ يرمز الرمل الأحمر عند الشيعة يا دكتور؟

– الرمل الأحمر...

ساد الصمت للحظات؛ كان الدكتور يفكر فيها، يحاول أن يستدعي من ذاكرته أي معلومة ترتبط برملٍ أحمر، فتدخل فارس قائلًا لينعش ذاكرة الدكتور:

– أن يترك السفاح كومةً صغيرةً من الرمل أحمر اللون، هل لذلك أي دلالة؟

– بالتأكيد، كيف غاب الأمر عن بالي ولم أتذكره فورًا.

– أخبرني يا دكتور.

– هذه دماء الحسين يا فارس.

– سئمت من حكايات هذا السفاح، لا يكف عن بث رسائل الخبل والجنون.

– هذا ليس خبلًا أو جنونًا يا فارس، ولكنها تحمل دلالةً دينيةً قويةً عند الشيعة، وعندنا نحن السنة أيضًا.

– كيف ذلك يا دكتور؟

– هي رمال أرض كربلاء؛ التي تخضبت بدماء الحسين حيث قُتِل، وما رأيته من رمال حمراء يذكرني بحديث نبوي يحكي عن زيارة جبريل للنبي ومعه جرة فيها رمال حمراء ناولها للرسول، فلما سأله عنها أخبره أنها دماء حفيده الأصغر الحسين وستكون في

أرض اسمها كربلاء حتى أن الرسول علق على اسم هذا المكان قائلًا: بل كرب وبلاء...

ويروي الحديث أن الرسول بكى، واحتضن حفيده الحسين وهو ينعى ولده الذي سيُقْتَل، وهي قصة مشهورة عند السنة والشيعة وإن كان هناك من أهل السنة من يضعف سند هذا الحديث.

صمت الدكتور ليبتلع ريقه، ثم أضاف بشكل مسرحي:

- إنها رمال مقدسة يا فارس، السفاح يخبرنا أنه انتقام بأثر رجعي.

- انتقام بأثر ماذا...

- انتقام يعود لقرون خلت يا فارس.

- هذا هو قمة الجنون.

- بالتأكيد، ولكنه موجود على أي حال.

النحنحة التي أطلقها الدكتور تشي بأنه مقبل على قولٍ جلل، فسأله فارس مترددًا:

- هناك شيء ما تود قوله يا دكتور، أليس كذلك؟

- لدي تصور قد يكون خاطئًا أو العكس عن مكان السفاح.

كان طبيعيًّا جدًّا أن يخفق قلب فارس... الأمور كلها بعد مقابلته الساخنة مع العقيد تدعو للقلق، ولأن يخفق القلب بشدة، ولأن يتوتر

كل كيانه، ولكن هل ما يسمعه حقيقي؟ انتصاب قامته وحواسه التي انتبهت كلها دفعةً واحدةً تؤكد له أن ما سمعه حقيقي وهو يقول:

–أريد أن أعرف هذا التصور يا دكتور.

–في ظني أنه يقطن عند أحد الطرق الصوفية وعلى الأخص القادرية.

–الطرق الصوفية!

–نعم يا فارس؛ سأشرح لك كل شيء، ولكن لا أعرف لماذا لم أهتدِ لهذه الفكرة من قبل؟

–كنت على وشك أن أسألك نفس السؤال يا دكتور، لماذا تذكرت الآن؟

–ربما السن يا فارس، وأيضًا شغلني تفسير مدلولات الجرائم التي تحدثت عن أن أهتدي لهذه الفكرة.

هز فارس رأسه وتجاوز الأمر قائلًا:

–أنا لا أعرف أين مقر القادرية هذه يا دكتور في الإسكندرية.

–للطريقة القادرية فيلا في شارع متفرع من جمال عبد الناصر بفيكتوريا، والفيلا معروفة هناك.

–فيكتوريا؟

–نعم، أظنك سمعتني يا فارس.

–نعم سمعتك جيدًا.

–ولماذا اخترت هذا المكان بالذات يا دكتور؟

لم يجب الدكتور على الفور، فداخل فارس القلق مرةً أخرى، ولكن عودة صوت الدكتور قطعت عليه الاسترسال في قلقه هذا:

–لأني حضرت عندهم إحدى الحسينيات، وكانوا يسمونها حلقات ذِكر حتى لا تثير حفيظة المترددين، وكان ذلك قبل بعثتي إلى اليمن بشهور قليلة، وذهبت برفقة صديق لي كان سنيًّا وتشيع.

–ولماذا اصطحبك؟

–كان يأمل في أن أتشيع مثله.

– هل هذا يعني أنه لدينا أعداد كبيرة من المصريين المتشيعين؟

–أتذكر أني اطلعت على تقرير...

قطع الدكتور معاذ حديثه في محاولة للتذكر وهو يحوقل ويستغفر ثم هتف متذكرًا:

–نعم؛ تذكرت، كان تقريرًا من لجنة المتابعة بمجمع البحوث الإسلامية؛ يؤكد فيه وجود دعم إيراني قوي لأتباع الطرق

الصوفية في مصر في محاولة لنشر التشيع بينهم مستغلةً وجود تشابه بين التصوف والتشيع في أوجه كثيرة.

- فعلًا!

- المفاجآت لم تنتهِ بعد، فهناك أيضًا إحصائيات أمنية عن أعداد تحولات المصريين من السنة إلى الشيعة...

ضحك الدكتور معاذ ضحكةً قصيرةً، ثم استطرد:

- ماذا ستقول إذا عرفت أن هناك حوالي مليون شيعي متسترين وراء ٧٦ طريقة صوفية؟! في حين تشير التقديرات الأمريكية بأن عدد الشيعة المصريين بوجه عام وصل إلى حوالي ٧٥٠ ألفًا.

- لم أكن أتصور أن هناك شيعةً مصريين.

- ولذلك أقول إن الفضل في ذلك يعود بالأساس إلى الطرق الصوفية، فهي محل ثقة واعتبار من عامة المصريين، وقد يدهشك أيضًا أن تعرف أن التقارير الأمنية أشارت إلى قيام بعض قادة التصوف ومنهم شيخ الطريقة العزمية بزيارة إيران على فترات متقاربة، وتسخير تلك الطريقة الصوفية في الترويج للفكر الشيعي والعمل على حشد التأييد لسياسات إيران في المنطقة العربية.

– إنها محاولة لخلق فتنة طائفية جديدة في مصر!

– هذا ما تفعله إيران منذ سنوات طوال، وللأسف الأنظمة العربية الحاكمة تنام في العسل.

– وما نشهده اليوم من جرائم هو نتاج لهذه المحاولات حتى وإن كانت محدودةً، ولكنها بدأت تؤتي ثمارها.

– فارس...

بدا وكأن الدكتور على وشك التراجع عما سيقوله فاستحثه فارس بقوله:

– دكتور، هذا ليس وقت التردد، إذا كان هناك شيء ما يدور برأسك، أرجوك أطلعني عليه فورًا.

– أعتقد أنه من الأفضل أن تتفقد المكان بمفردك أولًا، لربما أكون مخطئًا ولا تجده هناك، وبالتالي لو أخبرت الشرطة سيسيئون معاملة من في المكان، وأنت تعلم ذلك جيدًا وهم في غالبيتهم أبرياء أو على الأقل ليسوا متورطين في هذه الدماء.

هز فارس رأسه فهتف به الدكتور:

– فارس، هل تسمعني؟

– نعم أسمعك يا دكتور.

- المهم، متى ستذهب؟

- أفكر في أن أذهب الآن، لو كان هناك؛ لا أريد أن أفوت فرصة إلقاء القبض عليه.

- وهل تتصور أنك قادر على أن تفعل ذلك بمفردك؟

- بالتأكيد لا، ولكن إذا تأكد لي أنه هناك سأبتعد عن المكان حتى لا أثير الريبة، وسأتصل فورًا بالعقيد.

- حسنًا، أين أنت الآن؟

- أنا في سموحة.

- جيد، إذن أمامك ما لا يقل عن ساعة مثلًا، ويمكنني فيها ببعض الإيجاز أن أخبرك عن نشأة الصوفية، وكيف بدأت؟

ابتسم فارس معقبًا على كلام الدكتور:

- إذن؛ فلأبتاع أي شيء لآكله لأني أتضور جوعًا.

- أحسدك على هذا، ليت عندي معدةً فتيةً مثلك؛ لكنت أكلت حتى التخمة.

ضحك فارس ضحكةً باهتةً تبخرت وهو يغادر السيارة يبحث عن أي مطعم، وصوت الدكتور ينقلب إلى الجدية قائلًا:

–الفكر الصوفي حصيلة مزج ثقافي بين حضارات وثقافات وديانات مختلفة.

–لماذا لم أعد استشعر أي غرابة أو مفاجأة فيما تقول.

–نعم لا تستغرب الأمر يا فارس، الاتصال البشري بين الجماعات الإنسانية المختلفة هو السبب الرئيسي في التزاوج الثقافي... إنها سنة بشرية كما تعلم، فهناك رأي يقول إن التصوف الاسلامي هو امتداد طبيعي لعقيدة وحدة الوجود العرفانية؛ التي انتشرت في الشرق الأوسط، وبالذات في العراق والشام ومصر منذ القرن الثالث قبل الميلاد.

فارس يتخيل مجموعةً من الرجال ممشوقي القوام، يتدثرون في عباءة سوداء اللون، ملثمين يجوبون صحراء العراق في ذلك القيظ، وعاصفة ترابية تلوح في الأفق.

–فبعد سقوط آخر دولة عراقية في القرن السادس قبل الميلاد على يد الفرس، واحتلال الشام ومصر من قبل الإغريق ثم الرومان بدأ يتغلغل في هذه البلدان تياران دينيان جديدان: التيار الديني الآسيوي المتضمن عقيدة وحدة الوجود وذلك عن طريق إيران، ثم التيار الفكري اليوناني عن طريق الإغريق أنفسهم ثم الرومان.

تتدافع إلى ذهن فارس صور عديدة تضيء كفلاشات سريعة للفلاسفة الإغريق ولقادة عسكريين رومانيين، وأيضًا لملك فارسي يضرب بصولجانه الذهبي الأرض بين قدميه، وجحافل جيوشه تقف منتصرة بين ركام مدينة عراقية؛ تتصاعد منها أعمدة الدخان وبعض الحرائق.

-لقد امتزج هذان التياران الجديدان مع ديانة عبادة الكواكب العراقية وديانة البعل الشامية وديانة خلود الآخرة المصرية؛ فكونت مزيجًا عقائديًّا جديدًا أصبح هو الرافد الرئيسي للصوفية فيما بعد.

صور أخرى تتداخل فيما بينها للمصريين القدماء وهم يقدمون القربان لآمون وأخرى لمجموعة من الرجال والنساء يسجدون للنجوم، وكاهن مسن يقف في منتصف دائرة يتحلق حولها الساجدون؛ يرفع يديه إلى السماء في تلك الليلة الصافية وقد تناثرت فيها النجوم كحبات متلألئة.

اعتلى فارس الرصيف متجهًا إلى مطعم صغير وهو يقول:

-حسنًا؛ وما علاقة هذه المقدمة التي تصف منابع الفكر الصوفي بالشيعة؟

جلجلت ضحكة الدكتور معاذ رغم الوهن البادي في صوته، ضحكة أسعدت فارس لأنه يرى صديقه بدأ يستعيد حيويته السابقة... تقدم فارس من (الكاشير) وقبل أن يباشر الدكتور الحديث قال فارس:

– انتظرني لثوانٍ يا دكتور، سأطلب شيئًا.

– خذ وقتك.

انتهى فارس من طلبه، وقال موجهًا حديثه للدكتور معاذ:

– أكمل يا دكتور.

– الشيعة لا تختلف كثيرًا عن هذا المزج الذي يُعَد المكون الرئيسي للفكر الصوفي، فهو أيضًا ينضوي على هذا المزج العقائدي نفسه من الحضارات القديمة، وكلاهما تصدير إيراني يا فارس، وأوجه التشابه بين الصوفية والتشيع كثيرة جدًّا.

– لو سمعتك عمائم إيران لأصدرت فتوى بهدر دمك الآن.

قهقه الدكتور مرةً أخرى وابتسامة تفرش نفسها على شفتي فارس وهو يتناول ما طلبه، وينصرف مسرعًا إلى سيارته، يسعل الدكتور ولكنه يبترها سريعًا وقد تدفق الحماس الشديد إلى صوته وهو يقول:

-الرأي التاريخي الراجح أن نشأة الصوفية الإسلامية انطلقت من خلال الشيعة على يد أبي هاشم الكوفي، والصوفية أول ما ظهرت كانت في الكوفة، ولماذا الكوفة تحديدًا...

أدار فارس محرك سيارته وهو يتناول قضمةً من أول سندوتش طالته يده، ثم يتحرك بالسيارة يصيغ السمع للدكتور معاذ الذي يقول:

-لأنها قريبة من بلاد فارس، تذكر ذلك جيدًا يا فارس.

هز فارس رأسه مبتسمًا وقد شغل مكبر الصوت وثبت الهاتف الجوال إلى حامل متصل بـ (تابلوه) السيارة مستمعًا بيقظة كاملة لحديث الدكتور.

-والتأثُّر بالفلسفة اليونانية بعد عصر الترجمة، ثم بسلوكيات رهبان أهل الكتاب، حيث إن التيارات العرفانية كانت سائدةً بين العراقيين قبل الإسلام، مثل (المندائية) و(المانوية) و(التنسك المسيحي).

على نهر الفرات يجلس رجل صوفي يدني كفه من الماء الجاري، ويأخذ منه شربةً ليبلل بها فمه وابتسامة واسعة تفرش نفسها على شفتيه، ثم ينظر إلى الشجرة الكائنة على ضفة النهر وقد لفت انتباهه صوت زقزقة العصافير، فانتصب واقفًا متكئًا على عصاه المقوسة.

-وأول هيكل تنظيمي للصوفية وضعه الإيراني محمد أحمد الميهي، ويمثل القرن السادس الهجري البداية الفعلية للطرق الصوفية وانتشارها، حيث انتقلت من إيران إلى المشرق الإسلامي، فظهرت الطريقة القادرية كما ظهرت الطريقة الرفاعية ثم الطريقة المولوية المنسوبة للشاعر الفارسي جلال الدين الرومي.

تناول فارس القضمة الأخيرة وهو ينظر في المرآة الجانبية لينتقل من حارته إلى أخرى، ثم قال بعد أن ابتلع ريقه:

-ما تقوله خطير جدًّا يا دكتور، فما فهمته حتى الآن أن الطرق الصوفية في مجملها هي ابتداع شيعي إيراني بالأخص، بالإضافة إلى أنها تحصل على تمويل إيراني في الوقت الحالي.

-نحن نتحدث عن تاريخ يا فارس وحقائق حالية محل شك، لا تستطيع القطع باليقين فيها، فالتاريخ في مجمله ظني من وجهة نظري، وما أقوله لك قد يأتي آخر وينفيه ويعتبره مزاعم وشبهات تُثَار حول الصوفية خاصةً إذا كان منتميًا إليها.

- هذا صحيح؛ التاريخ أيضًا يتم تأويله وإعادة إنتاجه وفق منظور وأهداف كل فريق.

–بالطبع؛ ونحن نحاول الاستفادة من هذه المرويات سواء كانت موثوقة المصادر، أم لا؛ لعلها قد تكون خيطًا يقودنا إلى مكان هذا التنظيم.

–معك حق يا دكتور.

دار فارس مع الميدان ثم فرمل فجأةً متفاديًا سيارةً قطعت عليه الطريق، وأكمل سيره بهدوء، وقد شغله حديث الدكتور معاذ عن الشعور بالغضب الذي يعتريه عادةً عندما يحدث هذا الأمر.

–ما يؤكد وجهة نظري أن الصوفية في أصل نشأتها فارسية، وضع بين قوسين شيعية لأن أبرز الرموز الصوفية كانت من أصول فارسية مثل الحلاج والبسطامي والسهروردي والغزالي وغيرهم الكثير؛ ممن اعْتُبِروا مرجعًا ورمزًا لجميع المتصوفة حتى يومنا هذا، وكثير من كتب هؤلاء القدامى هي التي تسير عليها الطرق الصوفية اليوم.

كان فارس يعبث بمحتويات (الكيس) الذي يحوي السندوتشات ليلتقط منه آخر سندوتش يأكله على مهل وهو يستعيد سريعًا ما قاله الدكتور وقد تسرب الصمت بينهما لعدة ثوان...

قاطعه الدكتور مازحًا:

– هل نمت يا فارس؟ أم ماذا؟

هز فارس رأسه نافيًا وهو يرد:

-كلا يا دكتور، كل ما في الأمر أني أفكر فيما تقوله.

تنهد الدكتور وهو يقول:

-الحقيقة يا فارس؛ إن لم يسعفك الحظ ولم تجد السفاح في هذا المكان، فهناك احتمالات كثيرة أصبحت مفتوحةً لأماكن تواجد السفاح، ولكنها تبدو مثل البحث عن إبرة في كومة قش.

توقفت السيارة في إشارة مرور وفارس ينفض يديه عن بقايا السندوتش العالقة بكفيه قائلًا:

-أخبرني بها يا دكتور، أي معلومة وإن بدت أنها تقود لطريق مسدود لا بأس بها في ظل أننا نجهل أي شيء عن هذا التنظيم.

-بمناسبة هذا التنظيم الشيعي هو ليس الحالة الأولى في مصر.

أمارات الدهشة تعلو وجه فارس وهو يتحرك بالسيارة مرةً أخرى قائلًا:

- هل كانت هناك تنظيمات شيعية أخرى في مصر؟

-نعم.

- يبدو أن مشاعري تبلدت، ولم أعد أشعر بمزيد من الدهشة، فما تلقيه على مسامعي الآن وسابقًا مرورًا بكل هذه الجرائم لم يعد هناك شيء مدهش أو مستنكر.

- إذن؛ دعني أزيدك عن هذا الأمر.

ضحك فارس معقبًا:

- كلي آذان صاغية.

- منذ فترة ليست بالطويلة ألقت قوات الأمن القبض على تنظيم شيعي تشكل في محافظة الشرقية، وبالقبض على هذا التنظيم تبين أن هناك شيعةً مصريين يتمركزون في منطقة تُسَمى كفر الإشارة بالقرب من الزقازيق، حتى أن وسائل الإعلام المصرية أطلقت على هذه المنطقة وكر الشيعة...

وأيضًا هناك شخص يُدْعَى أحمد راسم نفيس وهو أستاذ مساعد بكلية طب جامعة المنصورة، اعْتُقِل في عامي ١٩٨٩ و١٩٩٦ بتهمة تشكيل تنظيم شيعي، بصرف النظر إذا كانت التهمة ملفقةً أو حقيقيةً...

وهذه كلها مؤشرات على أن التنظيم الحالي هو إعادة لمحاولات سابقة مع الاستفادة من التجارب السابقة، وتطوير أداء وفكر التنظيم كلما تم تفعيله حتى وصل إلى ما هو عليه اليوم.

عقب فارس بسخرية:

- أخشى أن تقول لي أن لهم انتشارًا في أماكن أخرى بمصر.

رد عليه الدكتور بنفس رنة السخرية:

- ألم أقل لك، إن لدي الكثير من المفاجآت اليوم.

- يبدو أنك ما زالت قادرًا على إبهاري بعد كل ما مررت به، إذن هل هم بالفعل متواجدون في مناطق أخرى؟

- بالطبع؛ متواجدون أيضًا بمحافظة المنوفية بمركز قويسنا وأيضًا يتواجدون بأعداد قليلة في محافظات أسيوط وسوهاج وشمال وجنوب سيناء، فضلًا عن بعض أحياء القاهرة.

- إذن؛ فرضية أن هناك مصريين متشيعين متوغلين في مختلف مؤسسات وأجهزة الدولة هي فرضية قائمة ومحتملة جدًّا.

- مع أنه لا يجوز الجزم بأمر كهذا إلا أن يكون مقترنًا بأدلة، ولكن أستطيع أن أقول مطمئنًا هذا أمر لا شك فيه.

هز فارس رأسه وهو يتمتم بصوت خافت مما دعا الدكتور للتساؤل:

- هل تقول لي شيئًا يا فارس؟

- كلا يا دكتور؛ ولكني أحاول أن أهضم كل ما قلته اليوم.

– هل ستذهب بالفعل إلى تلك الفيلا؟

–لقد اقتربت يا دكتور من المكان، أنا الآن في جليم.

–فلتحذر يا فارس. أخشى أن يصيبك مكروه.

–لا تقلق فأنا كالقط بسبعة أرواح.

–أتمنى ذلك فعلًا.

–سأتركك الآن يا دكتور لاستعد.

–لا بأس؛ ولكن فور أن تبتعد عن المكان أرجو أن تهاتفني، فلتعلم أنني لن أنام الليلة على الرغم من ثقل جفني حتى تهاتفني وتطمئنني عليك.

اصطنع فارس ابتسامةً مرهقةً وهو يجيب:

–سأفعل يا دكتور، سأفعل.

–حسنًا، مع السلامة يا فارس.

–مع السلامة يا دكتور.

أنهى فارس المكالمة وقد تجاوز شارع الجلاء وظل يبحث بعينيه عن مكان يوقف فيه سيارته.

* * *

(١٠)

غادر فارس سيارته متجهًا إلى شارع جمال عبد الناصر، ولكنه توقف بعد عدة خطوات ينظر حوله، داهمه شعور قوي بأن هناك من يراقبه ويتبعه، هو لا يستطيع أن يصطاده وسط كل هؤلاء المارة، ولكنه يشعر بوجوده حوله، يبدو أن العقيد أرسل في أثره من يقصه، هل من الممكن أن يفسد هذا المتقصي مهمته؟ تسمر مكانه لا يعرف ماذا يصنع...

اتجه نحو أحد المارة يستوقفه ليسأله عن فيلا الطريقة القادرية، نظر له المار باستغراب ثم هز رأسه نفيًا فشكره فارس، ومشى ببطء في شارع جمال عبد الناصر ليوقف مارًّا آخر يسأله، فغرقت ملامح الآخر في التفكير ومحاولة تذكر المكان حتى قال:

– هل ترى ذلك الشارع الجانبي إلى يمينك؟

حاول فارس أن يتتبع سبابة الرجل اليمنى، ولكنه لم يفلح في تَبَيُّن الشارع فأعاد النظر مرةً أخرى إلى الرجل وعيناه تحملان التساؤل، فأعاد الرجل الإشارة بسبابته إلى المكان:

–في هذا الشارع الضيق يا أستاذ ستجد سورًا على يمينك وفور أن تدخل الشارع وعلى ذلك السور يافطة خضراء مكتوب عليها الطريقة القادرية.

شكره فارس ومضى بخطوات بطيئة حتى جاور مقهى. وأتت رأسه فكرة لحظية؛ قرر أن ينفذها وقد لفت نظره المقهى المكتظ بالجالسين، فدخل إليه مسرعًا يسأل العامل عن الحمام فأشار إليه، فاتجه إلى ذلك الركن الصغير بجوار الركن الذي يصنع فيه الشاي والقهوة يتصنع أنه يقضي حاجته...

أدار رأسه للشارع يتطلع للمارة، لا يعرف لماذا اتجه نظره لشخص ما يقف بجوار سيارة مصفوفة أمام المقهى يدخن سيجارته، وينشغل بمتابعة السيارات التي تمضي بسرعة أمامه.

عليه أن يضع فرضيته موضع الاختبار، حدسه يخبره بأنه الشخص الذي يبحث عنه، إذن لا بأس من المحاولة. غادر فارس هذا الركن متجهًا إلى العامل المقبل نحوه يحمل صينية عليها عددًا من الأكواب ليوقفه فارس قائلًا:

-أريدك أن تطلب من ذلك الرجل الذي يقف بجوار تلك السيارة يدخن سيجارته أن يجلس، وأخبره أن فارس سيأتي إليه حالًا.

نظر له العامل مستريبًا يتفحص ملامحه دون أن ينظر إلى حيث يشير فارس بسبابته، أدار العامل رأسه للخلف ببطء ينظر إلى حيث يشير فارس، وترك فارس متجهًا إلى الركن الذي يصنع فيه الشاي والقهوة ليتحدث إلى الواقف ببضعة كلمات، في حين فارس راح يعض

أسنانه في توتر، وهو يتابع ذلك الرجل الذي حانت منه التفاتة للخلف لتلتقي عيناه بعيني فارس، ثم حول نظره عنه، لا يعلم فارس هل يتصنع ذلك الشخص أنه يبحث عن شخص آخر حتى لا يثير ريبته أم أن الأمر هكذا بالفعل.

عاد العامل إلى فارس ينظر إليه بنفس الريبة، فتوترت ملامح فارس، ولكن لانت ملامح الرجل وهو يغمز لفارس بعينه اليمنى قائلًا:

– أمرك يا باشا.

ذهب العامل إلى الرجل يحدثه ليعقد الرجل حاجبيه في دهشة ثم تحين منه التفاتةٌ لا إرادية لفارس الذي رفع له يده بالتحية في سخرية، فتحولت ملامح الرجل إلى الغضب ملقيًا السيجارة أرضًا ودون أن يُلقي بالًا للعامل استدار مغادرًا المكان والعامل رفع عقيرته بسخرية:

– أتمنى أن تعود مرةً أخرى للمكان يا باشا.

ابتسم العامل وهو يقبل على فارس الذي دس يده في جيبه ومد يده مناولًا العامل عشرة جنيهات فرد العامل يده وقد رسم على ملامحه غضبًا مصطنعًا:

– عيب يا باشا، نحن أولاد بلد ونفهم في الأصول، هل هو مرشد؟

– يبدو أنه كذلك.

عقد العامل حاجبيه بشكل مفتعل وهو يسأل فارس بنبرة صوت استجوابية:

– هل ارتكبت جريمةً أو ما شابه؟

– صدقني ليس الأمر كذلك.

ربت فارس على كتف الرجل شاكرًا، غادر المكان يسرع الخطى نحو الشارع الذي تبين ملامحه بصعوبة، كان الشارع شبه خالٍ من المارة، شاهد فارس ذلك السور على بعد عدة أمتار، أسرع الخطى أكثر وضربات قلبه تزداد سرعةً مع توتر خفيف.

قرأ اليافطة الخضراء المكتوب عليها الطريقة القادرية، تناهى أيضًا إلى مسامعه صوت إنشاد جماعي خافت، تبين منه كلمة "حيدر".

أدار فارس رأسه يمينًا ويسارًا في المكان، ثم ثبت نظره على سور الفيلا، هل من الممكن أن يتسلقه؟ حاول فارس أن يثب وأصابعه تيأس في التشبث بحافة السور، فكاد يفقد توازنه وقدماه تُلامِسان أرضَ الرصيف مرةً أخرى.

نظر خلفه ليجد رجلًا عجوزًا ينظر له بدهشة، شعر فارس بتوتر بالغ حتى قال العجوز ساخرًا وهو يشير إلى باب الفيلا:

- يمكنك أن تطرق الباب.

ابتلع فارس ريقه وقد تلاعب التوتر بملامح وجهه، ضيق العجوز حدقتيه قائلًا:

- لا يبدو عليك أنك لص.

حبات من العرق البارد انسابت في خطوط طولية على ظهره الآن، لم يرد عليه فارس، ابتسم العجوز قائلًا:

- يبدو أنك صحفي، فلست الأول الذي حاول أن يتسلق السور ليقوم بعمل تحقيق صحفي ما.

حاول فارس الابتسام وهو يقول مرتبكًا:

- هو بالضبط كذلك.

تغيرت ابتسامة العجوز لأخرى خبيثة، رفع سبابته قائلًا:

- انتظرني لحظةً.

مضى الرجل إلى سيارة مصفوفة يلتقط من ورائها شيئًا ما، دار من حول السيارة وأمسك مقعدًا خشبيًّا، واقترب قائلًا بِخُبث:

- كم ستدفع؟

دَسَّ فارس يده في جيبه يخرج عشرة جنيهات، ظهر الامتعاض على وجه الرجل وهو يزوم بشفتيه، فدس فارس يده في جيبه مرةً أخرى ليخرج عشرين جنيهًا لتتجلى ابتسامة واسعة على شفتي العجوز قائلًا:

-ثلاثون جنيهًا مبلغ مناسب.

دسهم فارس في يد الرجل متناولًا منه المقعد وهو يقول:

-راقب لي الشارع.

قال العجوز وهو يلوح بيده اليمنى باستهزاء:

-لا تقلق، هذا شارع أشباح، قلما ظهر فيه أحد.

وقف فارس فوق المقعد ومد يديه يتعلق بحافة السور وحاول أن يرفع جسده لأعلى ولكن شعر بتيبس في عضلاته يعوقه عن أن يرفع جسده بشكل سريعٍ، هتف به العجوز بضجر:

-يا لا خَيبَتِك، عندما كنت في سنك كنت أرفع البرميل الحديدي فوق كتفي بيدٍ واحدة فقط، أي شباب هذا؟!

ظهر الغضب على ملامح فارس وحاول رفع جسده مرةً أخرى وقد احتقن وجهه بشدة وبرزت عروق عنقه.

استطاع أن يرفع نصفه العلوي إلى حافة السور، سمع العجوز يهتف بتوتر:

–أسرع هناك مار مقبل، سيُفْتَضح أمرنا.

استنكر فارس قول الرجل الذي اعتبر نفسه شريكًا فعليًّا، بذل فارس مجهودًا مضاعفًا وهو يرفع باقي جسده لينزلق من على السور ويسقط في دوي مكتوم على الأرض الداخلية للفيلا، قلب العجوز كفيه في الهواء مستهزئًا وهو يمصمص شفتيه، واتجه للمقعد يرفعه، قائلًا:

–فليكن الله معك.

نهض فارس وهو يكتم آهة ألم كادت أن تفلت منه، وشعر بآلام شديدة في ساقه اليمنى، لم يستطع أن يتكئ عليها فأخذ يعرج متجهًا إلى الشرفة الخارجية للفيلا المفتوحة على الأرض الداخلية وقد حجبت ستائر خضراء ما يدور خلف هذه النوافذ الطولية، أصبح يسمع بشكل جلي ذلك الإنشاد الجماعي، فاقترب بحذر من إحدى النوافذ في محاولة أن يسترق السمع أكثر.

إن أعطيناك الكوثر... حيدر... حيدر... حيدر... حيدر...

إن أعطيناك الكوثر... حيدر... حيدر... حيدر... حيدر...

يَدٌ تمتد لتزيح ستار هذه النافذة، فيقفز فارس مفزوعًا إلى جانب النافذة يسند ظهره إلى الحائط، ليعلو الصوت الجماعي المنشد أكثر:

فصلي لربك وانحر... حيدر... حيدر... حيدر... حيدر...

إن شانئك هو الأبتر... حيدر... حيدر... حيدر... حيدر...

راح صدره يعلو ويهبط بسرعة، وحاول أن يمد رأسه ليشاهد عددًا من الرجال يقفون في الساحة المفتوحة في الطابق الأرضي في صفوف عرضية يضربون بأكفهم اليمنى صدورهم وهم يرددون وراء المنشد اسم حيدر.

في حين المنشد يتشبث بالميكرفون ينشد بانفعال شديد:

الله... الله أكبر...

فتردد الصفوف بالتزامن مع ضرب الصدور:

حيدر... حيدر... حيدر... حيدر...

فيعود المنشد ليهتف بحماسة شديدة:

هذا الصافي لن يتكرر... حيدر... حيدر... حيدر... حيدر...

لمَحَهُ فارس بين الصفوف بقامته الطويلة، يضرب بكفه الأيمن صدره وهو يردد مع الصفوف كلمة "حيدر"، كان وجهه متجهمًا وهو يردد وراء المنشد كلمات الأغنية في خفوت:

ونعلنها الصرخة بكل منبر... حيدر... حيدر... حيدر... حيدر...

تزداد حماسته مع ترديد كلمة "حيدر" وقد تصبب العرق على وجهه غزيرًا، فيغمض عينيه في نشوة بالغة في الوقت الذي يسمع فيه فارس دقات قلبه تتسارع وتصم أذنه.

وأنت السر اللي ما يتفسر... حيدر... حيدر... حيدر... حيدر...

يتوقف عن ضرب صدره ويفتح عينيه، تجمد للحظة منفصلًا عن الجمع، يحني رأسه لأسفل ويتطلع إلى شيء ما، لا يعرف لماذا شعر فارس للوهلة بتوقف ضربات قلبه من فرط الرعب والسفاح حدقتاه تتسعان وهو ينظر إلى ما بين يديه.

عاد فارس ليلتصق بالحائط مرةً أخرى، وشعر بأنه ارتكب حماقةً كبيرةً باقتحامه للفيلا على هذا النحو، فكان من المفروض أن يخبر العقيد... ولكن مهلًا، هو لم يعد يثق في أحد، والكل لديه الآن محل شك وريبة...

عاد ليمد رأسه مرةً أخرى ليتابع السفاح، واتسعت عيناه في فزع، فهو لا يراه، اللعنة، بحث عنه بين الصفوف فلم يجد له أثرًا.

– هل تبحث عني؟

على الرغم من هدوء الصوت الآتي من خلفه إلا أن فارس انتفض فزعًا وهو يقفز من مكانه ليلتصق بالحائط من خلفه، يرقب بعينين جاحظتين فزعتين...

السفاح ماثل أمامه وعلى وجهه ابتسامة هادئة، لفتت نظره بشرته البيضاء وعيناه الملونتان، قامته الفارعة وكتفاه العريضان، كم هو قوي البنيان؟ يستطيع أن يسحق فارس في ثانية واحدة بقبضة يده، تلك اليدان المضمومتان في تحفز على الرغم من هدوء ملامحه.

انتفض فارس مرةً أخرى، ويد تمتد لتعيد الستار الأخضر ليواري المشهد عن فارس.

نظر السفاح إلى السماء والابتسامة لا تزال مرسومةً على شفتيه الدقيقتين، ثم قال بنشوة بالغة:

– هل تعلم من هو حيدر؟

هز فارس رأسه نافيًا، وحاول أن ينطق ولكن لم تتجاوز الكلمات شفتيه، وشعر أن هناك يد تخنقه من شدة الخوف.

– أحد الألقاب التي كان يطلقها رسول الله على الإمام علي.

صوت المنشدين يخفت تدريجيًّا حتى تلاشى ليعم صمت مخيف المكان، وبدا على السفاح أنه مشغول بعد النجوم في السماء وهو يتمتم بصوت غير مسموع، وقد عقد يديه خلف ظهره.

- إن أعطيناك الكوثر.

على الرغم من الخوف الذي كبل حركة فارس إلا أنه رد ساخرًا:

- هل تحرفون القرآن وتتغنون به؟

لم يغضب السفاح بل أعاد النظر إلى فارس بعينين فيهما لمعة مخيفة ورد بهدوء:

- آه، هذه من جملة الأكاذيب التي يرويها النواصب عنا.

- وما هي الحقيقة؟

- الكوثر هي السيدة فاطمة الزهراء عليها السلام.

حاول فارس أن ينفض الخوف عنه، فلم يفلح في صرف كامل خوفه، ولكنه دفع إلى عروقه قليلًا من الشجاعة ليبتعد عن الحائط قائلًا في صوت حاول ألا يجعله مهزوزًا:

- والذي أعطي الكوثر هو الإمام علي.

- بالضبط.

- إذن؛ ليس كما نعتقد أنها للرسول.

هز السفاح رأسه نافيًا كأنه يعي جهل الآخرين ويعذرهم فيه ثم يقول:

-لقد كان الكفار يعيبون على الرسول صلوات الله عليه أنه بلا ولد وأن ذريته من البنات فقط فسمى الله السيدة فاطمة الكوثر الذي يهدي به الله رسوله ووصينا أمير المؤمنين علي بن أبي طالب عليه السلام.

-الكفار بمعنى الكفار أم تقصد بهم أهل السنة.

أشار فارس إلى صدره قائلًا:

-بمعنى نحن.

-وهل هناك فرق بين الكفار والنواصب؟ فأنتم مسلمو معاوية.

-مسلمو معاوية!

-على دين هذا الناصبي الذي حرف دين الله هو والخلفاء...

ندت عنه ضحكة استهزاء مبتورة وهو يكمل:

-الراشدون الذين خالفوا وصية الرسول في أن يكون الإمام هو الخليفة من بعده وناصبوه العداء.

-ولذلك نحن النواصب؟!

-تمامًا كما تقولون عنا أننا الروافض.

ساد الصمت قليلًا، فارس بدأ يمارس دوره كطبيب، وحاول أن يحلل ملامح السفاح ونبرة صوته ولغة جسده؛ أراد أن يعرف تحديدًا هل هو

في حالة هدوء فعلية؟ أم هي مرحلة سكون ما قبل العاصفة، بادره فارس قائلًا:

– هل وصلتك رسالة تخبرك بقدومي إليك؟

– يعجبني ذكاؤك.

– إذن؛ تخميني صحيح.

تجاهل السفاح الرد عليه قائلًا:

– عامةً؛ كنت أنتظر قدومك هذا.

رفع فارس حاجبيه وهو يقول مستنكرًا:

– حقًّا، ولماذا؟

تقدم منه السفاح فتراجع فارس في خوف ليلتصق بالجدار مرةً أخرى، فتوقف السفاح مكانه يقول:

– لا تخف، فأنا مأمور بعدم أذيتك.

– حقًّا، ومن أمرك؟

– سماحته.

هم فارس بالرد عليه ولكن السفاح قطع عليه الطريق، وقال في ضيق تخلل صوته الهادئ:

–فسماحته يرى فيك إشارات للخير، ولا أعرف كيف ذلك؟ فإني أراك ناصبيًّا نجسًا، ولكنه وحده يعلم تأويل الإشارات الخفية وما عميت عنه أبصارنا.

–إلى هذه الدرجة تثق فيه؟

تبدلت ملامح السفاح إلى السخرية والاستهزاء وهو يرد:

–أعلم محاولاتك المبتذلة كطبيب نفسي لاستدراجي ولن أتورط فيها، فلقد حذرني سماحته من قدرتك على التلاعب بالآخرين.

–يبدو أنه يعرفني جيدًا.

–ألم أقل لك أنه يرى فيك إشارات للخير، حتى الآن لا أرى منها واحدةً.

تبدلت ملامحه مرةً أخرى بشكل غريب للجدية وقد انطوى صوته على نبرة وعيد:

–سأدعك تذهب الآن في أمان، ولكن ترقب مني مكالمةً هامةً عما قريب، مكالمة ستقلب كل شيء لديك رأسًا على عقب.

–وما الذي يجعلك تظن أني هنا وحيدًا؟

ضحك السفاح ثم قال:

–فقط لأني أعرف ذلك جيدًا.

تصارعت الأفكار في عقل فارس وكلمة واحدة تبرز كل حين بين كل هذه الأفكار المتصارعة، "الواشي"، من هو ذلك الواشي الذي أكد له أنه أتى للمكان بمفرده؟ بل وأخبره أيضًا عن قدومه في هذا التوقيت.

اسم العقيد يبرز في أفق مخيلته، كذلك اسم أيمن. مر اسم أيمن أمامه سريعًا، وجمده فارس ليتوهج بشدة أمام ناظريه. أو ذلك المرشد، يبدو أنه مأمور بمتابعة الموقف من بعيد، ربما فشلت خطة فارس في الإفلات منه، إن لم تأت سيارات الشرطة لتحاصر المكان فهذا يعني أحد أمرين إما أن العقيد متورط في الأمر أو أيمن.

راق له أن العقيد في هذا الظرف تحديدًا هو الأكثر ترجيحًا لديه، فبعد تهديده ووعيده له أرسل في أعقابه من يتقصى خبره، وقد كشف فارس أمره، ومعرفة السفاح بقدومه خير دليل على أن المرشد استطاع أن يتقصاه مرةً أخرى بعد محاولة فارس التي يبدو أنها فشلت.

مرةً أخرى، تقفز إلى رأسه تلك الفكرة

إن لم تأت سيارات الشرطة الآن فهذا يعني تورط العقيد في الأمر، قد يبدو أيمن إلى حد ما مستبعدًا في الوقت الراهن، إذن عليه أن يعمل على إطالة الحديث بينه وبين السفاح حتى يختبر مصداقية هذه الفرضية من عدمها خلال الدقائق القادمة.

كل هذا دار بعقله في جزء من الثانية، نعم؛ كم غريبة هي قدرات العقل البشري التي تستطيع تفعيل عشرات الأفكار في تسلسل منطقي وسريع جدًّا، وينجح العقل البشري في ملاحقة كل ذلك واستيعابه في جزء من الثانية، عجب فارس من قدرات العقل المدهشة هذه، والتي تتجلى في لحظات فارقة وكم هي قليلة ونادرة.

– لماذا تشيعت؟

– ألم أقل لك أن أساليبك هذه لن تؤتي ثمارها؟

– أريد أن أعرف حقًّا لمجرد إشباع فضولي.

تجاهل السفاح مماطلة فارس وهو يتقدم منه، والذي تحفز بشكل لا إرادي وملامحه انكمشت في خوف وتحد، فلم يعبأ به السفاح وأمسك ذراعه اليسرى بقوة ودفعه أمامه، ولم يقاومه خشية أن يصيبه أذى بالغ من السفاح الذي دفعه بصمت باتجاه الباب، ثم أفلت السفاح ذراع فارس وهو يزيح مزلاج الباب جانبًا قائلًا:

– العامل الذي ساعدك على التخلص من المرشد هو أحد رجالنا الأوفياء.

أخفى فارس دهشته ولكن السفاح استطاع استقراء ذلك من عيني فارس التي اتسعتا لأقل من الثانية وهو يقول:

-لا تندهش، فنحن أكثر مما تتخيل، وبالمناسبة إن لم تقدم أنت على التخلص من المرشد، هذا العامل يعرف تحديدًا ما عليه فعله ليضلل المرشد.

قفزت إلى فارس صورة الرجل العجوز وهو يتقدم نحوه بالمقعد الخشبي، فترجم ذلك إلى صوت مسموع:

-وذلك العجوز...

بتر عبارته والسفاح يهز رأسه قائلًا:

-كان ينتظر وصولك إلى الشارع ليتم دوره.

-يبدو أن الواشي أحد اثنين إما العقيد أو النقيب.

هز السفاح كتفيه قائلًا:

-ربما!

دفعه السفاح خارج المكان برفق وهو يضيف:

-ستعرف عما قريب جدًّا الواشي وأيضًا ستعرف عني في الوقت نفسه الكثير من المعلومات، ولكن كل ذلك لن يكون له فائدة في إعاقتي عن مهامي الإلهية.

-لهذه الدرجة تثق في قدراتك؟

أشار السفاح إلى السماء وعيناه ترتفعان إليها قائلًا بثقة بالغة:

– أثق في تدبيره سبحانه وتعالى، كل شيء مخطط له أن يحدث كما ينبغي، تمكرون ويمكر الله والله خير الماكرين، والآن اذهب.

ابتلع فارس ريقه وهو يبتعد خطوات معدودة للخلف دون أن يولي ظهره للسفاح، لا يأمن أن يعطي ظهره للسفاح، فكاد يسقط وهو يهبط عن الرصيف، فضحك السفاح في صمت، وهم فارس بأن يبتعد، ولكن السفاح استوقفه قائلًا بجدية:

– لا حاجة لك بأن تخبر أيًا من الاثنين بمكاني، لأنني لن أكون موجودًا فيه.

أشار إلى الداخل بذراعه اليسرى مضيفًا:

– فمن بالداخل لا يعرفون عما أصنع شيئًا وسيصيبهم أذى بالغ إذا تعرضت لهم الشرطة وأنت تعلم ذلك جيدًا.

– سترحل لتنفذ المزيد من جرائمك البشعة.

لم يبد على السفاح أي تأثر أو انفعال بل رد في هدوء:

– بل الثأر لآل البيت صلوات الله عليهم من قتلتهم.

استدار فارس وسار بخطوات عرجاء، لا يقوى أن يتكئ على ساقه اليمنى من شدة الألم، وانسحب السفاح للداخل يغلق الباب بالمزلاج مرةً أخرى... توقف فارس عن المشي وهو يلمح العجوز يجلس على

ناصية الطريق، فنهض العجوز لدى رؤيته وابتسم له في خبث ممتزجًا بالسخرية.

أكمل فارس سيره نحوه، وتوقف أمامه قائلًا بجدية:

–حاول أن تغادر هذا المكان بأسرع ما يمكنك، أنا لا أهددك ولكن الأمر خطير بالفعل.

وجَمَت ملامح العجوز بعد ابتسامة واسعة افترشها على وجهه وتحولت تدريجيًّا للغضب، تجاوزه فارس وهو يعرج حتى جاور المقهى يتطلع إلى العامل الذي كان يضع صينيةً فضيةً أمام أحد الزبائن، واعتدل العامل ليقول بصوت عال مملوء بالسخرية:

–ألف سلامة عليك يا أستاذ.

هز فارس رأسه في أسَف، وأولاهُ ظهره مشيرًا لسيارة أجرة توقفت بالقرب منه، دار فارس حول السيارة وفتح الباب واتخذ مقعده والسائق ينظر له مستنكرًا، قال فارس وهو يجز على أسنانه من الألم:

–سأدفع لك ما تريد.

ارتسمت السعادة على وجه السائق وهو ينطلق مرةً أخرى، ليسترعي انتباه فارس بالقرب من مزلقان الجلاء، المرشد يقف حائرًا، ابتسم فارس وهو يهز رأسه مرةً أخرى، فبادره السائق قائلًا:

- أريد أن أضحك، ما الذي يضحكك؟

نظر نحوه فارس وضحك مكتوم يسيطر عليه ويهز جسده فينتشي السائق قائلًا:

- آه، يبدو أن مزاجك عالي، أخبرني عن هذا الصنف الذي تتعاطاه لعلي أنتشي مثلك.

توقف فارس عن الضحك وهو يطلق تنهيدةً حارةً، ونظر إلى يساره، وأغمض عينيه في إرهاق... كان يريد أن ينام، كان يتوق لأن يغرق الكون من حوله في حالة صمت مطبق. كم يتوق إلى هذه الحالة الشعورية الآن!

ولكن طيف السفاح مر أمام الشاشة المظلمة أمامه ليعكر تلك الحالة الشعورية التي حاول الاستغراق فيها.

* * *

(١١)

- كيف حالك يا فارس؟

لم ترق لفارس رنة السخرية البادية في صوت العقيد، وتحاشى النظر إليه والعقيد يضيف بنفس النبرة الساخرة:

- لم أكن أحسب أنك بهذه البراعة في تضليل مرشدي.

بادله فارس السخرية:

-يبدو أنه مبتدئ.

هز العقيد رأسه موافقًا وهو يقول:

-معك حق، ولقد نال جزاءه.

-صدقني، أنت تبحث في الطريق الخطأ، وتضيع وقتًا ثمينًا يجب استثماره من أجل إلقاء القبض على السفاح.

-بمناسبة السفاح يا فارس، هل أنا فعلًا من أضيع وقتًا ثمينًا لإلقاء القبض عليه؟

لم يعرف فارس تحديدًا أين يوجه شكوكه، هل هو العقيد بالفعل؟ أم عليه أن يصب شكوكه على أيمن، الأمر الآن لديه يتخطى فكرة أن التنظيم يتلاعب بثلاثتهم ليوقع بينهم، كل ما حدث يبين بما لا يدع مجالًا للشك أن هناك واش، هناك من يعمل من داخل هذا الجهاز لصالح ذلك التنظيم.

هل يجب أن يبقي العقيد محل شك لديه؟ ولكن المرشد الذي أرسله لتقصيه تبين أنه فشل في المهمة، إذن هل يعني هذا أن العقيد من الممكن أن يكون خارج إطار الشك؟! هل يجب أن ينصرف نظره لأيمن بالكلية؟ لم يبق سواه، من المنطقي جدًّا أنه...

إنها بالفعل كذلك، كيف لم يخطر هذا الأمر بباله من قبل؟ لا بد أنه كذلك.

- هل تحاول اختلاق كذبة مستخدمًا فيها ألاعيبك النفسية؟

(ألاعيبك النفسية)! هذه الكلمة تذكره بما قاله السفاح أمس، تشابهت العبارات، نظر إليه فارس مليًّا في حين شغل العقيد نفسه بإشعال سيجارة أخرى، هل يجب أن يعيد الشك فيه مرةً أخرى؟

يجب أن يكبح هذه الفوضوية في التفكير، ولا يجب أن ينساق وراء تلك التداعيات غير المنطقية، وعليه أن يوقف نزيف الأفكار هذا لتتجلى أمامه الصورة بشكل أوضح.

- لا أحاول اختلاق أي كذبة، وستعرف ذلك عندما تتيقن أنك تصب شكك في الاتجاه الخاطئ.

رفع العقيد حاجبيه وخفضهما مبديًا تأثرًا ساخرًا، لم يأبه له فارس بل تجاهله مدعيًا الانشغال بهاتفه الجوال.

- إلى من تتحدث الآن؟ أخبرني.

أطلق فارس نفخة ضيق وهو يناوله الهاتف، رفع العقيد يديه قائلًا:

- لا حاجة لي بتفحصه، فأنت بارع في التضليل.

–إن كنت متهمًا، فقم بما عليك حتى تطمئن إلى أنك أديت مهمتك على أكمل وجه وأن الواشي وقع في يديك وبذلك تفخر أمام رؤسائك بإنجاز مهمة لم تكتمل، ولكني لن أكون مبررًا كافيًا ليوقفوا صب غضبهم وسخطهم عليك.

لم يبد العقيد أي انفعال ولكن ظللت شفتيه ابتسامة خبيثة وهو يدور السيجارة بين أصابعه، ولم يشغل نفسه حتى بالرد على فارس، لماذا تبدو تصرفاته متشابهةً إلى حد كبير مع السفاح؟

الفرضية التي مرقت برأسه منذ ثوان ولم يفكر فيها من قبل: ذلك المرشد أيضًا يعمل في نفس الوقت لصالح أيمن، لربما أخبره بأني توجهت أمس إلى فيكتوريا ولو كان هو الطرف الواشي بقليل من الذكاء سيعرف بالتحديد إلى أين هي وجهتي؟

فكرة تبدو منطقيةً ومعقولةً جدًّا، قطع الطريق أمام استرساله هذا طرقٌ مؤدب على الباب، رفع العقيد عينين غير مباليتين للباب يقول:

– ادخل.

دخل أيمن والحماس يعلو وجهه، وهو يمسك في يده ملفًّا مكتظًّا يلوح به أمام العقيد وابتسامة واسعة ترسم نفسها على شفتيه ليقول:

–لقد جئتك بأخبار مبشرة للغاية يا باشا.

لم يبد أي تأثير على العقيد وهو يقول ساخرًا:

– حقًّا!

لم يُعِر أيمن اهتمامًا لنبرة السخرية البادية في صوت العقيد واتخذ مجلسه في مقابل فارس يحييه برأسه ثم ضرب بيسراه الملف قائلًا في حماسة:

– لدي بالفعل معلومات قيمة ستجعلك تفخر بي يا باشا.

– هل تعتقد ذلك؟

هز أيمن رأسه متجاهلًا سخرية العقيد وهو يقول:

– نعم يا باشا.

أطفأ العقيد سيجارته في المنفضة أمامه وعقد يديه أمامه واستند بمرفقيه إلى سطح المكتب، وقال لأيمن في ملل:

– أخبرني بها.

– هل تذكر يوم أن تناقشنا بشأن البحث عن الوافدين من اليمن إلى مصر بنحو أربعة أشهر قبل مقتل أول ضحية؟

اعتدل فارس في مقعده وقد أثار الأمر اهتمامه، ورمى العقيد فارس بنظرة خاصة وهو يهز رأسه، فأكمل أيمن على نفس حماسته:

– لقد توصلنا إلى مواصفات تطابق السفاح تمامًا.

استنكر أيمن رد فعل العقيد البارد وهو يقول:

–جيد.

تغير وجه أيمن قليلًا فتدخل فارس قائلًا باهتمام:

–وماذا وجدت؟

عادت الحماسة إلى أيمن وهو يفتح الملف يقلب في الصفحات بانفعال مستطردًا:

–اسمه إدريس محمد السيد أحمد...

قاطعه العقيد قائلًا في ملل:

–حسنًا، حسنًا، ثم...

ارتبك أيمن ثم أكمل وقد فترت حماسته بعض الشيء:

–دخل مصر في الثامن والعشرين من شهر ستمبر أي قبل مقتل الشيخ السلفي أول ضحية بثلاثة أشهر ونصف، أيضًا طالعت قائمة المسافرين على نفس طائرة ذلك الإدريس، وجدت أنه كان على متن هذه الرحلة سبعة عشر يمنيًّا، وقمت بتقصي صور من جوازات سفرهم جميعًا حتى اشتبهت في أحدهم.

سأل العقيد:

–وكيف ذلك؟

–كان مكتوبًا في محل الميلاد، خولان – صعدة.

هز العقيد كتفيه معقبًا:

–وما هو وجه الاشتباه في ذلك؟

هم أيمن بأن يجيب ولكن فارس تدخل قائلًا بحماس:

–قضاء خولان يتبع صعدة إداريًّا، وفي منطقة خولان تقع قرية اسمها كرعة والتي من المفترض أن يخرج منها اليماني الموعود.

فرقع أيمن بأصبعيه قائلًا في حماس طفولي:

–بالضبط، كما قال فارس.

عقد العقيد حاجبيه يسأل أيمن:

–وكيف عرفت بكل هذا؟

بشكل مسرحي انتصبت قامة أيمن وهو يقول مزهوًا:

–تلميذك يا باشا، من التحقيقات مع سيد...

هز العقيد رأسه ليكمل أيمن في حماس:

- أشار إلى اليماني الموعود، فأجريت بعض الأبحاث على جوجل لأعرف ما قاله فارس للتو، وكان هذا هو خيطي الذي حاولت أن أتعرف به على اليماني الموعود.

- يبدو أن لعنة الذكاء أصابتك.

- بفضل توجيهات معاليك.

- منافق.

ضحك أيمن وقد اعتبر قول العقيد بمثابة نكتة طريفة، وسأل العقيد أيمن:

- وكيف عرفت أن إدريس هو السفاح؟

- على متن هذه الرحلة خمسة مصريين قادمين من اليمن وأعتقد أن هذا من حسن حظي.

استوقفه العقيد بإشارة من يده قائلًا:

- وما الذي جعلك تظن أنه مصري؟

ران صمت ثقيل على المكان وقد رسمت البلاهة ملامح أيمن الذي عجز عن الرد في بادئ الأمر، ثم قال ببطء وقد انطبعت تلك البلاهة على صوته:

-من التسجيل الصوتي لمكالمته مع سيد، وأيضًا من تنصتنا عليه أثناء تواجده مع سيد في مسجد البوصيري.

لم يبد على فارس أو العقيد أنهما فهما ما يرمي إليه فهتف منفعلًا:

-لكنته مصرية يا باشا.

عقب فارس مرتابًا:

-من الممكن أنه يجيد اللكنة المصرية.

أيد العقيد كلام فارس قائلًا:

-مثلًا.

ران صمت آخر على المكان وقد ظهر الارتباك جليًّا على وجه أيمن الذي هز كتفه عدة مرات دون أن ينطق حتى اندفع قائلًا:

-لا أعرف ولكني اعتبرت ذلك دليلًا يحدد قبلتي في البحث.

تراجع العقيد في مقعده مشيرًا بيده لأيمن لأن يستطرد فواصل قائلًا:

-قمت بعمل تحريات حول الأسماء المصرية الخمسة ولفت نظري أن واحدًا منهم كان بطل الجمهورية في الملاكمة عندما كان بسن الثمانية عشر، فوجدت أنه الأقرب لأن يكون السفاح.

توقف عن الاستطراد يستخرج ورقةً من الملف، ملصقًا بها صورة لشاب، ناولها للعقيد الذي تطلع إليها في لامبالاة ثم ناولها لفارس قائلًا وهو يرمي فارس بنظرة خاصة، تناولها منه فارس مغتاظًا، ونظر إليها لبعض الوقت ثم أعادها لأيمن في صمت، كان لا يزال العقيد يرميه بتلك النظرة، وسأل فارس:

– هل يبدو لك هذا الوجه مألوفًا؟

فَهِمَ فارس تمامًا ما يرمي إليه العقيد، ولكنه قال بصوت حاول أن يجعله خال من أي انفعال:

– لم أشاهده إلا متنكرًا ولكن قد يكون هو.

هز العقيد رأسه باستخفاف وهو يتمتم:

– صحيح.

تدخل أيمن ليفك هذا التشاحن بدون تعمد منه قائلًا بحماسة عادت لتتدفق إلى صوته:

– ولكني بتحرياتي تأكدت أنه هو بالفعل.

سأله العقيد في استهجان:

– كيف ذلك؟

-تلميذك يا باشا، حصلت من السجل المدني على صورة بطاقته الشخصية، وتبين لي أنه أعزب ومحل إقامته هو محل ميلاده، ثم انطلقت إلى بيت أهله وقمت باستجواب أمه وأخته.

-وماذا عن والده؟

-مُتَوفى منذ أن كان في الصف الثالث الإعدادي.

تناول العقيد سيجارة أخرى وأشعلها وهو ينصت بدون اهتمام حقيقي إلى أيمن:

-وقمت بمصادرة الحاسب الآلي لشقيقته، وبتصفح حسابها على الفيس بوك تبين أنه كان يرسل إليهم رسائل صوتية بين الحين والآخر، ونفى كلاهما توافد السفاح عليهما وأنكرا علمهما بقدومه إلى مصر، وأنه منذ ذهب إلى اليمن منذ خمس سنوات لم يتواصل معهما إلا نادرًا...

ولم يكن يصلهما منه إلا بعض المبالغ المالية والتي انقطعت منذ عدة أشهر تقارب نفس الموعد الذي وفد فيه السفاح إلى مصر، وكان صوت صاحب الرسائل الصوتية مطابقًا إلى صوت السفاح في محادثاته مع سيد.

-المهم في الأمر، هل هذه المعلومات استطاعت أن تجعلك تحدد مكان إقامتهما؟

وجم وجه أيمن وهو يكحكح فضرب العقيد بيمناه سطح المكتب قائلًا في غضب:

–كنت أعلم ذلك.

–كما قلت لك يا باشا، ذلك الإدريس منذ وطئت قدماه مصر في شهر ستمبر لم يتوجه ولو لمرة واحدة إلى بيت أهله وأما اليماني الموعود أخطر السلطات بأنه سيقيم بفندق مكة لمدة أسبوع، وبالفعل بات لليلة واحدة فقط في الفندق وقام بتسديد أجر أسبوع كامل، وترك الفندق في الصباح ولم يعد منذ ذلك الحين.

–إذن؛ عُدْتَ بِخُفَّي حُنَيْنْ.

خَيَّمَ الصمت مرةً أخرى على المكان، ولكنه هذه المرة استمر لفترة من الوقت قاطعه فارس قائلًا:

– هناك أمر غريب ومريب للغاية في كل ما يحدث.

اعتدل العقيد في مقعده متململًا وهو يقذف بالسيجارة من النافذة الكائنة خلفه، مديرًا رأسه لفارس يسأل بلا اهتمام:

–وما هو؟

–ألا تجد أنه من غير المنطقي أن يكون السفاح واليماني على متن رحلة واحدة، ويدخلا مصر بجوازات سفر أصلية وليست مزورةً.

هم العقيد بأن يعقب، ولكن فارس لم يمهله وهو يندفع مضيفًا:

– أيضًا، أدركت الآن لماذا قام سيد بتسجيل مكالمته مع إدريس؟

– لماذا؟

أشار فارس إلى أيمن قائلًا:

– حتى يتمكن أيمن بسهولة من التحقق من شخصيته عن طريق الصوت، وكأن كل شيء مرتب له بدقة لأن نصل إليهم ونكتشف أمرهم، كأنهم يتعمدون على نحو غريب كشف أوراقهم أمامنا... لم يبذلوا أي جهد لطمس هويتهم الأصلية بل في كل مرة يعطونا إشارةً لمن هم، في كل مرحلة معينة يقومون بوضع جزء جديد للوحة البازل المبهمة أمامنا لتتضح معالم اللوحة أكثر فأكثر حتى أن...

بتر فارس حديثه وهو يتذكر ما قاله له السفاح، عبارته الآن يتردد صداها في أذنه: "ستعرف عما قريب جدًّا الواشي وأيضًا ستعرف عني في الوقت نفسه الكثير من المعلومات، ولكن كل ذلك لن يكون له فائدة في إعاقتي عن مهامي الإلهية"، اندفع العقيد إلى الأمام يسند مرفقيه على سطح مكتبه متسائلًا:

– أكمل، لماذا توقفت؟

تجاهل فارس نظرات العقيد المتحفزة وهو يضيف:

- هناك أمران لا ثالث لهما، إما أن التنظيم يتعمد كشف أوراقه وهذا احتمال لا أجد مبرراته كافيةً، والاحتمال الثاني والذي أميل إليه أكثر أن هناك من يقف وراء كل هذا التنظيم، ويعمل على كشف أوراقهم لنا بالتدريج، كأن هذا الطرف يريد أن يوقعهم في أيدينا بعد أن يتموا مهمتهم، ويعمل على تسليمهم لنا في النهاية.

رفع العقيد حاجبيه قائلًا:

- احتمال جيد، تجنح فيه إلى وجود طرف ثالث.

أومأ فارس برأسه قائلًا:

- نعم؛ يزداد هذا الاحتمال لدي في أنه الكفة الراجحة.

- لا بأس، لا بأس.

حول العقيد نظره من فارس إلى أيمن يقول بجدية:

- وأنا أيضًا لدي معلومات هامة لكما.

نظر إليه الاثنان بفضول فأكمل العقيد ساخرًا:

- ولكنها ليست بلا فائدة مثل معلوماتك يا أيمن.

تمتم أيمن محنقًا:

–منكم نتعلم يا باشا.

ضرب العقيد سطح المكتب بيديه وهو يتراجع في مقعده قائلًا:

–لقد توصلت إلى الواشي بيننا.

الجمود كسى وجهي فارس وأيمن، وكان العقيد يجيل نظره بينهما ثم أكمل:

– هل تصدقان ذلك؟

لم يرد أي منهما، فهز رأسه قائلًا:

–معكما حق ألا تصدقا ذلك.

نهض العقيد من خلف مقعده يتحرك وهو يهز رأسه في سعادة لا تتفق مع ذلك الموقف المتكهرب، ثم توقف أمامهما قائلًا:

–أنا نفسي عندما وصلت إلى الواشي لم أصدق ذلك، الحقيقة أنه كان الأبعد عن خيالي.

هز رأسه نافيًا وهو يضع سبابته على شفتيه مضيفًا:

–لأكن أكثر دقةً، لم يمر بخاطري أنه هو إلا منذ فترة قريبة جدًّا.

نظر العقيد نحو أيمن يقول بحزم موجهًا كلامه لفارس:

– هل تعلم يا فارس أن أيمن ليس أبله بهذا الشكل الذي يصوره لنا؟

اتجه نظر فارس إلى أيمن الذي احتقن وجهه، ولكنه ظل صامتًا، ينصت إلى العقيد باهتمام والذي قال:

-ولكن للأسف يا أيمن ما زال هناك أثر من البلاهة التي تفتعلها، كانت بلاهةً حقيقيةً منك وقد حسبتك أذكى من أن تقع فيها.

زال الاحتقان عن وجه أيمن على نحو ذكر فارس بلقائه الأخير مع سيد، وتبدل انفعالاته السريعة من الغضب والتوتر والخوف إلى الثبات الانفعالي التام، قال أيمن في هدوء وهو يعدل من هندامه دون سبب:

-لهذا السبب أمرت أمين الشرطة بسحب مسدسي؟

-رائع، هذا هو أيمن الآخر، ولكن السؤال، ألم ترتب يا أيمن في هذا الأمر؟ ألم يدفعك هذا للشك في أني كشفت أمرك، لماذا لم تهرب يا أيمن؟

تلك الابتسامة التي ترتسم على شفتي أيمن تطابق بالكلية الابتسامة الساخرة الممتزجة بالزهو والانتصار التي ارتسمت على شفتي سيد، كان فارس يتابعه باهتمام شديد وانفعال، أجاب أيمن على نفس وتيرة الهدوء التي تسربت إلى صوته فصبغته بالكامل:

-وهل أهرب من أشرف رسالة في الوجود؟

قال العقيد باستهزاء:

– تقصد ذلك اليماني.

– نعم، بالتأكيد.

– أتعرف أني أشعر بنفس الغرابة التي اعترت فارس.

صمت قليلًا يحرك يده اليمنى في حيرة وملامح وجهه تتقلص ثم أردف قائلًا:

– لماذا تكشف أوراقهما أمامي يا أيمن؟ حقًّا أشعر بالدهشة من ذلك.

تدخل فارس قائلًا:

– لأنه مأمور بذلك.

ألقى أيمن نظرةً جانبيةً على فارس ولم يُعِر جوابًا، فبادره العقيد قائلًا وقد اقترب منه ومال نحوه:

– وهل تنوي كشف المزيد عن أمرهما؟

– سيتم ذلك في الوقت المناسب.

– في الوقت المناسب.

يعتدل العقيد وهو يقول:

– وأنت بالطبع تعلم أين يختبئان الآن؟

لم يرد عليه أيمن، فتدخل فارس مرةً أخرى وهو يراقب ملامح أيمن الثلجية باهتمام شديد:

- الحقيقة أنه لا يعرف.

- وكيف عرفت ذلك يا فارس؟

- جفناه لم يطرفا طوال الوقت منذ أن كشفت حقيقته.

- وماذا يعني هذا؟

- لو كان يكذب لشاهدت أي حركة لجفنيه ولو بسيطةً أو سريعةً، كما أن بؤبؤ العينين لم يتسعا أو يضيقا، ولكنهما في وضعهما الطبيعي مما يعني أن وقع سؤالك الأخير عليه لم يترك لديه أي انطباع فبؤبؤ العين يتسع عند ذكر أي مشاعر إيجابية، ويضيق عند ذكر أي مشاعر سلبية.

- جيد علم النفس هذا، أليس كذلك يا أيمن؟

لزم أيمن الصمت في حين سأله العقيد مرةً أخرى:

- هل كنت تعلم أنه سيتم كشف أمرك؟

تطلع أيمن إلى فارس لثانية والذي كان يراقبه فيها باهتمام فأشاح بوجهه عنه ليثبت نظره على العقيد قائلًا:

- نعم لقد أخبرني سماحته بذلك.

- سماحته؟!

ضحك العقيد وهو يقول ساخرًا يصطنع الارتباك:

- هل أرى ضيقًا في حدقتيك يا أيمن بسبب سخريتي من سماحته؟

لم يعلق أيمن بل نفث بغضب مكتوم، فهز العقيد رأسه قائلًا:

- يبدو أنك تُجِلُّهُ كثيرًا.

تحرك العقيد باتجاه مكتبه ولكن استوقفه أن قال أيمن:

- عما قريب سيظهر إلى العالم كله ليُنْبِئ العالم بالسر الأعظم.

عقد العقيد حاجبيه متسائلًا فأجاب فارس:

- إعلان ظهور المهدي المنتظر.

احتدت نبرة صوت أيمن وهو يرد على فارس وقد اندفع بجسده قليلًا للأمام:

- تأدب وقل الإمام المهدي عليه السلام عجَّلَ الله فرجه.

نظر نحوه الاثنان باستغراب، ورفع العقيد حاجبيه ثم خفضهما مكملًا طريقه ليجلس على مقعده، ويضغط على زر بجهاز موضوع على مكتبه، فيدخل رجلان، الصرامة والحزم ترسم ملامحهما، وأشار العقيد إلى أيمن:

- يمكنكما أن تأخذاه الآن.

لم ينتظر أيمن أن يتقدم نحوه الاثنان بل نهض واقفًا ليتحفز الرجلان، ونظر إلى العقيد متحديًا وهو يقول:

- سنلتقي عما قريب، وسأكون حاملًا لراية الحق خلف سماحة اليماني الموعود لِنَدُكَّ حصونكم أيها النواصب.

رد عليه العقيد مستهزئًا:

- وعلى من نصبنا؟!

لم يبد أيمن أي انفعال بل لمعت عيناه ببريق التحدي والرجلان يتقدمان منه يمسكانه من ذراعيه ويسوقانه إلى خارج المكتب والعقيد يقول:

- رحلة موفقة إلى جهاز الأمن الوطني يا أيمن، سترفع هناك الكثير من الرايات البيضاء.

غادر الرجلان المكتب بصحبة أيمن والعسكري يتقدم لإغلاق الباب مرةً أخرى، وزفر العقيد بقوة وهو يمسح وجهه بكفيه، ووضع يديه على المكتب وهو يهز رأسه أسفًا ثم نظر مطولًا إلى فارس الذي قال مُرتابًا:

- هل ما زلت محل شك في نظرك؟

لم يرد عليه العقيد وهو ينقر بأصابع يده اليمنى فوق مكتبه، فحاول فارس أن يتجاوز هذا الجو المكهرب بأن سأله:

- هل ستخبرني كيف اكتشفت أمره أم أن هذا سر قومي؟

- الأمر كان في غاية البساطة، كل ما في الأمر أنني لم أبصر الدلائل منذ الوهلة الأولى وتجاهلتها باعتبار مساحة الثقة التي فرضت نفسها على تفكيري، وهذه هي أكبر حماقة من الممكن أن يرتكبها أي شخص حصيف.

لم يعلق فارس بل كان متشوقًا لأن يسمع من العقيد أكثر، والذي ضرب المكتب بقبضته اليمنى في غضب وحسرة، وتراجع في مقعده في حالة من الشرود؛ أفاق منها بعد وهلة قصيرة يستطرد:

- لُمْتُ نفسي كثيرًا على أنني شغلت نفسي بالتنقيب عن الدلائل التي تثبت لي أنك الواشي بيننا وقد صرفني هذا بالفعل عن النظر إلى أيمن.

كادت ابتسامة ترتسم على شفتي فارس ولكن العقيد رفع سبابته قائلًا:

- على الرغم من أنه اعتراني بعض الشك بخصوصه عندما قُتِلَت الضحية السابعة بمخازن القمح التي كان يملكها سابقًا جده قبل بيعها من قِبل أبيه، وكان هذا هو ناقوس الخطر الذي دق برأسي

باتجاه أيمن، ولكني مع الأسف لم أتبع حدسي الشرطي الذي كونته بفعل خبرتي الطويلة في هذا المجال، وتجاهلته بشكل مؤقت...

وبعد فترة قصيرة قررت أن أتبع حدسي مرةً أخرى وانصرفت بالفعل للتنقيب وراء أيمن، لم يكن المؤشر المتجلي في مقتل الضحية السابعة كافيًا بالنسبة لي، ولم أعرف أي سبيل للتنقيب وراءه، فسجله نظيف تمامًا فضلًا عن أن أباه لواء سابق في جهاز الأمن الوطني، فبالتالي كل المؤشرات تشير إلى نظافة يده.

أطلت أمارات الزهو على وجه العقيد وهو يتابع:

-ذهبت في بداية الأسبوع الحالي إلى مديرية أمن الإسكندرية ووجهتي تحديدًا كانت قسم النظم والمعلومات واستعنت بخبرة مهندس الحاسب الآلي هناك.

مصمص شفتيه وهو يهز رأسه إعجابًا ويقول:

- إنه شاب عبقري بالفعل، متخصص في لغات البرمجة، شرحت له الأمر بالتفصيل، ثم خططنا معًا لكل شيء، أخبرني عن فيروس يختص بقرصنة الأجهزة الأخرى وسرقة المعلومات منها والسيطرة عليها وما إلى ذلك.

أومأ فارس برأسه متمتمًا:

-لدي دراية بهذا الأمر، أعرف شخصًا مثله.

-اممم، ذلك الذي استعنت به وجعل قبلتك الكنيسة، وكدت أن توقعنا في ورطة كبيرة.

أطل الخجل على وجه فارس الذي لزم الصمت وقد ندم على تعليقه، تجاوز العقيد ذلك وهو يضيف:

-وأخبرني أيضًا حتى يتم تفعيل هذا الفيروس يرسل إلى الشخص المستهدف في شكل رابط لصورة أو موضوع أو فيديو فإذا قام بالضغط عليه تسلل هذا الفيروس إلى الجهاز وأطبق عليه.

تناول سيجارةً أخرى وهو يقول:

-الحقيقة لم أشك فيه، فلقد اختبرت هذا الأمر بنفسي وقد قمت بالضغط على إحدى الروابط التي تـ...

بتر عبارته وقد ارتبكت ملامحه، فحاول أن يواري ارتباكه في إشعال سيجارته وفارس يكتم ضحكةً كادت تفلت منه، وأكمل العقيد بعد أن سحب نفسًا مطولًا من سيجارته:

-ميزة هذا الفيروس يا فارس أنه عند تفعيله لا يقوم بسرقة المعلومات على الجهاز المقرصن فقط، ولكنه أيضًا يتيح لك الفرصة الكاملة لتصفح الجهاز وإدارته كأنه بين يديك ولا يشعر

الطرف الآخر بأنك تشاركه استخدام هذا الجهاز بالإضافة إلى أن برنامج حماية الفيروسات لا يستطيع اكتشاف هذا الفيروس.

كان العقيد يتحدث بانبهار شديد عن إمكانيات الفيروس، انبهاره كان طفوليًّا بعض الشيء، عقب فارس على كلامه ليشجعه على الإفصاح عن المزيد:

- يبدو أنه مهندس عبقري.

لوح العقيد بيده الممسكة بالسيجارة قائلًا في استهجان:

- ليس إلى هذه الدرجة، في الغالب هو قام بتنزيله من أحد مواقع القرصنة هذه، ثم تظاهر أمامي بأنه مبتكر هذا الفيروس، هو يجيد عمله وبارع في ذلك، ولكن ليس إلى الحد الذي يجعله يبتكر... أعرف هذه النوعية التي تحاول بروزة نفسها من خلال نتاج الآخرين، لا مشكلة عندي.

ضحك فارس وهو يقول:

- ولم لا يكون هو صانع هذا الفيروس؟

- لأنه لو كان بهذه العبقرية لما بقي لدقيقة واحدة يعمل في جهاز الشرطة، بل كانت اختطفته شركات البرمجة العالمية مثل جوجل ومايكروسوفت، أتحسبني جاهلًا بالتكنولوجيا؟ لدي ثقافة.

قالها بزهو واعتداد فهز فارس رأسه في صمت وأضاف العقيد:

-مشكلتك يا فارس أنك تكون فكرةً سلبيةً عن رجال الشرطة، وتحسبهم كلهم أغبياء.

قال فارس مازحًا:

-ربما أنت استثناء.

أطربت هذه العبارة العقيد وقد ظهر ذلك جليًّا في حركة كتفيه وهو يردف بزهو:

-ولأدلل لك على أنه ليس بهذه العبقرية، اقترح علي ذلك المهندس أن نرسل له رابط فيديو على الواتس آب.

عقب فارس بحماس:

-تصرف أحمق، سيرتاب أيمن فورًا في الأمر لذلك الرقم المجهول الذي يعرف رقمه.

-بالضبط، فضلت أن أرسل له ذلك الرابط على صندوق رسائله بحسابه على الفيس بوك، ومثل هذا الأمر لا يدعو للريبة، فكلنا نستقبل روابط على صندوق رسائلنا على الفيس بوك من أشخاص لا نعرفهم أو في قائمة أصدقائنا.

أومأ فارس برأسه موافقًا، دفع ذلك الحماسة إلى العقيد وقد تجلت على ملامح وجهه وهو يضيف:

-كنت أتصور إذا أرسلت له رابط فيديو إباحي أنه سيسارع إلى فتحه.

-ولكنه لم يفعل.

-أغلب الرجال سيثيرهم فتح هذا الرابط لمشاهدة المحتوى، ولكنه بالفعل لم يفعل ذلك.

صمت قليلًا كأنه يسترجع ذكريات تلك الأحداث، وقد ضم شفتيه قبل أن يقول:

-وهذا دفعني إلى الريبة فيه أكثر، عندها تذكرت كلمة اليماني الموعود التي وردت في تحقيقات سيد، وأمرت المهندس بأن يرسل إليه رابط فيديوهات مختلفة كلها تحمل نفس الفيروس تدور كلها حول اليماني الموعود.

أطلق نفخةً طويلةً ثم قال:

-انتظرت يومين كاملين حتى يقوم بالضغط على إحدى هذه الروابط، وقد دب اليأس في قلبي وتصورت أنني أبحث مرةً أخرى في الاتجاه الخاطئ وعلي أن أعود إلى...

أشار فارس إلى نفسه قائلًا:

-أنا مرةً أخرى.

لوح العقيد بذراعيه قائلًا:

-لم يكن أمامي سواك لأرتاب فيه، فعدد من المؤشرات كانت تبدو منسجمةً معك لتجعلك موضع اشتباه، حتى جاء اليوم الذي هاتفني فيه المهندس يخبرني بأن الهدف قام بالضغط على إحدى الروابط المرسلة وهو الآن يستعرض هاتفه بالكامل.

أطفأ السيجارة بعصبية في منفضة السجائر ينفث الدخان الأخير ثم قال:

-انطلقت من فوري نحو مديرية الأمن، نستعرض كل رسائله على الواتس آب، لا شيء.

لاحظ فارس الغيظ الذي تسلل إلى ملامحه وتابع حديثه باهتمام:

-كذلك صندوق رسائله على الفيس، أيضًا لا شيء، هل من (جروبات) ينضم إليها ويتواصلون من خلالها، لا شيء، حتى أنه داهمتني فكرة أنهم يتواصلون عن طريق تلك الأرقام التي ترجمتها أنت إلى حروف.

هز فارس رأسه وقد تجلى الغيظ البادي على وجه العقيد أكثر وهو يقول:

-أيضًا لا شيء، إذن هل هو نظيف بالفعل؟ كيف يكون ذلك؟ لقد قام بفتح إحدى روابط فيديوهات اليماني، إنه دليل دامغ، هل فعل ذلك بدافع الفضول نظرًا لارتباط موضوع الفيديو بقضيتنا.

توقف عن الكلام قليلًا ينظر بعينين ثاقبتين اتجاه فارس وقد انفرجت ملامحه ليستطرد:

-تذكرت وقتها أحداث المرسي أبو العباس، وأخذت أتأمل كيف استطاع ذلك السفاح أن يتحرك بين رجال الشرطة كالشبح الذي لا يُرى وكأنه...

صمت قليلًا ليكمل فارس قائلًا:

-يعرف بأماكن وجودهم.

هز العقيد رأسه وقد داخله بعض الشرود ثم ردد:

-نعم، يعرف بأماكن وجودهم.

أفاق من شروده وقد اندفع الحماس إلى صوته مرةً أخرى مضيفًا:

-قبل أن تنضم إلينا في وحدة التنصت المتحركة، كنت قد رسمت خريطة بشكل سريع للمنطقة وتوزيعي لقوات الأمن وأعطيته

لأيمن ليندفع لتوزيع قوات الأمن وفق الخريطة، لم أطلعك عليها أولًا لأنك لست شرطيًّا فلا فائدة من اطلاعك عليها، والأهم من ذلك أنك كنت عندي وقتها محل شك كبير...

وأيضًا بشكل غريب أخبرني حدسي أن أطلع أيمن فقط وقتها على خريطة توزيع قوات الأمن، ولم أكن وقتها كونت فكرةً جليةً عن شكي حول أيمن، ولكني اتبعت حدسي دون أن أتوقف عند هذا الأمر كثيرًا.

ضرب سطح المكتب بقبضته اليمنى نتيجة لحماسه المفرط وهو يقول:

- طلبت وقتها من المهندس أن يبحث في مجلد المرسل إليه داخل مجلد الواتس آب، وكانت هذه هي خطيئة أيمن، لقد قام بمسح كل رسائله مع السفاح، ولكنه أغفل أن يحذف صورة خريطة توزيع قوات الأمن.

ابتلع ريقه بسرعة ليكمل:

- أيضًا؛ تتبعت كل المكالمات التي وردت إليه أو التي قام بها منذ حدوث أول جريمة حتى مساء أمس.

عقب فارس بنفس حماسته قائلًا:

- كنت على وشك أن أذكر هذه النقطة.

لم يلق العقيد أي اهتمام لتعقيب فارس وقد بدا أنه يحادث نفسه في هذه اللحظة:

-بعض المكالمات طابقتها بقائمة الاتصال على هاتفه وهي لأشخاص مسجلين وبعضها الآخر لأرقام مجهولة لا تتكرر ثانيةً، وهذا يُعَد أمرًا طبيعي بالنسبة لضابط شرطة أن ترد إليه الكثير من المكالمات من أرقام مجهولة، ولكن المثير في الأمر أن كل هذه الأرقام المجهولة لخطوط أبلغ أصحابها عن سرقة هواتفهم.

نقر بيمناه فوق سطح المكتب وهو يقول بهدوء تسرب منه كل حماسته، ولكن حل مكانه الزهو:

-وكانت كل هذه الدلائل كافيةً بالنسبة لي لأن يكون أيمن هو الطرف الواشي.

قال فارس بإعجاب:

-لم أكن أحسبك بهذه البراعة.

قال العقيد بنبرة تحذيرية يخالطها المزاح:

-لو لم تكن نبرة صوتك صادقةً لكنت ألقيت بك في التخشيبة.

ابتسم فارس والعقيد يعود ليسأل بحيرة:

-ولكن الغريب في الأمر، أنه أجاد إخفاء أمره طوال هذه الفترة، ثم وقع في هذا الخطأ البسيط الذي لا يتوافق مع إجادته لإخفاء أمره فضلًا عن رد فعله اليوم.

الحيرة تستبد بوجهه ليقول بعد هنيهة من الصمت:

- عندما تبين له أنني اكتشفت أمره لم يتراجع بل واصل محاولته البلهاء في التعامل على أن أمره لم يُكْتَشَف بعد، ألا تجد هذا غريبًا.

هز فارس رأسه نافيًا وهو يقول:

-بالعكس ليس غريبًا على الإطلاق، كما قال؛ كان يعلم أنه سيتم كشف أمره في لحظة من اللحظات، وهو يعتقد أن هذا الأمر مقدر له أن يحدث، وأنه جزء من الرسالة المقدسة التي يتبناها ذلك التنظيم، فكان مطلوبًا منه إخفاء هويته لفترة من الوقت مع ترك بعض الشواهد التي تدلل عليه...

كل ما كان مطلوبًا منا أن نفعله هو أن نولي عنايةً لهذه الشواهد وهو ما فعلته أنت، فأبصرت بسهولة الشواهد التي تشير إليه، المثير أنه أُمر أيضًا بألا يحاول الهروب إذا تم كشف أمره، وأن يعلن عن معتقده بكل صراحة.

لم يبدد تفسير فارس الحيرة المتجلية على وجه العقيد الذي تساءل:

-وكيف يصل به الأمر أن يهلك نفسه بهذه الطريقة؟ كيف استطاع التغلب على غريزة حب البقاء؟ أي إنسان في مثل هذه المواقف سيهرب بالتأكيد لينجو بحياته.

-أليس أيمن كما كان من قبل سيد؟ أتذكر أنني عندما واجهت سيد بتشيعه أبدى انفعالات تكاد تتماثل تمامًا مع ما بدا على أيمن اليوم...

هناك عقيدة يا سيادة العقيد يؤمنون بها ويدافعون عنها باستماتة، ويرون أنها طريقهم للجنة وسيبذلون فيها أنفسهم من أجل الدفاع والذود عنها وتحقيق أهداف هذه العقيدة...

وأمام هذه الأهداف المقدسة سيستصغرون أي شيء آخر ويعتبرونه من أمور هذه الدنيا الفانية.

-اللعنة! إنهم حِفنةٌ من المجانين.

خيم الصمت على المكان، والعقيد يلتقط هاتفه الجوال يتطلع إليه لبضعة ثوان وأصابعه تمر سريعًا فوق شاشته، وضع الهاتف بهدوء على سطح المكتب وهو ينظر نظرةً ثاقبةً إلى فارس، ويقول في لوم:

-لماذا خالفت أوامري للمرة الثانية يا فارس؟

كان يدرك فارس تمامًا ما الذي يقصده العقيد، هم بأن يرد ولكن العقيد قطع عليه الطريق مضيفًا بلومٍ اختلط بالغضب:

–لو لم أصل إلى أن الواشي هو أيمن لكنت الآن على يقين تام أنك الطرف الواشي، هل تعلم أنك ضيعت من أيدينا السفاح؟ كان من الممكن أن ينتهي الأمر لو أنك أخبرتنا بما لديك من معلومات.

–لم يكن لينتهي بمجرد إلقاء القبض على السفاح، إنهم يرونها مهمةً مقدسةً، ويجب أن يتم إكمالها حتى النهاية وربما لديهم البديل له.

–وربما لا، لقد قمت أيضًا بتضليل المرشد.

رفع سبابته أمام وجه فارس وهو يقول بصرامة شديدة:

–أقسم بالله لولا أنني أتبع حدسي الآن من واقع خبرتي الطويلة في هذا العمل لكان احتمال الشك فيك ما زال قائمًا، وهذا بالضبط هو انطباع جهاز الأمن الوطني عنك.

توترت ملامح فارس وخفق قلبه بشدة وهو يسأل:

–وهل يشك فيَّ جهاز الأمن الوطني؟

–لا ألومهم على ذلك.

أشار العقيد إلى الباب ليتلفت فارس تلقائيًّا إلى حيث يشير والعقيد يقول:

-أتعرف، هذين الرجلين اللذين أتيا لاصطحاب أيمن، كانا مأمورين باصطحابك أيضًا، ولكني تدخلت لأُثني الجهاز عن فعل ذلك، وأؤكد لهم أنك لست متورطًا في الأمر فقط لأني أثق في حدسي.

أطرق فارس برأسه أرضًا وهو لا يجد الكلمات المناسبة للرد، وخيم صمت ثقيل على المكان، تراجع العقيد في مقعده يسأل فارس:

-أريد أن أعرف فقط لماذا لم تطلعني على الأمر وحاولت تضليل المرشد؟

ابتلع فارس ريقه ثم أجاب:

-الحقيقة؛ كنت أنت أيضًا عندي محل شك مثلك مثل أيمن.

-لا أستطيع رؤية بؤبؤ عينيك جيدًا.

رفع فارس عينين دهشتين إلى العقيد ليجده يبتسم، ويلوح بذراعه اليمنى وهو يقول:

-سأتبع حدسي مرةً أخرى وأحاول تصديقك، ولكن أريدك أن تعلم أمرًا هامًّا.

أنصت له فارس باهتمام والعقيد يضيف بجدية بالغة:

– هذه هي فرصتك الأخيرة يا فارس، المرة القادمة التي ستتصرف فيها منفردًا، لن أستطيع أن أمنع عنك قبضة جهاز الأمن الوطني، أنا لا أهددك يا فارس، بل اعتبرها نصيحةً من أخ.

هز فارس رأسه وقد أطلت من عينيه نظرة امتنان، نهض العقيد من خلف مكتبه وهو يتثاءب في إرهاق لينهض فارس تلقائيًّا، وتجمد العقيد للحظات في مكانه وهو يضيق عينيه يستقرأ وجه فارس، وتلوح ابتسامة على شفتيه وهو يسأله:

– حدسي يخبرني أن وراءك أمرًا آخر.

إحمرَّ وجه فارس خجلًا، ولم يجب على الفور وقد ظهر الارتباك جليًّا على حركة شفتيه فشجعه العقيد قائلًا:

– هيا؛ أخبرني.

– الحقيقة أنني عزمت على أن أخطب الآنسة ريم في حفلة عائلية محدودة الأسبوع القادم، رتبنا هذا الأمر بعد خروج الدكتور معاذ من المشفى.

التقى حاجبا العقيد في محاولة لتذكر هذا الاسم فأضاف فارس وقد ازداد ارتباكه:

– الآنسة ريم...

قاطعه العقيد مستنكرًا:

–أليست هذه ابنة شقيقة الضحية الثانية.

ازداد ارتباك فارس، فضحك العقيد وهو يقول:

– هل هذا حقيقي بالفعل؟

رد فارس بخفوت:

–نعم.

–وقعت في حب أحد أطراف القضية؟!

تحول وجه فارس من الخجل إلى الضيق، فاتجه نحوه العقيد يربت على كتفه قائلًا:

–لا بأس يا فارس، ألف مبروك.

تهلل وجه فارس بالسعادة يشكره بصوت خافت، ابتعد عنه العقيد متجهًا إلى باب مكتبه يقول:

–أنا أيضاً أرتب الأمور للعودة إلى طليقتي.

ردد فارس الكلمة الأخيرة بدهشة فهز العقيد رأسه وهو يلوح بذراعه اليمنى:

–نعم، نعم، ما سمعته صحيح.

ابتسم فارس قائلًا:

– ألف مبروك.

– هل ستأتي؟

– هذا شرف لي.

– جيد، وهل ستدعوني؟

– هذا ما دعاني لأن أفصح لك عن الأمر.

– لا بأس، سأكون حاضرًا، فقط هاتفني.

فتح العقيد باب المكتب يغادره وفارس يتبعه، ألقى العسكري التحية العسكرية والتي تجاهلها العقيد كالعادة، تثاءب العقيد بقوة هذه المرة وهو يقول:

– أريد أن أنام بشدة، كان يومًا مرهقًا وطويلًا للغاية.

– بالفعل هو كذلك.

توقفا أمام المصعد ليقول العقيد:

– أراك في حفلة الخطوبة متمنيًا أن يمهلنا هذا السفاح بعض الوقت وألا يحاول إفساد فرحتنا.

– أتمنى ذلك.

–إلى اللقاء يا فارس، عليَّ أنا أذهب لأفرغ مثانتي الممتلئة حتى آخرها.

ابتسم فارس وهو يضغط على زر المصعد، حياه العقيد بيده وسار في خطوات كسولة بعيدًا عنه، دلف فارس إلى المصعد وشاشة هاتفه الجوال تتوهج لتعلن عن اسم ريم، فتتسع ابتسامته وهو يجيب الاتصال.

*** * ***

(١٢)

– هل أنتِ مستعدة للمغادرة؟

احمرت وجنتاها وهزت رأسها في صمت، التفتا إلى والدتها وتنحنحت ريم قبل أن تقول:

–سنذهب الآن يا أمي ولن نتأخر عن العاشرة مساءً.

أومأت الأم برأسها وهي تقول بصوت وقور:

–سأكون في انتظاركما.

حياها فارس برأسه وتحركا يغادران المنزل، وخيم عليهما صمت خجول داخل المصعد، قاطعه فارس قائلا:

– هل أنت سعيدة؟

ابتسمت مرةً أخرى والاحمرار يعاود تلوين وجنتيها، أجبر منظرها الخجول فارس على أن يشيح بوجهه بعيدًا عنها، وقلبه يتراقص في سعادة...

تتشابه خفقات القلب عند الخوف والسعادة ولكن شتان بين وقعهما على نفسه، يستغرب كيف حدث هذا الأمر بهذا الشكل السريع في خضم هذه الأحداث الاستثنائية، أن تشتعل في قلبيهما جذوة الحب ويزداد تأججها بوتيرة سريعة لا يستطيعان السيطرة عليها أو كبحها ولو قليلًا.

انفرجت أبواب المصعد أمامهما، وأفسح لها الطريق لتتقدمه في حين شكرته هي في صوت خجول خافت.

في سيرهما باتجاه السيارة حاول فارس أن يهدم حاجز الخجل القائم بينهما بأن قال:

-مستعدة بشكل جيد للمحاضرة التي ستلقينها؟

استطاع هذا السؤال أن يخلخل حاجز الخجل لديها، ويخفف من ارتباكها البادي في حركتها، وأجابت:

-لقد راجعت عددًا من المراجع منذ ساعة وأعددت ورقةً بحثيةً قصيرةً خاصةً بمحاضرة اليوم.

وصلا إلى السيارة فجاوزها ليفتح لها الباب فعلقت في نبرة مازحة:

-واحدة من الأشياء التي يجب أن استمتع بها طوال فترة الخطوبة، لأنه لن يبقى لها أثر بعد الزواج.

-ربما!

جلجلت ضحكته وهي تنظر له في لوم وابتسامة أوسع ترتسم على شفتيها، واتخذت مكانها ليغلق الباب في رفق، ثم دار حول مقدمة السيارة وفتح الباب متخذاً مجلسه، وسأل وهو يدير محرك السيارة:

-وعم تدور هذه المحاضرة؟

-عن الصراع الإيراني العربي.

-اممم، يرتبط الأمر إلى حد كبير بالقضية.

عم الحزن وجهها وهي ترد بصوت يكسوه الحزن:

-من أجل روح خالي رحمة الله عليه.

شعر فارس بالندم على نطقه العبارة الأخيرة، وضايقه ذلك الحزن الذي تسلل إلى قسمات وجهها ليفرض الصمت نفسه... تحرك بالسيارة وهو يشعر بغيظ لذلك الصمت الذي اصطحب معه جوًّا مشحونًا بالتوتر، وسعى عدة مرات ليكسر حالة الجمود، ولكنه في كل مرة يطبق شفتيه، ويتظاهر بانشغاله بالطريق... مزقت هي حجاب الصمت المفروض بقولها:

–أشعر بتوتر بالغ وكأنني طالبة مقبلة على الامتحان.

كان فارس ممتنًا لمحاولتها، فعقب قائلًا دون إبطاء:

– هذا شعور طبيعي يعتري أي شخص يقبل على شيء ذي أهمية.

–أتمنى أن أُوَفَّق اليوم فمنظم المحاضرة أخبرني أنه يتوقع عددًا كبيرًا من الحضور.

–أنا أثق في قدراتك على إبهارهم كما أبهرتني من قبل.

تسللت دماء الخجل إلى وجهها كله، فأطرقت برأسها أرضًا تتحاشى النظر إليه، والابتسامة تعاود شفتيه. وبعد فترة قصيرة من الصمت قال فارس:

–لقد وصلنا إلى مكتبة الإسكندرية.

توترت ملامحها وازدادت خفقات قلبها، وهزت رأسها في صمت، بينما هو أوقف السيارة إلى جانب إحدى الأرصفة، ثم غادرا السيارة؛ ليمد لها يده وابتسامة مطمئنة تتشكل على شفتيه... نظرت إلى يده الممدودة لثانية، ثم مدت إليه يدها ليحتضن باطن يده اليمنى يدها في رقة، وقطعا الشارع ثم اعتليا الرصيف المقابل، ليلمحا مكتبة الإسكندرية بمبناها الدائري الضخم...

أسرعا الخطى وصمت جميل يظللهما، وأطلقا كلمات الحب الصامتة لتتأرجح فيما بينهما وينتهي مستقرها بين أيديهما المتشابكة.

تجاوزا البوابة الزجاجية للمكتبة، فسحبت يدها من يده فأفلتها مرغمًا، وتقدمت هي بضع خطوات أمام موظفة مكتب الاستعلامات التي فرضت ابتسامةً روتينيةً على وجهها، وسألتها ريم عن مكان المحاضرة وقد أفصحت عن كونها المحاضرة فاستأذنتها الموظفة لتجري اتصالًا داخليًّا، ثم بالابتسامة الروتينية نفسها قالت:

–سيأتي الآن الأستاذ جمال لاصطحاب حضرتك.

شكرتها ريم وعادت لتقف بجوار فارس، ولم تمض دقيقة حتى ظهر رجل في الأربعين من العمر، أقبل نحوها يصافحها في حرارة، تقدم إليه فارس فيصافحه على عجل ويمد يده اليمنى أمامه لتتقدم، تحرك ثلاثتهم في رواق طويل، ثم انحرفوا يمينًا حيث باب مغلق، فتح الرجل إحدى دلفتيه لتتقدمه ريم مرة أخرى، دخلا إلى قاعة كبيرة الحجم، اتسعت عين ريم وهي تشاهد هذا العدد الكبير من الحضور الذين يتهامسون، تحرك ثلاثتهم مرة أخرى باتجاه خشبة المسرح، استوقف الرجل فارس ليقول له بأدب:

–سيادتك، هناك مقعد في الصف الأمامي موضوع عليه اسمك، يمكنك أن تجلس هناك.

شكره فارس واتجه إلى مقعده في حين حث الرجل ريم على اعتلاء خشبة المسرح من الجانب الأيسر، يشير الرجل نحو مقعد وحيد اتجهت إليه لتجلس متوترة وهي تبحث بناظريها عن فارس، في حين أسرع الرجل ليقف خلف المنبر الزجاجي، يدق ثلاثة دقات على الميكرفون، لتتوقف الهمهمات، يقترب من الميكرفون مبتسمًا ويقول:

– يشرفنا اليوم حضوركم لندوة حول الصراع الإيراني العربي في منطقة الشرق الأوسط، تلقي هذه المحاضرة الأستاذة...

نظر إلى الورق أمامه ثم استطرد:

– الأستاذة ريم محمد سلمان العدوي، معيد بكلية آداب جامعة الإسكندرية قسم تاريخ.

علت التصفيقات، لاحت منها ابتسامة مهزوزة وعينيها تلتقيان أخيرًا بفارس، الذي رفع لها يده مشجعًا، فأشرق وجهها بابتسامة واثقة، اتجهت في خطوات واثقة نحو المنبر، تبادلت مع الرجل الذي تنحى جانبًا بضعة كلمات، أخرجت من جيب المعطف "فلاشة" أولجتها في جانب الحاسب الآلي، استغرقت عدة ثوان تقوم بإعداد شيءٍ ما ثم اقتربت من الميكرفون تقول:

– السلام عليكم، سيكون محور الندوة اليوم عن الصراع الإيراني العربي، وما هي أبعاده؟

نزعت الميكرفون من مكانه لتتحرك من خلف المنبر حتى تتوقف في منتصف خشبة المسرح وهي تقول بحماسة أكاديمية وقد اكتسى وجهها بجدية تامة:

- هل هو صراع طائفي بالمقام الأول؟ أم هو صراع عرقي؟

توقفت للحظة تستمع إلى بعض الهمهمات الخافتة التي أثارها الحضور ثم قالت:

- وما الذي أعنيه بكلمة صراع عرقي؟

لوحت بذراعها اليسرى وقد انغمست كلية تمارس دورها الأكاديمي.

- هناك الكثير من الأسئلة التي سأثيرها معكم خلال هذه المحاضرة، قد تكون لدي إجابات لبعضها والبعض الآخر قد أعجز عن إجابته ولكن سنلقي الضوء من منظور مختلف على طبيعة ذلك الصراع الدائر الآن في المنطقة.

ضغطت على زر الريموت في يدها لتعرض شريحة تحمل عنوان الندوة واسمها بحجم أصغر أسفل العنوان، ضغطت زر الريموت مرة أخرى لتعرض صورة زيتية لوجه رجل مرسومة من أحد الجوانب، ذو بشرة بيضاء وشعر ولحية حمراء اللون، يرتدي قلنسوة كبيرة الحجم.

استدارت للجمهور مرة أخرى تسأل:

- هل يعرف أحدكم من هذا؟

رفع أحد الحاضرين يده، فأشارت إليه، اتجه في حماسة إلى الميكرفون يقول:

- تقريبًا أحد سلاطين الدولة العثمانية.

هزت ريم رأسها نافية وهي تقول:

- للأسف الإجابة ليست صحيحة، إنها لإسماعيل الصفوي مؤسس الدولة الصفوية في إيران.

ثَرَت همهمةٌ أخرى بين الحضور وقد عاد الرجل أدراجه إلى مقعده، قاطعت ريم تلك الهمهمة قائلة:

- إذا أردنا أن نتعرف على سياسات إيران الخارجية الآن، علينا أن نعود للوراء قليلًا، حيث الدولة الصفوية التي أنشأها إسماعيل الصفوي.

انقطع فارس عن متابعة ريم وهو يسمع صوت رنة رسالة نصية وصلت له على الواتس آب، أخرج الهاتف يستعرض الرسالة ليجد صورته هو وريم متجهان إلى مكتبة الإسكندرية، كان طبيعيًا جدًا أن يشعر بأن قلبه توقف دفعة واحدة عن الخفقان، يشحب وجهه بشدة وحاجبيه يلتقيان، ينهض من مكانه، فترتبك ريم للحظة، كان فارس

يدير بصرَهُ فيما حوله، يعيد النظر إليها يرسم ابتسامة مهزوزة وبطرف عينيه يلمح منظم المحاضرة يدعوه من بعيد للجلوس، تبتلع ريقها وهي تنظر إلى الجمهور قائلة:

– دعوني أخبركم بمقدمة بسيطة عن نشأة الدولة الصفوية.

عاد فارس إلى الجلوس مرة أخرى على مقعده وقد شمله توتر بالغ، تطلع إلى شاشة هاتفه الجوال مرة أخرى، حاول أن يتظاهر بأنه طبيعيٌ حتى لا ينعكس ذلك على ريم التي كانت تقول بصوت شابه بعض التوتر:

– هو القائد الديني الذي أسس لحكم الصفويين، وهو سليل عائلةٍ دينيةٍ لها تقدير واسع في أردبيل والمناطق المجاورة لها ويرجع بعض المؤرخين أصل الصفويين إلى الإمام الكاظم وبالتالي إلى الإمام علي بن أبي طالب إلا أن هذا النسب كان دومًا عُرضة للطعن والخلاف بين المؤرخين.

ضغطت على زر الريموت لتعرض صورة أخرى لرجل عجوز يرتدي عمامة، لتعود الابتسامة إلى شفتيها وهي تسأل:

– هل يعرف أحدكم من هذا؟

رفعت إحداهن يديها فأشارت لها ريم فتقدمت إلى الميكرفون وهي تعدل من نظارتها الطبية تقول:

– بالتأكيد هو أحد الذين حكموا الدولة الصفوية ولولا ذلك لكنت قلت إنه يشبه جحا.

ارتفع صوت الحاضرين بالضحك وشاركتهم ريم الضحك، شكرت السيدة التي عادت إلى مكانها، ثم قالت:

– هو ليس أحد الذين حكموا الدولة الصفوية، هذا صفي الدين الأردبيلي، يعتز الصفويون به كثيرًا، وهو الجد الخامس للشاه إسماعيل، وكان رجلا نشيطًا دائب الحركة والسعي؛ استطاع أن يجذب الأتباع حوله في أذربيجان. ثم انتقل الأمر إلى ابنه، ثم إلى حفيده صدر الدين خواجة علي سياهبوش.

ضغطت على زر الريموت لتعرض صورة لقلنسوة حمراء اللون ذات إثنى عشر زاوية، أردَفَت:

– استمرت الرسالة بعد وفاة صفي الدين على يد أبنائه وكان من أبرزهم الشيخ جنيد بن إبراهيم الذي قتل في معركة دارت بينه وبين حاكم شروان السلطان خليل التركماني الموالي للقراقويونلو فالتف اتباع الشيخ الجنيد حول ابنه حيدر.

رفعت حاجبيها ثم خفضتهما وهي تقول:

- وهو بالمناسبة والد إسماعيل الصفوي فبدأ يعمل على تنمية قدرات أتباعه وإتخذ لهم شعارًا يميزهم.

أشارت إلى الصورة تقول:

- وهي قلنسوة حمراء ذات إثنى عشر زاوية دلالة على الأئمة الإثنا عشر، فأطلق العثمانيون على كل من يلبس تاج حيدر "قزل باش" أي: الرؤوس الحمراء.

كان فارس يدير رأسه فيما حوله من الحضور بقلق، ترمقه ريم بين الحين والآخر أثناء حديثها، تحاول أن تواري توترها ولكنه طفى رغمًا عنها إلي عينيها الواسعتين، أغمض فارس عينيه محاولًا أن يعيد الهدوء إلى نفسه ويشغل باله بمحاضرتها.

- غادر الشيخ حيدر أردبيل متوجهًا إلى ديار بكر حيث التقى هناك بحسن قوصون زعيم الآق قويونلو الذي كان يحترم حيدر بن جنيد شديد الاحترام وزوجه من ابنته حليمة بيكم الملقبة بعلم شاه، وكان حسن قوصون أحد الداعمين والمحبين لحيدر.

كعادة فارس عقله يشرع فورًا في ترجمة ما يسمعه إلى مشاهد سينمائية.

الشيخ حيدر بعمامته الكبيرة والعباءة البنية المزركشة تنسدل من على كتفيه يدخل بقامته الطويلة على حسن قوصون في بلاطه

الخاص، كان الآخر مضطجع على مساند أرضية محشوة بريش النعام، نهض فور دخول الآخر عليه يستقبله بابتسامة واسعة، يفتح له ذراعيه ويضمه إليه مرحبًا به بحرارة.

"فخسره الصفويون عندما توفي وتولى الحكم بعده يعقوب الذي كان معاديًا لحيدر. وانتهى الأمر بقتل حيدر في معركة في طبرستان وخلف بعده ثلاثة أبناء هم إبراهيم وعلي وإسماعيل"

ترفع زوجة حيدر طرف الخيمة وعينيها تمتلئ بالدموع، تشاهد عسكري يجر زوجها من حبل معقود حول معصميه، مثخن بالجراح، منهك القوى، ينظر الشيخ حيدر إلى الخيمة بحسرة، يتعالى نحيب صغارها فتلتفت إليهم تخرسهم خوف أن تلفت أصواتهم انتباه العسكر، حوافر حصان تثير الأتربة تقترب من حيدر ويهبط عن الحصان رجل ممشوق القوام، ينتزع سيفه من غمده، يحاول أكبر أولادها مشاهدة ما يحدث ولكنها تدفعه بعيدًا وعينيها تحذره، تعود لتستطلع الأمر، يسبه ذلك الرجل ممشوق القوام في حين يدفع جنديين آخرين الرجل ليسقط أرضًا على ركبتيه، كان حيدر في شبه غيبوبة وقد مال رأسه بعض الشيء على صدره، يرى قطرات دماءه تتساقط على الرمال الساخنة، ثم سيف ذلك الواقف تهبط بسرعة لتضرب عنقه، تكتم المرأة صرخة كادت أن تفلت منها، يصاحب ذلك صراخ أصغر أطفالها

وهو ابن عامِهِ الأول، تُسرِعُ نحوه تضمه إليها ووليديها الآخرين يجتمعان حولها، تشهق في فزع وأحد الجنود يفتح عليها الخيمة.

"أُعتقِلَ إسماعيل وأخوته وأمه بعد مقتل والده وكان عمره عامًا واحدًا، وبعد أن قضى هو وعائلته أربع سنين في سجنهم في قلعة اصطخر جاء خبر وفاة يعقوب فأطلق سراحهم، وعاش بعد وفاة أبيه في كنف "كاركيا ميرزا" حاكم "لاهيجان" الذي كان محبًا للمسلمين الصفويين، ظل إسماعيل الصفوي ٥ سنوات تحت سمع هذا الحاكم وبصره، حتى شبّ قويًا محبًا للفروسية والقتال، قادرًا على القيادة والإدارة وهناك خلاف حول أصله بين عربي أو تركماني أو فارسي، إلا أن الوثائق التاريخية المعاصرة له تؤكد أنه فارسي صميم"

طفل صغير يتدرب على المبارزة وهو ابن تسع سنوات، ينقض على معلمه بسيفه الخشبي بكل حزم وقوة وجرأة، يدفعه معلمه في صدره ليسقط أرضًا، يثير ذلك غضبه وهو ينهض مرة أخرى لتتبدل صورته في ذهن فارس إلى صبي يافع يمسك بسيف معدني لمع نصله في ضوء الشمس الحارقة، يحيط به شابين يحملان في أيديهما سيف مماثل لما يحمله، يترددان في الانقضاض عليه، يتجرأ أحدهما وينقض عليه فيشتبك معه الصبي اليافع في مبارزة سريعة يطرحه فيها أرضًا ويلتفت برشاقة صفق لها معلمه، ليبارز الآخر الذي حاول مباغتته من الخلف، ليطير السيف من يد خصمه بعد ضربتين رشيقتين سريعتين.

"وفي أثناء هذه الفترة كانت الدولة تعيش فترة صراعات بين أفراد أسرة آق قويونلو التي كانت تحكم فارس آنذاك، وهو ما استغله أنصار الصفويين، وأمَّروا عليهم إسماعيل الصفوي، وكان صغيرًا لم يتجاوز الرابعة عشرة من عمره، لكنه كان مهيأً للقيادة والزعامة بفضل الرعاية التي أحاطه بها حاكم لاهيجان. تمكن إسماعيل الصفوي وأنصاره من خوض عدة معارك ضد حكام بعض المناطق في إيران والتغلب عليهم، وتساقطت في يده كثير من المدن الإيرانية"

صور لعدد من الفرسان يندفعون كالسهم باتجاه مجموعة من المشاة لتخترق صفوفهم وسيوف الفرسان تضرب في المشاة تسقطهم بين جريح وقتيل، ثم كتيبة مشاة تصوب رماحها للأمام وهي تندفع باتجاه مجموعة المشاة الذين تشتت جمعهم بفعل الخيالة، يأتون المشاة الحاملين للرماح عن يمينهم ليشتبكوا معهم فيرفعوا بعضهم على أسِنَّةِ رماحهم ثم يسقطونهم أرضًا مشتبكين مع البقية بسيوفهم في حماس جنوني.

" وتوج جهوده بالاستيلاء على مدينة "تبريز" عاصمة آق قويونلو، ودخلها دخول الفاتحين، ثم أعلنها عاصمة لدولته. وبدخول إسماعيل مدينة تبريز تم تتويجه ملكًا على إيران، وأصدروا العملة باسمه"

يدخل اسماعيل الصفوي وسط جنوده إلى مدينة تبريز وسط تهليلات وصيحات المحاربين، يتوقف بالجواد أمام مبني مرتفع، يصعد درجات هذا المبنى ليجلس على عرش مُذْهَب موضوع في منتصف شرفةٍ أماميةٍ واسعة لهذا المبنى والجميع يهتف باسمه، ورجلٌ مسنٌ يرتدي عمامةً يتقدم إلى حافة تلك الشرفة يرفع يديه يهتف بحماس هستيري:

– التحيات المباركات لأبي المظفر شاه إسماعيل الهادي الوالي.

يردد الجمع الغفير من المحاربين ما يقوله ذلك الرجل المسن بحماس جنوني مماثل.

توقفت ريم لتبتلع ريقها ثم تسأل الحاضرين وابتسامة خبيثة ترتسم على شفتيها:

– كم منكم يعرف أن إيران كانت دولة سنية.

ثرت همهمات الدهشة بين الحاضرين فأردفت:

– من يعرف فليتفضل برفع يده.

رفعت قلة أيديهم، نظرت نحو فارس لتتسع ابتسامتها وهي تلحظ على وجهه أمارات الدهشة، حولت نظرها عنه للحضور قائلة:

- كانت إيران تدين بمذهب السنة ولم يَكُن فيها سوى أربع مدن شيعية هي: آوه، قاشان، سبزوان، قم. وعقب تتويج إسماعيل الصفوي ملكًا على إيران أعلن المذهب الشيعي مذهبًا رسميًا للدولة عن طريق القوة، فيقول المؤرخ السني قطب الدين النهروالي عن إسماعيل الصفوي "قتل خلقًا كثيرًا لا يحصون عن ألف ألف نفس" وأجبر البقية على تغيير مذهبهم ومن بعد ذلك توجهت أنظار إسماعيل إلى منطقة جبل عامل في لبنان التي كانت آنذاك أحد معاقل الشيعة، وفيها الكثير من علمائهم.

في هذا الحين وردت رسالة أخرى على هاتف فارس لتضطرب ملامحه مرة أخرى، يخشى أن يفتح الرسالة ولكنه حسم تردده وضغط على أيقونة الواتس آب ليشاهد صورة أخرى لريم وهي على المسرح، صورة التقطت منذ دقائق معدودة.

صعد منظم المحاضرة إلى خشبة المسرح بعد أن فرغت ريم من جملتها الأخيرة يتبادل معها بضعة كلمات هامسة وهي تغطي بيدها اليسرى على الميكرفون، تهز رأسها مبتسمة، وتناوله الميكرفون فيقول بابتسامة رسمية:

- يمكن للسادة الحضور الآن أن يحصلوا على استراحة ربع ساعة فقط، بعد هذا الكم المذهل والمدهش من المعلومات لنواصل

الجزء الثاني من المحاضرة والذي ستواصل فيه الأستاذة ريم إلقاء محاضرتها ثم يفتح باب الأسئلة، شكرًا لكم.

حياها الرجل برأسه مبتعدًا عنها، هبطت عن المسرح بسرعة نحو فارس الذي قطع المسافة الفاصلة بينه وبينها وقد انعكس توتره عليها، سألته في قلق:

– ما الأمر يا فارس؟

تردد فارس بين أن يخبرها أو يحجم عن ذلك ولكن نظرة عينيها المستجدية جعلته يقول:

– يبدو أن السفاح بين الحاضرين.

بشكل تلقائي أدارا وجهيهما إلى الحضور يتفحصان الخارجين من القاعة، يحاول أن يميز فارس بين الحاضرين طوال القامة، فلم يجد فيهم من تنطبق عليه مواصفات السفاح، التفت لريم مرة أخرى عندما سألته:

– والآن ماذا؟

– لا أعرف.

– كيف عرفت أنه هنا؟

زفر فارس في ضيق ثم صوب نحوها شاشة هاتفه لترى صورتها على خشبة المسرح فتتسع عينيها دهشة وفزعًا، رفعت عينيها إليه عندما قال:

- هل سيكون من الجنون إلغاء هذه المحاضرة؟

ردت بحزم:

- لن تُرهِبني هذه الحركات الصبيانية.

- أنتِ لا تعرفينه يا ريم، لا تعرفينه.

- ولماذا يسعى ورائي؟

- لا أظنه يسعى ورائك ولكنه يسعى ورائي أنا، لربما يحاول ترهيبي بك حتى انسحب من القضية.

- فارس.

أعاد نظره إليها وقد شغله تصفح الحضور مرة أخرى ليرى عينين حازمتين، قالت بصرامة بالغة:

- لن تنسحب من هذه القضية مهما حدث، لن يضيع دم خالي بلا ثمن، لقد وعدتني سابقًا لو كنت تذكر.

- لن يحدث يا ريم، ولكني أخاف عليك.

- وليست حياتي أغلى من حياة خالي التي أزهقها هذا الملعون.

هز فارس رأسه في يأس، أمسكت ريم بذراعه في رقة لتلين بعض الشيء ملامحه المتقلصة وهي تقول:

– أنا أشعر بالأمان وأنت إلى جواري يا فارس.

أمسك فارس يدها بقوة وهو يقول:

– وأنا لن أخذلك أبدًا.

سحبت يدها في خجل ثم قالت في محاولة للقفز على خجلها:

– كيف كنت؟

– رائعة ومذهلة وقادرة على تفجير المفاجآت مثلك مثل الدكتور معاذ.

رسم الخجل ملامحها لتبدو فاتنة في عيني فارس الذي ابتسم لخجلها، قالت في صوت خافت بدون أن تنظر إليه:

– هل ضايقك أو أحد من أسرتك أن والدتي أصرت على أن تكون حفلة الخطوبة في حدود أسرتي وأسرتك فقط والقليل من الأصدقاء؟

هز رأسه نافيًا وهو يقول:

– بالعكس بل كنت أرغب في ذلك منذ البداية.

– أنت تعرف الأمر يتعلق بخ...

– لا حاجة للشرح يا ريم، أنا متفهم للأمر جيدًا وأعلم أنها وافقت على هذه الخطوبة على مضض وخالك لم يمضِ على وفاته الكثير.

– كانت تحبه حبًا شديدًا، فهو كان والدي فعليًا بعد وفاة أبي بل كان أبانا أنا وأمي.

ترقرقت عينيها بالدموع، وضع فارس يده على كتفها قائلًا في حنو:

– ليس هذا وقت البكاء يا ريم، سيبدأ بعد قليل الجزء الثاني من المحاضرة.

سمعا صوت نحنحة من خلفهما فمسحت دموعها بسرعة والتفت إلى منظم المحاضرة الذي قال لها:

– سنبدأ الآن، هل أنتِ مستعدة؟

هزت رأسها وهي تمتم بكلمات مختنقة وقد كبحت رغبة جارفة في البكاء، هز الرجل رأسه وانصرف عنها، بدأ الحضور في الوفود إلى القاعة يتخذون أماكنهم وأصواتهم الخافتة تثير صخباً عالياً، مال نحوها فارس يرسم ابتسامة مشجعة على شفتيه ويقول:

– أبهريني مرة أخرى.

هزت رأسها وهي تفرض ابتسامة على شفتيها تقول:

– سأفعل.

انتظم الحضور في أماكنهم واعتلى منظم المحاضرة خشبة المسرح وبجواره ريم ينوه للحاضرين عن بدأ القسم الثاني من المحاضرة، لتتناول منه ريم الميكرفون وهي تشكره وقد عاد إليها حماسها الأكاديمي، قالت مُمازِحَة:

– أرجو ألا أكون قد أزعجتكم في القسم الأول من المحاضرة.

أتَتْها همهمات البعض التي تنفي ذلك فهزت رأسها قائلة:

– جيد.

ضغطت على زر الريموت مرة أخرى وهي تستعرض خريطة إيران اليوم لتقول:

– إلقائي الضوء على نشأة الدولة الصفوية هام للغاية لأنه مَثَّلَ مُنحنىً خطيراً في تاريخ إيران الحديث، فتذكروا أن إسماعيل الصفوي فارسي الأصل وكثير من السنة الذين كانوا موجودين بإيران وأعمَلَ فيهم سيفه وأجبَرَ بعضهم على التحول للمذهب الشيعي الإثنا عشري تعود أصول أغلبهم إلى العرب...
تذكروا هذا الأمر جيدًا...

كانت هناك عرقيات أخرى سنية ولكن أبرزها من لديهم أصول عربية وهم الأغلبية، وبالتالي هنا السؤال، هل ما يحدث الآن بالفعل صراع طائفي أو مذهبي أم هو في حقيقته صراع عرقي بامتياز؟

رفعت يدها قائلة:

- قبل أن أجيب على هذا السؤال، دعوني أضع بين أيديكم عدة أمثلة، هل يعرف أحدكم في عهد أي خليفة تم فتح بلاد فارس؟

رفع الكثيرون أيديهم فابتسمت ريم وهي تقول:

- فلتجيبوا جميعًا.

أجاب الجميع في صوت واحد:

- عمر بن الخطاب.

- بالضبط، عمر بن الخطاب، ولماذا أُلقي الضوء على عمر بن الخطاب تحديدًا؟ لا بد أن لذكره الآن في هذه المحاضرة دلالة قوية، ولكن أعذروني قليلًا وسايروني، هل يذكر لي أحدكم إسمين فقط ممن شاركوا في فتح بلاد فارس والعراق.

رفع شاب يده فأشارت إليه فتقدم من الميكروفون المثبت أمام الصفوف الأولى يقول:

– على حسب ما أتذكر خالد بن الوليد وسعد بن أبي وقاص.

– بالضبط، أيضًا ثبتوا هذه الملحوظة في ذاكرتكم بشكل مؤقت، طبيعة الصراع الشيعي السني بإيجاز شديد محوريها علي ومعاوية، هل حفظتم هذه المعلومة؟

هز البعض رؤوسهم فقالت في حماس:

– جيد، الآن أسمعوا هذه الأسماء جيدًا: الإمام علي بن أبي طالب، الإمام الحسن، الإمام الحسين، الإمام علي بن الحسين الملقب بزين العابدين، الإمام محمد الباقر، الإمام جعفر الصادق، الإمام موسى الكاظم، الإمام علي الرضا، الإمام محمد الجواد، الإمام علي الهادي، الإمام حسن العسكري، الإمام محمد المهدي، إثنى عشر اسمًا المكون للمذهب الشيعي الذي تدين به إيران والذي أسست على أساسه الدولة الصفوية على يد اسماعيل الصفوي.

استدارت إلى الشاشة الكبيرة من خلفها تضغط على زر الريموت، ليظهر جدول فيه الاثني عشر اسمًا، وجهت الإشارة الضوئية في الريموت إلى إسم الإمام علي بن أبي طالب وهي تقول:

– هاشمي عربي.

وجهت ضوء الليزر إلى الاسم الثاني وهي تقول:

– هاشمي عربي كذلك الإمام الحسين، الآن فلنتوقف.

استدارت للجمهور تبتسم ابتسامة خبيثة وتُحجِمُ عن الكلام لثانية قبل أن تقول:

– باقي الأسماء الواردة في هذه القائمة لها أصول فارسية.

سمعت شهقات البعض، فهزت رأسها قائلة:

– نعم، هي مفاجأة بكل تأكيد، وهذا لأن الإمام الحسين من ضمن زيجاته فارسية أنجبت له الإمام زين العابدين وكذلك الإمام زين العابدين تزوج من فارسية أنجبت له الإمام محمد الباقر وهكذا.

عقدت حاجبيها وهي تقول:

– وهنا يأتي سؤال هام، ألم يكن للإمام علي بن أبي طالب أبناء آخرون غير الإمام الحسن والحسين، نعم فلقد تزوج من بعد السيدة فاطمة وأنجب ذكوراً وإناثاً، أثق تمامًا أنكم لا تعرفون عنهم شيئًا.

هز البعض رؤوسهم نفيًا، فهزت كتفيها تقول:

– هل سمعتم عن محمد بن الحنفية شقيق الإمام الحسين؟

لم تنتظر الجواب منهم فوجوههم الواجمة كانت الإجابة الكافية بالنسبة لها، فاستطردت بنفس وتيرة الحماس:

– حتى أنه من الغريب ألا يكون لهؤلاء ذِكرٌ سوى شذرات في كتب التاريخ السنية أيضًا وينعدم ذكرهم تمامًا في كتب التاريخ الشيعية.

رفعت سبابتها اليمنى فابتسم فارس وهو يتذكر أنها تتشابه إلى حد كبير مع سلوكيات الدكتور معاذ وهو يسمعها تقول:

– بل الأكثر دهشة من ذلك، لماذا لم يتم تنصيب أي من ذرية الإمام الحسن إمامًا لآل البيت، الإجابة بكل بساطة لأنه لم يكن من ذريته من له أصول فارسية بمثل ما هو متواجد في ذرية الإمام الحسين، هذا هو الأمر بكل بساطة...
مما يعطينا فكرة واضحة عن أن المذهب الشيعي الاثنا عشري هو مذهب يمثل أيدلوجية عرقية فارسية والآن إيرانية والمثير للدهشة أيضًا أن أي من أئمة آل البيت الذين ذكرت اسمائهم لم يشاركوا في أي ثورات على خلفاء الدولة الأموية أو خلفاء الدولة العباسية اللهم إلا زيد بن علي، ولا يعترف الشيعة الاثنا عشر بإمامته لأن أمه عربية!

الهمهمات تتعالى بين الحضور ثم تخفت تدريجيًا وهم يشاهدون ريم تتحرك فوق خشبة المسرح لتصل إلى حافتها وتقف عليها قائلة:

- محمد النفس الزكية هو حفيد الإمام الحسن ممن خرجوا على خلافة أبي جعفر المنصور وقد أوفد إليه الخليفة جيشاً يرأسه المنصور ابن عمه عيسى بن موسى بن محمد العباسي، فأقبل عيسى حتى أناخ قرب المدينة، وكتب إلى كبراء أهلها يستميلهم ويمنيهم، فتفرق عن النفس الزكية الكثير وبقي معه القليل، خرج محمد النفس الزكية ومن معه فقاتلوا قتالًا شديدًا، حتى قُتِل عند أحجار الزيت موضع قرب المدينة على يد جيش أبي جعفر المنصور، واجتزوا رأسه.

التقطت أنفاسها من فرط انفعالها ثم استطردت بهدوء:

- دائمًا كانت الثورة تأتي على يد أبناء الحسن وليس أبناء الحسين.

انتبه فارس على أثر اضطراب حركة منظم المحاضرة وهو ينظر إلى شيءٍ ما خلفه، فأدار فارس رأسه سريعًا إلى الخلف، ليشاهد رجلاً طويل القامة بشكل ملحوظ تطابق مواصفات جسده السفاح، يفتح إحدى بابي القاعة ويغادره، غادر فارس مقعده لينعقد لسان ريم بعد أن همَّت بالمواصلة وهي تتابع فارس يبتعد...

سرت همهمة بين الحضور، فانصرفت عن متابعتها لفارس على أثر كحكحة من منظم المحاضرة، تلمح بطرف عينيها فارس وهو يثب

على الدرجات المؤدية إلى باب القاعة فظهر الارتباك جليًا في صوتها وهي تواصل:

- وبالعودة مرة أخرى إلى عمر بن الخطاب، تجدون أن...

تتوقف قليلًا عن الكلام كأنها نسيت ما كانت ستقوله للتو، عقدت حاجبيها وهي تشاهد فارس يغادر القاعة، حاولت أن تستعيد توازنها وهي تقول:

- أن ذكر اسم عمر في الكتابات والأحاديث والخطب الشيعية هو الأكثر، في حين أنه من المنطقي أن يتم ذكر اسم معاوية أكثر منه وذلك نتيجة لصراعه المباشر والمحتدم مع الإمام علي، فهو الأولى بهذا الذكر ولكن يحدث العكس أن يتردد اسم عمر بن الخطاب أكثر منه ويتحول إلى أيقونة شيطانية في أدبياتهم وينال نصيب الأسد من كراهية الشيعة ..

إذا نظرنا للأمر من منطلق أنه صراع مذهبي بحت، نجده لا يستقيم ولكن إذا نظرنا له من منظور أنه صراع عرقي بحت نجده متناغم بشكل كامل، أيضًا إذا قام أحدكم بالاطلاع على ما ورد في ذكر خالد بن الوليد أو سعد بن أبي وقاص في الكتابات الشيعية، ستجد أنها تتسم بالهجوم والتشويه الشديد لهما لأنهما

من القادة الذين فتحوا بلاد فارس ومتى تم ذلك في عهد عمر بن الخطاب.

عادت إلى المنبر تضع الريموت وتغلق ملف عرض الشرائح وتقوم بتثبيت الميكرفون في مكانه قائلة:

- وبهذا يمكن بشكل واضح أن نحلل أن توجهات إيران السياسية العنيفة في منطقة الشرق الأوسط ومن بسط سيطرتها على العراق ثم سوريا الآن وبسط سيطرتها على لبنان من خلال ذراعها العسكري حزب الله...
وأيضًا دعمها العسكري والاقتصادي للحوثيين في اليمن وإثارتها للقلاقل والفتن في البحرين والمنطقة الشرقية بالمملكة العربية السعودية لهو خير دليل على أن هذا الصراع ظاهره مذهبي بين سنة وشيعة...
ولكن في حقيقته هو صراع عرقي بين العرب والفرس ولدى الفرس أو فلنقل الإيرانيين حاليًا رغبة جامحة في الانتقام من العرب الذين غزوا بلادهم منذ أربعة عشر قرنًا وأتوا على حضارتهم الفارسية التي يتغنون بها ويمجدون فيها حتى يومنا هذا، لا تستغربوا ذلك.

ابتلعت ريقها وقد شعرت بجفاف في حلقها، لا تعلم هل هو مصدره الخوف الذي يعتريها في ظل غياب فارس؟ وعشرات التخيلات المفزعة تداهم رأسها الآن أم نتيجة لمواصلتها الحديث لفترة طويلة أم هذين السببين مجتمعين معًا، استطردت في شبه فتور قد تسلل إلى صوتها:

- فإيران لا تزال تحتفل بعيد النوروز، هذا نطقه بالفارسية ويعني بالعربية (اليوم الجديد) ويسميه العرب عيد النيروز، وأتت هذه التسمية من أن اليوم الأول من السنة الفارسية يترافق مع بداية فصل الربيع وتحول الطبيعة وتعود الاحتفالات بهذا العيد إلى أكثر من ٢٠٠٠ سنة مضت، ولا يزال يحتل مكانة كبيرة لدى الإيرانيين حتى بعد انتصار الثورة الإسلامية.

همهمات أخرى تسمعها بين الحضور، تناست للحظة توترها الناجم عن مغادرة فارس للقاعة وهي تقول بحماس عاد إلى صوتها بعد الفتور الذي تسلل إليه:

- أيضًا؛ عيد المهرجان في إيران ويمثل المهرجان أحد الأعياد المهمة للإيرانيين في منطقة الجنوب الغربي وهو بهذا يعتبر عيدًا قاصرًا على بعض الأقاليم الإيرانية فقط. والمهرجان هو يوم بداية الخريف وعلى الرغم من أن الخريف يعد نهاية السنة

الإيرانية إلا إن العام كان يبدأ عند الإيرانيين في العصور القديمة من الخريف وليس من الربيع وقد تأثروا في ذلك بعادات اليهود.

آثرت الصمت لثانية وهي تجيل بصرها في وجوه الحاضرين اليقظة وذلك الاهتمام الشديد البادي على وجوههم فتستطرد قائلة:

– أشكركم على حسن استماعكم وأتمنى أن تكون المحاضرة نالت إعجابكم.

أتاها الرد سريعًا من خلال التصفيقات الحارة التي ضجت بها القاعة وقد وقف الحضور تباعًا يصفقون لها بحرارة شديدة، ابتسمت في سعادة ولكن لم يفوتها أن تلقي نظرة خاطفة على باب القاعة المغلق لتزداد خفقات قلبها، يسرع منظم المحاضرة لاعتلاء خشبة المسرح لتفسح له ريم المجال فيقترب من الميكروفون قائلًا:

– والآن حان موعد الأسئلة ولكن نظرًا لضيق الوقت فالمتاح أمامنا أن نتلقى عشرة أسئلة فقط وستكون إجابة الأستاذة ريم على كل سؤال في حدود الدقيقتين فقط لأنه تبقى من وقت المحاضرة نحو العشرين دقيقة، شكرًا لكم.

في هذه الأثناء كان فارس يقف في الساحة الخارجية لمكتبة الإسكندرية يدور حول نفسه وصدره يعلو ويهبط بسرعة، وجهه محتقن على الرغم من هواء البحر البارد الذي يضرب وجهه، لا يرى

أثرًا للسفاح، هل ذلك الرجل طويل القامة الذي غادر القاعة هو السفاح بالفعل...

لا يعلم يقينًا ولكن ما يعلمه أنه كان في هذه القاعة وإلا كيف التقط هذه الصورة لريم وهي فوق خشبة المسرح، السفاح يتلاعب به، لو كان الهدف هو إبعاده عن القضية فهو من الممكن أن يتخلى منذ هذه اللحظة عن القضية، لا يحتمل فكرة أن تتعرض ريم لأي أذى بسبب استمراره في هذه القضية ولكن كيف يصل إليه ليخبره بذلك، كيف؟

يرن هاتفه الجوال، يستطلع الرقم الغريب الذي يهاتفه وكأن السفاح سمع نداء عقله، أي شيطانٍ هذا، يجيب الاتصال ليأتيه صوت السفاح غاضبًا منفعلًا:

- لم يكن من المفترض أن أتصل بك، ولكن تلك العلمانية الكافرة أغضبتني إلى حد بعيد.

يتوقف عن مواصلة الحديث وفارس يسمعه يلهث من فرط انفعاله، يتقدم فارس بضعة خطوات باتجاه الشارع يبحث في وجوه المارة عن شخص يقف على مقربة من المكان ولكن دون جدوى، يخترق أذنه صوت السفاح المنفعل مرة أخرى:

- حقيقة لا أعلم ما هي البشارات التي يراها فيك سماحته، حتى يرفع يدي عنك، أي بشارة في شخص يرافق تلك الكافرة.

– ربما أنت المضلَّل.

– لم يكن من المفترض أن أتصل بك.

ظل يرددها وهو يلوم نفسه ثم أنهى المكالمة بشكل مفاجئ، سَبَّهُ فارس في غضب وهو يضع يده اليسرى فوق شعره، ينظر بيأس إلى الشارع شبه الخالي من المارة وبعض السيارات التي تمر من أمامه سريعًا...

يعود أدراجه إلى البوابة ليجد ريم تغادرها وتقف على أعتابها يجاورها منظم المحاضرة الذي يتحدث إليها بحماس شديد وابتسامة واسعة تفترش شفتيه، تهز رأسها في شرود وتحاول أن ترسم ابتسامة على شفتيها تفشل في الاحتفاظ بها وهي تهز رأسها، ينهي الآخر حديثه معها ورفع يده يُحَيِّي فارس الذي بادله التحية بشرود، في حين اندفعت ريم نحوه تقول في خوف:

– ما الأمر يا فارس؟

– لا بد أن نغادر هذا المكان على الفور يا ريم.

– لماذا؟

– لأنه في الجوار يا ريم وقد أثارته محاضرتك كثيرًا.

ردت مصعوقة يصحب صوتها خوف شديد:

– كيف تمكن من حضورها؟ كيف؟

– لا أعلم يا ريم، لا أعلم.

كان يمسك ذراعها، حاول أن يكبح ذلك الارتعاش الذي أصاب جسده كله حتى لا ينتقل إليها ولكنها لم تكن بحاجة إلى من يبث لها الخوف فجسدها كله يرتجف من الخوف، تحرك بها مسرعًا باتجاه سيارته، وهي تسأله:

– والآن ماذا سنفعل؟

أجرى اتصالاً هاتفياً وهو يقول:

– سأتصل بالعقيد فورًا.

سارت إلى جواره صامتة، وهي تراقب انفعالات وجهه المتقلبة بين التوتر والعصبية الشديدة، توقفا أمام السيارة يفتح لها باب السيارة وهو ينهي المكالمة، تسأله في صوت خائف:

– ماذا؟

– إنه لا يرد.

أغلق الباب يجري اتصال آخر وهو يقف أمام مقدمة السيارة، يدور حول نفسه، ثم توقف مكانه يتحدث إلى الطرف الآخر بعصبية وهو يضع يده اليسرى فوق رأسه، يدور حول نفسه مرة أخرى، يلوح حينًا

بيده اليسرى ثم يضعها في جيب بنطاله، ينهي الاتصال متجهًا إلى بابه يفتحه ويتخذ مكانه في عصبية، لم ترغب في سؤاله وهو على هذه الحالة من العصبية الشديدة، فضلت أن تنتظر حتى يهدأ...

أدار محرك السيارة وهو ينظر بريبة إلى مرآة سيارته الداخلية، لا ترغب في الالتفات ورائها لترى ما يشاهده، أعاد عينيه ينظر إلى الزجاج الأمامي، أغمض عينيه للوهلة، وضعت يدها على يده التي ترتعش من الغضب والانفعال تقول برقة حاولت أن تتخلى فيها عن أي نبرة خوف:

– لا تقلق يا فارس، سأكون بأمان، لا تقلق.

هز رأسه ولم يرد عليها، فتح عينيه يقول بصوت حاول أن يصبغ عليه الهدوء قدر المستطاع:

– لقد أخبرني أنه سيرسل رجلًا شرطيًا إلى بيتك في الصباح الباكر، سيلازمك طوال المدة القادمة حتى ينتهي كابوس هذا السفاح.

– إذن فلتهدأ يا فارس، الأمور على ما يرام.

هز رأسه وقد بدا غير مقتنعًا وهو يقول:

– تلك البيروقراطية السخيفة التي تمنعه من أن يوفد شرطيًا الآن، تجعلني أكره هذه البلد وأمقتها بشدة.

– لا بأس، هون عليك.

حاولت أن تصبغ صوتها بالمزاح لتتغلب به على توترها وهي تقول:

– أنا معك الآن في السيارة وبعد قليل ستقلني إلى البيت، كيف سيطولني؟ داخل غرفة نومي مثلًا.

عقب فارس بغضب ممزوج بالسخرية:

– ربما.

ضربته في ذراعه اليمنى تهتف في حدة:

– يا سخيف، ستجعلني لا أنام طوال الليل.

أهتز جسده بالضحك وهو ينظر نحوها، ران الصمت للحظات وهو يتأمل وجهها ثم قال بنبرة حانية:

– أنا أحبك كثيرًا يا ريم، أريدك أن تعرفي ذلك.

لم ترد بل اشاحت بوجهها بعيدًا، ضحك مرة أخرى وهو يتحرك بالسيارة قائلًا:

– أحب خجلك هذا.

لم تعلق بل ظلت تنظر بعيدًا ثم قطعت الصمت قائلة بلهجة آمرة منحتها دلالاً أنثوياً:

- أنا الآن استحق نزهة طويلة على طول شاطئ الإسكندرية مكافأة لي على محاضرتي الرائعة.
- أنتِ مغرورة.

التفتت إليه تتصنع الغضب وهي ترد:

- من حقي أن أغتر، لا تنسى أن محاضرتي جعلته يثور، هذا لا يعني إلا أنها محاضرة رائعة بالفعل، وبهذه المناسبة سأعيد قص الجزء الأخير الذي فاتك من المحاضرة حتى لا تتركني بمفردي مرة أخرى.

اشتركا في ضحكة مجلجلة، والسيارة تنحرف يمينًا لتلتحم بالسيارات المنطلقة بسرعة على طريق الكورنيش، قصت عليه بسرعة ذلك الجزء الذي انشغل فيه بتعقب السفاح وهو يستمع إليها باهتمام ثم تبادلا الكثير من الأحاديث الضاحكة تتخللها فترات صمت كانت ضرورية لكليهما، يتأملا فيها بعضهما البعض والعشرات من كلمات الحب تتأرجح في المسافة الضيقة الفاصلة بينهما، تستقبلها الأعين لتترجمها إلى ابتسامات ونظرات خجولة منها، ثم ينخرطان في حديث آخر ضاحك.

- فارس.

هتفت به ليلتقي حاجبيه في استغراب، رفعت عينيها من على شاشة الهاتف تقول في توتر:

- عد إلى البيت سريعًا، إنها الحادية عشر والنصف، أمي ستقتلني وتقتلك.

ضحك فارس وهو يضغط على دواسة البنزين يمازحها قائلًا:

- علم وسينفذ.

قطعا المسافة الباقية في سرعة، استغرقت بالفعل نصف ساعة ولكنها بدت لهما دقائق معدودة، توقف بسيارته إلى جوار مدخل البناية، هم بأن يغادر سيارته، ولكنها استوقفته قائلة:

- لا تصعد.

- لماذا؟

- لن يسرك ما ستسمعه من أمي، فهي شديدة الحزم والصرامة، لقد تحولت إلى رجلٍ عسكريٍ بعد وفاة أبي.

هز رأسه وابتسامة هادئة تظلل شفتيه ولكنها انقلبت للتوتر مرة أخرى وهو يقول:

- ولكن أخشى أن...

- لا تنطقها يا فارس، أرجوك، تفاءلوا بالخير تجدوه.

عادت الابتسامة ترتسم على شفتيه مرة أخرى، ألقت عليه السلام فاستوقفها قائلًا:

- هل من الممكن أن آتي غدًا أم أن الأمور لن تكون...

ضحكت قائلة:

- لا تقلق، أمي طيبة القلب، فور أن تستيقظ غدًا ستنسى كل شيء.

- جيد.

- السلام عليكم.

- وعليكم السلام.

ظل يتابعها وهي ترتقي درجات السلم حتى توقفت أمام المصعد، تلتفت إليه مرة أخرى ملوحة له بيدها اليمنى فلوح لها مبتسمًا، انفتحت أبواب المصعد لتدخل إليه وتستدير له ترفع يدها مرة أخرى تُحَيِّيهِ، حياها برأسه وأبواب المصعد تغلق، شعر بانقباض مفاجئ يعتصر قلبه، حاول أن يستبعده ليستعيد شعور السعادة الذي كان يرافقه منذ فترة قصيرة، أطلق نفخة طويلة ثم تحرك بسيارته.

أغمضت عينيها تستعيد تلك الأحداث الطازجة في رأسها فتتبسم، أطلق المصعد صفيره القصير وهو يقف عند الطابق المنشود، فُتِحَت

أبواب المصعد لتنتفض في شدة وهي تشاهد أمامها رجلاً طويل القامة له شارب كث يبتسم لها ابتسامة مخيفة، يندفع للداخل لتتراجع تلقائيًا بضعة خطوات فيصطدم ظهرها بحائط المصعد من ورائها والآخر يقول:

- هل أنتِ مستعدة يا آنسة ريم لخوض التجربة؟

~~~~~~~
~~~~~~~

الفصل السادس

"وإذا خرج اليماني فانهض إليه فإن رايته راية هدى"

(١)

منذ فترة طويلة لم يغمر فارس مثل هذا الشعور بالسعادة، ومع أنه سبق أن اختبر شعورًا مشابهًا لهذا مع صديقته ليندا البريطانية، لكن لم يكن جارفًا وقويًّا بمثل ما يختبره مع ريم اليوم، وبالرغم من التوتر البالغ الذي أصابه أثناء محاضرتها بمكتبة الإسكندرية وتخيلاتٍ مخيفةٍ راودَتْهُ عن ظهورٍ للسفاح في وسط الحاضرين، لكن كل ذلك تبخر بمجرد أن غادرا المكان...

ضاعف من شعوره بالسعادة عروجه بالسيارة على البحر ليستمتعا سويًّا بهواء البحر المالح وابتسامة رقيقة كانت تظلل شفتيها؛ حفرتها ذاكرته المُتَّقِدَةُ بالعاطفة.

كانت السيارة تتهادى فوق الطريق. لم يُرِد أن يقطع المسافة الفاصلة بين بيتها وبيته بسرعة، وآثر أن يبطئ من سرعة السيارة حتى يطول به أمد استرجاع الذكريات الطازجة للقائهما اليوم؛ فهو الأول الذي له نكهة مختلفة بعد إعلان خطوبتهما.

قطع استغراقه في تأملاته رنين هاتفه الجوال، فافترشت شفتاه ابتسامةً واسعةً وهو يتوقع أن تكون هي. تناول الهاتف من المقعد المجاور له يستطلع صورتها على الشاشة، ولكنه عقد حاجبيه وهو يتلقى اتصالًا من رقم غريب.

أجاب الاتصال وقلبه يخفق في خوف لا يعرفه كُنْهَهُ، وعقله يسب ويلعن لإفساد هذه اللحظة السعيدة التي كان يعيشها... لم يرد أن يتلقى أي اتصالات الآن عن ضحايا جدد أو أرقام مجهولة تعكر صفو الأمسية الجميلة.

ـ أستاذ فارس.

بشكل لا إرادي ضغط على دواسة الفرامل لتتوقف السيارة بشكل فُجائي وإطارات السيارة تطلق صريرًا مزعجًا، ليأتيه اعتراض سريع من بوق سيارة كانت تسير خلفه، فاستفاق من ذهوله وتحرك بالسيارة إلى جانب والطرف الآخر على الهاتف يضحك.

سَبَّهُ سائق السيارة الأخرى وهو يتجاوزه، لم يلق إليه بالًا وهو يصغي السمع لصاحب الصوت، فهو يعرفه جيدًا. إنه السفاح الذي التقى به منذ أسبوع في تلك الفيلا. هذا هو الاتصال الذي أخبره عنه وأنه سيكون قريبًا جدًّا...

اتصال قلب كيانه رأسًا على عقب.

ـ ماذا تريد؟

ـ لدي شيءٌ عزيزٌ عليك.

كان يجب أن يقفز اسم ريم إلى رأسه فورًا، أو معاذ مرةً أخرى!

لم يرد فارس بل ترك السفاح يمارس أدائه المسرحي المبتذل:

– حبيبة القلب.

تجمدت الدماء في عروقه، وشعر ببرودة مفاجئة في كل جسده... إنه مجرد كابوس مزعج سيستيقظ منه فورًا.

– هل ما زلت معي؟

حاول فارس أن يتمالك أعصابه، وأن يرد بهدوء، فالانفعال سيجعل السفاح منتشيًا طربًا وهو لن يهبه هذه اللحظة أبدًا:

– المفترض أنها غير مُدرَجَةٍ في القائمة فهي لا تنتمي لأي من العائلات التي ينتهي نسبها إلى معاوية.

– وهل الأمر يتعلق بمعاوية فقط؟

مرةً أخرى يحاول أن يفرض الهدوء فرضًا على نبرة صوته وهو يقول:

– لا حاجة لأن تؤذيها إذا كان الهدف هو إبعادي عن القضية، اعتبرني منذ هذه اللحظة خارج إطار التحقيقات.

جلجلت ضحكة السفاح، وبدا الأمر أبعد من كونها محاولة إرهاب أو تأديب لينسحب من القضية... تنهد السفاح وهو يقول:

– في كل مرة أعطي الضحية فرصةً لأن تنقذ نفسها، ولكن هذه المرة ستتغير قواعد اللعبة قليلًا، لتكون أنت الفرصة المتاحة أمامها لإنقاذها من الموت.

(الموت)! كلمة هبطت كالصاعقة على رأس فارس، لم تكن مفاجئةً، ولكنه حاول استبعادها بقدر الإمكان، وحاول التعلق بأي أمَلٍ واهٍ، ولكن لم يعد هناك من مفر، أسوأ ظنونه قد تحققت.

ـ وكيف ذلك؟

ـ يمكن أن تقول إنه أمامك...

سكت ليتلاعب أكثر بأعصاب فارس الذي حافظ على هدوء ظاهري يواري به بركانًا مشتعلًا؛ تتلظى ناره في جوفه.

ـ بضعة ساعات من الممكن أن تستغلها لإنقاذها.

ـ إني مُصْغٍ.

ـ جيد؛ الأمر عبارة عن لغز بسيط.

اللعنة... وألف لعنة... ليس هذا وقت الألغاز... ضرب فارس بيده اليسرى مقود سيارته، ليأتيه صوت السفاح متلذذًا بسماع هذه الجلبة:

ـ تمالك أعصابك يا أستاذ فارس، هذا ليس وقت الغضب.

نال الحقير ما يصبو إليه وهو يظهر غضبه وخوفه وتوتره البالغ... رد فارس وهو يجز على أسنانه:

ـ وما هو اللغز؟

ـ أربَعةَ عَشرَ يَشهدونَ ثأرَ أبِيهِمْ، إذا عرفت الإجابة عرفت المكان.

أنهى السفاح الاتصال أمام لحظة جمود من فارس الذي اعتصر بيمناه الهاتف الجوال، وجَزَّ على أسنانه بقوة من فرط انفعاله. حاول أن يُطَبِّق النصائح التي يسديها لمرضاه على نفسه، فأغلق عينيه وهو يطلق الزفير والشهيق عدة مرات. عاد إلى وجهه بعض الهدوء، ثم نظر إلى ساعة الهاتف الجوال، إنها تقارب الثانية عشر مساءً.

ماذا قال السفاح؟ أمامه بضعة ساعات ليستغلها، إذن؛ أمامه نحو ثلاث ساعات وربما أقل، فهو لن يُعوِّل على الوقت الذي حدده السفاح.

قرر أن يهاتف الدكتور معاذ على الرغم من ثقته التامة بأنه يغط في نومٍ عميق الآن. هاتفه ثلاث مرات، ولكن ما من مجيب. أطلق صرخة غضب مكتومة، وانتفض جسده كله... نظر إلى مرآة السيارة الداخلية ليجد وجهه محتقنًا بشدة...

بأصابع مُرتَعِشةٍ مسح على الشاشة ليضغط على أيقونة جوجل: ماذا قصد بأن هناك أربعة عشر سيشهدون ثأر أبيهم؟ هل كان يتكلم عن أربعة عشر شخصًا بالفعل أم أنها كِنايَةٌ عن اسم المكان الذي احتجزها فيه؟ هل هم أحياء أم أموات؟

صفحة محرك البحث جوجل بدأت تظهر تدريجيًّا أمامه وهو يهز الهاتف في يده يحثه على الإسراع أكثر، وكتب: (أربعة عشر) في مربع البحث.

- **الدرس الرابع والعشرون – ejtaal.net**
- **أربعة عشر – Wiktionary**
- **أربعة عشر ساعة أم أربع عشرة ساعة – منتديات طلاب الجامعة العربية...**
- **قائمة الأعداد – ويكيبيديا، الموسوعة الحرة.**
- **أربعة عشر يومًا من الانتصارات هزت إسرائيل | رأي اليوم.**
- **...**

لم يقرأ المزيد، فأمامه أكثر من ثلاثة ملايين موضوع يتناول هذا الرقم...

ماذا يكون هذا الأربعة عشر؟

احتلت الحيرة قسمات وجهه وهو يحاول أن يفكر في عشرات الاحتمالات للرقم أربعة عشر... هل هو يرمز لحدث ديني أم هو رقم مقدس يقوده في النهاية إلى ذلك المكان؟

حاول أن يرتب عددًا من الاحتمالات في رأسه، فراق له أحد الاحتمالات وهو يسبح أمام عينيه: (أربعة عشر رقم مقدس). فأسرع بكتابته في مربع البحث... أكثر من خمسين مليون نتيجة بحث!

- **مفهوم الأعداد والأرقام في الكتاب المقدس – ٥٩١٤، هل تعلم، دراسات أكاديمية...**

- **أرقام الكتاب المقدس (٤) – عدد رقم ٧٢ – مجلة نحو الهدف**

- **سبعة سابع | الرقم سبعة | St–Takla.org**

سبعة سابع: الرقم سبعة – شرح الكلمة – قاموس الكتاب المقدس | دائرة المعارف الكتابية المسيحية – معجم الكلمات العشرة في الإنجيل – كنيسة أنبا تكلا – إسكندرية – مصر.

- **أسرار الأرقام | مدونة محمد عيسى.**

- **...**

لم يكن لديه الوقت لأن يذهب إلى شقة الدكتور معاذ، فالوقت أمامه ضيق والساعة بلغت الثانية عشر بالضبط... كان الوقت يتآكل بسرعة خرافية، كأنه يتآمر عليه لصالح السفاح.

احتمالات أخرى تسبح أمامه الآن... يتوهج أمامه احتمال بعينه: (مكان باسم أربعة عشر). التقطه وكتبه في مربع البحث.

- **قائمة الأعداد – ويكيبيديا، الموسوعة الحرة.**

- **موسوعة المدن والمواقع في العراق – الجزء الأول: – Google Books Result**

- **أربعة عشر نور: باسم الكربلائي.**

(أربعة عشر نور) ... ربما يكون هذا مفتاح اللغز، سارع بالضغط على العنوان، ليجد أسماء لمرجعيات شيعية معاصرة، أغلبهم من العراق، فجز على أسنانه بعصبية وقد بدأ صبره ينفد. سيطرت الحيرة عليه، وبدأ اليأس يتخذ طريقه إلى عقله ليبطئ تفكيره.

هذا الملعون وضع له لغزًا يعلم أنه سيعجز عن حله، وكالعادة أعطى فرصة النجاة شبه المستحيلة، واقتنع أنه لن يعطي له الفرصة أبدًا لينقذ ريم.

كان عليه أن يتوقف عن بث هذه الأفكار السلبية التي بدأت تغزو رأسه، وأن يستعيد هدوءه مرةً أخرى، لقد تحدث عن أربعة عشر سيشهدون ثأر أبيهم.

(أبيهم)! تعني أبناء الحسين الذي قُتِل على يد أعدائه.

وهل ريم من أعداء الحسين؟ كيف ذلك فنسب عائلاتها لا ينتهي بأي حال من الأحوال إلى معاوية أو أي من أبنائه؟

صاح محنقًا:

ـ توقف عن الجدال!

لفت صياح فارس انتباه مار، فنظر نحوه مستغربًا ثم ضرب كفًّا بكف وهو يمضي في طريقه.

فكر مرةً أخرى، حسنًا، إذن؛ كان عليه أن يبحث في إطار أن هؤلاء الأربعة عشر هم من أبناء الحسين، فقد يكون هذا خيطًا جيدًا للبحث... نظر إلى ساعة الهاتف فزاد توتره، فحاول أن يصبغ الهدوء على انفعالاته الداخلية.

الاحتمالات تواثَبَت أمام عينيه مرةً أخرى، وتوهج أحدها فأسقطه في مربع البحث: (أربعة عشر من أبناء الحسين) ... لم يفزع لأن احتمالات البحث تصل إلى أكثر من اثني عشر مليونًا.

- الحسين بن علي – ويكيبيديا، الموسوعة الحرة.
- الحسن بن علي بن أبي طالب – ويكيبيديا، الموسوعة الحرة.
- ذرية الإمام الحسين بن علي بن أبي طالب رضي... – آل عجلان السادة الأشراف...

(ذرية الإمام الحسين)! ضغط على هذا العنوان، وجرى فوق السطور بسرعة، وعيناه تظللان بضعة سطور باللون الأصفر: "وقد انحصرت ذرية الحسين الشهيد في ابنه علي زين العابدين، ولا عقب من سواه باتفاق النسابين"...

ولكن السفاح ذكر أربعة عشر شخصًا، كيف لا يكون له إلا واحد... كان لا بد أن يتخلص من انفعاله حتى يصفي ذهنه باتجاه الحل. فركز القراءة أكثر على زين العابدين، فقد يكون الأربعة عشر من أبنائه:

"بقي عقب علي زين العابدين في ثلاثة منهم في المدينة النبوية، وهم: زيد الشهيد، ومحمد الباقر، والحسين الأصغر"...

بدا أنه لن يصل إلى نتيجة، وبلا شك؛ السفاح تلاعب به. فحاول بيد مرتعشة الاتصال مرةً أخرى بالدكتور معاذ الذي لم يجب اتصاله، فأوشك أن يبكي... سيفقد ريم، بلا شك؛ سيفقدها بسبب لغز سخيف. ربما هو لغزٌ مخادِعٌ لن يقوده إلى شيء. أحس أن السفاح لن يترك له فرصةً لإنقاذها. وهذه فرصة مستحيلة كما حدث مع كل ضحايا السفاح.

لم يكن لديه بديل على الرغم من شكه في أنه يتلاعب به، ولم يستطع تجاهل هذا اللغز، فهو وإن لم يقده إلى شيء، فهو أَمَلٌ واهٍ قد يؤخِّرُ الجنون الذي أوشك أن يستبد به.

رن هاتفه الجوال واسم الدكتور معاذ يسطع أمامه، فأجاب الاتصال فورًا ليصيح بانفعال:

ـ دكتور معاذ، أربعة عشر سيشهدون ثأر أبيهم، إذا عرفت الإجابة عرفت المكان.

ـ ماذا؟!

ـ أرجوك يا دكتور، حياة ريم في خطر.

الصمت أحكم سيطرته على الموقف وصبر فارس نفد فصاح:

– دكتور معاذ، أرجوك ساعدني، حاولت البحث عما يقصده هذا السفاح ولم أهتدِ.

– أنا...

انقطع الدكتور عن الحديث، فنظر فارس إلى ساعة هاتفه ليجدها تشير إلى الواحدة وربع، ثم أعاد الهاتف الجوال إلى أذنه ليتهدج صوته قائلًا:

– أرجوك يا دكتور معاذ؛ لا أريد أن أفقدها، أرجوك، حاول.

– إني أحاول يا فارس، أحاول.

أنهى فارس الاتصال وقد انهارت قواه، فهل يترك لدموعه المحبوسة العنان لتتحرر من أسرها؟ أوقف انهياره رنين هاتفه مرةً أخرى ليظهر أمامه رقم والدة ريم، أغلق عينيه في ضيق ثم رد:

– ألو.

– السلام عليكم يا فارس، لقد تأخرتما كثيرًا، ومن غير اللائق أن تبقى ريم حتى هذا الوقت خارج البيت، كنت أحسبك أعقل من ذلك.

حاول أن يحتوي نبرتها الغاضبة وهو يصطنع الهدوء قائلًا:

– نحن في طريق عودتنا الآن، لقد اقتربنا من البيت.

– جيد؛ ولكن سيكون لي كلام آخر معك يا فارس.

هز رأسه والدموع تهرب من عينيه، قال بصوت حاول أن يجعله متماسكًا:

- حسنًا.

أنهى الاتصال، وتطلع إلى شاشة هاتفه بيأس: هل سيتصل به الدكتور؟ ما كاد ينتهي من ذلك السؤال الذي صدع به عقله حتى رن هاتفه، فقرب الهاتف إلى أذنه يجيب الاتصال بلهفة:

- مجمع الأضرحة يا فارس، مجمع الأضرحة.

انعقد حاجبا فارس متسائلًا في ارتباك:

- مجمع ماذا؟

- مجمع أضرحة الأربعة عشر محمدًا وهم أولاد علي زين العابدين ابن الإمام الحسين، الذين نزحوا إلى الإسكندرية عقب استشهاد الحسين، وعاشوا فيها وماتوا هناك، وتم اكتشاف مدافنهم في عهد محمد علي باشا؛ الذي أمر بجمعهم بجوار بعضهم في مكان واحد بين مسجدي أبي العباس والبوصيري.

- شكرًا يا دكتور، شكرًا.

أنهى فارس الاتصال وهو لا يسمع آخر ما قاله الدكتور، وألقى الهاتف على المقعد المجاور، وتحرك بالسيارة مسرعًا وإطارات السيارة تطلق صريرها. حاول أن يسابق الزمن حتى يصل إلى المكان،

فالساعة أشارت إلى الواحدة والنصف، وكان يلزمه ما لا يقل عن نصف ساعة حتى يصل إلى منطقة المرسى أبو العباس.

اتخذ إحدى الطرق المؤدية إلى الكورنيش... اتصال آخر أتاه من والدة ريم، فتجاهله، وهو يلحظ أن عداد السيارة يتقافز إلى المائة، موتور السيارة كان يصرخ، ولكنه لم يأبه لذلك، وحاول أن يعصر دواسة البنزين تحت قدمه ليجبر السيارة على المزيد...

تخطى العداد المئة، وصخب الموتور يتعالى أكثر، كان يتفادى عددًا من السيارات بصعوبة والسيارة تتراقص على الطريق يسارًا ويمينًا، فلم يعد بإمكانها مواكبة هذه السرعة العالية والحفاظ على توازنها.

لم يأبه إلى كل ذلك واستمر في الضغط أكثر على السيارة وبعض سائقي المركبات يسبه... تجاوز المنشية واتصال آخر من والدة ريم زاد قلبه اعتصارًا وحزنًا، فتجاهله مرةً أخرى.

وصل إلى منطقة المرسى أبو العباس، فضغط دواسة الفرامل بكل قوته لتصرخ إطارات السيارة وهي تتمايل يمينًا ويسارًا حتى أوقفها بصعوبة إلى جانب رصيف الكورنيش وسائق سيارة أجرة يتجاوزه بصعوبة ويسبه.

غادر سيارته ركضًا وهو يمسك هاتفه الجوال؛ وينتظر أي مكالمة من السفاح. نظر إلى ساعة الهاتف وهو يقطع الطريق غير مبالٍ بالسيارة التي حاولت تفاديه وهي تفرمل.

وصل إلى ساحة المساجد، ووقف في منتصفها والتي تواجد فيها مع العقيد وأيمن وعدد من رجال الشرطة منذ فترة قريبة، راح صدره يعلو ويهبط بسرعة: أين مجمع الأضرحة الأربعة عشر هذا؟

لفت نظره رجل عجوز يتكئ على عصا ويسير ببطء، فركض نحوه، واستوقفه ليستريب الرجل من وجهه المحتقن وأنفاسه اللاهثة، فتراجع خطوتين وهو يتشبث بعصاه بقوة، وسأله فارس:

ـ أين بالضبط مجمع أضرحة الأربعة عشر محمدًا؟

ـ الأربعة عشر ماذا؟

يصيح فارس بنفاد صبر:

ـ أرجوك.

انتفض المسن فزعًا، وحاول أن يهدئ فارس من روعه قائلًا:

ـ آسف يا حاج، أرجوك ساعدني.

أشار العجوز بأصابع نحيلة مرتعشة إلى مكان يبعد عدة أمتار مضاء باللون الأخضر بدون أن يفتح فمه، شكره فارس وهو يركض

باتجاه المكان، توقف أمام الباب الموصد، ونظر إلى ما حوله ليجد الطريق خاليًا من المارة...

اقترب من الباب يمد يده ليدفعه فانصاع معه الباب، تسارعت دقات قلبه، وهو يدلف إلى المكان ليجد أمامه ساحةً واسعةً مغطاةً بسجاجيد خضراء اللون طولية، خلع حذاءه، ودخل إلى المكان بحذر، وضع حذاءه في جانب، وجال ببصره في المكان متوقعًا ظهور السفاح من أي جهة، ولكن لم يجد شيئًا.

تهادى إلى مسامعه صوت إنشاد خافت، شيء أشبه بالموشحات الدينية، ولكن بدا مختلفًا بعض الشيء، ووقعت عيناه على ساتر أخضر في نهاية رواقٍ مُضاءٍ بلون أبيض ساطع. كان يسمع دقات قلبه المتسارعة جليةً في أذنيه... توجه بخطوات بطيئة نحو هذا الرواق القصير، وصوت الإنشاد الخافت يعلو أكثر.

"الليلة وافَتْها المَنيَّة... وَيلي وا وَيلاه

وَيلي عالزَّهرة الزَّجية... وَيلي وا وَيلاه"

قرأت عيناه سريعًا كلمات ذهبية اللون منقوشة على ذلك الساتر القماشي الحريري أخضر اللون: سيدي محمد صلاح الدين... سيدي محمد مسعود... سيدي محمود المنقعي... أولاد سيدنا على زين العابدين... بن سيدنا الحسين...

"فاطمة ودَّعَت عُمرها راحت الدَّمعة ابجفنـها

عاشت ابلوعة ومصايب كثرة ما تنعد محنـها"

لم يرد أن يتجاوز ذلك الساتر القماشي، فما هو كائن وراءه بالتأكيد شيء كارثي مفزع، استجمع قواه وهو يتخطى ذلك الحاجز، لتتسع عيناه فزعًا، فما رآه كان مروعًا بحق.

"أمصيبة فوگ أمصيبة شافت والمصايب والفتـها

سودة الايام الـگظتها والحزن ما مال عنـها"

امتد أمام ناظريه أربعة عشر مقامًا تم تغطيتهم بقماشٍ حريري أخضر، وقد توزعوا على جانبي هذه الغرفة المستطيلة الشكل، ورفع سقف هذه الغرفة المستطيلة أربعة أعمدة...

في نهاية هذه الغرفة عُلِّقت ريم على الجدار بواسطة أطواق حديدية ثبتت أطرافها الأربعة... كانت في حالة إغماء وقد تدلى رأسها على صدرها، مُقطَّبَةَ الجبين... كسا الإرهاق ملامحها الرقيقة، وحجبت رؤيتها كاملةً مطرقة خشبية متوسطة الحجم مصوبة باتجاه بطنها...

أمسك المطرقةَ عن أن تضربها حبل متصل بعمود حديدي مثبت إلى سقف الغرفة، واخترق تلك المطرقة من أولها، وقد انثنى هذا العمود من منتصفه، انتهى الحبل الممسك به من المنتصف إلى قفل صغير مثبت في العمود الأيسر الأخير لتلك الغرفة...

كانت عينا فارس أشبه بكاميرا تلتقط صورًا جامدةً للتصميم الميكانيكي لهذه المطرقة، التقطت عيناه صورة أخرى لعمود حديدي آخر مماثل ينثني من منتصفه يخترق المطرقة الخشبية قرب نهايته.

"حملت الظيم وأذيه... ويلي وا ويلاه

ويلي عالزهرة الزجية... ويلي وا ويلاه"

عقله رسم صورةً مفزعةً لعمل تلك الماكينة، إذا انقطع الحبل، تحرر العمودان من ثنيتهما ودفعا المطرقة بكل قوة للأمام، وقد استوت المطرقة في هبوطها المفاجئ بالخط الأفقي الوهمي الواصل إلى معدتها، لتضربها بكل عنف، ليس فقط لتمزق معدتها ولكن لتطحن عظمة الحوض...

انتفض جسده وهو يتخيل مشهد لحمها مختلطًا بعظام منطقة الحوض والدماء تتدفق منها بغزارة.

"بويه بجروح الليالي جيتك البيها عفتني

جيتك الدمعة أعله خدي لا أبد ما فارگتني"

رن هاتفه، كان ينتظر هذه المكالمة، أجاب الاتصال قائلًا بغضب مكتوم:

– والآن ماذا؟

– لقد وصلت في الموعد تمامًا، كما هو مخطط له.

أراد أن يسبه بأقذع الشتائم، حدث كل هذا في مخيلته مصحوبًا بصرخات غضب مزلزلة، ولكنه أبقى على صمته يصغي السمع للسفاح الذي تحولت نبرة صوته إلى الجدية قائلًا:

– اذهب إلى ذلك القفل المعدني الواصل به طرف الحبل.

اتجه فارس إلى القفل المعدني يتأمله وهو يسمع السفاح يقول:

– هل ترى هذا الترس أعلى القفل؟

الغضب... الغضب البغيض أعماه عن أن يرى كافة التفاصيل بوضوح... التف الحبل حول ذلك الترس الكائن أعلى القفل، والترس يدور دورةً واحدةً انتفض لها قلب فارس ليشد الحبل المتراخي بعض الشيء، فضحك السفاح قائلًا:

– هل سمعت هذا الصوت؟

لم يجبه فارس ليقول وقد عادت الجدية لصوته مرةً أخرى:

– هناك مفتاح، إذا عثرت عليه؛ يمكنك أن تديره باتجاهها ثلاثة مرات فيتراخى الحبل تمامًا، سيكون وقتها أمامك وقت كافٍ لأن تحررها.

– وأين أجد هذا المفتاح؟

– هذا هو الشق الصعب، ألم تلاحظ أن هناك رجلًا يتكوم مغشيًا عليه بين مقامين.

أدار فارس رأسه يمينًا ويسارًا حتى وقعت عيناه على جسد رجل متكوم بالفعل بين مقامين على الجانب الأيمن، فاندفع نحوه فارس، ولكنه تجمد مكانه والسفاح يهتف به:

ـ أسمعك تتحرك، توقف.

نظر فارس فيما حوله، وتوقع أن يجد فخًّا، ولكنه لم يجد شيئًا، أغمض عينيه وهو يجز على أسنانه وأنصت مرةً أخرى للسفاح الذي انتظر لوهلة ثم قال:

ـ هل ترى ذلك السكين الكائن فوق إحدى المقامات؟

لمحت عينا فارس سكينًا يلمع بالفعل فوق أحد المقامين المتكوم بينهما ذلك المغشي عليه، فاضطربت ملامح فارس لأنه يخشى ما سيقوله السفاح بعد ذلك:

ـ هل أنت مستعد للتضحية به من أجل إنقاذ من تحب؟

رد فارس مصعوقًا:

ـ ماذا تقول؟

ـ لقد سمعتني.

"شده لو راحت تجيني أصعب الشده الاجتني

حتى دمعة عيني بويه جمرة عالخد ألمتني"

ـ لقد أجبرته قبل ساعة على ابتلاع مفتاح ذلك القفل، والآن الخيار خيارك، إما أن تضحي به أو تضحي بها.

ـ أنت مجنون؟!

ـ هل ترى أن الوقت مناسب للمثاليات؟

انتفض فارس وهو يسمع تكةً أخرى للترس وهو يدور ليشتد الحبل أكثر، اهتز الحبل لثانية، ثم استقر في مكانه.

ـ الوقت كالسيف إن لم تقطعه قطعك.

اقترب فارس من المقام، التقط منه السكين بأيدٍ مرتجفة، ونظر إلى الرجل المغشي عليه ثم إلى ريم، وأعاد النظر إلى الرجل ليقول بصوت منكسر:

ـ لا أستطيع أن أفعل ذلك.

ـ مضطر لأن أنهي معك هذا الحديث، الأمر بيدك الآن إما هي أو هو.

أنهى السفاح الاتصال ليستقبل فارس اتصالًا آخر من والدة ريم، فارتجف جسده بالكامل، وأفلت الهاتف من يده وهو ينظر إلى السكين جاحظ العينين، مرتعش الشفتين، وانتفض على أثر سعال ريم، واقترب من موضعها، رفع رأسه إلى أعلى، جفناها يرتعشان وهي تسعل مرةً أخرى.

- ريم، أنا فارس يا ريم.

قطبت جبينها أكثر وهي تهز رأسها، واستدار للخلف فزعًا وهو يسمع تكةً أخرى لذلك الترس والحبل يشتد أكثر، لا يعرف كيف سمع صوت اشتداد الحبل، وكيف اخترق طبلة أذنه بقوة.

"بس حزن يالهادي بيّه... ويلي وا ويلاه

ويلي عالزهرة الزجية... ويلي وا ويلاه"

كانت لا تزال في حالة إغماء تحاول أن تستفيق منها، فيعود أدراجه مسرعًا إلى حيث الرجل المغشي عليه، ويميل نحوه وهو يرفع السكين عاليًا، ويجز على أسنانه، ويقبض على السكين بقوة ويده ترتعش بشدة...

حاول عدة مرات أن يطعن الرجل، ولكن في كل مرة يتراجع، صرخ في غضب شديد وهو يلقي نظرةً أخرى على ريم التي بدأت تتأوه في ألم، وتحاول أن ترفع رأسها بصعوبة...

أعاد النظر بعينين دامعتين إلى المغشي عليه، وانتفض جسده رغمًا عنه وهو يسمع تكةً أخرى لذلك الترس، وصوت اشتداد الحبل يخترق أذنه، فيصدع صوتٌ صارخٌ برأسه يطلب منه أن يفعلها.

"يا رسول الله أبو جودك آنه أتباها أبد لالي

بضعه منك ونته يمي رغده بعيوني الليالي"

استفاق الرجل وهو ينقلب على جانبه الأيمن ويسعل بشدة، فتراجع فارس في فزع. الجلبة ساعدت الرجل على الإفاقة السريعة، ونظر مُلتاعًا إلى السكين في يد فارس وهتف بصوت متحشرج:

– ماذا تفعل يا مجنون؟

اندفع نحوه فارس وحاول أن يمنعه من النهوض، وجثم فوقه والرجل يتوسل إليه صارخًا ألا يفعل، حاول فارس أن يكبل يديه وهو يضرب معدة الرجل بركبته اليمنى. سمع صوت ريم الواهن تناديه، لم يبال وقد اشتد به الجنون عندما سمع تكةً أخرى للترس وصوت تحرك محدود للمطرقة.

جحظت عينا ريم وهي تشاهد تلك المطرقة المصوبة باتجاهها، وانتقلت بعينيها إلى فارس الذي كان يصارع الرجل، والذي أفلح في دفع فارس من فوقه...

"ما بچت فد يوم عيني لا حزن مرّ أعله بالي

عاين الوجهي تشاهد صفرة الظيم اعله حالي"

اندفع فارس نحوه مرةً أخرى يحاول منعه من نهوضه المتعثر، وحاولت ريم أن تصرخ بأعلى صوتها، ولكن شعرت بألم عنيف وحرقان شديد في حلقها، فأغمضت عينيها في ألم.

"ما شفت ليلة هنية... ويلي وا ويلاه

ويلي عالزهرة الزجية... ويلي"

سمع فارس تكةً أخرى مصحوبةً مع صوت أزيز يصدر عن العمودين وهما يتحرران من ثنيهما، فأفلت فارس السكين والرجل، لا يعرف كيف استطاع أن يثب من مكانه ليقطع المسافة الفاصلة بينه وبين المطرقة التي بدأت تستوي مع الخط الأفقي الوهمي...

وثب مرةً أخرى على نحو أذهله... كيف يمكن للمرء أن يمتلك هذه القوة الاستثنائية؟ كم هو مذهل هذا الأدرينالين الذي يمده بهذه الطاقة والقوة المدهشة؟

أفلح في أن يتعلق بطرف المطرقة الخشبية التي راحت تندفع صوبها، وحاول بالاعتماد على ثقل جسده أن ينزع الطرف الذي يتعلق به من المطرقة الخشبية من ذلك العمود، صرخة ريم زادته تصميمًا، ودفعت إلى عروقه المزيد من الأدرينالين...

نجح في نزع الطرف الذي يتعلق به من العامود الحديدي، ولكن اختل توازنه بشدة وأفلت ذلك الطرف، وجسده اندفع في الهواء باتجاه العمود الأيمن الأخير وعيناه في جزء من الثانية شهدتا المطرقة الخشبية التي اندفعت نحو ريم وقد تدلت على نحو رأسي لتضرب صدرها وبطنها بقوة.

سقط فارس فوق المقام المجاور للعمود الذي اصطدم به، ثم انزلق جسده من على المقام إلى الأرض لتضرب رأسه الأرض فتسبب له دوارًا شديدًا.

فتح عينيه بصعوبة وجفناه يرتعشان ليشاهد المطرقة تترنح يمينًا ويسارًا وعينا ريم جاحظتان تحاول أن تدفع إلى رئتيها أوكسجينًا يستعصي على الوصول إليهما والدماء تندفع من فمها لتغرق ذقنها وقميصها الوردي.

ازدادت ضبابية الرؤية لدى فارس مع ارتعاشة أخيرة لجفنيه قبل أن يسود ظلامٌ دامِسٌ شاشة رؤيته.

حدث كل شيء في ثانية أو اثنتين أو ربما أقل من ذلك، ولكن بدا لفارس أن الزمن عند هذه النقطة تحديدًا تمدد إلى حد بعيد، وانطبع في عقله مدةً زمنيةً طويلةً لكل ما حدث.

عقله تباطأ ليعيد تجسيد ما حدث ببطء شديد، وظل يتباطأ ما يجسده حتى تجمد المشهد أمام عيني ريم الفزعتين.

* * *

(٢)

- ها هو فارس يا معاذ!

توقف الدكتور معاذ عن السير مضيقًا حدقتيه ينظر إلى حيث تشير شقيقته، ثم أكمل سيره البطيء متكئًا بيساره على ذراعها وممسكًا بيمناه عصا معدنيةً. وعلى الرغم من قصر المسافة إلا أنها بدت طويلةً ومرهقةً للغاية، وقد احتُبِسَت قدمه اليمنى في جبيرة كبيرة الحجم...

كان فارس يجلس على مقعد في رواق المشفى بجوار والدة ريم التي تضع وجهها بين كفيها تبكي في صمت، وشاب صغير يحيط كتفيها بذراعيه يواسيها.

توقف الدكتور معاذ أمام فارس مُطرَقَ الرأس يلتقط أنفاسه بصعوبة. تقدمت ليلى شقيقة الدكتور خطوةً أخرى وقالت بصوت أقرب للهمس:

- كيف حالك يا فارس؟

رفع فارس رأسه إلى مصدر الصوت؛ لتتجلى أمام الدكتور عينان دامعتان مرهقتان، فهب واقفًا يصافح الدكتور معاذ وليلى قائلًا:

- ما الذي أتى بك إلى هنا يا دكتور.

قال الدكتور معاذ بصعوبة وهو يلهث:

–وكيف لا أفعل يا فارس؟

نهضت والدة ريم والشاب؛ وصافحا الدكتور معاذ وشقيقته، وراح فارس يساعده على الجلوس ووجهه يتقلص ألمًا حتى استقر على المقعد أخيرًا مادًّا قدمه اليمنى أمامه ومُعْتَذِرًا عن ذلك لوالدة ريم التي أومأت برأسها، وفرضت على شفتيها ابتسامةً مؤدبةً.

لم يعاود الشاب الصغير الجلوس، بل شغل نفسه بتصفح هاتفه الجوال وقد ابتعد عدة خطوات عن المكان في حين قالت ليلي توجه حديثها لوالدة ريم:

–ألف سلامة على ريم، بإذن الله ستكون بخير وأفضل حالًا.

رددت المرأة بصوت أقرب إلى الهمهمة وهي تهز رأسها بأسى:

–إن شاء الله... إن شاء الله.

التفتت ليلى إلى فارس قائلةً:

–سأذهب يا فارس بعض الوقت لأقضي أمرًا.

–لا بأس، شكرًا على زيارتك.

–لا تقل هذا يا فارس.

حاولت الابتسام ولكن تبخرت الابتسامة وهي تتشكل على شفتيها، وانصرفت في خطوات سريعة، في حين جلس فارس بجوار الدكتور معاذ يتطلع بإشفاق إلى وجهه المحتقن وأنفاسه اللاهثة:

–لم يكن من الضروري أن تأتي.

–لم أستطع يا فارس. لم أستطع.

ربت فارس على كتف الدكتور معاذ ممتنًّا والذي ابتسم ابتسامةً واهنةً وصدره يعلو ويهبط بسرعة تتباطأ تدريجيًّا حتى عاد إليه تنفسه الطبيعي، فأطلق زفرةً طويلةً وهو يهز رأسه، في حين لزم فارس الصمت يتأمل وجهه المرهق المتقلص من الألم.

ابتلع الدكتور معاذ ريقه ثم قال:

–بدانتي المفرطة وهذه الحادثة سببتا لي ألمًا عظيمًا.

–يجب أن تستغل الفرصة لتنقص من وزنك قليلًا.

ضحك الدكتور معاذ ضحكةً مبتورةً، ثم ابتلع ريقه مرةً أخرى نتيجةً لجفاف يستشعره في حلقه.

–المهم، كيف حالها الآن؟

اغتم وجه فارس قبل أن يجيب الدكتور معاذ بصوتٍ حزين:

– هي في العناية المركزة، وأظهرت صور الأشعة شروخًا عديدةً في عظمة الحوض؛ قد تؤدي إلى...

بتر فارس عبارته عجزًا عن تكملتها، في حين انخرطت والدة ريم في بكاء مكتوم، فاقترب منها الشاب يربت على ظهرها، ولزم فارس والدكتور معاذ الصمت حتى هدأت وأخذت تُرتِّل بصوت غير مسموع آيات من القرآن، فمالَ فارس على معاذ قائلًا بخفوت:

– هل من الممكن أن ننتقل إلى مكان آخر؟ هناك أمر أود أن أسألك فيه.

– لا بأس.

ساعد فارس الدكتور معاذ على النهوض من مكانه، واستأذن فارس منهما، وتوجه به إلى مقعد آخر جلسا عليه، وانتظر حتى استكانت ملامحه بعد تقلصها وهو يتحسس ركبته اليمنى... أغمض الدكتور عينيه للحظة ثم أدار وجهه لفارس قائلًا:

– خيرًا يا فارس.

– لا أعرف كيف أبدأ يا دكتور، ولكني أشعر بحيرة بالغة.

– بخصوص؟!

-لماذا استهدف السفاح ريم بالذات؟ لقد تأكدت من اسمها بالكامل ولقب عائلتها لا ينتمي بأي حال من الأحوال إلى ذرية معاوية بن أبي سفيان، فما الداعي لأن تكون مضمنةً في قائمته، لا أفهم هذا الأمر تحديدًا.

-لا أعرف يا فارس لربما يقصد أن يرهبك ويبعدك عن القضية حتى لا تفسد خطتهم.

-كان من الممكن أن يرهبني أنا شخصيًّا، فما حاجته لأن يحاول قتلها.

-ربما لأنه يعرفك جيدًا ويعلم أن محاولة إرهابك أنت شخصيًّا لن تؤتي ثمارها، فلجأ إلى أن يؤذي شخصًا عزيزًا عليك لعلك ترتدع وتنسحب من هذه القضية.

-فكرت في ذلك الاحتمال ولكن...

انقطع عن مواصلة الحديث ناظرًا إلى اللاشيء، ثم رفع عينيه مرةً أخرى للدكتور معاذ قائلًا:

-وجودي في هذه القضية حتى الآن لم يثمر عن إفشال مخطط واحد له، بل بالعكس هو دائمًا يسبقني بخطوات، ولم أستطع حتى الآن أن أعرقل أي خطوة من خطواته، ووجودي حتى الآن لا يشكل أي تهديد له.

-ولكن ربما يشكل تهديدًا مستقبليًّا.

-لا أعرف ولكن لا يقنعني هذا التفسير بشكل كافٍ.

تسرب الصمت بينهما لثوان حتى قطعه الدكتور قائلًا بحذر:

-لقد خطرت برأسي الآن فكرة مجنونة؛ قد تتماشى نوعًا ما مع عقلية السفاح أو ذلك التنظيم.

برق الأمل في عيني فارس وهو يقول بلهفة:

-وما هي يا دكتور؟

لم يجب الدكتور فورًا بل بدا وكأنه يقلب هذه الفكرة في رأسه وشفتاه تتحركان في صمت حتى قال:

-ما هو لقب العائلة الخاص بريم؟

عقد فارس حاجبيه يحاول أن يتذكر اللقب، فتفكيره مشوش بشكل كبير، والأسماء تتقاطع أمامه، وتسطع وتخبو حتى وهج اسم معين في مخيلته نطق به عقله قبل أن ينطقه لسانه:

-العدوي.

-العدوي؟!

-نعم.

- اللعنة!

اضطربت ملامح فارس وهو يميل أكثر على الدكتور ويخفض صوته أكثر متسائلًا في قلق:

- ما الأمر يا دكتور؟

- ما فكرت فيه للتو هو بالفعل الدافع لوضعها على القائمة؟

- أخبرني بالله عليك يا دكتور.

- هل تعرف إلى أين ينتهي نسب عائلة العدوي؟

رد فارس بحنق:

- بالتأكيد لا يا دكتور، وإلا لما سألتك.

- عمر بن الخطاب يا فارس.

- من؟!

لم يجب الدكتور، وتراجع فارس في مكانه مبهوتًا وهو يقول بحيرة بالغة:

- لقد ذكرت ريم بالفعل اسم عمر بن الخطاب في محاضرتها بمكتبة الإسكندرية وأن الشيعة يعادونه ويكرهونه لأن في عهده فُتحت بلاد فارس وأن سبب الكراهية ليس ديني ولكنه عرقي بين فرس وعرب.

لوح بذراعه يحاول التّذكر ليضيف:

- وأن الصراع في الظاهر يبدو شيعياً سنياً ولكنه في حقيقته صراع فارسي عربي، ولذلك يكثر ذكر اسمه في كتاباتهم.

رفع الدكتور حاجبيه وخفضهما بإنبهار يقول:

- طالبة نجيبة بالفعل، هذا جزء من الحقيقة ولكن عوام الشيعة لا يدركون تلك الأبعاد الدقيقة، لن يتقبل العوام فكرة أن الأمر لا يعدو عن كونه صراع أعراق، عرب وفرس ولكنهم يتعاطفون بشدة مع الحكايات التاريخية ذات الطابع الديني فهي تحرك مشاعرهم.

توقف الدكتور للحظة يتحسس ركبته ثم يقول:

- المدهش في الأمر أن اسم عمر بن الخطاب بالفعل الأكثر ذكرًا في الأدبيات الشيعية، وأنه بالفعل أكثر شخصية مكروهة لدى الشيعة، حتى أن ذكر معاوية يتضاءل تمامًا بالمقارنة مع ذكر عمر بن الخطاب.

- تماماً كما قالت ريم.

هز الدكتور رأسه معقباً:

- ولكن ذلك السفاح لا ينظر للأمر من هذه الزاوية، هو أسيرٌ للمرويات التاريخية فقط.

- أريد أن أعرف كيف ذلك؟ ولماذا؟

-في إحدى المرويات التي يؤمن بها الشيعة أن عمر بن الخطاب أوشك أن يحرق البيت على الإمام علي والسيدة فاطمة.

-ماذا؟ كيف يصدقون هذه القصة السخيفة؟

ابتسم الدكتور بسخرية وهو يرد على فارس رافعًا حاجبيه:

-ستُدْهَش إذا عرفت أنها متداولة لدينا نحن السنة أيضًا.

-الحقيقة يا دكتور، هذا ليس وقتًا مناسبًا أبدًا لمفاجآت تقلب كيان المرء وتفكيره وتضرب كل ما يؤمن به.

رد عليه الدكتور معاذ بعصبية امتزجت بنبرة صوت حادة:

-هل ستناقش صحة الرواية من عدمها، أم أنك تريد أن تعرف لماذا استهدف هذا السفاح ريم؟

أطبق فارس شفتيه وقد تسرب الخجل إلى قسمات وجهه يتأسف في صوت خافت، ثم سأل الدكتور معاذ:

-لماذا أراد عمر بن الخطاب إحراق البيت على الإمام علي والسيدة فاطمة؟

-وفق المروية؛ لأنهما أحجما عن مبايعة أبي بكر على الخلافة.

هز فارس رأسه علامة الاستنكار، ولكنه كبت انفعاله هذا وهو يسأل مرةً أخرى محاولًا أن يصبغ صوته بالهدوء:

-ولماذا يرفضان مبايعة أبي بكر؟

-لأن الإمام عليًّا كان يرى نفسه أحق بالخلافة من أبي بكر، وكان هذا أيضًا رأي السيدة فاطمة.

-حقًّا؟!

تجاهل الدكتور معاذ نبرة فارس الساخرة وأكمل قائلًا:

-وفق المروية فإن عمر بن الخطاب حاصر بيت الإمام علي ودعاه للخروج لمبايعة أبي بكر رغمًا عنه، ولما لم يستجب دفع الباب بقدمه، وكانت تقف وراءه السيدة فاطمة؛ فضربها الباب بشدة، وكانت وقتئذٍ حاملًا في ولد ثالث سماه الرسول "المحسن" قبل وفاته؛ فسقط حملها، وما فعله عمر بن الخطاب كان سبب مرضها ستة أشهر قبل وفاتها، أي أنه قتلها ببطء.

لزم الدكتور معاذ الصمت وفارس يقلب كفيه مستنكرًا هذه الرواية، ثم يسأل في استنكار:

-وهل من عاقل يصدق روايةً كهذه؟

-صدقها من قبل طه حسين في كتابه الفتنة الكبرى.

ردد فارس مصعوقًا:

-طه حسين؟!

-السفاح -يا فارس- ينتقم لمقتل السيدة فاطمة على يد عمر بن الخطاب وفق التصور الشيعي.

العبارة الأخيرة للدكتور معاذ جعلت فارس يغرق في التفكير حتى أنه قال بعد هنيهة من الوقت كأنه يحدث نفسه:

-كلامك منطقي يا دكتور، فالطريقة التي انتقم بها السفاح من ريم تشبه إلى حد كبير تلك الحكاية، فلقد ضُرِبَت بمطرقة خشبية ضخمة الحجم في منطقة الحوض والبطن وذلك سبب لها شروخًا كثيرةً في الحوض، وتضرر جدار المعدة والكبد إلى حد ما.

-إنه يعيد تمثيل التاريخ مرةً أخرى يا فارس.

لا يبدو على فارس أنه سمع حديثه الأخير وهو يقول بشرود:

-حتى أن الدكتور أخبرنا أنها لم تعبر مرحلة الخطر بعد، ويخشى من تطور الأمر في أي لحظة لأن...

صمت قليلًا وهو يخفي وجهه بين كفيه قائلًا:

–السفاح لم يكن يرغب في قتلها تمامًا، ولكنه يريدها أن تموت ببطء شديد، وأن تعاني أولًا في موتها تمامًا كما ورد في تلك الحكاية.

وضع الدكتور معاذ يده على ظهر فارس وهو يقول:

–فلنأمل ألا يحدث ذلك.

هز فارس رأسه ولم يعلق... لحظة من الصمت تخللت بينهما... ثم رفع فارس رأسه مرةً أخرى وهو ينظر بأسى للدكتور الذي سطع في رأسه تساؤل ما:

– هل والدها من الصعيد يا فارس؟

حاول فارس أن يتذكر حتى هز رأسه قائلًا:

–أظن... نعم؛ إنه من الصعيد، وعلى حسب ما أتذكر من محافظة...

صمت قليلًا يحاول أن يستدعي اسم المحافظة من ذاكرته فعاجله الدكتور معاذ قائلًا:

–من أسيوط.

–نعم بالضبط، ولكن كيف عرفت؟

- قرية بني عدي هناك بمركز منفلوط محافظة أسيوط، وبها قبيلة العدوية التي تنتسب إلى عمر بن الخطاب ضمن قبائل أخرى تنتسب إليه في بلاد الشام والعراق مثل آل زريق في دمشق، وآل الزويتيني في حلب، وآل عبد الهادي من صفورية في دمشق أيضًا، وآل العدوي في صعيد مصر...

والمدهش في الأمر أن آل العدوي هم الأقرب نسبًا إلى عمر بن الخطاب.

- لماذا؟

- لأن اسمه عمر بن الخطاب بن نفيل...

حرك يده اليمنى في الهواء يحاول أن يستدعي باقي الاسم من ذاكرته، فتقلصت ملامحه في ضيق عندما عجز عن تذكر باقي الاسم، فأخرج فارس هاتفه الجوال من جيب بنطاله في حين هز الدكتور معاذ رأسه قائلًا في ضيق:

- يبدو أن هذه الحادثة أثرت تأثيرًا بالغًا على ذاكرتي.

لم يعلق فارس بل كانت أنظاره معلقةً بنتائج البحث، وتوقف عند واحدة منها يردد الاسم بصوت مسموع:

- عمر بن الخطاب بن نفيل بن عبد العزى بن رياح بن قرط القرشي العدوي! اللعنة!

-جيد جوجل هذا، أخشى أنه ينافسني بشكل قوي.

لم يكن فارس في مزاج يسمح بأي دعابة، فقرر أن يتجاهل تعليقه في حين عدل الدكتور من وضع قدمه اليمنى وهو يضيف:

-لآل العدوي يا فارس شهرة كبيرة ليست بفضل انتسابهم المباشر لعمر بن الخطاب فقط.

وضع فارس الهاتف إلى جواره منصتًا إلى الدكتور معاذ الذي قال:

-لقد هاجرت وفود من قبيلة بني عدي بشبه الجزيرة العربية إلى مصر، واستقرت ما بين كفر جديم وكفر غريب، واشتهرت منذ ذلك التاريخ بقرية بني عدي، وشاركت في جل ثورات مصر، وقامت بثورة شهيرة على الأمير يشبك الدويدار والمماليك عام...

صمت قليلًا وهو يعقد حاجبيه محاولًا التذكر، ولكنه يئس من ذلك فهز رأسه محنقًا وهو يقول:

-لا أتذكر للأسف، ولكن تقريبًا في القرن الثامن الهجري، وأيضًا أقام فيها محمد علي باشا أول مدرسة عسكرية لجيشه الحديث، وتخرج منهم الكثير في الأزهر الشريف، وأشهرهم على الإطلاق

الشيخ علي الصعيدي العدوي والذي كان صديقًا لعلي بك الكبير...

هي ليست مجرد عائلة عادية، ولكنها صاحبة تاريخ لامع أيضًا.

لم يعلق فارس بل بدا مشغولًا بفكرة كانت تشغل كل حيز تفكيره حتى أنه انتصب في جلسته يقول:

– هناك أمر غريب للغاية.

– ما هو؟

– لم يرد اسمها في القوائم التي عثرنا عليها في معمل تحليل الدي إن إيه بالإسكندرية، لماذا؟

حاول الدكتور معاذ أن يجيب عن السؤال، ولكنه هز كتفيه مكتفيًا بالصمت، فغرقت ملامح فارس في تفكير عميق ثم رفع سبابته قائلًا:

– لأنه هناك من أخفى اسمها من القائمة عمدًا.

– ربما!

– السؤال، لماذا؟

– ربما حتى لا تأخذ الحيطة، ويتم تأمينها فتفشل مهمة السفاح.

– بالضبط، ويبدو أنه يعرف جيدًا عن علاقتي بها، مثل... مثل...

صمت قليلًا يستدعي عددًا من الوجوه من ذاكرته ثم أضاف:

– بالتأكيد إنه هو.

عقد الدكتور حاجبيه متسائلًا:

– من؟

– أيمن، لأنه من قام بمصادرة قوائم تحليل الدي إن إيه ولكن كيف عرف عن علاقتي بريم؟، أم هل يجب أن أشك في العقيد مرة أخرى لأنه حضر خطوبتي قبيل محاولة قتلها؟، فأيمن تم كشف أمره قبل أن أعلن عن خطوبتي.

عقب الدكتور معاذ قائلًا:

– ولكن فاتك أن أيمن ضابط شرطة، ومن المؤكد أنه وضع هاتفك تحت المراقبة، وكان يتنصت على مكالماتك الهاتفية بشكل عام، واكتشف وقتها علاقتك بريم.

فرقع فارس بأصبعه قائلًا:

– هذا صحيح، ولكن أتعلم شيئًا؟

– ماذا؟

– لا أعرف، ولكن يراودني شعور داخلي أن هناك طرفًا آخر لا نعلم عنه شيئًا يعلم الكثير عنا.

رد الدكتور ممازحًا:

–لم يبق سوى أنا بعد العقيد.

ضحك فارس لدعابة الدكتور وقال:

–تقريبًا؛ هذا ما أفكر فيه.

سأله الدكتور معاذ مستنكرًا بصوتٍ يخالطه المزاح:

–أجُنِنْت يا ولد؟ أتشك بي؟

هز فارس رأسه نافيًا:

–لست أنت يا دكتور.

عادت الجدية إلى وجه معاذ وهو يقول:

–تقصد العقيد؟!

–نعم، إلى حد ما.

–ربما؛ ولكن لا تجنح كثيرًا لهذه الشكوك، وحاول أن تركز في كيفية إلقاء القبض على السفاح، وتذكر أنه بقي له أربعة أهداف سيسعى لاقتناصهم ليكتمل العدد ١٢.

–نعم؛ أعلم ذلك، وأتمنى أن ننجح في إيقافه قبل أن يقتل المزيد.

-أتمنى ذلك بالفعل يا فارس، ولقد اختبرت هذا الكابوس بنفسي، وإنه أمر مرعب جدًّا يا فارس، وأنا أدرك شعور كل الضحايا الذين وقعوا بين يديه.

-حمدًا لله أنك لم تقض نحبك يا دكتور.

-يا فارس؛ كلنا لها، عاجلًا أو آجلًا سيحدث.

-نعم؛ ولكن ليس بهذه الطريقة.

خيم الصمت مرةً أخرى وقد شرد فارس والحزن يرسم ملامحه، فوضع الدكتور معاذ يده على فخذ فارس قائلًا بإشفاق:

-أنا آسف يا فارس حقًّا.

عقد فارس حاجبيه وهو يسأل:

-لماذا تتأسف؟

هز الدكتور معاذ كتفيه قائلًا:

-آسف لأني لم أفطن لأمر ريم من قبل.

-وكيف لك أن تعرف اسمها بالكامل؟ إنه القدر رغم كل شيء.

-بالفعل، ولكني أكرر أسفي.

-دكتور؛ لا تجلد نفسك، إن كان هناك شخص يُلَام على ما حدث لريم فهو أنا، فأنا من فشلت في إنقاذها.

–لم يكن ليتركك تنقذها يا فارس.

هز فارس رأسه في حزن ولم يعقب.

*** * ***

(٣)

جلس خلف مقود السيارة، وراح يقرأ بصوت خافت خاشع من كتيب صغير بين يديه: "السلام على جبرائيل، السلام على رسول الله، اللهم مع رسولك، اللهم في رضوانك وجوارك ودارك دار..."

بتر قراءته وقد استرعت انتباهه تلك الأصوات الواهنة المتألمة التي أتته من بقعة قريبة منه، وضع الكتيب في جيب سترته الداخلي، وغادر السيارة على مهل، وسار بخطوات قوية أثارت الرمال من تحت قدميه...

خطا فوق منطقة صحراوية مترامية الأطراف، وتوقف على مقربة من حافة حفرة مستطيلة الطول بعمق يقارب المترين... أربع أجساد متكومة في قاع هذه الحفرة كانت تتعثر في نهوضها وهي تسعل وتتأوه في ألم. تسمر السفاح في مكانه ، وقد اكتسى وجهه بقناع ثلجي لا يبدي أي انفعال.

في قاع تلك الحفرة المستطيلة رجل في منتصف عقده الخامس وشابان في أوائل عقدهما الثاني وصبي في ربيعه الخامس عشر.

أشعة الشمس القوية كانت تجبر الرجل الخمسيني على إعادة إغلاق عينيه اللتين كان يحاول فتحهما كل مرة، وصداع شديد دب دفعةً واحدةً في رأسه، فرفع يده اليسرى يحمي وجهه من أشعة الشمس التي ألهبت جلده، سعل مرةً أخرى، ثم فتح عينيه بصعوبة ناظرًا إلى أعلى ليلتقي حاجباه في دهشة وهو يرى ذلك الباب الحديدي المكون من قضبان حديدية متقاطعة.

نظر نحو الآخرين الذين بدأوا يستفيقون من حالة التخدير التي تعتريهم، ففزع لرؤية أولاده الثلاث، وفتح فمه غير مصدق وهو يشاهدهم يعتدلون على أرض تلك الحفرة الترابية يسعلون، ثم نظر إلى أعلى صارخًا بأعلى صوته:

– النجدة... النجدة.

انتفض الثلاثة على أثر صياحه وهم يهمهمون مذهولين:

– أبي!

أمسك الصغير رأسه وهو يسأل:

– أين أنا؟

صاح أحد الشابين في فزع وهو ينظر حوله:

– يبدو أننا في مقبرة.

أدار الجميع رؤوسهم فيما حولهم كأنهم وقعوا على اكتشاف جديد مرعب دفع الرجل لأن يصرخ مرةً أخرى:

- النجدة.

ابتسم السفاح وهو يتقدم من حافة المقبرة، وعقد يديه خلف ظهره يتابعهم كفئران تجارب، واتسعت ابتسامته... صرخ الرجل عندما رآه:

- أنقذنا أرجوك.

تابع في لا مبالاة توسلات الثلاثة الآخرين، ف راح الأمل يخبو في عيني الرجل بعد توهج في الأول، وتلك الابتسامة المخيفة التي رسمها ذلك الواقف كانت تعني شيئًا واحدًا.

- كم تريد من المال حتى تتركني أنا وأبنائي...

تنقلت أبصار الثلاثة بين والدهم والواقف أعلى الحفرة مبهوتين، وجلس السفاح على ركبتيه يسأل في سخرية:

- كم ستدفع نظير نجاتك أنت وصغارك؟

- اطلب.

- إلى هذه الدرجة أنت ثري؟

- أنا صاحب...

قاطعه السفاح قائلًا في ضجر:

–أعرف أنك صاحب مزارع إنتاج موالح تصدرها خارج مصر.

سأل أحد الشابين الأب:

– هل تعرفه يا أبي؟

لم يجبه ولم يلتفت إليه، بل ابتلع ريقه موجهًا كلامه للسفاح:

–يبدو أنك تعرف عني الكثير؟

رد السفاح بنبرة صوت مخيفة:

–أكثر مما تتصور.

تمالك الرجل أعصابه وانتصب واقفًا يقول في حزم من يفاوض على صفقة ما:

–إذن؛ سَمِّ المبلغ الذي تريده.

هز السفاح كتفيه قائلًا باستهزاء:

–وإذا كان ما أريده لا يتعلق بالمال.

رد الرجل بحزم تشوبه السخرية:

–ليس هناك شيء لا يُحَلُّ بالمال، فقط سمِّ المبلغ وستجده في حسابك.

هم السفاح بأن يرد، ولكن الرجل عاجله قائلًا:

- أنا لا أحاول خداعك بالمناسبة، أحترم وأعجب ببراعتك في اصطيادي واصطياد أبنائي.

حيَّاهُ السفاح برأسه ساخرًا ولم يجب، وواصل الرجل كلامه:

- هذه وحدها لها ثمن كبير، وستجد فورًا المبلغ وقد تحول إلى حسابك البنكي، وتأكد أنه ليس فخًّا لتسقط في يد الشرطة أو أني سأعمل على مطاردتك بأي شكل من الأشكال، فمن الغباء أن أفعل ذلك.

- ولم ذلك؟

- كما قلت لك؛ نجاحك في اصطيادي أنا وأولادي الثلاثة دليل على أنك محترف، ومحاولة خداعك تُعَد حماقة كبيرة.

هز السفاح رأسه، فرفع الرجل حاجبيه وهو يلوح بكلتا يديه في الهواء قائلًا بابتسامة مهزوزة:

- صفقة مغرية، أليس كذلك؟

كان الشبان الثلاثة يتابعون أباهم وينقلون نظراتهم بينه وبين السفاح في توتر وعصبية. ثم رد السفاح بعد فترة من الصمت كانت طويلةً للغاية، محطمةً لأعصاب الأربعة:

- وإن كان السبب فيما يحدث لك الآن ليس له علاقة بالمال؟

هم الرجل بأن يقاطعه مرةً أخرى، ولكن السفاح لم يمهله مضيفًا وقد ارتفعت نبرة صوته:

–ولكنه يتعلق بنسبك، أو بمعنى أوضح، أجدادك.

لم يفهم الرجل هذه العبارة التي بدت جنونيةً إلى أقصى حد... ولأنه يثق في قدرته على إقناع الآخرين وإغرائهم قرر أن يساير هذا المجنون حتى يخرج من هذا المأزق:

–لا بأس؛ إن كانوا فعلوا أي شيءٍ أساء لأشخاص من طرفك، أنا مستعد لتعويضهم التعويض المناسب.

–ولكني قلت لك لا أريد المال.

ارتجف الرجل من فرط الانفعال، وعض على شفته السفلى غضبًا، ثم قال بصوت متهدج:

–إذن؛ فليكن الأمر بيني وبينك، فلأنَل أنا العقاب ولتدع أبنائي يمضون.

ضحك السفاح، فأيقن الآخر أن قدرته على الإقناع غير مجدية بالمرة مع هذا المجنون، فصرخ في غضب:

–أقسم بالله إن لم تعد إلى رشدك...

قاطعه السفاح ساخرًا:

-ماذا ستفعل؟ ها! أخبرني.

قال الرجل وقد ارتسمت على شفتيه ابتسامة متحدية وهو يجيب بحزم:

-لن يطاردك رجالي فقط ليقوموا بتمزيقك حيًّا حتى تتمنى الموت على ما سيفعلونه، ولكن سينالون من أهلك كلهم، والله؛ لن يبقوا منهم أحدًا إلا ومات ميتةً بشعةً، وأنا أعلم أن رجالي سيفعلون ذلك، وأعرف كيف يفعلونها جيدًا؟

أطل غضب مخيف من عيني السفاح قائلًا وهو يجز على أسنانه:

-سبق وأن فعلها آباؤك، فعلوا ما هو أبشع.

ضحك الرجل بسخرية تختلط بالانفعال وهو يعقب:

-أيًّا كان ما فعلوه، سيكون ما فعلوه أكثر رحمةً وإنسانيةً مما سيفعله رجالي بك وبأهلك.

انتصب السفاح واقفًا، وحاول الرجل أن يستعيد هدوءه، فأغمض عينيه رافعًا يديه إلى أعلى قائلًا:

-انتظر... انتظر، أعتذر منك، دعنا نفكر بعقل.

رفع السفاح حاجبيه وخفضهما، واعتبر الرجل ذلك مؤشرًا إيجابيًّا، فتشجع لأن يقول:

-كل من تضرر من طرفك سأعوضه تعويضًا مناسبًا وفورًا، بالتأكيد هاتفي الجوال عندك، سأخبرك باسم المستخدم وكلمة السر لتدخل على حسابي الشخصي بالبنك، وكل ما تجده في هذا الحساب يمكنك تحويله بمنتهى البساطة إلى أي حساب آخر...
أنا عميل خاص لدى البنك، وبمجرد أن تضغط على زر التحويل سيتم الأمر، فلدي خمسة وعشرون مليونًا في هذا الحساب ولي حرية التصرف في تحويل أي مبلغ منه في أي وقت لأي حساب، هل يكون هذا مرضيًا؟

أرخى الرجل يديه إلى جنبيه وهو يضيف:

-أعتقد أنه تعويض مناسب جدًّا، ويمكنك أن تختفي أنت ومن معك، ولن أطاردك.

رد السفاح ساخرًا:

-من الممكن أن أعود وأبتزك.

رد الرجل بحزم شديد:

-سأكون وقتها بانتظارك ومستعدًّا لك، صدقني إذا وافقت على هذا العرض لا تفكر في محاولة تكرار ما فعلت لأنك وقتها ستكون أكبر أحمق عرفته.

هز السفاح رأسه وهو يقول:

– ألم أقل لك أن الأمر لا يتعلق بالمال؟

صرخ الرجل في جنون:

– إذن؛ ستشهد بنفسك دماء جميع من تعرفهم تُرَاق على الأرض أمام ناظريك قبل أن يقتلك رجالي.

– سبق وأن أُرِيقت هذه الدماء على أيديكم، إنه الثأر.

أيقن الرجل أنه لا فائدة أمام مجنون لم يسبق أن شاهد مثله أبدًا، لقد خسر كل محاولاته في سبيل ثنيه عما سيفعل، فتراخت عضلات جسده دفعةً واحدةً مهزومًا، وتقلصت ملامح وجهه كأنه على وشك البكاء، وانهار الشباب الثلاثة لدى رؤية ملامح الهزيمة على وجه أبيهم، وقد علت وجوههم من قبل بارقة أمل.

اختفى السفاح من أمامهم، فتعالت صرخات الشباب الثلاثة في حين وضع الرجل وجهه بين كفيه غير مصدق. توقف الشباب عن الصراخ وهم يسمعون جلبةً تقترب منهم، فرفعوا رؤوسهم جميعًا يستطلعونها، ولكنهم انحنوا وبعض من الرمال تتساقط عليهم، ثم رفعوا أنظارهم مرةً أخرى ليشاهدوا صندوقًا معدنيًّا كبير الحجم والسفاح يدور من خلفه ليقف عند حافة الحفرة يشير إلى الصندوق ويقول:

- هذا الصندوق مملوء حتى آخره بالرمال.

جحظت أعين الأربعة في رعب، وأشار السفاح بسبابته أمامه ليستديروا جميعًا للخلف وينظروا إلى حيث يشير فوجدوا صندوقًا آخر مماثلًا، وسمعوا السفاح يقول بسخرية:

- وهذا صندوق آخر مماثل.

أعادوا النظر إلى السفاح والرجل يتمتم بيأس:

- أنت مجنون، لم أرَ من هو أكثر جنونًا منك.

- بالفعل، لن تجد، فما فعلتموه يستحق ما هو أكثر من ذلك.

- أنا لا أعرف عما تتكلم.

- وكيف ستعرف؟ وهل تتذكر الشياطين كل ضحاياها؟ من كثرة جرائمهم نسوا بعضها!

- يا أيها المجنون، أنا لم أفعل شيئًا، وأثق أن أبي وجدي لم يفعلا شيئًا. لا أعرف أي لعنة قذفتك إلينا بجنونك هذا؟!

- إنها لعنة آبائك.

صاح الرجل بغضب:

- إذن؛ اللعنة عليك وعليهم.

- بالفعل اللعنة عليهم.

ساد الصمت للحظة عاد فيها الهدوء إلى صوت السفاح وهو يقول:

-أسلم في مقتبل شبابه حينما قدم إلى المدينة مع أخيه عند رسول الله، وكان ممن شاركوا في دفن أبي ذر الغفاري بالربذة حين أبعده الخليفة الثالث عثمان بن عفان إليها...

قاطعه الرجل منفعلًا:

-ما الذي تقـ...

رفع السفاح سبابته أمام شفتيه بشكل مسرحي، فأطبق الرجل شفتيه كطفل صغير ينصت للسفاح الذي أكمل:

-وذلك بسبب انتقادات وجهها أبو ذر الغفاري إليه حول سياسته وطريقة حكمه في النصف الثاني من خلافته، وكان هذا الشخص أحد قادة الفتوحات الإسلامية في بلاد الشام؛ حيث فتح عدرا التي قُتِل فيها فيما بعد، وشارك في القادسية.

وهو من أنصار إمامنا علي بن أبي طالب؛ حيث أسرع إلى مبايعته حينما تولى الخلافة وبقي ملازمًا له لا يتركه.

ضرب الرجل كفًّا بكف وشفته السفلى ترتعش كأنه على وشك البكاء، ولم يَبدُ على السفاح أنه يعبأ لرد فعل الرجل، وبدا كمذياع يبث كلماته بدون توقف.

– هو من قيادات جيش أمير المؤمنين في صفين، فكان قائدًا على كندة وحضرموت وقضاعة ومهرة. قتل الكثير من قيادات جيش معاوية بالمبارزة، وحارب مع إمامنا علي بن أبي طالب في النهروان فتولى قيادة ميمنة الجيش.

صرخ الرجل في غضب:

– ما شأني وحصة التاريخ السخيفة هذه، ما الذي تريده؟

– أن تسمعني إلى النهاية، لربما ما أقصه عليك هو مفتاح نجاتك.

عاد الأمل ليتوهج في عيني الرجل وهو يحرك يده اليمنى في عصبية قائلًا:

– أكمل.

– وكان معاوية قد أرسل الضحاك بن قيس بثلاثة آلاف مقاتل ليشن الغارات على المناطق الواقعة في طاعة علي؛ فنهب الأموال، وقتل من لقي من الأعراب حتى مر بالثعلبية؛ فأغار على الحجاج وأخذ أمتعتهم، فأرسل أمير المؤمنين هذا الشخص قائدًا لجيش قوامه أربعة آلاف مقاتل تمكن من الاصطدام بجيش الضحاك وانتصر عليهم، فهرب الضحاك إلى الشام.

هز السفاح كتفيه قائلًا في سخرية:

-إذا عرفت من هو ذلك الشخص نجوت أنت وأبناءك، هكذا الأمر بكل بساطة.

حدق فيه الرجل ببلاهة بعض الوقت وقد خيم صمت ثقيل على المكان ثم قال:

- هل أنت جاد؟

-جاد جدًّا.

-تحدثني عن رجل لا أعرف عنه شيئًا، يبدو أنه قُتِل على يد شخص ما.

-تقصد معاوية؟

-إن يكن! لا أعبأ، والآن أنت تريد الثأر لشخص كان من أتباع...

عقد الرجل حاجبيه يحاول أن يتذكر فبادره السفاح قائلًا في هدوء:

-إمامنا علي عليه السلام.

- عليه ماذا؟!

أطل غضب شديد من عيني السفاح لنبرة الاستهزاء في صوت الآخر الذي صاح به:

-ما علاقتي وأولادي بذلك الدرس التاريخي السخيف والذي حدث منذ لا أعرف من كم مئة عام، ما شأننا أيها المجنون؟

-معاوية هو أبوك!

نظر إليه الأربعة في بلاهة شديدة، ولم يصدقوا ما سمعوا، وانفجر الصبي من الضحك بشكل أقرب للهستيرية، نظر إليه الجميع للحظات وقد دمعت عيناه من كثرة الضحك حتى تحول ضحكه إلى نحيب ونشيج، وأخفى وجهه بين كفيه.

-لقد تأكدت الآن أنك مجنون، تأكدت.

انهار الرجل على الأرض يهز رأسه في ذهول والدموع تهرب من مقلتيه، وانهار الثلاثة أيضًا وقد افترشوا أرض هذه الحفرة في حالة شرود تام.

- هل عرفت اسمه؟

لم يرد عليه الرجل فهز السفاح رأسه قائلًا:

-كنت أعرف أنك لن تتذكره.

ضحك الرجل في يأس وهو يتمتم:

-أنا لا أعرفه حتى أتذكره.

-قُتِل معه ستة أشخاص على يد معاوية بضرب الأعناق.

رفع الرجل رأسه يسأله بخوف:

–ولكن يَبدُ أنك لن تفعل هذا، أليس كذلك؟

فرقع السفاح بأصبعه قائلًا:

–أحسنت، سأفعل بكم ما فُعِل في سابع أصحاب ذلك الرجل.

لم يرغب الرجل في سؤاله فما حوله قدم إجابةً ليقول بخفوت:

–ستدفننا أحياء!

– عبد الرحمن بن حسان العنزي، دُفِن حيًّا.

مسح الرجل دموعًا اختلطت بحبات الرمل التي كست وجهه وقال:

–أتعلم؟ أنا الآن أشعر بفرحة عظيمة لما فعله معاوية في أصحاب ذلك الشخص، ويسعدني أن أرى هذا الغضب والحزن والقهر في عينيك.

برزت ثلاثة عروق من جبهة السفاح، وقد احتقن وجهه بشدة، وسمع الأربعة صوت اصطكاك أسنانه ببعضها البعض بقوة، وزادت هذه النظرة الغاضبة الجنونية في عيني السفاح من حماسة الرجل لأن يضيف بسخرية:

–وإن كنت بين يدي معاوية حينذاك لكنت نصحته بما هو أبشع من ذلك.

راح صدر السفاح يعلو ويهبط بسرعة ووجهه يرتعش من فرط الغضب، وصرخ:

-لعنة الله عليك يا كافر.

قرر الرجل أن يستفزه أكثر بأن ضحك بصوتٍ عالٍ، ونظر أولاده الثلاثة نحوه مذعورين من ذلك الجنون الذي أصاب والدهم.

ابتعد السفاح عن حافة الحفرة ليسدد عدة لكمات غاضبة إلى الصندوق وهو يسمع ضحكات الرجل المجلجلة، ونظر إلى قبضة يده اليمنى الدامية. ابتعد أكثر ودار حول نفسه ثم توقف يحاول أن يهدئ من روعه حتى بدأت تدريجيًّا أنفاسه تنتظم، وعاد مرةً أخرى لحافة الحفرة ليقول من بين أسنانه التي يجز عليها:

-سأعطيك أنت وأبناؤك فرصةً أخرى للنجاة.

لم يبال به الرجل الذي جلس إلى جانب مطرق الرأس في حين رفع الثلاثة الآخرون رؤوسهم إلى أعلى ينظرون إليه بلهفة وأمل، فحدق السفاح للوهلة بالرجل، ثم أدار عينيه للثلاثة وقد ارتسمت ابتسامة خبيثة على شفتيه واستطرد:

-مدفون في تلك الأرض التي تجلسون عليها مفتاح، إذا عثرتم عليه يمكنكم فتح هذا الباب الحديدي.

عقب الرجل قائلًا في يأس:

– لا تصدقوه، هو فقط يتلاعب بكم.

لم يبد على الثلاثة أنهم يعبؤون بما يقوله والدهم؛ وشرعوا في التنقيب بجنون في أرض تلك الحفرة مثيرين الأتربة من حولهم فكانوا يسعلون، ولكن لم يُثنِهِم ذلك عن التنقيب الهستيري وهم يتخبطون في بعضهم البعض، وابتسامة السفاح تتسع وهو يتجه إلى الصندوق يدفعه لأن يسقط على جانبه قائلًا:

– والآن بعض الإثارة.

انهالت عليهم كميات هائلة من الرمال الصفراء تضربهم ككتل حجرية في كل أنحاء أجسادهم، فانطلقت صرخات الجميع والرجل الخمسيني يهب في محاولة يائسة ليدفع تلك الرمال المنهمرة عن أبنائه وهو يصرخ ويسب السفاح الذي اهتز جسده بالضحك.

توقفت الرمال عن الانهمار تاركةً وراءها خيوطًا تتسرب إلى داخل الحفرة، فانشغلوا بدفع الرمال عن أجسادهم ووجوههم في جنون، وتدخل صوت السفاح ليقول:

– أسرعوا في البحث عن المفتاح، لم يبق الكثير من الوقت حتى أصنع الأمر نفسه مع الصندوق الآخر.

كلماته جعلت الحماسة الهستيرية تدب في عروقهم مرةً أخرى ليبحثوا بجنون عن ذلك المفتاح، فجحظت عينا أصغرهم وقد أطبقت أصابعه على شيء مدفون في الرمال، صرخ قائلًا في حماس:

– يبدو أني وجدته.

اندفع نحوه الشابان والرجل يوسعان التنقيب من حول يده التي تحاول لمس ذلك الشيء المعدني، وأبعدوا بعض الرمال من حول يديه؛ فاستطاع أن يمد يده أكثر ليمسك هذا الشيء المعدني ليسمعوا جميعًا صوت اصطكاك جسمين معدنيين ببعضهما البعض مختلطًا بصراخ الصبي الذي احتقن وجهه بشدة مذرفًا الدموع.

– يدي! يدي!

ضحك السفاح قائلًا في تأسف مبتذل:

– يبدو أن الشرك أطبق على يدك.

انخرط الصبي في بكاء شديد وصرخات الألم تصم آذانهم؛ فراح الوالد يحفر بيديه بجنون في الرمل حول معصم ابنه، والدموع تسيل من عينيه مختلطةً بالرمال التي كست وجهه...

الرمال من حول معصم الصبي تلونت باللون الأحمر القاني، بينما أخواه استمرا يحفران حول معصمه ليظهر الشرك الحديدي المطبق

كفكي أسد حول معصم الصبي، فحاول الشابان إبعاد فكي الشرك عن بعضهما ولكن دون جدوى.

انتفضوا جميعًا في فزع عندما أتاهم صوت السفاح يقول:

–والآن إلى الجزء الثاني من الإثارة.

صرخ أحد الشابين في فزع هائل:

–لا، لا، لا تفعل ذلك.

اختفى السفاح من أمام ناظريه يدور حول الحفرة متجهًا إلى الصندوق الآخر، يجز الصبي على أسنانه وهو يقول بألم شديد:

–يبدو أنني أمسك المفتاح؛ لكني لا أستطيع إخراج يدي.

انخرط في نوبة بكاء أخرى في حين دب الجنون في الشابين اللذين أمسكا بذراع أخيهما يجذبانه بعنف ليطلق المزيد من الصرخات في حين يدفعهما الأب بيديه في صدرهما صارخًا:

–ماذا تفعلان أيها المجنونان؟

دفع أحدهما والده في وجهه صارخًا:

–سنموت أحياء إن لم نفعل.

لم يُلقيا بالًا لوجه أبيهم المذهول واندفعا يجذبان ذراع أخيهما والصبي يستجديهما ألا يفعلا.

انهمرت عليهما الرمال بكثافة، ليزداد تخبطهما وأحد الشابين يصرخ:

-أكسر ذراعه.

لم يبرح الرجل مكانه بل أغمض عينيه مستقبلًا الرمال المنهمرة وجسده يهتز بالبكاء الصامت، صراخ الثلاثة تعالى والرمال تصل إلى ذقونهم... في تلك الأثناء كان السفاح يجر صندوقًا آخر نحو حافة الحفرة ليدفعه بقوة ويسقطه على جانبه ليلقي الصندوق بكمية أخرى من الرمال.

صراخهم كان يخفت تدريجيًّا وقد رقت الرمال إلى أن وارت أعينهم، ثم جاوزتها لتواري ما تبقى منهم، ثم طمست أي أثر للباب الحديدي وصراخهم.

تنهد السفاح وهو يمسح العرق المتفصد عن جبهته، ومضى فوق الرمال التي طمست آثار الحفرة متجهًا إلى الصندوق الخلفي للسيارة، وفتحها متطلعًا بلامبالاة إلى جثة الشرطي الملقاة بداخل صندوق السيارة... ثم التقط يافطةً خشبيةً بجوار الجثة، وأغلق غطاء الصندوق الخلفي، وعاد أدراجه لموضع الحفرة ليثبت فوقها هذه اليافطة الخشبية، وابتعد عنها قليلًا يتأمل المكتوب عليها: (هنا موضع قتلة حجر بن عدّي وأصحابه)

أغمض عينيه منشدًا، وقد اصطبغ صوته بنشوة غامرة:

ماذا أقول بحجر بعد تضحية ***

***** نفسي الفداء بحجر وهو مقتول**

حب الإمام علي كان منهله ***

***** قد ذاب في حبه والسيف مسلول**

كنت الشهيد وفي التاريخ مفخرة ***

***** وذكر خصمك في التاريخ مرذول**

*** * ***

(٤)

"ما بين قبري ومنبري روضة من رياض الجنة"

فاضت عيناه بالدمع وهو ساجد يردد هذا الحديث بصوت خافت متهدج؛ وحاول أن يكتم عبرةً على وشك أن تتحول لبكاء ونشيج، فلم يرد أن يلفت أنظار من حوله في ساحة المسجد النبوي، وجسده يهتز بصوت بكاء مكتوم وهو يردد في خشوع:

"السلام عليكم يا سيدة نساء العالمين، يا فاطمة الزهراء، عليكِ السلام ومنك السلام وإليك السلام."

هز وجدانه وزلزل كيانه كله ترديد اسمها، وأشعره ذلك برغبة عارمة في البكاء. دموع كأنها تغسل ذنوبه كلها، وتعيده كطفل وليد قد تبرأ من كل ذنب لديه. أحس أنه سيذهب لملاقاتهم وقد تطهر من كل دنَس.

كان يعلم أن الكفار أعداء بيت النبي قادمون بعد قليل ليقتلوه، إذن؛ فأشرف بقعة يُقْتَل عليها هي قبر فاطمة الزهراء عليها السلام، ما بين قبر رسول الله ومنبره، أي الأماكن ستكون أطهر لأن تسيل عليها دماؤه التي تُطَهَّر الآن؟ فليبكِ أكثر وأكثر.

تذكر كيف انتقم من حفيدة الظالم المرتد الذي تجرأ يومًا وضرب بالباب السيدة فاطمة وهي حامل في سبط رسول الله المحسن، قتله وقتلها من بعده بستة أشهر.

-انتقمت لكِ يا سيدة العالمين، انتقمت لكِ من حفيدته، واحدةً بواحدة، فهل تقبلين؟

ارتعش جسده مرةً أخرى بالبكاء وهو على وضعه هذا لفترة طويلة... لم يعلم كم استغرق في سجوده هذا، ربما بضعة دقائق أو ساعة أو بضعِ ساعات. هو لا يُهِمه كم استغرق من الوقت، فقلبه عامر بالإيمان، والشعور بالراحة والسكينة غمر كيانه كله، وأضاء له

الدنيا من حوله، ونزعه منها بكل آثامها وأدرانها ووضعه منفردًا وحيدًا بين يديها.

كم تمنى أن تمس بيدها الطاهرة رأسه ليخرج من جسده كل أثر لدنس أو شهوة دنيوية.

كأنه سمع وقع أقدامها تدب فوق الأرض بقوة وثبات، لتقترب منه وتقف على مقربة من رأسه الساجدة، هل هو الهذيان؟ أم هو رضىً إلهي، ولحظة تضافرت فيها كل قوى الكون على أن تمنحه ذلك الشعور الذي طالما راوده وتمناه: أن تخلصه سيدة نساء العالمين من كل دنس.

هل سمع صوتها الهامس حقًّا؟ لا بد أنه كان يهذي! رفع رأسه ببطء غير مصدق. الدموع الغزيرة جعلت الرؤية مستحيلةً، أم هو الضوء الأبيض الباهر الذي أعجزه عن الرؤية السليمة؟

بدون مقدمات انقشعت الرؤيا الحالمة المستكينة وكأن روحه التي سمت وخرجت من جسده... هناك أياد تتجاذبها بقوة وبلا رحمة تعيدها إلى جسده؛ الذي ارتج وقد أبصر الواقع مرةً أخرى ليرى أمامه منبر رسول الله وهو يجثو بركبتيه على الأرض والدموع تبلل خديه و...

وأصوات زاعقة من وراءه راحت تطالبه بالوقوف فورًا، وأن يرفع يديه في الهواء، فعقد حاجبيه في حيرة، وشعر باضطراب غريب، ولكن عقله ـشيئًا فشيئًاـ استعاد كل شيء. الصور ضربت رأسه بلا رحمة كرصاصات قاتلة؛ واخترقت جمجمته حتى توقفت عند مشهد سماحته وهو يقول بصوت دافئ مُستكين:

ـ هل أنت جاهز للمهمة الأخيرة يا إدريس؟

ـ نعم سماحتك، أنا طوع أمرك.

مد سماحته يده على كتف إدريس وضغط عليها بقوة في حين أخذ إدريس يد الشيخ الأخرى المعروقة وقبلها بسعادة بالغة والشيخ يحنو على رأسه قائلًا بصوت بدا له أنه يأتي من بئر سحيق ولكنه جميل وشجي:

ـ والله؛ إني لأراك تقف بين يدي الأئمة الأطهار يا إدريس.

إدريس راح يبكي بحرقة، وجسده كله اشتعل بالسعادة وبنشوة الإيمان، واهتز بين يدي سماحته.

استدار إدريس في بطء مستجيبًا للأصوات الزاعقة من خلفه وهو يبتسم ابتسامةً مخيفةً، والدموع بللت خديه ليرى ثلاثة رجال أمن سعوديين يصوبون إليه مسدساتهم، ولا يسمع أصواتهم... شاهد أفواهًا مفتوحةً على آخرها وعيونًا مذعورةً وأجسادًا مترددةً تتراجع

ثم تتقدم، لم يعد يسمع شيئًا، أدار عينيه فيما حوله فشاهد المصلين يحدقون به من مسافة بعيدة آمنة، ثم نظر إلى قبر رسول الله لتتسع ابتسامته ثم أعاد النظر مرةً أخرى لما بين قدميه.

سيموت على أطهر مكان على وجه هذا الأرض... روضة من رياض الجنة... قبر السيدة فاطمة الزهراء... أي شرف هذا الذي بلغته يا إدريس؟! أي شرف؟!

يتخيل أن روحه تتسرب منه في لحظة شفافية عظيمة لتخترق الأرض من بين قدميه وتغوص في طبقات الأرض لعدة أمتار حتى يتراءى له جسد رقيق مكفن بالأبيض، يستقر في ذلك العمق من سطح الأرض الذي يقف عليه.

الجسد يتوهج بنورٍ عظيم!

يغشاه هذا النور فيتسلل السلام والسعادة إلى قلبه المضطرب فيسكن.

جسد فاطمة الزهراء عليها السلام يرقد هنا!

بكل فخر سيسقط قتيلاً فوق قبرها المبارك!

لقد أصبت الحسنيين يا أدريس!

رفع ذراعيه عاليًا يستقبل السماء، ووجهه كله يستقبل السماء، ولم يعد يرى تلك القباب أو الأعمدة أو تلك الزخارف التي تواري خلفها السماء، هو في لحظة كشف فريدة وعده بها سماحته؛ لذا هو يرى

السماء صافيةً تمامًا كما وعده سماحته: إنها كرامات أهل البيت التي لا تنقطع ولا تنضب أبدًا.

النجوم كانت تومض الواحدة تلو الأخرى كأنها فرحة بقدومه، وكأنها تضيء الشموع من أجله، هل تقيم أفراحًا سماويةً لهذا الشاب الطاهر الذي سيصعد إليها؟ من سيحضر عرسه السماوي؟

أعاد النظر إلى تلك الأرض الآثمة مرةً أخرى... كم يكره رؤيتها، وكم يمقت الأحياء فيها، وهذه وجوه الكفار تذكره بالمسافة الفاصلة بينه وبين الشياطين.

ابتسم ساخرًا، وقد عرف مكانه بين السماوات وهم بعد حين سيعرفون مقامهم، لكم ستكون صدمتهم كبيرةً وهم يشاهدونه من عليائه بابتسامته الواسعة.

أطلق صرخةً هائلةً لينتفض ثلاثتهم ويتراجعوا عدة خطوات للوراء، وتزداد قبضتهم إحكامًا على مسدساتهم يحاولون أن يستمدوا منها قوةً تعوزهم بعد تلك اللحظة. فركض نحوهم واستقبلهم بصدره العريض وهو يطلق صرخةً أخرى انتفضت لها القلوب وجلًا.

استقبلهم بصدره العريض وهم استقبلوه برصاصاتهم التي بدت في صوت انطلاقها المزعج كألعاب نارية تحتفل برفعه إلى السماء.

اخترقت الرصاصات صدره بجنون لتتفجر من ثقوبها الدماء وتغرق صدره في أقل من ثانية، وسقط أرضًا كعمود انهار فجأةً دون سابق إنذار على مقربة شديدة من أقدامهم التي تخبطت وهي تتراجع أكثر.

توقف ارتعاش جفنيه أعلن صعود روحه أخيرًا وابتسامة واسعة تكونت على شفتيه وسط صيحات عدد من رواد المسجد.

بعد فترة صمت ثقيلة تشجع أحدهم واقترب منه ومال نحوه يتحسس نبض عنقه فتأكد أنه مات، فأشار لزميليه اللذين اقتربا منه في بطء وقد هدأت ثائرتهما قليلًا، وساعدا رفيقهما في تقليب جثته ليفتش الشرطي عن أي شيء في ثيابه حتى أخرج ورقةً من جيب سترته الداخلية مكتوب عليها بضعة أرقام وقد ذُيّلت أسفل الورقة باسم شخص ما.

نطق الشرطي في استغراب الاسم:

–فارس!

* * *

(٥)

–لقد أرسلت لك على الواتس آب صورةً لرسالة السفاح التي عثر عليها الأمن السعودي بحوزته بعد أن أردوه قتيلًا، كعادته السخيفة تمتلئ الرسالة بالأرقام وقد ذيلها بـ...

انعقد حاجبا فارس وهو يسأله:

–بماذا؟

–باسمك يا فارس، ويبدو أنه يُكِنُّ لك معزةً خاصةً.

لم يبتسم فارس لدعابة العقيد، ونفخ في ضيق وهو يقول:

–سأطلع عليها، وأبلغك بفحواها.

–بانتظارك يا فارس.

أنهى فارس الاتصال ليفتح الواتس آب ملقيًا نظرةً على الصورة التي أرسلها العقيد، وبشكلٍ سريعٍ تتساقط الأرقام أمامه لتحل محلها الحروف، وتتشكل الجملة بشكل سريع حتى تسطع أمامه متوهجةً، فألقى نظرةً سريعةً على الأرقام مرةً أخرى ليتأكد من أن ترجمته صحيحة.

"١٣٠٣٠٠٤٠٠_١٣٠٤٠٦٣٦٤٤٠٠_١٧٠٣٠١٠_

٩٠١٠٤٣٠١٠٤٠٠_١٣٠٨١٠١٤٠٠_٢٣٠٠١٢٠٠٧٠_

٦٠٧٠٤_٧١٠٠٠٣٠٦٣٠_٤٠٤١٠٥٠٤٠٠_١٠٠٦١٠٦٠٥٠١_

٤٠٨١٨٠٩٠٠٤٠٠_١٣٠٤٠٥٠٦٨٠١٠٤٠٠"

ثم شرع يكتب على لوحة المفاتيح ترجمتها: "الشقة الموجودة أعلى صيدلية الحياة بشارع سعد زغلول مدينة قويسنا محافظة

المنوفية"، ثم ضغط على زر الإرسال، ووضع الموبايل على المائدة أمامه، وهو يسترخي في مقعده ويمدد قدميه أمامه وصداع خفيف بدأ يضرب مؤخرة رأسه، لم تمض ثوان حتى هاتفه العقيد مرةً أخرى؛ ليجيب فارس الاتصال ويسمع صوت العقيد يسأله في غيظ:

- هذه الرسالة تحمل عنوان بيت ما، ما هذا العبث؟

- ليس عبثًا كما تتصور، ولكني على ثقة أنه عنوان المكان الذي يختبئ فيه اليماني المزعوم هذا.

ران الصمت للحظات والصداع يزداد حدةً في مؤخرة رأسه، فأغمض عينيه مرغمًا ليقطع العقيد هذا الصمت قائلًا:

- يبدو هذا التخمين معقولًا جدًّا، ولكن لماذا يكشف السفاح عن مكان سيده؟

عبث فارس بشعره يحاول أن يصرف الخمول الذي بدأ يغزو رأسه، ويتسلل في خبث إلى كل جسده وهو يرد قائلًا:

- الأمر متعمد، اليماني الموعود يرغب في أن نعرف مكانه وأن نلقي القبض عليه.

- ولماذا يفعل ذلك؟

نهض فارس من على مقعده يلتقط مفتاح سيارته ويتجه إلى الباب وهو يجيب:

–لأنه وفق تخميني الذي أرجو أن يكون صحيحًا؛ هو بذلك قد أتم الرسالة المرجوة، والتي ستلفت إليه الأنظار، بكل بساطة هو بكل هذه الجرائم قدم لأتباعه ومن سيتبعه بعد ذلك الدليل الدامغ على كونه اليماني الموعود، وهو يحاول استغلالنا لنكون أداةً لنشر دعوته للناس جميعًا.

–إذا كان ما تقوله صحيحًا فأنا أمام أغبى إنسان في الوجود.

– هو لا يرى ذلك.

فتح فارس باب الشقة ليغادر وأغلقه في إهمال، وفضل أن يهبط السلم على أن يستقل المصعد وقد خاف أن يزيد المصعد من حدة آلام الصداع النصفي، وراح يستمع في تلك الأثناء إلى العقيد يقول:

–حسنًا؛ سنرسل إشارةً إلى مديرية أمن المنوفية بهذا العنوان لتلقي القبض عليه.

–لي طلب قبل أن تفعل ذلك.

– هل ما أفكر فيه تنوي أن تقوله فعلًا؟

تخللت ملامح فارس المرهقة ابتسامة باهتة وهو يرد:

– نعم؛ ما تفكر فيه صحيح بالفعل.

– هل تريد أن نفوت فرصة القبض عليه حتى تذهب إليه وتلتقي به أولًا؟ لربما هرب في هذه الأثناء.

– ثق أنه لن يفعل ذلك، هو ينتظر هذه اللحظة.

– في عملي هذا لا أحب الاحتمالات، ولكن سأتغاضى عن هذا الأمر هذه المرة، ولكن لتعلم جيدًا أنه أمامك خمس ساعات منذ هذه اللحظة حتى تصل إلى العنوان وبعد ذلك سأتخذ إجراءاتي.

– يمكنك أن تتنظر فقط حتى أصل إلى العنوان، ثم أهاتفك بوصولي فتتخذ وقتها الإجراءات اللازمة.

– لا بأس؛ ولكن يراودني في هذا المقام سؤال.

ركب فارس سيارته وأدار المحرك وهو يقول:

– وهو؟

– لماذا تريد أن تلقاه أولًا؟

– أريد أن أتأكد أنه فعلًا الطرف الفاعل في هذا التنظيم، وأنه ليس هناك طرف آخر خفي.

– آه، تقصد طرفًا ثالثًا.

– نعم.

– إذن؛ أنت تشك أنه اللاعب الرئيسي في الموضوع.

– احتمال قائم، أريد فقط أن أعرف من خلال حواري معه، هل هناك أطراف أخرى تحرك هذا الأمر، أم هو بالفعل القائم على ما يدور في هذا التنظيم؟ هل هناك أطراف مخابراتية مثل إيران؟

– نصيحتي؛ أنت تهدر وقتك، لأن جهاز الأمن الوطني سيستخلص منه كل هذه المعلومات وأكثر مما تتخيل، فلديهم أساليبهم.

– لقد وعدتني، فاتركني أحاول أنا على الأقل بطريقتي.

– لا بأس؛ وأنا عند وعدي، أمامك خمس ساعات منذ هذه اللحظة، اتفقنا؟

– اتفقنا.

– فارس، أريد أن أخبرك أمراً.

– ما هو؟

– قبل مقتل السفاح نجح في قتل أربعة أفراد من آل الصفار.

– ألم تقم بتعيين فرد أمن لحراستهم.

– هو أب وأبناءه الثلاثة واسم الأب هو الوارد فقط في القائمة.

ران الصمت للحظات وقد لمعت برأس فارس فكرة ما، فقال:

– لم يكن فرد الأمن الذي أرسلته لحماية الأب ولكن .....

احتدت نبرة العقيد وهو يقاطع فارس:

- أكره عندما تتباهى بذكائك، نعم، استخدمت الأب كطعم من أجل اصطياد السفاح ولكن من الواضح أن السفاح على نحو ما كان على دراية بالأمر وتخلص من فرد الأمن قبيل اختطافه للرجل بلحظات، تاريخ وفاة الاثنين الفروق بينهما دقائق معدودة، كانت محاولة لاصطياده وفشلت.

ظهر العتاب واللوم في صوت فارس وهو يعقب:

- لم تفشل فقط ولكنها أدت إلى مقتل أربعة أفراد.

أنهى العقيد الاتصال منفعلاً فالقى فارس الهاتف على المقعد المجاور وتحرك بالسيارة، سؤالان كانا يرهقان عقله ويجعلانه يعمل كمرجل يغلي هما:

هل هناك طرف ثالث؟

هل اليماني الموعود هو من يتحكم في الأمر كله؟

سيظل هذان السؤالان يرهقان تفكيره إلى أن يلقاه.

*** * ***

(٦)

وقف فارس أمام صيدلية الحياة وانتقل بنظره إلى شرفة الشقة الكائنة أعلى يافطة الصيدلية... ستائرها البيضاء كانت تداعبها نسمات الهواء الرقيقة... انتقل بنظره إلى مدخل البيت، وسحب نفسًا عميقًا ثم اتجه صوب المدخل، واعتلى درجات السلم حتى وصل إلى باب الشقة في الدور الأول...

تردد لحظات قبل أن يدق الجرس وقد شعر بتسارع دقات قلبه، فلم يستطيع أن يكبح توتره وانفعاله البالغ، وتجمد لحظات حتى استعاد هدوءه، وفرض قناعًا ثلجيًّا على وجهه، ثم دق جرس الباب...

انتظر حتى أتاه المجيب... الزمن طال وكأنه تمدد في تلك اللحظات الاستثنائية فهو على وشك أن يلتقي وجهًا لوجه بالرجل الذي يقف وراء كل هذه المصائب، فقط يريد أن يطمئن إلى أنه آخر الخيط، ولا توجد من وراءه خيوط أخرى. تمنى ذلك من صميم قلبه أن يكون بالفعل قد وصل إلى رأس الأفعى...

سمع صوت أقدام تقترب مسرعةً من الباب، فتسارعت دقات قلبه على الرغم منه، ولكن بقي وجهه ثلجيًّا لا يشي بأي انفعال.

فتح الباب صبي صغير في ربيعه الثاني عشر، فتفاجأ فارس قليلًا، فلم يكن هذا ما يتوقعه تحديدًا، فخرج صوته متوترًا على الرغم منه:

– هل الوالد في المنزل؟

لم يجبه الصبي مباشرةً، ولكن أتاه صوت امرأة بلهجة يمنية يسأل عن الطارق، فحدق الصبي بريبة في فارس، ثم قال بصوت مرتفع:

– رجل غريب يا أمي.

ظهرت من خلف الصبي امرأة لثمت وجهها بغطاء رأسها، تبثه نظرات مستريبةً متوترةً، فأعاد فارس السؤال:

– هل صاحب المنزل موجود؟

لم ترد المرأة مباشرةً، ولم يبدُ في عينيها المتوترين شعور بالمفاجأة فقط، ولكن الكثير من الخوف، فأجابت بعد وهلة قصيرة بدت طويلةً بصوت مرتبك حاولت أن تجعل لكنته مصريةً:

– خرج للصلاة.

– لا بأس سأنتظره في الخارج.

أغلقت المرأة الباب في وجهه دون أن تضيف كلمةً أخرى، فازداد توتر فارس، وخشي أن تبلغه بقدوم غريب فيستريب الأمر ويهرب، ولكنه علق كل آماله وتخميناته على أنه لن يفعل ذلك بل هو يريد هذا اللقاء ويتوقعه ويأمل فيه، فتمنى أن تصدق تخميناته وإلا سيكون قد فوت فرصةً ثمينةً، وصيدًا لا يحتمل أن يفقد أثره.

أغمض فارس عينيه وهو يضم قبضته اليمنى في محاولة لمحاصرة التوتر ومنعه من التمكن منه، وحرك شفتيه في صمت وتوقف فجأةً وهو يسمع صوتًا من خلفه بنبرة ترحاب بدت في غير محلها:

- أهلًا أستاذ فارس.

فتح فارس عينيه وقد رُدَّت إليه روحه التي كانت على وشك الإفلات من فمه، فعبر عن ذلك بتنهيدة مكتومة وهو يلتفت إلى صاحب الصوت: رجل طويل القامة، ممتلئ قليلًا، ولكن يتماهى امتلاء جسده مع قامته الطويلة وكتفيه العريضتين، بشرته قمحية أقرب إلى البياض، وتتسع ابتسامة الرجل وهو يعتلي الدرجات المتبقية التي تفصله عن فارس... يمد يده مصافحًا...

من الغريب أن يبدو ودودًا ومضيافًا إلى هذا الحد! وطالما أنه يعرف اسمه فهو يعرف القصد من هذه الزيارة، هل يثق إلى هذه الدرجة في خطته المزعومة؟!

صافحه فارس في برود وهو لا يزال يحافظ على قناعه الثلجي. أخرج الرجل مفتاح الباب، وفتح باب الشقة مصدرًا صوتًا لينبه من في البيت، ويفسح الطريق أمام فارس ليدخل إلى صالة البيت... لا يعرف

فارس هل أعد له الرجل مكيدةً أو فخًّا؟ هل سيجد سفاحًا آخر في انتظاره؟

الرجل –بالتأكيد– ليس بهذه الحماقة، فهو يعلم أن وراء قدوم فارس إلى بيته عددًا من رجال الشرطة أيضًا في انتظاره، وعليه أن يراهن على ذكاء الرجل.

أغلق الرجل باب الشقة، ثم صاحب فارس إلى غرفة الضيافة ليغلق الباب عليهما، ويشير باتجاه مقعد خالٍ مواجه لمقعد آخر. جلس فارس على المقعد الذي أشار إليه الرجل في حين جلس الرجل وهو يعدل – بتباهٍ– وضع عباءته ووجهه محتفظ بابتسامته.

هز الرجل رأسه كأنه يؤمن على حاجة في نفسه قد تحققت بالفعل قبل أن يقول بابتسامته التي لا تزال مرسومةً على شفتيه:

–كنت أنتظر قدومك هذا يا أستاذ فارس.

–حقًّا؟!

–نعم؛ ليس الأمر مفاجئًا.

–ولكن لم يكن هذا رد فعل...

صمت فارس ليقول الرجل بجدية وقد زالت الابتسامة عن وجهه:

– أم جعفر امرأة طيبة القلب رقيقة المشاعر، وأنت تعرف النساء يا أستاذ فارس، وكما قال الرسول صلوات الله عليه: "رفقًا بالقوارير".

– وهل كنت رفيقًا بقارورة أرسلت قاتلك ليقتلها؟

أبدى الرجل تأسفًا مفتعلًا وهو يجيب:

– للضرورة أحكام يا أستاذ فارس، ولكن دعني أرد إليك السؤال نفسه، وأسألك: هل كان عمر رفيقًا بالسيدة فاطمة عليها السلام؟

– هذا إن حدث!

– حسنًا؛ دعنا لا نخض في هذا الأمر الآن.

– أفضل ذلك أيضًا.

– هل تنتظرني الشرطة في الأسفل؟ أم أنهم يرتدون طاقية الإخفاء؟ لأني في طريقي إلى البيت لم أجد أيًّا منهم.

– هل تنتظر قدومهم؟

– أنت تعلم أني أنتظرهم بعد أن أنهى الشهيد إدريس مهمته الربانية.

قال فارس باستنكار ممزوج بالغضب:

– الشهيد؟!

تجاهل الرجل تعليق فارس الاستنكاري في حين قال فارس:

– هل تصدق فعلًا أنك اليماني الموعود؟

– لستَ أول من يسألني هذا السؤال.

– هذا جيد؛ فهذا يعني أن في هذه الدنيا الكثير من العقلاء.

ابتسم الرجل لتهكم فارس مضيفًا:

– أو الكثير من الغافلين يا سيد فارس.

تجاهل فارس تعليقه الأخير ومضى يسأله:

– هل تعلم شيئًا عن شخص يُدْعَى أحمد إسماعيل كاطع؟

هز الرجل رأسه نفيًا فاستطرد فارس:

– دعني في عجالة سريعة أخبرك من هو، وبالمناسبة كانت قصته أكثر إبهارًا، وأفعاله أشد تأثيرًا مما صنعت وتأمل أن تصنع.

– حقًّا؟!

اغتبط فارس لرنة السخرية التي ظهرت في صوت الرجل، وهذه بداية جيدة كان يطمح إليها، فخلف السخرية يستقر بركان يغلي، وذلك الغضب المستتر وراء سخريته من الممكن أن ينفجر في أي لحظة ليتخلى عن حيطته وحذره؛ فيندفع ليلقي بما يريد فارس أن يسمعه منه... لحظة غضب قد يتجلى فيها الصدق.

- أحمد إسماعيل كاطع خريج كلية الهندسة، وينحدر من عائلة لها ثقلها في مدينة البصرة وله إخوة يمتلكون شهادات علمية عالية، دخل سجن أبو غريب ما بين عامي ٨٩ و٩٩ في ظروف غامضة رغم أن أخاه كان يشغل وقتها منصبًا مهمًّا في وكالة الطاقة الذرية وأحد مساعدي اللواء المهندس حسام محمد أمين الذي كان عضوًا في المفاوضات التي جرت مع أيكيوس ومن بعده باتلر؛ رئيسا فريق التفتيش عن أسلحة الدمار الشامل.

عدل الرجل من جلسته يبدي تململًا زائفًا، فراقَ كثيرًا لفارس الذي بدأت خطته تؤتي ثمارها وهو يقول:

- أحمد كان يجيد قراءة الكف للسجناء الذين كانوا في البداية يذهبون إليه للممازحة وقضاء الوقت فقط، لكن مع مرور الوقت كان أغلب ما يقوله للسجناء يتحقق قسم كبير منه، الأمر الذي حير السجناء، ثم أصبح ذو حظوة كبيرة بين السجناء، وخرج من السجن قبل سقوط نظام صدام حسين بفترة قصيرة، والتحق بالحوزة العلمية في النجف، واستطاع التقدم في بعض العلوم وأهمها علم الأصول...

قاطعه الآخر مضجرًا ونبرة صوته تنطوي على الضيق:

- ما المغزى بالضبط مما ترويه عن هذا الشخص؟

هذا تقدم مهم للغاية بالنسبة لفارس، فبهذه الطريقة المنظومات الدفاعية للرجل بدأت تتداعى بشكل واضح... قال فارس بهدوء:

-ستعرف المغزى من كلامي، ولكن فلتصبر دقيقةً أخرى.

أشار الرجل بيده اليمنى لفارس ليكمل ما انقطع من حديثه فقال فارس:

-وفي العام ٢٠٠٤ بعد الاحتلال الأمريكي للعراق شارك مع مؤيدين له في معركة عنيفة ضد القوات الدانماركية التي كان لها تواجد في محافظة النجف آنذاك، واستطاع أن يحقق بعض الانتصارات على الدانماركيين، وعلى أثر ذلك بدأ عدد من أساتذة الجامعة وطلبة الدراسات العليا ينضمون إلى هذا التنظيم، وأصبح لهم جريدتان: واحدة باسم (الصراط المستقيم) والثانية (صرخة الحق) ...

ثم تطور الأمر إلى أن قام أتباع أحمد إسماعيل كاطع بالاصطدام مع النظام في ثلاث محافظات، أولهما النجف ولم ينجح هذا الاصطدام، ولكنه أتى ثماره في البصرة والناصرية وقتلوا عددًا من الأشخاص مثلما فعلت أنت وأتباعك، فكان عدد المقتولين في البصرة نحو ٩٧ ومنهم عدد من رجال الشرطة وفي الناصرية كانت الضحايا أكثر من ٧٠ شخصًا.

صمت فارس قليلًا ليرى انطباع ما يرويه على وجه الآخر فوجده ثلجيًّا، ولكن لم تفته عينا الرجل المشتعلتان بالغضب فأضاف:

-قبل هذا الصدام كان تنظيم هذا الشخص قد نما في المدن الجنوبية بالعراق، وأصبح لديهم حسينيات وجوامع ومكاتب، وكان أحمد إسماعيل يواصل طرح مسائل فسلفية دينية معقدة على أتباعه حتى يوهمهم بأنه اليماني الموعود.

صمت فارس أقل من ثانية ليشير إلى الآخر قائلًا بسخرية:

-مثلك تمامًا، والمغزى أنك لست أول من يدعي أنه اليماني الموعود.

كان فارس مهتمًّا بتفرس ملامح الرجل بدقة، وأُعْجِب بثباته وتحول عينيه السريع من الغضب إلى السكينة وهو يرد بثقة:

-أخبرنا إمامنا جعفر الصادق عليه السلام أنه سيكون هناك الكثير من المدعين، وهذا أمر معلوم.

لم تنجح هذه المحاولة كليةً، وهو لم يكن يتوقع لها النجاح الكلي، وكل ما كان يطمح فيه الآن أن تكون بمثابة خطوة تمهيدية للقادم الذي ينتظر فيه إجابةً شافيةً وصادقةً.

ضم فارس شفتيه يفكر في أمر ما، ثم قال:

- هناك سؤال هام يشغلني.

- وهو؟!

- من الذي قام بمطابقة تحاليل الدي إن إيه للضحايا بالتحليل الدي إن إيه الذي من المفترض أنه لمعاوية أو رفات من تزعمون أنها تنتمي لأبنائه أو لا أعرف أيًّا يكن.

- وهل وجدت إجابةً لسؤالك؟

- نعم.

أشار فارس إليه قائلًا:

- أنت، أليس اسمك هو...؟

بتر فارس عبارته وهو يخرج هاتفه الجوال قائلًا:

- دعني أتذكر هو...

رد الآخر في هدوء:

- حسن محمد عبد الله الزيدي، وذلك لأن نسبي ينتهي إلى زيد بن علي.

أومأ فارس برأسه قائلًا:

- نعم، نعم؛ بالاطلاع على صورة من جواز سفرك تبين لي أنك تخرجت في كلية العلوم قسم بيولوجيا جزيئية، أليس كذلك؟
- هذا صحيح، أنا بالفعل من توليت مهمة مطابقة تحاليل الدي إن إيه.
- رائع؛ وهناك أمر آخر أيضًا بدا لي غريبًا لا يتفق مع براعة هذا التنظيم في تنفيذ جرائمه ونجاحه في إتمامها كلها.
- أخبرني إياه.
- يوم دخول إدريس إلى مصر هو يوم دخولك نفسه، وعلى الطائرة نفسها، والغريب أنكما لم تقوما بتزوير جوازات السفر أو تأتيا على رحلتين مختلفتين، وكأن الأمر متعمد أن نصل إليكما بهذه السهولة.

هم الرجل بالرد، ولكن فارس لم يمهله:

- والطريف في الأمر أن السفاح كان يحمل في جيب سترته رسالةً فيها عنوان بيتك هذا بدقة، ألا تجد أن كل هذا غريب؟
- بالتأكيد هو غريب من وجهة نظرك، ولكنه متناغم ومنطقي من وجهة نظرنا نحن.
- بالفعل؛ هذا ما توصلت إليه، ولكن ما هو السبب؟

–إنها النبوءة يا أستاذ فارس! النبوءة!

رد عليه فارس متهكمًا وهو يرسم تعابير ساخرةً على وجهه:

–اعذر جهلي بنبوءتك! هلا أخبرتني عنها؟

–بالتأكيد ستكون أنت أول العارفين، وبعدك سيعرف العالم.

لم يعلق فارس، واكتفى بالإنصات والآخر يقول بشكل مسرحي بدا كوميديًّا لفارس:

–ما تسخر منه الآن يا أستاذ فارس هي نبوءات تحقق بعضها، والبعض الآخر في طريقه، ودعني أوضح لك بعض الأمور التي قد تكون خفيت عليك.

رد فارس:

–إني منصت.

–جيد؛ أتذكر –قبل اندلاع الثورة اليمنية المباركة على ذلك الناصبي الطاغية علي عبد الله صالح– كيف كان أقرب ما يكون لكونه ملكًا على اليمن وحليفه ذلك الهالك الملك عبد الله ملك السعودية ؟ ألم يكونا على وفاق ووئام؟

لوح بكفه اليمنى منفعلًا وهو يقول:

- ثم ماذا حدث؟ تحققت نبوءة الإمام جعفر عليه السلام، واختلفا لما اندلعت الثورة اليمنية، وأجبره ملك السعودية على أن يترك الحكم...

اسمع ماذا قال الإمام جعفر بهذا الشأن: "لا بد لبني فلان من أن يملكوا؛ فإذا ملكوا ثم اختلفوا تفرق ملكهم، وتشتت أمرهم حتى يخرج عليهم الخراساني والسفياني؛ هذا من المشرق وهذا من المغرب يستبقان إلى الكوفة كفرسي رهان، هذا من هنا وهذا من هنا؛ حتى يكون هلاك بني فلان على أيديهما، أما إنهم لا يبقون منهم أحدًا".

تراجع في مقعده مبتسمًا وهو يقول بنشوة:

- صدقت يا إمامنا عليك السلام...

انظر الآن؛ فالسعودية متورطة حتى أذنيها في حرب اليمن ولا تعرف ماذا تصنع، والحوثيون يقفون على حدودها الجنوبية وبينهم وبين مكة مسافة ليل، وانظر أيضًا ما حاولت السعودية أن تصنعه في العراق؟ ها؟ أتذكر الكوفة، العراق يا أخي؛ كيف كانت تحرك هذا التنظيم الداعشي؟ هذا التنظيم هو السفياني الملعون!

- إذن؛ أنت تعتبر السعودية محرك لذلك التنظيم؟

- نعم؛ وهل من شك في هذا؟

رد فارس ساخرًا:

– الشك قائم بالفعل في كل ما تقوله، ولكن لا بأس.

وضع فارس سبابته اليمنى على شفتيه يسأل:

– ولكن من بحثي عرفت أن هذا السفياني شخص.

هز الرجل رأسه نافيًا وهو يجيب:

– لا يا أخي، لا تُؤْخَذ النصوص بالظاهر، ولكن الأسماء هنا دلالات، كيانات وليست شخوصًا، وهذا مما حباني به الله من علمه الذي لا ينقطع ولا تحده حدود.

– أنت أيضًا يُوحَى إليك.

– يا أخ فارس توقف عن السخرية، ليس وحيًا كوحي الأنبياء ولكنها رؤى وكشوفات.

لم يعلق فارس بل تراجع في مقعده واضعًا قدمًا فوق الأخرى يصغي السمع للآخر الذي بدا له مجنونًا بالكلية والرجل يسترسل في حماس وانفعال زائد:

– ومن هو الخراساني الذي ينصر الله به الحق؟

– دعني أخمن، إيران مثلًا؟!

ضرب الرجل فخذه اليمنى وهو يهز رأسه يمينًا ويسارًا في نشوة يضيف:

- اقتربت كثيرًا يا أخي، والله إني لأستبشر فيك خيرًا على الرغم من ملامحك التي تمتلئ سخريةً، ولكني أستبشر فيك خيرًا كثيرًا.

تيقن فارس أنه يجالس رجلًا على درجة عالية من الجنون، ولكنه فضل أن ينصت أكثر في محاولة لاستقرائه على النحو الذي يؤكد ظنونه أو ينفيها، استقراء سيجيب سؤالًا معينًا في عقله، فقطع عليه الآخر استرساله هذا في أفكاره وهو يضيف:

- يمكنك أن تقول إن قاسم سليماني ذلك الجنرال الإيراني هو الخراساني نفسه، أو فلتقل فيلقه المُسَمى بالقدس هو ما يمكن تسميته بالخراساني باعتبار الخراساني كنايةً وليس اسمًا.
- أليس هذا الرجل أحد جنرالات الحرس الثوري الإيراني؟
- نعم؛ هو.
- إذن؛ هو الخراساني.
- نعم؛ أو فيلقه، لا يهم، ولكن المهم تلك الآيات الربانية، ثم أخبرني ما هو مآل داعش الآن؟ أليس الهزيمة المنكرة؟ وما كان لهذا أن يحدث لولا فضل الإيرانيين الذين ورد ذكرهم في أحاديث كثيرة للأئمة الأطهار عليهم السلام.

– ولكن السؤال ما هو دورك أنت في كل هذا؟

أشار إلى صدره بزهو قائلًا:

– أنا هو اليماني الموعود الذي يبشر العالمين بقدوم الإمام المهدي عليه السلام عجل الله فرجه، وأنا من قال فيه الإمام جعفر عليه السلام: "وإذا خرج اليماني فانهض إليه فإن رايته راية هدى، ولا يحل لمسلم أن يلتوي عليه، فمن فعل ذلك فهو من أهل النار، لأنه يدعو إلى الحق وإلى طريق مستقيم". وأنا يا أستاذ فارس أدعوك إلى الحق والطريق المستقيم.

– وهل طريق الحق يكون فوق جثث الأبرياء؟

– هذا من تلبيس الشيطان عليك، فهؤلاء ليسوا بأبرياء كما تتصور. هؤلاء هم حفدة قتلة أئمتنا الأطهار، ويجب أن يُجْتَث من جسد الأمة هذا السرطان الخبيث.

– آه، تذكرت تلك الترهات.

هز الرجل رأسه وهو ينظر بإشفاق إلى فارس، وخيم الصمت بعض الوقت قبل أن تهدأ حماسة الرجل وهو يقول في هدوء:

– هو زمن فتنة يلتبس فيه الحق بالباطل، ويسقط في هاوية الباطل الكثيرون، هؤلاء هم الحيارى، أدعو الله أن ينجيك من تلك الهاوية وأن تتبع راية الهدى.

نهض فارس من مقعده ليهتز جسده بضحك مكتوم والآخر يتابعه بإشفاق ويتمتم مستغفرًا.

-يؤرقني سؤال آخر.

-وما هو؟

-تقريبًا؛ حصلت على نصف إجابة هذا السؤال، ولكن بقي الشق الآخر الذي أنتظر منك إجابةً عنه بما أنك راية هدى ومن يحمل راية الهدى لا ينطق إلا بالصدق، أليس كذلك؟

-لا أنوي خداعك يا أستاذ فارس، فَسَلْ؛ وسأجيبك بكل صراحة.

-قراءتي لهذا الحوار الذي دار بيننا ينبئني بشيء واحد لم أعد أشك فيه.

صمت فارس يستطلع ملامح الرجل الذي بقي هادئًا مستكينًا فاستطرد فارس قائلًا:

-من هو ذلك العقل العبقري الفذ الذي خطط لكل هذا، وهو بالتأكيد ليس أنت؟

لم يتوقع فارس إجابةً فوريةً منه، فعاجله قائلًا في محاولة لاستباق أي محاولة منه للالتفاف، وتفعيل آلياته الدفاعية:

-أنت وعدتني بالصدق.

رفع الرجل حاجبيه في دهشة غير مبررة لفارس، وهو يمصمص شفتيه ثم قال:

-أتعلم يا أستاذ فارس، إنه بالفعل عبقري، فلقد خطط لكل شيء ببراعة مطلقة، وسارت الأمور وفق الخطة تمامًا كما رسمها، كم هو فذ!

لم يشأ فارس أن يقطع على الرجل تجليه، فهو الآن في أصدق لحظاته وأي تدخل من جانبه قد يخرجه من حالة النشوة التي تعتريه، وتجعله يلجأ للمراوغة.

-تمامًا كما أخبرني أنني سألتقي بشاب نجيب سيعرف على الفور أنني لست العقل المدبر لكل ما حدث، وأنني سأتمنى وقتها أن يكون هذا الشاب هو ذراعي الأيمن.

رفع عينيه لفارس قائلًا بافتتان:

-أنا الآن بالفعل كم أتمنى أن تكون ذراعي الأيمن.

الدهشة هذه المرة كانت من نصيب فارس الذي تراجع بشكل لا إرادي بضعة خطوات للخلف حتى اصطدم بحافة مقعده، فألقى جسده تلقائيًّا على المقعد وهو يسأل مبهوتًا:

-هل يعرفني على نحو شخصي؟

كَسَت ابتسامة واسعة شفتي الرجل وهو يقول:

–نعم؛ يعرفك شخصيًّا.

هز رأسه مرةً أخرى يضيف وقد اكتسى صوته بسعادة طاغية:

–والله إني لأرى حر بن يزيد آخر على وشك أن يتحرر من دنس النواصب تمامًا مثلك مثله، صدق الرسول عندما قال: "إذا فتح الله عليكم مصر، فاتخذوا فيها جندًا كثيفًا، فذلك الجند خير أجناد الأرض"، هل تعرف الحر بن يزيد؟

رد فارس في شرود وعشرات الأصوات تصدع برأسه الآن:

–كان اسمه مكتوبًا في إحدى رسائل السفاح.

–كان ذاك هو تعديلي البسيط على خطته أن جعلت السفاح يضع هذه الرسالة وكأني أناديك بها يا فارس يا حر.

– هل كان مصريًّا مثلي؟

–مصري فذ العقل، وقلبه عامر بالإيمان، هداه الله إلى الحق بعد الضلال، وسأدعو الله أن يدنيك للحق، ويذهب عنك الباطل، وأتصور أن ذلك سيكون قريبًا جدًّا.

عقد فارس حاجبيه متسائلًا:

–ولماذا تتصور أنه سيكون قريبًا جدًّا؟

ضحك الرجل وهو يقول:

– لا تحاول التذاكي يا أستاذ فارس فأنت تعرف الإجابة جيدًا، أنت يا رجل من آل المستوفي، آل الحر بن يزيد.

– يبدو أن هذا الشخص يعرفني تمام المعرفة؟!

– هو بالفعل كذلك.

نهض الرجل من على مقعده، ووقف في اعتداد وابتسامة مطمئنة تقفز إلى شفتيه يقول:

– أنا في انتظار رجال الشرطة يا أستاذ فارس، فلدي رسالة سيسمع صداها من في المشرق ومن في المغرب تمامًا كما أخبرنا إمامنا عليه السلام، وكأنه كان على علم بأنه سيكون في المستقبل فضائيات تُسمِع من بالشرق والغرب.

استفاق فارس من شروده وهو يرد عليه ساخرًا:

– وهل تتوقع أن تظهر على الفضائيات؟

– كما وعدني تمامًا، ستُذَاع محاكمتي على شاشات التلفاز ليراها القاصي والداني لأزف إليهم نبأ خروج الإمام المهدي عليه السلام عجل الله فرجه.

هز فارس رأسه مشفقًا واقترب من اليماني قائلًا:

–دعني أخبرك سري الأخير، والذي لن يسرك أبدًا سماعه.

اختلجت ملامح الرجل، ولكنه سرعان ما تماسك ولم ينطق في حين أكمل فارس:

–لن تكون هناك محاكمة أو فضائيات تبث جلسات محاكمتك، فالقادمون لاعتقالك في هذه اللحظة هم أفراد من جهاز الأمن الوطني، هل سمعت عنه؟

ارتعشت شفتا الرجل ولم يقوى على النطق، وابتعد عنه فارس متجهًا إلى باب الغرفة يفتحه قائلًا:

– هلا رافقتني في هدوء.

تسمر الرجل في مكانه غير مصدق لما يسمع، فأغمض فارس عينيه وهو يتطلع إلى الدموع التي تجمعت في أعين الصبي الصغير والمرأة الواقفين في الرواق الواصل إلى صالة البيت، فأدار فارس رأسه للرجل قائلًا:

–لا تدعهما يريان هذا المشهد ورافقتني بهدوء إلى الشارع فهم بانتظارنا الآن.

تخلص الرجل من جموده مبتلعًا ريقه في صعوبة وهو يتبع فارس بخطوات بطيئة وقد هرمت ملامحه فجأةً، ونظر إلى زوجته وولده بذهول، فأخرجه فارس من شروده قائلًا:

- أرجوك، لا تزد الأمور صعوبةً.

حاول الرجل أن يفتح فمه مرارًا حتى استجمع قواه أخيرًا ليقول بصوت واهن:

- وماذا عن زوجتي وولدي؟ هل سيمسهما الضر؟

هم فارس بالرد ولكن الرجل قاطعه بصوتٍ يكسوه الرجاء:

- أقسم لك بالله أنهما لا يعرفان شيئًا عن هذا الأمر، وليسا متورطين فيما فعلت.

- لن يمسهما أي أذى، فلقد تأكدت بنفسي من هذا الأمر، وسيتم ترحيلهما على أول طائرة متجهة إلى صنعاء اليوم، وسأشرف على هذا الأمر بنفسي.

سالت الدموع من عيني الرجل رغمًا عنه، وولده يجري نحوه يحتضنه باكيًا، وتوارت المرأة في الرواق المظلم تكبح بكل ما أُوتِيَت من قوة نحيبها، فربت الرجل على رأس ولده قائلًا بصوت متهدج:

- لا تقلق يا جعفر، لن يحدث لك أو لأمك أي مكروه.

نظر نحو فارس وعيناه وملامح وجهه تحمل رجاءً خاصًّا ويقول:

- أنا أثق فيك يا أستاذ فارس، أرجو ألا تخذلني في أهلي.

- لو أني أطلقت العنان لنفسي لكنت قتلتك بيدي هاتين، ولكن من حسن حظك أني أتمتع ببعض المروءة والشهامة.

أطلت من عيني الرجل الدامعتين نظرة امتنان وشكر، ونحَّى ولده جانبًا؛ الذي حاول التشبث به، ومال نحوه قائلًا:

- لم تعد طفلًا يا جعفر، أنت رب البيت الآن فأحسن التصرف وأحسن إلى أمك.

استكانت ذراعا الصبي التي كانت تطوق خصر والده؛ ليتبع الرجل فارس مبهوتًا غير مصدق، فلم يكن هذا هو وعد الآخر له، ولم يكن هذا ما هو مقرر أن يحدث، ولقد اختبر إيمانه بنفسه، فكيف خانته فطنته فيه؟

أغلق فارس باب الشقة خلف الرجل لينتفض وبصره يشخص نحو الباب ليرتسم الذهول على عينيه الجاحظتين، ثم هبط درجات السلم في استسلام تام، وهو يستند بيده اليسرى على الحائط.

مرةً أخرى أصوات مستنكرة ضربت رأسه من كل جانب: لم يكن مقدرًا لتلك الخطة الإلهية أن تفشل! إنه اليماني الموعود صاحب راية الهدى، والله وليه، فأين الله الآن مما يحدث؟ أَيُمَحِّصُ الله إيمانه،

ويختبر عزيمته وجلَده؟ نعم؛ هو كذلك، لا يعدو عن كونه ذلك، فلن يبدل الله وعده الذي وعده.

مسح دموعه وانتصبت قامته وهو يهبط درجات السلم، وقد لاحظ فارس تغير سلوكه المفاجئ؛ فاستراب أمره وتحفز لأي حركة غير مضمونة منه بأن كور قبضتيه، ولكن لم يبد الرجل أي فعل مجنون، بل ظل يهبط درجات السلم منتصب القامة في وقار حتى وصل إلى مدخل البيت الذي كان يقف عنده رجلان طويلا القامة، ملامحهما متحفزة.

توقف فارس عند الدرجة الأخيرة وواصل الرجل تقدمه باتجاه الرجلين، ولكنه توقف للحظة، فتحفز فيها الرجلان أكثر. أدار رأسه لفارس ووجهه تعلوه ابتسامة واثقة وهو يقول:

– إني بانتظارك أيها الحر، تذكر ذلك، إني بانتظارك.

لم يعلق فارس بل تابع اصطحاب الرجلين لليماني إلى سيارة زرقاء اللون، ودخل أحدهما أولًا إلى المقعد الخلفي ثم حث الرجل الثاني اليماني على أن يدخل، ثم تبعه ليرفع الأول يده اليمنى للسائق حتى ينطلق.

مسح فارس وجهه بكفيه واسم واحد يتردد في رأسه: الحر بن يزيد...

* * *

(٧)

وقف فارس أمام باب شقة الدكتور معاذ، وشعر بألم شديد ينتشر في كل أنحاء جسده، سبب هذه الآلام ليس عضويًّا ولكنه نفسي على نحو أكبر، ولم يعتريه فقط الشعور بأن هناك حجرًا ثقيلًا يجثم على صدره ولكن شعر أنه عجز بالكلية عن التنفس الطبيعي، وأنه على وشك أن يُصَاب بذبحة صدرية.

رفع يده لدق جرس الباب، ولكنه تراجع مغمضًا عينيه وهو يعلم أنها محاولة فاشلة لتهدئة روحه الملتاعة، ولكنه فتح عينيه مرةً أخرى وهي أكثر إصرارًا، فيدق جرس الباب، وينتظر لثوان حتى يأتيه صوت الدكتور مرتفعًا يلهث:

- حاضر، أنا قادم.

يفتح الدكتور الباب وهو يقول ممازحًا:

- يا أخي، ألم أعطك من قبل نسخة من المفتاح، ما الداعي لأن تجهدني وأنت تعرف حالتي.

ابتسم فارس ابتسامةً باهتَّة ذابت قبل أن تنطبع على شفتيه، أشفق عليه الدكتور معاذ، وهو يقول في صوت اصطبغ بالحنان الأبوي وهو يمسك بذراع فارس اليسرى يجره إلى الداخل:

–يبدو وكأنك هرمت فجأةً يا فارس، ادخل.

يغلق الدكتور باب الشقة، ثم يتبع فارس إلى صالته، يلقي فارس نفسه على أريكة مجاورة لمقعد الدكتور معاذ الذي اقترب من مكانه يتخذ مجلسه في صعوبة نتيجةً لبدانته المفرطة، ويطلق تنهيدةً طويلةً بعد أن غاص في مقعده ونظر نحو فارس:

–يحزنني شكلك هذا يا فارس، فقدت عينيك حيويتهما.

كان فارس يضع وجهه بين كفيه، ولم يرفع وجهه مباشرةً للدكتور ولزم الصمت، فاحترم الدكتور هذا الصمت ومال نحوه قليلًا وهو يضع يده على فخذ فارس الأيمن قائلًا:

– هل تحب أن أصنع لك كوبًا من الشاي؟

رفع فارس رأسه إليه يهزها نفيًا وهو يرخي ظهره على ظهر المقعد ينظر إلى الدكتور مطولًا الذي حاول أن ينتزع ابتسامةً من أعماقه ويرسمها على شفتيه وهو يعود للاسترخاء في مقعده قائلًا:

–مبارك لك النجاح في القضية يا فارس، والقبض على رأس التنظيم. لقد نجحت يا فارس ولم يخب ظني فيك.

لم يبتسم فارس، لم يبد أنه كان يستمع حتى إلى الدكتور، ولكنه تحرك في مكانه بأن مال قليلًا إلى الإمام يسند مرفقيه على فخذيه يحدق في وجه الدكتور بثبات قائلًا:

– هل تعرف يا دكتور؟

– ماذا يا فارس؟

ابتلع فارس ريقه وقد شعر بأن هناك حجرًا يقف كعثرة في طريق الكلمات التي تريد أن تندفع كرصاصات من فوهة بندقية محشوة بالكثير من الأفكار، سحب فارس نفسًا طويلًا ثم قال:

– لم أشعر عند إلقاء القبض على اليماني الموعود بأي فرحة أو سعادة، ولكن لقائي به قبل إلقاء القبض عليه أثار في نفسي الكثير من التساؤلات، أو لأكن أكثر دقةً: سؤال واحد تخضم في رأسي وأصبح يشغل تفكيري.

– وما هو يا فارس؟

– إنني بعد حواري القصير معه تيقنت أنه ليس الرأس الفاعلة في كل ما سبق، وأصبحت على ثقة كاملة أنه مجرد أداة تقف وراءها قوى أخرى أو عقل آخر مدبر لكل ما قام به هذا التنظيم.

صمت قليلًا وهو يلوح بيده اليمنى في الهواء كأنها تساعده على الاستطراد، وشرح ما يعجز عن نطقه حتى قال:

- هل تعلم؟ نظرية الطرف الثالث التي غرقت فيها مصر طوال سنوات الثورة.

- نعم يا فارس؛ أنت تظن أن هناك طرفًا ثالثًا يقف وراء كل هذا.

- نعم.

- تقصد عقلًا إيرانيًّا مدبرًا لهذا الأمر.

ضحك فارس في سخرية تمتزج بالغضب وهو يهز رأسه نفيًا ثم قال:

- لا يا دكتور؛ وهذا هو المثير والمحزن في الأمر. حقيقةً لا أعلم إذا كان محزنًا أم فيه جانب مشرق، ولكن ما أعرفه يقينًا أن إيران لم يكن لها أي دور في إدارة هذا التنظيم، ربما تعلم بالأمر وتتابعه عن كثب، ولكنها حتمًا حتى الآن ليست متورطةً فيه.

عقد الدكتور معاذ حاجبيه وهو يسأل:

- إذن؛ من الطرف الذي له مصلحة في أن يدير كل ما حدث إن لم تكن إيران.

وقف فارس فجأةً وهو يفرقع إصبع يده اليمنى قائلًا:

– هذا هو بالضبط يا دكتور ما يشغلني، من الذي له مصلحة في ذلك إن لم تكن إيران، والمسألة ليست مؤامرةً دوليةً، أو حربًا مخابراتيةً بين دول وبعضها البعض، أبدًا.

لم يعلق الدكتور فارس بل تراجع أكثر في مقعده، وهو يشبك أصابع يديه؛ يستمع إلى فارس الذي كان يزرع المكان جيئةً وذهابًا وهو يقول:

– المسألة ويا للعجب كانت منذ البداية تتعلق بشخص واحد فقط؛ هو الذي أدار هذا الأمر كله بهذا النجاح، ومن بالغ نجاحه أنه لم يتم اكتشاف أمره حتى يومنا هذا.

مرةً أخرى الدكتور لم يعقب على كلام فارس، ولكنه تابع حركته بوجه جامد وفارس يلتفت إليه يحدجه بنظرة غاضبة، لم تكن فقط غاضبةً، ولكنها تحمل الكثير من اللوم والعتاب، والحزن والمفاجأة، وأبرزها أن الشعور بالصدمة رسم ملامح فارس بالكامل وهو يقول:

– أنت يا دكتور معاذ! أنت!

الصمت كان يجب أن يكون سيد الموقف، لم يشأ فارس أن يضيف المزيد، كان يتابع بنظرة نارية وجه الدكتور معاذ الخالي من أي انفعالات، ولم يفت الدكتور معاذ عيني فارس التي تلمع من الشرر وشديد الغضب، سعل سعالًا خفيفًا وهو يقول بهدوء أدهش فارس:

-الحقيقة يا فارس إنك لم تخيب ظني للحظة واحدة، كما عهدتك دائمًا، شخص متقد الذكاء لا تفوته صغيرة ولا كبيرة، ولا يفاجئني أنك وصلت إلي، ولبعض الوقت راودني الشك في أنك لن تعرف أبدًا، ولكنك كالعادة لم تخلف ظني فيك.

رد عليه فارس بسخرية:

-يا ليتني كنت أقل ذكاءً، فهو الآن يمثل لي نقمةً، ذكائي هذا الذي تمتدحه يضعني في حالة غليان وصدمة عارمة.

-أتفهم ذلك.

صاح فيه فارس:

-أنت لا تفهم أي شيء، لا تفهم أي شيء.

انتفض الدكتور معاذ وارتج جسده بالكامل على إثر صياح فارس، ثم أطرق برأسه أرضًا، وهو يقول بصوت خافت:

-آسف على أني خيبت ظنك في.

تهدج صوت فارس وهو يقول:

-أنت لم تخيب ظني فيك فقط، ولكنك طعنتني بشدة! هل تعرف هذا الشعور؟

حاول أن يرد عليه الدكتور معاذ، ففتح شفتيه ليرد عدة مرات، ولكنه كان يطبقهما في النهاية، وهز رأسه عدة مرات، ثم لزم الصمت.

مسح فارس وجهه بكفيه محاولًا أن يدفع الهدوء إلى نفسه، ولكنه كان يتوقع الفشل في التخفيف من حدة انفعاله، وعاد إلى مقعده يجلس عليه ينظر للدكتور معاذ الذي رفع إليه عينين آسفتين وهو يسأل:

-كيف عرفت يا فارس؟

-يبدو أنك لم تحتط لكل شيء يا دكتور معاذ، فاتتك بعض الأمور البسيطة التي إذا جمعتها أشارت إليك بكل وضوح، وكان من الممكن أن ألاحظها قبل ذلك، ولكن كما تعرف...

ابتسم في سخرية وهو يقلب كفيه مضيفًا:

-كيف أشك فيمن اعتبرته والدي؟ حقًّا يا دكتور؛ الخطر يأتي من مأمنه.

هز الدكتور رأسه وقد لزم الصمت منتظرًا من فارس مزيدًا من الإيضاح الذي استطرد:

-فاتني أنه كان لديك تفسير حاضر لكل جريمة، وللعجب كلها صحيحة، كيف عميت عن ذلك؟

ضحك بحرقة تخالطها السخرية وهو يشير للدكتور معاذ:

-لأنه لم يخطر على بالي أبدًا أنك طرف فاعل، لقد عَزَيتُ كل هذا إلى علمك الواسع وأيضًا من فرط ذكائك أنك صرفت عن بالي أي شك محتمل بشأنك، وقد جعلت نفسك فريسةً للسفاح، وبهذه الطريقة قطعت على عقلي أي فرصة للشك فيك، ولكن فاتني أيضًا وقتها أنك الوحيد الذي نجوت من القتل.

رفع الدكتور معاذ سبابته اليمنى معقبًا:

-وريم أيضًا.

-نعم؛ ريم؟ ريم التي أقعدتها؟!

أشاح الدكتور بوجهه بعيدًا وفارس يقول منفعلًا:

-ولذلك استغربت وقتها جدًّا كثرة أسَفِكَ لي بالمشفى، وراودني سؤال وقتها -للأسف- أهملته وتجاوزته: لماذا يتأسف على هذا النحو البالغ، وكأنه المتسبب فيما آلت إليه؟! كما أنك حاولت صرف تفكيري عنك، ووضعت أيمن أمام عيني كبديل عنك ثم تأكيدك على أنه من الممكن أن يكون العقيد وحتى تنطلي خدعتك سربت لي جملة أنه يجب ألا أجنح في شكوكي هذه كثيراً لتصرف انتباهي مرة أخرى عنك، ثم مارست لعبة سخيفة هذه المرة بأنه يجب علي التركيز على باقي الضحايا الذي ينوي السفاح قتلهم.

-ولكني كنت آسفًا بالفعل.

ضحك فارس ضحكةً بدت للدكتور قد جنحت إلى جنون لحظي وفارس يضرب كفًّا بكف معقبًا:

– آسف بالفعل، أنت مثل من يقتل القتيل، ثم يسير في رَكْبِ الجنازة.

مال فارس نحو الدكتور حتى أوشك أن تختلط أنفاسهما، وهو يقول بغيظ:

– كما أسلفت؛ أثناء حواري مع اليماني المزعوم هذا تيقنت أنه مجرد أداة، وعندما بينت له أن هناك عقلًا آخر غيره مدبر لكل ما حدث ابتسم، هل تعرف ماذا قال لي؟

لم يرد الدكتور معاذ، وفضل أن يلزم الصمت وهو يشاهد جنون الغضب يحتل كل كيان فارس الذي جز على أسنانه وهو يضيف:

– قال لي نصًّا: كما أخبرني تمامًا أنني سألتقي بشاب نجيب سيعرف على الفور أنني لست العقل المدبر لكل ما حدث وأنني سأتمنى وقتها أن يكون هذا الشاب هو ذراعي الأيمن.

وقف فارس مرةً أخرى وهو يقول بسخرية مريرة:

– هل تعلم؟ حتى هذه اللحظة كنت أنت أبعد شخص عن خيالي حتى قال كلمةً أثارت حفيظتي.

– وما هي؟

–الحر بن يزيد، بالتأكيد تعرف هذا الشخص؟!

أومأ الدكتور معاذ برأسه دون أن يجيب، فهز فارس رأسه أيضًا ثم قال:

–كلماته لا يزال صداها يتردد في أذني كأنها حدثت للتو، قال لي: إني أرى حر بن يزيد آخر على وشك أن يتحرر من دنس النواصب تمامًا مثلك مثله، صدق الرسول عندما قال: "إذا فتح الله عليكم مصر فاتخذوا فيها جندًا كثيفًا، فذلك الجند خير أجناد الأرض"...

ردد فارس وهو يضغط على مخارج الألفاظ:

– مثلك مثله... مصرياً مثله.

ضرب فارس كف بكف وهو يضيف منفعلاً:

– آه تذكرت، إخفاء اسم ريم من قوائم تحليل الدي إن إيه، أنت أول من عرفت عن علاقتي بريم، كيف تجاهلت هذا الأمر؟، كم كنت أحمق؟

رفع فارس سبابته اليمنى يلوح بها يقول وهو يضغط على شفته السفلى:

- أتعلم أن اليماني الموعود تحرك بدون إذنك ووضع ورقة مع الضحية السابعة فيها اسم الحر بن يزيد، بالتأكيد لم تكن تعرف.

لم يكن ينتظر من الدكتور أي جواب، بل ثبت نظره عليه يضيف:

- عندما التقيت بالسفاح في الفيلا التي أرشدتني لها، أدهشني للغاية أنه كان يعلم بقدومي بل واستعد لهذا الأمر، وقتها من فرط غبائي انصرف تفكيري إلى العقيد أو أيمن وقمت بمحو اسمك تماماً من قائمة الاشتباه بدافع أنك....

ضحك في سخرية تمتزج بالغضب:

- في مقام الوالد رحمة الله عليه، لا يمكن أن يكون أنت، في حين أن هذا الأمر بالذات كان يشير لك بأصابع الإتهام، وحدك أنت، وأيضاً بغباء شديد تجاهلت هذا الأمر ثانية.

صمت قليلًا ثم سأل الدكتور معاذ بصوتٍ حاد:

- هل تشيعت يا دكتور معاذ؟

لأول مرة يبتسم الدكتور معاذ ابتسامةً ساخرةً ظللت شفتيه، فأحنقت فارس كثيرًا، ولكنه كان ينتظر ردًّا منه، وزالت الابتسامة من على وجه الدكتور الذي قال:

- كنت أحسبك أكثر ذكاءً من ذلك.

-زدني أنت، فأنت الآن الأكثر مكرًا ودهاءً.

تجاهل معاذ سخرية فارس وهو يرد:

- هل تذكر عندما أخبرتك أنني ذهبت في بعثة لجامعة صنعاء باليمن؟

لوح فارس بيده اليمنى قائلًا:

- هذا أمر آخر قادني إليك.

هز الدكتور رأسه قائلًا:

-بعد سنة من تواجدي بصنعاء سمعت أخبارًا عن رجل يدعي أنه سفير الإمام المهدي، وأنه اليماني الموعود الذي تخبر به كتب الشيعة، وكنت وقتها أشعر بالسخرية منه فهو ليس الأول من نوعه الذي يدعي ذلك في اليمن، فقد سبقه الكثيرون إلى هذا الأمر في اليمن والعراق وغيرها من البلدان، وبعد مضي فترة قصيرة ذاع صيت هذا الرجل في اليمن وأصبح له مريدون كثر، والحقيقة أنه لفت انتباهي، وقررت أن ألتقي به، وعندما وافق على لقائي تبين أنه كان يعرفني وأخبرني وقتها أنه كان ينتظر قدومي وأن سمعتي بجامعة صنعاء تسبقني.

توقف الدكتور معاذ عن الحديث ليبتلع ريقه بعد أن استشعر جفافًا في حلقه ثم أكمل:

-وكثرت لقاءاتنا ونقاشاتنا حول فكرة الإمام المهدي ثم المذهب الشيعي، وعلى الرغم من أنه يعلن في الظاهر أنه شيعي زيدي، ولكني من نقاشاتي معه عرفت أنه على المذهب الجعفري المُتَّبع في إيران، وعرفت وقتها أنه ليس كغيره من المدعيين والزاعمين، ولكنه بالفعل شخصية مختلفة.

-وهذا دفعك للإيمان بأنه بالفعل اليماني الموعود؟!

ابتسم الدكتور معاذ ساخرًا يهز رأسه نفيًا ويقول:

-دائمًا تتسرع النتائج يا فارس، ما زال هذا عيبًا خطيرًا فيك.

لم يعلق فارس بل أطلت من عينيه نظرة استهجان وهو يستمع للدكتور معاذ قائلًا:

-كنت ما أزال أراه مدعيًا، ولكن مدعيًا من نوع مختلف مثقف، لديه كاريزما فعلًا، ولما شاهدته يخطب عدة مرات في أنصاره أخبرني حدسي بأن هذا رجل مختلف، وتعددت لقاءاتنا وكان ذا علم ديني واسع بالفعل، فهو درس بإيران على يد مرجعيات شيعية لهم وزنهم هناك بالأحواز، وفي إحدى لقاءاتنا دب بيننا خلاف عميق حول فكرة أن الإمام المهدي ما هي ألا قصة مُخْتَلَقة

مضطربة في رواياتها شأنها شأن روايات أخرى عند السنة والشيعة.

الدكتور معاذ واليماني الموعود في مجلس الضيوف ببيت اليماني، وقد اضطجع كلاهما على مساند أرضية وثيرة... وجه الدكتور معاذ محتقن وملامح اليماني الموعود متحفزة، وعلى أثر ارتفاع صوتيهما دخل أحد رجال اليماني الموعود متحفزًا، فأوقفه اليماني بإشارة من يده اليمنى ذات الأصابع الطويلة، والتي يتزين أوسطها بخاتم يحمل حجرًا كريمًا، أحنى ذلك الرجل الطويل ضخم القامة رأسه وقد لفت انتباه الدكتور النظرة الغاضبة التي يحدجه بها هذا الرجل وهو ينسحب.

أعاد الدكتور معاذ النظر لليماني الموعود متحفزًا محاولًا أن يخفي توتره ويكشف عن وجه لا مبالٍ، فابتسم اليماني الموعود وهو يقول:

- **هذا الشاب الضخم اسمه إدريس، وهو بالمناسبة من مصر، مصري مثلك، أهداه الله لي في وقت كنت بالفعل أحتاجه وهو كان بحاجة إلى يد تنتشله مما هو فيه من ضياع ومعصية، فكأن الله أراد بلقائنا هذا أن يصنع بنا خيرًا كثيرًا لهذه الأمة، فأنا منه بمنزلة الأب أو أعلى مقامًا، وهو على استعداد أن يفعل أي شيء في سبيل أن ينال الرضى مني.**

لم يعلق الدكتور معاذ بل آثر أن يلزم الصمت، فيقلقه ما يمكن أن يصنعه به هذا الإدريس إذا غادر المجلس، وقد أغضب اليماني الموعود مرةً أخرى، فمما لا شك فيه أن مقدمة اليماني حول هذا الإدريس تتضمن تهديدًا للدكتور معاذ، ولانت ملامح اليماني الموعود وهو يقول:

-يا دكتور أنت تذكرني بالحر بن يزيد، بالتأكيد تعرفه؟!

أجاب الدكتور مترددًا في شبه غمغمة:

-نعم أعرفه.

هز اليماني رأسه وهو يضيف:

-كثرة عنادك والحدة التي تكسو صوتك في النقاش ورفضك لهذه العطايا الإيمانية لهي خير دليل على أنها بدأت تأخذ مفعولها في عقلك، وما رفضك إياها إلا تصديقًا لها وأنها بدأت تؤثر فيك وتزحزح في كل مرة شيئًا من قناعاتك الدنيوية، أنت كالحر بن يزيد الذي رافق إمامنا الحسين عليه السلام لأيام معدودات كما أمره وليه وقتها عبيد الله بن زياد ومعه الجند؛ ليحولوا بين الحسين ودخوله الكوفة، وكان يسترق السمع في هذه الأيام لخطب الحسين، حتى في يوم كربلاء، وأتى إليه منيبًا يطمع في عفوه ورضاه عنه وأن يدعو له الله أن يلحقه بالصالحين

والشهداء في الجنة، وتم له ما أراد فكان أول من اسْتُشْهِد بين يدي الحسين عليه السلام، وأنت تذكرني به يا دكتور، ستغادر مجلسي هذا الآن وأنت لا تنوي أن تلقاني مرةً أخرى، ولكن بدون شك وكلي ثقة أنك ستأتيني مرةً أخرى كما أتى الحر الإمام عليه السلام.

كادت السخرية أن تعلو ملامح الدكتور معاذ، ولكنه تذكر وجه إدريس المخيف، فتراجع وهز رأسه وهو ينهض بصعوبة من مجلسه قائلًا:

- إذن؛ فلندع الأيام تخبرنا ذلك.

أومأ اليماني في وقارٍ برأسه وهو يشاهد انصراف الدكتور من مجلسه وقد وقف على عتبة الباب إدريس ينظر شزرًا للدكتور معاذ الذي التفت إلى اليماني الموعود، فأشار اليماني الموعود بيده لإدريس قائلًا في حزم:

- رافق الدكتور معاذ حتى سيارته، وتأكد من سلامته فهو ضيفي وإكرامه من إكرامي يا إدريس.

لانت على الفور ملامح إدريس وهو ينحني أمام اليماني الموعود ويفرد ذراعه اليمنى على امتداده مشيرًا للدكتور معاذ أن يتقدم، فشكر

الدكتور معاذ اليماني الموعود بهزة من رأسه ومضى في الرواق بخطوات سريعة رغم بدانته.

تراجع فارس في مقعده وهو يضع سبابته اليمنى على شفتيه ثم تساءل:

-وهل حدث ما قال عدت إليه منيبًا كما فعل الحر بين يدي الحسين؟

ابتسم الدكتور معاذ وهو يهز رأسه نافيًا ويقول:

-عدت إليه بالفعل بعد شهر واحد من لقائنا الأخير هذا، وقد تبلورت في رأسي الفكرة كاملةً، وعرضتها عليه وكأني مؤمن بكل ما فيها، وأني بالفعل عدت إليه تائبًا مؤمنًا بأنه اليماني الموعود، واستطعت من خلال خطتي المحكمة أن أقنعه بأن يتبناها ويمضي فيها قدمًا.

اعتدل فارس في مجلسه، وقد تحفزت كل عضلات جسده وهو يسأل الدكتور:

-فقط أريد أن أعرف ما هو الهدف من قتل كل هؤلاء الأبرياء، كيف استطعت أن تُميت ضميرك وتقتل كل هؤلاء.

-لكل رسالة نبيلة ضحاياها يا فارس.

هتف فارس مستنكرًا:

–رسالة نبيلة؟ أي نبل في القتل؟!

نهض الدكتور من مقعده وهو يواجه صعوبةً في ذلك، ومن فرط انفعاله رد على فارس بحدة وعصبية:

–نعم؛ رسالة نبيلة! ولها مغزى كبير أيضًا.

لم يتلق من فارس سوى أمارات الاستهجان والغضب، فلم يلق بالًا لغضب فارس، بل اتجه إلى مائدة مستديرة يلتقط منها علبة السجائر، ويشعل واحدةً ملقيًا العلبة على المائدة، وأخذ نفسًا مطولًا... كان عقله بحاجة إلى الكثير من النيكوتين، وبحاجة لأي شيء يساعد على خفض حدة التوتر؛ الذي يشعر به الآن، فلم يقاطعه فارس طوال الوقت، بل ظل صامتًا ينظر نحوه بتحفز...

أغمض الدكتور عينيه ثم فتحهما متلذذًا بإطلاق دخان كثيف من أنفه، ثم استدار إلى فارس قائلًا بهدوء:

– كل هذا التاريخ الذي يقتتل المسلمون من أجله لأربعة عشر قرنًا هو تاريخ مزور، وبالنسبة لي مطعون في صحته، وللأسف جعلنا من هذا التاريخ الظني عقيدةً نقتتل عليها، ونكفر بعضنا البعض عليها... تاريخ لم أعد أثق أنه حدث كما يُرْوَى بالفعل... تاريخ دونه ابن إسحاق! هل تعرف من هو ابن اسحاق؟

لم ينتظر الدكتور رد من فارس، بل انغمس كلية فيما يقوله وقد ظهر الانفعال جليًّا على صوته وهو يلوح بيده اليسرى قائلًا:

-محمد بن اسحاق المشهور عنه التدليس الذي كتب السيرة النبوية، وأحداث ما بعد النبوة حتى العصر العباسي. من الذي كلف محمد بن اسحاق بكتابة هذا التاريخ؟ الخليفة أبو جعفر المنصور، وسخره هو بالذات دونًا عن باقي الرواة لكتابة التاريخ، لماذا تعتقد أنه خص ذلك الشخص تحديدًا؟

حرك ذراعيه في الهواء بشكل مسرحي وهو يقول ساخرًا:

-لأنه عرف عنه التدليس والكذب، فمن أصلح منه لكتابة تاريخ مفصل على مزاج وتوجهات الخليفة السياسية، وأن يكتب له تاريخًا يؤصل ويجذر للشرعية الدينية والتاريخية للحكم العباسي، حتى أن ابن هشام الكندي عندما أعاد كتابة السيرة النبوية معتمدًا على سيرة ابن إسحاق ذكر في مقدمة كتابه أنه حذف الكثير من المرويات التي زخرت بها مخطوطة ابن إسحاق لما فيها من كذب وتدليس، وكل المؤرخين أو الرواة الذين أتوا من بعد ابن إسحاق كانوا يستمدون مادة التاريخ الذي يكتبونه، ممن؟ ممن؟ خمن!

صاح منفعلًا وهو يرفع ذراعيه مرةً أخرى لأعلى رأسه:

-من ابن إسحاق.

أرخى ذراعيه إلى جنبيه قائلًا بهدوء ساخر:

-ونحن لا نلتفت إلى ظروف كتابة هذه السير، وفقط نصدق عليها بختم ديني لا يقبل الجدل أو النقاش، وأن ما ورد فيها مسلمات يُؤْخَذ منها، ولا يُرَد منها شيء سواءً فعل المشايخ هذا بسوء نية أو بجهل وعن نية طيبة؛ فالنتيجة واحدة: إننا نقتتل منذ ذلك الحين وفق تاريخ؛ الله وحده يعلم مدى صحته! هل رأيت نكبةً ومصيبةً أكبر من ذلك؟

ألقى السيجارة أرضًا بغضب وسحقها بقدمه وهو يصيح:

-يُقتل الآلاف في العراق وسوريا واليمن ولبنان بسبب ماذا؟ تاريخ أنا أطعن بالكامل في صحته، يقتتلون على المهدي المنتظر؛ تلك الشخصية الخيالية التي وردت في كل الديانات الوضعية والسماوية باعتباره المنقذ المخلص... فكرة المنقذ المخلص نفسها فكرة قديمة؛ استخدمها كل الحكام المستبدين لإخضاع الرعية المغلوب على أمرهم المسلوبة إرادتهم الذين تُسرق أقواتهم ليلًا ونهارًا... لا تحزن ولا تبتئس أيها الإنسان، فالمنقذ سيأتي ليخلصك من عذابات الدنيا وستحيا معه في جنة الأرض قبل جنة السماء؛ فقط انتظر واصبر على سرقتنا لك.

نهض فارس من مكانه يواجه الدكتور معاذ قائلًا:

-إذن؛ أنت تشكك في المرويات التي تتحدث عن المهدي المنتظر ونزول المسيح باعتبارها من علامات الساعة الصغرى.

ازداد مستوى الحدة والغضب في صوت الدكتور معاذ وهو يقول:

-لست أنا من أقول هذا، بل الشيخ محمود شلتوت رحمه الله.

أشار الدكتور معاذ إلى جيب فارس المنتفخ يستطرد ساخرًا:

-إن لم تصدقني هيا أخرج هاتفك الجوال من جيبك، وابحث عن هذه الفتوى لترى أننا نحيا في محيط كبير من الأكاذيب، ونقتل بعضنا البعض عليه، فالسنة تنتظر المهدي الخاص بها لتخلصها من الشيعة، واليهود والنصارى والشيعة تنتظر مهديها لتخلصها من السنة، والمسيحيون ينتظرون عودة المسيح؛ ليرفع المؤمنين به إلى الملكوت، ويخلصهم من آلام الدنيا، واليهود ينتظرون المسيا الخاص بهم ليخلصهم من كل البشرية، ولا يبقى غيرهم على وجه الأرض، وكله تحت شعار أن ذلك المنقذ يملأ الأرض عدلًا بعد أن مُلِئَت جورًا.

ضرب الدكتور معاذ كفًّا بكف وهو يعود إلى مكانه ليلقي بجسده يلهث من فرط الانفعال، ويمسح بيده جبهته التي تعرقت.

استدار فارس إليه في بطء ليقول بهدوء:

– على الرغم من عدم اقتناعي بما تقول، ولكن كان يمكن أن تعبر عن وجهة نظرك هذه التي من الممكن أن تحمل رسالتك النبيلة كما تدعي من خلال كتابة المقالات ونشرها بالصحف أو من خلال لقاءات تليفزيونية؛ تشرح فيها للناس كل هذا بدون الحاجة إلى إراقة كل هذه الدماء بهذه الطريقة الوحشية المفزعة.

ضحكة الدكتور المجلجلة لم تزد فارس إلا غضبًا وحنقًا، ولكنه بقي صامتًا حتى فرغ الدكتور وهو يطلق تنهيدةً طويلةً، ويربت على كرشه قائلًا:

– أتحسب أني لم أفعل ذلك، لم أكتب عشرات المقالات وعدة لقاءات إذاعية وتليفزيونية، لقد فعلت، ولكن هل تغير شيء؟ هل توقفت دول الشرق الأوسط عن الاقتتال، هل استفاق الحكام العرب من كبوتهم؟ هل حدث أن إيران قدمت اعتذارًا عما تفعله وأنابت وأصلحت؟

رد فارس بسخرية:

– وهل فعلوا كل هذا بعد أن قتلت كل هذا العدد؟

ران صمت ثقيل على المكان، في حين تحولت ملامح الدكتور إلى القسوة وهو يرد:

- على الرغم من السخرية الواضحة، ولكني أحب أن أبشرك أنه نعم، الآن سيستيقظ الجميع من سُباته، ما حدث زلزل كيان الدولة، ما حدث جعل الناس تستيقظ من نومها وتتساءل، لماذا جرى ما جرى؟ بداية السؤال هي التي ستقودهم للإجابة، وعندما تتجلى أمامهم الإجابة بكل قبحها سيعرفون أنهم كانوا يتمسكون بالأوهام، وأنهم يقتتلون على سراب يحسبونه شيئًا ذا قيمة؛ يستحق الذود والدفاع عنه... نعم؛ لقد زلزلت نفوسهم، والآن هم مستعدون بشكل جيد للاستماع والإصغاء ومعرفة الأسباب، نعم؛ يمكنك أن تقول إن اليقظة بدأت.

هز فارس رأسه علامة اليأس والاستنكار وقد ندت عنه ضحكة ساخرة مبتورة وهو يقول:

- الآن تتحدث مثل هذا اليماني الموعود، لقد كنت أرى مخبولًا أمامي يردد كلامًا يقارب كثيرًا ما تقوله الآن.

جز الدكتور على أسنانه، ولكن ملامحه لانت وهو يمصمص شفتيه، ويهز رأسه في صمت ينظر إلى الأرض قائلاً:

- كما سألت نفسك يا فارس أنه كيف فاتك إني الوحيد الذي لم يمت؟! عندما استيقظت بالمشفى، سألت نفسي السؤال نفسه، وأدركت الإجابة على الفور.

رفع عينين متقدتين تلمعان ببريق مجنون وهو يضيف:

-بالمناسبة احتمالات موتي من نجاتي من المكيدة التي نصبتها لنفسي كانت متطابقةً، فاحتمال أن ألقى حتفي قائمة بنسبة ١٠٠%، كما أن احتمال نجاتي كان بنسبة مماثلة تمامًا.

اهتز جسده بضحكة ساخرة مبتورة وهو يقول:

-وذلك الأحمق اليماني تصور أني أفعل ذلك لأتطهر من كوني كنت ناصبيًّا، وإن في نجاتي إشارة ربانية لأن الله تاب علي ورضي عني، ولكن أتعلم؟ لقد كانت فعلًا إشارةً ربانيةً.

رفع فارس حاجبيه بسخرية هو يرد:

-حقًّا، وكيف ذلك؟

-لقد كنت أعتبر مكيدة موتي هذه ستكون إجابةً لتساؤل مهم راودني منذ بدأت هذه الخطة الجهنمية: لو أني مت؛ هذا سيعني أن الله لم يكن راضيًا عما فعلته، وأن بموتي سأنال العقاب الذي أستحقه، ولو نجوت منها فهذه إشارة أكيدة أن لنجاتي سببًا إلهيًّا هامًّا...

صمته كان مسرحيًّا، وبدا لفارس مبتذلًا، فخمن بسهولة ما يريد الدكتور قوله وترجم تخمينه بأن قال:

– بأن الله يبارك مهمتك المقدسة من أجل أن تصل رسالتك النبيلة فوق جثث الأبرياء.

ضحك فارس غير مصدق، واقترب من الدكتور معاذ يميل نحوه يثبت نظره عليه قائلًا:

– هل تؤمن حقًّا بأن الله قد كتب لك النجاة من المكيدة التي نصبتها لنفسك حتى تستمر في أداء مهمتك المقدسة؟ هل تتصور أن الله راضٍ عن الأنفس التي أزهقتها من أجل ما تقول؟

انتصب فارس واقفًا ليضيف ساخرًا:

– كنت أحسبك أذكى من ذلك يا دكتور معاذ، أم أنك تحاول أن تسكت ضميرك الذي يؤنبك على الدماء التي أرقتها بهذه المزاعم السخيفة الأكثر من مبتذلة.

جلس فارس على طرف المائدة المواجهة لمقعد الدكتور، ومال نحوه قائلًا من بين ضروسه:

– هل تستطيع أن تعيد هذه الترهات مرةً أخرى على مسامع ريم، وقد أُصِيبت بشلل نصفي جراء ألاعيبك السخيفة هذه؟

ضم فارس قبضته اليمنى وكأنه على وشك لكم الدكتور معاذ بها والذي تراجع بخوف وفارس يضيف بغيظ أكبر:

- كيف تعتبرني ابنك وأنت كنت على وشك قتل من أحببت؟ كيف؟، كيف جعلتني أشهد محاولة قتلها؟، كيف طاوعتك نفسك على أن تفعل ذلك بي؟

ارتعشت شفتا الدكتور معاذ وهو يجيب:

- كانت على القائمة من قبل أن تحبها، وعندما تجلى لي ذلك، عّدلت من الخطة وأعطيتك الفرصة لإنقاذها تماماً كما فعلت معي!

- يا أيها المجنون، تلك الفرصة المستحيلة، لقد رسمتها بشكل لا يمكنني على الإطلاق من إنقاذها.

- وهذا هو أحد أهداف رسالتي أنه من الممكن للمرء أن يفقد أعز ما يملك على يد شخص آخر يؤمن بعقائد وأفكار مزيفة، كان هذا هو المعنى الأسمى أن ندرك جميعاً أن مجموعة من المعتقدات المخرفة قد تجعلنا نفقد من نحب.

أمسكه فارس من قميصه بعنف وهو يجذبه نحوه ويدا الدكتور تتعلق به برجاء وفارس يصرخ به:

- أكره كل تبريراتك السخيفة، أكرهك أنت شخصياً، لا أرى أمامي سوى مجنون مخرف.

ارتعش جسد الدكتور معاذ وقد تجلت أمارات الفزع على وجهه وهو يستجدي فارس بأصابع يده المرتعشة التي تلمس قبضة فارس المطبقة على ياقة قميصه.

-لم يكن من الممكن أن أتراجع عن الخطة حتى لا يفشل كل شيء وتضيع معها الرسالة.

دفعه فارس بعنف باتجاه ظهر مقعده وهو يصيح:

-لعنة الله على رسالتك الملعونة وعليك أيها المجنون.

كان وجه فارس شديد الاحتقان وقد برزت عروق جبهته وعنقه جليةً، فابتلع الدكتور ريقه في صعوبة وهو يتشبث بذراعي مقعده بخوفٍ بالغ... كان فارس يتمنى أن يخنقه بكلتا يديه، ولكن أكثر ما يتمناه أن يكون كل هذا مجرد كابوس مزعج؛ سرعان ما يستيقظ منه ليتأكد أن الدنيا على ما يرام، ولكن مرت الثواني ثقيلةً بطيئةً وتيقن أنه لا يعيش إحدى كوابيسه الليلية، ولكنها الحقيقة بكل قبحها وغرابتها تتمثل أمامه في شخص ذلك الرجل المسن المذعور.

نهض فارس من على حافة المائدة يولي ظهره للدكتور يمسح دموعًا سالت منه، قاوم كثيرًا لأجل أن يحبسها داخله، ولكنها غافلته وطفت إلى مقلتيه، فحاول أن يحبسها بكل ما أُوتِي من قوة في مكانها،

ولكنها الآن تدك كل الحصون وتسيل كسيل جارف لترسم خطوطًا طوليةً على خديه.

سمع الدكتور معاذ نهنهته، فارتعش المشهد أمامه وقد طفت الدموع أيضًا إلى عينيه، فحاول أن يتكلم عدة مرات ولكن هناك قبضة محكمة تطبق بقوة على حنجرته لتمنعه من الحديث حتى قال في الأخير بصوت واهن:

- أرجو أن تسامحني يا فارس، فلم يكن في نيتي أبدًا أن أجرحك بهذه الطريقة، ويعلم الله أنك لا تزال مني بمنزلة الابن الذي تمنيته.

مسح فارس دموعه واستدار إليه بوجه غاضب ويقول:

- لا تقل إني ابنك بعد اليوم، فليس أبي بالقاتل المجنون، فأنت لا تشرفني معرفتك، وثق أنني سأمحوك من ذاكرتي تمامًا كأنك لم تكن.

- أرجوك لا تقل ذلك يا فارس.

- لا تخدعني دموع التماسيح هذه.

أطرق الدكتور معاذ برأسه يمسح دموعه وهو يردد بخفوت:

- معك حق في كل هذا، معك الحق.

سحب الدكتور معاذ نفسًا طويلًا وهو يرفع رأسه مرةً أخرى إلى فارس يسأله في قلق وتردد:

-والآن وبعد أن عرفت بكل شيء، هل تنوي أن...

لم يستطع أن يكمل سؤاله؛ فهو يخشى أن تأتيه الإجابة التي يعرفها جيدًا، بل سيدهشه أن يأتي فارس بعكسها.

اهتز جسد فارس بضحكة ساخرة قصيرة وهو يقول:

-وهل لديك شك في أني سأتركك تمارس المزيد من ألاعيبك المجنونة هذه؟

-فارس!

صمت قليلًا يحاول أن يبحث عن أي كلمات أخرى لعلها تنقذه، لعلها تغير من رأي فارس، ولكن هربت منه كل الأفكار والكلمات التي كان يعدها لمثل هذا اليوم، وتبخرت بالكامل... لم يعد عقله قادرًا على إنتاج كلمات تثير عاطفة فارس وتستميله، فالشخص الكائن أمامه الآن غير الذي كان يعرفه بالأمس القريب، أمامه شخص آخر متهور، يحمل الكثير جدًّا من مشاعر الكراهية والغضب، وتعميه عن أن يستمع لأي كلمة الآن وتحديدًا منه هو بالذات، ولكنها كانت ورقة نجاته الأخيرة، وكان عليه أن يستغلها حتى لو باءت المحاولة بالفشل.

–أنا رجل مسن يا فارس ومريض سكر وضغط كما تعلم وثق أن هذه كانت رسالتي الوحيدة التي كنت أبغي أن تصل للجميع، ولست مجنونًا أو ميالًا للقتل كما تتصور... صدقني؛ عندما تجد مردود ما فعلت حولك في الأيام القادمة ستدرك أنني لم أكن مجنونًا أو محبًّا للدماء، ولكنها مجرد تضحيات بسيطة من أجل أمة بأكملها.

–تتحدث بالطريقة الخرقاء المجنونة نفسها التي تحدث بها اليماني، لم يعد غريبًا بالنسبة لي كلماته المجنونة، فلقد تشربها منك بالتأكيد.

حاول الدكتور أن يرد عليه، ولكن فارس أولى ظهره للدكتور يلتقط هاتفه الجوال ليجري اتصالًا سريعًا، ويقول باقتضاب وبصوت حزين خافت:

–نعم؛ يمكنك أن ترسلهم الآن ليأخذوه.

صمت قليلًا ثم هز رأسه قائلًا:

–نعم؛ لقد انتهيت!

أنهى فارس الاتصال مستديرًا للدكتور الذي يحدق به غير مصدق لما يسمع، وبدأت ملامحه تتحول إلى وجه طفل مذعور وهو يردد:

- لا! لا يا فارس! أنت تتخذ القرار الخاطئ في لحظة غضب، عندما تهدأ وتفكر في كل ما حدث وما قلته لك اليوم ستكتشف أنك مخطئ وستندم وقتها كثيرًا.

لم يكن فارس مستعدًّا لأن يسمع المزيد من هذا الجنون، وتجاهله متجهًا إلى باب الشقة وقد رن الجرس... فتح الباب ليجد رجلي شرطة اندفعا للداخل يلقيان القبض على الدكتور معاذ، فظل واقفًا كتمثال رخامي أمام باب الشقة وهو يسمع جلبة وصياح الدكتور معاذ... أرخى جفنيه متمنيًا أن يتبخر من هذا المكان... فتح عينيه مرةً أخرى وهو يشاهد رجلي الشرطة يمسكان الدكتور معاذ من تحت إبطيه ويجرانه نحو باب الشقة.

استغل الدكتور معاذ وزنه بأن فرمل اندفاعهما، وقاوم للحظات محاولة دفعه لخارج الشقة وهو يقول لفارس بوجه مذعور:

- لا تفعل ذلك بي يا فارس، أنت تعرفني جيدًا، وتعرف أنني أخاف منظر الدماء وما فعلت ما فعلت إلا من أجل أن أدق أجراس الخطر.

هتف فارس بالرجلين محنقًا وبنفاذ صبر:

- رجاءً؛ اجعلوه يغرب عن وجهي. لا أطيق رؤيته أو سماع صوته.

ألجمت عبارة فارس الدكتور معاذ، وانقلبت ملامحه من الفزع إلى الدهشة البالغة، وتراخت مقاومته وقد انتكس رأسه فدفعاه دون أي جهد باتجاه المصعد؛ الذي فتحه شخص ثالث استقبل المجموعة وحيا فارس برأسه، وأغلق باب المصعد وراءه... ظل فارس جامدًا للحظات... نظر إلى الشقة من خلفه؛ لوهلة بدت كئيبةً للغاية.

هذا السكوت المفاجئ الذي انتشر في المكان بدا بشكل غريب صاخب ومزعج للغاية كأنه صفير لا يُحْتَمل يصدع بأذنيه، فغادر الشقة مسرعًا مغلقًا بابها بعنف، فتوقف هذا الصفير الصاخب دفعةً واحدةً. اتجه للدرجة الأولى من السلم، وجلس عليها تاركًا لدموعه الحرية الكاملة في أن تسيل.

دموع غزيرة؛ يعلم أنها لن تشفي جراحه... يعلم أنها لن تزيده إلا ألمًا ولكن قواه انهارت تمامًا... لم يعد ذلك الشخص القوي الذي يجيد إخفاء مشاعره جيدًا... كان الأمر أكبر من أن يدفنه بأعماقه ويدعي القوة أو حتى يتصنع اللامبالاة... الجرح أكبر وأعمق من محاولة الالتفات حوله وتجاهله.

*** * ***

(٨)

تتبعت عيناه ذاك الخرطوم البلاستيك الخارج من كيس الجلوكوز الواصل بمعصمها، والكيس كل ثانية يقطر قطرةً واحدةً تجري ببطء في ذاك الخرطوم الطويل حتى تصل إلى أوردتها... تطلع إلى شفتيها الجميلتين الذابلتين وقد ذهب عنهما لونهما الأحمر وحل محلها لون وردي باهت انتقل إلى رموشها التي تنام فوق عينيها، وخصلات من الشعر فاحم السواد تبرز من أسفل غطاء الرأس البلاستيكي.

جذب طرف الغطاء الذي انحسر قليلًا عن صدرها ليغطي صدرها مرةً أخرى وأمها على الطرف الآخر من الفراش تغط في نوم عميق على مقعدها الجلدي وقد مددت قدميها على مقعد آخر أصغر حجمًا.

داعب خاتم الخطوبة في يدها اليمنى مبتسمًا، وهربت على الرغم منه دمعة متمردة من مقلته اليمنى، ليمسحها سريعًا، ويرفع عينيه إلى التلفاز المعلق على عمود في الجانب الأيمن من الحجرة ومذيعة نشرة الأخبار تحتل الشاشة، فانتصبت قامته وهو يبحث عن (ريموت) التلفاز ليضغط على زر كتم الصوت، ويستمع باهتمام إلى المذيعة التي عرضت على الجانب الأيسر من الشاشة صورة لليماني الموعود، وقد أحاطت به بعض الأفراد من قوات الأمن.

"قامت قوات الأمن يوم أمس في وقت الظهيرة بعملية مداهمة ناجحة لوكر زعيم الخلية الإرهابية الشيعية؛ التي تسببت في مقتل وإصابة اثني عشر شخصًا بجروح خطيرة، وقد قام جهاز الأمن الوطني بالتحفظ على زعيم الخلية، والتحقيق معه فيما ارتكبته الخلية من جرائم بحق الشعب المصري، وتستبعد مصادر في الداخلية تورط أجهزة مخابراتية أجنبية في تمويل وإدارة هذه الخلية، وامتنع المصدر عن الإدلاء بأي معلومات أخرى لحين انتهاء التحقيقات، وقد أثنى السيد وزير الداخلية على جهود..."

ضغط فارس على زر إغلاق التلفاز، وهو يطلق نفخةً طويلةً متراجعًا في مقعده محاولًا الحصول على بعض الراحة بعد يوم طويل مرهق، انتفض انتفاضةً خفيفةً على صوت رنين هاتفه الجوال؛ فتناوله من على (الكومودينو) المجاور له يتطلع إلى الشاشة، ثم يجيب الاتصال ليسمع صوت العقيد مجلجلًا غاضبًا:

– هل شاهدت تلك المذيعة الملعونة؟

ابتسم فارس على الرغم من الإرهاق الشديد الذي يكتنف كل خلايا جسده وهو يقول:

– ما الذي أغضبك؟

-ما الذي أغضبني؟ الملعونة لم تذكر اسمي، جل ما قالته إن وزير الداخلية يثني على جهود وحدة مكافحة الإرهاب بالتعاون مع جهاز الأمن الوطني في إلقاء القبض على تلك الخلية الشيعية حتى أن تلك الملعونة لم تذكر مباحث الجنايات بأي كلمة.

-وهل كنت تتوقع العكس؟

-بلد بنت كلب!

اهتز جسد فارس من الضحك المكتوم وهو يعقب:

-لا تبتئس، انظر إلى الجانب المشرق فلقد تحصلت على ترقية استثنائية.

-لا تقل ترقية استثنائية، ولكنها ترقية مستحقة منذ سنوات مضت.

-ألم تفقدها على أثر سبك لرتبة أعلى منك، أليس هذا ما أخبرتني به.

-لأنه ابن كلب، ويستحق ذلك.

ضحك فارس مرةً أخرى ولم يعلق، وتخلل الصمت لثانيتين ثم قال العقيد بصوت جنح للهدوء:

- هل ستدلي بشهادتك في محاكمة صديقك الـ...؟

اغتم فارس وتقلصت ملامحه ضيقًا، ووخزة ألم تضرب حلقه تمنعه من الرد حاول أن يتجاوزها مجيبًا:

– بالتأكيد؛ سأفعل ذلك.

– جيد؛ وكيف تنوي أن تستغل شهادتك؟

عقد فارس حاجبيه، وهو يسأل بصوت مكسو بالحدة:

– ماذا تعني بسؤالك هذا؟

– أنت تفهم ما الذي أعنيه، فكما فهمت منك أنت تعتبره في مقام والدك، أليس كذلك؟

لم يرد عليه فارس، وأحجم عن الرد وقد أوشك أن ينفعل، ولكنه كبح غضبه وحاول أن يصبغ صوته بالهدوء الممزوج بالحزم:

– لن أستغل شهادتي ليخرج إلى الشارع مرةً أخرى، ثق في ذلك.

ساد الصمت مرةً أخرى قطعه العقيد قائلًا:

– أنا أثق بك يا فارس.

لانت ملامح فارس المتحفزة وهو يرد:

– شكرًا على ثقتك هذه، وأنا سعيد بالفعل من أجل ترقيتك.

– أكره تلك المجاملات السخيفة.

– إذن؛ أسحبها.

يجلجل صوت العقيد بالضحك، فيُجْبَر فارس على الابتسام ابتسامة سرعان ما ذابت وهو يستمع إلى العقيد يقول:

– أنوي أن أقيم حفلةً عائليةً للاحتفال بعودتي إلى زوجتي مرةً أخرى.

– هذا خبر آخر جيد، ألف مبروك.

– سأرتكب حماقتي الأخيرة، وسأدعوك إلى هذه الحفلة.

– ألا يمكن أن تتخلى ولو للحظة واحدة عن فظاظتك وتكون لطيفًا.

يضحك العقيد وهو يقول:

– لا بأس؛ سأنتظرك الخميس القادم بعد صلاة العشاء، اتفقنا؟!

– أرسل لي الموقع وسأكون حاضرًا.

– جيد؛ سأفعل، والآن مع السلامة.

– مع السلامة.

كان فارس على وشك إنهاء المكالمة، ولكن العقيد عاجله قبل أن يفعل قائلًا:

– آه، فارس.

– نعم.

تنحنح العقيد قبل أن يقول مترددًا:

– بلغ سلامي للآنسة ريم، وأنا على ثقة أنها ستكون بخير عن قريب.

غزا الحزن ملامح فارس وهو يحول نظره إليها قائلًا:

– سأفعل.

– مع السلامة يا فارس.

– مع السلامة.

أنهى فارس الاتصال ليضع الهاتف الجوال بهدوء على (الكومودينو)، وقرب مقعده أكثر من فراشها؛ يسند رأسه إلى كفيه، ويمسك يدها اليسرى بحنو بالغ، ويقول بصوت هامس:

– أرجوكِ لا تغضبي مما سأفعل، أرجو أن تقدري موقفي وقتها.

*** * ***

(٩)

استيقظ فارس مذعورًا على صوت رنين هاتفه الجوال؛ فراح ينتزع نفسه من حالة الخمول الشديد، وفرك عينيه بشدة، وانتصب جالسًا على طرف الفراش ليتناول الهاتف بعينين نصف مفتوحتين، وتطلع

إلى الشاشة التي توهجت... استغرب اتصال العقيد به في هذه الساعة المتأخرة من الليل، وبعجلة أجابه قائلًا:

– خير! هل هناك مصيبة جديدة؟

– بالفعل هناك مصيبة جديدة، وما كنا نخشاه قد حدث.

خفق قلب فارس بشدة، وعجز عن الرد الفوري وقد جحظت عيناه، فتذكر ما دار بينه وبين العقيد من حديث حول فرضية أن يكون هناك سفاح في كل محافظة مصرية؛ ينتظر الإشارة لينفذ مهامه بقتل اثني عشر ضحيةً جديدةً في كل محافظة.

– فارس! هذا ليس وقت الصدمة.

– أنا معك، ماذا حدث؟

– شيخ أزهري قُتِل بمسجد النور بالعباسية.

– العباسية؟! أليست هذه المنطقة في القاهرة؟

– بالضبط؛ ألم أقل لك ما كنا نخشاه قد حدث، يبدو أن الأمر لم ينتهِ بالقبض على اليماني الملعون وصديقك المجنون هذا.

– ولكن هو أكد لي أنه لن يوقع المزيد من الضحايا، هو أكد لي ذلك.

– هل أصابك الخبل يا فارس؟ وهل سأصدق قاتلًا مجنونًا مثله؟

نهض فارس من على فراشه يقول بدهشة بالغة:

- هل خدعني للمرة الثانية؟ إذن الأمر لم يكن مجرد رسالة قد يهدف لنشرها وأنه تشيع بالفعل، و...

قاطعه العقيد منفعلًا:

- فارس؛ هذا ليس الوقت المناسب للاسترسال في أفكار لا تجدي ولا تنفع في الوقت الحالي، يجب أن تحجز تذكرة قطار فورًا متجهًا إلى القاهرة.

- الآن.

- نعم يا فارس؛ الآن، سيتصل بك بعد قليل المقدم رامز المحمدي ضابط مباحث الجنايات بالقاهرة، وسيرتب معك الأمر.

ورد إلى فارس اتصال آخر، فاستطلع الشاشة ثم أعاد الهاتف إلى أذنه قائلًا:

- هناك رقم غريب يتصل بي، يبدو أنه هو.

- إنه هو، ولقد هاتفني منذ قليل، وأنا الذي رشحتك لهذه المهمة.

- هل من المفروض أن أشعر بالسعادة بسبب هذا الترشيح؟

علق العقيد بسخرية تمتزج بالغضب:

–بل بالخيبة، لأننا يبدو أننا فشلنا، وقيادات الداخلية لا تكف عن الاتصال بي... سأنهي معك المكالمة الآن لأني أستقبل واحدةً أخرى.

أنهى العقيد الاتصال ليجيب فارس الاتصال الآخر، والطرف الآخر يقول:

–الأستاذ فارس؟

–نعم؛ أنا هو.

–جيد؛ هل تعرف سبب اتصالي؟

–نعم؛ كنت على الهاتف الآن مع العقيد وأخبرني بكل شيء.

– هل من الممكن أن تأتي في قطار الساعة السادسة صباحًا، الأمر ضروري، ولا يحتمل التأجيل.

–نعم؛ سأفعل، ولكن هل يمكن أن تصف لي كيف قُتِلت الضحية؟

–الأمر لا يمكن شرحه. عندما تأتي ستشاهد جريمةً كابوسيةً لم أشاهد مثلها من قبل.

همس فارس بصوت غير مسموع:

–اللعنة! اللعنة!

– هل تقول شيئًا؟

-لا؛ ولكني لا أعرف شيئًا عن القاهرة، فكيف سأصل إلى مسجد النور هذا.

-استقل تاكسي، أي سائق تاكسي بالقاهرة يعرف المكان جيدًا.

-حسنًا.

-مضطر لأن أتركك الآن لأني في مسرح الجريمة.

-حسنًا، مع السلامة.

-مع السلامة.

ألقى فارس الهاتف الجوال على الفراش وهو في حالة ذهول تام، وتحسس طريقه في الظلام حتى وصل إلى مفتاح الإضاءة ليضيء نور الغرفة، ويتطلع إلى وجهه في المرآة الماثلة أمامه... ملامح مرهقة تتعطش للنوم تختلط بها حالة ذهول عارمة، وإحباط كلي.

لا يصدق أن الأمر لم ينته بعد... لا يصدق أن الدكتور قد خدعه للمرة الثانية... إذن؛ الأمر لا يتصل بكونها رسالةً يريد أن يدق بها أجراس الخطر كما ادعى... يبدو أنه تشيع بالفعل، ويؤمن بكل ما ادعى أنها خرافات، ويسعى لتحويلها إلى حقيقة كابوسية مفزعة إلى أقصى حد.

ما أخبره به المقدم عن بشاعة الجريمة تعني أنه لا شك في كونها جريمةً جديدةً من سلسلة الجرائم التي شهدها جميعًا على يد هذا السفاح.

عليه منذ هذه اللحظة أن يتعامل مع سفاح آخر ربما على درجة الجنون نفسها أو أشد جنونًا... وسيفشل مرةً أخرى في عرقلة السفاح الجديد، ويبدو أنه سيكون قادرًا على أن يتم العدد المقدس لدى الشيعة الاثني عشر!

وحتى وإن أفلح في عرقلته والوصول إليه والقبض عليه لن تنقضي سوى أيام معدودات ليظهر واحد آخر في محافظة أخرى وهكذا.

هذا كابوس طويل الأمد، وسينتهي بإراقة الكثير من الدماء... عشرات الضحايا ستدفع ثمن جنون شخص مثل ذلك الدكتور... يريد أن يصرخ حتى تحترق حنجرته... يريد أن يحطم كل ما يقع تحت عينيه... يريد أن يطفئ جذوة النار التي عادت لتشتعل مرةً أخرى في صدره...

جذوة النار هذه التي من الممكن أن تتحول بين لحظة وأخرى إلى كتلة من النار قادرة على التهامه وإحراق كل هذا العالم القميء.

ذلك الشرق الأوسط المجنون تحديدًا... الجميع في هذه المنطقة تحديدًا أصابهم الجنون... هل بالفعل يقطع تذكرةً إلى القاهرة أم واحدةً أخرى للندن ليقطع صلته نهائيًّا بهذا العالم الشرق أوسطي المجنون؟!

استند بكفيه إلى المرآة أمامه وقد داخل رأسه دوار شديد. أغمض عينيه لعل ذلك الدوار يتوقف ولكنه ازداد قوةً، وكأن هذا الدوار ما ينقصه...

من يخرس هذه الدنيا من حوله حتى يستريح؟ من؟

*** * ***

(١٠)

... التقط فارس هاتفه الجوال ليجيب الاتصال وهو يغادر محطة قطار رمسيس قائلًا:

– ألو.

– ألو، أستاذ فارس أنا المقدم رامز المحمدي.

– أهلًا وسهلًا.

– أهلًا بك، هل وصلت إلى القاهرة؟

– إني أغادر الآن محطة قطار رمسيس.

– جيد؛ استقل سيارة أجرة إلى مسجد النور، ستجدني في انتظارك.

– حسنًا؛ لا بأس.

كان الجو حارًّا شديد الجفاف... عدل فارس من وضع الحقيبة على كتفه الأيمن وهو يقطع في خطوات سريعة الساحة الكبيرة لمبنى المحطة حتى تخطى أسوارها، ليمر أسفل كوبري الجلاء معتليًا رصيفًا ضخمًا يضم عددًا من المطاعم...

اشتبك في زحام القاهرة الصباحي مع عشرات الأجساد المتحركة بسرعة، واصطدم بأحدهم فرفع يده معتذرًا، ولكن الآخر لم يلتفت إليه وأكمل سيره متجاهلًا فارس، فبدا أن هذا الأمر طبيعيٌ في القاهرة.

أكمل فارس طريقه باتجاه مسجد الفتح وهو ينفخ في ضيق، وكان يأمل في قسط من الراحة بعد سلسلة الجرائم المفزعة هذه، ولكن يبدو أنها لن تنتهي قريبًا، وستستمر فترةً أخرى من الوقت قد تطول، وما ولى من أحداث هو الفصل الأول من هذا الكابوس المفزع.

أشار إلى سيارة أجرة فتوقفت ليخبر سائقها بوجهته فاعتذر ومضى بسرعة. نظر فارس إلى ساعة يده، ثم أشار إلى سيارة أجرة أخرى تهادت إلى جواره، وأطل منها وجه رجل عجوز أخبره بوجهته فرفع السائق يده معتذرًا.

أدار فارس رأسه فيما حوله بحيرة واقترب من أحد الواقفين يسأله عن أي (أتوبيس) يذهب إلى مسجد النور، فأشار الرجل بآلية إلى

(أتوبيس) أخضر اللون بدون أن ينطق كأنه يخشى إن تكلم أهدر طاقةً بحاجة إليها، فاتجه فارس في خطوات أقرب للركض باتجاه الأتوبيس ليتشبث به والأتوبيس يتسارع في حركته. أتوبيس اكتظ عن آخره بالركاب، وقد أوجد مكانًا لنفسه داخل الأتوبيس بصعوبة.

توقف الأتوبيس كثيرًا وتحرك قليلًا وفارس بين الفينة والأخرى يلقي نظرةً على ساعة يده في توتر وعصبية وعدد من الركاب يرتطم به، إما لتوقف الأتوبيس المفاجئ أو دفع بعضهم للبعض في طريق النزول أو الصعود، رن هاتفه الجوال فرد في ضجر:

- أنا في الطريق.

- لقد مضى نصف ساعة منذ آخر مرة هاتفتك فيها، وقد تصورت أنك وصلت إلى المكان.

لم يشأ فارس أن يشرح له الأسباب وذلك الجو الخانق يحبس الكلمات في حلقه فردد مضجرًا:

- لقد اقتربت.

أنهى فارس الاتصال وهو يسأل أحد الواقفين إلى جواره عن الوقت المتبقي ليصل الأتوبيس إلى مسجد النور فهز الواقف رأسه متمتمًا بصوتٍ يصعب سماعه:

- لا تقلق، بقي القليل لتصل إلى وجهتك.

هز فارس رأسه وملامحه قد تقلصت في ضيق، وظل على وضعه هذا لعدة دقائق حتى لكزه الواقف إلى جواره في كتفه مشيرًا برأسه إلى المسجد:

- ها هو المسجد.

اندفع فارس يدفع الأجساد المتلاحمة وهم يستقبلون الأمر منه دون امتعاض كفعلٍ معتاد، وطالب السائق بالتوقف إلى جانب، وغادر الأتوبيس في صعوبة وهو يطلق نفخةً طويلةً ويمسح العرق المتكون على جبهته بظهر يده...

تطلع إلى مسجد النور بمبناه الضخم هُنَيهةً، ثم أدار رأسه يسارًا قاطعًا الطريق وهو يحاول أن يتفادى السيارات والمركبات المقبلة عليه وهي تطلق بوقها باتجاهه حتى يسرع الخطى...

وصل إلى المدخل الرئيسي للمسجد الذي اكتظ بعدد من رجال الشرطة يغلقون باب المسجد، وبعضهم يشرح للمتحلقين حول المسجد أنه من غير الممكن في الوقت الحالي فتح المسجد للمصلين لأن هناك جريمة قتل.

اقترب فارس من هذا الجمع المحتشد متخذًا طريقه بينهم بصعوبة، فاستوقفه أحد أمناء الشرطة فقال:

–أنا فارس، المقدم رامز ينتظر وصولي.

لم تَلِن ملامح أمين الشرطة ورفع الجهاز اللاسلكي إلى أذنه يتمتم ببعض الكلمات، وينتظر الرد من الطرف الآخر، ثم استدار للخلف يشير بيده اليمنى أن يفتح العسكري باب المسجد، فاعتلى فارس درجات السلم بسرعة، يخلع حذائه ثم يدخل إلى المكان ليجد عددًا آخر من رجال الشرطة وبينهم يقف شاب قمحي البشرة طويل القامة رياضي القوام يوجه لبعضهم الأوامر...

التفت ذلك الشاب إلى فارس الذي أقبل نحوه بخطوات مسرعة، وصافحه آمرًا العسكري أن يأخذ منه حذاءه وحقيبته، فناولهما فارس مرتبكًا إلى العسكري ومضى مع المقدم باتجاه غرفة الإمام.

توقف فارس يتأمل محتويات الغرفة شبه المبعثرة، وجثة الرجل التي تكومت في إحدى أركان الغرفة على ظهره. اقترب هو والمقدم من الجثة، لتتبين لفارس معالم الجريمة أكثر. لقد تم كي صدر الرجل وبطنه بطريقة وحشية بأحرف عربية غائرة.

–ما رأيك؟

لم يجب فارس، بل التقى حاجباه وهو يتفرس أكثر في جثة الرجل: عباءته الأزهرية والقميص الأبيض أسفل عباءته قد احترقا تمامًا عند منطقة الصدر والبطن.

تبدل المشهد أمامه ليخترقه من المنتصف رجل طويل القامة مماثل لهيئة السفاح يحمل شيئًا ما، ويتجه به صوب الشيخ الذي يزحف بمؤخرته للخلف وقدماه تضربان الأرض، ويرفع يديه وهو يصرخ هلعًا، ثم يسمع صوت الجلد وهو يحترق، رائحة الجلد المحترق تمتزج برائحة الملابس التي احترق جزء منها.

لفتت نظره زجاجة سوداء فارغة ملقاة بجوار الجثة، فأدرك المقدم إلامَ ينظر فارس فأجاب:

–مياه نار، أُجْبِر الشيخ على شربها.

–ماذا؟

–كما ترى طريقة وحشية للقتل.

القاتل يميل نحو الشيخ منهك القوى ليستمتع برؤية عينيه الزائغتين وصدره المكتوي يعلو ويهبط بسرعة، فكه السفلي متدل، يحاول أن يجذب لرئتيه أكبر قدر من الأوكسجين، ولكن يبدو من حركة أنفه وشحوب وجهه أن الكمية لا تكفي، ينقض القاتل على فك الشيخ؛ يمسكها بقوة بيمناه، جسد الشيخ ينتفض وغريزة البقاء تدب في عروقه وعضلاته؛ ليقاوم بكلتا يديه القاتل الذي أمسك بيسراه قارورةً سوداء فك غطائها بفمه، وأدناها من فم الشيخ، عينا الشيخ تتسعان في ذعر، ويهز رأسه محاولًا الإفلات من قبضة القاتل المحكمة حوله،

يستخدم يده اليمنى ليطوح بالقارورة بعيدًا عن فمه، ولكن القاتل يسبقه بأن يدفع بركبته في صدر الشيخ المكتوي ليطلق صرخة ألم عظيمة والآخر يستغل الأمر ليلقي بما في القارورة في جوف الشيخ الذي انقطعت صرخاته وهو يتلقى هذه الكمية المفاجئة من السائل الذي يجري في رئتيه فيكويهما، ثم يندفع إلي البلعوم ليشعر الشيخ باحتراق عظيم، القاتل يبتسم متلذذًا بجسد الشيخ الذي ينتفض جسده بعنف وعيناه تزدادان جحوظًا.

يضحك القاتل وهو يسمع حشرجات متكررة للشيخ، وينتصب واقفًا يراقب انتفاض جسد الشيخ، فهو يشعر بنار حارقة في كل جسده الآن، يحاول أن يصرخ ولكن دون جدوى، كأن هذا السائل أذاب حنجرته، يعتريه فجأةً الشعور بأنه لا يستطيع التنفس، آلام لا طاقة له بها تتفجر كبركان ثائر في معدته.

لا يعرف هل يمسك معدته أم عنقه أم أنفه؟ يسعل بشدة وهو يغلق عينيه ويتقلب على جانبه الأيسر، ينتفض عدة مرات أخرى، وزبد أبيض يسيل من فمه مع غرغرة يسمعها القاتل فتزيده طربًا، يسعل الشيخ بقوة فيبصق دمًا، جفناه يرتعشان، أصابعه ترتعش ارتعاشاتها الأخيرة، يتوقف جفناه عن الارتعاش ليرتخيا فوق عينيه، أصابعه تتجمد على آخر ارتعاشه انتابتها ثم تستكين حركته تمامًا.

مال فارس نحو الجثة يقرأ المكتوب ليزداد انعقاد حاجبيه أكثر، "الحلاج بالأمس وأنتم اليوم".

انتصب فارس واقفًا والمقدم يسأله في نفاد صبر:

– من الحلاج هذا الذي يثأرون من أجله، هل هو شخصية مهمة إلى هذه الدرجة؟

شعر فارس بالامتنان إلى أنه لم يكن بهذه الدرجة من الجهل، وتجاوز عن ذلك مجيبًا الضابط:

– إنه شخصية تاريخية.

– شخصية ماذا؟

لم يرد عليه فارس وقد لفت نظره أداة حديدية كبيرة الحجم أشبه في شكلها بالـ (المقشة)، اتجه إليها يتأملها، ثم رفعها من على الأرض لينظر إلى أسفلها ويجد نفس العبارة منقوشةً عليها بأحرف بارزة.

– هل ترى هذا الجنون؟

هز فارس رأسه وهو يجول ببصره في المكان ليجد راكية نار مطفأة في إحدى أركان الغرفة.

فلاش باك يسطع أمام عينيه وهو يشاهد القاتل يفض غطاء قماشيًّا عن أداته الحديدية الطويلة، الشيخ يقترب من هذه الأداة في استغراب وهو يسأل القاتل ممازحًا:

- هل هذه (مقشة) حديدية؟

-شيء من هذا القبيل.

-ولكنها تبدو غريبةً.

ينظر إليه القاتل ساخرًا وهو يستند إليها قائلًا:

-أريد أن أسألك سؤالًا.

يجلس الشيخ على طرف فراشه يقول بهدوء:

- اسألني.

-لماذا قتلتم الحلاج؟

اهتز جسد الشيخ بالضحك وهو يرد:

-قتلنا الحلاج؟! كلامك يبدو غريبًا، ولكن ما الذي ذكرك به؟

هز القاتل رأسه وقد زالت الابتسامة عن وجهه، وظهرت مكانها الجدية وهو يسأل الشيخ عاقدًا حاجبيه:

– ألم يقل ابن تيمية: "مَنِ اعْتَقَدَ مَا يَعْتَقِدُهُ الْحَلاجُ مِنَ المَقَالاتِ الَّتِي قُتِلَ الحَلاجُ عَلَيْهَا فَهُوَ كَافِرٌ مُرْتَدٌّ بِاتِّفَاقِ الْمُسْلِمِينَ؛ فَإِنَّ الْمُسْلِمِينَ إنَّمَا قَتَلُوهُ عَلَى الحُلُولِ وَالاتِّحَادِ وَنَحْوِ ذَلِكَ مِنْ مَقَالاتِ أَهْلِ الزَّنْدَقَةِ وَالإِلْحَادِ".

– ما شاء الله عليك، أنا لا أحفظ نص الفتوى كما تحفظها، ولكني أذكر فحوى الفتوى وهي تقريبًا كذلك، ولكن لم تجبني ما الذي ذكرك بالحلاج تحديدًا.

– قبل أن أجيبك عن هذا السؤال، هل تتفق مع هذه الفتوى؟

– طبعًا؛ أي شخص يقول بالحلول والاتحاد مع الذات الإلهية كافر مرتد.

– نسيت؛ إنه ملحد!

لم يطمئن الشيخ لنبرة الآخر الساخرة، والتي تنضوي على جانب آخر مخيف يتجلى واضحًا في عيني الآخر، أعاد الشيخ النظر مرةً أخرى إلى الأداة التي يتكئ عليها وهو يرد ببطء:

– كما ذكرت نص الفتوى هو من أهل الزندقة والإلحاد.

اعتدل القاتل في وقفته وهو يقول بحزم تخالطه نبرة غضب:

– إذن؛ أنا زنديق ملحد!

– ماذا؟

رفع القاتل بيمناه الأداة ليقرأ ما هو منقوش في اللوحة المعدنية المتصلة بتلك العصا المعدنية.

تراجع الشيخ مصعوقًا وهو يقول بذهول:

– ما هذا العبث؟ أي شيطان أنت؟!

ضرب القاتل أرض الغرفة بهذا الجزء المعدني وهو يتجه للشيخ بسرعة يتهجم عليه والشيخ يرفع يديه يحاول أن يدفعه بعيدًا.

نظر فارس أسفله ليجد عدة شروخ بأرض الغرفة، غادر المكان والمقدم يتبعه كطفل صغير، سأل فارس:

– هل هناك مدخل آخر غير الذي دخلت منه؟

– هناك عدة مداخل ولكنها كلها موصدة بإحكام وتحققنا من أنه لم يتم كسرها حتى يدخل القاتل إلى المكان في غفلة من ذلك الشيخ، حتى الباب الرئيسي لم نجد به أي كسر أو محاولة لفتحه عنوةً.

أدار فارس رأسه للمقدم قائلًا:

– مما يعني أن الشيخ يعرف هذا الشخص، أو أن هذا الشخص أحد العاملين في المكان.

أومأ المقدم برأسه موافقًا وهو يضيف:

- ليس أحد العاملين في المسجد لأنه تم استدعاؤهم وكلهم لديهم حجة غياب فلم يتبق لنا سوى أن نفكر في أنه شخص ما يعرفه هذا الشيخ وحاليًا جاري حصر كل من يعرفهم الشيخ هنا في القاهرة.

- ربما هو شخص ما من خارج القاهرة.

- فلنبحث في الدائرة الأضيق الآن حتى لا يطول البحث، وقمنا برفع بصمات الدخيل، والذي لم يعبأ لإزالة بصماته أو الاحتياط من الأمر، وتم إرسالها لمديرية أمن القاهرة لمطابقتها بسجل المسجلين خطر لديها وننتظر الرد.

قال فارس في إحباط:

- أنا على ثقة كبيرة أنه ليس لديه سجل إجرامي أو حتى عليه أحكام سابقة، هو شخص نظيف تمامًا.

- هل تطابق هذه الجريمة إلى حد كبير ما شهدته في الإسكندرية؟

- إلى حد بعيد؛ نعم.

- اللعنة! إذن؛ ذلك الكابوس انتقل من الإسكندرية إلى القاهرة.

- أخشى أنه كذلك.

- وهل هذا الحلاج شيعي؟

عض فارس على شفته السفلى بحسرة وهو يتذكر الدكتور معاذ، فهو في أشد الحاجة إليه الآن، ولكن لم يعد ذلك للأسف ممكنًا.

رد عليه فارس يهز رأسه نفيًا:

–ليس شيعيًّا ولكنه صوفي من أصل فارسي.

–لم أفهم شيئًا.

أخرج فارس هاتفه الجوال يكتب في خانة البحث اسم الحلاج حتى توالت أمامه نتائج البحث، فاختار إحداها يقرأ فيها، فقطع عليه المقدم أفكاره قائلًا بنفاد صبر:

–ما الأمر؟

نظر إليه فارس مغتاظًا، يرد عليه:

–امنحني بعض الوقت.

ابتعد عنه خطوات لينصرف عنه المقدم إلى جماعة من رجاله يقف بينهم، في حين أعاد فارس النظر مرةً أخرى فيما يقرأ، ثم عاد فارس إلى غرفة الإمام، فلفت ذلك نظر المقدم الذي تبعه بخطوات سريعة متسائلًا في لهفة:

–ما الأمر؟

–سأجيبك، ولكن امنحني دقيقةً واحدةً.

هز الرجل رأسه في ضيق يراقب عيني فارس التي تتفحصان الغرفة مرةً أخرى، اقترب فارس من جثة الرجل يقلب فيه لبعض الوقت ثم كشف عن كتفيه وعليهما آثار حبل.

رفع فارس عينيه إلى سقف الغرفة فتحول عنه إلى حوائط المكان فلم يجد شيئًا، اتجه إلى ما وراء باب الغرفة فوجد بقايا حبل ممزق، تدخل المقدم قائلًا:

-لقد لاحظنا هذا الحبل من قبل، ولكن لم نفهم سر وجوده.

أشار فارس إلى كتفي الرجل بدون أن ينطق، حالته المزاجية الآن لا تحتمل المزيد من البلاهة، فيكفيه كل ما مر به مسبقًا.

يتخيل الحلاج المصلوب على الجسر حيًّا والمنادي يقف قريبًا من مكان صلب الحلاج يخبر المارين على الجسر بما ذكر عنه من أقوال وشطحات، وعندما تقترب الشمس من مغيبها يقوم اثنان من العسكر بإنزال الحلاج المغشى عليه من على الصليب يجرانه من ذراعيه على الأرض الحجرية حتى السجن.

-لقد قام بواسطة هذه الحبال بصلب الشيخ لعدة ساعات ويبدو أنه أحكم وثاقه إلى الحد الذي ترك أثرًا غائرًا في لحم الشيخ.

-حقًّا؟!

تجاهل فارس رد فعل المقدم الساذج، ولكن عاجله المقدم قائلًا في انبهار:

- تمامًا كما أخبر عنك العقيد.

تجاوز فارس إطراء الرجل وهو يشعر بانهيار داخلي يغزو جسده وعلى وشك أن يحكم سيطرته على كل كيانه، وتمنى في هذه اللحظة بالذات أن يسقط في غيبوبة لا يستفيق منها إلا بعد عدة أيام.

القاتل يجذب جسد الشيخ المصلوب بواسطة تلك الحبال الغليظة إلى باب غرفته والشيخ يصرخ بألم، والقاتل يصرخ فيه:

- هل تتألم؟

الشيخ يبكي وهو يقول:

- أرجوك توقف، أنا لم أفعل شيئًا.

- ألم توافق ذلك الإرهابي ابن تيمية على فتوى تكفيره للحلاج، ألم تجتمع عمائم مثلك لقتله.

- أنت مجنون، أقسم بالله أنك لمجنون.

يوجه القاتل لكمةً قويةً لمعدة الشيخ الذي يطلق صرخةً مكتومةً ووجهه يحتقن بشدة، يبتعد عنه القاتل وهو يلهث من فرط الانفعال، يجلس على طرف فراش الشيخ يلتقط أنفاسه.

– حان الوقت لتدفعوا ثمن أفعالكم، ولا يمكن أن تمر فتواكم الحقيرة بدون عقاب، تلك جرائم لا تسقط بالتقادم يا فضيلة الشيخ الجليل.

– أقسم بالله أنك لمجنون.

نهض القاتل متجهًا للشيخ مرةً أخرى وهو يجذب الشيخ بعنف والآخر يصرخ من فرط الألم.

– هل تعرف كيف كانوا يقوموا بإنزاله يوميًّا من على الصليب الذي يصلبونه عليه حيًّا، كل يوم كان يصلب حيًّا ثم يتم إنزاله بمنتهى القسوة والعنف ليأتوا به اليوم التالي ليفعلوا المثل.

يجذب ذراع الشيخ اليمنى بقسوة حتى أن صوت طقطة العظام تُسْمَع جليةً، يختلط بكل هذا الصخب صراخ الشيخ وبكاءه، يتمزق الحبل الموثوق حول كتف الشيخ اليمنى ومعصمه.

فارس يميل نحو الجثة يمسك بيد الشيخ ويقوم بحسر كم العباءة عن معصمه، تتسع عين المقدم دهشةً وهو يرى جلد معصم القتيل وقد تمزق، ينهض فارس قائلًا:

– التطابق بين هذه الجريمة ومثيلاتها بالإسكندرية كبير جدًّا.

– إذن؛ أنا أمام فصل جديد من هذه الجرائم!

-ليس كذلك فحسب؛ ربما تتكرر في محافظات أخرى بعد أن يتم القاتل قتل اثني عشرة ضحيةً.

-ولماذا اثنا عشرة ضحيةً؟

- هذه قصة طويلة...

بدا أن المقدم ينتظر سماع تلك القصة الطويلة من فارس، فرد فارس:

-أرجوك ليس الآن، أنا أريد أن أنزل بأي مكان لأريح جسدي قليلًا، فأنا أشعر بحالة تعب شديدة.

هز المقدم رأسه متفهمًا وقاد فارس خارج الغرفة قائلًا بجدية:

-ولكن أنت معنا في هذه القضية، فنحن بحاجة إلى خبرتك.

ضحك فارس في سخرية قائلًا:

-خبرتي؟!

-نعم؛ نريد أن نستفيد من خبرتك لما مررت به من تجربة مماثلة في الإسكندرية.

-لا تقلق سأكون معكم في كل ما سيحدث.

-لا نريد أن نفشل كما حدث في الإسكندرية، ونريد أن نوقفه في القاهرة.

–صدقني لو أن هذه الجريمة هي امتداد لما حدث في الإسكندرية إيقافك لهذا القاتل لن يوقف من وراءه على أن يتموا هذا العدد في القاهرة، وإن فشلوا سيكررونها في محافظات أخرى.

–ليس من شأني ماذا سيحدث في المحافظات الأخرى، المهم عندي القاهرة فقط.

–لن تتغيروا!

–أتعرف؟!

لم يرد عليه فارس وانتظر منه الإضافة فقال الآخر:

–لقد أخبرني العقيد أنك كثير الانتقاد للشرطة المصرية، وهذا ليس بالأمر الجيد.

–إن أردتني أن أنسحب فلا مانع عندي.

–للأسف؛ أنا بحاجة إليك، عامةً سيتولى أمر مبيتك الليلة أمين شرطة في إحدى فنادق الشرطة.

–أشكرك جدًّا.

–سأنتظرك غدًا.

–لن يكون ممكنًا غدًا فيجب أن أذهب للاطمئنان على خطيبتي لأنها...

استوقفه المقدم قائلًا:

– لا بأس فأنا أعرف الأمر، ولكن سأنتظرك بالتأكيد بعد غد.

– لا بأس سأكون موجودًا.

ابتسم له المقدم، ثم التفت إلى أمين شرطي يناديه ويوجه له بعض الأوامر، ثم أدار رأسه لفارس قائلًا:

– يمكنك أن تذهب مع أمين الشرطة الآن.

– شكرًا لك.

هز المقدم رأسه وتركه متجهًا إلى الغرفة بصحبة رجلين آخرين.

*** * ***

(١١)

سار فارس خلف فرد الأمن الذي يقوده إلى إحدى غرف فندق الشرطة. شكره فارس وهو يغلق الباب ملقيًا بحقيبته الصغيرة على الفراش...

ألقى بجسده على الفراش وهو يشعر بآلام تغزو كل جزء في جسده، لقد كان يومًا حافلًا بين رحلة السفر حتى وصوله إلى مكان الجريمة، وازدحام شوارع القاهرة وتكدسها عن آخرها حتى وصل إلى

المسجد؛ الذي قُتِل فيه ذلك الشيخ، وطريقة القتل البشعة التي تشبه إلى حد كبير أسلوب السفاح في قتل ضحاياه...

المختلف في هذا الأمر أن القاتل هذه المرة لم يترك للضحية أي فرصة للنجاة المستحيلة، ولكنه قام بقتلها مباشرةً... هل يمكن أن تكون هناك خلية شيعية أخرى غير التي تم القبض عليها في الإسكندرية؟

هل بالفعل هناك سفاح في كل محافظة مصرية يؤدي دوره فور أن ينتهي السابق من عمله، ويشرع اللاحق في أداء وظيفته؟ هل فرضية أن هناك خليةً شيعيةً في كل محافظة رسم لها دورًا محددًا أمر حقيقي؟

هل كما قال العقيد أن للدكتور أيدٍ خفية ما زال يحركها أو أعطى إليها مسبقًا الأوامر لتتحرك وتمارس نفس هذه الدورة الكابوسية من جرائم القتل؟ هل من الممكن أن يكون الدكتور على هذه الدرجة المفزعة من الشر؟

ألم يخبره سابقًا بأن الهدف مما فعل هو إيصال رسالته للجميع كما زعم وأنها محاولة لإيقاظ الوعي الجمعي لدى الناس عن طريق إحداث صدمة كهذه؟

هل كان يكذب، وما زالت فصول هذه القضية المرعبة لم تنتهِ بعد؟ هل هي مساومة منه للخروج من السجن؟

ضرب فارس جبهته بيده اليمنى كأنه يعنف عقله على ذلك الضجيج الفكري الذي تدوخه رحاه، ويحاول أن يوقف استرسال الأفكار والأسئلة التي يعجز عن أن يجد لها إجابات شافية منطقية ونهائية. يحنقه أن هذا الكابوس لم ينته بعد، والواضح أن القادم أسوأ...

إن لم تكن هذه الجريمة متصلة بما سبق فما هو تفسير وجود اسم الحلاج موسومًا على صدر القتيل؟

يبدو أن فصول هذا القصة لم تنته بالفعل، والأسوأ فيها أنه سيتحرك في فصولها القادمة كالأعمى بلا مرشد، عليه أن يسعى للحصول على إجابات لأشياء أشد جنونًا وغرابةً. حتى أنه من سوء طالعه أنه لم يعد ممكنًا أن يعتمد على ريم بعد الذي أصابها.

نهض من على الفراش بصعوبة وكأنه ينتزع نفسه انتزاعًا، وبدا الأمر أن هناك أيدٍ خفية تطبق على أطرافه الأربعة، وتقيده عن الحركة...

اتجه إلى حقيبته يخرج منها بعض الملابس ومنشفته، ودلف إلى حمام صغير ملحق بالغرفة، لربما حمام دافئ يساعد جسده على الاسترخاء والتخلص من آثار اليوم، ويوقف عقله الذي يتآمر عليه ولا يرضى بأن يهدأ ولو لسويعات قليلة.

عندما استقبل وجهه أول دفعة من المياه شعر بالانتعاش يدب في جسده، وعقله يتباطأ في جريانه حتى هدأ تمامًا ككلب مطيع؛ يستسلم لحالة مميزة من النوم، وينتقل جسده من حالة الانتعاش إلى حالة استرخاء تام... يبتسم في سعادة، ويتخشب للحظة وقد خُيِّل إليه أنه يسمع رنين هاتفه الجوال، فأصغى السمع هنيهةً، ثم قرر بشكل حازم أن يتجاهل هذا الصوت ويستمتع بهذا الحمام الدافئ.

خرج وقد تأزر بمنشفته الطويلة يخلخل خصلات شعره بأصابع يده متجهًا إلى هاتفه الجوال ليطالع الرقم المتصل؛ ليجده رقم غريب، فتردد بين معاودة الاتصال به أو تجاهل الأمر، ولم يدم تردده كثيرًا لأن الهاتف الجوال توهجت شاشته بصاحب هذا الرقم الغريب، فأجاب الاتصال قائلًا:

– ألو، من المتحدث؟

– السلام عليكم يا أستاذ فارس.

حاول أن يسترجع من ذاكرته الصوتية أي صوت يطابق هذا الصوت الرخيم الوقور الذي يسمعه فلم يجد، فأجاب ببطء وقد دخل عقله في مرحلة الخمول:

– وعليكم السلام، من معي لو سمحت؟

– أنا الشيخ سمير العادلي.

مرةً أخرى فارس يحاول أن يستدعي من ذاكرته أي اسم يطابق هذا الاسم، أو أين سمع هذا الاسم من قبل، ولكنه لم يتوصل إلى شيء وهو يجيب ببطء:

– أهلًا وسهلًا، كيف حصلت على رقمي؟

– سأشرح لك كل شيء بالتفصيل يا أستاذ فارس، ولكن هل من الممكن أن ألتقي بك؟ الأمر هام للغاية.

نظر فارس إلى ساعة الهاتف الجوال، وتردد بين أن يخبره باستعداده للقائه اليوم أو غدًا. لم يستغرق وقتًا طويلًا ليحسم أمره وأجاب بحزم:

– من الممكن أن نلتقي غدًا.

لم يرد عليه الطرف الآخر مباشرةً، بدا محبطًا من رد فارس حتى قال:

– لا بأس بذلك، أين تحب أن نلتقي؟

حار فارس قليلًا ثم قال بعفوية:

– عند مسجد الفتح في حدود الساعة السادسة والنصف مساءً.

– جيد جدًّا، سأكون هناك في ذلك الموعد.

– كيف سأتعرف عليك؟

- لا تقلق يا أستاذ فارس فأنا أعرفك جيدًا.

لم ترق لفارس عبارة الرجل الأخيرة، ولكنه الفضول دائمًا هو محركه يجعله يتجاهل كل إشارات الخطر التي تسطع أمامه، فضوله يزيح كل هذه الإشارات جانبًا ويدفعه دفعًا لقبول هذه المخاطرة.

- أرجو أن يكون الأمر على هذه الدرجة من الأهمية بالفعل.

- صدقني يا أستاذ فارس الأمر خطير بالفعل.

هز فارس رأسه وهو ينهي الاتصال بالرجل، وجلس على حافة الفراش ويده تمسح شاشة الهاتف الجوال حتى توقف عند صورة ريم ووجهها تضيئه ابتسامة مشرقة في حفل خطوبتهما... عكرت صفو الصورة صورة الدكتور معاذ التي توهجت أمامه فجأةً على يمين الصورة.

ألقى الهاتف إلى جواره وهو يحاول أن يسرب مع نفخة مطولة كل شيء... إرهاقَه الجسدي... آلامًا أصبحت ترافقه بشكل مستمر... عاطفةً متأججةً... عقلًا مرهقًا بعشرات الأفكار والذكريات والأسئلة التي لا تنتهي... كابوسَ تلك الخلية الشيعية، وهل هناك فصول أخرى بالفعل؟

ودون مقدمات: حالة إظلام تام... يمكنه أن ينعم الآن ببعض من سويعات الراحة التي افتقدها لفترة طويلة... طويلة جدًّا.

* * *

(١٢)

وقف فارس على رصيف مسجد الفتح ينظر إلى ساعته بتوتر، ثم يجيل بنظره في المارين والعربات التي تمر من أمامه حتى لفت نظره توقف سيارة سوداء إلى جواره والزجاج الكهربائي للسيارة يكشف عن وجه رجل في عقده الخامس من العمر، يرتدي عمامةً أزهريةً وله لحية خفيفة بيضاء اللون، نحيف القوام...

ابتسم الرجل لفارس ولوح له بيده اليمنى، فاقترب من السيارة، وابتعد هو عن النافذة وهو يفتح باب السيارة الخلفي، لينظر فارس بتردد إلى باب السيارة وصوت الرجل يدعوه للركوب... حسم فارس أمره، وركب إلى جوار الرجل مغلقًا الباب، وذلك الرجل الخمسيني يوجه كلامه للسائق قائلًا:

- انطلق يا محمد.

تحركت السيارة وفارس يتفرس في ملامح ذلك الرجل الهادئة المستكينة الذي قال بصوت هادئ وقور:

- كيف حالك يا أستاذ فارس؟

- بخير الحمد لله.

ابتسم الرجل ابتسامةً رسميةً وهو يسأله:

– هل تناولت غداءك؟

–شكرًا لك، لقد حجزت قطار العودة إلى الإسكندرية على الساعة الثامنة ويجب أن ألحق بالقطار.

هز الرجل رأسه قائلًا:

–اطمئن؛ سنأخذ جولةً بالسيارة، وسأعيدك قبل موعد انطلاق القطار بنصف ساعة.

هز فارس رأسه ممتنًا والرجل يقول:

–إذن؛ أمامنا الآن حوالي ساعة لأخبرك بسبب هذا اللقاء.

–أتمنى ذلك.

–الشيخ محمود كان أحد تلامذتي النجباء رحمة الله عليه.

لم يعلق فارس، وظل مشغولًا بمحاولة استقراء لغة جسد الرجل وملامحه التي تتشكل وفق لحديثه، ولكن بدا الرجل كأنه يلبس قناعًا يمنع محاولات فارس من استقرائه؛ فجنح إلى الإنصات إليه والآخر يقول:

–لقد كان ذا علم وثقافة وخلق...

قاطعه فارس قائلًا بصوت هادئ ينطوي على بعض الحدة:

– الرجاء قصد الموضوع مباشرةً فكما قلت أمامنا نحو الساعة فقط.

هز الرجل رأسه وهو يبتلع ريقه وقد صعد إلى ملامحه بعض التوتر قبل أن يقول:

– كما عرفت من الشرطة أنه مات بين الساعة الثانية بعد منتصف الليل والثالثة.

اكتفى فارس بهز رأسه والآخر يضيف:

– الغريب أنه قبيل مقتله بربع ساعة وصلني من رقم مجهول رسالة على الواتس آب.

بتر حديثه وهو يخرج هاتفه الجوال من جيب سترته الأيسر وأصابعه بعصبيه تمسح الشاشة لعدة ثوان، ثم ناول الهاتف الجوال لفارس مضيفًا:

– هذه الرسالة اقرأها.

"الشيخ محمود بحاجة إلى مساعدتك الآن بمسجد النور"

انتظر الرجل الخمسيني لثانيتين حتى يفرغ فارس من قراءة الرسالة، فلما انتهى فارس نظر إليه وأعاد له الهاتف الجوال متسائلًا:

– هل ينتهي اسم الشيخ محمود بلقب عائلة مثل عائلة الصفار أو آل حرب أو المعاوي؟

هز الرجل رأسه نفيًا مقاطعًا استرسال فارس ثم قال:

- أفهم تمامًا ما ترمي إليه، فلقد اطلعت على قضية التنظيم الشيعي الذي اكْتُشِف بالإسكندرية، ولقد انصرف تفكيري إلى ما ذهبت إليه، ولكني بالاطلاع على اسم محمود كاملًا عرفت أن لقب العائلة عنده ينتهي بالزيني، وهي ليست من العائلات التي ينتهي نسبها لمعاوية بن أبي سفيان، إذا كان هذا ما تقصده.

- يبدو أنك على اطلاع جيد بالموضوع.

ابتسم الرجل وهو يعقب:

- أنا أقرأ كثيرًا فضلًا عن أني أزهري وما ترمي إليه يقع في دائرة دراستي أيضًا.

- حسنًا، إذن؛ الأمر ليس له أي علاقة بالشيعة.

- كان هذا ظني أيضًا حتى تيقنت بالفعل أن مقتل الشيخ رحمه الله ليس له علاقة بهذا.

- إذن؛ من هم المتورطون في هذه القضية، هل تعرفهم؟

- تقريبًا.

- هل أخبرت الشرطة بظنونك؟

صمت الرجل وقد ارتبكت ملامحه مما جعل فارس متحفزًا ويعتدل في جلسته ليواجهه محاولًا اختراق ملامح الرجل المرتبكة والتي أيضًا لم تعطه القراءة التي يبحث عنها. رد الرجل متلعثمًا:

-الحقيقة لم أفعل لأن الأمر خطير.

سأل فارس ببطء وتحفز:

-كيف ذلك؟

رفع الرجل سبابته اليمنى قائلًا:

-لحظة.

تناول من جيب سترته اليمنى ورقةً مطويةً فضها، وتردد لأقل من ثانية أن يريها لفارس، ثم حسم أمره وناوله إياها، فتناولها فارس منه، ولم ينظر إليها بل ظل يحاول استنطاق ملامح الرجل ولما يئس من ذلك نظر للورقة ليلتقي حاجباه في استغراب، فكان أمامه شعار على شكل الحرف الإنجليزي A في قلب دائرة.

- هل تعرف هذا الشعار يا أستاذ فارس؟

هز فارس رأسه نفيًا وهو يتأمل الشعار فرد الرجل:

-لقد بحثت عنه من خلال جوجل وتبين لي أنه شعار الملحدين المصريين.

–الملحدون الـ... ماذا؟

كانت ملامح فارس غارقةً في الدهشة والاستنكار والرجل يضيف:

–لقد كان هذا هو شعوري أيضًا عندما ظهرت لي نتائج البحث وبالاستمرار في البحث هالَني أن أعرف بأن في مصر وحدها ٨٨٦ ملحدًا وفق تقرير مركز "ريد سي" التابع لمعهد "جلوبال"...

وأوضح التقرير أن مصر تتصدر الدول العربية في عدد الملحدين، وفي تصوري أن العدد أكبر من ذلك بكثير، فيمكنك أن تلقي نظرةً على مدوناتهم المنتشرة على الإنترنت أو الجروبات التي ينشئونها على الفيس لتعرف أن العدد أكبر من ذلك بكثير.

ساد الصمت لثوان يسترجع فيها فارس ما قاله الرجل ثم سأله مرتابًا:

–أين وجدت هذه الورقة؟

قبل أن يهم الرجل بالإجابة والذي غرقت ملامحه في ارتباك أكثر استطرد فارس قائلًا:

–في مسرح الجريمة، بالطبع ولم تبلغ الشرطة عن هذه الورقة أيضًا!

لم يرد الرجل على الفور، بدا كطفلٍ مذنب يحاول الإفلات من العقاب، ولكنه يجد نفسه محاصرًا فيرد بصوت خفيض:

– نعم؛ لقد واريت هذه الورقة عن الشرطة.

– هذا يعني أنك كنت في مسرح الجريمة، وأنك أنت من أبلغت الشرطة.

– نعم.

ران الصمت للحظات وقد توقفت السيارة في إحدى إشارات المرور ورجل رث الثياب يقترب من العربية، وفي يده قطعة قماش يهجم على زجاج السيارة الأمامي يمسحه والسائق يلوح بيده معترضًا، ولما لم يستجب له الرجل، أنزل الزجاج الكهربائي ليشتبك مع الرجل فمال الرجل الخمسيني نحو السائق قائلًا:

– أعطِه بعض النقود يا محمد حتى ينصرف ولا تشتبك معه.

ظهر الامتعاض على وجه السائق وهو يدب يده اليسرى في جيب بنطاله يخرج منها بضعة جنيهات يناولها للرجل الذي وقف ينتظر النقود؛ فتناولها من السائق وهو يلهث في الدعاء في الوقت الذي أغلق فيه السائق الزجاج الكهربائي الأمامي، وأدار الرجل وجهه لفارس الذي كان يتابعه متحفزًا وفي عيني الرجل الخمسيني نظرة خجولة.

- اعذرني، ولكن كيف لم ترتب فيك الشرطة؟

- ربما لا تعرفني جيدًا يا أستاذ فارس نظرًا لسفرك لسنوات بلندن، ولكني داعية إسلامي معروف في مصر، ولي برنامج شهير على إحدى القنوات الفضائية، وأنا محل ثقة عند الداخلية.

لم يرد عليه فارس مباشرةً، فهو الآن عاجز على أن يعطي حكمًا محددًا بشأن هذه الشخصية، هل يكذب؟ هل يخفي شيئًا آخر؟ هل هو صادق بالفعل؟ هل يتلاعب به؟ لماذا لا يبدو مريحًا؟

هل كل هذه الانطباعات التي تداهم رأس فارس ترجع لتأثير كل الحوادث التي مر بها سابقًا، وذهنه ليس صافيًا بعد لأن يستقبل جريمة قتل جديدة...

اعتاد على أن يضع كل ذلك جانبًا عندما يعجز عن إصدار حكم يطمئن له عقله خاصةً في ظل الضغط النفسي الشديد الذي يتعرض له.

- يبدو أنك تعرفني جيدًا يا أستاذ... عذرًا؛ ولكن ذكرني باسمك مرةً أخرى.

- سمير العادلي، ونعم أعرفك جيدًا من خلال المقدم رامز المحمدي فهو أيضًا صديق لي.

- آه، فهمت.

ران الصمت ثانيةً واحدةً وفارس يعيد تأمل الورقة، ثم يهزها في يده وهو يرفع عينيه مرةً أخرى إلى سمير متسائلًا:

– بما أن الشرطة تثق فيك، ما زلت لا أفهم لماذا أخفيت هذا الأمر عنهم؟

– اسمح لي.

مد سمير يده للورقة يقلبها بين يدي فارس قائلًا:

– من أجل هذه الرموز.

انعقد حاجبا فارس مرةً أخرى وهو يتطلع إلى تلك الرموز يحاول أن يكون منها شيئًا مفهومًا، ولكنه لم يستطع، وأعاد النظر إلى سمير الذي أضاف:

– لا أتصور أنهم سيكونون قادرين على فك هذه الرموز أو فهم الرسالة التي تتضمنها، وأعتقد أن قضية التنظيم الشيعي تتشابه مع هذه الجريمة من حيث الرموز والشفرات، وبالتالي ستكون أنت الأصلح لهذه المهمة.

هز كتفيه مستطردًا:

– لا أعتقد أن الشرطة ستلقي بالًا لهذه الرموز وستقوم بتحريز هذه الورقة ضمن أحراز أخرى، ولن يكلفوا أنفسهم عناء البحث عن

قاتل هذا الشيخ، وستدخل هذه الجريمة في سكة الإجراءات الروتينية وختم الأحراز ووضعها في الأرشيف وتقييد القضية ضد مجهول، فآثرت الاحتفاظ بها لأن الشيخ محمود رحمه الله – كما قلت– كان أحد تلامذتي النجباء، وأيضًا...

توقف لأقل من الثانية كأنه يبلع ريقه أو يمنع بكاءً كان على وشك الهروب من الأسر، وأكمل قائلًا بصوته الهادئ الوقور:

–وأحَبَّ التلاميذ إلى قلبي.

لم يعلق فارس بل نظر إلى يساره يتطلع إلى المباني التي تمر بسرعة، فاحترم سمير هذا الصمت، والذي قطعه السائق يسأل سمير:

– هل أعود يا مولانا إلى رمسيس مرةً أخرى؟

–كم الوقت الآن يا محمد؟

–إنها السابعة يا مولانا.

–نعم؛ فلنعد أدراجنا لرمسيس مرةً أخرى.

–حسنًا يا مولانا.

نظر فارس إليه مرةً أخرى يقول في تردد وهو يطوي الورقة ويضعها في جيبه:

–لا أعلم إذا كنت سأكون قادرًا على مساعدتك في هذا الأمر أم لا.

-خذ وقتك ولكن رجاءً أن تولي هذه الجريمة عنايةً خاصةً لأني أتصور أنها...

هز رأسه كأنه يصرف فكرةً كابوسيةً عن رأسه ثم قال:

-لأني أتصور أنها لن تكون الأخيرة، ولكنها الأولى في سلسلة جرائم قادمة... يبدو أن هؤلاء المجانين قرروا الانتقام من كل المشايخ، لا أعرف! ولكن ما أعرفه بالتأكيد أنهم يسعون للثأر من شيء لا أعرفه.

تنهد فارس قائلًا:

-يبدو أن الجنون أصبح سمةً عامةً لهذا العصر، ولن أشعر بأي غرابة فيما بعد عندما تزداد الأمور جنونًا، ويبدو أنني بدأت أعتاد ذلك.

-إنها فتنة يا أستاذ فارس، وأدعو الله أن يخرجنا منها سالمين، وأن يضرب الظالمين بالظالمين.

تأمل فارس عبارة الشيخ الأخيرة والسيارة تتوقف داخل محطة القطار برمسيس بعد أن تجاوز السائق البوابة، ثم مد يده ليفتح باب السيارة والآخر يقول:

-الحمد لله، لقد وصلت قبل موعدك حتى لا يفوتك قطار الثامنة.

فتح فارس باب السيارة وهم بأن يغادر السيارة، ولكنه عدل عن ذلك ملتفتًا إلى سمير قائلًا بنبرة مُستريبة:

- أنت تطلب من الله أن يضرب الظالمين بالظالمين.

الإستغراب الذي طفا على ملامح سمير بدا لفارس مضحكًا ولكن فارس تجاهل ذلك مضيفًا:

- يا تُرَى من هم الظالمون حقًّا، أنتم أم هم؟

ذهبت الدماء عن وجه الرجل، وبدا لفارس وجه الرجل مصفرًّا شاحبًا، فهز فارس رأسه وغادر السيارة، ولكن الرجل استوقفه قائلًا وقد عادت بعض الدماء إلى وجهه وابتسامة صغيرة ترتسم على شفتيه:

- إذن؛ فليكن هذا السؤال الذي طرحته دافعًا لأن تمضي في هذه القضية لتصل إلى إجابة هذا السؤال بنفسك، أليس كذلك؟

هز فارس رأسه، ثم رفع يده يحيي الرجل الذي بادله التحية قائلًا:

- مع السلامة يا أستاذ فارس.

استدار فارس متجهًا إلى داخل محطة القطار وهو يتأمل الزخرفة الإسلامية المبهرة لمبنى المحطة. توقف للحظات أمام إحدى أكشاك

الصحف؛ ليلفت نظره عنوان كبير الحجم أحمر اللون على صفحة رئيسية لجريدة أهلية.

"جريمة جديدة وحشية تهز مصر في مسجد النور بالعباسية"

*** * * * * * ***

أضغط على أيقونة موقع الجودريدز من أجل الولوج إلى صفحة الرواية وتقييم الرواية ووضع ريفيو عنها إذا شئت



مروان محمد

من الإسكندرية
تخرج في كلية الآداب قسم علم اجتماع في مايو 2002
مواليد مايو 1980
مؤسس دار حروف منثورة للنشر والتوزيع.
مؤسس جائزة منف للرواية العربية الإلكترونية .
مؤسس معرض الكتاب الإلكتروني.
له العديد من الإصدارات الإلكترونية.
رسام رسوم أطفال.

ذلك الثأر الذي يتجدد بعد عدة قرون من الزمان...
جرائم قتل تحدث على خلفيات تاريخية وعقائدية...
رسائل مشفرة يتركها القاتل في مسارح جرائمه...
اثنى عشر اسماً في قائمته...
ذلك التاريخ القديم جداً الذي يحييه القاتل مرة أخرى...
يعيد تمثيل أحداثه بدماء الضحايا...
لقد حان يوم الحساب...
سيقتص لدماء أريقت منذ قرون طويلة...
إنه ليس بالثأر العادي ولكنه الثأر المقدس!

«يحتاج القارئ أثناء القراءة وبعدها إلى البحث عن إجابات لكل الأسئلة التي تتشكل وهو يقرأ.
لقد كنت أوقف القراءة وأنطلق في صفحات محركات البحث؛ أبحث عن دلالات الأرقام والتواريخ والأحداث والأسماء والشخصيات المحركة للنص، والشخصيات الظل التي لم يتم الحديث عنها لكن الأسئلة تقودك إليها، وهذه النقطة مثيرة لرغبة التتبع والتوغل في الرواية.»

لخضر بن الزهرة ..كاتب وناقد جزائري